صلى الله عليه وسلم

الكامل الإنسان أسوة

ح. م. طارق

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب : 22)

أسوة الإنسان الكامل ﷺ

ح. م. طارق

ISLAM INTERNATIONAL PUBLICATIONS LTD

اسم الكتاب: أسوة الإنسان الكامل ﷺ
الطبعة الأولى: ١٤٤٥ هـ /٢٠٢٤م

Muhammad (peace be upon him) - The Perfect Man
An Arabic rendering of an Urdu book
Uswa-e- Insaan-e- Kaamil
by:
H. M. Tariq

Translated from English
by:
Dr.Wissam Alburaki, Dr.Ilham Alburaki,
Dr.Salam Alburaki, Dr. Mohamed Alburaki,
Mrs. Amanullah Alburaki

© Islam International Publications Ltd.

First Arabic translation published in the UK: 2024
Islam International Publications Ltd.
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Farnham, Surrey
GU9 9PS

For further information please contact:
Phone: +44 1252 891330
www.islamahmadiyya.net
www.alislam.org

ISBN: 978-1-84880-727-3

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب : ٥٧)

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى نَبِيِّكَ فِيْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَبَعْثٍ ثَانِ

أبيات مختارة من قصيدة لسيدنا المسيح الموعودعليه السلام في مدح سيده ومطاعه خاتم النبيين ﷺ

يــا عَـيْنَ فَـيضِ اللهِ والعرفــانِ ... يسْـعَى إليـكَ الخَلْـقُ كالظَّمـآنِ
يـا بَحـر فَضـلِ المُـنعِمِ المنّـانِ ... تهـوي إليـك الزُمَـرُ بـالكيزانِ
يا شمسَ مُلكِ الحُسنِ و الإحسانِ ... نَــوَّرتَ وجــهَ البَــرِّ والعُمــرانِ
يــا بــدرنا يــا آيــةَ الــرحمٰنِ ... أهـدى الهُـداةِ و أشجَعَ الشُـجعانِ
يــا لَلفتـى مـا حُسـنُه وجَمالُـهُ ... رَيـّاهُ يُصـبِي القَلـبَ كالرَّيحـانِ
وجـهُ المهـيمِنِ ظاهِـرٌ فـي وجهِـهِ ... وشُـئونُهُ لَمَعـتْ بـهذا الشـانِ
فلِـذا يُحَـبُّ ويَسـتَحِقُّ جمالُـهُ ... شَـغفاً بــه مــن زُمـرَةِ الأخـدانِ
فــاقَ الــورى بكمالــهِ و جَمالِـهِ ... و جلالِــهِ و جنانــهِ الريّــانِ
لا شَـكَّ أن مُحمـدًا خيـرُ الْوَرى ... رَيْـقُ الْكِـرامِ ونُخْبـةُ الأعيـانِ
تَمَّـتْ عليـهِ صِـفاتُ كُـلِّ مَزِيّـةٍ ... خُتِمـتْ بـه نَعْمـاءُ كُـلِّ زمـانِ
واللهِ إن مُحمــدًا كَــرَدافةٍ ... وبـهِ الْوُصـولُ بِسُـدّةِ السُّـلطانِ
هــو فَخـرُ كُـلِّ مُطهَّـرٍ ومُقـدَّسٍ ... وبــه يُبـاهي الْعَسـكرُ الرُّوحـانِي
للهِ دَرُّكَ يــا إمــامَ العــالَمِ ... أنـتَ السـبوقُ و سـيِّدُ الشُـجعانِ
أُنْظُــرْ إلــيّ برحمــةٍ وتحنُّــن ... يــا سـيِّدي أنـا أحقَـرُ الْغِلمـانِ
يـا حِـبِّ إنـك قـد دَخَلْـتَ مَحـبّةً ... فــي مُهْجَتــي ومَــدارِكي وجَنـاني
جسـمي يَطِيـرُ إليـكَ مِـن شوق عَـلا ... يــا ليــتَ كانــت قــوّة الطَيَـرَانِ

(مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 351-354)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

كانت البشرية منهمكة في البحث عن خالقها وربّها وإذا بصوت عذب يكسر صمت الصحراء العربية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: 32).

كان محمد المصطفى ﷺ، الطائعُ لأمر الله والداعي لرسالته الباعثة على الحياة، هو الأكثر حبًا والأكثر تخلقًا بصفات خالقه. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 22)

كان خُلق النبي ﷺ متصبغا بصبغة صفات الله، ولهذا السبب ذكر الله تعالى في حبّه ﷺ للبشرية صفتيه "الرؤوف والرحيم": ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

وبالمثل، وُصف النبي ﷺ بصفة الله "النور": ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: 16).

وهذا يدل على كمال فضله ﷺ وعظيم صِلته بالله ﷻ، ذلك لأن خلاصة تعاليم القرآن هي التصبغ بصبغة صفات الله، وهذه هي الأمانة التي رفضت حَمْلَها السماواتُ والأرض والجبال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 73). والإنسان الكامل ﷺ الوحيد الذي حملها هو نبينا محمد ﷺ، ولهذا سُمّي بالرسول الأمين: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: 22).

"كان ﷺ متحليا بكل كمالات النبوة حقًا. صفات الجمال والعظمة، فلا مثيل له من جميع النواحي."

"كل صفات الله جميلة ومحبوبة، وكان النبي الكريم ﷺ التجسيد الأمثل لتلك الصفات الربانية. كان خُلقه في غاية الجمال والطهر والنور. وقد قال عن نفسه: "بُعثتُ لِأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق"، ومكارم الأخلاق هي بعبارة أخرى توظيف القدرات الطبعية في مكانها المناسب. ولا شك أن هدف دعوته كان إتمام مكارم الأخلاق فهو الذي رقي بخُلقه إلى أسمى المستويات.

وهو الذي توازنت فيه القدرات الطبعية توازنًا تامًا، وشهد له القرآن الكريم بالقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 5)، وكان ذلك نبوءة رائعة تحققت وما تزال تتحقق؛ فإلى اليوم، يَعتبر الجميع أن إدراج اسم المرء في قائمة من كتبوا عن خُلق النبي محمد ﷺ شرف كبير له.

"كل من يرغب أن يمدح هذا الشخص، فإن المديح بحد ذاته مصدر فخر لكل مادح".

لقد ألقتْ الكتب الكثيرة التي كُتبت عن النبي ﷺ الضوء على حياته بالتواريخ والأحداث. بينما قلَّ الاهتمام بكونه نموذجًا مثاليًا للقيم الأخلاقية، مع أنه الجانب الأكثر أهمية من حياته. قال النبي ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا"، (الترمذي،كتاب الرضاع باب ماجاء في حق المرأة علي زوجها) وكثيرًا ما كان يدعو قائلا: "اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت". (مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل)

فمن هذا المنطلق، رأينا أن نكتب عن نموذج هذا الإنسان الكامل ﷺ، وتحقق ذلك بفضل الله بعد سنوات من الجهد والعمل الجاد.

من الكتب الأردية التي عنيت بأخلاق النبي ﷺ، كتاب العلامة شبلي نعماني، وهو كتاب ذو أهمية ومصداقية عالية، وردت في مجلده الثاني معلومات قيمة عن السلوك الأخلاقي للنبي ﷺ، لكنها غير كافية لتلبية الحاجة العارمة. وكتب علماء آخرون عن النموذج الجميل للنبي ﷺ، لكن كتبهم تفتقر إلى المادة والمصادر الموثوقة. ففي ضوء شح الكتب الحالية من هذا المنطلق، يقدم كتاب "أسوة الإنسان الكامل ﷺ" ترتيبًا زمنيًا للأحداث وجوانب مختلفة من شخصيته الساحرة ﷺ.

جزى الله خيرًا الأستاذ المرحوم نسيم مهدي (أمير الجماعة بكندا سابقًا) على اقتراحه الذي على ضوئه أوصاني سيدنا الخليفةُ الرابع حضرة ميرزا طاهر أحمد رحمه الله بكتابة تفصيل أكبر لمقال حضرة مير محمد إسحاق رضي الله عنه بعنوان "الإنسان الكامل ﷺ".

كنت لمدة طويلة أتوق إلى أن أكتب عن خُلق النبي ﷺ، وذلك منذ أن قرأت مقال المسيح الموعود عليه السلام الشامل الذي قدّم فيه قائمة بصفات النبي ﷺ الأخلاقية التي كانت انعكاسًا لصفة الله "النور"، الذي دعا المتعلمين للبحث والكتابة عن الموضوع. فقد كتب في تفسيره لـ "نور على نور":

"والأخلاق الفاضلة التي هي حقيقة الإنسانية كلها، هي صفات باطنية توجد في الإنسان، مثل: العقلانية، وسرعة الفهم، صفاء الذهن، وحسن الحفظ، وحدّة الذاكرة، والعفة، والحياء، والصبر، والقناعة، والزهد، والورع، والشجاعة، والثبات، والعدل، والأمانة، وصدق المقال، والسخاء في محله، والإيثار في محله، والمروءة في محلها، والشجاعة في محلها، وعلو الهمة في محلها، والحلم في محله، والتحمل في محله، والحَميّة في محلها، والتواضع في محله، والأدب في محله، والشفقة في محلها، والرأفة في محلها، والرحمة في محلها، وخشية الله، وحب الله، والأنس بالله، والانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وغيرها.

والزيت نقي ولطيف لدرجة يكاد يشتعل ولو لم تمسسه نار، أي أن عقل هذا النبي البريء وجميع أخلاقه الفاضلة معتدلة ودقيقة ونورانية إذ كانت جاهزة لتضيء تلقائيًا حتى قبل نزول الوحي ﴿نُوْرٌ عَلَىٰ نُوْرٍ﴾. أي لما كانت الأنوار الكثيرة مجتمعة في شخص سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ المبارك، فقد أُنزل عليها نور سماوي آخر وهو الوحي الإلهي، وبنزول ذلك النور صار الوجود الكريم لخاتم الأنبياء مجموعة أنوار. وفي ذلك إشارة إلى أن فلسفة نزول الوحي هي أنه لا ينزل إلا على نور". (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية، الجزء الأول، ص 238)

لقد سعيتُ لأن أضع المواضيع المذكورة آنفًا وكذلك العناوين التي ذكرها الصحابي سيد مير محمد إسحاق رضي الله عنه في مقاله "الإنسان الكامل ﷺ" نصب عيني وأن أجعل هذه المادة كلها في كتابي هذا. ثم إن ميرزا بشير أحمد المحترم أضاف في نهاية كتابه "سيرة خاتم النبيين ﷺ" قائمة اقتراحات لعناوين منشورات مستقبلية، ومنها "فضائل النبي" و"أنجحُ الأنبياء"، فآمل أن يحقق هذا الكتاب –وخاصة الفصل الأول والأخير منه– أمنيته القديمة هذه.

إن إعداد كتاب عن شخصية رسول الله ﷺ مهمة صعبة وشاقة وتتطلب قدرًا كبيرًا من الجهد والعمل الجاد، لذا كان لا بد من إنجازه على مراحل، وذلك من خلال دراسة كتب الحديث وحياة النبي ﷺ لجمع محتوى العناوين المذكورة، بعد ذلك كتبت سلسلة من المقالات حول خُلق النبي ﷺ ونُشرت في مختلف المجلات والصحف. الحمد لله، كوَّن مجموع هذه المقالات المنشورة وغير المنشورة كتاب "الإنسان الكامل ﷺ" وبذلك تحققت رغبتي القديمة في الكتابة عن حياة سيدي ومعلمي، النبي ﷺ.

هذا الكتاب، يقدِّم سردُ جوانب شخصية النبي ﷺ الجميلة جدًا خيرَ دعوة للمؤمنين إلى اتباع أحسن السلوك.

الميزة الثانية لهذا الكتاب هي الدقة؛ إذ تضافرت الجهود حتى لا يهمل أي من الجوانب المهمة في الكتاب. وبذلك أضَفْت مادة الفصول المندرجة تحت سبعة وأربعين عنوانًا مختلفًا جمالًا على الكتاب. تقدم هذه الفصول دليلًا واقعيًا على أن النبي ﷺ كان قدوة للجميع، الفقراء والأغنياء والحكام والمحكومين والمتزوجين والعزاب، وكان أيضًا الرجل الكامل كأب وزوج وصديق وجندي وقائد.

الميزة الثالثة للكتاب هي إيلاء عناية شديدة لتوثيق المراجع. أما فيما يتعلق بالآيات القرآنية فقد عُدَّت البسملة الآية الأولى من آيات السور.

وحرصنا على إرفاق المرجع لكل قصة مروية، ولراحة القارئ، أوردنا في النص اقتباسًا من المرجع ورقمًا يستطيع القارئ من خلاله الاطلاع على تفاصيل المرجع في نهاية الفصل، إلا عند ذكر بعض الأحداث التي تكرر ذكرها.

وسيجد المهتمون بالبحث قائمة مفصلة بالمراجع مرفقة في نهاية كل فصل.

لا شك أن العديد من المؤلفات كُتبت عن حياة رسول الله ﷺ، وشملت سيرة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته، ومن أشهر هذه الكتب وأكثرها تميزا ومصداقية، سيرة ابن هشام. أما المؤلفات الأخرى فهي شمائل الترمذي، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، والسيرة الحلبية لابن برهان الدين، ودلائل النبوة للبيهقي، وزاد المعاد لابن القيم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى لأبي الفضل عياض، والوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي.

إن الله تبارك وتعالى قد أمرنا في القرآن الكريم أن نتبع رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 32).

وكذلك أن نجعل من حياته نبراسا لنا يضيء دربنا وأن نتأسى به ونخطو على خطاه:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب: 22).

والمؤلفات التي صُنفت لتبرز هذه الجوانب من حياة رسول الله ﷺ على الخصوص قليلة، من بينها كتاب الشفا للقاضي عياض، الذي على مكانته لم يُبرز كافة الجوانب من حياة رسول الله ﷺ ولم يورد المرجعية لكافة الأقوال والأحداث التي وردت فيه. فأردنا بمؤلفنا هذا –أسوة الإنسان الكامل ﷺ–أن نتدارك ذلك وبالله التوفيق.

نُشِرت الطبعة الأولى من كتاب "أسوة الإنسان الكامل محمد ﷺ" باللغة الأردية في عام ٢٠٠٣ من باكستان، ثم تُرجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية من قبل السيدة بشرى عشرت شيخ لتُنشر الطبعة الأولى منه في عام ٢٠١٨ من الهند.

ونضع الآن، بفضل الله تعالى، أمام القارئ الكريم الترجمة العربية لهذا الكتاب، وقد قام بها أفراد أسرة الدكتور علي البراقي السورية الأصل، وكان نصيب الأسد فيها للدكتور وسام البراقي وأخته الدكتورة إلهام البراقي. وممن أسهم أيضا في الترجمة من أفراد هذه الأسرة الكريمة: الدكتورة سلام البراقي والدكتور محمد البراقي والأخت أمان الله البراقي. جزاهم الله خير الجزاء على هذا العمل وتقبله منهم وجعله في ميزان حسناتهم وسببا لنيل شفاعة رسول الله ﷺ، آمين.

كما لا بد وأن أشكر وأدعو من الصميم أيضا السادة الأفاضل الدكتور علي البراقي، الأستاذ محمد الحاج عبد الله، الدكتور محمد حاتم حلمي الشافعي، الدكتور أيمن عودة، الأستاذ أسامة عبد العظيم، المهندس خالد عزام، السيد عنان مسعود عودة والداعية عبد المؤمن طاهر، على مساهمتهم القيمة في إخراج هذا الكتاب على مراحله المختلفة مِن تخريج مَراجعه وتوثيقها ومُراجعته وتدقيقه وتنسيقه وغير ذلك. جزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء، آمين.

وجزى الله الدكتورَ محمد مسلم الدروبي المحترم خير الجزاء حيث تحمل نفقات طبع هذا الكتاب.

اللهم اجعل هذا الكتاب مصدر هداية للعالم فيتأسّى بالنبي العظيم ﷺ بحب صادق، واجعله ذخرا لنا في الآخرة وسببًا في نيل شفاعة النبي ﷺ، آمين.

ولَئن كُتب لهذا العمل القبول فيا له مِن شرف لي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ح. م. طارق

السبت ١١ شوال ١٤٤٥هـ

٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٢٤م

الفهرس

المقدمة	أ
الفهرس	i
التسلسل الزمني في سيرة النبي ﷺ	1
مختصر سيرة رسول الله ﷺ	5
شمائل رسول الله ﷺ	51
حب النبي ﷺ لله عَزَّوَجَلَّ وغيرته على التوحيد	71
عبدٌ كامل ﷺ أدّى واجباته	85
خشية الله عند رسول الله ﷺ	99
أسوة رسول الله ﷺ في ذكر الله وحمده وشكره	109
حب رسول الله ﷺ للقرآن	119
سِرّ استجابة دعاء النبي ﷺ	127
رؤى وكشوف النبي ﷺ ونبوءاته	153
الصدق التام للنبي ﷺ	165
صدق رسول الله ﷺ وأمانته	171
وفاء النبي ﷺ بالعهود	177
إرشادات النبي ﷺ في التجارة والمعاملات التجارية	183
أمثلة رائعة للنبي ﷺ في صِلة الرّحم	199
شفقة رسول الله ﷺ بالبشرية	205
رأفة رسول الله ﷺ وشفقته	217
حب النبي ﷺ لأصحابه وعشقهم له ﷺ	223
رسول الله ﷺ داعياً إلى الله	239
رسول الله ﷺ المربي والمعلم	283
كرم وسخاء النبي ﷺ في الإنفاق في سبيل الله	307
كرم الضيافة عند رسول الله ﷺ	327

حب الوطن عند رسول الله ﷺ	337
ثبات النبي ﷺ واستقامته	347
الصبر على المصائب	359
أخلاق النبي ﷺ العظيمة في الحروب	369
استراتيجية النبي ﷺ وفطنته في المعارك	405
رسول الله ﷺ القاضي العظيم	421
حبُّ النبي ﷺ لأطفاله ولأطفال الآخرين	433
حياة النبي ﷺ الزوجية خير مثال	445
إحسان رسول الله ﷺ إلى المرأة	463
حسن معاملة رسول الله ﷺ للأصدقاء والجيران	471
حسن معاملته ﷺ للعبيد والأسرى	481
رسولنا الكريم ﷺ المدافع عن الأيتام والأرامل وحاميهم	489
حامل لواء التسامح الديني وحرية المعتقد	503
النبي ﷺ مثال فريد في العفو	525
حِلمُ رسول الله ﷺ	537
ثقة رسول الله ﷺ العظيمة بالله	543
شجاعة رسول الله ﷺ الفريدة	553
تواضع رسول الله ﷺ المذهل	559
قناعة وبساطة رسول الله ﷺ	575
رسول الله ﷺ رحمة للحيوانات أيضًا	585
طُهر ونظافة رسولنا الكريم محمد ﷺ	589
حياء رسول الله ﷺ	595
دعابة رسول الله ﷺ وعدم تكلفه	599
بصيرة النبي ﷺ وحكمته	607
النبي الأعظم والأنجح ﷺ	627

التسلسل الزمني في سيرة النبي ﷺ

لما كان هذا الكتاب يُعنى بحياة النبي ﷺ من مختلف أبعادها وليس فقط من حيث تسلسل الأحداث الزمني، كان حريا بنا أن نستفتحه بملخص زمني عن سيرة حياته الطاهرة سيكون بمثابة فهرس للأحداث البارزة التي سنتناولها في فصول الكتاب.

من المولد إلى البعثة

سنة 571 م: ولد سيد المرسلين ﷺ في شعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ووافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل/نيسان.

الرضاعة في بني سعد (من حليمة السعدية).

سنة 575 م: شق الصدر. الرجوع إلى أمه آمنة بنت وهب.

سنة 577 م: وفاة أمه آمنة بنت وهب. الكفالة إلى جده عبد المطلب.

سنة 579 م: وفاة جده عبد المطلب. الكفالة إلى عمه أبي طالب.

سنة 583 م: السفر مع عمه إلى الشام ولقاء بحيرا الراهب.

سنة 591 م: حرب الفجار. حلف الفضول.

سنة 595 م: زواجه من خديجة.

سنة 606 م: بناء الكعبة وقضية التحكيم.

سنة 607 حتى 610 م: التحنث في غار حراء.

بدء الوحي والسنوات المكية

السنة الأولى من البعثة النبوية عام 610 م: جبريل ينزل بالوحي. ذهابه مع خديجة إلى ورقة بن نوفل. إسلام خديجة، وعلي، وأبي بكر وزيد بن حارثة.

السنة الثانية من البعثة النبوية عام 611 م: إسلام الرعيل الأول: عثمان بن عفان الأموي،

والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي.

السنة الثالثة من البعثة النبوية عام 612 م: المعراج وفرض الصلاة.

السنة الرابعة من البعثة النبوية عام 613 حتى 614 م: أول أمر بإظهار الدعوة. الدعوة في الأقربين. على جبل الصفا. الصدع بالحق وردود فعل المشركين.

السنة السادسة من البعثة النبوية عام 615 م: وفد قريش إلى أبي طالب. أساليب شتى لمجابهة الدعوة. قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى. دار الأرقم. الهجرة الأولى إلى الحبشة. سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين. الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ. الهجرة الثانية إلى الحبشة. انشقاق القمر.

السنة السابعة من البعثة النبوية عام 616 م: إسلام حمزة رضي الله عنه. إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. زعماء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ. عزم أبي جهل على قتل رسول الله ﷺ. حيرة قريش وتفكيرهم الجاد لانتشار الإسلام واتصالهم باليهود. أبو طالب يجمع بني هاشم وبني عبد المطلب.

السنة الثامنة إلى العاشرة من البعثة النبوية عام 617 حتى 619م: ميثاق الظلم والعدوان. ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب. نقض صحيفة الميثاق. عام الحزن. وفاة أبي طالب وخديجة. الزواج بسودة رضي الله عنها. عقد قران رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها. دعوة الإسلام خارج مكة. الرسول ﷺ في الطائف. وفد نصيبين (من الشام).

السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية عام 620 م: إسلام طفيل بن عمرو رئيسِ دوس.

السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية عام 621 م: شق الصدر الثاني. بيعة العقبة الأولى. سفير الإسلام في المدينة: مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه.

السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية عام 622 م: الإسراء. بيعة العقبة الثانية. إثنا عشر نقيبا، تسعة نقباء من الخزرج وثلاثة نقباء من الأوس. في دار الندوة، النقاش والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ. هجرة النبي ﷺ بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى. في غار ثور وملاحقة سراقة.

الهجرة من مكة إلى المدينة والسنوات المدنية

السنة الأولى من الهجرة عام 622 م: النزول بقباء وبناء مسجد قباء. دخول المدينة وبناء المسجد النبوي. الشروع بالأذان. المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين. عقد إتفاقية مع اليهود.

السنة الثانية من الهجرة عام 623 م: تحويل القِبلة. نزول الأحكام المتعلقة برمضان. عيد الفطر. غزوة بدر. الزواج من عائشة رضي الله عنها.

السنة الثالثة من الهجرة عام 624 م: غزوة بني قينقاع. أول عيد أضحى. زواج عليّ من فاطمة رضي الله عنهما. زواج عثمان من أم كلثوم رضي الله عنهما. زواج النبي ﷺ من حفصة رضي الله عنها. غزوة أُحد.

السنة الرابعة من الهجرة عام 625 م: حادثة الرجيع وبئر معونة. طرد قبيلة بني النضير اليهودية من المدينة. زواج النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها. غزوة بدر الموعد.

السنة الخامسة من الهجرة عام 626 م: غزوة دومة الجندل. خسوف القمر في المدينة وصلاة الخسوف. غزوة بني المصطلق. حادثة الإفك على عائشة رضي الله عنها. غزوة الخندق. غزوة بني قريظة.

السنة السادسة من الهجرة عام 627 م: غزوة بني لِحْيان. إسلام زعيم اليمامة ثُمامة بن أُثال. وإسلام أبي العاص صهر النبي ﷺ. صلح الحديبية. بيعة الرضوان.

السنة السابعة من الهجرة عام 628-629 م: رسائل إلى الملوك والأمراء تدعوهم إلى الإسلام. غزوة ذي قرد. غزوة خيبر. الزواج من صفية رضي الله عنها. صلح فَدَك. محاولة تسميم النبي ﷺ. عودة المهاجرين من الحبشة. إسلام أبي هريرة رضي الله عنه. غزوة ذات الرقاع. صلاة الخوف. عُمرة القضاء.

السنة الثامنة من الهجرة عام 629 م: غزوة مؤتة. فتح مكة. غزوة حُنين. غزوة الطائف. قدوم وفود العرب.

السنة التاسعة من الهجرة عام 630 م: غزوة تبوك. قدوم وفود أخرى. وفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول. إسلام أهل الطائف. أول حجة بإمارة أبي بكر رضي الله عنه.

السنة العاشرة من الهجرة عام 631 م: إسلام عدي بن حاتم الطائي. إرسال أبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما إلى اليمن. حجة الوداع.

السنة الحادية عشرة من الهجرة عام 632 م: قدوم آخر وفد. مرض النبي ﷺ. تجهيز سرية بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه. وفاة النبي ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

مختصر سيرة رسول الله ﷺ

العرب قبل الإسلام

لقد ولد سيدنا محمد ﷺ، نبي الإسلام، بتقدير من الله تبارك وتعالى ووفقا للنبوءات في الكتب السابقة، في القرن السادس الميلادي في شبه الجزيرة العربية.

كان العرب في ذلك الوقت بعزلتهم عن العالم المتحضر يعيشون حياة همجية قائمة على الشرب والقمار والفواحش، وبلغ منهم التكبر والجهل والتعصب مبلغا جعلهم يستلّون السيوف بعضهم على بعض لأتفه الأسباب لتنشأ بذلك صراعات تدوم سنوات تراق فيها الدماء وتعم بها الفوضى. ما كان للمظلوم من نصير. وحال النساء كان مزريا؛ فيتزوج الرجل الواحد ما يشاء من النساء، وعَدّت بعض القبائل البنات عارا عليهم فوأدتهن، وما كان للنساء من حقوق وكن محرومات من الإرث.

كانت الوثنية الدين السائد في جزيرة العرب، ونجم عن إيمانهم العميق بالخرافة عادات قبيحة. ومن بين الديانات الأخرى التي وجدت وقتها في مناطق مختلفة من جزيرة العرب: المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة. وقد رسم المستشرق المسيحي ويليام موير صورة لتلك الحقبة بقوله:

"اتسمت جزيرة العرب في شباب محمد بالمقاومة الشديدة للتغيير، ولربما كان الإصلاح شبه ميئوس منه أكثر من أي وقت مضى. أحيانا تظهر أسباب تؤدي إلى نتائج يسببها عامل لا يبدو السبب الظاهري لحدوثها؛ فما إن قام محمد حتى بُعث العرب في معتقد جديد وروحاني، ومن هنا جاء الاستنتاج أن جزيرة العرب كانت باضطراب لحدوث التغيير ومستعدة لتبنيه. وبالنسبة لنا نحن، الذين يراجعون الماضي بهدوء، فإن تاريخ ما قبل الإسلام لا يؤيد هذا الافتراض. فبعد خمسة قرون من التنصير لا يمكننا أن نشير إلا إلى بعض المتنصرين هنا وهناك مثل بني الحارث في نجران وبني حنيفة في اليمامة وبعض من بني طيء في تيماء، ليس أكثر. أما اليهودية فكانت أقوى بكثير وأظهرت ممانعة شديدة لتغيير الدين ولم يكن المعتقد اليهودي فعّالا كعامل في الإدخال بالدين، وبالنهاية ومن منظور ديني فإن مياه الجزيرة العربية كانت قد تأثرت

بين فينة وأخرى بموجات ضعيفة من الجهود المسيحية، بينما ظهرت أحيانا تأثيرات اليهودية المتشددة في التيارات الأكثر عمقا واضطرابا، ولكن السيل الجارف للوثنية وخرافات بني إسماعيل المكتسح من الجهات الأربع إلى الكعبة لم يدع مجالا للشك بأن معتقد مكة قد فرض على العقل العربي قيود عبودية متشددة لا نزاع فيها."[1]

والواقع أنه لم تكن جزيرة العرب فقط هي الغارقة في ظلمات الجاهلية وإنما العالم كله، وأديان العالم كانت قد فسدت.

ولادة محمد ﷺ

ففي هذا الظلام العالمي الدامس والاضطراب بزغت شمس في جزيرة العرب؛ فقد ولد محمد ﷺ في عائلة نبيلة من قريش في التاسع من ربيع الأول الموافق للعشرين من نيسان/أبريل 571م.[2]

أبوه هو عبد الله بن عبد المطلب وأمه آمنة بنت وهب، وشجرة نسبه عن طريق جده عدنان تربطه بالنبي إسماعيل وأبيه إبراهيم اللذين دعوَا الله أثناء بناء الكعبة، ليصبح هذا البيت مركزا للتوحيد، ولكن للأسف عند ولادة محمد ﷺ كان هذا البيت قد أصبح يعج بالأصنام.

رأت والدة محمد ﷺ أثناء حملها رؤيا بأن نورا انبعث منها وانتشر بعيدا وأخبرها ملَك بأن تسميه محمدا، وبناء على هذه الرؤيا سماه جده محمدا.[3]

وشوهدت في العالم في أيام ولادته أعداد كبيرة من الشهب. وقد ولد وعلى كتفه الأيسر بروزٌ لحميٌّ عُرف بخاتم النبوة.[4]

الطفولة والشباب

وفقا للعادات في العائلات النبيلة في الجزيرة العربية فقد عُهد محمد ﷺ إلى مرضع من البدو من بني سعد. وبعمر عامين أعادته مرضعه حليمة السعدية لأمه وفقا للعادة ولكنها كانت راغبة في إبقائه معها مدة أطول لما رأت من البركات أثناء وجوده معهم، ولسوء الأجواء في مكة وافقت والدته أن ترجعه مع مرضعه، وعندما بلغ الرابعة من عمره حدث حادث غريب شهده أخوه بالرضاعة؛ فقد رأى رجلين بملابس بيضاء قد شقا صدر أخيه محمد وأخرجا منه شيئا، وقد أقلقت هذه الحادثة حليمة فأعادته إلى أهله في مكة.[5]

إن هذا الكشف يدل على نقاء سريرة محمد ﷺ، وقد عامل رسول الله ﷺ أمه من الرضاعة وأسرتها بالاحترام واللطف.

وبعد سنتين أخذته أمه إلى يثرب ليلتقي بأقاربه من طرف أمه، وعند العودة توفيت أمه في مكان يُدعى الأبواء، فحُرم محمد ﷺ من حنان أمه بعمر ست سنوات بعد أن كان فقد أباه قبل ولادته، فأعادته أم أيمن خادمتهم إلى جده عبد المطلب الذي أحبه وعني به أكثر من أطفاله، وبعد عامين توفي جده عبد المطلب أيضا ليكون ذلك ثالث الصدمات التي تلقاها طفل بعمر الثامنة، وقد كانت هذه المحن سببا لينبعث في قلبه لاحقا إيمان مطلق بالله تعالى وعزيمة قوية وشجاعة في مواجهة المصاعب.

واتباعا لوصية جده رعى عمه أبو طالب الطفل اليتيم خير رعاية، وعندما بلغ محمد ﷺ اثنتا عشرة سنة وخلال رحلة مع عمه إلى بصرى الشام، التقى بالراهب بُحيرى المسيحي. نصح هذا الراهب عمه بأن يحذر عليه شرور اليهود إن عرفوه. وعلى سنة الأنبياء السابقين وفي أيام طفولته تسنى له رعي الأغنام، وعندما نشبت حرب بين قريش وهوازن شهدها محمد ﷺ مع أعمامه فكان ينبُل عليهم، أي يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.[6]

وعندما بلغ العشرين انضم إلى حلف الفضول الذي ضمن حقوق المظلومين. وقد أبدى رسول الله ﷺ تقديرا لهذا الحلف فكان يقول عنه: "ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبتُ" .[7]

الزواج واختيار العمل

عندما بلغ محمد ﷺ أشده، اختار أن يعمل بعمل أجداده، أي التجارة؛ فسافر لها إلى الشام واليمن ودول مجاورة أخرى. وكل من تعامل معه في أسفاره أثنى على التزامه الصدق والأمانة والوفاء بالعهد حتى اشتهر بين الناس بالصادق الأمين.[8]

وبالإضافة إلى أخلاقه العالية فقد كان محمد ﷺ شابا وسيما حسن المظهر، متوسط الطول، متناسق البنيان، أبيض البشرة مُشرَبا بحمرة، عظيم الهامة، حسن الشَعر رَجِله، عريض المنكبين، شَثْن الكفين والقدمين، ضخم اليدين واسع الجبين، أقنى الأنف، أدعج العينين، أهدب الأشفار، يتكفأ في مشيته، أصدق الناس لهجةً وألينهم عريكة، إذا سُرّ أو غضب عُرف في وجهه.[9]

وعاشت في مكة أيضا أرملة شريفة وغنية وكان اسمها خديجة رضي الله عنها، وبسبب ورعها عرفت بالطاهرة أيضا. [10] وقد تأثرت بما شاع عن أمانة محمد ﷺ فعهدت إليه تجاراتها ولما رأت سمو أخلاقه أرسلت إليه تطلب الزواج منه. فقبل طلبها بعد التشاور مع عمه. كانت تبلغ من العمر أربعين سنة حينها بينما كان هو في الخامسة والعشرين من عمره، فأنجبت له كل أولاده إلا إبراهيم الذي ولد له من زوجه ماريا القبطية رضي الله عنها. فكان أبناؤه من خديجة رضي الله عنها: القاسم والطاهر والطيب وعبد الله، وبناته: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. توفي جميع أولاده الذكور في طفولتهم. وقد أُكرمت بناته كلهن بدخول الإسلام وتزوجن وولد لهن ولكن أكثر ما يعرف بين الناس ذرية فاطمة وعلي رضي الله عنهما.

لقد أعيد بناء الكعبة مرتين في حياة محمد ﷺ؛ مرة في طفولته وحينها شارك بحمل الأحجار على كتفيه، والمرة الثانية عندما كان شابا بعمر الخامسة والثلاثين وحينها قام بفض الخلاف بين القبائل عندما احتكموا إليه، إذ كانت كل قبيلة ترغب في أن تكون هي من يضع الحجر الأسود في مكانه، فقرر النبي ﷺ أن يأتي برداء ويضع عليه الحجر الأسود ثم أن يحمل هذا الرداء رجل من كل قبيلة، ثم وضعه بيديه في مكانه، وهكذا جنّب القوم نزاعا خطيرا. [11]

كفالة رسول الله ﷺ لعلي وزيد رضي الله عنهما

قامت السيدة خديجة رضي الله عنها بعد زواجها من محمد ﷺ بتسليمه كافة ممتلكاتها وكان من بينها عبدٌ اسمه زيد بن حارثة. كان رسول الله ﷺ متعلقا به لما رأى منه من التفاني والإخلاص.

أما زيد فقد أحب محمدا ﷺ لدرجة اختياره سيده على أبيه وعمه عندما جاءا يعرضان فداءه، وعندها لم يكتف محمد ﷺ بعتقه بل وأعلن عند الكعبة تبنيه له فدعي وفقا لعادة العرب حينها بزيد بن محمد. [12]

ولكن هذه الممارسة أبطلها القرآن الكريم فيما بعد ليعود زيد معروفا باسم أبيه الحقيقي إلا أن حبه لرسول الله ﷺ استمر بالتزايد في قلبه.

وبعد مدة كفل محمد ﷺ ابن عمه عليا رضي الله عنه بهدف تخفيف العبء الاقتصادي عن عمه أبي طالب. وبذلك عاش محمد ﷺ وزوجه خديجة رضي الله عنها مع زيد وعلي رضي الله عنهما كعائلة.

كان محمد ﷺ قلقا جدا من التدهور الأخلاقي لقومه وكان يدعو لهم. فكان يتزود بما يكفيه بضعة أيام ويخلو بغار حراء على بعد عدة أميال من مكة، فتحنث هناك حتى جاءه الحق وهو فيه.[13]

الوحي الأول

عندما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره وكان في الغار يتعبد يوم اثنين في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك إذ جاءه الملَك فقال: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ رسول الله ﷺ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

ثم انطلقت به خديجة رضي الله عنها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر في الجاهلية وكان موحدا فلما أخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى قال له ورقة: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى. يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا. لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.[14]

ثم بدأ رسول الله ﷺ بعد تلقيه الأوامر الإلهية بتبليغ وحدانية الله تعالى ونبذ الشرك بالله.

المسلمون الأوائل

كان أول من آمن بعد الوحي الأول السيدة خديجة رضي الله عنها. ومن أوائل المؤمنين الآخرين: أبو بكر رضي الله عنه من الرجال، وزيد رضي الله عنه من الشباب، وعلي رضي الله عنه من الأطفال. وكان لأبي بكر رضي الله عنه، لكونه شخصية محترمة ومؤثرة في قريش، حلقة واسعة من الأصدقاء، فبدأ تبليغه يؤتي

أكله، وجعلت الطبقة المتوسطة من قريش تدخل الإسلام. ومن بين هؤلاء المسلمين الأوائل: عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وزيد بن العوام وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وأبو سلمة رضي الله عنهم. ومن أوائل النساء إسلاما: خديجة وبناتها وأسماء بنت أبي بكر وفاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد رضي الله عنهم. وأسلم من بين الفقراء في السنوات الثلاثة أو الخمسة الأولى: عثمان بن مظعون وعبد الله بن مسعود وبلال وخباب وياسر وسمية رضي الله عنهم، ولم تُعر قريش لهؤلاء كثيرا من الأهمية لحسبانهم من الطبقة الدنيا في المجتمع.

بعد الوحي الأول فتر نزول الوحي مما أقلق النبي ﷺ، وفي يوم من الأيام وعند عودته من غار حراء سمع الملاك نفسه يناديه، وقد أثر ذلك في نفسه تأثيرا كبيرا، فعاد إلى البيت وطلب أن يغطّوه، فأوحيت إليه الآيات التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: 2-5). ثم أُمر النبي ﷺ بالآية التالية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: 95)، وبعد ذلك أمره الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 215).[15] عندها نادى بطون قريش من على الصفا، وعندما اجتمعوا قال لهم: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟

وعندما رأى النبي ﷺ عدم استجابتهم لندائه العام للإيمان بالله دعا بني عبد المطلب إلى مأدبة أمر عليا رضي الله عنه بإعدادها لهم ثم سألهم بعدما أكلوا وشربوا: "يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنِّي واللهِ ما أَعْلَمُ شابا فِي العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بأفْضَلَ ممَّا جئْتُكُمْ بِهِ، إنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ أنْ أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلى هَذَا الأمْرِ؟" فما أجابه إلا صبي في الثانية عشرة من عمره، وكان عليا رضي الله عنه، الذي أوفى بعهده حتى آخر أيامه.[16]

أول مركز للدعوة والمعارضة

بدأ عدد المسلمين يزداد تدريجيا لتزداد معه المعارضة. وكان هذا العدد القليل من المسلمين بحاجة إلى مركز يوحدهم ومكان يجتمعون فيه، فاختار النبي ﷺ بيت أحد أصحابه (الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه) مركزا لهم. فكانت داره مكانا للدعوة والتعليم والتربية ما بين السنة الرابعة

والسادسة من البعثة النبوية.[17]

ومع أن رسالة الحب وعبادة إله واحد ومبادئ العدل والإحسان تجاه الإنسانية كانت تضمن تشريف العرب وتطورهم إلا أنها لقيت المعارضة الطبيعية وفقا للسنة الربانية؛ فمن ناحية كان هناك خوف التغيير من نظام قديم إلى نظام جديد، وفقدان التحرر والحد من الممارسات السيئة واحتمالية فقدان الزعامة ومن ناحية أخرى أطلت برأسها مشاعر الحسد ومنافسة المبعوث السماوي. وبذلك أعاد التاريخ نفسه بقوة في زمن سيدنا محمد ﷺ. كان أبرز المعارضين في مكة زعيم قريش عمرو بن هشام؛ الذي كان معروفا بأبي الحكم والذي أصبح معروفا بأبي جهل.[18]

ومن بين المعارضين الآخرين كان عبد العزّى (أبو لهب) عم رسول الله ﷺ الذي استمر بالعداء حتى وفاته. وكان هناك أعداء آخرون منهم: الوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف وأبي بن خلف والنضر بن الحارث، وقد لقي هؤلاء كلهم نهاية وخيمة، بعد أن كانوا عازمين على محو الإسلام. عندما بدأ الدين الجديد بالانتشار اجتمع زعماء قريش والتقوا أبا طالب وسألوه أن يمنع ابن أخيه من نشر دينه وإن لم يستجب أن يخرجه من جواره وعندها يتصرفون هم معه، ولكن أبا طالب استطاع أن يهدأهم، وحين نزلت الآيات التي جاء فيها أن المشركين نجس، وشر البرية، وسفهاء، وذرية الشيطان، وأنهم وآلهتهم وقود النار وحصب جهنم، طلب أبو طالب النبيَّ ﷺ وقال له: يا ابن أخي، قد استشاط قومك غضبا نتيجة شتائمك وكادوا يهلكونك وإيايَ، فقد سفَّهتَ عقلاءهم، وأطلقتَ على كِرامهم شرَّ البرية، واعتبرتَ آلهتهم -الجديرة بالاحترام عندهم- حصبَ جهنم ووقودَ النار، واعتبرتهم جميعا رجسا ونجسا وذرية الشيطان. فأقول نصحا لك بأن تكف لسانك وتتوقَّف عن السباب وإلا فأنا لا أقدر على مواجهة القوم. فقال النبي ﷺ في الجواب: أيا عمّاه، إن ذلك ليس سبًّا بل هو بيان الواقع، وذكرُ حقيقة الأمر وفي محله تماما، وهذا هو الأمر الذي أُرسلتُ من أجله، فإذا كان في هذا السبيل موتي فأنا أقبله بكل سرور، فإن حياتي فداء هذا السبيل، فلن أتوقَّف عن قول الحق. ويا عمِّ، إذا كنتَ تخشى ضعفك وقلة حيلتك ومعاناتك فأَقِلْني ذمتي، فوالله لستُ محتاجا إليك، ولكنني لن أحيد عن تبليغ أمر الله قيد شعرة. إن أحكام ربي أحبّ إليّ من

نفسي. والله لو قُتلت في هذا السبيل لتمنّيت أن أُحيا، ثم أُقْتَل ثم أُحيا، ثم أُقتَل ثم أُحيا، وأظل أُحيا وأموت في هذا السبيل. إن هذا ليس مقام خوف بل إن غاية متعتي تكمن في تحمُّل المعاناة في سبيله ﷻ. كان النبي ﷺ يقول ذلك والرقة المفعمة بالصدق والنورُ يعلوان وجهه الكريم. حين أنهى ﷺ كلامه سالت عينا أبي طالب دموعا عفويا لِما رأى من نور الصدق والحق، وقال: كنت أجهل حالتك السامية هذه! إنك في شأن غريب وحالة عجيبة! فاذهب وانصرف إلى عملك، وسأنصرك ما استطعتُ وما دمتُ حيا.[19]

ثم مشت قريش إلى أبي طالب ثالثة بعُمارة بن الوليد بن المغيرة حيث عرفوا أنه قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وتسليمه لهم فَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا طَالِبٍ هَذَا عُمَارَةُ أَنْهَدُ فتىً فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُهُ، فَخُذْهُ فَلَك عَقْلُهُ وَنصْرُهُ وَاتّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَك، وَأَسْلِمْ إلَيْنَا ابْنَ أَخِيك هَذَا، الذي قَدْ خَالَفَ دِينَك وَدِينَ آبَائِك وَفَرّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِك، وَسَفّه أَحْلَامَهُمْ، فَنَقْتُلهُ فَإِنّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلِ. فَقَالَ وَاللّهِ لَبِئْسَ مَا تَسُومُونَنِي، أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ، وَأُعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟ هَذَا وَاللّهِ مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا. فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ: وَاللّهِ يَا أَبَا طَالِبٍ لَقَدْ أَنْصَفَك قَوْمُك، وَجَهَدُوا عَلَى التّخَلّصِ مِمّا تَكْرَهُهُ، فَمَا أَرَاك تُرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا. فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لِلْمُطْعِمِ وَاللّهِ مَا أَنْصَفُونِي، وَلَكِنّك قَدْ أَجْمَعْتَ خِذْلَانِي وَمُظَاهَرَةَ الْقَوْمِ عَلَيّ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك.[20]

وعندما أدركت قريش فشل خططها قررت أن تبذل أقصى جهدها ليرتد كل من أسلم كي يصير محمد ﷺ وحيدا، فصبوا جام غضبهم باضطهادهم المسلمين، فكان عثمان رضي الله عنه يوثَقُ رباطا ويُضرب، وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه يُلف في حصير ويدخّن عليه بالنار.[21]

وقد ضُرب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحن الكعبة ضربا مبرحا، وضُرب أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وهو يطوف الكعبة حتى تضرج بدمه، وقد عانى من بين العبيد بلالٌ رضي الله عنه من تعذيب شديد. وكذلك عانت الأَمَتان لُبينة وزِنِّيرة رضي الله عنهما من التعذيب. وقد ذاق المستضعفون من المسلمين مثل صهيب وخبّاب رضي الله عنهما من العذاب أيضا. وإن الفرائص لترتعد من ذكر ما عاناه والدا عمار، ياسر وسمية رضي الله عنهما من تعذيب وحشي. وما شفع دعم بني هاشم لرسول الله ﷺ من أن يكون ضحية الاعتداء أيضا، فقد طُلِّقت ابنتاه رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما وأصبح هو بنفسه عرضة للإشاعات الكاذبة والسخرية والاضطهاد الجسدي.[22]

وقالوا عن رسول الله ﷺ بأنه كاهن ومجنون وشاعر وأشاعوا بأنه ساحر. وتصاعدت موجة المعارضة ضد رسول الله ﷺ. وكان عندما ينقلب إلى بيته يجد الأحشاء والدماء والأوساخ قد وُضعت على بابه ليؤذوه وأهلَه، فيقول: بئس الجوار هذا يا معشر قريش.[23]

ما كانت قريش تحتمل حتى اسم النبي ﷺ أي محمد، فكانوا يسمونه مذمما، وكان رسول الله ﷺ يبتسم ويقول: "ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمما، ويلعنون مذمما وأنا محمد".[24]

وقد حاولوا أيضا قتل رسول الله ﷺ؛ فبينا كان يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا. فأقبل أبو بكر ﷺ فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال:﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (غافر: 29).[25]

وعندما لقي الصحابة من المشركين شدة من التعذيب والاضطهاد طالبوا النبي ﷺ أن يدعو على المعتدين فقعد وهو محمر وجهه وقال: "لقد كان مَن قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".[26]

وفي مناسبة أخرى طلب عبد الرحمن بن عوف ﷺ من رسول الله ﷺ الإذن بالرد على أذى المشركين فقال ﷺ: "إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا".[27]

الهجرة إلى الحبشة

تقع الحبشة في شمال شرق القارة الإفريقية وجنوبا من الجزيرة العربية، وكان يحكمها النجاشي. ولما بلغ الاضطهاد أوجه قال النبي ﷺ لأصحابه إن في الحبشة ملكا عادلا فليهاجروا إلى تلك الأرض. فهاجرت أول مجموعة في السنة الخامسة من النبوة وكانت من قبائل مختلفة من قريش وفيها أحد عشر رجلا وأربع نساء، ومنهم عثمان بن عفان وزوجه رقية ابنة رسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وأبو سلمة وأم سلمة ﷺ.[28]

وقامت قريش بملاحقتهم للقبض عليهم وإعادتهم، ولكنهم كانوا قد أبحروا إلى الحبشة.

فحاولت قريش أن ترشي النجاشي وحاشيته بالهدايا الثمينة، فبعثوا بوفد على رأسه عمرو بن العاص. وقد رشوا بطارقةَ النجاشي كلهم وطلبوا منهم أن يؤيدوهم في بلاط الملك عندما يطلبون منه أن يسلم إليهم المسلمين. ولكن الملك العادل طلب استيضاح الأمر والاستماع إلى المسلمين. فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وكان خير ممثل للمسلمين فقال: "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، ونهانا عن سفك الدماء والفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، ولما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك."

فقال له النجاشي هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر رضي الله عنه نعم. وقرأ عليه من سورة مريم فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. وفي اليوم التالي حاول عمرو بن العاص أن يؤلب الملك عليهم بقوله أن المسلمين يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما وأن عليه أن يأتي بالمسلمين ويسألهم فلما أرسل إليهم سألهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عودا ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فاستاء بسماع قوله البطارقة ولكنه لم يعرهم أي اهتمام. فرجع وفد قريش خالي الوفاض خائبا وازدادت وحشيتهم وتعذيبهم للمسلمين أكثر من

السابق.[29]

حين هاجر المسلمون الى الحبشة، تمتع المسلمون المهاجرون بالعدل والتكريم في الحبشة. ثم أشاعت قريش أن الناس قد أسلموا وصلّوا مع رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك المهاجرين في الحبشة عادوا إلى مكة بعد ذلك ليجدوا من قومهم وعشائرهم شدة وسطوة وأذى شديدا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية. كان عدد أفراد الهجرة الثانية إلى الحبشة بضعا وثمانين نفرا من الرجال والنساء. فعاشوا بسلام لسنوات ثم عادوا في السنة السابعة من الهجرة بعد فتح خيبر، وقد بقي هؤلاء المسلمون مقرّين بالمعروف الذي أسدي إليهم في الحبشة.[30]

ولاحقا عندما خرجت الحبشة على النجاشي حاول المسلمون مساعدته بأية طريقة وقد دعوا له بالنصر حتى تم له ذلك.[31]

في العام السادس من البعثة أسلم عمر وحمزة رضي الله عنهما وأصبح المسلمون عندها يصلّون علنا عند الكعبة، وعندما رأت قريش ثباتهم وازدياد عددهم غيرت من أسلوبها، فجاء وفدٌ إلى النبي ﷺ وعرض عليه أن يمنحوه الجاه والسلطان وأن يزوجوه من يريد من نساء مكة مقابل أن يكف عن ذكر آلهتهم بسوء فأجابهم النبي ﷺ بأنهم لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر فما هو بتاركه حتى يظهره الله أو يهلك دونه.[32]

حصار شِعب أبي طالب

عندما أدرك كفار مكة أن رسول الله ﷺ ومن تبعه ثابتون على معتقدهم وأنهم لن يتراجعوا، قرروا أن يحاصروهم بقطع كافة علاقات التجارة والشراكة معهم، وفي شهر محرم من السنة السابعة للبعثة وقع زعماء مكة على صحيفة وعلقوها على جدار الكعبة وأُجبر بنو هاشم وبنو المطلب على الخروج إلى شعب أبي طالب. كانت تلك أيام خوف وجوع على المسلمين. وعن سعد بن أبي وقاص قال بأنه وجد قطعة من جلد بعير فغسلها ثم أحرقها ثم أكلها جافة، فقوي عليها ثلاثة أيام.[33]

كان الأطفال يصرخون من ألم الجوع الذي أنهكَ الجميع. مرت ثلاث سنوات من هذه المعاناة، وفي أحد الأيام أخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب بأن الأَرَضة أكلت الصحيفة وما تركت منها إلا

عبارة باسمك اللهم، فأخبر أبو طالب قريشا بأن ابن أخيه قد تلقى هذا الخبر من الله، وعندما تحققوا من الأمر وجدوه كما وصف لهم، عندها نبذ بعض الزعماء ممن كان فيهم شيء من الإنصاف والرحمة المعاهدة وراء ظهورهم، ومع أن أبا جهل حاول أن تستمر المعاهدة إلا أن المطعم بن عدي مزق ما بقي من الصحيفة وتحرر المسلمون من الحصار، وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة. وقد حصلت آية انشقاق القمر في وقت ذلك الحصار.[34]

واستمر انتشار رسالة الإسلام إلى القبائل المجاورة وأسلم الطفيل بن عمرو زعيم قبيلة دوس. وقد حصلت حادثة المعراج أيضا في ذلك الزمن وهو الكشف الذي رأى فيه رسول الله ﷺ مستقبل تطور الإسلام.[35]

عام الحزن

كان أبو طالب وخديجة رضي الله عنها متقدمين في السن، فلم يطيقا معاناة الحصار وتوفيا في عام واحد. ذلك ما أحزن رسول الله ﷺ كثيرا حتى دعي ذلك العام عام الحزن. وتضاعف أذى قريش بعد وفاتهما حتى أصاب رسول الله ﷺ شخصيا.[36] بعد وفاة خديجة رضي الله عنها كان لا بد من وجود امرأة في بيت رسول الله ﷺ لتستمر تربية النساء المسلمات، فدعا رسول الله ﷺ لذلك فأُري في المنام صورة عائشة رضي الله عنها في قطعة من حرير أخضر وأخبره جبريل عليه السلام بأن هذه زوجك في هذه الدنيا وفي الآخرة. وبعد مدة عرضت إحدى الصحابيات على رسول الله ﷺ اسمي سودة وعائشة رضي الله عنهما للخطبة وبعد إذنه تواصلت مع عائلتيهما، وفي شهر شوال من السنة العاشرة للبعثة عُقد النكاحان ولكن تم الزواج بسودة رضي الله عنها فقط.[37]

السفر إلى الطائف

وعندما أدرك رسول الله ﷺ العوائق في تبليغ الرسالة في مكة سافر إلى الطائف، المدينة المشهورة في جنوب شرقي مكة والتي تبعد عنها قرابة أربعين ميلا. وبقي هناك عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه. وقد قال له عبد ياليل، أحد سادتهم: لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى

اللّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكلِّمَك. ولما خافوا على أحداثهم أن يتأثروا بالإسلام أغروا بالنبي ﷺ سفهاءهم فتبعوه إلى ثلاثة أميال وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى تخضب رسول الله ﷺ بدمائه، عندها ظهر له ملك الجبال وقال له: إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

وفي طريق عودته من الطائف لجأ رسول الله ﷺ إلى بستان ودعا الله تعالى بحرارة في تلك الحالة من الضعف. ولما رآه عتبة صاحب البستان رق له قلبه وأرسل إليه غلامه عداس بطبق من العنب ليأكل منه، وعندما علم رسول الله ﷺ أن عداسا نصراني ومن قرية النبي يونس عليه السلام قال له بأن يونس أخوه وكان نبيا وأنه مثله نبي من الله، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه.

ولدخول مكة كان لا بد لرسول الله ﷺ أن يجيره زعيم من زعماء مكة، فأرسل إليهم يطلب ذلك فما أجابه إلا المطعم بن عدي وأجاره فتمكن من دخول مكة.[38]

وقد أثنى المستشرق السير ويليام موير على ثبات وعزيمة النبي ﷺ في محنة سفره إلى الطائف، فكتب: "كان هناك شيء من الشموخ والبطولة في رحلة محمد إلى الطائف؛ إذ تجرأ رجل وحيد مزدرٍ ومنبوذ من قومه على المضي قدما باسم الله –مثل يونس بسفره إلى نينوى– ليدعوَ مدينة وثنية إلى التوبة ومؤازرة مهمته. وهذا يكشف بجلاء قوة إيمانه بالمصدر الإلهي لدعوته".[39]

وعندما انصرف رسول الله ﷺ من الطائف لقيه وفد من نَصِيبِين (مدينة بالشام)، وكان هؤلاء الرجال يبحثون عن الحق وعُرفوا بجِنِّ نصيبين.[40]

وقد تلقى النبي ﷺ في تلك الفترة إخبارا من الله عن الحرب الدائرة بين الفرس والروم، فتنبأ بأن الروم غُلبت ولكنهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. فتحقق ذلك واستعاد الروم أراضيهم من الفرس.[41]

عرضُ النبي ﷺ نفسَه على القبائل

بعد الصد الذي لقيه رسول الله ﷺ في الطائف بدأ يدعو الناس في أسواق المواسم، وكانت التجمعات الكبيرة في الحج فرصة مواتية أيضا مع أن قريشا كانت تلاحقه وتبذل قصارى جهدها لنشر الإشاعات ضده لينفض الناس من حوله. وفي تلك المرحلة قابل رسول الله ﷺ

وفدا من الخزرج وهم قبيلة من يثرب، فدعاهم إلى الإسلام فقبلته مجموعة من ستة أشخاص، وكان ذلك في العام الحادي عشر للبعثة. وبذلك وُضع حجر أساس الإسلام في يثرب.

بيعة العقبة

في العام الثاني عشر للبعثة وفي موسم الحج التقى رسول الله ﷺ في وادي العقبة، بين مكة والمدينة، اثني عشر نفرًا من المدينة، كان خمسة منهم ممن بايعوه في العام المنصرم، وكان سبعة من الجدد. فسمِّيت بيعةَ العقبة. ونزولا عند رغبتهم أرسل النبي ﷺ أحد أصحابه وهو مصعب بن عمير ليعلّمهم الإسلام ويفقّههم في الدين.

وفي وقت قصير أصبح الإسلام حديث القبيلتين المتناحرتين في المدينة أي الأوس والخزرج. وفي العام التالي أتى مصعب رضي الله عنه بمجموعة من سبعين شخصا للقاء رسول الله ﷺ الذي كان بصحبة عمه العباس رضي الله عنه، فدخلوا الإسلام أيضا وعاهدوا على نصرة النبي ﷺ إن هو قدم إليهم والدفاع عنه كما يدافعون عن أنفسهم.[42]

الهجرة إلى المدينة

بعد بيعة العقبة أذن رسول الله ﷺ لصحابته بالهجرة إلى المدينة بصورة فردية، وانتظر أمر الله تعالى فيما يخص هجرته. وعندما أدركت قريش أن محمدا ﷺ أصبح وحيدا تقريبا قررت أن تقوم بهجوم حاسم، فأجمعوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا مسلحا بسيف صارم ثم يعمِدوا إليه فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه ويتفرق دمه بين القبائل ولن يقوى بنو عبد مناف على محاربة القبائل كلها. وبينا هم يخططون لذلك أذن الله تعالى لرسول الله ﷺ بالهجرة فذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه وأخبره الخبر فأخذ أبو بكر رضي الله عنه يبكي فرحا وقدم لرسول الله ﷺ إحدى ناقتيه فقبلها رسول الله ﷺ بثمن. وفي تلك الليلة ذاتها تسور شباب قريش بيت النبي ﷺ الذي كان قد طلب من علي رضي الله عنه أن ينام على فراشه ويتسجى ببُرده الأخضر وأن يلحق به بعد أن يعيد الودائع إلى أصحابها في مكة. ثم بدأت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كما خُطط لها. انتهى النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى غار ثور ليلًا، وهو يبعد عن مكة قرابة ثلاثة أميال، فدخله أبو بكر رضي الله عنه أولا يلمسه ليستبرئه للنبي ﷺ.[43]

وفي الصباح كانت قريش مستاءة جدا لفشلها فيما خططت له، فقررت مطاردة رسول الله ﷺ، فوصلوا إلى مدخل غار ثور. والحمد لله أنه بعد دخول رسول الله ﷺ الغار بنى عنكبوت بيته على مدخله، وعندما اقترح أحدهم أن يدخلوه ليتفقدوه أجابه آخر باستحالة أن يكون النبي مختبئا فيه. لقد كانت حياة رسول الله ﷺ بخطر محدق، وأبدى أبو بكر رضي الله عنه قلقه، ولكن رسول الله ﷺ طمأنه وقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40).[44]

كمَنَ رسول الله ﷺ وأبو بكر ثلاثة أيام في الغار، وأمر أبو بكر رضي الله عنه ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس بمكة في النهار ثم يأتيهما بالأخبار في المساء. وأمر عامرَ بن فُهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها قربهما وأن يأتيهما الغار إذا أمسى. وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تأتيهما بالطعام إذا أمست. وفي اليوم الثالث الموافق للأول من ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للبعثة وصل دليل الرحلة، عبد الله بن أريقط، بالناقتين لتبدأ هجرة هذه المجموعة الصغيرة إلى المدينة. وألقى رسول الله ﷺ نظرة أخيرة على وطنه مكة وقال: "ما أطيبَكِ من بلد وأحبكِ إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيركِ."[45]

وصل رسول الله ﷺ المدينة بعد السفر مدة ثمانية أيام، وذلك في 12 ربيع الأول الموافق لـ 27 حزيران/يونيو 622م. وبدأ التقويم الإسلامي من ذلك التاريخ.[46]

كان أهل المدينة ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ بشوق وقد تسلحوا وخرجوا للسلام عليه. نزل رسول الله ﷺ قباء -وهي قرية صغيرة خارج المدينة- في بيت كلثوم بن هِدْم رضي الله عنه. وقد لحق علي رضي الله عنه بهم بعد ثلاثة أيام قضاها في إعادة الودائع لأصحابها في مكة. أول ما فعله رسول الله ﷺ هو وضع حجر أساس مسجد قباء وفي بضعة أيام أتمّ الصحابة بناءه. وكان فيما بعد يزور مسجد قباء أسبوعيا. ثم بعد عشرة أو اثني عشر يوما من المكث في قباء وفي يوم جمعة دخل المدينة التي أصبحت مقر النبي ﷺ. وقد صلى الجمعة في بني عمر بن عوف ثم توجه الركب إلى المدينة وكان النسوة والأطفال فيها يغنون من على أسطح المنازل:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ... وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكلما مر النبي ﷺ بسكن قبيلة من أهل المدينة اعترضوه وسألوه أن يشرفهم باستضافته في دارهم، فيأمرهم أن يخلوا سبيل ناقته وأنها مأمورة، حتى بركت قريبا من بيت أبي أيوب

الأنصاري رضي الله عنه الذي تشرف باستضافة النبي ﷺ سبعة أشهر.[47]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

تــذكرتُ يومًــا فيــه أُخــرِجَ ســيدي ففاضــت دمــوع العــين مــني بمنتــدى
إلى الآن أنــوارٌ ببُرقَــةِ يثـرِبَ نشــاهدُ فيهــا كــلّ يــوم تجــدُّدا
فوجــهُ المدينــة صــار منــه منــوّرا وبــاركَ حُــرَّ الرمــل وَطئًــا و قَــرِدَدًا•

بناء المسجد النبوي

كانت أول مهمة قام بها النبي ﷺ في المدينة بناء مسجد. كانت الأرض التي بركت فيها ناقته تعود ليتيمين من المسلمين فشُريت منهما لبناء المسجد ومساكن رسول الله ﷺ. بدأ الأذان للنداء إلى الصلاة في تلك الفترة. وأصبحت يثرب مدينة رسول الله ﷺ، وكان يقطنها قبيلتا الأوس والخزرج وثلاث قبائل يهودية كبيرة في قلاع على مقربة من المدينة. كانت الأوس والخزرج في حرب مستمرة ولوضع حد لها كان قد اتُفق أن يتوج عبد الله بن أبي بن سلول ملكا على المدينة. ولكن هذا المخطط قد أُجهض بقدوم رسول الله ﷺ، إذ جعل أبناء القبيلتين يدخلون الإسلام لتزول العداوة بينهما وتحل محلها الأخوة.

وللمحافظة على السلم والأمن عقد النبي ﷺ مع اليهود موادعة، ليكون ذلك أول اتفاق مكتوب ونلخص فيما يلي بعضا من مضمونه:

1. يكون المسلمون واليهود أمة واحدة تقوم على تحمل المسؤولية والإخلاص.
2. يتمتع الطرفان بالحرية الدينية.
3. إن هاجم عدو المدينة فالطرفان شريكان في الدفاع عنها.
4. إن هوجم المسلمون أو اليهود فسوف يساعد أحدهما الآخر.
5. لا تُقدم الحماية ولا الدعم لكفار قريش.
6. يحكم رسول الله ﷺ في كل الخلافات ويقضي وفقا لشريعة الأطراف.
7. لا يجار معتد أو مثير شغب من العقاب أو القصاص.

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 59-60.

هدفت هذه المعاهدة إلى توطيد العلاقات الحسنة بين المسلمين واليهود وإلى إقامة حكم مركزي منظَّم.[48]

عندما رأى كفار قريش الترحيب الذي لقيه رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة، كتبوا رسالة لعبد الله بن أبي بن سلول بأنه إن لم يخرجهم أو يقاتلهم فعليه أن يكون مستعدا لهجوم قريش عليهم، وهددوا بقتل الرجال واستباحة النساء.[49]

وكان عبد الله بن أبي بن سلول المنافق يبحث أصلا عن عذر، فقرر مهاجمة المسلمين على الفور، ولكن رسول الله ﷺ بحكمته أحبط مخططه هذا. وعندما فشل كفار قريش في مخططهم هذا بدؤوا يحرضون القبائل العربية الأخرى ضد المسلمين فأضرمت نار العداوة في الجزيرة العربية، ليزداد خطر الهجوم على المدينة، وأصبح المسلمون على أهبة الاستعداد لأي هجوم في أي وقت ليلا أو نهارا. وكان رسول الله ﷺ مستنفرا معهم أيضا للحراسة فأرِق في إحدى الليالي وقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة. فسُمِع صوت السلاح فإذا بسعد بن أبي وقاص جاء ليحرسه.[50]

الإذن بالقتال دفاعا

عندما عزمت جزيرة العرب على تدمير هذه المجموعة الصغيرة من الموحدين، أُذن للمسلمين بالقتال دفاعا عن أنفسهم بنزول الآيتين:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج: 40-41)

تبين هاتان الآيتان بوضوح أن الإذن بالقتال منح لهم لأنهم ظُلموا وحرموا من حرية المعتقد وأخرجوا من ديارهم. ما استخدمت القوة لنشر الإسلام بل كان الإسلام ينتشر بسرعة أكبر أيام السلم منه أيام الحرب؛ فبعد صلح الحديبية انتشر الإسلام بسرعة حتى فاق عدد جيش المسلمين عشرة آلاف عند فتح مكة بعد أن كان عددهم يقارب ثلاثة آلاف. عندما أُذن لهذه المجموعة المستضعفة بالدفاع عن نفسها حقق الله تبارك وتعالى وعده ونصرهم، فبدأت الجيوش

المهزومة باتهامهم أنهم يستخدمون القوة لنشر الإسلام. فلا يصح أبدًا اتهام المسلمين بنشر الإسلام بحد السيف والجبر والإكراه، لا سيما وقد أعلن النبي ﷺ صراحة أنني إنما أُمرتُ أن أقاتل الناس إلى أن يسملوا ويكفّوا عن رفع السيف ضد الإسلام والمسلمين.

ما كانت حروب الإسلام إلا دفاعية وللمحافظة على الأمن، وفي بعض الحروب كان الهدف منها إحلال السلم وحرية المعتقد، وفي حالات قليلة كانت الحرب تشن للمعاقبة على جرائم شنيعة والخيانة والوحشية التي ارتكبتها بعض القبائل، وكان لا بد من الحرب في بعض الأحيان عند نقض المعاهدات والمواثيق.

عندما ثار العرب جميعا ضد المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة أصبح خطر الهجوم محدقا من كل جانب، فأرسل النبي ﷺ السرايا والبعوث لجمع المعلومات عن تحركات العدو. وكان الهدف من ذلك إنذار وإرعاب العدو أيضا بأن المسلمين ليسوا غافلين عما يحيكونه ضدهم، والهدف الثاني كان بناء أحلاف مع القبائل المجاورة لتصبح المدينة مكانا أكثر أمنا. وفي تلك المرحلة أغار كِرز بن جابر على مسرح إبل المدينة وسرق الإبل.

والحدث الآخر المهم في تلك الفترة المواجهةُ بين سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه التي بعثها النبي ﷺ لترصد قافلة لقريش بين مكة والطائف والتي قُتل فيها من قريش عمرو بن الحضرمي. وقد حدث ذلك في شهر من الأشهر الحُرم، فعاتبهم النبي ﷺ على فعلتهم هذه ودفع دية المقتول لأوليائه. واتخذت قريش ذلك ذريعة بأن المسلمين ينتهكون الأشهر الحرم، مع أنهم كانوا سلفا يعدّون كل العدّة لشن حرب على المسلمين. وقد أفضى ذلك إلى غزوة بدر.[51]

غزوة بدر

كان السبب المباشر لهذه الغزوة قافلة أبي سفيان التجارية العائدة من الشام والتي كانت كل أرباحها ستُخصَّص لتمويل الحملة الحربية، واعتراضها كان سيضعف خططهم. أرسل رسول الله ﷺ سرية استطلاع لجمع المعلومات، ولما أحس أبو سفيان بالخطر أرسل راكبا إلى مكة يستنفرهم فأجج نار العداوة فيهم فتحرك من مكة جيش بعتاده قوامه ألف رجل. وكان فيه سبع مئة مقاتل على الجمال ومئة فارس على جيادهم. تلقى الجيش وهو في طريقه إلى المدينة خبر سلامة أبي سفيان ولكن قادته المصممين على الحرب تابعوا التقدم باتجاه المدينة وعسكروا

في بدر.

لم يشع النبي ﷺ بحكمته تفاصيل الخبر كي لا يدب الخوف والجزع بين الناس واكتفى بإخبار المسلمين عن خروج الجيش الغازي إلى المدينة. وتشاور مع الأنصار لأن عهده معهم كان على الحماية في المدينة فقط. عبّر المهاجرون عن دعمهم الكامل ولما طلب النبي ﷺ مرارا جوابا من الأنصار تكلم أحد قادتهم وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه معبرا عن دعمه الكامل وأنهم على العهد. فأمر رسول الله ﷺ بالخروج باسم الله وأنه وعِد بالنصر، فتقدموا إلى بدر حيث كان العدو قد أخذ موقعا أفضل من الأرض إذ كان صلبا وفيه ماء، بينما عسكر المسلمون على هضبة رملية. فأنزل الله ماء من السماء فأصبح موقع المسلمين أكثر تماسكا وأفضل موطئا. كان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان ويوم جمعة.[52]

وفقا لأعراف الحرب حينها، كان البدء بالمبارزات الفردية وقد اختار لها رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين ولم يُخرج لها من الأنصار. فخرج حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم فقتلوا خصومهم، ثم انهال جيش قريش على المسلمين وحمي الوطيس وبدد المهاجرون والأنصار صفوف العدو. سأل غلامان من الأنصار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عمن يكون أبو جهل فلما دلهما عليه ابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه.[53]

وعلى أفضل حال ما كان يُتوقع أن ينتصر المسلمون على جيش بكامل عتاده ولكن ذلك تحقق بأدعية رسول الله ﷺ الذي برفع رأسه من سجدته تلا الآية الكريمة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: 46)، ورماهم رسول الله ﷺ بالحصباء من يده وهبت ريح عاصفة فملأت عيونهم وأفواههم وأنوفهم بالرمال وحدثت الفوضى بين صفوف العدو، وخلت ساحة المعركة منهم. أسر المسلمون حينها سبعين وقتلوا مثلهم في المعركة، وقُتل من قادة المشركين أربعة وعشرون ودُفنوا في القَليب. استُشهد أربعة عشر مسلما، ستة مهاجرين وثمانية أنصار، ورجع المسلمون إلى المدينة بالنصر والغنائم.[54]

كتب السير ويليام موير عن معاملة أسرى بدر من قبل المسلمين فقال:

"وتبعًا لأوامر محمد قام أهل المدينة والمهاجرون الذين أصبح لهم بيوت في المدينة، باستقبال الأسرى وأحسنوا معاملتهم. وفيما بعد قال أحد هؤلاء الأسرى: "جزى الله أهل المدينة خيرا!

كانوا يحملوننا ويمشون، وآثرونا بالخبز على قلته وأكلوا التمر". فلا عجب أن أعلن بعض هؤلاء الأسرى بسبب هذه المعاملة إسلامهم فحُرروا ليبقى الآخرون بانتظار الفداء. ولكن قريشا استغرقت وقتا طويلا قبل أن تتنازل للمجيء إلى المدينة بهذا الهدف، وبذلك طال أمد حسن المعاملة تاركا تأثيرا حسنا في عقول الذين لم يسلموا منهم أيضا. وكان فداء الأسرى وفقا لمكانتهم فبعضهم افتُدي بألف وغيرهم بأربعة آلاف درهم، ومن لم يكن ذا سعة حرر دون فدية."[55]

ومع أنه وفقا لأعراف الحروب في ذلك الوقت كان هؤلاء الأسرى يستحقون القتل إلا أن رسول الله ﷺ قد وعدهم باطلاق سراحهم مقابل فدية بسيطة؛ فكان فداء المتعلم منهم أن يعلم عشرة أطفال من المدينة وكانت تلك معاملة حسنة فيما لو قورنت بالأعراف السائدة التي كانت تجبر الأسير على العمل دون مقابل.[56]

أحداث متفرقة من السنة الثانية للهجرة

لقد تحولت القبلة في العام الثاني من الهجرة. كان رسول الله ﷺ يصلي في مكة إلى الكعبة مستقبلا بيت المقدس، ولكن ذلك أصبح متعذرا بالمدينة لموقعها الجغرافي بين مكة وبيت المقدس فكان يستقبل بيت المقدس في الصلوات. وبعد ستة عشر أو ثمانية عشر شهرا تلقى الأمر بتولية وجهه شطر المسجد الحرام في مكة.

وفُرض الصوم في ذلك العام أيضا وبدأ المسلمون يحتفلون بالعيد في أول شهر شوال.[57]

تزوج النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها في تلك السنة أيضا وكان قد عقد عليها في مكة، لتبدأ بذلك مهمة تربية وتعليم النساء بأفضل طريقة، وقد روت عائشة رضي الله عنها الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ. لقد كانت أحب نسائه إليه بسبب جمالها وعلو مقامها الروحاني وفطنتها. وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لزوجه أم سلمة عن عائشة رضي الله عنهما: "والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها".[58]

وكان زواج فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه في ذلك العام أيضا.[59]

وفي ذلك العام أنذر بنو قينقاع لخرقهم الميثاق، وبدل أن يصلحوا توعدوا المسلمين وهددوهم فحوصر حصنهم وأجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة مع أن حكم التوراة فيهم كان القتل.[60]

وفي نهاية ذلك العام اتُخذت مقبرة للصحابة وعرفت فيما بعد بجنة البقيع، وكان عثمان بن مظعون رضي الله عنه هو أول صحابي دفن فيها.[61]

أحداث من السنة الثالثة للهجرة

وفي العام الثالث للهجرة تزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه أم كلثوم رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ بعد أن توفيت أختها رقية رضي الله عنها التي كانت زوجه الأولى.

وفي تلك السنة أيضا توفي زوج حفصة بنت عمر رضي الله عنهما وبعد انقضاء عدتها تزوجها رسول الله ﷺ، وبذلك أزال النبي ﷺ قلق صاحبه عمر رضي الله عنه وشجع على الزواج من الأرامل.[62]

معركة أُحد

حدثت معركة أحد في العام الثالث من الهجرة بعد أن كان زعماء قريش قد أقسموا على الانتقام لهزيمة بدر. وقد خصصوا أرباح قافلة بأكملها لهذا الغرض، وطافوا على القبائل الأخرى في جزيرة العرب يحرضونهم على المسلمين. سافر أبو سفيان أحد عشر يوما بجيش قوامه ثلاثة آلاف رجل وثلاثة آلاف بعير ومئتا فارس على جيادهم، وعسكروا عند جبل أحد خارج المدينة على بعد ثلاثة أميال. كان النبي ﷺ على اطلاع تام بتحركات العدو. وفهم ﷺ من رؤيا رآها أنه وبعض أصحابه سيصابون بأذى. نصح أن يكون القتال في المدينة نفسها ولكن حماس المقاتلين الشباب رجح عند المشاورات أن تكون المواجهة خارج المدينة.

فخرج رسول الله ﷺ مع ألف مقاتل وحصانين فقط وما امتلك السلاح إلا مئة من المقاتلين. انسحب عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث مئة من رجاله بحجة أن رسول الله ﷺ أطاع الناس وعصاه، إذ كان رأيه القتال داخل المدينة أيضا.[63]

وبكل ثقة بالله عسكر المسلمون أسفل أحد، ولكن الثغرة عند تلة على ميسرتهم التي عرفت فيما بعد بجبل الرماة شكلت خطرا من تسلل جيش العدو فأمر رسول الله ﷺ كتيبة من خمسين رجلا من الرماة وأمرهم أن يثبتوا مكانهم بكل الأحوال سواء انتصر المسلمون أو هزموا.[64]

قبل الهجوم العام نازل علي رضي الله عنه حامل لواء قريش طلحة فقتله، وقتل حمزة رضي الله عنه عثمان أخا طلحة. ثم اشتبك الجيشان. وقد أخذ أبو دجانة رضي الله عنه السيف الذي أعطاه إياه رسول الله ﷺ

بحقه، وقُتل في تلك المعركة الشرسة تسعة من حاملي الألوية من قريش وقد أثار ذلك ذعرا في صفوفهم ففروا وغلبهم المسلمون.

عصى الرجال على جبل الرماة قائدَهم وهُرعوا ليشاركوا إخوانهم في فرحة الانتصار، وعندما رأى خالد بن الوليد ذلك التفّ على المسلمين من الثغرة وهاجمهم وقد أحدث ذلك اضطرابا في صفوف المسلمين. قاتل حمزة رضي الله عنه بكل شجاعة إلا أن وحشيا، الذي كان عبدا لجبير بن مطعم الذي قتل حمزة رضي الله عنه عمه في بدر، رماه بحربة فأرداه شهيدا.[65]

فَقَدَ طلحة رضي الله عنه يده وهو يقي بها وجه رسول الله ﷺ، ودافعت أم عُمارة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ بكل شجاعة، واستُشهد مصعب بن عمير حامل اللواء مع آخرين، وجُرح عدد كبير من المسلمين، وشاع بين القوم أن النبي ﷺ قُتل، إلا أنه كان مجروحا في وجهه ومشجوجا في جبهته وقد تضرج بدمه، وأخذته ابنته فاطمة رضي الله عنها وعلي رضي الله عنه إلى مكان آمن للعناية به، ومع أنه أوذي بشدة إلا أنه كان يدعو لعدوه قائلا: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".[66]

وفي تلك المرحلة الحرجة بدأ أبو سفيان يتباهى ويطلق الشعارات. أمر رسول الله ﷺ المسلمين ألا يجيبوه، ولكنه عندما عظّم أوثانه وقال: اعلُ هبل، قال لهم رسول الله ﷺ: أجيبوه! قالوا ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. ودوّت ساحة أُحد بالتكبير. ووَعد أبو سفيان بأن يعود لمواجهة المسلمين في العام التالي ثم انصرف. دبّر رسول الله ﷺ دفن الشهداء وقد كان مُثِّل بأجسادهم.[67]

وفي تلك الظروف الحرجة من الخسارة والصدمة ظهرت مواقف تدل على الإخلاص الشديد. مر رسول الله ﷺ بامرأة من الأنصار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها في المعركة فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: "كل مصيبة بعدك جللٌ"، تريد صغيرة.[68]

وفي طريق العودة أدرك أبو سفيان وصحبه أنهم لم يحققوا شيئا، فلا هم أسروا ولا هم غنموا فقرروا العودة للسلب. وعندما بلغ الخبر رسول الله ﷺ طاردهم مع أصحابه المكلومين إلى حمراء الأسد فعدل أبو سفيان عن رغبته.[69]

حُرِّمت الخمر في ذلك العام أيضا. وما كان رسول الله ﷺ قد شربها سابقا قط. وعندما أُعلن تحريمها استجاب الصحابة على الفور، فأهرقوها في طرق المدينة.[70]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

وجعلتَ دسكرةَ المُدام مخرَّبا وأزلتَ حانتها من البلدان•

بعد هزيمة أُحد ازدادت عداوة القبائل في الجزيرة العربية أضعافا، وحاكوا مؤامرات كبّدت المسلمين خسائر جسيمة، كانت أولاها استشهاد ثمانية من الصحابة وأسر اثنين؛ فبناء على طلب قبيلتي عَضَل والقارة أُرسل عشرة من الصحابة ليعلّموهم القرآن، فغدروا بهم وقتلوا ثمانية منهم. وقاتل خبيب وزيد رضي الله عنهما بكل بسالة وأُسرا، وعندما قُدِّما للقتل ورأى أبو سفيان ثباتهما اضُطر للشهادة قائلا: ما رأيت من الناس أحدا يحب كحب أصحاب محمد محمدا.[71]

والحادث الآخر هو فاجعة بئر مَعُونة التي قُتِل فيها غدرا سبعون من حفظة القرآن الكريم. كان هؤلاء الصحابة قد أرسلوا استجابة لطلب زعيم بني عامر ليعلّموهم الإسلام. لقد حزن رسول الله ﷺ بسبب هذه الفاجعة حزنا شديدا، وقنَتَ شهرا يدعو في الصلوات على قاتليهم.

في السنة الرابعة للهجرة أُجلي يهود بني النضير عن المدينة إذ كانوا قد خططوا لقتل النبي ﷺ بإلقاء صخرة عليه، وعندما عُنّفوا على فعلتهم ما اعتذروا بل تعنتوا، فحوصرت قلعتهم وبالنهاية وافقوا على مغادرة المدينة بمتاعهم. كان هدف رسول الله ﷺ أن يتوقفوا عن أذاهم ولذلك سمح لهم بالمغادرة.[72]

بعد ذلك سار رسول الله ﷺ لقبائل نجد ليتخذ ضدهم إجراءات شديدة بسبب أفعالهم العدائية، وأقيمت للمرة الأولى في تاريخ الإسلام صلاة الخوف، وسميت تلك الغزوة بغزوة ذات الرقاع.

بعد استشهاد عبد الله بن جحش رضي الله عنه في أحد تزوج رسول الله ﷺ من أرملته زينب بنت خزيمة رضي الله عنها التي كانت تقية كريمة فطنة، وعرفت بأم المساكين، وتوفيت بعد ذلك بمدة

• مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 352.

قصيرة.

وقد تزوج النبي ﷺ في تلك السنة من أم سلمة رضي الله عنها التي كانت من عائلة قرشية كريمة، كان زوجها قد جرح في أحد ثم توفي بعدها. كانت أم سلمة رضي الله عنها امرأة ذكية وحكيمة وتعلَم القراءة والكتابة وقد عاشت إلى أربع وثمانين عاما ولعبت دورا مهما في تعليم وتربية النساء المسلمات. وقد روت عددا كبيرا من أحاديث رسول الله ﷺ.[73]

وفي السنة الخامسة للهجرة، سافر النبي ﷺ مع ألف من صحابته مدة خمسة عشر يوما إلى مكان قرب حدود الشام يدعى: دومة الجندل. وقد كان الهدف من تلك الغزوة ردع مجموعة من المجرمين الذين كانوا خطرا على المدينة ولكنهم لما سمعوا بمقدم جيش المسلمين هربوا.

وفي ذلك العام تزوج النبي ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها التي كان قد زوّجها زيدا رضي الله عنه بعد أن أعتقه وتبنّاه، ليزيل الفوارق الطبقية في المجتمع. ولكن زواجها من زيد رضي الله عنه لم ينجح لبعض الأسباب الداخلية. وبزواج النبي ﷺ من طليقة متبناه أزال عادة خاطئة عند العرب إذ كان ذلك يعد غير مشروع.[74]

وقد ورد في القرآن الكريم بعد ذكر زواج زينب رضي الله عنها من رسول الله ﷺ المكانة العالية لرسول الله ﷺ بكونه خاتم النبيين: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 41)

الأمر بالحجاب

هدَف الأمر بالحجاب الذي ورد في سورة الأحزاب إلى حماية قيم المجتمع. وقد أُمرت النساء بالحجاب كي يُعرفن أنهن مسلمات. وفي سورة النور أُمر كل من الرجال والنساء بغض البصر. على النساء ستر زينتهن إلا ما ظهر منها. كان ذلك التعليم وفقا للحال وهذا ما شكل أساس الاختلافات في أنواع الحجاب بين المدن والقرى وبين الأغنياء والفقراء وبين عامة نساء المسلمين وأزواج النبي ﷺ. وروح الحجاب ألا تكون المرأة بحكم السجينة ولا أن تكون عارية كما في الثقافة الغربية. وكانت النساء المسلمات في زمن النبي ﷺ يحافظن على الحجاب ويشاركن في الاجتماعات التربوية والتدريب الديني ويركبن الجياد ويشاهدن العروض الترفيهية. وكن يقدمن الماءَ للجرحى ويضمدنهم في الحروب، دون أن يحد الحجاب من نشاطهن.[75]

غزوة بني المصطلق

في العام الخامس للهجرة، بلغ النبي ﷺ بأن بني المصطلق يعدون العدة للهجوم على المدينة فخرج إليهم بمجموعة من صحابته حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع فهزم الله بني المصطلق. وحدث حينها حادثان مؤسفان، أحدهما شجار بين أحد الأنصار وأحد المهاجرين نتج عنه اصطدام الفريقين، والثاني هو استغلال المنافق عبد الله بن أبي بن سلول الموقف ليتجرأ ويقول لقومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.[76]

وكذلك تطاول على النبي ﷺ بقوله: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وهذا دليل على نفاقه وأن الإيمان لم يدخل قلبه. ومع أنه لم يفت فرصة لإحداث الاضطراب إلا أن النبي ﷺ ما عامله إلا بالحسنى.

حادثة الإفك

عند العودة من هذه الغزوة قام زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بنشر الإشاعات ضد عائشة رضي الله عنها محاولا الانتقام من المهاجرين. وما حدث أن رسول الله ﷺ لما فرغ من غزوة بني المصطلق نزل قريبا من المدينة فبات هناك ثم أُذِّن في الناس بالرحيل. كانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت لبعض حاجتها وفي عنقها عقد فلما رجعت إلى الرحل التمسته فلم تجده فرجعت تبحث عنه حتى وجدته. أثناء غيابها جاء القوم الذين يرحلون لها البعير فحملوا الهودج عليه وظنوا أن عائشة رضي الله عنها في داخله ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا إلى المدينة. كان صفوان بن المعطل من وراء الجيش ولما مر بالمكان وجد عائشة رضي الله عنها فحملها بأمان وقاد بها الراحلة حتى لقيا الجيش. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول ثم التحق به بعض المسلمين أيضا. مرضت عائشة رضي الله عنها ولم تكن مدركة ما يشيعه الناس عنها، وعندما أخبرتها أم مِسْطَح بقول أهل الإفك أصابتها الصدمة بشدة، ثم استأذنت رسول الله ﷺ أن تأتي أبويها فأذن لها. فبكت حتى لم يرقأ لها دمع ولم تكتحل عيونها بنوم وقالت بأن البكاء كاد يفلق كبدها. ولكنها كانت تجسيدا للدعاء والثقة المطلقة بالله بأنه

هو من سيبرئها. ثم جاء ذلك اليوم المنتظر وتلقى النبي ﷺ وحيا يبرئ عائشة رضي الله عنها ويقرأ قرآنا في سورة النور:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: 12-21).[77]

كانت جويرية بنت الحارث إحدى الأسيرات من غزوة بني المصطلق وكانت ابنة سيد القبيلة، ووقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها وجاءت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. ولما رأى النبي ﷺ أن صلة متينة مع هذه القبيلة ستؤدي إلى انتشار الإسلام دفع فديتها وتزوجها. فقال الناس أصهار رسول الله ﷺ! فأرسلوا من كان بأيديهم من بني المصطلق من الأسرى فأسلم بنو المصطلق.[78]

غزوة الأحزاب

كان زمن تلك الغزوة من أصعب الأوقات على النبي ﷺ وعلى أصحابه، إذ اجتمع يهود المدينة وقريش ومعظم قبائل العرب لمحاولة أخيرة في توجيه ضربة قاضية للإسلام. بعد عامين من غزوة أحد خطط أبو سفيان للهجوم على المدينة بجيش كبير (اختُلف في عدد جنوده بين عشرة آلاف إلى أربعة وعشرين ألف مقاتل). استشار النبي ﷺ أصحابه فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بضرب الخندق على المدينة، وكان ذلك من أساليب الفرس في الحرب. فبُدئ حفر الخندق وشارك فيه النبي ﷺ على جوعه الشديد، ولما اعترضتهم صخرة تقدم وحطمها بنفسه بثلاث

ضربات وكان كلما ضرب ضربة لمعت تحت المعول بُرقة ورافقتها بشارة من الله تبارك وتعالى بالانتصارات المستقبلية ورأى رسول الله ﷺ فتح الشام وفارس وأنه سُلّم مفاتيح قصورها. ومع أن المنافقين سخروا من هؤلاء المسلمين الذين يتضورون جوعا ويحلمون بحكم تلك البلاد إلا أنه في سنوات قليلة تحققت هذه النبوءة مثبتة صدق رسول الله ﷺ.

نجح أبو سفيان بإقناع بني قريظة بأن ينقضوا عهدهم مع المسلمين. وقد وصف القرآن الكريم حالة المسلمين حينها بالقول: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: 12)

أثناء الحصار كان المسلمون مرهقين بسبب الحراسة على مدار الساعة ومن جهة أخرى كان عليهم أن يضمنوا حماية النساء والأطفال من غدر اليهود. كان المشركون يحاولون باستمرار تجاوز الخندق كلما وجدوا ضعفا في الدفاع، وقد استطاع عمرو بن عبد وُد المعروف بقوته أن يجتاز الخندق فتصدى له علي رضي الله عنه مسلحا بأدعية النبي ﷺ وسيف قد أعطاه إياه فقتله.

طال الحصار وضعُف المسلمون وفي تلك الحالة اليائسة استشار النبي ﷺ زعماء الأنصار واقترح بأن يعزلوا بني غطفان عن قريش بإطماعهم بثلث المحصول الزراعي من المدينة. وقرر الأنصار الاستمرار بالقتال ببسالة. وبدعاء النبي ﷺ استطاع نعيم بن مسعود أن يحدث شرخا بين اليهود وقريش. ولما تعبت قريش من طول الحصار قررت الهجوم على المدينة، وفي تلك الليلة أرسل الله عاصفة خلعت خيام العدو وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم وملأ الرمل أنوفهم وأفواههم، فاضطرب العدو أشد الاضطراب وتطيروا بذلك فأمر أبو سفيان بالانسحاب.[79]

الخروج إلى بني قريظة

لقد استحق بنو قريظة العقوبة لخيانتهم. فبعد غزوة الأحزاب، خرج رسول الله ﷺ إليهم وحاصرهم. واختار بنو قريظة أن يحكِّموا فيهم سعد بن معاذ وتعهدوا بالانصياع والتنفيذ، فطبق سعد عليهم حكم التوراة في الخيانة وهو أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم. فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قبل بحكمه، ولو أن بني قريظة قبلوا أن يحكم فيهم رسول الله ﷺ وأن يعاملوا كما عومل بنو النضير وبنو قينقاع لربما حفظوا رجالهم.[80]

غزوة الحديبية

كان صلح الحديبية حدثا مهما بعد غزوة الأحزاب. رأى النبي ﷺ في الرؤيا أنه يطوف وأصحابه بالكعبة، ولتحقيق هذه الرؤيا أمر أصحابه بأن يستعدوا لأداء العمرة، وفي شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة توجهت مجموعة من ألف وأربعمئة شخص صحابي إلى مكة قاصدين العمرة بسلام. ولما اقتربوا من مكة وصلتهم أخبار أن قريشا مانعتهم من أداء العمرة ولو بالقوة. وفشلت المحاولة بالدخول وخيم المسلمون في الحديبية وحاول النبي ﷺ أن يصل إلى تفاهم فأرسل عثمان رضي الله عنه إليهم، وعندما تأخرت عودته أشيع أنه قد استشهد، فجمع النبي ﷺ أصحابه تحت شجرة السمُرة وأخذ منهم عهدا بألا يفروا ولا يرجعوا دون القصاص لموت عثمان رضي الله عنه.[81]

أدركت قريش غضب المسلمين فمالت إلى عقد الصلح، وبعد التفاوض وقِّعت معاهدة الصلح لمدة عشر سنوات، وكانت أبرز شروطها:

1- أن يرجع المسلمون ذلك العام ويعودوا في العام التالي لأداء العمرة.

2- إن التحق أحد من قريش بالمسلمين دون إذن وليه فيُرد إلى قريش ولكن إن التحق مسلم بقريش فلا يُرد إلى المسلمين.

3- كل طرف ملزم بمساعدة حلفائه.

كان في سلوك المشركين جلافة شديدة ومع ذلك فضل النبي ﷺ السلم وعقد الصلح، وقبل أن يوقع الصلح دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو في قيوده وقد فر من مكة وجأ للمسلمين وكان قد عُذب عذابا شديدا. فأصر أبوه سهيل -الذي كان يفاوض النبي ﷺ ممثلا عن قريش- أن يُرَدَّ إليه أبو جندل، فاضطر المسلمون لتسليمه لما عقدوه من صلح، فضربه سهيل وأعاده إلى مكة. وقد أغم ذلك المسلمين كثيرا حتى إن شخصا شجاعا مثل عمر رضي الله عنه زُلزل وسأل النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ ولكنه فيما بعد تاب من قوله وشكه في صدق الإسلام وعمل لذلك أعمالا من صدقات ونوافل.[82]

أصيب المسلمون بالحزن الشديد والغم من شروط الصلح القاسية ولِما أجبروا عليه من الرجوع

دون أداء العمرة. ولما أمرهم النبي ﷺ بأن يقوموا وينحروا ثم يحلقوا للتحلل من العمرة ما قام منهم رجل حتى بعد أن طلب منهم ذلك ثلاث مرات. عندها دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة التي أشارت عليه بأن يخرج دون أن يكلم أحدا منهم ثم ينحر ويدعو حالقه فيحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يُقتل غما. لا شك أن ذلك كان تضحية عظيمة بمشاعرهم وأمانيهم نتج عنه النصر التالي أي فتح مكة وخيبر. وفي طريق العودة نزلت الآيات من سورة الفتح التي فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: 2).[83]

ثم تبين أن ما بدا شروطا قاسية في الصلح كان في غاية الفائدة للمسلمين؛ فقد انتشر الإسلام أضعافا. كان عدد المسلمين عند صلح الحديبية ألفا وأربعمئة شخص فازداد ليبلغ عشرة آلاف بعد أقل من عامين. وهذا أيضا دليل على أن انتشار الإسلام ما كان بالسيف وإنما انتشر بالحب في زمن السلم.

الرسائل إلى الملوك

كتب رسول الله ﷺ رسائل إلى ملوك الروم وفارس ومصر والحبشة يدعوهم فيها إلى الإسلام وكانت نتائج ذلك عظيمة.[84]

أراد إمبراطور الروم أن يعرف أكثر عن الإسلام فأرسل إلى أبي سفيان الذي كان في ركب تجاري من قريش في الشام، وسأله أسئلة مهمة، وجعل أصحابه عند ظهره وطلب منهم أن يكذبوه إن كذب في الجواب. فأجاب أبو سفيان بالحق مضطرا.

وبعد أن سمع هرقل هذه الأجوبة قال: فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم حتى أخلص إليه لتجشمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه. وعندما سمع أبو سفيان ذلك قال لصحبه وهو خارج من عند هرقل: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ.

لقد رسخ صدق رسول الله ﷺ في قلب هرقل ولكنه ما استطاع أن يُتم ذلك بالإسلام بسبب ضغط حاشيته وخشيته على نفسه. وقد لفَّ كتاب رسول الله ﷺ بمنديل مذهب ووضعه في صندوق ذهبي، فحُفظ إلى بضع مئات من السنين.[85]

كانت استجابة كسرى فارس معاكسة تماما، إذ مزق الرسالة وقال: يكتب إلي هذا وهو

عبدي؟ ولما بلغ ذلك النبي ﷺ دعا عليه قائلا: مزق الله ملكه. ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. وعندما جاء الرجلان النبي ﷺ للقبض عليه أرجأهما إلى الصباح، وفي الصباح أخبرهما بما تلقاه من الله تعالى وقال لهما أن يخبرا باذان بقوله ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبَّكَ اللَّيْلَةَ. وعندما تأكد ذلك حرفيا وأن شيرويه ابن كسرى قد قتل أباه في تلك الليلة بالضبط وأنه ألغى أمر القبض على النبي ﷺ؛ أسلم باذان.[86]

تأثّر ملك مصر المقوقس بشدة برسالة النبي ﷺ فوضعها في صندوق من العاج وأرسل جوابا عليها عبّر فيه عن تقديره لما جاء في رسالة النبي ﷺ وذكر أنه كان بنفسه منتظرا ظهور نبي ولكنه كان يظن أنه سيبعث في الشام. وأرسل هداياه، ثيابا وبغلة وقدم فتاتين أختين من عائلة محترمة من الأقباط لرسول الله ﷺ، كانت إحداهما ماريا القبطية التي تزوجها النبي ﷺ وأنجبت له ابنه إبراهيم، أما أختها سيرين فتزوجت من حسان بن ثابت رضي الله عنه. استخدم النبي تلك البغلة لتنقّله وكذلك في معركة حنين.[87]

لقد استقبل النجاشي ملك الحبشة رسالة النبي ﷺ الداعية إلى الإسلام بكل احترام. في الأيام الأولى للإسلام كانت مجموعة من المسلمين قد هاجرت إلى ذلك البلد، وأتبعتهم قريش وطالبت بإعادتهم ولكن خطاب جعفر رضي الله عنه البليغ وتلاوته لسورة مريم كان له أثره في قلب الملك فعامل المسلمين بلطف وعدل. وعندما بلغه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام وضعه على عينيه ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعا وأرسل الهدايا وقال: أشهد أن محمدا رسول الله، وقد وضع تلك الرسالة في صندوق من العاج وقال بأنه ما دامت هذه الرسالة محفوظة في عائلتنا وشعبنا فإننا سننال البركات، وكتب جوابا على رسالة النبي ﷺ بأنه بايع رسول الله ﷺ على يد ابن عمه جعفر كممثل عنه.[88]

عندما مات النجاشي في السنة التاسعة للهجرة قال رسول الله ﷺ: "مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة." [89] وكانت تلك أول صلاة جنازة غائب.

كان رسول الله ﷺ قد كتب له رسالة ثانية أوكل إليه بعض المهام التي أداها الملك على أكمل وجه، ومنها أن يخطب له أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها التي توفي عنها زوجها في

الحبشة. والمهمة الأخرى كانت أن يرسل إليه جعفر رضي الله عنه وأصحابه، فوصل هؤلاء المهاجرون النبي ﷺ وهو عائد من خيبر فقال: "ما أدري بأيهما أنا أسرُّ، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر."[90]

غزوة خيبر

بعد هجرة المسلمين إلى المدينة واجهوا خطر قريش من مكة وخطر اليهود من شمال المدينة، وبعد أن أجليت القبائل اليهودية من المدينة تجمعوا في منطقة خيبر. وازدادت عداوة اليهود في الشمال وتآمروا مع بني غطفان لمهاجمة المدينة، فاتخذ النبي ﷺ إجراءات فورية لحماية المدينة فعسكر مع ألف وستمئة من أصحابه في السنة السابعة للهجرة بين خيبر وغطفان وحال بينهما. وبدأت الحرب المفتوحة ولمّا قتل صناديد اليهود انسحب جيشهم إلى القلاع ولكن المسلمين اقتحموا تلك القلاع حتى وصلوا إلى أمنعها. بذل اليهود جهدهم لحماية أنفسهم وطال الحصار عشرين يوما. ثم قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه. فأعطاها عليا رضي الله عنه ففتح الله على يديه.[91]

وحدث حادث أثناء الحصار يدل على أعلى درجات أداء الأمانة؛ أسلم راعي أحد رجال اليهود، فسأل النبي ﷺ ما يفعل بالغنم التي هو أجير عليها، فأمره رسول الله ﷺ أن يوجهها إلى القلعة وسيتكفل الله أن تصل لصاحبها. فدخل الغنم القلعة.[92] فبدل أن تُقطع المؤونة عن العدو المحاصر تأمّنت لهم بما يكفيهم شهورا. ولن نجد حتى في عالمنا المتحضر اليوم مثالا كهذا على الأخلاق السامية.

وبناء على طلب اليهود أعاد لهم رسول الله ﷺ أراضيهم الزراعية مقابل نصف المحصول، ومع ذلك ما كفّوا عن المؤامرة والمكيدة؛ فلما فتحت خيبر أهدوا الرسول ﷺ شاة مشوية دسّوا فيها السم، ومات على إثره الصحابي بشر بن البراء رضي الله عنه ولكن رسول الله ﷺ سلم من هذه المحاولة. وعندما سأل ﷺ المرأة اليهودية ما حملها على ما صنعت قالت: أردت أن أعلم إن كنت صادقا فإن الله سيطلعك على ذلك وإن كنت كاذبا أرحتُ الناس منك. وقد عفا رسول الله ﷺ عنها.[93]

وكانت صفية بنت أحد زعماء اليهود من بين السبي وقد أعطيت لدحية الكلبي رضي الله عنه، ونزولا على مشورة أصحابه تزوجها النبي ﷺ وأعطي دحية الكلبي رضي الله عنه غيرها من السبي. وبذلك

تحققت رؤيا كانت صفية رضي الله عنها قد رأتها بأن قمرا سقط في حجرها، والتي فسرها أبوها بأنها ستتزوج ملكَ العربِ.[94]

كان هدف الزواج من صفية رضي الله عنها تقريب القبائل اليهودية إلى الإسلام، وقد تأثرت السيدة صفية رضي الله عنها بأخلاق الرسول ﷺ وقيمه العليا وكرست نفسها له. وفي مرض النبي ﷺ الذي مات فيه قالت صفية: وددت والله لو أن الذي بك بي. وقد شهد رسول الله ﷺ على أنها كانت صادقة بمقولتها تلك.

في السنة السابعة للهجرة عرض العباس رضي الله عنه أخت زوجته السيدة ميمونة على رسول الله ﷺ فتزوجها.[95]

وكان ذلك آخر زواج للنبي ﷺ. وقد كان وراء ذلك العدد من الزيجات حاجة وحكمة عادت على النبي ﷺ بالبركات. فأولا تحققت مهمة تعليم وتربية النساء من خلال زوجاته. ثانيا، أقيمت أواصر المصاهرة مع القبائل العربية، فمالوا إلى الإسلام. وثالثا تعلمت نساء تلك القبائل الشريعة من قريباتهن. لو كان الدافع وراء ذلك هو المتعة الشخصية كما يعترض المعترضون، لكان بإمكانه أن يتزوج الفتيات الشابات بدل كبيرات السن والأرامل.

وفي العام السابع من الهجرة اعتمر النبي ﷺ مع ألفين من أصحابه وفقا لاتفاقية الحديبية، وبقوا في مكة ثلاثة أيام كما اتُّفق، أسلم خلالها قائدان عظيمان من قادة مكة هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما.[96]

غزوة مؤتة

عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بلغه أن الغساسنة، وهم قبائل عربية مسيحية على الحدود مع الشام، تعدّ العدّة للهجوم على المسلمين مع حلفائهم من الروم. فأرسل سرية لتحري الحقيقة، فاستُشهد كل من فيها. فبعث النبي ﷺ بكتاب إلى شرحبيل حاكمِ بُصرى، فقتل الرسولَ حاملَ الكتاب، فأرسل النبي ﷺ جيشا قوامه ثلاثة آلاف جندي إلى جنوب الشام وأمّر عليه زيد بن حارثة رضي الله عنه.[97]

دار قتال دامٍ مع جيش العدو بقيادة شرحبيل، واستشهد في تلك المعركة أمراء الجيش الإسلامي زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، واحدا تلو الآخر. ثم استلم الراية

خالد بن الوليد، ففتح الله له وأعانه على أن يعود بالجيش إلى المدينة، فسماه النبي ﷺ سيف الله نظرًا إلى شجاعته.[98]

فتح مكة

في ظل صلح الحديبية والسلم الناجم عنه ازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة، فزاد ذلك من غيظ قريش التي بدأت تبحث عن عذر لقمع المسلمين. وكانت خزاعة دخلت في عقد رسول الله ﷺ، بينما دخل بنو بكر في عقد قريش عند صلح الحديبية، فاعتدت بنو بكر على خزاعة لثأر قديم بينهما، وبدل أن تقوم قريش بردع حليفها كما ورد في صلح الحديبية زودته بالسلاح، فكان لا بد للمسلمين من الوقوف مع حليفهم. ووصل وفد من بني خزاعة إلى النبي ﷺ يستنصره، فوعد بنصرهم، فطلب من قريش أن يدفعوا دية القتلى ويردعوا بني بكر أو يعلنوا إلغاء صلح الحديبية الذي عقدوه. فكان ردهم بنقض الصلح والهدنة، ولكنهم ندموا على ذلك بعدها فأرسلوا أبا سفيان لمحاولة تجديد الصلح ولكنه فشل في مهمته.[99]

جمع رسول الله ﷺ بهدوء جيشا من عشرة آلاف صحابي وزحف به إلى مكة لتتحقق بذلك حرفيا نبوءة موسى عليه السلام بأن النبي المقبل سيظهر بعشرة آلاف قديس. ومضوا حتى نزلوا مَرّ الظَهران فأمرهم النبي ﷺ أن يشعلوا نيرانهم تلك الليلة، وقد فوجئ زعماء قريش بهذا الجيش العرمرم.

أجار العباس رضي الله عنه أبا سفيان تلك الليلة ثم أسلم في الصباح. أعلن رسول الله ﷺ أن دخول مكة سيكون سلميا وأن من يدخل المسجد ومن يدخل دار أبي سفيان ومن يغلق بابه ومن يضع سلاحه يكون آمنا. ودخل جيش المسلمين مكة من جهاتها الأربعة ودخلها خالد بن الوليد من شمالها بعد أن لقي مقاومة من عكرمة بن أبي جهل.

أسقط رسول الله ﷺ الأصنام حول الكعبة ثم طاف بها، وبعد أن أخذ مفتاحها من عثمان بن طلحة دخلها، ثم دفعه إليه ثانية لتبقى سِدانة الكعبة بيد عائلته، وقد كان لذلك وقعٌ في قلبه فأسلم.

ثم خطب رسول الله ﷺ خطبة تناولت موضوع وحدانية الله وحرمة الكعبة المشرفة. ثم سأل أعداءه الذين كانوا متعطشين لدمه ما يتوقعون أن يلقوه من معاملة من قبله، فأجابوا: أخ كريم

وابن أخ كريم. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وبذلك عفا عنهم وصفح، وفرّ عكرمة بن أبي جهل خوفا على حياته، ولكن زوجه أم حكيم استأمنت له رسول الله ﷺ فأمّنه، فانشرح قلبه للإسلام.[100]

لم يكتف النبي ﷺ بالعفو عن أعدائه وإنما قدم لهم الهدايا أيضا، حتى إنه صفح عن وحشي قاتل عمه حمزة رضي الله عنه. ونتيجة لتلك المعاملة الحسنة الفريدة للعدو توافدت قبائل جزيرة العرب للدخول في الإسلام وأخذ رسول الله ﷺ البيعة من النساء أيضا وفقا للآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة: 13).

غزوة حنين

أزعج فتح مكة قبائل الطائف"هوازن وثقيف"، فجيشوا جيشا منهم ومن القبائل المجاورة. ولما بلغ رسول الله ﷺ أمرُهم زحف إليهم إلى وادي حنين باثني عشر ألف صحابي. كانت هوازن معروفة بالرماية فكمنوا للمسلمين وأمطروهم بسهامهم عندما بلغوا الوادي. كانت مقدمة الجيش بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه. وقد غرّت المسلمين كثرتهم وتقدموا بكل ثقة ولكن رشقات السهام المفاجئة الغزيرة أحدثت فوضى بين الصفوف، فأخذوا بالانسحاب والتراجع العشوائي وجفلت مطاياهم. كان النبي ﷺ يركب بغلته البيضاء ويدفعها للتقدم دون خوف قائلا: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

أمر النبي ﷺ العباس رضي الله عنه، وكان جهوري الصوت، أن ينادي على المهاجرين والأنصار، فما إن سمعوا النداء حتى قفزوا عن مطاياهم وتجمعوا حول النبي ﷺ وهاجموا العدو بكل قوتهم، فانقلبت الدفة ودُحر العدو وانتصر المسلمون، فغنموا ستة آلاف من الذراري والنساء وأربعة وعشرين ألفا من الإبل، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وأكثر من أربعين ألفا من الغنم، وفي الاكتفاء ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عِدّتُهم.[101] ووزع النبي ﷺ الغنائم في الجعرانة بين المقاتلين.

ذكرَ وفدٌ من هوازن صلةَ القرابة برسول الله ﷺ عن طريق مرضعه حليمة السعدية وطلبوا

الصفح، فحرر ﷺ كل من كان من نصيبه ونصيب بني المطلب من أسرى هوازن، فتحرر ذلك اليوم ستة آلاف أسير ومِن بينهم أخته ﷺ بالرضاعة شيماء بنت حليمة السعدية التي أكرمها رسول الله ﷺ وأهدى لها.[102]

ولتأليف قلوب زعماء قريش لحداثة عهدهم بالإسلام أعطاهم من الغنيمة عطاء عظيما من الإبل، فبدأ بعض الأنصار يتهامسون ووجدوا في أنفسهم على رسول الله لما صنعه في تقسيم الغنيمة بين قومه. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ جمعهم ولم يدع معهم أحدا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: "يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضُلَّالا فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضلُ. ثم قال: "ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم ولصُدِّقتُم: أتيتَنا مكذَّبًا فصدقّناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك. أوَجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به". فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قِسمًا وحظًّا.[103]

لجأتْ فلول المشركين من حنين إلى الطائف، فضرب رسول الله ﷺ الحصار على الطائف لعشرين يوما دون الوصول لنتيجة، فرُفع الحصار وعاد المسلمون إلى المدينة.

غزوة تبوك

في السنة التاسعة من الهجرة بعد العودة من مكة، بلغ رسول الله ﷺ أن ملك الغساسنة يجمع جيشا كبيرا بعد غزوة مؤتة مرة ثانية لشن غارة على المدينة بدعم من هرقل الرومي. فأمر النبي ﷺ القبائل كلها أن تصل إلى المدينة لمواجهة خطر قيصر الروم. تطلّب تجهيز جيش كبير كهذا نفقة كبيرة، فلما حض رسول الله ﷺ الناس على دعم الحملة قدم الصحابة أسوة لا مثيل لها في التضحية المالية. قدم أبو بكر رضي الله عنه كل ما يملك وقدم عمر رضي الله عنه نصف ما يملك وتبرع عثمان رضي الله عنه بكل رأس ماله التجاري لتجهيز الجيش، وتسابق الصحابة الآخرون في عمل الخير هذا.

وخرج رسول الله ﷺ بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل واستخلف عليا رضي الله عنه على المدينة، ولما عيّر المنافقون عليا رضي الله عنه أنه أُبقي مع الخوالف استثقالا له وتخفّفا منه، طيّب النبي ﷺ خاطره بقوله: "أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي."

ولما مروا بأنقاض ثمود أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحثّوا السير لتجاوز ذلك المكان.

وبعد أربعة عشر منزلًا وسفرٍ طويل مضنٍ، وصلوا تبوك ليجدوا أن مدد قيصر المزعوم ما كان إلا إشاعة وأن جيش الغساسنة قد تبدد بعد أن سمع بزحف جيش المسلمين الكبير. فرجع رسول الله ﷺ بالجيش بعد أن أقام في تبوك عشرين يوما. وقد استغرقت تلك الحملة شهرين.[104]

وبوصوله المدينة تلقى رسول الله ﷺ الأمر بهدم مسجد ضرار الذي لم يؤسَّس إلا لإحداث الاضطراب والفتنة.[105]

كان وقت غزوة تبوك وقت المحاصيل الزراعية في الصيف، وبعض الناس لم يلتحقوا بهذه الرحلة الشاقة، كان معظمهم من المنافقين الذين تعذروا بأعذار مختلفة إلا ثلاثة من الصحابة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الذين كانوا نفر صدق ولا يتهمون في إسلامهم واعترفوا بتقصيرهم وخطئهم بتخلفهم عن الجيش. وقد نهى النبي ﷺ أصحابه أن يكلموهم، فعانى الثلاثة خمسين يوما من ألم المحنة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم استمروا بالدعاء بحرارة وبالاستغفار. وقد أحرق كعب بن مالك رسالة وصلته من ملك غسان يدعوه إليه ويغريه بالمواساة والإكرام إن هو أتاه. وفي اليوم الخمسين قُبلت أدعيتهم ونزل القرآن بالتوبة عليهم وبارك لهم رسول الله ﷺ بذلك.

عندما عاد النبي ﷺ من تبوك استقبل وفدا من الطائف جاء يعلن إسلامه.[106]

بعدها بأيام أرسل النبي ﷺ عليا رضي الله عنه على رأس سرية من مئة وخمسين راكبا إلى طيء ليعاقبهم على أذاهم، فكان من بين السبي سَفَّانة بنت حاتم الطائي المشهور بكرمه. وقد أطلقها رسول الله ﷺ لكرم أبيها، ولكنها ما رضيت بتحرير نفسها دون قومها. كان أخوها عدي بن حاتم قد فرّ من رسول الله ﷺ إلى الشام، ولما التحقت به في الشام وذكرت له حسن معاملة رسول الله ﷺ قدِم على رسول الله ﷺ المدينة ثم أسلم.[107]

في تلك السنة توفي إبراهيمُ ابنُ رسول الله ﷺ عن عمر ستة عشر شهرا، عندها قال رسول الله ﷺ: لو عاش لكان صديقا نبيا. وقد أظهر ﷺ صبرا جميلا على فراقه وقال: "إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَي رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ."

وصادف أن حدث كسوف للشمس فظن الناس أن ذلك لوفاة إبراهيم فقال رسول الله ﷺ: "إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله يريهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة."[108]

عُرف العام التاسع من الهجرة بعام الوفود لوصول أعداد كبيرة من وفود القبائل إلى المدينة وقبولها الإسلام. أحد هذه الوفود كان وفد نصارى نجران، الذين أذن لهم النبي ﷺ بأداء صلاتهم في مسجده حين حان موعدها. وعندما بلغهم رسول الله ﷺ بالإسلام وحاججهم وأعرضوا دعاهم للمباهلة فأبوا ولكنهم طلبوا الصلح فصالحهم النبي ﷺ ثم رجعوا إلى بلادهم.[109]

ومن الوفود المهمة وفد بني حنيفة الذي كان من بينهم مسيلمة الكذاب الذي قال: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّد الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ اتَّبعته، فَقَالَ ﷺ لَهُ: لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْعُودَ -لِعُرْجُونٍ فِي يَدِهِ- مَا أَعْطَيْتُكَهُ. وقد رأى النبي ﷺ في رؤيا سوارين من ذهب فكرههما فنفخهما فطارا، فأولهما بمدعيي النبوة الكاذبين: الأسود العنسي صاحب اليمن ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة.[110]

في السنة العاشرة للهجرة دخلت قبائل اليمن الإسلام لتصبح جزيرة العرب كلها مسلمة.

أبو بكر رضي الله عنه أميرا للحج

في العام التاسع من الهجرة عيّن رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميرا للحج، وعندما أوحيت إليه الآيات من سورة براءة بعث خلفه عليا رضي الله عنه ليبلغ عنه رسالته للناس يوم النحر. فكان أبو بكر رضي الله عنه الأمير وعلي رضي الله عنه يؤذن في الناس بآيات سورة البراءة وأنه بعد ذلك اليوم من كان له عهد من المشركين فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأربعة أشهر.[111]

حجة الوداع

في السنة العاشرة من الهجرة، انطلق رسول الله ﷺ مع مئة وعشرين ألف صحابي لأداء فريضة

الحج، وعرفت تلك الحجة بحجة الوداع. وقد كانت آية على صدقه ﷺ؛ فقبل سنوات قليلة كان يعرض نفسه على القبائل في الحج ويدعوهم ليؤازروه دون أن يلقى استجابة، واليوم أصبحت جزيرة العرب كلها عند قدميه وآلاف المخلصين من الصحابة يتفانون في خدمته. فخطب في الناس وهو على ناقته ومما قاله ﷺ:

"أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنّي لَا أَدْرِي لَعَلّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا؛ أَيّهَا النّاسُ إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ. وَقَدْ بَلّغْت، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدّهَا إلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَإِنّ كُلّ رِبًا مَوْضُوعٌ، وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ... أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّا، وَلَهُنّ عَلَيْكُمْ حَقّا... وَاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنّهُنّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنّ شَيْئًا، وَإِنّكُمْ إنّمَا أَخَذْتُمُوهُنّ بِأَمَانَةِ اللّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنّ بِكَلِمَاتِ اللّهِ. فَاعْقِلُوا أَيّهَا النّاسُ قَوْلِي، فَإِنّي قَدْ بَلّغْت. وَقَدْ تَرَكْت فِيكُمْ مَا إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيّنًا، كِتَابَ اللّهِ وَسُنّةَ نَبِيّهِ. أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ، تَعَلّمُنّ أَنّ كُلّ مسلم أَخٌ لِلْمسلم؛ وَأَنّ الْمسلمينَ إخْوَةٌ، فَلَا يَحِلّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إلّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَلَا تَظْلِمُنّ أَنْفُسَكُمْ."[112]

وفاة رسول الله ﷺ

مرض رسول الله ﷺ في شهر محرم وأصيب بالحمّى، اشتد به المرض في البداية ثم خف قليلا في شهر صفر. وأثناء مرضه بلغه خطر العدو على حدود الشام، فأمر ببعث الجيش وأمّر عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه وكان شابا، ولكن تأخر إرسال الجيش بسبب اشتداد مرض رسول الله ﷺ.[113]

واستأذن رسول الله ﷺ أزواجه أن يمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها. ومع أنه أصابه الثقل والضعف لسبعة أو ثمانية أيام بسبب المرض إلا أنه ظل يخرج للصلاة في المسجد، وخطب ذات يوم بالناس وقال: "إن الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله". ففطن لها أبو بكر رضي الله عنه فبكى لِما عرف من قرب رحيل سيده.[114]

عندما لم يقو رسول الله ﷺ على إمامة الصلاة انتدب أبا بكر رضي الله عنه. ومع أن عائشة رضي الله

عنها قد أشارت عليه أن يأمر عمرَ بأن يصلي بالناس لأن أباها كان رقيق القلب يغلبه البكاء في الصلاة، إلا أن رسول الله ﷺ أصر أن يكون أبو بكر ﷺ هو من يؤم الصلاة، وكان يسُرّه أن يراه يؤمّ الناس. وكان ذلك إشارة من رسول الله ﷺ إلى خلافة أبي بكر ﷺ.

وعند ظهر يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول اشتد برسول الله ﷺ الوجع وثقل وأشخصَ بصره لتكون آخر كلماته: اللهم في الرفيق الأعلى.[115]

انتشر خبر وفاة رسول الله ﷺ في المدينة، فأصيب الصحابة بحزن شديد وصدمة بالغة جعلت من رجل مثل عمر ﷺ يشهر سيفه مستنكرا الحدث ويقول: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون، أو قال يقولون، إن رسول الله ﷺ قد مات.[116]

ثم جاء أبو بكر ﷺ فتيمم رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم خرج للناس وحاول تهدئة عمر ﷺ ثم قال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 145)

وقال العباس ﷺ: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمعُ بشرا من الناس إلا يتلوها. وقال عمر ﷺ: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض، حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات.[117]

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ»، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ.[118]

عن علي رضي الله عنه قال: لما مات رسول الله ﷺ جاءتْ فاطمة عليها السلام، فأخذت قبضة من تراب القبر، فوضعته على عينيها، فبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شَمَّ تُرْبَة أحمدٍ أن لا يَشُمَّ مدى الزمان غَوالِيَا

صُبَّت على مصائبٌ لو أنها صُبَّتْ عَليَّ الأيام عُدْنَ لَيَالِيَا[119]

وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ وَلَمَّا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا.[120]

أما حسان بن ثابت رضي الله عنه فقد عبر عن فراق رسول الله ﷺ بشعره فقال:

كنتَ السوادَ لناظري فعَمِي عليك الناظرُ

من شاء بعدكَ فليمُتْ فعليكَ كنتُ أحاذرُ[121]

وقال المسيح الموعود عليه السلام في أحد أبيات شعره:

يا رب صل على نبيك دائما في هذه الدنيا وبعث ثانِ•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص354.

المراجع والمصادر

1 سيرة خاتم النبيينﷺ (بالأردية)؛ ميرزا بشير أحمد، ص 63-64.

2 نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام؛ محمود باشا المصري، ص 30، طبعة مصر.

3 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 1، ص 106، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 157، طبعة بيروت. دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 21، طبعة بيروت.

4 صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب شَيْبِهِ ﷺ. عيون الأثر ؛ الجزء 2، ص397، طبعة بيروت.

5 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 162-163، طبعة بيروت.

6 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 180، طبعة بيروت.

7 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 133، طبعة بيروت.

8 دلائل النبوة لأبي نعيم؛ الجزء 1، ص 204، طبعة بيروت. الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 134، طبعة بيروت.

9 الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ.

10 المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 22، ص 448، طبعة بيروت.

11 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 192-195، طبعة بيروت.

12 الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 2، ص 599، طبعة بيروت.

13 صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

14 صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

15 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 262، طبعة بيروت.

16 تفسير الطبري؛ الجزء 19، ص 407-408، طبعة بيروت. البداية والنهاية؛ الجزء 3، ص 53، طبعة بيروت.

17 السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 109-110، طبعة بيروت.

18 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

19 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 266، طبعة بيروت.

20 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 266، طبعة بيروت.

21 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 55، طبعة بيروت.

22 المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 22، ص 426، طبعة بيروت.

23 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 18، طبعة بيروت.

24 صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ.

25 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة المؤمن (غافر).

26 صحيح البخاري؛ كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

27 سنن النسائي؛ كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد.

28 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 321-322، طبعة بيروت.

29 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 290، طبعة القاهرة.

30 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص207، طبعة بيروت. المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء، 9، ص 35، طبعة بيروت.

31 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 340، طبعة بيروت. الكامل فى التاريخ؛ الجزء 1، ص677-678، طبعة بيروت. المبسوط للسرخسي؛ الجزء 10، ص 99. معرفة السنن والآثار؛ الجزء 13، ص 340 ، طبعة بيروت.

32 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 266، طبعة بيروت.

33 الروض الأنف؛ الجزء 2، ص 127، طبعة بيروت.

34 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 350، طبعة بيروت.

35 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 382، طبعة بيروت.

36 السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص521، طبعة بيروت..

37 أزواج النبي ﷺ؛ الإمام محمد بن يوسف الصالحي، ص80، طبعة دار النصرة في المدينة المنورة، عام 1992.

38 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص419 و 421. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء1، ص 212.

39 Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 117. New edition 1877, London

40 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 2، ص 56، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص504، طبعة بيروت.

41 سنن الترمذي؛ كتاب القراءات عن رسول الله، باب سورة الروم.

42 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 429 و434، طبعة بيروت.

43 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 480 و482 و485، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص228، طبعة بيروت.

44 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء1، ص 334، طبعة بيروت.

45 سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله، باب في فضل مكة.

46 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 489-490، طبعة بيروت.

47 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 492-495، طبعة بيروت.

48 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 495-501، طبعة بيروت.

49 سنن أبي داود؛ كتاب الخراج، باب في خبر النَّضير.

50 صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فِي فَضْلِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ. المستدرك على الصحيحين؛ الجزء 3، ص873، طبعة بيروت.

51 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 1، ص 396-398، طبعة بيروت.

52 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 606-613، طبعة بيروت.

53 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

54 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 100، طبعة بيروت. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 2، طبعة بيروت.

55 Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 242. New edition 1877, London

56 سيرة خاتم النبيين ﷺ (بالأردية)؛ ميرزا بشير أحمد، ص 467.

57 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 18، طبعة بيروت.

58 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة.

59 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 22، طبعة بيروت.

60 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 48-49، طبعة بيروت.

61 السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 274، طبعة بيروت.

62 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 58، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 82-81، طبعة بيروت.

63 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 59-64، طبعة بيروت.

64 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 65-66، طبعة بيروت.

65 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

66 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أحد. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحُدٍ.

67 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أُحد.

68 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 99، طبعة بيروت. عيون الأثر ؛ الجزء 2، ص 33، طبعة بيروت.

69 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 48-49، طبعة بيروت.

70 صحيح البخاري،كتاب الأشربة، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر.

71 السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 466، طبعة بيروت.

72 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 183، طبعة بيروت.

73 أزواج النبي ﷺ؛ الإمام محمد بن يوسف الصالحي، ص 148-160، طبعة دار النصرة في المدينة المنورة، عام 1992.

74 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 89-90، طبعة بيروت.

75 صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب خروج النساء للبراز. صحيح البخاري؛ كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾. صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال.

76 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 109، طبعة بيروت.

77 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث الإفك. تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 112-114، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص297، طبعة بيروت.

78 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 294، طبعة بيروت.

79 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 213-224، طبعة بيروت.

80 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته.

81 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي. تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 122، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 315، طبعة بيروت.

82 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 323، طبعة القاهرة.

83 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

84 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 258-260، طبعة بيروت.

85 صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

86 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر. تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 133-134، طبعة بيروت.

87 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 465-466، طبعة بيروت.

88 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 479-480، طبعة بيروت.

89 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب موت النجاشي.

90 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 108 و132، طبعة بيروت. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ الجزء 4، ص 519، طبعة بيروت.

91 السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 166-152، طبعة بيروت.

92 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 344، طبعة بيروت.

93 فتح الباري لابن حجر؛ كتاب المغازي، باب الشاة التي سُمّت للنبي ﷺ بخيبر. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 343، طبعة بيروت.

94 البداية والنهاية لابن كثير: الجزء4، ص 222،223، ذكرُ قصة صفية بنت حيي النضرية، طبعة بيروت.

95 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 336، طبعة بيروت. أزواج النبي ﷺ؛ الإمام محمد بن يوسف الصالحي، ص 152-166، طبعة دار النصرة في المدينة المنورة، عام 1992.

96 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 276، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 313، طبعة بيروت.

97 صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه.

98 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 378-377، طبعة بيروت. صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه.

99 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 389، طبعة بيروت.

100 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 399، 401 411،412 و418، طبعة بيروت.

101 تاريخ الخميس؛ الجزء 2، ص 112، طبعة بيروت.

102 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا﴾. فتح الباري لابن حجر؛ كتاب المغازي، باب غزوة الطائف.

103 صحيح مسلم؛ كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم. فتح الباري لابن حجر؛ كتاب المغازي، باب غزوة الطائف. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ الجزء 9، ص 762، طبعة بيروت.

104 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 519، طبعة بيروت. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر.

105 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 186، طبعة بيروت.

106 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة التوبة. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 518 و531، طبعة بيروت.

107 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 187-188، طبعة بيروت.

108 صحيح البخاري؛ كتاب الكسوف، باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته. سنن ابن ماجة؛ كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته.

109 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 357-358، طبعة بيروت.

110 صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. البداية والنهاية ؛ الجزء 6، ص 375، طبعة بيروت..

111 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة (التوبة).

112 صحيح مسلم؛ كتاب الحج، باب حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 603، طبعة بيروت.

113 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 606 و641، طبعة بيروت.

114 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: (سدّوا الأبواب إلا باب أبي بكر). كنز العمال؛ الجزء 11، ص 551، طبعة بيروت.

115 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، الحديث 4183 و4184.

116 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 196، طبعة القاهرة.

117 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، الحديث 4187.

118 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، الحديث 4193 .

119 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 2، ص 22، طبعة بيروت.

120 سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ.

121 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 12، ص 154، طبعة بيروت.

شمائل رسول الله ﷺ

وجـــهُ المهـــيمن ظـــاهرٌ في وجهـــهِ وشـــؤونه لـــمَعت بهـــذا الشـــانِ
فلـــذا يُحَـــبُّ ويســـتحقُّ جمالـــهُ شـــغفًا بـــه مِـــن زمـــرة الأخـــدانِ•

أود في هذا الفصل أن أقدم صفات وأخلاق سيدنا ومطاعنا رسول الله ﷺ الذي شهد له القرآن بالقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 5). وتقصر أي شهادة أرضية أمام هذه الشهادة السماوية على عظيم خُلقه ﷺ.

أما ما شهدت به زوجه عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلقه، فقالت: كَانَ يرضى بِرِضَاهُ ويسخط بسخطه، أَي برضاء الله وَسخطه، كَأَنَّهُ لم يبْق لَهُ مَشِيئَته.[1]

وعندما سأل يزيد بن بابنوس عائشة رضي الله عنها كيف كان خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنين اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ حتى بلغ العشر فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.[2]

إذن، فإن عائشة رضي الله عنها بينت أن أخلاق رسول الله ﷺ كانت تطابق ما جاء في القرآن الكريم، وهذا يعني أمرين: الأول أن كافة أخلاق الصالحين قد اجتمعت في رسول الله ﷺ الذي أصبح بعمله بتعاليم القرآن الكريم على خلق عظيم، ليصبح كما وصفه القرآن نفسه: أسوة حسنة. والثاني أن رسول الله ﷺ أصبح تجسيدا حيا لتعاليم القرآن الكريم كافةً.

ولنمحص الآن في حياة رسول الله ﷺ منطلقين من هذين الأمرين. وبينما أشار القرآن الكريم إشارات واضحة إلى شخصيته وملبسه وأدائه واجباته تجاه الآخرين، وانشغاله اليومي، وعلاقته بالله تعالى وعباداته وذكره لله وتبليغه الناس وشمائله الحسنة وصدقه واستقامته وثباته وتعاطفه

• مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص353.

ورحمته وعفوه وكرمه؛ وصفت الأحاديث تلك الخصال بتفاصيل فائقة.

إن جذب شخصية رسول الله ﷺ وجمال وجهه الأخاذ جعل الآلاف يعشقونه ويفدونه بأرواحهم. كان وجهه الجميل مثل البدر. كان يشعّ شرفا وعظمة، وزاد من رونقه بشاشته وبسمته الجميلة.

وقد وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلا بِالسَّبْطِ، كَانَ جَعْدًا رَجِلا، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلا بِالْمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ أَبْيَضُ مُشرَبٌ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ فِي صَبَبٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ.[3]

الأعمال اليومية

يُقال إن كسرى فارس قسّم أيامه فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج؛ فكان يعقد في الأخير مجلسه ويسمع لهموم الناس. تلك هي أيام أهل الدنيا الذين هم عن الآخرة غافلون. أما رسول الله ﷺ فقد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء بغض النظر عن الظروف الخارجية: جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزّأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول: "أبلِغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر."[4]

لقد أمضى رسول الله ﷺ الثلاثة عشرة سنة التي قضاها في مكة بعد تكليفه بالنبوة يتلقى وحي القرآن الكريم، ويبلغ ويعلم ويربي المسلمين ويصبر على المحن والشدائد. وتفاصيل تلك المرحلة قليلة إذا ما قورنت بأحاديث لا حصر لها ألقت الضوء على حياة رسول الله ﷺ في المدينة والتي تساعدنا على تصور نمط حياته التي قضاها في مكة.

ووفقا للأحاديث، فإن رسول الله ﷺ كان يبدأ يومه بصلاة التهجد. فكان يتوضأ ويستاك، ثم يقوم لصلاة طويلة يقرأ فيها طوال السور من القرآن الكريم حتى ترِم قدماه، ثم كان يرجع إلى فراشه. وبعد ذلك إن كان أحد من أهله استيقظ فيكلمه وإلا استراح مدة أطول، ولكن ما إن يسمع أذان بلال رضي الله عنه حتى يثب فيتوضأ ثم يركع ركعتين خفيفتين ثم يخرج ليؤم صلاة الفجر في

المسجد. وإن حصل وفاتَه التهجد صلى النوافل في النهار.[5]

وكان رسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر يجلس مع أصحابه حتى تطلع الشمس، وكانوا أحيانا يذكرون أيام الجاهلية فيبتسم. وكان يسألهم أيضا: "هل رأى أحد منكم من رؤيا؟" فيستبشر بالرؤيا الحسنة ويعبرها لصاحبها وأحيانا كان يذكر لهم رؤاه.[6]

كان رسول الله ﷺ يخطط يومه في الصباح؛ فإن فقد رجلا من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائبا دعا له، وإن كان شاهدا زاره، وإن كان مريضا عاده.[7]

وكانت صحبة رسول الله ﷺ المصدر الأمثل لتعليم وتربية أصحابه. وكان إذا صلى الصبح جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها تبريكا وإن كان الجو باردا.[8]

وبعد أن يقوم على حوائج الناس ويرجع إلى بيته كان يسأل إن كان هناك أي شيء للأكل فإن وُجد أكلَ وإن لم يوجد نوى صوم ذلك اليوم.[9]

إن الملوك وحكام الدنيا معروفون بإيكال واجباتهم إلى وزرائهم وانصرافهم إلى ملذاتهم، أما رسول الله ﷺ فكان على النقيض من ذلك؛ فكان يؤم الصلوات الخمس والجمعة والعيدين ويعين زوجاته في الأعمال المنزلية ويعمل بيده دون أن يحسب ذلك منقصة لمكانته. وكان يعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم ويخيط ثوبه ويخصف نعله وكان يرقع الثوب ويكنس البيت ويطحن عن خادمه إذا أعيا ويرعى الشياه ويحلبها.[10] وكان يسِم دوابّ بيت المال بنفسه. ويخدم صحبه بالسفر فيحلب لهم أيضا.[11]

وإن من أهم وأدق المهام التي كان الرسول ﷺ يقوم بها، حفظ ما يوحى إليه من القرآن الكريم. فكان جل وقته مخصصا لهذا الهدف سواء نزل عليه الوحي في بيته أو في بعض مجالسه. وكانت تطرأ عليه حالة خاصة عند نزول الوحي عليه، فلما يفصِم عنه إذا به يتفصد عرقا، فيدعو كاتب الوحي ليكتبه.[12]

والمهمة التالية التي تطلبت تركيزا خاصا أيضا بعد نزول الوحي القرآني كانت حفظه عن ظهر قلب وتكراره وتلاوته في الصلوات والتفكر بمعانيه.

ذكر الله والدعاء

كان رسول الله ﷺ يبدأ كل عمل بالبسملة وكان يقول:"كُلّ أَمْر ذِي بَال لَا يُفْتَتَحُ بِذِكْرِ اللَّه

فَهُوَ أَبْتَر وَأَقْطَع". [13]

وكان يذكر الله في كل وقت في فراغ أو شغل، فأصبح تجسيدا حقيقيا لمقولة: اليدان مشغولتان بالعمل، والقلب مشغول بذكر الحبيب.

وكانت لرسول الله ﷺ أدعية لكل مناسبة أو ظرف. فكان يدعو إذا استيقظ من النوم صباحا وإذا أمسى، وإذا دخل البيت أو خرج منه، وإذا دخل المسجد أو خرج منه، وإذا ذهب إلى الخلاء أو عاد منه، وقبل الطعام وبعده، وإذا دخل السوق أو شَرَعَ بالسفر، وكان يستغفر في المجالس إلى سبعين مرة. فكان يتوجه إلى الله ويدعوه في كل حال وظرف. [14]

وإذا كربه شيء قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث. [15] وإذا أهمه أمر قال: سبحان الله العظيم. [16] وإذا عطس حَمِد الله وإذا شمَّت أحدا قال: يرحمك الله. [17]

وكان يلتقي بأصحابه ويجيب على أسئلتهم وينصح لهم في أوقات الصلوات. وكان يزور أصحابه، خاصة الأنصار، في بيوتهم. [18]

وكثيرا ما زار بيت أبي طلحة الأنصاري وقضى وقتا في بستان نخيله. [19]

وكان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر دار على نسائه. [20]

وكانت بيوتهن قريبة في تجمع واحد، وفي المساء كانت نساؤه يجتمعن في البيت الذي سيبيت فيه رسول الله ﷺ فيحدثهن. وكان إن سنحت له الفرصة بعد الظهر يقيل، وقد قال في ذلك: " استعينوا بقائلة النهار على قيام الليل". [21]

وكان النبي ﷺ لا ينام قبل أن يصلي العشاء خشية أن تفوته، وما كان يضيع الوقت بعد صلاة العشاء بالكلام غير النافع إلا أنه كان يسمر أحيانا عند أبي بكر مع عمر رضي الله عنهما للتشاور في أمور المسلمين. [22]

وكان يفضل النوم مبكرا وأن ينهي أعماله قبل العِشاء ليتمكن من الاستيقاظ للتهجد. [23]

وكان ﷺ يستيقظ ليلا ويبدأ بمناجاة ربه، وقد صلى التهجد في أوقات مختلفة من الليل إلا أنه غالبا ما كان يصليه في الهزيع الأخير من الليل. [24]

عادات الأكل والأطعمة

لقد نصحنا رسول الله ﷺ بالوضوء قبل الطعام وبعده، [25] وأن نبدأ الأكل بالبسملة، وأن نأكل

مما يلينا، وأن نأكل باليد اليمنى.[26]

كان طعامه بسيطا وكثيرا ما اقتصر عشاؤه على شرب اللبن.[27]

وكان إذا شرب شرابا توقف ليتنفس ثلاثا، ويبدأ باسم الله وينتهي بحمد الله.[28]

وما أكل رسول الله ﷺ خبزا مرققا وإنما كان خبزه من الشعير أو القمح غير المنخول. ومع أنه كان يحب الكتف من لحم الشاة إلا أنه كان يأكل ما يتوفر له ويحمد الله. ومن الخضار كان ﷺ يفضّل الدُبّاء (اليقطين).[29]

وذات مرة أكل الخبز مع الخل وقال: "نِعْمَ الْأُدُمُ، أَوِ الإِدَامُ، الْخَلُّ".[30]

وكان النبي ﷺ يحب الثريد، وهو أن يثرد الخبز بمرق اللحم، وكذلك كان يأكل الهريس. وكان يأكل الرطب بالقثاء ويشكر الله على نعمته.[31]

وكان رسول الله ﷺ يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره فيأكل الرطب بالبطيخ ويقول: "يُكْسَرُ حَرّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا وَبَرْد هَذَا بِحَرِّ هَذَا".[32]

ومن الحلويات كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء.[33]

قال العلامة القسطلاني إن حلوى النبي ﷺ التي كان يحبها هي المَجِيْع وهو تمر يعجن بلبن.[34]

وما كان رسول الله ﷺ يأكل متكئا، وكان يأمر بإبراد الطعام الحار.[35]

النظافة والطهارة

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 223).

وقد علمنا رسول الله ﷺ أن النظافة الظاهرية أساسية للطهارة الباطنية. وقد أعطى تعليمات دقيقة فيما يتعلق بالنظافة؛ فقد أمرنا بالوضوء قبل الصلوات الخمس وكان يغتسل بالصاع، (والصاع يعدل قريباً من 8 رطل من الماء).[36]

وكان ﷺ كثير الغسل، ويأمر بالغسل خاصة يوم الجمعة.[37] وكان يكتحل للمحافظة على سلامة العينين.[38]

كان رسول الله ﷺ يولي اهتماما خاصا لنظافة الأسنان فقال: "لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة." وكان أول ما يفعله عند دخوله البيت أن يستاك، وكان يستعمله على طول الأسنان وعرضها لينظف الأسنان وما بينها.[39] وحتى عندما كان على فراش الموت

رغب في أن يستاك فقدمت عائشة رضي الله عنها له واحدا بعد أن ليَّنته له.[40]

كان رسول الله ﷺ يحب العطور وكان متميزا برائحته الخاصة، وعن أنس ﷺ أنه قال بأن عرقَ رسول الله ﷺ كان أطيب من المسك.[41]

وكان شعره ﷺ يبلغ كتفيه أو منكبيه فيقصه وكان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها ويبقي مقدار قبضة طولا، وكان يخضب شعره بالحناء.[42]

اللباس

وفقا للقرآن الكريم فإن للباس هدفان؛ ستر الجسم وزينة، كما قال الله ﷻ ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (الأعراف: 27). كان رسول الله ﷺ يرتدي اللباس العربي التقليدي المكون من كساء وإزار، وكان يفضل الأكسية ذات الأكمام الطويلة، ولكنه ارتدى أيضا قمصانا من غير أكمام.[43]

كان ملبسه بسيطا، وقد لبس البرود والحَبَرَة التي تصنع من القطن وتزين، وكانت أحب الثياب إليه وأكمامها ضيقة. وكان يستخدم المنشفة بعد الوضوء إن توفرت.[44]

كان ﷺ يلبس قلنسوة ويربط فوقها العمامة أيام الجمعة، وكان يلبس أفضل ما لديه أيام الجمعة والعيد وعند استقبال الوفود وخاصة حلته الحمراء. وفي ليلة مقمرة لبس رسول الله ﷺ حلة حمراء فشهد من رآه أنه أجمل من البدر. ومع أنه كان يفضل اللون الأبيض في ملبسه إلا أنه لبس الأحمر والأخضر والمعصفر. وكلما لبس لباسا جديدا صلى ركعتي نفل شكرا لله وتبرع بثيابه القديمة لمحتاج.

وكان رسول الله ﷺ يلبس جوربين من جلد فيمسح عليهما عند الوضوء. وكان نعلاه لهما قِبالان أي مثل الصنادل في أيامنا هذه، ولكن كان له رباط بين الإبهام والتي تليه ورباط بين الوسطى والتي تليه.[45]

لبس رسول الله ﷺ خاتما من فضة نقش عليه: "محمد رسول الله"، وقد صنع بهدف ختم رسائله.[46] وقد تختَّمه في اليمنى ولكنه تختَّمه لاحقا في اليسرى أيضا وكان ينزعه إذا ما دخل الخلاء. وكان يحركه أثناء الوضوء ليدخل الماء تحته. وكان يمسك بيده عصا من خشب النخيل.

وفي الحرب لبس رسول الله ﷺ الدرع والخوذة. وقد لبس في معركة أحد درعين، وقد كُسرت

حلقات خوذته ودخلت في وجنته.[47]

المشية وأسلوب المحادثة

تميز رسول الله ﷺ بالوقار في مشيته وأسلوبه، فكان إذا مشى تقَلَّع كأنما ينحط من صَبَبٍ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ.[48]

وقال علي رضي الله عنه عن مشية رسول الله ﷺ: إذا مشى تكفأ تكفؤا (أي مائلا للأمام) كأنما انحط من صبب (أي مرتفع) لم أر قبله ولا بعده مثله.[49]

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن خاله هند بن أبي هالة التميمي أن رسول الله ﷺ كان يخطو تكفؤا ويمشي هونا ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة. يسبق أصحابه. يبدر مَن لقي بالسلام.[50]

وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا يلتفت إذا مشى وكان ربما تعلق رداؤه بالشجرة أو بالشيء فلا يلتفت وكانوا يضحكون وكانوا قد أمنوا التفاته.[51]

لقد جعل الله سبحانه وتعالى في الرسول ليّنا كما جاء في الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: 160)، فما كان في نبرة صوته قسوة ولا تسرع، فكان يتكلم بهدوء ليفهم الآخرون كلامه ويعوه وكان أحيانا يعيد كلامه ثلاث مرات ليجذب انتباه المستمع.[52]

وكان ﷺ إذا عزم على أمر وضع كل ثقته بالله تعالى وإن أكد على فعل شيء ثلاث مرات فما كان بمقدور أحد أن يبدله.[53] ولكنه ما كان يأمر أصحابه بما لا يطيقونه.[54]

ما كان رسول الله ﷺ يتكلم في غير حاجة ويتكلم بجوامع الكلم، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب، وكان دمثا ليس بالجافي ولا المهين، يعظّم النعمة وإن دَقَّت ولا يذم أحدا. وما كان يسخط على أحد في أمور الدنيا، إلا إن انتهكت الحقوق فيغضب غضبا شديدا ويأمر بالعقوبة أحيانا. ولكنه ما غضب البتة أو عاقب على أمر يخص شخصه. وكان إذا غضب أشاح بوجهه وإن سرُّ من شيء أطرق وإذا تبسم رُئي تلألؤ ثناياه.[55]

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل.[56]

ووصفت أم معبد رسول الله ﷺ فقالت بأنه: حلو المنطق فصلا لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن كأنه عِقد.[57]

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وما اطلع منه على شيء عند أحد من أصحابه فيبخل له من نفسه حتى يعلم أن أحدث توبة.[58]

وما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسما، وقال صحابته بأنهم ما رأوا أحدا أكثر تبسما من النبي ﷺ، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه.[59]

ما كان حديث رسول الله ﷺ مملّا وكان يمزح إلا أنه ما كان يقول إلا حقا.[60]

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلا طلب رَكوبا من رسول الله ﷺ فقال: إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ ﷺ: وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلا النُّوقُ.[61]

كان النبي ﷺ يعلّم وينصح أصحابه باستمرار دون أن يثقل عليهم فيملّوا، وكان خطابه فصيحا بليغا ممتعا وقويا. وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذرُ جيشٍ يقول: صبّحكم ومسّاكم. وكانت صلاة النبي ﷺ قصدا وخطبته قصدا، أي غير طويلة..[62]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهَا يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ. فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لَيَخِرَّنَّ بِهِ.[63]

وكان رسول الله ﷺ إذا خطب في الحرب خطب على قوس وإذا خطب الجمعة في سلم خطب على عصا.[64]

وأقيم منبرٌ لاحقا وأصبح يخطب من عليه.

كان رسول الله ﷺ يعمل بما يدعو غيره إليه وكان يختار كلماته بعناية ويصحح لمن يسيء استخدام كلمة ما. وقد كان العبيد في جزيرة العرب يخاطبون أسيادهم بكلمة ربي وكان السيد يخاطبهم مستعملا كلمة عبدي. ولما كانت كلمة الرب من صفات الله تبارك وتعالى فقد نصح رسول الله ﷺ بما يلي: "لا يقل أحدكم: أَطْعِمْ رَبَّك، وَضِّئْ رَبَّك، اسْقِ رَبَّك، وليقلْ سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم عبدي أَمتي، وليقلْ فتاي وفتاتي وغلامي." وذلك حفظًا لكرامتهم.[65]

كان رسول الله ﷺ ذواقا للأدب والشعر الجميل. فعن الشريد ﷺ قَالَ رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: "هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْئًا". قُلْتُ نَعَمْ قَالَ: "هِيه". فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: "هِيهِ". ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: "هِيهِ". حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ.[66]

لم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بجمال الكلام ظاهرا بل كان ينظر إلى عمق ما تحمله الكلمات، وإن لم يكن شيءٌ واضحا لا يتردد بالسؤال عنه استيضاحا؛ فعندما أتى النابغة الجعدي، أبو ليلى، رسول الله ﷺ أنشده البيت التالي:

عَلَونا العباد عِفَّةً وتكرُّما وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهَرا

فسأله النبي ﷺ: "أين المظهر يا أبا ليلى؟" فقال: الجنة، فقال رسول الله ﷺ: "أجلْ، إن شاء الله".[67]

وعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها إن كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويقول: ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّد.[68]

وعن جندب ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقال:

"هل أنت إلا إصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ".[69]

إن الله تبارك وتعالى قد آتى النبي ﷺ جوامع الكلم، فكان يشرح المواضيع بما قل ودل.

وعن علي ﷺ قال أن وفدا من بني نهد قدم على النبي ﷺ فخطب خطيبهم عند رسول الله ﷺ بلسان قبيلته، ثم طلبوا الدعاء، فدعا لهم رسول الله ﷺ بلسان قبيلة بني نهد مع استعمال ألفاظهم ونَهج أسلوبهم، وحمّلهم بكتاب لقومهم أيضا بالأسلوب نفسه وقال لهم: من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا. وقد أخذ عليا ﷺ التعجبُ من كلام رسول الله ﷺ بلسانهم فقال: يا نبي الله نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد وإنك لتكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره. فقال رسول الله ﷺ: إن الله ﷻ أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد بن بكر.[70]

وعن بريدة ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ مِنْ أفصح الناس، كان يتكلم بالكلام لا يَدْرون ما هو حتى يخبرهم."[71]

وسأل عمر ﷺ النبي ﷺ ذات مرة قائلا: يا نبي الله ما لك أفصحنا؟ قال ﷺ: جاءني جبريل

فلقنني لغة أبي إسماعيل.[72]

كان رسول الله ﷺ يحب الأسماء التي لها معنى مثل عبد الله وعبد الرحمن وغيرها، وكان يغير الأسماء التي لا تحمل معنى جيدا، فقد جاءه رجل اسمه "حَزَن"، فقال له رسول الله ﷺ: بل أنت "سهل".[73] وكان هناك امرأة اسمها عاصية، فبدل رسول الله ﷺ اسمها إلى جميلة .[74]

الحياة الاجتماعية

كان رسول الله ﷺ عطوفا ورحيما بأهله وأصحابه، وكان يقول: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".[75]

وكانت حياة رسول الله ﷺ خالية من التكلف، فكان يقص على زوجاته القصص وكان شديد السخاء على أهله طيبا معهم.[76]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت كنت قاعدة أغزل والنبي ﷺ يخصف نعله فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا فبُهِتُّ فقال: مالك بُهِتِّ؟ قلت: جعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره حيث يقول:

وإذا نظرت إلى أسرَّةِ وجهه   بَرَقَتْ كَبرقِ العارض المتهلل

فوضع رسول الله ﷺ ما كان في يده وقام إلي فقبل ما بين عيني وقال جزاك الله يا عائشة خيرا، ما سررتِ مني كسروري منك.[77]

كان رسول الله ﷺ يراعي مشاعر أصحابه مراعاة كبيرة، وكان يبقى على اطلاع بأحوالهم. وما كان يتهم أحدا بناء على ادعاء من طرف واحد دون أن يسمع للطرف الآخر وكان يقول: "لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ."[78]

وإن جاع أصحابه كان يأتي بهم إلى بيته ليطعمهم، وكان يحض أصحابه على مثل فعله، وإن مرض أحدهم سأل عنه وعاده.[79] ومرة مرض غلام يهودي كان يخدمه فعاده في بيته ليطمئن عليه. وكان يمسح على المريض ويدعو له.[80]

وكان النبي ﷺ يعير انتباهه كله للمتحدث معه، وإذا استقبله الرجل لا يصرف وجهه عنه حتى يكون الرجل الذي يصرفه، وإذا صافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع.[81]

وكان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، وما رفض البتة هدية من حليب أو عطر.[82]

وكان ﷺ يحب أن يُهدي ماء زمزم. وما كان يقبل لنفسه الصدقة. وعندما كان يزور بيوت الأنصار،[83] كان يمسح على أطفالهم ويدعو لهم ويحنك المواليد الجدد بالتمر ويدعو لهم بالبركة.[84]

وكان رسول الله ﷺ يعامل زوجاته بالعدل والمساواة، فإذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.[85]

وكان يزور ابنته العزيزة فاطمة رضي الله عنها قبل مغادرة المدينة وعند عودته إليها،[86] ولكن ليس قبل أن يبدأ بالمسجد فيصلي فيه ركعتين عند رجوعه إلى المدينة.[87]

وعندما كان يرجع من سفر، كان أطفال المدينة وسكانها يخرجون للترحيب به.[88]

وما كان رسول الله ﷺ يتردد في قبول الدعوات حتى وإن كانت من البسطاء.[89] وكان يشارك في جنازة ودفن أصحابه إلا من كان عليه دين، عندها كان يطلب من الصحابة الآخرين أن يصلوا عليه.[90]

وكان يسهم في الخدمات العامة كأي شخص آخر، فحمل الطوب عند بناء المسجد النبوي وساعد في حفر وإزالة التراب من الخندق قبل معركة الخندق.[91]

وكان رسول الله ﷺ عطوفا بخدمِه؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ ولا لِمَ صنعت؟ ولا ألا صنعت.[92]

وعندما سأل الإمام الحسين رضي الله عنه أباه عليا رضي الله عنه عن سيرة النبي ﷺ في جُلسائه أجابه:

كان رسول الله ﷺ دائم البِشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا فحّاش، ولا عيَّاب ولا مُشَاحٍ، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُؤْيِسُ منه راجيه ولا يُخَيَّبُ فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير، فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه مسألته.[93]

كان الصحابة حريصين على جلب ضيوفهم وأصحاب الحاجات إلى رسول الله ﷺ. وما كانوا

يسألون بأنفسهم الأسئلة احتراما وتوقيرا للرسول ﷺ وإنما كانوا ينتظرون أن يأتيه أعرابي فيستفسر ويسأل.[94]

وقد طلب من صحابته أن يعينوا السائل أو صاحب الحاجة أو يدلوه على من يمكن أن يسد حاجته فقال ﷺ: "اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء."[95]

وما كان رسول الله ﷺ يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه فإن تجاوز الشخص فيقطعه بنهي أو قيام.

نشاطات أخرى متفرقة

كان رسول الله ﷺ أيام السبت يمشي أو يركب إلى مسجد قباء على بعد عدة أميال من المدينة في حي بني عمر بن عوف. فكانت تلك نزهته الأسبوعية وفرصة للقاء أصحابه في تلك المنطقة.[96] وكان يحب كثيرا المناظر الخضراء والمياه الجارية.

وليوم الجمعة نشاطاته الخاصة؛ فجزء من اليوم كان يُقضى في التحضير لصلاة الجمعة.

وإن أراد أن يبعث سرية مثلا كان يرسلها في الساعات الباكرة من يوم الخميس.[97] وإن كانت المجموعة المسافرة مؤلفة من ثلاثة أفراد أو أكثر أمر عليهم أحدهم.[98]

وكان رسول الله ﷺ يُكثر أيام العيد من الدعاء لقبول العبادات والتضحيات؛ فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أنه لقي رسول الله ﷺ يوم عيد فقال: تقبل الله منا ومنك. فقال ﷺ: نعم، تقبل الله منا ومنك.[99]

وكان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله. وكان يأكل ويصافح بيمينه.[100] بينما يستخدم يده اليسرى للتمسح من الخلاء وما شابهها من أعمال.

كان ينام على جنبه الأيمن. وينتعل الأيمن أولا وعند نزعه ينزع الأيسر أولا.[101]

وعند دخوله المسجد، كان يدخل برجله اليمنى أولا وعند خروجه منه يخرج باليسرى أولا. وإن شُكي له أحد ما كان يذكره بالاسم بل ينصح نصحا عاما.[102]

وإذا نسي اسم أحد ناداه بقوله: يا عبد الله. وكان إذا أشفق من الحاجة أن ينساها ربط في إصبعه خيطا ليذكرها.[103] وإذا سافر خارج المدينة أمَّر عليها. وكان يرحب بتغير الطقس من الحر الشديد في الصيف إلى البرودة في الشتاء. وكان إذا رأى غيما أو ريحا عُرف في وجهه

الكراهية خشية أن يكون فيه العذاب كما حدث مع أقوام سابقة، فيشرع بالدعاء للسلامة.[104]

وكان رسول الله ﷺ يحب المطر ويعرِّض جسده له أول نزوله؛ فعن أنس ﷺ قال: أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَطَرٌ فَحَسَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَوْبَهُ حَتَّى أَصَابَهُ مِنْ الْمَطَرِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا قَالَ لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى.[105]

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ من شيء أشرق وجهه وإن غضب من شيء عُرف ذلك في وجهه.[106]

وكان إذا أحزنه أمر قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ثُمَّ يَدْعُو.[107]

وكان ينهى عن القيل والقال وكثرة السؤال والجدال.[108]

وقد منعنا رسول الله ﷺ من خلْق المصاعب وكان يقول: يسِّروا ولا تعسِّروا.[109]

وقد أمرنا عند العطاس أمام الآخرين بوضع اليد أو الثوب أمام الفم وكذلك عند التثاؤب.[110]

وقال النبي ﷺ إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملَكًا، وليبصقْ عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها.[111]

كان النبي ﷺ يعاني في بعض الأحيان من الصداع ليوم أو يومين وكان حينها يستريح في البيت.

أخلاق رسول الله ﷺ الفاضلة

أنّى للمرء أن يتصوَّر أخلاق رسول الله ﷺ العظيمة وهو الذي شهد له الله سبحانه وتعالى بنفسه قائلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 5).

وكذلك هناك شهادة قيمة أدلت بها السيدة خديجة رضي الله عنها بعد أن كانت زوجته لخمس عشرة سنة فقالت: "والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق."[112]

وعن عائشة رضي الله عنها كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن كما في أوائل عشر آيات سورة "المؤمنون".[113]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ما كان سبّابا ولا فحّاشا، ولا سخَّابا في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر .[114]

وقد ذكر الصحابة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ كان أحب رجل في الناس.[115]

وما خيِّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.[116]

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.[117]

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان أجود الناس بالخير.[118]

وكان لا يُسأل شيئا إلا أعطاه.[119]

وكان يوزع الغنائم في يوم وصولها، وهكذا كان جلُّ اعتماده على ربه، فما كان يحتفظ بشيء لليوم التالي.[120]

وقد كان النبي ﷺ أزهد الناس في الدنيا.[121] وقد نام مرة على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقال له أصحابه: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال: "مالي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها."[122]

لقد كان رسول الله ﷺ أشجع الناس.[123]

وكان عفوه لا مثيل له، فعفى عن ألد أعدائه.[124]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

ولما تجلّى نوره التام للورى ... ولَوَّحَ وجه المنكرين وسَوَّدَا

تراءى جمال الحق كالشمس في الضحى ... ولاح علينا وجهه الطلق سرمدا

وقد اصطفيتُ بمُهْجتي ذكرَ حمده ... وكافٍ لنا هذا المتاع تزوُّدا•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 58.

المراجع والمصادر

[1] نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ؛ الجزء 4، ص 215، طبعة بيروت

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 426، طبعة بيروت. صحيح مسلم؛ كتاب صلاة المسافرين، باب جَامِعِ صَلاَةِ اللَّيْلِ وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ.

[3] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ماجاء في خلق رسول الله ﷺ.

[4] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 136، طبعة بيروت.

[5] صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، وباب طول السجود في قيام الليل، وباب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، وباب من تسحر فلم ينم حتى صلى الصبح، وباب من نام أول الليل وأحيا آخره.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح. صحيح مسلم؛ كتاب المساجد، باب فَضْلِ الْجُلُوسِ فِي مُصَلاَّهُ بَعْدَ الصُّبْحِ وَفَضْلِ الْمَسَاجِدِ.

[7] كنز العمال؛ الجزء 7، ص 153، طبعة مصر.

[8] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب قُرْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنَ النَّاسِ وَتَبَرُّكِهِمْ بِهِ.

[9] سنن الترمذي؛ كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إفطار الصائم المتطوع.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 121، طبعة القاهرة. أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 17، طبعة بيروت.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 18 و111، طبعة القاهرة.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[13] عون المعبود على شرح سنن أبي داود؛ الجزء 13، ص 130.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الخلاء، وباب التعوذ والقراءة عند النوم، وباب ما يقول إذا أصبح، وباب الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع.

[15] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 92.

[16] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 40 ما جاء في ما يقول عند الكرب.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب إذا عطس كيف يشمت.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 443، طبعة القاهرة.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، وكتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب.

[20] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 59، طبعة القاهرة.

[21] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 11، ص 245، طبعة بيروت.

[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 26، طبعة القاهرة.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء.

[24] صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، وباب من نام أول الليل وأحيا آخره.

[25] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 5، ص 21، طبعة بيروت.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين.

[27] صحيح البخاري؛ كتاب الأشربة، باب شرب اللبن.

[28] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 5، ص 102 و129، طبعة بيروت.

[29] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب شاة مسموطة والكتف والجنب. وباب الدباء.

[30] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة باب فضيلة الخل والتأدم به.

[31] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب الثريد، وباب الرطب بالقثاء. فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 9، ص 551، طبعة بيروت. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 5، ص 47، طبعة بيروت.

[32] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 134، طبعة بيروت. فتح الباري لابن حجر؛ كتاب الأطعمة، طبعة بيروت.

[33] سنن الترمذي؛ كتاب الأطعمة، باب ما جاء في حب النبي ﷺ الحلواء والعسل. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 59، طبعة القاهرة.

[34] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، الجزء 8، ص 234 المطبعة الكبرى الأميرية، مصر.

[35] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 132، طبعة بيروت.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد. صحيح البخارى كتاب الغسل باب الغُسْلِ بِالصَّاعِ وَنَحْوِهِ.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب الجمعة، باب 1. سنن الترمذي كتاب الجمعة باب في الوضوء يوم الجمعة.

[38] سنن الترمذي؛ كتاب الطب، باب ما جاء في السعوط وغيره.

[39] صحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب السِّوَاكِ.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

[41] سنن الدارمي؛ الجزء 1، ص 45، طبعة بيروت.

[42] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ماجاء في خلق رسول الله ﷺ.

[43] الشمائل المحمدية للترمذى؛ بَابُ ما جاء في لباس رسول الله ﷺ.

[44] الشمائل المحمدية للترمذى؛ بَابُ ما جاء في لباس رسول الله ﷺ. سنن ابن ماجه؛ كتاب اللباس، باب لباس رسول الله ﷺ.

[45] سنن الترمذي؛ كتاب اللباس، باب ما جاء في الرخصة في الثوب الأحمر للرجال، وباب ما جاء في أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ، وباب ما جاء في نعل النبي ﷺ.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان.

[47] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أُحُد.

[48] الشمائل المحمدية للترمذي؛ بَابُ مَا جَاءَ فِي مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

[49] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب، باب ما جاء في صفة النبي ﷺ.

[50] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 422 و379، طبعة بيروت.

[51] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 379، طبعة بيروت.

[52] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 213، طبعة القاهرة. صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه.

[53] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 423، طبعة القاهرة.

[54] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 56، طبعة القاهرة.

[55] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 160، طبعة بيروت. الطبقات لابن سعد؛ الجزء 1، ص 422، طبعة بيروت.

[56] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام.

[57] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 10، طبعة بيروت.

[58] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 378، طبعة بيروت.

[59] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 358، طبعة القاهرة.

[60] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 12، ص 391، بيروت.

[61] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ماجاء فى مزاح رسول الله ﷺ.

[62] صحيح مسلم؛ كتاب الجمعة، باب تَخْفِيفِ الصَّلاَةِ وَالْخُطْبَةِ.

[63] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 72، طبعة القاهرة.

[64] سنن ابن ماجه؛ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الخطبة يوم الجمعة.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي.

[66] صحيح مسلم؛ كتاب الشعر، باب1.

[67] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 233، طبعة بيروت.

[68] سنن الترمذي؛ كتاب الأدب عن رسول اللهﷺ، باب ما جاء في إنشاد الشعر.

[69] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.

[70] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 72، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 7، ص 213-214، طبعة مصر.

[71] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 332، طبعة بيروت.

[72] كنز العمال؛ الجزء 7، ص 219، طبعة مصر.

[73] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه.

[74] صحيح مسلم؛ كتاب الأدب، باب باب اسْتِحْبَابِ تَغْيِيرِ الاِسْمِ الْقَبِيحِ إِلَى حَسَنٍ.

[75] سنن ابن ماجه؛ كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء.

[76] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب 82.

[77] الخصائص الكبرى؛ الجزء 1، ص 116، طبعة بيروت.

[78] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب فِي رَفْعِ الْحَدِيثِ مِنَ الْمَجْلِسِ.

[79] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحشر، ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ .

[80] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب عيادة المشرك.

[81] سنن الترمذي؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب 46.

[82] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 90، طبعة القاهرة.

[83] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 398، طبعة القاهرة.

[84] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب من سمى بأسماء الأنبياء.

[85] مسند أحمد بن حنبل الجزء 6، ص 117، طبعة القاهرة.

[86] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 275، طبعة القاهرة.

[87] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 455، طبعة القاهرة.

[88] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب استقبال الغزاة.

[89] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب الرجل يتكلف الطعام لإخوانه.

[90] صحيح البخاري؛ كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز.

[91] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[92] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

[93] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 160، طبعة بيروت.

[94] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل.

[95] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ...﴾

[96] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 4، طبعة القاهرة.

[97] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 456، طبعة القاهرة.

[98] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر ومن ركع ركعتين عند القتل. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب تَأْمِيرِ الإِمَامِ الأُمَرَاءَ عَلَى الْبُعُوثِ وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا. مسند أحمد؛ الجزء 5، ص 358، طبعة القاهرة.

[99] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 2، ص 336، طبعة بيروت.

[100] صحيح البخاري كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل.

[101] صحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب النَّهْيِ عَنْ الاِسْتِنْجَاءِ بِالْيَمِينِ وباب التَّيَمُّنِ فِي الطُّهُورِ وَغَيْرِهِ.

[102] صحيح البخاري؛ أبواب المساجد، باب التيمن في دخول المسجد وغيره.

[103] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ الجزء 8، ص 56، طبعة بيروت. المعجم ابن العربى؛ الجزء 2، ص 575، طبعة سعودية.

[104] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم (الأحقاف)، قوله: ﴿فلما رأوه عارضا...﴾.

[105] صحيح مسلم؛ كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدُّعَاءِ فِي الاِسْتِسْقَاءِ. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 2، طبعة القاهرة.

[106] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 436، طبعة القاهرة. مجمع الزوائد لهيثمى؛ الجزء 8، ص 346، طبعة بيروت.

[107] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 388، طبعة القاهرة.

[108] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال.

[109] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا).

[110] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب إذا تثاءب فليضع يده على فيه.

[111] صحيح البخاري؛ كتاب المساجد، باب دفن النخامة في المسجد.

[112] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[113] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 426، طبعة بيروت. صحيح مسلم؛ كتاب صلاة المسافرين، باب جَامِعِ صَلاَةِ اللَّيْلِ وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ.

[114] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق. فتح الباري لابن حجر؛ كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

[115] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 402، طبعة القاهرة.

[116] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

[117] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 71، طبعة القاهرة.

[118] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب كَانَ النَّبِي ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.

[119] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء3 ، ص 190، طبعة القاهرة.

[120] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها.

[121] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 198، طبعة القاهرة.

[122] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب 44.

[123] صحيح مسلم ؛كتاب الفضائل، باب فِي شَجَاعَةِ النَّبِي ﷺ وَتَقَدُّمِهِ لِلْحَرْبِ.

[124] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غَزْوَةِ بني المصطلق. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب غَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ وَغَيْرِهَا.

حب النبي ﷺ لله ﷻ وغيرته على التوحيد

لـــــه درجـــــاتٌ في المحبّـــــة تامّـــــةٌ لـــــه لمعـــــاتٌ زال منهـــــا الغيهَـــــبُ•

لما كان الله تبارك وتعالى قد بعث النبي ﷺ لإرساء التوحيد في زمنٍ غشيته ظلمة الشرك، وقبل بعثته ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن أُودع نورًا في فطرته السليمة. فقد زرع الله بنفسه في قلب محمد ﷺ التوحيد والنفور من الشرك. وقد حفظ الله تعالى بنفسه النبي ﷺ حفظا خاصا من أنواع الشرك كلها، فجعله على دين أبيه إبراهيم عليه السلام الذي أُسِس على التوحيد الخالص والانقياد المطلق لله تعالى كما يتبين من الآيات القرآنية العديدة التالية:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 121)

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: 15-20)

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 69)

بعد أن رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من الكعبة وأعاد بناءها نادى بالناس ليطّوفوا بها ويقوموا ويركعوا ويسجدوا لله وبيّن لهم الشعائر:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ*... وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج: 27-38)

وقد أُمر النبي ﷺ بأن يسلك هذا المسلك ويتبع هذا النهج بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 124)

واتّباعا لملة إبراهيم تلك كان رسول الله ﷺ يعتكف في غار حراء متحنثا لشهر كل سنة، مبتعدا عن أجواء مكة الوثنية. وقد ورد في البخاري أنه ﷺ "كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو

• كَرامات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 71.

التعبد- الليالِيَ ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها".[1]

وقال ابن هشام: تقول العرب: التحنّثُ والتحنّف يريدون الحنيفية فيبدلون الفاء من الثاء كما قالوا جَدَثَ وجَدَفَ يريدون القَبرَ.[2]

قبل أن يعلن رسول الله ﷺ نبوته كان في مكة عدد قليل من الأحناف الموحدين على ملة إبراهيم عليه السلام، وكان من هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل (عمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه) الذي ما كان يأكل مما يُذبح على الأنصاب على غير اسم الله، وكان يجهر بالقول بأنه موحد وأنه على دين إبراهيم عليه السلام فقال مرة: "إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ". وكان "زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ وَأَنْزَلَ لَهَا مِن السَّمَاءِ الْمَاءَ وَأَنْبَتَ لَهَا مِن الْأَرْضِ ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ". وقال في مناسبة أخرى: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ".[3]

إذن قبل بعثته، كان رسول الله ﷺ على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام حنيفا وما كان من المشركين.

وفيما يلي بعض ما ميّز دين إبراهيم عليه السلام:

1. الإيمان بالله وحده وعبادته.
2. استقبال الكعبة عند الصلاة والسجود.
3. الطواف وحج البيت.[4]

النفور من الشرك

عن أم أيمن، حاضنة ومربية رسول الله ﷺ، كان بِبُوانة صنمٌ تحضره قريش وتعظمه وتتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يوما إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلم محمدا ﷺ أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك، فغضب عليه أبو طالب وغضبت عليه عماته أيضا غضبا شديدا، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا. وأصروا عليه إصرارا فذهب معهم، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوبا فزعا. فسألوه: ما دهاك؟ قال إني أخشى أن يكون بي لممٌ. فقالوا له: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وكان فيك من خصال الخير ما كان، فما الذى رأيت؟ قال إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل

أبيض طويل يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه! وبعد هذا الحادث ما عادت عماته يصررن عليه وبذلك حفظه الله تبارك وتعالى من تقاليد الشرك تلك.[5]

وعندما سافر إلى الشام مع عمه أبي طالب التقى محمد ﷺ الراهب بحيرى الذي استحلفه باللات والعزى-لأنه سمع قومه يفعلون ذلك- أن يجيب على أسئلته، فقال له رسول الله ﷺ: لا تسلني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت بغضهما شيئا قط.[6]

وعندما حضر رسول الله ﷺ الشام فباع سلعته التي خرج بها لخديجة رضي الله عنها واشترى غيرها اختلف مع رجل في شيء فقال له الرجل أُحلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط وإني لأمرُّ فأعرض عنهما.[7]

حب عبادة الله

لقد مُلئ قلب رسول الله ﷺ منذ طفولته بحب خالقه، وكان يقضي وقته في ذكر الله والتعبد، وقد حُبب إليه الخلاء. وأصبح يرى الرؤى الصالحة التي كانت تتحقق مثل فلق الصبح.[8]

وكان يجاور كل سنة شهرا كاملا عند حراء يطعم من جاءه من المساكين، وكانت تلك من ممارسات قريش في الجاهلية، ويتحنث في الغار ويفضل الوحدة. وبعد اعتكافه شهرا في حراء كان أول ما يفعله أن يطوف بالكعبة قبل العودة لمنزله. وقد نزل عليه أول وحي وهو معتكف في شهر رمضان في الغار.[9]

كان عدد الذين يؤمنون بوحدانية الله والقائمين على دين إبراهيم عليه السلام في مكة في ذلك الزمن قليل، وكان منهم زيد بن عمرو، وقد لقيه النبي ﷺ بأسفل وادي بلدح قرب مكة وعندما قُدمت إلى النبي ﷺ سفرة أبى أن يأكل منها، وأبى زيد أيضا وقال لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذُكر اسم الله عليه. وكان زيد يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله.[10]

كان أول وحي تلقاه محمد ﷺ مبنيا على التوحيد، وقد تردد عندما أُمر بالقول: اقرأ، ولكنه انصاع فورا للأمر عندما قيل له: اقرأ باسم ربك الذي خلق، إذ كان حب خالقه قد تأصل في جذر قلبه.

حب الله

عندما رأى أهل مكة حب محمد ﷺ لله قالوا: إن محمدا عشق ربه.[11]

وقد كانوا على حق إذ كان بحق محبا لربه، وقد ظهر ذلك الحب خاصة في أدعيته وعباداته وتضرعاته وذكره حتى إنه كان يدعو بدعاء داوود عليه السلام فيقول: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد.[12]

ولكن دعاءه النابض بحب الله تعالى الذي علمنا إياه كان جامعا وأبلغ من دعاء داوود عليه السلام، فكان يقول: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ. اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ. اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ.[13]

وكما يحب المحب كل شيء يتعلق بحبيبه كذلك كان رسول الله ﷺ؛ فكان يكشف رأسه في أول قطرة مطر تكون من السماء ويقول: "هو أحدث عهدا بربنا ﷻ ، وأعظم بركة."[14]

كان التوحيد ظاهرا في كل أعماله وعباداته؛ فكان يستفتح صلاته داعيا: " وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ." (الأنعام: 80).[15]

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الشرك الخفي وأخبرنا أن المراءاة نوع من الشرك وقال: "من صلّى يرائي فقد أشرك."[16]

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية.[17]

وقال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أَشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه.[18]

خرج عمر رضي الله عنه إلى المسجد يوما فوجد معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: يبكيني حديث سمعته من رسول الله ﷺ: يقول: "اليسير من الرياء شرك."[19]

وقد عدَّ رسول الله ﷺ التطير نوعا من الشرك أيضا.[20]

وذات مرة صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائما فقال: عُدلت شهادة الزور

بالشرك بالله ثلاث مرات، ثم تلا قوله تعالى: ﴿واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: 31-32)[21]

وعن فروة بن نوفل ﷺ أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئا أقوله إذا أويت إلى فراشي قال اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك.[22]

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم فقال: أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فسأل أحدهم: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم.[23]

كانت عبادة رسول الله ﷺ خالية تماما من الرياء وكانت لله خالصة لأن التوحيد كان متجذرا في صميم قلبه حتى شهد له الله تبارك وتعالى بنفسه وأمره بأن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 163-164)

كان رسول الله ﷺ يصلي، عدا الصلوات المفروضة، النوافلَ الطويلة ليعبر فيها عن حبه لله تعالى، وغالبا ما كان يؤديها ليلا. كان للنبي ﷺ تسع زوجات وكان دور أحبهن إليه، وهي عائشة رضي الله عنها، يأتي كل تسعة أيام، فلما أتاها في ليلتها ودخل معها في لحافها قال: يا عائشة، أتأذنين في عبادة ربي؟ فلما أذنت قام فأمضى الليلة يصلي لربه وبكى حتى بلَّت دموعه الأرض.[24]

كان رسول الله ﷺ يقدر الإقرار بالتوحيد تقديرا كبيرا؛ فذات مرة جاء رجل من الأنصار بأَمَة سوداء وقال: يا رسول الله إن عليَّ رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتُها، فقال لها رسول الله ﷺ: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت: نعم. قال: أتشهدين إني رسول الله؟ قالت: نعم. قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم. قال: أعتقْها.[25]

إقامة التوحيد

إن أول درس تُعلمه شريعة محمد ﷺ هو التوحيد أو الكلمة: لا إله إلا الله. وكانت كافة

فعاليات رسول الله ﷺ في ليله ونهاره تتمحور حولها، فكان التوحيد في كل كلمة من كلماته وفي كل فعل من أفعاله. فعند الإصباح كان ﷺ يقول: "أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين."[26]

وكان إذا أمسى يقول: "أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ."[27]

وكان ﷺ يدعو عند الكرب فيقول: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم."[28]

إن رسول الله ﷺ هو الوحيد الذي حمل لواء التوحيد عاليا رفرافا في أجواء تشبعت بالشرك والوثنية، وقد تكبد في سبيل التوحيد كل محنة وابتلاء وكل تعذيب واضطهاد، وفقد أعز أصدقائه وأقربائه وما تردد في التضحية بنفسه في هذا السبيل، ووقف دفاعا عن التوحيد جبلا شامخا لا تهزه رياح، وبشّر بأن من شهد أن لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة.[29]

وحض أصحابه على المداومة على التغني بالتوحيد فقال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدْلَ عشرِ رقابٍ، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك."[30]

وما ودّع النبي ﷺ موطنه مكة مهاجرا إلى المدينة إلا من أجل التوحيد، وعندما أتبعه العدو اضطر لرفع السيف دفاعا، وما كان قتاله ذلك إلا لتكون كلمة الله هي العليا. جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذِكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله."[31]

لقد أقام النبي ﷺ عزة التوحيد فأعلن أن من يشهد أن لا إله إلا الله فقد عصم دمه وأمواله من النبي ﷺ وإن كان ارتكب ظلما شخصيا بحقه.[32]

وبمعنى آخر فإن السيف الذي رفع دفاعا عن النفس سيغمد تشريفا وتكريما لكلمة التوحيد. لقد عفا رسول الله ﷺ عن ألد أعدائه بمجرد نطقهم بالشهادة، وكان قد منع أصحابه من

الإغارة عند الغزو على قوم إن سمعوا صدور الأذان، الذي هو إعلان بالتوحيد، من قبلهم.[33]

وعن المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت لله أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا تقتله". فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال."[34]

في إحدى الغزوات تمكن أسامة بن زيد رضي الله عنه من رجل فقال لا إله إلا الله فقتله أسامة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب وخاطب أسامة قائلا: "أقال لا إله إلا الله وقتلته؟" وقال: "فَكَيْفَ تَصْنَعُ بلا إله إِلَّا اللهُ إذا جاءَت يوْمَ القيامَةِ؟" وعندما قال أسامة بأنه قالها خوفا من السلاح قال رسول الله ﷺ: "أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟"[35]

كان رسول الله ﷺ حريصا على التوحيد أشد الحرص ويتحراه في دقائق الأمور. أتاه ذات مرة حبر من الأحبار فقال: يا محمد، نِعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون. قال: سبحان الله وما ذاك؟ قال: تقولون إذا حلفتم والكعبة. فأمهل رسول الله ﷺ شيئا ثم قال: إنه قد قال. فمن حلف فليحلف برب الكعبة. قال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا. قال: سبحان الله وما ذاك؟ قال: تقولون: ما شاء الله وشئت. فأمهل رسول الله ﷺ شيئا ثم قال: إنه قد قال: فمن قال ما شاء الله فليفصل بينهما ثم شئت.[36]

وفيما بعد عندما جاء رجل إلى النبي ﷺ يراجعه الكلام فقال: ما شاء الله وشئت فقال رسول الله ﷺ: جعلتني لله عدلا؟! ما شاء الله وحده.[37]

وذات مرة أدرك النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ وقال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله وإلا فليصمت."[38]

غيرة رسول الله ﷺ على التوحيد

حتى في أشد الابتلاءات والمحن عندما كانت حياة رسول الله ﷺ وصحبه بخطر محدق ما غفل ﷺ عن أهمية التوحيد، بل على العكس تجلى حبه للتوحيد بأعظم شأن.

فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟" قَالَ لَا، قَالَ: "فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ". سبحان الله على تعظيم رسول الله ﷺ للتوحيد! وقد عاد هذا الرجل بعرضه مرتين أخريين فأجابه النبي ﷺ الجواب نفسه وما سمح له بالانطلاق معهم إلا بالمرة الثالثة بعد أن آمن وترك الشرك.[39]

تعظيم التوحيد

تكبد المسلمون خسارة عظيمة في غزوة أحد جراء التفاف العدو حول جبل الرماة، فاستشهد سبعون مسلما وأشيع خبر استشهاد رسول الله ﷺ. فرح العدو بذلك وبدأ أبو سفيان يختال بنصره. في تلك المرحلة الحرجة لجأ المسلمون إلى سفح الجبل وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ ونظرا لخطورة الموقف أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن لا يجيبوه. فقال أبو سفيان أفي القوم ابن أبي قحافة؟ -وقصد أبا بكر ﵁- قال رسول الله ﷺ: "لا تجيبوه". فقال أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعلُ هبل! فقال النبي ﷺ: "أجيبوه". قالوا ما نقول؟ قال: "قولوا الله أعلى وأجل". قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم! قال النبي ﷺ: "أجيبوه". قالوا ما نقول؟ قال: "قولوا الله مولانا ولا مولى لكم".[40]

إن فتح مكة مناسبة أخرى تجلى فيها حب النبي ﷺ للتوحيد وتعظيمه له. كان سيدنا إبراهيم ﵇ قد بنى الكعبة -بيت الله- داعيا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم:36) ولما بُعث محمد ﷺ كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنما، ولكن وقت استجابة دعاء إبراهيم ﵇ كان قد حان، وآن أوان زوال الباطل؛ فلما فُتحت مكة أتى النبي ﷺ الكعبة وطهرها من الأوثان كلها.

عندما دخل رسول الله ﷺ مكة، شهد العالم مشهدا فريدا من التواضع، فقد أظهر فخر بني آدم ﷺ من التواضع لله ما جعله يحنى رأسه حتى كاد يلمس سرج ناقته، ولكن عندما تعلق الأمر بإظهار عظمة وحدانية الله تعالى طاف على ناقته حول البيت وجعل يطعن كل صنم

بقوة ويسقطه أرضا وهو يردد الآية الكريمة: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: 82)[41]

شعارات التوحيد وقت الفتح

وفي وقت قصير حُطّمت الأصنام كلها وكسرت العزى وتشظى هبل.[42]

وتحقق الهدف الذي أسست من أجله الكعبة المشرفة وأقيمت عبادة الله الواحد الأحد. كان ذلك هو اليوم المنشود عند رسول الله ﷺ وأسعد يوم عنده لأنه يوم ظهور عظمة ومجد الله تعالى؛ إنه يوم غلبة التوحيد. عندما استلم النبي ﷺ الحجر الأسود قبّله وكبّر الله باكيا، فكبّر الصحابة معه بحماس حتى ارتجت مكة بشعارات حمد وتمجيد البارئ، وبدا وكأن ذلك سيدوم للأبد ولكن رسول الله ﷺ رفع يده وأشار عليهم بالتوقف.[43]

كان فتح مكة هو يوم إقامة عظمة التوحيد بحق، في ذلك اليوم لم يعلن النبي ﷺ عن انتصاره الشخصي وإنما كان يمجد الله تبارك وتعالى قائلا:

لا إله إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وصدق وعده وهزم الأحزاب وحده.[44]

كان ذلك هو شعار التوحيد الذي رفعه نبينا الكريم بمناسبة ذلك النصر العظيم.

كان التوحيد متأصلا في قلب رسول الله ﷺ إلى درجة ما كان يخشى أحدا إلا الله، وهذا ما جعله يتقدم دون خوف في غزوة حنين والسماء تمطر سهاما عليه وهو يقول:

أنا النبي لا كذبْ   أنا ابن عبد المطلبْ[45]

لم يكن ذلك مثالا على إيمانه المطلق بالتوحيد فحسب بل كان آية عظيمة على صدقه. وخشية أن يُعد فوق البشر بيّن بقوله: أنا ابن عبد المطلب، أنما هو بشر فقط وأن الرعب الذي ينصر به إنما هو موهبة من الله الذي وعده بحفظه من الناس.

عندما جاءه وفد ثقيف واشترطوا لإسلامهم أن يترك لهم الصلاة فأبى رسول الله ﷺ عليهم ذلك وقال: "لا خير في دين لا صلاة فيه". وعندما طلبوا أن يترك لهم الزنا وشرب الخمر والربا، أراهم حزما وأبى عليهم ذلك أيضا.

وبالمثل طلب أهل الطائف أن لا تهدم اللات إلا بعد ثلاث سنوات وما كان رسول الله ﷺ أن

يقبل مثل هذا النفاق، فسألوه أن يتركها لهم سنة فأبى عليهم، حتى سألوه شهرا واحدا وأرادوا بذلك ألا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم بهدمها؛ فأبى عليهم ذلك رسول الله ﷺ وأرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما فهدماها.[46]

كانت كل أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله مستمدة من التوحيد، كما سنرى من المثال التالي. فكانت العضباء ناقة لرسول الله ﷺ لا تُسبق، فجاء أعرابي على قعُود له فسابقها فسبقها الأعرابي، فكأن ذلك شق على أصحاب رسول الله ﷺ الذي قال: "حَقٌّ عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ."[47]

كان بين كتفي النبي ﷺ بُروزٌ لَحمِيٌّ معروف بخاتم النبوة؛ فعن أبي رِمثة ﷺ أن أباه طلب من رسول الله ﷺ أن يريه إياه لعله يستأصله له ويعالجه وقال له: إني رجل طبيب، فقال رسول الله ﷺ الغيور على التوحيد: اللهُ الطَّبِيبُ بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ رَفِيقٌ طَبِيبُهَا الَّذِي خَلَقَهَا.[48]

قال رسول الله ﷺ: "قَالَ اللهُ ﷻ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ."[49]

لقد شرح النبي ﷺ التوحيد شرحا جميلا لوفد نصارى نجران. وقد سألوه صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: "إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء"، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا فنزل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوا أَحَدٌ﴾ يريد نظيرا من خلقه.[50]

وقد رسخ النبي ﷺ التوحيد في أصحابه أيضا؛ كان رجل من الأنصار يؤم المسلمين في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه فقالوا إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى قال ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أؤمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتُكم، وكانوا يرونه أفضلَهم وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال يا فلان ما يمنعك مما يأمر به

أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: يا رسول الله إني أحبها، وفي قصة أخرى قال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأها. فقال رسول الله ﷺ: إن حبها أدخلك الجنة.[51]

لا شك أن سورة الإخلاص هي سنام التوحيد.

كان رسول الله ﷺ يكنّ للقرآن الكريم وتعاليمه غيرة كبيرة؛ أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ بنسخة من التوراة فقال يا رسول الله هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير. فقال أبو بكر ثكلتك الثواكل ما ترى بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيا وأدرك نبوتي لاتبعني.[52]

الحرص على تطبيق أوامر الله تعالى

بعد فتح مكة، عندما حُكم على امرأة من بني مخزوم بقطع يدها بسبب السرقة، قالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، فكلمه أسامة بن زيد وكان حِب رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟[53]

لقد وصف أبو سعيد بن المعلى التزام النبي ﷺ بأوامر الله تبارك وتعالى فقال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: 25)؟[54]

كان أبو بكر رضي الله عنه إذا قرأ في تهجده خفض، وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ جهر، فسألهما النبي ﷺ لِمَ يصنعا ذلك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أناجي ربي وقد علم حاجتي وقال عمر رضي الله عنه: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان. فلما نزلت الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 111)، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه أن يرفع شيئا وقال لعمر رضي الله عنه أن يخفض شيئا وذلك لتنفيذ أمر الله تعالى.[55]

ذكرت لنا عائشة رضي الله عنها كيف أن رسول الله ﷺ كان حريصا على تنفيذ أوامر الله تعالى وأنه ما كان ينتقم لنفسه في شيء قط ولكن إن انتهكت حرمة الله فينتقم بها لله تعالى.[56]

في مرض وفاته ﷺ، ذكرت أم سلمة لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت له ما رأت فيها من الصور. وبالرغم من ضعفه ومرضه إلا أن النبي ﷺ لم يستطع أن يبقى صامتا حرصا على التوحيد فقال: "قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وبذلك كان ينصح زوجاته أن يلتزمن بالتوحيد وأن لا يُسمح للناس بالسجود عند قبره.[57]

وبذلك فقد سعى لإقامة وترسيخ التوحيد حتى آخر لحظة في حياته وكان يدعو: اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد.[58]

ويشهد التاريخ كيف أن الله تبارك وتعالى قدّر غيرة رسول الله ﷺ على التوحيد، إذ جعل قبره ﷺ خاليا من مظاهر الشرك والوثنية، وهذا دليل على خلوص التزام عبده محمد ﷺ بالتوحيد الكامل في عبادة الله الأحد، لا إله إلا الله والله أكبر!

قال المسيح الموعود عليه السلام:

نجّي الورى مِن كل زور ومعصيةٍ ومِن فسوق ومن شركٍ ومن تبَبِ
فنوّرتْ ملّةٌ كانت كمعدومٍ ضعفًا ورجمت ذراري الجانِ بالشهبِ

...

وما بَقي أثرٌ مِن ظلمٍ وبدعاتٍ بنور مهجة خير العجم والعربِ

...

ولا خروجَ لهم من قبرِ جهلاتٍ ولا خلاصَ لهم مِن أمنَع الحجبِ•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• سر الخلافة؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 140، طبعة ثانية ٢٠١٣.

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

[2] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 235، طبعة بيروت.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نُفيل.

[4] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 692، طبعة بيروت. المعجم الكبير؛ الجزء 24، ص 82، طبعة بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 2، ص 615، طبعة بيروت.

[5] عيون الأثر؛ الجزء 1، ص 66، طبعة بيروت. دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 58، طبعة بيروت.

[6] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص407، طبعة بيروت.

[7] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 156، طبعة بيروت.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

[9] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 235، طبعة بيروت.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل.

[11] المنقذ من الضلال؛ الجزء 1، ص 179، طبعة دار الكتب الحديثة، مصر.

[12] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات، باب 73.

[13] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات، باب 74.

[14] كنز العمال؛ الجزء 2، ص 629، طبعة مصر.

[15] سنن النسائي؛ كِتَاب الِافْتِتَاحِ، باب نَوْعٌ آخَرُ مِنْ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ.

[16] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 125، طبعة القاهرة.

[17] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 123، طبعة القاهرة.

[18] صحيح مسلم ؛كتاب الزهد والرقائق، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ.

[19] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 44، طبعة بيروت.

[20] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 438، طبعة القاهرة.

[21] سنن الترمذي؛ كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شهادة الزور.

[22] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات، باب 22.

[23] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 456، طبعة القاهرة.

[24] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 4، ص 123، طبعة بيروت.

[25] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 451، طبعة القاهرة.

[26] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 406، طبعة القاهرة.

[27] صحيح مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ.

[28] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب.

[29] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 402، طبعة القاهرة.

30 صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

31 صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

32 صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾.

33 صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة.

34 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

35 صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

36 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 371، طبعة القاهرة.

37 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 347، طبعة القاهرة.

38 صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا.

39 صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب كَرَاهَةِ الِاسْتِعَانَةِ فِي الْغَزْوِ بِكَافِرٍ.

40 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

41 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة بني إسرائيل، ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ .

42 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 416، طبعة بيروت.

43 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 461، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 307، طبعة بيروت.

44 صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب ما يقول إذا رجع من الغزو.

45 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾.

46 السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 68، طبعة بيروت.

47 سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب فِي كَرَاهِيَةِ الرِّفْعَةِ فِي الْأُمُورِ.

48 سنن أبي داود؛ كتاب الترجل، باب فِي الْخِضَابِ.

49 سنن أبي داود؛ كتاب اللباس، باب مَا جَاءَ فِي الْكِبْرِ.

50 سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الاخلاص. تفسير الرازي؛ الجزء 17، ص 293، طبعة بيروت.

51 سنن الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في سورة الإخلاص.

52 سنن الدارمي؛ الجزء 1، ص 126، طبعة بيروت.

53 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه.

54 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب ماجاء في فاتحة الكتاب.

55 الدر المنثور؛ الجزء 5، ص 350، طبعة بيروت.

56 صحيح البخاري كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا).

57 صحيح البخاري؛ كتاب المساجد، باب الصلاة في البيعة.

58 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 301، طبعة القاهرة. الموطأ للإمام مالك؛ كتاب النداء للصلاة، باب جامع الصلاة.

عبدٌ كامل ﷺ أدّى واجباته

كانت ليلة حالكة الظلمة في صحراء جزيرة العرب، الصمت مخيم، وجيران الكعبة وقاطنو البطحاء في سبات بعد ليلة سمر وشرب، وفي الوقت نفسه، كان هناك شاب عربي زاهد يتعبد في مغارة جبل. كان يتضرع في اضطرار شديد إلى سيده الخبير العليم ملتمسا بكل شغف وداعيا أن أيها الهادي الحقيقي أنِر بنورك هذه الأمة الجاهلة. ما كان هذا الشخص التقي منذ نعومة أظفاره منجذبا إلى الأمور الدنيوية وما كانت متع الدنيا تستهويه.

ذكر الله في الخلوة

كان هذا الشاب السعيد غارقا في حب عبادة الله، ويتمتع بذلك في الدعاء بخلوته، وقد انفصل عن العالم ووجد ضالته في ذكر الله تعالى. كان يذهب إلى غار حراء على بعد عدة أميال من مكة بزادٍ قليل فيعتكف متحنثا فيه، نائيا بنفسه أشهرا عن صخب الحياة في مكة، وما كان يُرجعه إلا نفاد زاده فينزعِ إلى أهله ويتزود ثم يعود إلى عزلته وتعبده.[1] لقد فاز هذا الرجل سليم الطبع نقي الطوية برضا الله تعالى.

فما كان ذلك الشاب، فخر العرب، الهادي إلى الحق، سيد المعصومين، إلا محمدا المصطفى ﷺ الذي ألبسه رب العزة ثوب النبوة.

ففي عنفوان شبابه حيث الآمال والتطلعات في أوجها وصعوبة التحكم بالعواطف المتلاطمة، كان محمد ﷺ يترك شئون هذا العالم ذاهبا إلى غار حراء الموحش. وفي خلوته تلك كان يتفكر في الكون ويتعبد الله.

لقد كان انفصال هذا الشاب عن صخب الحياة ومتعها، وحبه العزلة وتفانيه ظاهرة غير اعتيادية في ذلك الزمن أدهشت أهل مكة وأقرباءه. لقد حسبوه شخصا غريب الأطوار نافرا من جذبات العالم هادرا وقته في العزلة بدل التمتع بالحياة العائلية والمشاغل اليومية.

كان رسول الله ﷺ يعتكف في حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية تبعا لدين إبراهيم عليه السلام، وعندما بلغ أربعين سنة نزل عليه في حراء في شهر رمضان

أول وحي.[2]

بعد الوحي الأول أرى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ كيف الطهور للصلاة ثم قام به فصلى به ليريه كيفية الصلاة، ثم جاء رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها فعلمها الوضوء والصلاة كما علّمه جبريل عليه السلام.[3]

وقد علّم جبريل عليه السلام الرسول ﷺ مواقيت الصلوات الخمس إيضا بإمامته له.[4]

وتكليف محمد ﷺ بالنبوة زاد على واجباته في العبادة؛ إذ أمره الله تعالى قائلا: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: 8-9)

وذكرت عائشة رضي الله عنها أن الصلاة فرضت ركعتين قبل الهجرة ثم أصبحت أربعا في المدينة.[5]

ومنذ اليوم الذي فرضت فيه الصلوات الخمس إلى آخر أيام حياته، قام النبي ﷺ بأداء هذا الواجب بكل عناية كما جاء في الآية القرآنية: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: 79) حتى شهد الله تعالى بنفسه له بالآية التالية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: 163)

ما قبِلَ الإسلامَ في البدء إلا خديجة رضي الله عنها وعلي رضي الله عنه، فبدأ النبي ﷺ الصلاة جماعة بهم. وعلى طول حياته ما ترك هذه الفريضة بأي ظرف؛ لا في سفر أو إقامة، ولا في صحة أو مرض، ولا في حرب أو سلم، ولا في شدة أو يسر. فتارة كان يؤديها في بيته وتارة أخرى في وادٍ، فكان رَسُول اللَّهِ ﷺ يخرج إلى الكعبة أول النهار ويصلي صلاة الضحى.[6]

وبعد دعواه النبوة جعل كفار مكة يمنعونه من الصلاة ويضطهدونه، وفي أحد الأيام وضع هؤلاء الأشقياء سَلَى جزورٍ على ظهره بين كتفيه وهو ساجد.[7]

وأقبل شقي آخر فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودافع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (غافر: 29)[8]

الاهتمام بالصلاة

كانت الصلاة في الليل والنهار عملا داوم عليه رسول الله ﷺ وكأنه مصدر الغذاء لروحه. ومع

أنه يسَّر على أصحابه بأنه إن حضر الطعام أن يأكلوا أولا ثم يصلوا، ولكنه ذات مرة كان يأكل وضيفا له فجاء بلال فآذنه بالصلاة فألقى الشفرة التي كان يقطع بها اللحم وقام يصلي بعد أن قال عن بلال ﷺ: ما له ترِبت يداه؟ أي لو أنه تركنا نكمل طعامنا قبل النداء للصلاة.[9]

وعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن صلاة النبي ﷺ قالت بأنه ما إن يسمع نداء بلال ﷺ للصلاة إلا ويثب فيتوضأ ثم يخرج للصلاة.[10]

وما أهمل رسول الله ﷺ الصلاة حتى في مرضه. ذات مرة سقط ﷺ عن فرس فجُحِشَ شِقه الأيمن، فلما حضرت الصلاة صلى بالناس قاعدا ولم تَفُتْه صلاة الجماعة.[11]

لقد كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على أداء الصلاة في السفر. ويتبين لنا من الأحاديث أنه لم يصل بالناس أحد من الصحابة في غياب رسول الله ﷺ إلا مرتين، إحداهما حين ذهب ليصلح بين بني عمرو بن عوف في المدينة، فأمر بلالا ﷺ أن يؤم أبو بكر ﷺ صلاة العصر إذا تأخر ﷺ عن موعد الصلاة، فبدأ أبو بكر بالصلاة فوصل رسول الله ﷺ، فتأخر أبو بكر ﷺ، وأمّ رسول الله ﷺ الصلاة.[12] والمرة الثانية عندما تأخر رسول الله ﷺ قُبيل الفجر عن القافلة التي كان يسير فيها فسبقتْه. فقدّم الناس عبد الرحمن بن عوف ﷺ، فبدأ يؤم الناس خشية فوات وقت الصلاة، فلما لحق بهم رسول الله ﷺ قام، فصفّ مع المسلمين وصلى وراء عبد الرحمن بن عوف ﷺ ركعةً، وبعد أن أتمّ الصلاة قال لهم: قد أصبتم أو قد أحسنتم، لأنهم أدوا الصلاة على وقتها.[13]

وعند الخروج لمحاصرة بني قريظة أمر رسول الله ﷺ أصحابه قائلا: "لا يصلّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة".[14] وبهذا قد خطط سلفا لأداء الصلاة حرصًا منه عليها وإن كان سفرٌ.

وكان رسول الله ﷺ يصلي النوافل على راحلته في السفر ويسبح عليها أيّ وجهٍ توجّه عليها غير أنه لا يصلي الفرض عليها،[15] بل كان ينزل ويصلي جمعا وقصرا في جماعة،[16] إلا أن يكون مطر وطين.[17]

إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ، فَسَارَ لَيْلَهُ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْكَرَى عَرَّسَ وَقَالَ لِبِلَالٍ: اكْلَأْ لَنَا اللَّيْلَ. فَصَلَّى بِلَالٌ مَا قُدِّرَ لَهُ، وَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ. فَلَمَّا تَقَارَبَ

الْفَجْرُ اسْتَنَدَ بِلَالٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ مُوَاجِهَ الْفَجْرِ، فَغَلَبَتْ بِلَالًا عَيْنَاهُ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ بِلَالٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى ضَرَبَتْهُمْ الشَّمْسُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَهُمْ اسْتِيقَاظًا. فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَيْ بِلَالُ. فَقَالَ بِلَالٌ: أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: اقْتَادُوا، فَاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شَيْئًا. ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِلَالًا، فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ. فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ: مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.[18]

وحتى في وقت القتال اهتم رسول الله ﷺ بإقامة الصلاة، فقبيل معركة بدر ناشد ربه وهتف به وألح عليه داعيا لنصرة تلك العصابة من أهل الإسلام، والواقع أنه كان قد انتصر في هذه المعركة بتضرعاته من ذلك العريش الذي نُصب له. وفي معركة أحد، شُج وجهه ونزف من وجنته التي دخلت فيها حلقتان من حلق خوذته وأحسّ بالوهن، وزاد ألمه استشهاد سبعين من صحابته، ولكنه عندما سمع نداء بلال ﷺ إلى الصلاة أتاها كعادته في الأيام الأخرى، فشهد العالم مشهدا مدهشا للتمسك بالعبادة لم يُر له مثيل.[19]

وفي معركة الأحزاب، فاتت المسلمين صلاة العصر من شدة هجمات العدو، وهذا ما دفع رسول الله ﷺ للدعاء عليهم قائلا: "مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ."، مع أنه كان قد دعا لأهل الطائف بالهداية عندما خضبوه بدمائه. ثم جمع النبي ﷺ أصحابه وصلوا العصر بعد الغروب.[20]

لقد كان يُعنى بالصلاة جماعة إلى درجة أنه في فتح مكة بقي خارجها وعلى مسافة كبيرة من المسجد الحرام ومع ذلك كان يأتي بانتظام للصلاة في الحرم.

ولم يفوت رسول الله ﷺ الصلاة حتى في المعركة في وقت الخطر والخوف؛ فقد كان يؤم نصف الصلاة بمجموعة من صحابته بينما كان البقية منشغلين بالقتال ثم يأتي من لم يصل فيلتحق به في النصف الآخر من الصلاة. والرسالة من ذلك أن تقام الصلاة ولا تُسقط حتى عندما تكون حياة المرء على المِحَك. وقد أذِن بالصلاة عند الخوف رجالا أو ركبانا.[21]

وفي مرضه الأخير عندما اشتدت به الحمى، ما كان يقلقه إلا الصلاة، فكان يسأل مرارا وتكرارا: "أصلى الناسُ؟" وعندما قيل له لا هم ينتظرونك، طلب أن يهريقوا عليه الماء لتخفيف

الحمى، وعندما أراد أن يخرج إليهم أغمي عليه، ثم أفاق فسأل مرة أخرى: "أصلّى الناس؟" فأجيب بمثله، فطلب ثانية أن يهريقوا عليه الماء، ثم لما أراد أن يخرج إليهم أغمي عليه ثانية. وحاول مرة ثالثة لكنه أغمي عليه مرة ثالثة، ولم يتمكن من الوصول للمسجد.[22]

وعندما خفّت به الحمى قليلا، خرج إلى المسجد بين رجلين تخطّ رجلاه في الأرض، وكان أبو بكر رضي الله عنه يؤم الصلاة، فقعد عن يساره وأمّ الصلاة. وبذلك فقد ضرب مثلا عاليا في أداء حق عبادة الله تعالى حتى آخر لحظات حياته.[23]

كانت الصلاة من أواخر ما أسعده في هذا العالم؛ فيوم الاثنين، يوم وفاته، بينا المسلمون في صلاة الفجر وأبو بكر يصلي لهم، كشف رسول الله ﷺ ستر حجرته، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فأشار إليهم بيده أنْ أتموا صلاتكم، وأرخى الستر.[24]

وقد قال رسول الله ﷺ: "جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"؛[25] إن صلاة كانت تؤدَّى بهذه الروح لا بد أنها كانت مليئة بحب الله والخشوع والخضوع. (سيأتي تفصيل ذلك في فصل آخر بعنوان: خشية الله عند رسول الله ﷺ)

صلاة التهجد

كانت صلوات رسول الله ﷺ في الفرض قصيرة نسبيا كي لا يشق على الضعيف والمريض وكبار السن والأطفال والمسافرين، أما النوافل التي كان يصليها على انفراد فكانت مختلفة تماما. وقد قال رسول الله ﷺ إن العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يكون الله عز وجل بصره وأطرافه.[26] ولا شك أن رسول الله ﷺ قد بلغ هذا المقام من الحب الإلهي والفناء في الله. كانت صلاة التهجد غذاء روحه، فقال ﷺ: "إن الله عز وجل جعل لكل نبي شهوة، وإن شهوتي في قيام هذا الليل."[27]

في البداية كان يصلي التهجد أحد عشر أو ثلاث عشرة ركعة بما فيها الوتر، وعندما تقدم به العمر وضعف أصبح يصليها ثمانية. وإن لم يصلّها بالليل صلى اثنتي عشرة ركعة في النهار بدلًا عنها. وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه.[28]

كانت صلاته ﷺ في الليل طويلة يقرأ فيها طوال السور. وعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن كيفية صلاة تهجده قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى

عشرة ركعة... فلا تسألْ عن حسنهن وطوهن.[29]

كان الصحابة الصغار مشغوفين برؤية صلاة النبي ﷺ، فعن عبد الله بن عباس أنه بات ليلة عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته، فاستيقظ رسول الله ﷺ ليلا، فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنٍّ معلقة، فتوضأ منها، فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي. وقال ابن عباس رضي الله عنه بأنه قام فصنع مثل ما صنع رسول الله ﷺ، ثم ذهب فقام إلى يساره، فوضع النبي ﷺ يده اليمنى على رأسه وأخذ بأذنه اليمنى وحوّله إلى يمينه. فصلى ثلاث عشرة ركعة، ركعتين ركعتين ثم أوتر.[30]

وبذلك فقد علّم رسول الله ﷺ شابا صغيرا أنه إن كان هناك مأموم واحد فعليه أن يقف عن يمين الإمام.

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ وَلا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ "سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ" ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً.[31]

وعن حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنه (صاحب سر رسول الله ﷺ) أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَكَانَ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ – ثَلاثًا – ذُو الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ". ثُمَّ اسْتَفْتَحَ فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ ثُمَّ رَكَعَ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ وَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ". ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَكَانَ قِيَامُهُ نَحْوًا مِنْ رُكُوعِهِ يَقُولُ "لِرَبِّيَ الْحَمْدُ". ثُمَّ سَجَدَ فَكَانَ سُجُودُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ فَكَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ "سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى". ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ وَكَانَ يَقْعُدُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ وَكَانَ يَقُولُ "رَبِّ اغْفِرْ لِي رَبِّ اغْفِرْ لِي". فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فَقَرَأَ فِيهِنَّ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ وَالْمَائِدَةَ أَوِ الأَنْعَامَ.[32]

كانت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها متواضعة وتقية جدًا. فلما كان رسول الله ﷺ عندها قررت أن تصلي وراءه ليلا، ولا نعرف كم من الوقت استطاعت أن تأتم به لطول صلاته ﷺ. وفي الصباح قالت له: صليت خلفك الليلة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم. فضحك رسول الله ﷺ.[33]

غالبا ما كان رسول الله ﷺ يقضي ليله متعبدا. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال صليت مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء. ولما سئل: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ.[34]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حتى أصبح وهو يرددها، وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: 119)[35]

سبحان الله! ينام أعداء الله ورسولِه نومًا عميقا ورسول الله ﷺ الحبيب يدعو بضراعة ليُغفر لهم. وقالت عائشة رضي الله عنها إنها لم تر رسول الله ﷺ يصلي صلاة الليل قاعدا قط حتى أسنَّ، فكان يقرأ قاعدا حتى إذا أراد أن يركع قام، فقرأ نحوا من ثلاثين آية أو أربعين آية، ثم ركع.[36]

وقالت أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح.[37]

حمد الله

كانت صلاة رسول الله ﷺ مليئة بذكر الله وحمده، وبذلك تجلّت ميزة خاصة به ﷺ؛ إذ كان اسمه أحمد وكان بالفعل اسما على مسمى، فما حُمِد الله في السابق حمدا كما حمده رسول الله ﷺ. كان يبدأ نوافله بالتسبيح والتحميد، ويختار كلمات تطرب الروح لمجرد سماعها. وكوّنت تلك الترانيم من تسبيح وتحميد التي تغنى بها رسول الله ﷺ وهمس بها بكل وجد لخالقه، متحنثا في غار حراء أو مختليا في مكة والمدينة؛ بابا طويلا في الأحاديث. وكان يبدأ تهجده بقوله: "اللهم لك الحمد".[38]

وكان إذا رفع رأسه من ركوعه يقول: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ."[39] فأنّى لأحد أن يفوق ذلك في حمد الله؟!

الخشوع في الصلاة

بينما أهل بيته نيام كان رسول الله ﷺ يستيقظ بهدوء فيصلي. فعن عائشة رضي الله عنها

قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَجَسَّسْتُهُ فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. فَقُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي إِنَّكَ لَفِي شَأْنٍ وَإِنِّي لَفِي شَأْنٍ آخَرَ.[40]

وكان رسول الله ﷺ عندما ينام الجميع ليلا يخرج بهدوء إلى مقبرة البقيع ويدعو هناك ويطيل القيام. فذات ليلة تبعته عائشة رضي الله عنها خفيةً، فوجدته في جنة البقيع رافعا يديه يدعو ربه. وقال لها فيما بعد: "أظننتِ أن يحيف الله عليك ورسوله؟" (أي ظننت أني ذاهب إلى غيرك من نسائي في ليلتك) ثم أخبرها أن جبريل عليه السلام أتاه وأمره أن يأتي أهل البقيع فيستغفر لهم، وأنه خرج عندما ظن أنها قد رقدت كي لا تستوحش.[41]

وهناك رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت ليلتي من رسول الله ﷺ، فانسلّ فظننت أنه انسل إلى بعض نسائه، فخرجتُ غَيرى، فإذا أنا به ساجدا كالثوب الطريح فسمعته يقول: "سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، رب هذه يدي وما جنيتُ على نفسي، يا عظيم تُرجَى لكل عظيم، فاغفر الذنب العظيم."

ثم أخبر عائشة رضي الله عنها قائلا: "إن جبريل أتاني فأمرني أن أقول هذه الكلمات التي سمعت فقوليها في سجودك فإنه من قالها لم يرفع رأسه حتى يغفر له."[42]

حُبُّ العبادة

كان رسول الله ﷺ يحب عبادة ربه أكثر من أي شيء آخر، وكان نصيب عائشة رضي الله عنها منه كل تاسع ليلة، وفي إحدى الليالي الباردة وبعد أن دخل معها في لحافها استأذنها ليتعبد ربه تلك الليلة فأذنت له، فقام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل مكان سجوده.[43]

ومن شدة خشوعه وخضوعه لله تعالى في صلاته كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المِرْجل.[44] وفي رواية أخرى كان رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء.[45]

وصدق عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذ وصف عبادة رسول الله ﷺ بقوله:

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ   إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ[46]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

ولــــك آيــــات في عبـــادٍ حمـــدتَهمْ ولا ســـيّما عبـــدٌ تســـمّيه أحمـــدَا

لـــه في عبـــادة ربـــه غَلْـــيُ مِرجَـــلٍ وفـــاقَ قلـــوب العـــالمين تعبُّـــدَا•

العبادة في رمضان

كانت الصلاة والعبادة من عاداته اليومية ولكنها كانت تزداد في رمضان أضعافا، خاصة في العشر الأواخر أثناء الاعتكاف. فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله.[47]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

وتورَّمَـــــتْ قـــدماك للّـــه قائمًـــا ومثلـــك رجـــلا مـــا سمعنـــا تعبُّـــدا•

كان رسول الله ﷺ يجلس في المسجد معظم وقته يذكر ربه ويعبده. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بدا مرة موجوعا ولفت الصحابة انتباهه إلى أثر ذلك في وجهه فأجابهم بأنه على ضعفه قد أطال القراءة في تهجده.[48]

وكان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه فقال له الناس لمَ يصنع هذا وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال رسول الله ﷺ: "أفلا أكون عبدا شكورا؟".[49]

ما أحب رسول الله ﷺ اليُسر الذي يمنعه من العبادة فعن حفصة رضي الله عنها أنها ذات ليلة ثنت له فراشه أربع ثنيات بدل اثنتين فلما أصبح سألها عن فرشه فأخبرته فقال: "ردّوه لحالته الأولى فإنه منعتني وطاءته صلاتي الليلة."[50]

إن قراءة القرآن وذكر الله أشكال من العبادة أيضا، وكان رسول الله ﷺ مشغوفا بتلاوة القرآن الكريم فكان يقرأ كل ليلة عددا محددا من السور وعندما يستيقظ ليلا كان من عادته تلاوة القسم الأخير من سورة الأنعام. وكانت تلاوته للقرآن ليلا هادئة مليئة بالوجد والشوق. وكان رسول الله ﷺ يقوم الليل كاملا بالبقرة وآل عمران والأنعام والنساء، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استجار.[51] (وقد ذكرنا المزيد عن هذا الموضوع في فصل آخر بعنوان:

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 58.

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص61.

أسوة رسول الله ﷺ في ذكر الله وحمده وشكره).

عبادة الصوم

إن الصوم سنة الأنبياء، وكان رسول الله ﷺ يولي عبادة الصوم اهتماما خاصا. وقبل نبوته اعتاد أن يصوم يوم العاشر من محرم كعادة العرب، وحافظ على ذلك بعد نبوته حتى هاجر إلى المدينة ونزلت تعاليم صيام شهر رمضان.[52] وبالإضافة إلى رمضان كان يصوم جلّ شهر شعبان.[53]

أما بقية الأشهر فكان كما قالت عائشة رضي الله عنها بأن رسول الله ﷺ: كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم.[54]

وكان لا يفطر أيام البيض (أي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري).[55]

وعادة ما كان يصوم ثلاثة أيام كل شهر، غالبا ما تكون في نصفه الأول ويبدؤها بأول يوم اثنين من الشهر ثم الخميسين التاليين منه.[56] وكان ﷺ يقول: "تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحبُ أن يُعرض عملي وأنا صائم."[57]

وكذلك كان النبي ﷺ يصوم التاسع من ذي الحجة.[58]

عادة ما كان يأتي بيته ويسأل إن كان هناك أي شيء للأكل، فإن أجيب بالنفي قال: إني صائم.[59]

وفي بعض الأحيان كان النبي ﷺ يصوم صوم الوصل، فواصل الناس فشق عليهم فنهاهم، قالوا إنك تواصل، قال: "لستُ كهيئتكم إني أظل أطعم وأسقى".[60]

ومن العبادات المهمة في رمضان الاعتكاف. فقبل بعثته كان النبي ﷺ يحب العزلة في غار حراء لذكر الله تعالى وبعد ذلك كان يعتكف في رمضان، فكان يعتكف العشر الأوسط منه ثم أصبح يعتكف العشر الأواخر منه.[61]

وكان في اعتكافه يكثر من العبادة؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ.[62]

أما ذروة عبادة رسول الله ﷺ فكانت في الحج؛ فلم يكتف بتقديم الأضاحي فحسب بل لبس لباس الإحرام كما الكفن وطاف حاسر الرأس ببيت الله، الكعبة المشرفة،كالمتعبد المشغوف.

وقتها طاف جسده وروحه معا الكعبة، لتكون تلك ذروة عبادته مع أنه أمضى حياته كلها في عبادة ربه.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

[2] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 235، طبعة بيروت.

[3] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 243، طبعة بيروت.

[4] سنن الترمذي؛ أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مواقيت الصلاة.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ.

[6] أنساب الأشراف للبَلَاذُري؛ الجزء 1، ص 113، طبعة دار الفكر بيروت.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب سترة المصلي، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة المؤمن (غافر).

[9] سنن أبي داود؛ كتاب الطهارة، باب فِي تَرْكِ الْوُضُوءِ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ.

[10] صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب من نام أول الليل وأحيا آخره.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به.

[12] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب التَّصْفِيقِ فِي الصَّلاَةِ.

[13] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب تَقْدِيمِ الْجَمَاعَةِ مَنْ يُصَلِّي بِهِمْ إِذَا تَأَخَّرَ الإِمَامُ.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.

[15] سنن أبي داود؛ كتاب صلاة السفر، باب التَّطَوُّعِ عَلَى الرَّاحِلَةِ وَالْوِتْرِ.

[16] صحيح البخاري؛ أبواب تقصير الصلاة، باب ما جاء في التقصير وكم حتى يقصر.

[17] سنن الترمذي؛ كتاب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ماجاء في الصلاة على الدابة في الطين والمطر.

[18] ابن ماجة؛ كتاب الصلاة، باب من نام عن الصلاة أو نسيها.

[19] المغازي للواقدي؛ الجزء 1، ص 247، طبعة بيروت.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الدُّعَاءِ عَلَى المُشْرِكِينَ بِالهَزِيمَةِ وَالزَّلْزَلَةِ.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته. صحيح البخاري؛ كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الاذان، بَابٌ الرَّجُلُ يَأْتَمُّ بِالإِمَامِ وَيَأْتَمُّ النَّاسُ بِالْمَأْمُومِ. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

[25] سنن النسائي؛ كتاب عشرة النساء، باب حب النبي ﷺ.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب التواضع.

[27] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 12، ص 84، طبعة بيروت.

28 سنن الترمذي؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب 23.

29 صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره.

30 صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره.

31 سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ.

32 سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ.

33 الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 7، ص 721، طبعة بيروت.

34 صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل.

35 سنن النسائي؛ كِتَاب الِافْتِتَاحِ تَرْدِيدُ الْآيَةِ.

36 صحيح البخاري؛ أبواب تقصير الصلاة، باب إذا صلى قاعدا ثم صح أو وجد خفة تمم ما بقي.

37 سنن الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء كيف كان قراءة النبي ﷺ.

38 صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل.

39 صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ.

40 سنن النسائي؛ كِتَاب عِشْرَةِ النِّسَاءِ، باب الْغَيْرَةِ.

41 سنن النسائي؛ كِتَاب عِشْرَةِ النِّسَاءِ، باب الْغَيْرَةِ.

42 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 2، ص 314، طبعة بيروت.

43 الدر المنثور؛ الجزء 2، ص 409، طبعة بيروت.

44 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 26، طبعة القاهرة.

45 دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 62، طبعة بيروت.

46 صحيح البخاري؛ أبواب التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى.

47 صحيح البخاري؛ كتاب صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان.

48 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 357، طبعة بيروت.

49 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح.

50 الشمائل المحمدية للترمذي، باب مَا جَاءَ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

51 سنن النسائي؛ كِتَاب الِافْتِتَاحِ مَسْأَلَةُ الْقَارِئِ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ.

52 صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان.

53 صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب صوم شعبان.

54 صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب صوم شعبان.

55 سنن النسائي؛ كِتَاب الصِّيَامِ، باب صَوْمُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي وَذِكْرُ اخْتِلَافِ النَّاقِلِينَ لِلْخَبَرِ فِي ذَلِكَ.

56 صحيح مسلم؛ كتاب الصيام، باب صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ.

57 سنن الترمذي؛ كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صوم يوم الإثنين والخميس.

58 صحيح مسلم؛ كتاب الاعتكاف، باب صَوْمِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

59 سنن الترمذي؛ أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إفطار الصائم المتطوع.

60 صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب.

61 صحيح البخاري؛ كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر والاعتكاف في المساجد كلها.

62 صحيح مسلم؛كتاب الاعتكاف، باب الاِجْتِهَادِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ.

خشية الله عند رسول الله ﷺ

يعلمنا القرآن الكريم عن خالق هذا الكون، بأنه القادر المطلق الملك الغني الجبار القهار المتكبر العظيم. وما الإنسان إلا مخلوقه المحتاج إليه في كل شيء عبر الأزمان. وقد خلقه الله في أحسن تقويم وما كان خلقه إلا ليعبد ربَّه. لا يمكن للإنسان الوجود لولا فضل الله وعنايته وإلا لضل سواء السبيل وتبع الشيطان وتردى لأسفل السافلين، وهذا بحد ذاته مبعث خوف عند كل إنسان عاقل. إن الإيمان الراسخ بالله تعالى يبدد هذا الخوف ويبعث في القلب الأمل ولذلك فإن الإيمان المحمود هو الذي يكون بين الخوف والرجاء. لا بديل للإنسان عن التوجه الكامل لخالقه والسجود على أعتابه. التقوى الحقيقية أن يعيش المرء خاشيا ربه مجتنبا سخطه وذلك سبيل نجاة الإنسان.

قال رسول الله ﷺ: "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله."[1]

الخشية الحقيقية هي ألا يخاف الإنسان إلا الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا بالتوحيد الكامل الذي هو معنى: لا إله إلا الله. ذات مرة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "لا يحقر أحدكم نفسه"، قالوا يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى.[2]

وقد قص النبي ﷺ لأصحابه قصةً بهدف بعثِ خشية الله في قلوبهم فقال: إن رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبا كثيرا وأوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتُحِشت فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوما راحًا فاذروه في اليم، ففعلوا فجمعه الله فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال من خشيتك، فغفر الله له.[3]

أكثر الناس خشية لله

كان رسول الله ﷺ أول المؤمنين وأكثرهم خشية لله تعالى إلا أنه كان دائم الحذر من سخط

الله تعالى. ومع أن الوحي الأول كان إنعاما روحانيا عظيما عليه إلا أنه كان مقام خوف أيضا ولذلك قال لخديجة رضي الله عنها: لقد خشيت على نفسي،[4] وكان ذلك نتيجة شعوره بالمسؤولية وخشيته من الله أيضا.

ذات مرة، نذر بعض الصحابة أن ينفصلوا عن الدنيا وأن لا يتزوجوا، وقرروا أن يصوموا النهار ويقيموا الليل على الدوام. فمنعهم رسول الله ﷺ من ذلك وأمرهم أن يتبعوا سنته، وقال لهم بأنه تزوج، وينام ويتعبد ليلا، ويصوم أياما ويفطر أخرى، فقالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فغضب رسول الله ﷺ وقال: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا".[5]

أي أنا أكثركم خشية لله وأعرفكم بالله تعالى، فعليكم أن تتأسوا بي إن أردتم النجاة.

كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك." ولما سئل عن إكثاره من هذا الدعاء قال: "إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء."[6]

كانت خشية النبي ﷺ قد بلغت مبلغا جعله يقول لعائلته وأقاربه أنه لن يغني عنهم شيئا، وأن قرابته لهم لن تنفعهم وأن ما ينفعهم هو أعمالهم الصالحة.[7] وأنه لا يضمن دخول الجنة بنفسه إلا أن يتغمده الله بفضله ورحمته.[8]

كان النبي ﷺ يخشى عدم قبول أعماله الصالحة نظرا إلى صفة الله الغني وفقا لما جاء في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: 58-61)

سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن الآية الأخيرة وقالت: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال النبي ﷺ الذي كان تجسيدا حيا لتعاليم القرآن الكريم والأعلم بعمق معانيه: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم. أولئك الذين يسارعون في الخيرات.[9]

كانت عائشة رضي الله عنها تفكر بعذاب النار فأخذها البكاء، فسألها النبي ﷺ فأخبرته ثم تذكرت شفاعته يوم القيامة فقالت: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: يا

عائشة أمّا عند ثلاثٍ فلا؛ أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأمّا عند تطاير الكتب فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا. ثم قال ﷺ أن الموضع الثالث هو عند جسر لجنهم أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، مَن عبَره دخل الجنة وإلا سقط في النار.[10]

خشية سخط الله وعقابه

كان رسول الله ﷺ دائم التفكير خشية ألا يكون ربه الرحيم الكريم راضيا؛ فمرض ذات مرة ولم يستطع أن يقوم ليلتين أو ثلاثا، فقالت له خديجة رضي الله عنها: يا رسول الله، ما أرى صاحبك-أي جبريل عليه السلام-إلا أبطأ عنك. وكان ذلك بالطبع قد أقلق النبي ﷺ، فعندها نزلت سورة الضحى التي جاء فيها: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: 4).[11]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت بأن رسول الله ﷺ كان إذا رأى غيما أو ريحا قلِق فعُرف في وجهه، فقالت يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا.[12]

كان للسوَر التي جاء فيها ذكر عذاب الأقوام السابقة وقع كبير في قلب النبي ﷺ؛ فذات مرة قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شِبت قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات و﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾ و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.[13]

دخل النبي ﷺ على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك؟ قال والله! يا رسول الله! إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف.[14]

الالتزام بأحكام الله

كانت خشية رسول الله ﷺ ظاهرة في أفعاله، وكانت أسوته في ذلك فريدة؛ فعندما نزلت سورة النصر التي جاء فيها أن الناس سيدخلون الإسلام أفواجا، وأُمر المسلمون فيها بالتسبيح والاستغفار، قالت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي".[15]

كان النبي ﷺ يتحرى أدق دروب التقوى في تنفيذ أوامر الله تبارك وتعالى؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُبُهات كراع يرعى حول الحمى أوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملِك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.[16]

هناك أمثلة جديرة بالذكر تظهر مدى التزام النبي ﷺ التقوى وخشيته ربه واجتنابه الشبهات؛ فعن عقبة بن الحارث قال بأنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فقال لها عقبة ما أعلم أنكِ أرضعتني ولا أخبرتني. فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله، فقال رسول الله ﷺ: "كيف وقد قيل؟". ففارقها عقبة ونكحت زوجا غيره.[17]

احترام وتعظيم اسم الله

اعترض مرة أحد الأحبار عند رسول الله ﷺ بأن المسلمين بحلفهم بالكعبة يشركون بالله، ومع أن المسلمين لا يخامرهم ذلك البتة إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ قرارا وقال: من حلف فليحلف برب الكعبة.[18]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يراجعه الكلام فقال: ما شاء الله وشئت. فقال رسول الله ﷺ: جعلتني لله عدلا، ما شاء الله وحده.[19]

كانت تنتاب رسولَ الله ﷺ الخشيةُ لمجرد ذكر اسم الله في أي معاملة. فقد أُتي بأميمة بنت النعمان بن شراحيل بهدف الزواج منها، وكانت بعض النسوة قد خدعنها لما عرفن من جمالها وأشرن عليها إن كانت تريد أن تكون لها حظوة عند رسول الله ﷺ أن تتصرف معه كما تصرفت. فلما دخل عليها رسول الله ﷺ في خيمة نُصبت لها في بستان نخل قال لها: "هبي نفسك لي". قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ فأراد أن يضع يده عليها لتسكن فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: "قد عُذتِ بمعاذ." ثم خرج ففارقها قبل أن يمسها وأكرمها وردها إلى أهلها سالمة.[20]

أدق دروب التقوى

تمتع رسول الله ﷺ بخشية الله في كل ظرف وموقف، فقال: "إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها".[21]

وقد ربى أطفاله وفق هذا النهج أيضا وغرس في قلوبهم خشية الله منذ نعومة أظفارهم. فذات مرة جُمع تمر الصدقات في بيت النبي ﷺ حتى صار كوما فجعل الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بذلك التمر فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه فنظر إليه رسول الله ﷺ فأخرجها من فيه وقال: "أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة؟".[22]

ذات مرة صلى النبي ﷺ بالناس ثم دخل بيته مسرعا فلم يلبث أن خرج وبيده ذهب من الصدقة كان خلّفه في بيته فكره أن يبيِّته عنده فقسمه. فيا له من مثال على نقاء روحه وخشيته الله تبارك وتعالى.[23]

ما كانت عظمة الله تعالى وغناه يغيبان عن ذهن النبي ﷺ، فكان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.[24]

في سياق استجابة أدعية الأنبياء ذكر القرآن الكريم صفة مشتركة لأولئك المتضرعين فقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 91) وهذه الصفة تجلت على أوجها في أدعية النبي ﷺ.

نشيجه وبكاؤه في دعائه

كثيرا ما رؤي النبي ﷺ وهو يبكي في دعائه؛ ففي غزوة بدر عندما واجه جيشا من ألف محارب بصحابته الثلاثمئة وثلاثة عشر، كان يبكي ويناشد ربه تحت عريشه. ومع أن الله تعالى كان قد وعده بالنصر إلا أنه ما كف عن الإلحاح بالدعاء نظرا إلى صفة الله الغني، وما زال يهتف بربه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه وكان يقول: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأرض.[25]

كان دعاء النبي ﷺ في حجة الوداع تعبيرا بليغا يعكس عميق خشيته ربه سبحانه وتعالى، فقال:

"اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المستكين، وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، مَن خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك. اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا، وكن بي دوما رحيما يا خير المسؤولين ويا خير المعطين."[26]

يثني القرآن الكريم على المؤمنين الذين يدعون ربهم بخشوع وتضرع وكان دعاء النبي ﷺ أفضل مثال على ذلك النوع من الدعاء، فكان يدعو بكل خشوع في ركوعه:

"اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي". [27]

وكان ذلك الخشوع والخضوع التام في صلواته التي كان يؤديها على انفراد، فقال أحد صحابته بأنه أتى النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزير المرجَل، يعني أنه يبكي خاشعا.[28]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.[29]

وعَنْ مُطَرِّفٍ ﷺ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ.[30]

وروى ابن عمر رضي الله عنه مشهدا جميلا من حجة الوداع فقال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلا، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب رضي الله عنه يبكي، فقال: "يا عمر! ههنا تسكب العبرات". [31]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتاني رسول الله ﷺ ليلة فدخل معي في لحافي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي، فقام فتوضأ ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال رضي الله عنه فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا

أكون عبدا شكورا، ولم لا أفعل وقد أَنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وتلا العشر الأواخر من سورة آل عمران ثم قال: ويلٌ لِمَن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها.[32]

حدث كسوف للشمس في زمن رسول الله ﷺ فصلى بالناس صلاة الكسوف فأطال فيها القيام والركوع والسجود حتى زال الكسوف، وكثر فيها بكاؤه وكان من دعائه فيها:

رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك.[33]

ومع أن النبي ﷺ كان شديد التواضع لله ويخشى ربه خشية ما بعدها خشية إلا أنه كان يدعوه ليزيده تقوى وخشية فيقول: "اللهم آتِ نفسي تقواها أنت خيرُ مَن زكَّاها أنت وليُّها ومولاها، أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشعُ وعلمٍ لا ينفعُ ودُعاءٍ لا يُسمعُ".[34]

وكان أحيانا يدعو قائلا: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك".[35]

تلاوة القرآن الكريم وخشية الله

يقول الله تبارك وتعالى بأن الذين أوتوا العلم إذا تتلى عليهم آياته يسبحونه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: 110) وفي موضع آخر قيل بأن الكتاب المنزل ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: 24)؛ ومَن غير النبي ﷺ خير مثال على ذلك الخشوع وتلك الخشية عند سماع القرآن الكريم أو تلاوته؟ فكانت عيناه تترقرقان بالدمع وتذرفانه. ذات مرة طلب من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن وعندما وصل إلى الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 42) قال له: حسبك! فلما التفت إليه إذا عيناه ﷺ تذرفان.[36]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (النجم: 60-61) بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى فبكينا ببكائه، فقال رسول الله ﷺ: "لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصرٌّ على معصية الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم".[37]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صَحِبتُ رسول الله ﷺ في سفر ليلةً، فقرأ: بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيْم، فبكى حتى سقط، فقرأها عشرين مرة، كلُّ ذلك يبكي حتى يَسْقط، ثم قال لي آخر ذلك: "لَقَدْ خَابَ مَنْ لَمْ يَرْحَمْه الرَّحْمنُ الرَّحِيْمُ". [38]

وكان ﷺ يدعو خاشعا باكيا: "اللهم ارزقني عينين هطَّالتين تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك قبل أن يكون الدمع دما والأضراس جمرا."[39]

إذن، إن خشية رسول الله ﷺ ربه وفناؤه وأدعيته هي التي هزت عرش الله تعالى وأحدثت تلك الثورة في جزيرة العرب التي لم يكن لها مثيلٌ رأته عين أو سمعته أذن.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن الترمذي؛ كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله.

[2] سنن ابن ماجه؛ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ (أنا أعلمكم بالله).

[6] سنن الترمذي؛ كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت.

[9] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن، باب 23 ومن سورة المؤمنون.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 110، طبعة القاهرة.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿والضحى﴾.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم (الأحقاف).

[13] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن، باب 56 من سورة الواقعة.

[14] سنن الترمذي؛ كتاب الجنائز، باب 11.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله.

[18] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 371، طبعة القاهرة.

[19] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 347، طبعة القاهرة.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب اللقطة، باب إذا وجد تمرة في الطريق.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

[25] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب الإِمْدَادِ بِالْمَلاَئِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَإِبَاحَةِ الْغَنَائِمِ.

[26] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 11، ص 174، طبعة بيروت.

[27] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، المسافرين وقصرها.

[28] سنن النسائي؛ كِتَابُ السَّهْوِ، بَاب الْبُكَاءِ فِي الصَّلاَةِ.

[29] سنن ابن ماجه؛ كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ.

[30] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب الْبُكَاءِ فِي الصَّلاَةِ.

[31] سنن ابن ماجه؛ كتاب المناسك، باب استلام الحجر.

[32] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 476، طبعة بيروت.

[33] صحيح البخاري؛ كتاب الكسوف، باب التعوذ من عذاب القبر في الكسوف. تفسير الدر المنثور؛ الجزء 4، ص 59، طبعة بيروت.

[34] صحيح مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ.

[35] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 80.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب قوله المقرئ للقارئ حسبك.

[37] تفسير الدر المنثور؛ الجزء 7، ص 667، طبعة بيروت.

[38] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 373، طبعة بيروت.

[39] كتاب الدعاء للطبراني؛ الجزء 1، ص 429، طبعة بيروت.

أسوة رسول الله ﷺ في ذكر الله وحمده وشكره

صحيح أننا نتذكر دائما مَن نُحبّ، وإن أول وآخر محبوب عند نبينا محمد ﷺ هو الله سبحانه وتعالى. فمنذ بداية شبابه، كان يترك الانشغالات الدنيوية ويذهب إلى غار حراء فينشغل فيه بذكر الله. كانت المتعة كلها في وجوده مع الله حتى إن أهل مكة قالوا إن محمدا ﷺ عشق ربه. والحقيقة هي أنه أفنى نفسه في حب الله حتى غدا حبا خالصا لله. وتقول عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه.[1]

شغف النبي ﷺ بذكر الله

انشغل النبي ﷺ بذكر الله ليل نهار، في الوحدة ومع الصحبة، في اليقظة وفي النوم؛ فلم ينسَ اللهَ لحظة، وقد قال: "ما أصرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عادَ في اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً".[2]

ولا ينطبق المثل الصوفي "القلب مع الله واليد مشغولة بالعمل" إلا في اليقظة. أما النبي ﷺ فقد وصل إلى أعلى من ذلك إذ انشغل قلبه بذكر الله حتى وهو نائم. فقد قال: "تنام عيني ولا ينام قلبي"،[3] كما لو كان ذكر الله غذاءَ قلبه. فمثلما يعتمد الجسد على التنفس والدورة الدموية، تعتمد روحه على ذكر الله. وخلت لحظات قليلة فقط منه وذلك عندما كان يذهب إلى الخلاء وبعد خروجه منه كان يقول: "غفرانك".[4] والسبب في طلب الغفران هو عدم ذكره لله في تلك اللحظات.

تعتمد حياة الإنسان اعتمادا كاملا على بركات الخالق والإمكانات التي يهبها له، فالحياة معتمدة كليا عليه، إذ إنه يمنح البشرية نعما لا تعد ولا تحصى دون أن تُطلب منه، ويتجلى ذلك في صفته الرحمن. ومن خلال صفة الرحيم، يجزي الله البشر خيرا كثيرا على ما يبذلونه من جهود. إن نعم الله على البشر كثيرة جدا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: 35) والحسرة تصيب الذين لا يشكرون الله بينما يستحق الشاكرون الثناء.

الشكر على النعم

يقول الله تعالى مثنيا على نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: 4)، وفي إبراهيم عليه السلام

إنه كان ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ (النحل: 122)، وأمر محمدا ﷺ فقال: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: 67). لقد وعد الله أن يُنزِّل على عباده الشكورين بركات كثيرة. وتلقى النبي ﷺ منها حظا وافرا لشكره لله. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: 114). كان أكثر ما ذكر النبي ﷺ ربه في صلاته التي كانت قرة عين له وراحة للقلب.[5]

لا يكون قلب المرء العادي دائما منتبها في الصلاة بل تعتريه أفكار مشتّتة. بينما كان قلب النبي ﷺ منغمسا كليا في الصلاة. وعلى اجتهاده ذاك كان يقول: "اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا".[6]

حقًا إن الشكر لتعبير جميل عن الحب، وذكرٌ لله، وخير شكل لهذا التعبير هو تمجيد الله والثناء عليه. كانت صلاة النبي ﷺ تجسيدا لحمد الله وشكره. فكان يبدؤها بـ "اللهم ربنا ولك الحمد"، ثم في أوسطها: "سمع الله لمن حمده"، وفي النهاية مع "التحيات لله" ثناء شامل على الله. احتوى ركوعه وسجوده على الثناء أيضا إذ كان يقول: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي".[7]

وعند رفع رأسه من الركوع وقول "سمع الله لمن حمده" يغدو ثناؤه بحرا متدفقا فيقول: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ".[8]

إلى جانب صلاة الفرض، كان النبي ﷺ يصلي النوافل بحماس واجتهاد فيقوم الليل متعبدا لله حتى تتورم قدماه فتسأله عائشة رضي الله عنها: لم تصنع هذا؟ فيقول: "أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟".[9]

وبعد صلاة عامرة بحب الله كان يقول: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ".[10]

تشهد كل لحظة من حياته ﷺ على استجابة دعائه هذا. ففي الليل، بعد قسط من الراحة، كان ينهض وأول ما يقوله هو: "الحَمْدُ لله الذِي أحْيَانا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُشُور".[11]

وبعد انتهائه من طعام مهما كان قليلا كانت تتدفق من قلبه عبارات الحمد والشكر. فقد قال: "إنَّ اللهَ ليرْضَى عَنِ العبْدِ أنْ يأكلَ الأكلَةَ فيحمَدَه عليها، أو يَشْربَ الشَّرْبَةَ فيحمَدَه عليها".

فكان إذا أكل قال: "الحَمْدُ لِله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ".[12]

إن الله سبحانه وتعالى منحه قدرة كبيرة على الشعور بالامتنان فيحمده ويشكره عليها، وكان ذِكر الله جزءا لا يتجزأ من كيانه.

وبعد خروجه من الخلاء كان يشكر الله فيقول: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي".[13]

وكان قبل النوم يحمد الله على النعم التي منحه إياها في ذلك اليوم، فيقرأ المسبِّحات• التي قال عنها: "إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ".[14]

قال النبي ﷺ: "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ".[15]

وكان النبي ﷺ يحمد الله حين يلبس الجديد.[16]

وحين كانت تمطر في الصيف بعد انقطاع طويل كان يطرق رأسه شكرا وحمدا لله. وذات مرة حسر ثوبه حتى أصابه المطر، فسئل عن السبب فقال: "إِنَّهُ حَديثُ عَهْدٍ بربِّهِ".[17]

لم يتفاخر النبي ﷺ باستجابة دعائه أو إنجاز مهمة من مهامه، بل كان يحمد الله ويقول: "ما يمنع أحدكم إذا عرف الإجابة من نفسه فشفي من مرض أو قدم من سفر يقول الحمد لله الذي بِعزَّته وجلاله تتم الصالحات".[18]

ذهب النبي ﷺ لعيادة خادمه اليهودي المريض فرأى أنه قريب من الموت فطلب منه أن يسلِم ففعل فحمد الله وقال: "الحمد لله الذي أنقذه من النار".[19]

سجود الشكر

كان النبي ﷺ إذا بُشّر بما يسره خرّ ساجدا شاكرا لله.[20]

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ نُرِيدُ الْمَدِينَةَ فَلَمَّا كُنَّا

• وهي السور التي في أوائلها سُبْحَانَ أَوْ سَبَّحَ أَوْ يُسَبِّحُ أَوْ سَبِّحْ وهي سبعة: الإسراء وَالْحَدِيدُ وَالْحَشْرُ وَالصَّفُّ وَالْجُمُعَةُ وَالتَّغَابُنُ وَالْأَعْلَى.

قَرِيبًا مِنْ عَزْوَرَا نَزَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَدَعَا اللَّهَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا فَمَكَثَ طَوِيلًا. ثُمَّ قَامَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَدَعَا اللَّهَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا فَمَكَثَ طَوِيلًا. ثُمَّ قَامَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا. قَالَ إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي وَشَفَعْتُ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي فَخَرَرْتُ سَاجِدًا شُكْرًا لِرَبِّي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَسَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَسَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِي الثُّلُثَ الْآخِرَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي". [21]

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: "خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ فتوجَّهَ نحوَ مشربتِهِ فدخلَ فاستقبلَ القبلةَ فخرَّ ساجدًا فأطالَ السُّجودَ حتَّى ظننتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قبضَ نفسَهُ فيها فدنوتُ منهُ فرفعَ رأسَهُ وقالَ: من هذا؟ قلتُ: عبدُ الرَّحمنِ قالَ ما شأنُكَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ سجدتَ سجدةً خشيتُ أن يكونَ اللهُ قد قبضَ نفسَكَ فيها قالَ: إنَّ جبريلَ أتاني فبشَّرني فقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: مَن صلَّى عليكَ صلَّيتُ عليهِ ومن سلَّمَ عليكَ سلَّمتُ عليهِ فسجدتُ للَّهِ شكرًا". [22]

كان النبي ﷺ بعد النصر العظيم الذي حققه يوم فتح مكة راكبا على ناقته وقد أطرق رأسه حمدا وشكرا لله حتى كاد يلمس رأسه السرج وقال: "سبحانك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي". [23]

طرق جديدة للتعبير عن الشكر

كان النبي ﷺ في بحث دائم عن سبل جديدة لشكر الله. فلم يكن يشكر الله فقط على نعمه وأفضاله عليه ونصره له، بل وعلى حمايته من البلاء والمحن. لقد قال: "من رأى صاحبَ بلاءٍ فقال الحمدُ للهِ الَّذي عافاني ممَّا ابتلاك به وفضَّلني على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا، إلَّا عُوفي من ذلك البلاءِ كائنًا ما كان". [24]

وروت جُوَيرية رضي الله عنها إحدى السبل الجديدة لحمد الله وشكره فقالت أَنَّ: "النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا. قَالَتْ نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ". [25]

وذات مرة قال النبي ﷺ وهو يناجي الله تعالى: "تمَّ نورُكَ فهديتَ، فلَكَ الحمدُ، عظُمَ حلمُكَ

فغفَرتَ فلَكَ الحمدُ، بسطتَ يدَكَ فأعطَيتَ فلَكَ الحمدُ، ربَّنا وجهُكَ أكْرمُ الوجوهِ، وجاهُكَ أعظمُ الجاهِ، وعطيَّتُكَ أفضلُ العطيَّةِ وأَهْناها، تطاعُ ربَّنا فتَشكُرُ، وتُعصَى فتَغفرُ، وتجيبُ المضطرَّ، وتَكْشفُ الضُّرَّ، وتَشفي السَّقيمَ، وتغفرُ الذَّنبَ، وتقبلُ التَّوبةَ، ولا يَجزي بآلائِكَ أحدٌ، ولا يبلغُ مِدحتَكَ قولُ قائلٍ".[26]

سُرّ الله كثيرا بتلك المناجاة والحمد فأعلن أن يوم القيامة، حين سينشغل كل امرئ بمصيره ويبحث عن مأوى له، سيبعث الله النبي ﷺ وبيده لواء الحمد.[27] وسيعطى هذا المقام المحمود لكونه أكثرَ مَن حمد اللهَ على الإطلاق.[28]

وسيُمجَّد اسم النبي ﷺ أحمد، وسيسجد النبي ﷺ ويحمد الله بمحامد يعلمه الله إياها فيقول له الله: "ارفعْ رأسَك وسلْ تُعطه وقُل يُسمَع واشفَع تُشفَّع". فيتشفع لأمته ويكون ذلك أعظم نعمة منحه الله إياها.[29]

التوق إلى تمجيد الله

لم ينفك النبي ﷺ قط عن حمد الله. وعندما سمع شعرا يثني على الله قال: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلٌ. وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ".[30]

عندما سمع النبي ﷺ بيت شعر أمية التالي، قال: "آمَن شعرُه وكفَر قلبُه".

"لَكَ الحَمدُ وَالنَعماءُ وَالْفَضْلُ رَبَّنا فَلا شَيءَ أَعلى مِنكَ حَمْدًا وَأَمجَدُ"[31]

كان أمية كافرا يعبد الأوثان، أما لبيد فكان شاعرا معروفا وكان من أصحاب المعلقات. فكان بيت الشعر المفضل عند النبي ﷺ والأصدق في تمجيده لله هو قول لبيد: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ.[32]

والحقيقة هي أنه ما من أحد فاق النبي ﷺ في حمده وشكره لله سبحانه وتعالى، ولهذا السبب جاء ذكره باسم أحمد في بشارة عيسى عليه السلام، أي بمعنى خيرُ من يحمد الله، وكان جزاء هذا الحمد أن سماه الله محمدا، فيحمده العالم بأكمله.

الشكر والثناء

يأتي الشكر على المعروف والإحسان من القلب، والامتنان صفة أساسية تمكّننا من أن نحمد

الله بصدق ونشكره على أنعمه. قال النبي ﷺ: "مَن لا يَشكُرُ الناسَ لا يَشكرُ اللهَ".[33] فغير الشاكر لا يعترف بالنعمة أو أن شعور الامتنان عنده معطّل.

لقد علّمنا النبي ﷺ كيف نشكر الله على نعمه. عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: "قال رسول الله ﷺ: مَن صُنِعَ إليهِ معروفٌ فقالَ لفاعلِهِ جزاكَ اللهُ خيرًا فقد أبلغَ في الثَّناءِ".[34]

وقال كذلك: "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ".[35]

شكر الناس

كان النبي ﷺ يدفع بالتي أحسن السيئة فما بالنا إن أُحسن إلينا، وقد قال: "مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ".[36]

كان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية على رد الجميل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 8). وكان يقابل الجميل البسيط بإحسان كبير، فقد دعا الله أن يعلِّم ابن عمه الصغير آنذاك عبد الله بن عباس رضي الله عنه الكتاب بعد أن ملأ له إبريق الماء ليتوضأ منه.[37] إن دعاء النبي ﷺ: "اللّهمّ فقّهه في الدِّين" غيّر حياة عبد الله بن عباس رضي الله عنه.[38]

لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة تسنّى للأنصار أن يخدموه فمنهم من وهبه نخيله. وعندما غنِم في الحرب أملاك بني قريظة وبني النضير أولى الأنصارَ أهمية خاصة فأحسنَ ردَّ الجميل.[39] وعطف عليهم وواساهم يوم فتح مكة وقال رفقا بهم واعترافا بفضلهم: "هاجرتُ إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم". وأصبحتْ المدينة موطنه الثاني. وأوصى الناس بمعاملة الأنصار معاملة طيبة فقال: "آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ".[40]

كان كعب بن زهير شاعرا مشهورا عوقب على ما قاله في شعره من كلام فظ وبذيء بحق النبي ﷺ، وحين مثَلَ أمام النبي ﷺ ليستأمن منه تائبا مسلما نظم قصيدة في مدح النبي ﷺ، ومدح فيها المهاجرين دون ذكر الأنصار، فقال له النبي ﷺ إن الأنصار يستحقون المديح أيضا. فقال فيهم: "مَن سَرَّهُ كَرَمُ الحَياةِ فَلا يَزَلْ في مِقنَبٍ مِن صالِحي الأَنصارِ".[41]

باختصار، لم ينس النبي ﷺ أبدا جميلا أُسدي إليه؛ فتذكّر مثلا جميلَ زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي كسا العباس رضي الله عنه عم الرسول ﷺ يوم بدر قميصا لما جيء به أسيرا، فكافأه

النبي ﷺ بأن أعطى قميصه لابنه ليكفنه فيه.[42]

وما نسي النبي ﷺ جميل خديجة رضي الله عنها. حدث أن غارت عائشة رضي الله عنها من كثرة ثناء النبي ﷺ على خديجة رضي الله عنها فقال لها: "قد آمنتْ بي إذ كفر بي الناس وصدّقتني إذ كذّبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء".[43]

حين يئس النبي ﷺ من أهل مكة ومعاملتهم له ذهب إلى الطائف لينشر الإسلام. وعندما أراد الرجوع احتاج حسب الأعراف إلى زعيم قبيلة يدخله في جواره. فأرسل لزعماء عدة ولكن لم يجبه إلا المطعم بن عدي الذي أرسل أبناءه ليرافقوا النبي ﷺ ويحموه بينما يدخل مكة.[44] ولم ينس له هذا الجميل. كان المطعم قد مات قبل يوم بدر، وأُسر سبعون مشركا من قبيلته في غزوة بدر فقال النبي ﷺ: " لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ ".[45]

بقي أبو طالب عم الرسول ﷺ مخلصا له فوقف إلى جانبه طول حياته، وتحمّل حصار شعب أبي طالب لأجل الرسول ﷺ، وعندما مرض أبو طالب طلب من الرسول ﷺ أن يدعو له ربه أن يعافيه، وبفضل هذا الدعاء تعافى وشفي.[46] ويتضح من ذلك أنه كان يؤمن بصدق النبي ﷺ لكنه لم يفصح أو يعلن عن إيمانه، وفي آخر مرض له، طلب منه النبي ﷺ أن يسلم لكنه لم يفعل، لكن النبي ﷺ ظل يعامله معاملة حسنة.

عن عليّ رضي الله عنه قال: "أخبرت رسول الله ﷺ بموت أبي طالب فبكى ثم قال اذهب فاغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه".[47]

وعندما عاد النبي ﷺ من جنازة أبي طالب قال: "وَصَلَتْكَ رَحِمٌ، وَجُزِيتَ خَيْرًا يَا عَمِّ".[48]

أراد النبي ﷺ أن ينمّي في أصحابه وأصدقائه شعور الامتنان والشكر، فأوصى أبا هريرة رضي الله عنه بالآتي: " يا أبا هريرةَ كُنْ ورعًا تكنْ أعبدَ الناسِ، وكن قنعًا تكن أشكرَ الناسِ".[49]

اللهم اجعلنا من الشاكرين الحامدين المتأسّين بأسوة سيدنا محمد ﷺ. آمين

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح مسلم؛ كتاب الحيض، باب ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالِ الْجَنَابَةِ وَغَيْرِهَا.

[2] سنن أبي داود؛ كتاب الوتر، باب فِي الِاسْتِغْفَارِ.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه.

[4] سنن الترمذي؛ أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء.

[5] سنن النسائي؛ كِتَاب عِشْرَةِ النِّسَاءِ، بَاب حُبِّ النِّسَاءِ.

[6] سنن أبي داود؛ كتاب الوتر، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا سَلَّمَ.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع وباب الدعاء في الركوع.

[8] صحيح مسلم ؛كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح.

[10] سنن أبي داود؛ كتاب الوتر، باب فِي الِاسْتِغْفَارِ.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام.

[12] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما يقول إذا فرغ من الطعام.

[13] سنن ابن ماجه؛ كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء.

[14] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب مَا يُقَالُ عِنْدَ النَّوْمِ.

[15] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب باب مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ.

[16] سنن الترمذي؛ كتاب اللباس، باب ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا.

[17] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 267، طبعة القاهرة.

[18] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 730، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام.

[20] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب فِي سُجُودِ الشُّكْرِ.

[21] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب فِي سُجُودِ الشُّكْرِ.

[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 191، طبعة القاهرة.

[23] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 405، طبعة بيروت. تفسير القرآن العظيم لابن كثير؛ الجزء 8، ص 512، طبعة بيروت.

[24] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما يقول إذا رأى مبتلى.

[25] صحيح مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التَّسْبِيحِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَعِنْدَ النَّوْمِ.

[26] تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني؛ الجزء 1، ص 432، طبعة بيروت.

[27] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ.

[28] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، ومن سورة بني إسرائيل.

[29] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب قول الله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾.

[30] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 470، طبعة القاهرة. صحيح مسلم؛ كتاب الشعر، باب فى انشاد الاشعار.

[31] كنز العمال؛ الجزء 6، ص 171، طبعة مصر. فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 7، ص 154، طبعة بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ؛ الجزء 8، ص 51، طبعة بيروت.

[32] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية.

[33] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك.

[34] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه.

[35] سنن أبي داود؛ كتاب الزكاة، باب عَطِيَّةِ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ.

[36] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب فِي شُكْرِ الْمَعْرُوفِ.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: اللهم علمه الكتاب.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار.

[41] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 62، طبعة بيروت.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة براءة.

[43] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 117، طبعة القاهرة.

[44] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 507، طبعة بيروت.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

[46] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 727، طبعة بيروت.

[47] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 123، طبعة بيروت.

[48] البداية والنهاية؛ الجزء 3، ص 125، طبعة بيروت.

[49] سنن ابن ماجه؛ كتاب الزهد، باب الورع والتقوى.

حب رسول الله ﷺ للقرآن

إن القرآن هو كلام الله الطاهر وهو آخر وأتم شريعة وهو هداية أُنزلت على قلب النبي ﷺ لبني نوع الإنسان إلى قيام الساعة، نزل بلسان عربي مبين، عميق وواسع المعاني، زاخر بالدلالات والحجج، لا يضاهيه وحي آخر، عجز وسيعجز عن الإتيان ولو بآية من مثله أحد، وتحديه لذلك لا يزال قائما دون أن يتجرأ عليه أحد، وما هذا إلا دليل على عظمته وتفوقه على ما دونه.

خلب كلامُ القرآن المبارك الفصيح سمْعَ ولُبَّ الشاعر العربي الكبير لبيد، فترك قرض الشعر، وطُلب منه مرة أن يُسمع شيئا من شعره الحديث، فقال إنه لم يقرض شعرا منذ علّمه الله البقرة وآل عمران. [1]

وكان إسلام عمر رضي الله عنه معجزة ودليلا على عظمة القرآن الكريم. إذ كان ذاهبا إلى النبي ﷺ متوشحا سيفه ليقتله وفي طريقه دنا من منزل أخته فسمع آيات من سورة طه فقال: "ما هذه الهينمة التي سمعت؟" وأسلم بعدها. [2]

اجتمعت قريش يوما فبعثوا عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ فقال: "يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: أفرغت؟ قال: نعم، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ..﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال له عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع عتبة إلى قريش فقال: لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك رجل بالعربية ولا تدري ما قال". [3]

أكثر ما أظهر بهاء القرآن الكريم هو تلاوة النبي ﷺ لآياته. يقول الله تعالى:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: 3-4).

وأحب الله تلاوة النبي ﷺ الجميلة لآيات القرآن الكريم فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: 62)

وسبب هذا الحب هو أن النبي ﷺ كان يتلو القرآن بصوت جميل، وبوضوح، وبحب وشجن.

أي يتلوه حق تلاوته:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (البقرة: 122)

سئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ ؟ فقال كانت مدا ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم.[4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: "مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَأَذَنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ".[5]

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: "كان يقطّع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾".[6]

إذن كان النبي ﷺ يتلو القرآن فيلفظ الكلمات بوضوح ويقرأ الآيات آية آية وبصوت شجي فيه عذوبة. سأله أحدهم عن خير التلاوات فقال تلاوة تُظهر خشية الله؛ وقراءة النبي ﷺ للقرآن كانت تلك القراءة بالضبط.

كان القرآن الكريم شغله الشاغل فكان يقرأ ويعيد آخر ما نزل عليه من آيات في الصلاة. وكان يرددها في الليل أيضا. عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا تضور عن الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار".[7] والتضور أي التلوي والتقلب.

كان النبي ﷺ يستيقظ في الثلث الأخير من الليل فيقرأ الخواتم من سورة آل عمران ثم يقوم فيصلي التهجد، وتتضمن تلك الآيات خلق الله للسماوات والأرض، والتفكر بآيات الله، والحث على عبادة الله.[8]

وقبل أن يخلد للنوم، كان النبي ﷺ يقرأ سورا أخرى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده".[9]

ويروي جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ سورة حم السجدة وسورة الملك قبل النوم.[10]

وروت عائشة رضي الله عنها أنه كان يقرأ أيضا سورة الزمر وسورة بني إسرائيل قبل النوم.[11]

وعن عرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: "إن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات• قبل أن يرقد وقال إن فيهن آية أفضل من ألف آية".[12]

وعن خباب رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ لم يأت فراشه قط إلا قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى يختم، أي حتى يُتْبِعها بالنصر، والمسد، والإخلاص، والفلق والناس.[13]

وعن عَوْف بن مالك الأشْجَعي رضي الله عنه قال: "قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ وَلا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ. ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: "سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ". ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً".[14]

رمضان شهر نزول القرآن، فكان المسلمون يتلون طوال هذا الشهر آيات القرآن الكريم ويتفكرون في معانيها. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام كان يلقى النبي ﷺ كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن.[15]

وذكرت الأحاديث أيضا أن جبريل عليه السلام كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة في رمضان وعرضه عليه مرتين في العام الذي مات فيه.[16] وكانت تلك آخر سُنن النبي ﷺ.

تلاوة القرآن وخشية الله

يقول الله في القرآن الكريم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: 110).

وجاء في موضع آخر: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: 24).

ومَن أفضل من النبي ﷺ في ذلك وهو الأكثر خشية لله، وكانت هذه حالته عند سماعه القرآن الكريم وعند تلاوته له، فكان يقرأ القرآن ويغوص في معانيه. ذات يوم، قال أبو بكر رضي الله عنه: "يا رسول الله قد شبت". قال: "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت".[17]

• وهي السور التي أوائلها سبحان أو سَبَّحَ أو يسبّح أو سَبِّحْ وهي سبعة: الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى.

وتصف تلك السور ما نزل من عذاب على الأقوام السابقين الذين رفضوا رسالة الله وشرائعه.

أحيانا كان النبي ﷺ يتلو القرآن لأصحابه بصوت حزين. تصوروا المشهد وآيات القرآن توحى إلى النبي ﷺ في تلك المجالس الكريمة. فلا بد أن ملائكة السماء أمعنت السمع، والله نظر إلى النبي ﷺ بحب وهو يتلو بصوت جميل سورة الرحمن المعروفة بعروس القرآن.

عن جابر رضي الله عنه قال: "خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ على أَصحابِهِ، فقرأَ عليهم سورةَ الرَّحمنِ من أوَّلِها إلى آخرِها فسَكَتوا فقالَ: لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ فَكانوا أحسَنَ مردودًا منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قولِهِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ قالوا: لا بشَيءٍ من نِعَمِكَ ربَّنا نُكَذِّبُ فلَكَ الحمدُ".[18]

أتى قيس بن عاصم رضي الله عنه يريد رؤية النبي ﷺ فقال: "أتلُ علَيَّ مما أُنزِل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن فقال: أَعِدْها، فأعادَها ثلاثا، فقال: والله إنَّ له لَطلاوة، وإنَّ عليه لحلاوة، وأسفله لَمُغْدِق، وأعلاه مثْمِر، وما يقولُ هذا بَشَر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله".[19]

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه أن أُبي بن كعب رضي الله عنه كان يتلو القرآن بحضور النبي ﷺ وأصحابه فَرَقُّوا، فقال النبي ﷺ: "اغتنِموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة".[20]

وعندما كان النبي ﷺ يسمع كلام الله كانت تغمره حالة روحانية فيأخذ بالبكاء. طلب النبي ﷺ مرة من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه من القرآن فقرأ من سورة النساء وحين وصل إلى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 42). فأشار إليه رسول الله ﷺ أن حسْبُك، "فالتفتَ إليه فإذا عيناه تذرفان".[21]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع أحدهم يتلو هذه الآية من سورة المزمل: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (المزمل: 13)، فصعق.[22]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صحب النبي ﷺ في سفر ليلة فقرأ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْم" فبكى حتى سقط، فقرأها عشرين مرة، كلُّ ذلك يبكي حتى يَسْقط، ثم قال لي آخر ذلك: لَقَدْ خَابَ مَنْ لَمْ يَرْحَمْه الرَّحْمنُ الرَّحِيْمُ".[23]

جاء وفد من قبيلة كندة لزيارة النبي ﷺ فطلبوا منه أن يريهم آية على صدقه فقال: "إن الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"، فقالوا: "أسمعنا منه"،

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ حتى بلغ ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ثم سكت وسكن بحيث لا يتحرك منه شيء ودموعه تجري على لحيته، فقالوا: "إنا نراك تبكي، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟" فقال: "إن خشيتي منه أبكتني، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف، إن زغت عنه هلكت".[24]

تلاوة القرآن في الصلاة

كان النبي ﷺ ينتقي ما يتلوه من آيات وسور في الصلاة على أساس الموضوع والمناسَبة. فكان يقرأ في صلاتي الظهر والعصر الفاتحة وبعدها سور مختلفة قراءة صامتة. أما صلوات الفجر والمغرب والعشاء فكان يجهر فيها. وكانت أول ركعتين من صلاة الظهر أطول من الأخيرتين بمرتين. روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن عدد الآيات المقروءة في كل من الركعتين الأولى والثانية يقارب ثلاثين آية. وأخبرنا جابر بن سمُرة رضي الله عنه أن سورة الليل المكونة من إحدى وعشرين آية كانت تقرأ في صلاة الظهر وصلاة العصر. وقيل في أحاديث أخرى أنها سورة الأعلى، وكانت القراءة في صلاة الفجر أطول من ذلك نسبيًا.[25]

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بسورة ق وكانت صلاته تخفيفا، وكان عدد الآيات التي يقرأها في الفجر وفقا لأبي برزة الأسلمي رضي الله عنه يتراوح بين الستين والمائة آية. ويقول عمرو بن حُريث رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يتلو سورة التكوير في صلاة الفجر.[26]

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر سورة السجدة وسورة الدهر.[27]

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أمَّه سمعته يتلو سورة المرسلات في صلاة المغرب فقالت: "يا بُنَيَّ، واللهِ لقَدْ ذَكَّرْتَنِي بقِرَاءَتِكَ هذِه السُّورَةَ، إنَّهَا لَآخِرُ ما سَمِعْتُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بهَا في المَغْرِبِ".[28]

ويروي جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يتلو سورة الطور في صلاة المغرب فقال: "كَادَ قَلْبِي أنْ يَطِير".[29]

وعن جابر بن سمُرة رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة في صلاة المغرب سورة الكافرون وسورة الإخلاص.[30]

وعن البراء ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقرأ سورة التين في صلاة العشاء وهو في سَفر فقال: "ما سَمِعْتُ أحَدًا أحْسَنَ صَوْتًا أوْ قِرَاءَةً منه ﷺ". [31]

وعن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال له أن يقرأ سورة "الشمس وضحاها" ونحوها في صلاة العشاء. [32]

وروي أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيد والجمعة سورة الأعلى وسورة الغاشية. [33] وفي رواية أخرى أنه كان يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة في الركعة الأولى وسورة المنافقون في الركعة الثانية. [34]

باختصار، إن حب النبي ﷺ للقرآن ظاهر من كثرة تلاوته له، إذ إن القرآن كان غذاء روحه وكأن حاله ﷺ كما يقول حضرة المسيح الموعود ﷺ:

"يا ربّ، إني أتوق دائما إلى تقبيلِ صحيفتك

والطوافِ حول القرآن الكريم، فهو كعبتي المشرّفة"•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• آريو قاديان ونحن؛ ميرزا غلام أحمد ﷺ، ص 245، بيت شعر الأردية مترجم.

المراجع والمصادر

[1] تفسير القرطبي؛ الجزء 15، ص 54، طبعة بيروت.

[2] تفسير القرطبي؛ الجزء 11، ص 164، طبعة بيروت.

[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 278، طبعة بيروت.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، باب مَدِّ الْقِرَاءَةِ.

[5] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 450، طبعة القاهرة.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 302، طبعة القاهرة.

[7] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 724، طبعة بيروت.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم.

[10] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب منه 22.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 68، طبعة القاهرة.

[12] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 128، طبعة القاهرة.

[13] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 166، طبعة بيروت.

[14] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب أجود ماكان النبي ﷺ يكون فى رمضان.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ.

[17] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب ومن سورة الواقعة.

[18] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الرحمن.

[19] تفسير القرطبي؛ الجزء 17، ص 151، طبعة بيروت.

[20] تفسير القرطبي؛ الجزء 15، ص 250، طبعة بيروت.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب قوله المقرئ للقارئ حسبك.

[22] كنز العمال؛ الجزء 7، ص 206، طبعة مصر.

[23] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 373، طبعة بيروت.

[24] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 92، طبعة بيروت.

[25] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب الْقِرَاءَةِ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

[26] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب الْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ.

[27] صحيح البخاري؛ كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة.

[28] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 340، طبعة القاهرة.

[29] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة والطور.

[30] السنن الكبرى للبيهقى؛ الجزء 2، ص 391، طبعة بيروت.

[31] صحيح البخاري؛ كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في العشاء.

[32] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 355، طبعة القاهرة.

[33] تفسير الدر المنثور؛ الجزء 8، ص 480، طبعة بيروت.

[34] تفسير الدر المنثور؛ الجزء 8، ص 151، طبعة بيروت.

سِرّ استجابة دعاء النبي ﷺ

علّمنا النبي ﷺ أسرار قبول الدعاء المبنية على تجربته الخاصة وملاحظته. وحدّد لنا الظروف والأماكن والأوقات والحالات والشروط التي يرجح فيها قبول الدعاء.

هذا يشجعنا على الدعاء إذ إن دعاءنا في تلك الأوقات والحالات يلقى القبول. لذا، من الجدير أن نذكر أوقات الدعاء المباركة:

- الدعاء أثناء التهجد، خاصة في القسم الأخير من الليل.
- والدعاء وقت الأذان وبين الأذان وإقامة الصلاة.
- والدعاء بخشوع في الصلاة.
- والدعاء في السجود.
- وصلاة الجمعة وقت مهم لقبول الدعاء.
- والتجمعات ولقاءات المسلمين المباركة لذكر الله.
- والدعاء وقت الإفطار.
- والدعاء في شهر رمضان خاصة في الأيام العشرة الأخيرة منه وفي ليلة القدر.
- والدعاء عند ختم القرآن.
- والدعاء عند هطول الأمطار.
- والدعاء تحت الاضطهاد.
- ورفع اليدين في الدعاء.
- والدعاء للغائب.

علاقات تُحمِّس على الدعاء

- دعاء الأبوين لأولادهما ودعاء الأولاد البارين لأبويهم.
- دعاء القادة العادلين ودعاء الشعوب التقية والصالحة.

أماكن تعزّز أثر الدعاء

- الدعاء عند رؤية الكعبة.
- الدعاء قرب مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام والحجر الأسود.
- الدعاء على الصفا والمروة.
- الدعاء عند المشعر الحرام وفي عرفات.
- الدعاء في المسجد النبوي وبيت المقدس.

سنذكر هنا بعض تعليمات النبي ﷺ بخصوص الأماكن المقدسة والأوقات المباركة:

(1) إن وقت صلاة التهجد وقت يستجاب فيه الدعاء. قال النبي ﷺ: "ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا، حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ، فيقولُ: من يدعوني فأستجيبُ له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرُني فأغفرُ له".[1]

ذُكر في بعض الأحاديث أن الله ينزل إلى السماء الدنيا بعد منتصف الليل وفي أحاديث أخرى أن ذلك يكون في الثلث الأخير من الليل.

يروي أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل أي الدعاء أكثر قبولا واستجابة قال جَوفُ الليلِ الآخِرُ ودُبُرُ الصلواتِ المكتوباتِ.[2]

(2) أما الدعاء وقت الأذان، فقد روى سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ فقال: "ثنتان لا تُرَدَّان – أو قلّما تُرَدَّان– الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يُلحم بعضهم بعضا".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ".[3] فسأل أحدهم وماذا نقول؟ قال النبي ﷺ: "سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة".[4]

(3) وختم القرآن وقت مهم يقبل فيه الدعاء. أخبرنا النبي ﷺ أن ستين ألف ملَك يصلون على خاتِمِ القرآن. وعلمنا دعاء طلب الرحمة وتخفيف عذاب القبر. وجاء في حديث أن الرحمة تنزل على من ختم القرآن.[5]

(4) أعلم النبي ﷺ أمته بوقت مهم من يوم الجمعة يستجاب فيه الدعاء. وهذا الوقت هو بين بداية خطبة الجمعة والغروب. وبالتحديد في خطبة الجمعة وصلاة الجمعة.[6]

(5) شهر رمضان المبارك شهر الدعاء وخاصة في العشر الأواخر التي كان النبي ﷺ يحيي فيها

الليل ويوقظ أهله.[7]

وقال ﷺ: لكل صائم عند فطره دعوة مستجابة.[8]

(6) والدعاء يستجاب في ليلة القدر التي تقع في الوتر من العشر الأواخر من رمضان.[9]

(7) عن أبي هريرة ﷺ قال: "إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ. قالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدُّنْيا... فيَقولُ (رَبُّهُمْ): فَأُشْهِدُكُمْ أنِّي قدْ غَفَرْتُ لهمْ".[10]

(8) ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ كان وقت نزول المطر يترك ما هو فيه ويدعو.[11]

(9) ويستجاب الدعاء عند الخشوع في الصلاة. وجاء في حديث: إذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.[12]

(10) السجود وقت مهم للدعاء. قال النبي ﷺ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ".[13]

(11) أخبرنا النبي ﷺ عن ثلاثة يستجاب دعاؤهم، أحدهم المظلوم. فقال: "اتَّقِ دَعوةَ المظلومِ؛ فإنَّهَا ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ".[14]

(12) الدعاء للمرء في غيابه مستجاب. قال النبي ﷺ: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ".[15]

(13) والوضعية التي ندعو فيها الله مهمة. فقد نصحنا النبي ﷺ أن نرفع يدينا ونتوسل إلى الله ثم نمسحهما بوجهنا عندما ننتهي من الدعاء. وقال: "إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا خائبتينِ".[16]

(14) تشجعنا بعض الأحوال والعلاقات على الدعاء. قال النبي ﷺ: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده".[17] وأخبرنا النبي ﷺ أيضا أن دعاء الإمام العادل والقائد الورع لا يرد. وكذلك الصالحون يستجاب دعاؤهم.[18]

أماكن يستجاب فيها الدعاء

(15) جاء في القرآن الكريم أن زكريا عليه السلام لما ذهب إلى المحراب وهو مكان خاص من المسجد، وقف هناك ولم يغادر المكان حتى استجيبت دعواته، عندها بشره الله بقبول دعائه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: 39-40)

(16) أمر الله المسلمين أن يدعوا عند الكعبة وبالتحديد عند مقام إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: 126). فلهذا الدعاء معنى استثنائي.

(17) وأوصانا النبي ﷺ أن ندعو عند رؤية الكعبة، وكل ما ندعو به عندها يستجاب بإذن الله.

(18) ومن المواضع المباركة أيضا الحجر الأسود فقد بكى النبي ﷺ كثيرا عنده.[19]

(19) والصفا والمروة والمشعر الحرام من الأماكن التي دعا فيها النبي ﷺ كثيرا وفيها تقبل الدعوات.[20]

(20) وأكد النبي ﷺ أن خير الدعاء دعاء عرفة.[21]

(21) وأوصانا ﷺ بشكل خاص أن نزور المقدّسات الأخرى مثل المسجد النبوي في المدينة وبيت المقْدس.[22] وقَالَ أيضًا: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ».[23] فالدعاء مستجاب في هذه الأماكن.

آداب الدعاء وبعض الأدعية الشاملة

من آداب الدعاء أن نبدأ بحمد الله والثناء عليه. وأن يكون بعد قراءة سورة الفاتحة وبعد الصلاة الإبراهيمية.

لقد علّم النبي ﷺ أصحابه كيفية الدعاء. فذات مرة عاد مريضا كانت حالته تسوء فسأله: "هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ". قَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ

فَعَجِّلْهُ لي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "سُبْحَانَ اللَّهِ! لا تُطِيقُهُ، أَفَلا قُلْتَ اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟". ثم دعا النبي ﷺ له فشفاه.[24]

عن ابن عمر رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ كان يدعو عند الفجر والغروب، ومن هذه الأدعية: "اللَّهمَّ إنِّي أسألُك العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ. اللَّهمَّ انِّى أسألُك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلي ومالي. اللَّهمَّ استر عوراتي وآمِن رَوعاتي. اللَّهمَّ احفظني من بينِ يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعَن شِمالي ومن فَوقي وأعوذُ بعظَمتِك أن أُغتالَ من تحتي".[25]

وعن أَبي أُمامةَ رضي الله عنه قَالَ: "دَعا رسُولُ اللَّهِ ﷺ بِدُعَاءٍ كَثيرٍ، لم نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا، قُلْنا يا رَسُولَ اللَّهِ دعوت بِدُعاءٍ كَثِيرٍ لم نَحْفَظ منْهُ شَيْئا، فقالَ: "أَلا أَدُلُّكُم على ما يَجْمَعُ ذَلكَ كُلَّهُ؟ تقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّا نَسأَلُك مِن خَيرِ ما سأَلَكَ مِنْهُ نبيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، ونَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما اسْتعاذَ مِنْهُ نَبيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْتَ المُسْتَعَانُ، وعليْكَ البلاغُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ".[26]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ وَصَلَّى وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ فَلَمَّا سَلَّمَ. قَالَ: " كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ". ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا. فَقَالَ: " إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ. قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ. قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ. قُلْتُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ". وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا".[27]

أحداث عن استجابة الدعاء في حياة النبي ﷺ

كان الله كنزا مخفيا فأراد أن يعرَف فخلق الإنسان ووهبه معرفة وجود الله وصفاته سبحانه.[28]

وإحدى هذه الصفات التي هي دليل قوي على وجوده هي المجيب. يقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: 63)

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 187)

إن فلسفة الدعاء الحقيقية هي أن دعاء المرء يُسمع ويُستجاب بقدر التزامه بأوامر الله. وتشهد حياة مائة وأربع وعشرين ألف نبي على حقيقة أن كل لحظة من حياتهم كانت متعلقة بالدعاء. فكان الدعاء أساس نجاحهم وإنجازاتهم. ومن بين تلك المجموعة من الأنبياء الأشراف نبي استسلم لطاعة الله حتى أصبحت إرادة الله هي إرادته. إنه فخر بني آدم، وقد قال: "إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ". فشفق الله عليه ومنحه كل ما أراده.

سيُطلب من الأنبياء يوم القيامة أن يشفعوا لأتباعهم. وبينما يعتذرون، يتقدم هذا البطل ويسجد ويناجي ربه ليشفع لأمته فيبشره الله ويقول له: "ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ". فيشفع للكثير من أتباعه الذين لديهم بعض الضعف في سجل أعمالهم.

كان النبي ﷺ يقول عن هذا الدعاء المستجاب: "لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمّتي".[29]

صلى الله على النبي المحسن العظيم الذي رعى أمته حق الرعاية.

علمنا النبي ﷺ جوهر الدعاء، وأن ندعو لأبسط الأمور مثل شراك النعل. وقد أمضى كل لحظة من حياته بالدعاء. وتزخر حياته الطاهرة بمئات الأحداث الشاهدة على قبول الدعاء. نذكر هنا بعض هذه الأحداث من أجل ترسيخ الإيمان بالدعاء في القلوب. وهذا سيحمسنا أكثر للدعاء مثل زكريا عليه السلام الذي رأى رزقا عند مريم عليها السلام فدعا الله فاستجيب دعاؤه.

علينا أن ندعو الله بكل ثقة وإيمان وسيعاملنا الله على هذا الأساس. سنسرد هنا بعض الأحداث من حياة النبي ﷺ عن قبول الدعاء.

الدعاء للهداية

(1) زخَرت حياة النبي ﷺ بالدعاء، فكان يبدأ كل شيء بالدعاء وينهيه بالدعاء. كانت المعارضة شرسة في بداية دعوته في مكة. وترأس تلك المعارضة زعماء قريش ومنهم عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب. فدعا النبي ﷺ بقلب محب وعطوف فقال: "اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجُلين إليك بأبي جهلٍ أو بعمرَ بنِ الخطابِ فكان أحبُّهما إلى اللهِ عمرَ بنَ الخطابِ".[30]

يشهد العالم على معجزة استجابة دعاء النبي ﷺ إذ إن عمر الذي غادر بيته شاهرا سيفه وعازما على قتل النبي ﷺ شغف بالإسلام حبا.

(2) حتى عندما تجاوزت قريش كل الحدود في معارضتها للنبي ﷺ ولم يبق أي بصيص أمل لإسلامهم لم يدعُ النبي ﷺ الذي هو رحمة للعالمين عليهم بالدمار بل دعاؤه الذي يبدو كأنه دعوة عليهم كان في الحقيقة دعاء يحفظهم من الدمار والعذاب وهذا ما قاله: "اللَّهُمَّ أعِنِّي عليهم بسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ". كان النبي ﷺ يريدهم أن يأتوه كما أتى إخوة يوسف يطلبون المساعدة من يوسف. واستجاب الله لدعائه: " فأَخَذَتْهُمُ السَّنَةُ حتَّى حَصَّتْ كُلَّ شيءٍ، حتَّى أَكَلُوا العِظَامَ والجُلُودَ، فَقالَ أحَدُهُمْ: حتَّى أَكَلُوا الجُلُودَ والمَيْتَةَ، وجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الأرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فأتَاهُ أبو سُفْيَانَ، فَقالَ: أيْ مُحَمَّدُ، إنَّ قَوْمَكَ قدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ أنْ يَكْشِفَ عنْهمْ".[31]

رغم جرأة أبو سفيان في طلب الدعاء من النبي ﷺ لقوم عادوه بشدة إلا أن النبي ﷺ لم يرفض فهو رحمة للعالمين ولا يرضى الدمار لقومه. فرفع يديه ودعا الله أن ينزل المطر: "اللهمَّ اسْقِنَا غيثًا مُغِيثًا مَرِيئًا مَرِيعًا غَدَقًا طَبَقًا، عاجلًا غير رائثٍ، نافعًا غيرَ ضارٍّ". واستجيب دعاؤه وهطلت الأمطار مما حسّن من وضع قريش لكنهم ازدادوا عداءً وعنفا.

واستمر المطر لأيام فجاء المشركون يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو الله أن يوقف المطر لأن بيوتهم تهدمت بسببه. فدعا وتوقف المطر.[32] وللأسف لم يرتدعوا واستمروا في رفضهم وعدوانهم.

(3) تسبب إصرار قريش في مكة على رفض النبي ﷺ وعلى عدائه هما كبيرا له فقرر أن يذهب إلى الطائف. فلقي فيها أشد تعذيب وأذى في حياته. وسألته عائشة رضي الله عنها: "هلْ أتَى

عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أشَدَّ مِن يومِ أُحُدٍ؟ قالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يالِيلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ علَى وجْهِي". وندرك من دعاء النبي ﷺ في تلك اللحظة الحالة التي كان فيها ومدى ألمه وكم شعر بالضعف واختُبر صبره فخاطب الله وأراد أن يثير غيرته على كرامة أنبيائه فقال: "اللهمَّ إليك أشكو ضَعْفَ قوَّتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناسِ، يا أرحَمَ الراحِمين، أنت رَبُّ المستضعَفِينَ، وأنت ربِّي، إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتجهَّمُني، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري؟! إن لم يكُنْ بك غضَبٌ عليَّ فلا أُبالي".[33]

ويروي النبي ﷺ ما حصل بعد ذلك: "فَلَمْ أسْتَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فإذا فيها جِبْرِيلُ، فَنادانِي فقالَ: إنَّ اللَّهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فَنادانِي مَلَكُ الجِبالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، فقالَ ذلكَ فِيما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ". ورغم كل ما تسببوا به من أذى وضرر له إلا أنه ﷺ لم يرد لهم الدمار فقالَ: "بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا".[34] لم يُعرض فقط عن الدعاء لدمارهم بل كان يدعو لهم بعطف فيقول: "اللّهمَّ اهد قومي فإنَّهم لا يعلمونَ".[35]

هذا الحدث الذي شعر فيه النبي ﷺ بالضعف كان أقسى يوم في حياته. ومع ذلك دعا لهؤلاء القوم بالرحمة والهداية. وعندما فتح مكة كانت بيده القوة لتدمير الطائف لكنه طلب من الله أن يرحم أهلها. وعندما مشى جيش المسلمين نحو الطائف وقرر أهلها التحصن ورُمي المسلمون المعسكرون في السهل بالسهام لمْ يحتمل الصحابة فقالوا للنبي ﷺ: "يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم. قال: "اللّهمّ اهد ثقيفا". كان هذا الدعاء من صميم قلبه واستجاب له الله، إذ أتى أهلُ الطائف في السنة التاسعة للهجرة إلى المدينة وقبِلوا الإسلام.[36]

(4) أسلَمَ الطفيل بن عمرو رضي الله عنه وهو زعيم قبيلة دوس اليمنية وطلب من النبي ﷺ العودة إلى أهله كي يدعوهم إلى الإسلام. وطلب منه كذلك أن يدعو الله فيجعل له آية تعينه في مهمته. فدعا له النبي ﷺ بأن يجعل له الله آية، واستجيب دعاؤه.

وقال الطفيل حين خرجت إلى قومي: "وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير

وجهي، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلةٌ وقعتْ في وجهي لفراق دينهم. فتحول النور فوقع في رأسِ سَوطي، فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق". فدخل المدينة وشهِد قومُه ذلك النور، وأسلم أبوه وزوجته وبعض أقاربه، لكن قومه لم يسلموا.[37]

وحين عاد الطفيل رضي الله عنه إلى مكة قال: "يا رسولَ اللهِ إنَّ دوسًا قد عصَتْ وأبَتْ، فادعُ اللهَ عليهم". فرفع النبي ﷺ يديه وقال: "اللَّهمَّ اهدِ دَوْسًا وائتِ بهم".[38] وأمره أن يعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام برفق وحكمة. وبفضل دعاء النبي ﷺ بارك الله بجهود الطفيل وبقبيلته فبدأوا يدخلون في الإسلام.

وفي غزوة خيبر أتى الطفيل رضي الله عنه إلى المدينة ومعه سبعون أو ثمانون عائلة من قومه فأقاموا في المدينة. لا شك أن ذلك هو نتيجة دعاء النبي ﷺ.

(5) ومن ثمار هذا الدعاء كان إسلام أبي هريرة وأمه وهما من القبيلة نفسها. ذات يوم، طلب أبو هريرة من أمه أن تُسلم. فتلفظت بكلمات فظة عن النبي ﷺ فذهب أبو هريرة إلى النبي ﷺ وهو يبكي وروى له ما حدث فقال النبي ﷺ: "اللهم اهد أم أبي هريرة". وحدثت المعجزة، إذ انقلبت حال أم أبي هريرة فلما رآها نطقت الشهادة فرح أبو هريرة رضي الله عنه وعاد إلى النبي ﷺ يخبره بالحدث وهو يبكي من الفرح ثم قال: "يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى المؤمنين". فدعا له.[39]

(6) ذات يوم، كان يهودي جالسا مع النبي ﷺ فعطس النبي ﷺ فقال له اليهودي: "يرحمك الله"، فقال النبي ﷺ: هداك الله. فأسلم اليهودي.[40]

هذه هي أدعية سيدنا المصطفى ﷺ التي أحدثت ثورة في الجزيرة العربية. ولم نذكر هنا إلا ما تعلق بهداية الناس. كان تجسيدا حيا للدعاء فهو المثال الحيّ والأعلى له ولا شك أن الآية القرآنية التالية لم تفارق ذهنه أبدا: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: 78).

الدعاء في المعارك

ترجع كل الانتصارات التي حققها النبي ﷺ إلى دعائه. فكلما مر بظروف حرجة دعا الله وطلب عونه. فكان الدعاء مفتاح حياته وكل المخاطر التي تعرض لها. استفاد من هذا المفتاح في كل أزمة وفتح له باب النصر.

(7) إذا أراد أحدهم أن يسمي الانتصار في بدر بانتصار ثلاث مائة وثلاثة عشر مسلم أعزل فليفعل. ولكن ما أعرفه يقينا أن هذا النصر تحقق بفضل دعاء سيدي ﷺ الذي دعا به بتواضع كبير وتلهف شديد في خيمة يوم بدر. دعا ربه وتوسل إليه بشتى الوسائل. حتى أنه قال من ضمن ما دعا به: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوِمِ". [41] أراد النبي ﷺ بدعائه هذا أن يحرك غيرة الله وأن ما يقلق النبي ﷺ ليس الخسائر البشرية وموت بعض المؤمنين بل وحدانية الله. فلو ماتت هذه المجموعة من المؤمنين الذين جمعهم بعد سنوات من العمل والجهد فمن سيعبد الإله الواحد الأحد بعدهم. استجيب دعاؤه وتحولت قبضة من التراب إلى عاصفة أدت إلى انتصار 313 مسلما بلا عدة على ألف مشرك بكامل عدتهم. [42]

يروي عليّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا كل الليل يوم بدر. وعَن ابْن مَسْعُود رضي الله عنه قَالَ: "مَا سَمِعْنَا مُنَاشِدًا يَنْشُد ضَالَّة، أَشَدّ مُنَاشَدَة مِنْ مُحَمَّد لِرَبِّهِ يَوْم بَدْر يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدك مَا وَعَدَّتنِي إِنْ تُهلِك هذه العِصابة لا تُعبَد"، ثم التفتَ كأن وجهَه القمر فقال: " كأني أنظر إلى مصارع القوم عشية". [43]

(8) انتصار المسلمين في معركة الأحزاب هو في الحقيقة انتصار للدعاء. فلما حاصر آلاف المحاربين بِعُدّتهم معسكر المدينة الصغير من كل جانب خاف المسلمون المحاصرون من البرد ونقص الطعام. ولكبح آلام معدتهم بسبب الجوع وضع النبي ﷺ وأصحابه حجارة على بطونهم وشدوها. هذه المعركة لم تكن نزاعا مسلحا محطما للأعصاب فحسب بل اختبارا مخيفا للمسلمين. توجد الصورة الحقيقية والوصف الدقيق لتلك المعركة في القرآن الكريم ووردت بتلك الكلمات: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾(الأحزاب: 11-12)

وفي تلك الظروف الحرجة بينما كانت المدينة بين الحياة والموت انشغلت روح واحدة تؤمن حق الإيمان بالله وتثق به تمام الثقة بالدعاء: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ". وسرّع هذا الدعاء الأحداث، فهبّت عاصفة مخيفة ومفاجئة أطفأت نيران معسكر جيش القبائل العربية، فهجروا مواقعهم وفرّوا مذعورين مذهولين، حتى إن أبا سفيان، زعيم جيش المشركين، نسي فك بعيره وركب على ظهره وأخذ يأمره أن يركض. ولدى

رؤية تلك المعجزة في إجابة دعائه قال النبي ﷺ: "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فلا شيءَ بَعْدَهُ".[44]

(9) كان انتصار المسلمين الباهر في خيبر ثمرة دعاء سيدنا المصطفى ﷺ. حين فشلت الهجمات التي شنها عدة قادة على حصن العدو، انشغل النبي ﷺ بالدعاء. وفي سادس ليلة من الحصار أمسكت دورية عمر رضي الله عنه بجاسوس يهودي كان يحوم حول خيم المسلمين، فأتى به عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وهو يصلّي. ولينجو بحياته، أفشى الجاسوس عن أهم الأسرار المتعلقة بقلاع الحصن وقال إن أهل خيبر من خوفهم ويأسهم هجروا إحدى القلاع، ووعد المسلمين بإخبارهم عن الأماكن التي يخزنون فيها عتادهم ومؤنهم.[45]

كان انتصار المسلمين في خيبر مقدرا بفضل دعاء النبي ﷺ الذي أعلن أنه سيعطي الراية للمسلم الذي يكتب الله على يده النصر. وكانت من نصيب عليّ رضي الله عنه الذي كانت تؤلمه عيناه فدعا له النبي ﷺ فشفيت على الفور. ثم أمره ﷺ أن يتقدم بجنوده ودعا له وأنعم الله عليه بالنصر.[46]

(10) كان فتح مكة انتصارا عظيما وآية رائعة على قبول دعاء النبي ﷺ الذي هو رحمة للعالمين ولذلك أراد بصدق أن يتقدم نحو ناقضي العهد من أعدائه فيفاجئهم فلا يكون قتال فتقل الضحايا. ولهذا السبب، وبالإضافة إلى بعض المخططات الأخرى، شغل النبي ﷺ نفسه بالتضرع إلى الله داعيا: "اللَّهُمَّ خذْ على أسماعِهم وأبصارِهم، فلا يروْنَنا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة".[47]

واستجيب دعاء النبي ﷺ، حتى إنه لما أصبح على أبواب مكة لم يصدق أبو سفيان أن جيشا بهذا الحجم استطاع الاقتراب إلى هذا الحد وبهذه السرعة والخفة. ومن شدة ما كانوا مندهشين ومتفاجئين لم يتمكنوا من قتال جيش المسلمين. وهكذا فتحت مكة بدون أن تسفك الدماء.

(11) حل النبي ﷺ المشكلات التي تعرض لها هو ورجاله في المعارك بالدعاء. وفي إحدى تلك المعارك لم يكن لديهم مؤن كافية للطريق مما أقلق أصحابه فاستأذنوه بذبح الإبل، فأذن لهم. فجاء عمر رضي الله عنه فقال ما بقاؤكم بعد إبلكم؟ فأمر النبي ﷺ بجمع كل ما لديهم من طعام في مكان واحد وتضرع إلى الله أن يبارك لهم في هذا الطعام القليل ثم دعاهم بأوعيتهم إلى الطعام

وكلٌّ أكل حتى شبع، فقال النبي ﷺ أمام هذه المعجزة: "أشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله".[48]

(12) وفي رحلة نفرتْ ناقة النبي ﷺ وأخذت تركض بعيدا، فدعا الله تعالى، وإذ بعاصفة تهب فجأة وتدفع بالناقة إلى النبي ﷺ.[49]

دعاء لأهل المدينة

(13) لما هاجر النبي ﷺ من مكة ووصل إلى المدينة كانت المدينة منطقة موبوءة بالأمراض فمرض بعض أصحابه ومنهم أبو بكر وبلال وعائشة ﷺ. فدعا النبي ﷺ بهذا الدعاء: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أوْ أشَدَّ، وصَحِّحْهَا، وبَارِكْ لَنَا في صَاعِهَا ومُدِّهَا، وانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بالجُحْفَةِ".[50]

(14) أصاب المدينة قحط وجوع فوقف رجل بينما كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال: "يا رَسولَ اللَّهِ، هَلَكَ المالُ، وجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا أنْ يَسْقِيَنَا". فرفع النبي ﷺ يديه ودعا الله أن ينزل المطر ويرفع القحط. وروى أنس رضي الله عنه أنه لم يكن في السماء أية غيمة وفجأة ثار السحاب أمثال الجبال ونزلت أمطار غزيرة حتى أنهم لم يروا الشمس إلى الجمعة التالية. فقام رجل خلال الخطبة فقال: "يا رسولَ الله، تهدَّم البِناءُ، وغَرِق المالُ مِن شِدَّةِ الماءِ والمطرِ"، وطلَبَ مِن النبيِّ ﷺ أنْ يَدعُوَ اللهَ، فاستجابَ للرجُلِ، وقال: "اللَّهُمَّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا". فتوقف المطر.[51]

دعاء البركة في الرزق والمال

كانت استجابة دعاء النبي ﷺ واضحة من البركات الاستثنائية في القوت والمال.

(15) كان عمر أنس بن مالك رضي الله عنه عشر سنوات لما جعله أبواه خادما للنبي ﷺ. وذات يوم قالت أمه، أم سليمة، للنبي ﷺ: "يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له"، قال: "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته".[52]

قال أنس رضي الله عنه يشير إلى بركة دعاء النبي ﷺ له: "والله إن مالي لكثير، وإن كرْمي ليحمل في السنة مرتين، وإن ولدي لصلبي مائة وستة أولاد"، وقد بارك الله له في عمره حتى عاش قرنًا كاملا وفوقه ثلاث أو عشر سنوات.[53]

(16) استُشهد عبدُ الله ﵁ والدُ جابر ﵁ في غزوة أُحد وهو مدين ليهودي، فطالب اليهودي جابرا بالمال بقسوة وضغط عليه، حتى وعده جابر بإعطائه كل محصول نخيله من التمر لتلك السنة. لكن اليهودي لم يقبل عرضه إلا أن يضمنه النبي ﷺ. فذهب النبي ﷺ إلى أرض النخيل ودعا الله. وبالنتيجة بارك الله له في تمره فأفاض حتى أنه استطاع تسديد كل الديون وبقي له نصف التمر. وحين علم بذلك أبو بكر ﵁ قال إنهم عرفوا أن ذهاب النبي ﷺ إلى البيادر سيبارك في التمور فتكثر.[54]

(17) عن المقداد بن عمرو ﵁ أنه أقبل هو وصاحبان له –وقد نال منهم الجوع حتى تأثر سمعهم وبصرهم– إلى أصحاب النبي ﷺ، فلم يقبل أحدهم أن يستضيفهم، فلجأوا إلى النبي ﷺ، فأخذهم إلى بيته، وكان عنده ثلاث شياه فقال لهم أن يحلبوها فيتقاسموا حليبها بينهم الأربعة. واستمر الأمر على هذا النحو: يحلبون ويشربون حصتهم ويبقون حصة النبي ﷺ جانبا. كان النبي ﷺ يعود في المساء فيسلم بحيث لا يوقظ أحدا ثم يصلي ومن ثم يشرب نصيبه من الحليب. فيروي المقداد أن الشيطان وسوس له ذات يوم فشرب حصته وحصة النبي ﷺ من الحليب وظن في نفسه أن النبي ﷺ لا يحتاج حصته لأن الأنصار يقدمون له الهدايا. ولما شبع ندِم على فعله وأخذ ضميره يؤنبه وخاف أن يدعو النبي ﷺ عليه فتكون نهايته ويخسر دنياه وآخرته، ولم يستطع النوم وهو يشد إليه الغطاء الوحيد الذي يملكه فتظهر قدماه وإذا غطى قدميه انكشف أعلى جسمه.

وحين أتى النبي ﷺ سلّم عليهم كالعادة ثم صلّى ثم أراد أن يشرب الحليب فوجد الإناء فارغا فرفع رأسه إلى السماء. فخاف المقداد أن يدعو عليه. غير أن النبي ﷺ قال: "اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَن أَطْعَمَنِي، وَاسْقِ مَن أَسْقَانِي"، عندها نهض المقداد وخرج يريد ذبح إحدى شياه النبي ﷺ فيطعمه منها فيناله من دعائه بركة وبعد أن اختار أسمنها لاحظ أن ضرعها مملوء بالحليب فأعرض عن فكرة ذبحها وأحضر إناء فحلبها وقدمه إلى النبي ﷺ الذي ظن أنهم لم يشربوا بعد فقال: "أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟"، فقال له المقداد: "يا رَسولَ اللهِ، اشْرَبْ"، فشرب وأعطاه الإناء ليشرب البقية، فقال له أن يشرب المزيد. وعندها عرف أن النبي ﷺ رَوِيَ وأصاب دعاءه فأخذ يضحك فلا يستطيع التوقف. فأحسَّ النبي ﷺ أن عنده أمرا فقالَ: "إِحْدَى سَوْآتِكَ يا

مِقْدَادُ". فحكى له كل ما جرى فقال: "ما هذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، أَفَلا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فيُصِيبَانِ منها؟"، فقال: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا معكَ مَن أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ."[55]

(18) دعا النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها التي كان وجهها يصفر من شدة ما تجوع فقالت أنها لم تجع قط بعد دعائه هذا.[56]

(19) وكذلك دعا النبي ﷺ لعبد الله بن جعفر رضي الله عنه بالبركة في تجارته. فصار يربح في كل ما يتاجر فيه.[57]

(20) ودعا النبي ﷺ أن يبارك الله لعروة رضي الله عنه في بيعه. وقد روى عروة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: "بارك الله لك في صفقة يمينك". وقال: فكنت أقوم بالكناسة فما أرجع إلى أهلي حتى أربح أربعين ألفا. وجاء في البخاري رضي الله عنه "أن النبي ﷺ دعا له بالبركة في بيعه فكان لو اشترى التراب لربح فيه".[58]

دعاء الشفاء من المرض

(21) لقد دعا النبي ﷺ في مناسبات عديدة لمرضى فاستجاب الله وشفوا من مرضهم. ففي غزوة خيبر أعلن النبي ﷺ أنه سيعطي الراية لمن يفتح الله على يديه. فرَجا الكل أن يكون هو من يختاره النبي ﷺ وكان عليّ رضي الله عنه يعاني من رمد فلم يفكر أحد أنه سيحظى بالراية وفي الغد سأل عنه النبي ﷺ فقال الآخرون إنه مريض فحضر عليّ رضي الله عنه فتفل في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء".[59]

(22) وفي مناسبة أخرى، دعا النبي ﷺ أن يحفظ الله عليّا رضي الله عنه من آثار البرد والحر فنجا من قسوة الطقس.[60]

(23) وعن يعلَى بن مُرَّة قال إنه كان يرافق النبي ﷺ في رحلة فمروا بامرأة وطفلها في سفرهم فأخبرت النبي ﷺ أن طفلها أصابه بلاء وأخذته نوبات عدة في اليوم فتناول الطفل ووضعه على سرج دابته ثم فَغَرَ فَاهُ فنفثَ فيهِ ثلاثًا وقالَ: "بسمِ اللهِ، أنا عبدُ اللهِ، اخسَأ عدوَّ اللَّهِ". ثم أعاد لها طفلها وقال لها أن تلتقيه في المكان نفسه عندما يرجع لتخبره عن صحة الطفل. وعندما رجع النبي ﷺ وجدها تنتظره ومعها شياه ثلاث فسألها عن ابنها فقالت إنه قد شفي تماما

وقدمت له الشياه هدية له فطلب النبي ﷺ من يعلى أن ينزل فيأخذ منها شاة واحدة فقط.[61]

(24) وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا، فمسح رسول الله ﷺ صدره، ودعا، فاستفرغ الطفل بكثرة وخرج من فمه حيوان صغير أسود وشفي.[62]

(25) وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: "ذَهَبَتْ بي خَالَتِي إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لي بالبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِن وَضُوئِهِ".[63]

وُلد السائب في السنة الثانية من الهجرة. يبدو أن تلك الحادثة حصلت له عندما كان في الخامسة أو السادسة من عمره. وشفاه الله بفضل دعاء النبي ﷺ له، ومد أيضا في عمره ومات في السنة الثمانين من الهجرة بعمر ناهز الثامنة والسبعين.[64]

(26) وعن يزيد بن أبي عبيد رضي الله عنه أنه رأى أثر ضربة في ساق سلمة رضي الله عنه فسأله ما هذه الضربة؟ فقال إنه أصيب بها يوم خيبر وكانت إصابة كبيرة عرف بها الناس فأتي به إلى النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات فالتأم الجرح ولم يشكُ منه بعدها أبدا.[65]

(27) وروى أبو زيد بن أخطب رضي الله عنه أن النبي ﷺ مسح يده على وجهه ودعا له. فعاش بصحة جيدة حتى المائة والعشرين سنة، أسود الشعر واللحية ما عدا بضع شعرات بيضاء في رأسه.[66]

(28) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا طالب مرِض فعادَه النبي ﷺ فقال: "يا ابن أخي ادعُ ربَك الذي بعثَك أنْ يُعافيني"، فقال النبي ﷺ: "اللّهمّ اشْفِ عمِّي". فكأنما نشط أبو طالب فقام وقد شفي تماما فقال: "إن ربك بعثك لِيطيعَك"، قال: "وأنت يا عَم، إنْ أطعتَ اللهَ لَيطيعنَّك".[67] هذه الرواية تشير بأنّ ابا طالب آمن بقلبه، ولكنه كان يكتم إيمانه، والله أعلم.

(29) وقد دعا النبي ﷺ لأبي قتادة رضي الله عنه فقال: "أفلح وجهك، اللهم بارك له في شعره وبشره". فمات وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة.[68]

(30) كان النبي ﷺ يدعو كثيرا لأصحابه إذ كانوا يخدمون دين الله. وكان دعاؤه الصادق ينبع من صميم قلبه وكانت إجابته إعجازا إلهيا.

بعث النبي ﷺ عبد الله بن عتيك الأنصاري رضي الله عنه في مهمة وفي الطريق أُصيب إصابة بالغة فكُسرت ساقُه فلحق برفاقه وهو يعرج، فيروي: "فانتهيتُ إلى النبي ﷺ فحدّثْتُه فقال: "ابْسُطْ

رِجلَك"، فبسطتُ رِجلي فمَسحَها فكأنها لم أشْتَكِها قَطّ". [69]

بشرى قبول الدعاء

كانت إحدى المظاهر الباهرة لأدعية النبي ﷺ أن الله كان يُعلِمه سلفا بقبول دعائه.

(31) ذات مرة أتى النبي ﷺ منزل أنس بن مالك رضي الله عنه وارتاح عنده لمدة فنام ثم أفاق من نومه مبتسما. فسألته أم حرام رضي الله عنها خالة أنس رضي الله عنه عن سبب ابتسامه فأخبرها أنه رأى أناسًا من أمته يسافرون عبر البحر كالملوك. فقالت له: "فادع الله أن يجعلني منهم". فدعا لها ثم نام ثانية فتكرر الأمر نفسه فقالت مثل قولها فأجابها مثلها فقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال: "أنتِ مِن الأوّلين". واستجاب الله لدعائه. إذ عاشت طويلا إلى عهد معاوية الذي سافر في البحر مع جيشه إلى قبرص. فخرجت أم حرام مع زوجها عبادة بن الصامت غازيا. ولما عادت ماتت على الساحل السوري. [70]

(32) ونذكر هنا مثالا آخر، هو ما حدث مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان من أوائل من أسلموا وهاجروا من مكة. وكان قد مرض في حجة الوداع وكان يخشى أن يموت في مكة فيخسر بركات الهجرة. فزاره النبي ﷺ فشاركه خشيته وطلب منه أن يدعو له ألا يموت في مكة. وكان قريبا من الموت وكتب وصيته.

ويروي أنه قال: "يا رَسولَ اللَّهِ، أُخَلَّفُ بَعْدَ أصْحَابِي؟ قَالَ: إنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بهَا وجْهَ اللَّهِ، إلَّا ازْدَدْتَ به دَرَجَةً ورِفْعَةً، ولَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حتَّى يَنْتَفِعَ بكَ أقْوَامٌ، ويُضَرَّ بكَ آخَرُونَ". [71]

وشفاه الله شفاء عظيما. وكان أحد الصحابة العشرة الذين بشّرهم النبي ﷺ بالجنة وهم أحياء. ومات سعد رضي الله عنه في السنة الخامسة والخمسين للهجرة عن عمر يناهز السبعين. وعلى يده انتصر المسلمون على امبراطورية فارس. [72]

(33) وحدث مرة أن النبي ﷺ دخل الخلاء فمُلئ له بعض الماء فسأل: "من وضع هذا". فأُخبر أنه عبد الله بن عباس رضي الله عنه وكان طفلا حينها، فضمه إليه وشكره ثم دعا له فقال: "اللّهمّ فقّهه في الدِّين". [73] واستجيب هذا الدعاء وأصبح عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقيها وعلّامة كبيرا وسُمّي بـ "حِبْر الأمَّة".

(34) بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله رضي الله عنه في مهمة اقتضت تحطيم أصنام معبد ذي الخلصة الذي بُني مقابل الكعبة وكان يقال له الكعبة اليمانية. وأخبر جرير رضي الله عنه النبي ﷺ أنه لا يثبت على الخيل فضرب النبي ﷺ على صدره حتى رُئِيَ أثر أصابعه ودعا الله فقال: "اللّهم ثبّته واجعله هاديا مهديا". ويروي جرير رضي الله عنه أنه بعد دعاء النبي ﷺ له لم يقع قط من على خيله.[74]

(35) وعن عبد الحميد بن سلمة رضي الله عنه أن جدّه أسلم ولم تُسلِم جدّته وله منها ابن، فاختصما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: إن شئتما خيرتما الغلام. وأجلس الأب في ناحية والأم ناحية فخيره فانطلق نحو أمّه فقال رسول الله ﷺ: "اللّهمّ اهْدِهِ". فرجع إلى أبيه فأخذه وهكذا شهِد الأبوان القبول الآني للدعاء.[75]

(36) قدِم أبو هريرة رضي الله عنه من اليمن ودخل في الإسلام في السنة السابعة من الهجرة. وذات مرة قال للنبي ﷺ: "يا رسول الله أسمَعُ منك أشياء فلا أحفظها"، قال: "ابسط رداءك"، فبسطتُ. فدعا النبي ﷺ له ومنذ تلك اللحظة ما نسي شيئا حدّثه به. وقد روى أحاديث فاقت عددا ما رُوي قبله.[76]

(37) أصاب المسلمين في إحدى الغزوات (تبوك) عطش بسبب قلة الماء. فطلب عمر رضي الله عنه الدعاء من النبي ﷺ فدعا وإذ بسحابة تتشكل في السماء وبدأ المطر يهطل بكثرة حتى امتلأت أوانيهم ثم تلاشت السحابة.[77]

(38) وحدث أيضا أن النبي ﷺ بعث أبا عامر رضي الله عنه قائدا على جيش إلى أوطاس. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمه أبا عامر أصيب إصابة بالغة في ركبته وعندما نزع السهم انبثق سائل من الجرح. وأودت تلك الإصابة بحياته. وفي لحظاته الأخيرة قال: "يا ابن أخي، أَقرِئ النبي ﷺ السلامَ وقل له استغفر لي"، ومات. فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره بما حصل وبما أوصاه أبو عامر رضي الله عنه. فدعا النبي ﷺ بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ". ثم دعا له برفع مكانته أيضا فقال: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَومَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِن خَلْقِكَ مِنَ النَّاس". عندها طلب أبو موسى رضي الله عنه أن يدعو له النبي ﷺ أيضا. فقال: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَومَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا".[78]

(39) وحادثة أخرى كانت لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وتفانيه في الخدمة. تزوج النبي ﷺ وهو

راجع من غزوة خيبر من صفية بنت حيي بن أخطب وهو زعيم يهودي. ولحبه الكبير للنبي ﷺ رأى أبو أيوب رضي الله عنه بعض الخطر على حياة النبي ﷺ فبقي يحرس خيمته طول الليل وفي الصباح شاركه مخاوفه وأعلمه أنه حرس خيمته الليلة الفائتة. فدعا النبي ﷺ له فقال: "اللّٰهمّ احْفَظْ أَبَا أَيُّوبَ كَمَا بَاتَ يَحْفَظُنِي". فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة، حتى إن قبره محفوظ إلى الآن في إسطنبول حيث يزوره الكثير من الناس.[79]

(40) ودعا النبي ﷺ للصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: "اللَّهمَ استجِب لسعدٍ إذا دعاكَ". وهذه الدعوة رفعت مكانة سعد رضي الله عنه إلى الصالحين المستجاب دعاؤهم. كان في عهد عمر رضي الله عنه حاكما على الكوفة فاتهمه رجل اسمه أبو سعد بالظلم والاختلاس. ولما علِم سعد رضي الله عنه بقوله هذا قال: "اللَّهُمَّ إنْ كانَ عَبْدُكَ هذا كَاذِبًا، فأطِلْ عُمْرَهُ، وأَطِلْ فَقْرَهُ، وعَرِّضْهُ بالفِتَنِ". وقبلت دعوته تلك وشاخ أبو سعد وكان إذا سئل كيف أنت يقول: "شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد". ولهذا السبب خشي الناس أن يدعو عليهم سعد رضي الله عنه ورغبوا أن يدعو لهم.[80]

(41) عن الحويرث رضي الله عنه أن وفدا من تُجِيب زار النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة. فسُرّ رسول الله ﷺ بزيارتهم وقدم لهم الهدايا وسأل إن بقي منهم أحد بلا هدية. فقالوا إن غلاما لهم ظل ليحرس متاعهم. فطلب النبي ﷺ أن يحضر الغلام ولما وصل قال: إني امرؤ من بني أَبْذَى الرهط الذين أتوك آنفا فقضيتَ حوائجهم، فاقض حاجتي. فسأله النبي ﷺ عن حاجته. فقال: "تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غِناي في قلبي". فقال النبي ﷺ: "اللهُمَّ اغْفِرْ لَه وارْحَمْه واجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِه". ثم أَمَر له بما أمر لرجلٍ من أصحابه. فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافوا رسولَ الله ﷺ في الموسم بِمِنى سنة عشر فسألهم عن الغلام. فقالوا: ما رأينا مثله ولا أَقْنع منه بما رزقه الله عز وجل.[81]

الدعاء على المشركين

وبعكس من تلقوا بركات الدعاء، كان هناك بعض التعساء ذوي القلوب القاسية الذين أصبحوا هدفا لعقاب الله بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم.

(42) كان النبي ﷺ يتمنى دائما الخير لأعدائه الذين أسالوا دمه في الطائف أو الذين جرحوه

في أُحد. فكان يدعو لهدايتهم. وتجاوز الأعداء أحيانا كل الحدود في عدوانهم ومنعوه من عبادة الله فدعا الله أن يجعل له آية، ونصره الله.

ذات مرة كان النبي ﷺ يصلي في الكعبة بينما كان أبو جهل وجمعه في مجالسهم فتحداهم أحدهم أن يحضروا حشايا ذبيحة ويضعوها على النبي ﷺ بينما هو ساجد. وفعل عقبة بن أبي معيط. وروى عبد الله بن مسعود ﷺ بأسى أنه لم يتمكن من مساعدة النبي ﷺ مع أنه شهد الحادثة. وكم تمنى لو فعل. كان زعماء قريش يستمتعون بالمشهد والأذى الذي ألحقوه بالنبي ﷺ الذي ظل ساجدا لا يستطيع رفع رأسه إلى أن أتت فاطمة رضي الله عنها ونزعت الأحشاء عن أبيها. ولما نهض النبي ﷺ دعا الله على من منعوه من تأدية عبادته وسخروا منه فقال: "اللّهمّ علَيك بِقريش". وتم قبول دعائه فنزل عليهم عقاب الله يوم بدر. ورأى النبي ﷺ نهايتهم الوخيمة بأم عينه وجثثهم مفروشة في أرض المعركة. وهكذا لقوا حتفهم نتيجة دعاء النبي ﷺ عليهم.[82]

(43) بعث النبي ﷺ برسالة إلى كسرى ملك الفرس فمزقها. فدعا النبي ﷺ أن يمزق ملكه كل ممزق.[83] ويشهد التاريخ أن الدعوة تلك على إمبراطورية الفرس الكبيرة استجيبت استجابة مبهرة إذ اغتيل الامبراطور بعد سنوات قليلة على يد ابنه وآلت إمبراطوريته إلى الزوال بالتدريج..

(44) وعندما لم يَكُفّ عتيبة بن أبي لهب عن أذاه وشره، دعا النبي ﷺ عليه فقال: "اللّهمّ ابْعَث عليه كلبا من كلابك". وبعد مدة، كان في قافلة ذاهبة إلى الشام. وكان يخاف دعوة النبي ﷺ عليه لكن رفاقه طمأنوه وقرروا حراسته في الليل وإذ ظهر أسد فوثب عليه وهشمه.[84]

(45) والحكم بن أبي العاص عدو آخر كان ليهزأ من النبي ﷺ يختلق اختلاجا في رأسه وعينيه. وذات مرة قال النبي ﷺ: "كن كذلك". فأصيب حقا بالرعاش طول حياته. ولوحظ أن عينيه ما زالتا تتحركان حتى بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة.[85]

(46) وحدثت آية قهرية وعجيبة في قبول دعاء النبي ﷺ. أسلم نصراني من بني النجار كان يقرأ ويكتب وحفظ سورتي البقرة وآل عمران وبدأ يكتب الوحي أيضا. وبعد مدة ارتد من جديد إلى النصرانية. وفي وقت لاحق، سُرّ اليهود بارتداده، وبدأ يصرح أن النبي ﷺ لا يعرف شيئا وأنه هو الذي كان يكتب له الوحي. فأولاه اليهود احتراما أكبر. وانكشف تآمرهم

منذ البداية على دسه بين المسلمين وزعمه أنه تحول إلى الإسلام. فكانت مهمته مشابهة لمهمة اليهود الذين أيدوا الإسلام في الصباح وارتدوا عنه في المساء حتى يبعثوا الشك في المسلمين الآخرين فيتركوا الإسلام. وبما أن هذا الرجل نسب الوحي إلى نفسه، دعا النبي ﷺ أن يميز الله الحق من الباطل، وأن يجعله عبرة للآخرين. وسرعان ما مات فدفنوه، لكن الأرض لفظت جثته كلما أرادوا دفنه. فقال أهل الكتاب بأن النبي ﷺ وأصحابه هم من يخرجونه لأنه رجع إلى النصرانية. لكنهم في النهاية عرفوا أنه ليس عمل إنسان فتركوه منبوذا.[86]

الدعاء للأمة

كثيرة هي اللحظات التي أمضاها سيدنا محمد ﷺ في الدعاء حتى إنه ما من لحظة في حياته خلت من الدعاء. وقد دعا لأتباعه الذين سيأتون في آخر الزمان فقال: "اللّهمّ ارْحَم خُلفاءَنا الذين يأتون من بعدي يَروون أحاديثي وسُنَّتي ويُعلِّمونها الناس".[87]

كان النبي ﷺ كلما بعث بسرية من سرايا جيشه في مهمة ما، وكان يفعل ذلك في الصباح الباكر، دعا لهم بهذا: "اللّهمّ بارِكْ لأُمَّتي في بُكورِهم".[88]

اهتم النبي ﷺ اهتماما كبيرا بأمّته فدعا لها بالآتي: "اللهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِن أمْرِ أُمَّتي شيئًا فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليهِ، ومَنْ وَلِيَ مِن أمرِ أُمَّتي شيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فارْفُقْ بِهِ".[89]

إن حب رسول الله ﷺ لأمته جلي من أدعيته المستمرة لها؛ فحين هاجر إلى المدينة بقي بعض المسلمين المستضعفين في مكة. لم يستطيعوا السفر لعدة أسباب واستمر أهل مكة في تعذيبهم. وتألم النبي ﷺ كثيرا لحالهم فدعا لهم بحرقة وظل لفترة طويلة يدعو في صلاة العشاء لأتباعه المضطهَدين بأسمائهم:

"اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ".[90]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وما قاله عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عز وجل

يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ.[91]

باختصار، إن الله تعالى قد أرى كل آيات استجابة أدعية النبي ﷺ. وما دعا به لأمته لا مثيل له عند غيره. فكل شخص تقي يمكن أن ينال من بركات هذه الدعوات باتباعه سنَّة رسول الله ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب التهجد، باب الدُّعَاءِ فِي الصَّلاَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ.

[2] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات، باب 79.

[3] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ.

[4] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات، باب 129.

[5] تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني؛ ص 65. كنز العمال؛ الجزء 1، ص 518، طبعة مصر.

[6] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب الإِجَابَةِ أَيَّةُ سَاعَةٍ هي في يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان.

[8] الكامل لابن عدي؛ الجزء 6، ص 280، طبعة دار الفكر بيروت.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب صلاة التراويح، باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عزوجل.

[11] سنن ابن ماجة؛ كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

[13] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم.

[15] صحيح مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فَضْلِ الدُّعَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ.

[16] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في دعاء النبي ﷺ.

[17] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في دعوة الوالدين.

[18] سنن الترمذي؛ كتاب صفة الجنة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها.

[19] تحفة الذاكرين للشوكاني؛ الجزء 1، ص 67، طبعة بيروت.

[20] سنن النسائي؛ كِتَاب مَنَاسِكِ الْحَجِّ، باب التَّهْلِيلُ عَلَى الصَّفَا.

[21] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في دعاء يوم عرفة.

[22] صحيح البخاري؛ أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

[23] صحيح البخاري؛ أبواب التطوع، باب فَضْلِ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ.

[24] صحيح مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب كَرَاهَةِ الدُّعَاءِ بِتَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا.

[25] سنن أبو داود؛ كتاب الأدب باب مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ.

[26] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 89.

[27] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 243، طبعة القاهرة.

[28] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

[29] صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته.

[30] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عمر بن الخطاب ؓ .

[31] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم.

[32] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 243، طبعة بيروت.

[33] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 11، ص 174، طبعة بيروت.

[34] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

[35] نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين. العلامه محمد الخضري بك.

[36] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، في ثقيف وبني حنيفة.

[37] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 382-384، طبعة بيروت.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم.

[39] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 7، ص 435، طبعة بيروت.

[40] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2 ، ص 249، طبعة بيروت.

[41] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

[42] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 94، طبعة بيروت.

[43] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 107، طبعة بيروت.

[44] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[45] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 161،162، طبعة بيروت.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[47] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 250، طبعة بيروت.

[48] صحيح البخاري ؛كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو.

[49] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 328، طبعة بيروت.

[50] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة.

[51] صحيح البخاري؛ كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء على المنبر.

[52] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله.

[53] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 80، طبعة بيروت.

[54] صحيح البخاري؛ كتاب الاستقراض، باب إذا قاصَّ أو جازفَه في الدَّين تمرا بتمر أو غيره. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: 122).

[55] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَفَضْلِ إِيثَارِهِ.

[56] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2 ، ص 111، طبعة بيروت.

[57] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2 ، ص 252، طبعة بيروت.

[58] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2 ، ص 252، طبعة بيروت.

[59] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة.

[60] سنن ابن ماجة؛ افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ فضل علي بن أبي طالب ﵁ .

[61] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 170، طبعة القاهرة.

[62] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 254، طبعة القاهرة.

[63] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب خاتم النبوة.

[64] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 417، بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 3، ص 27، بيروت.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[66] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب 6.

[67] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 727، طبعة بيروت.

[68] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء1، ص 327، طبعة بيروت.

[69] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.

[70] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب فضل من يصرع في سبيل الله فمات فهو منهم.

[71] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ خزامة بن سعد.

[72] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 3، ص 75، طبعة بيروت.

[73] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء.

[74] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة ذي الخلصة.

[75] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 446، طبعة القاهرة.

[76] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب لأبي هريرة ﵁ .

[77] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 327، طبعة بيروت. البداية والنهاية؛ الجزء5، فصل: تخلف عبد الله بن أبي وأهل الريب عام تبوك.

[78] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس.

[79] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 182، طبعة بيروت.

[80] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 247، طبعة بيروت.

[81] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 488، طبعة بيروت.

[82] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة.

[83] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

[84] كنز العمال؛ الجزء 12، ص 438، طبعة مصر.

[85] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 329، طبعة بيروت.

[86] صحيح مسلم؛ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب 1.

[87] المعجم الأوسط للطبراني؛ الجزء 6، ص 77، بيروت.

[88] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 416، طبعة القاهرة.

[89] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 93، طبعة القاهرة.

[90] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين.

[91] صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ.

رؤى وكشوف النبي ﷺ ونبوءاته

تعكس الرؤى والكشوف حالةَ الرائي الباطنية، ولكي نفهم شخصية النبي ﷺ يجب أولا أن ندرك أهمية دور الرؤى والكشوف، وثانيا أن اتصال المرء مع الله وتلقيه البشائر عبرها إنما يشير إلى حب الله له، وثالثا أن تحقق الرؤيا المنبّئة بالمستقبل هو آية على صدق ذلك المرء. يقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: 27-28) ويكون ذلك من خلال الكشوف والرؤى ففي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: 52)

وقد وعد الله المؤمنين المتقين بالبشارات في حياتهم أيضا وعدّ ذلك فوزا عظيما فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: 64-65)

وعندما سُئل النبي ﷺ عن معنى البشرى في هذه الآية قال: "هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أو تُرى له."[1]

وقد وُعد من استقام من المؤمنين بتلك البشارات التي تحملها إليهم الملائكة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 31)

والأمر الآخر الذي لا بد من معرفته هو أن بعض النبوءات تتحقق في حياة النبي والبعض الآخر بعد وفاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: 41)

لقد لُقّب خاتم النبيين محمد ﷺ بالبشير والنذير، وأُعلِم بتفاصيل البشارات القرآنية والإنذارات عبر الرؤيا. فأُعطي المعلومات المتعلقة بالأحداث التي ستقع في أمته إلى يوم القيامة. ذات مرة تكلم عن كشف رآه بينما كان يصلّي وقت خسوف الشمس فقال: "لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هذا كُلَّ شيءٍ وُعِدْتُهُ". رأى مشاهد من الجنة وجهنم فكانت نعم الجنة وكأنها حقيقية فتقدم ليأخذ

منها قِطفا فرأى شدة نار جهنم فتراجع.[2]

سنذكر هنا بعضا من رؤيا النبي ﷺ المختلفة في طبيعتها وبعض الأحداث الأخرى.

الرؤى التي تحققت في حياة النبي ﷺ

يتضمن أول نوعٍ الرؤيا التي تحققت كما هي بحذافيرها.

رؤيا الزواج من عائشة رضي الله عنها

رأى النبي ﷺ في منامه عائشة وأُخبر أنها ستكون زوجته، وبدا ذلك مستحيلا لأنها كانت مخطوبة لشخص آخر وفرق العمر بينها وبين النبي ﷺ كان يزيد على أربعين سنة، ورغم ثقة النبي ﷺ التامة بهذه المعلومة عن المستقبل توخى الحذر في تفسيره للحلم، وقال: "إنْ يَكُ هذا مِن عِندِ اللهِ يُمْضِهِ".[3]

ورغم الظروف غير المواتية ظاهريا حقق الله هذا الحلم بطريقة استثنائية. فعندما فسخت خطبة عائشة من جبير بن مطعم تزوجت من النبي ﷺ واستحقت لقب أم المؤمنين.

نبوءة الانتصار في بدر

من بين النبوءات التي تلقاها النبي ﷺ نبأ النصر في بدر وكان ما يزال حينها في مكة وكان المسلمون ضعفاء يعذَّبون بوحشية. فمن جهة، كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بالصبر ويروي لهم قصص تضحيات الأقوام السابقة ومن جهة أخرى أنزل الله عليه آيات أعطت المسلمين القوة وثبتتهم على الإيمان. ومن تلك الآيات معجزة انشقاق القمر. كان القمر رمز حكومات العرب وانشقاقه إلى قسمين أشار إلى تشرذم حكم قريش ووحدتهم الوطنية. إن هزيمة المشركين، وكانوا كُثُر، أمام المسلمين مذكورة في سورة القمر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: 46) في فترة الضعف تلك، تبجحت قريش وعدَّت هذه النبوءة ضربا من الجنون، وهم الذين كانوا ينعتون النبي ﷺ بالساحر والمجنون، لكن الله حقق وعده بصورة مبهرة صعقت أهل مكة. وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم مؤكدا وعده بالنصر مقدَّما: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (الأنْفال: 8)

لما رأى النبي ﷺ يوم بدر، أمامه جيشا كبيرا ومجهزا بالكامل بدلا من القافلة التجارية التي كان

ينتظرها بالطبع أقلقه الوضع، لأن هذا الجيش كان مصمما على تدمير المسلمين الضعفاء والعزّل. فأدرك النبي ﷺ ضعف جيشه وخشي استغناء الله ﷻ فدعا متضرعا: "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك. اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم". ومن شدة وكثر ما توسل إلى الله أخذه أبو بكر ؓ من يده وقال له: "حسبك يا رسول الله. ألححت على ربك". فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: 46).[4]

فطمأن المسلمين ذاكرا وعد ربه له بالنصر، فوهبهم الله رغم الظروف غير المواتية نصرا مبهرا إذ تحولت حفنة الحصى التي رماها النبي ﷺ إلى عاصفة شديدة أرغمت العدو على الانسحاب.

نبوءة مصارع زعماء قريش

لقد رأى النبي ﷺ مصارع زعماء قريش في بدر قبل حصولها. عن أنس ؓ قال أنه كان مع عمر ؓ وهم بين مكة والمدينة فقال عمر ؓ: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالأَمْسِ يَقُولُ: "هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ". فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ".[5]

وقُتل يومها أربعة وعشرون زعيما من صناديد قريش. فأمر النبي ﷺ أن يُقذفوا في طوى من أطواء بدر. ولما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسماء آبائهم: "يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟" قال عمر: "يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم".[6]

نبوءة الهجرة من مكة والعودة إليها

نجد في بداية سورة "القصص" المكّيّة سردا لقصة حياة موسى ؑ وهجرته، وتذكر آخر السورة هجرة محمد ﷺ، وهو شبيه موسى ؑ، وعودته إلى مكة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: 86)

إن الظروف التي نزلت فيها نبوءة الهجرة من مكة والعودة إليها جعلت من تحققها يبدو

مستحيلا، فلم يكن من المتصوَّر حتى قبل فتح مكة بأيام قليلة أن النبي ﷺ سيدخل مكة بهذا العز، وتحققت تلك النبوءة بطريقة رائعة خلال ثماني سنوات.

نبوءة دمار مِلِك الفُرس

كتب النبي ﷺ إلى كِسرى فارس يدعوه للإسلام فمزق الرسالة. ولما علم النبي ﷺ بذلك دعا بتمزيق ملكه، فتمزقت هذه الإمبراطورية العظيمة كل ممزق وأصبح هذا الملك القاسي والمستبد آية على صدق النبي ﷺ.

وتفاصيل الحادثة كالتالي: شعر الملك بالإهانة من الكتاب الذي يدعوه إلى الإسلام. فأمر باذان عامله على اليمن أن يرسل رجلين قويين ليلقوا القبض على ذلك المتنبئ العربي وأن يأتوا به إلى بلاطه. فبعث باذان برجلين ورسالة إلى النبي ﷺ تدعوه لمرافقتهما إلى ملك الفرس. وطلب باذان من مبعوثه بابويه أن يتحدث بنفسه مع النبي ﷺ ويخبره بكل القصة. فذهبا إلى الطائف واستدلا على مكانه فقيل لهما إنه في المدينة، وسُرّ أهل الطائف بمعاداة ملك الفرس للنبي ﷺ. وعندما وصلا إلى المدينة كلمه بابويه فقال إن كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفُّه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. فقال لهما ارجعا حتى تأتياني غدا وأتى رسول الله الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا. فدعاهما فأخبرهما فقالا: "هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟"، قال: "نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء".

ولما خبر باذان قال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول ولننظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقا، ما فيه كلام أنه لنبي مرسل. وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا". لم ينقضِ وقت طويل حتى قدِم على باذان كتاب شيرويه الملك الجديد الذي يقول فيه إنه قد قتل كسرى لمصلحة البلاد كما كان يقتل أشرافهم ويحبسهم. وأمره أن يأخذ عهد الطاعة باسمه

من الناس وأن يؤجل أمر القبض على الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليه حتى يأتيه أمر منه.

فقال باذان وهو يقرأ كتاب ابن كسرى: "إن هذا الرجل لرسول". فأسلم وأسلم معه فُرْس كانوا باليمن.[7]

نبأ قتل الأسود العنسي

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن الله تعالى أنبأ النبي ﷺ بموت العنسي ليلا، فلما أصبح النبي ﷺ خرج يخبرهم أن العنسي قتل تلك الليلة وأن من قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين. فقيل: ومن هو؟ قال: فيروز الديلمي، الديلمي.[8]

تحقق الرؤيا التي تحتاج إلى تفسير

النوع الآخر من الرؤيا هي التي لا تتحقق بحذافيرها بل تحتاج إلى تأويل. وأعطي النبي ﷺ التفسير الصحيح قبل حصول الأحداث وأخبر أصحابه عن تفاصيل الحدث الذي سيتحقق في المستقبل. إن تحقق تلك الرؤيا إثبات لصدق النبي ﷺ.

النبوءة عن ظهور مدعيي النبوة كذبا

بعد حجة الوداع أخبر النبي ﷺ أصحابه بما رآه عن كذّابَين ادّعَيا النبوة. فقال: "بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سوارين من ذهب فكبرا علي وأهماني. فأوحي إليّ أن أنفخهما فنفختهما فطارا. فأوّلتهما الكذّابَين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء (الأسود العنسي) وصاحب اليمامة (مسيلمة الكذاب)".[9]

وتحقق هذا الحلم. فمات الأسود العنسي في حياة النبي ﷺ ومات مسيلمة بعد وفاة النبي ﷺ.

الرؤيا المتعلقة بخلافة أبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه

مثل الأنبياء الآخرين، قلق النبي ﷺ على خلافته ومتابعة مهمته من بعده. فأراه الله في رؤيا خلافة أبي بكر رضي الله عنه وأنها ستكون قصيرة ثم خلافة عمر رضي الله عنه وأنها ستكون أطول ومليئة بالانتصارات. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "أُرِيتُ في المَنامِ أنِّي أنْزِعُ بدَلْوِ بَكْرَةٍ علَى قَلِيبٍ، فَجاءَ أبو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، واللَّهُ يَغْفِرُ له،

ثُمَّ جاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فاسْتَحالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وضَرَبُوا بعَطَنٍ". [10]

الذَنوب: الدلو الممتلئة ماء، و"غربا" أي دلوا عظيمة الحجم، و"العطن" هو مناخ الإبل بعد أن شربت الماء وارتوت.

وتحققت هذه الرؤيا فحصلت في عهد عمر رضي الله عنه انتصارات عظيمة وفتوحات مهمة.

النبوءة عن فتح بلاد فارس وسواري كسرى

تحققت نبوءة النبي ﷺ المتعلقة بسراقة بن مالك الذي تتبّع النبي ﷺ خلال هجرته طامعا في الحصول على مائة جمل.

ويروي أبو بكر رضي الله عنه ما حدث أثناء رحلة الهجرة فيقول: "فارْتَحَلْنا والقَوْمُ يَطْلُبُونا، فَلَمْ يُدْرِكْنا مِنهم إلّا سُراقَةُ عَلى فَرَسٍ لَهُ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَذا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنا فَقالَ: لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا. حَتّى إذا دَنا فَكانَ بَيْنَنا وبَيْنَهُ قَدْرُ رُمْحٍ أوْ رُمْحَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَذا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقنا وبَكَيْتُ، قالَ: لِمَ تَبْكِي؟ قُلْتُ: أما واللهِ ما أبْكِي عَلى نَفْسِي، ولَكِنْ أبْكِي عَلَيْكَ، فَدَعا رَسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِناهُ بِما شِئْتَ. فَساخَتْ فَرَسُهُ إلى بَطْنِها في أرْضٍ صَلْدٍ ووَثَبَ عَنْها، وقالَ: يا مُحَمَّدُ إنَّ هَذا عَمَلُكَ فادْعُ اللهَ أنْ يُنْجِيَنِي مِمّا أنا فِيهِ، فَواللهِ لَأُعَمِّيَنَّ عَلى مَن ورائِي مِنَ الطَّلَبِ، وهَذِهِ كِنانَتِي فَخُذْ مِنها سَهْمًا فَإنَّكَ سَتَمُرُّ بِإبِلِي وغَنَمِي في مَوْضِعِ كَذا وكَذا فَخُذْ مِنها حاجَتَكَ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا حاجَةَ لِي فِيها. ودَعا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأُطْلِقَ". [11]

وطلب سراقة أن يكتب له كتاب أمن فأمر رسول اللّه ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بكتابته.

ولما أراد الانصراف قال له النبي ﷺ: "يكف بك يا سراقة إذا تسورت بسواري كسرى؟"، قال سراقة: "كسرى بن هرمز؟"، قال نعم.

إن عظمة وروعة نبوءة رجل بدا ضعيفا فارا من أعداء متعطشين لدمه لهو أمر يفوق الخيال. هذه النبوءة لا تتعلق فقط بالأساور التي ستعطى لسراقة بل تحمل بشارة فتح بلاد فارس وحصول المسلمين على كنوزها. هذه النبوءة التي أنبئ بها في زمن الفقر تحققت بكل عظمة.

أسلم سراقة بالجعرانة بعد فتح مكة. ولما جيء لعمر رضي الله عنه في زمن خلافته بسواري كسرى

وتاجه، دعا سراقة وقال: "ارفع يديك"، وألبسه السوارين وقال له: "قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس".[12]

النبوءة عن انتصارات أسطول المسلمين البحري

من رؤيا النبي ﷺ العظيمة تلك المتعلقة بالمعارك البحرية التي ستخوضها قوات المسلمين. فبشره الله بانتصارات بحرية بينما كان يعيش في المدينة ولم تكن وسائل الحرب البحرية موجودة.

عن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: "نام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك. فقلتُ: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا علَيَّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسِرَّة. فقلتُ: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها رسول الله ﷺ ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله. كما قال في الأول. فقلتُ: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنتِ من الأولين". فركبتْ البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.[13]

ما أشارت إليه هذه الرؤيا هو الرحلة البحرية إلى قبرص. كان معاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه حاكما على الشام ووهبه الله القدرة على بناء أول أسطول للمسلمين. فلم يكن المسلمون قبل هذا يملكون حتى قاربا. فكان معاوية رضي الله عنه قائدا لأسطول جيش المسلمين وبذلك غزوا جزيرة قبرص فكانت أول جهاد عبر البحر في تاريخ الإسلام. وبالتالي فتحت قبرص وكانت انطلاقة للانتصارات البحرية اللاحقة. وهكذا تحقق ما قاله النبي ﷺ عن انتصار الإسلام وإبحار جيوش المسلمين ووصول رسالة الإسلام إلى ما وراء البحار.[14]

كانت روعة تحقق تلك النبوءة أن المسلمين أثبتوا تفوقهم على هيمنة أساطيل الروم والفرس في ذلك الوقت. وأثبت أسطول المسلمين سيادته على مياه البحر المتوسط بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح. وبعد فتح قبرص، أبحر جيش المسلمين فوصلوا من جهة إلى الأراضي الواقعة ما وراء البحر الأسود والبحر الأحمر ومن جهة ثانية فتحوا جزيرة صقلية والقسطنطينية الواقعتين ما وراء البحر المتوسط. والحملة الثالثة كانت بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس. أبحر في البحر المتوسط حتى وصل إلى مضيق جبل طارق وقام بحرق سفنه دون اكتراث بالعواقب. وفي البعثة

الرابعة أبحر محمد بن القاسم في بحر العرب والمحيط الهندي. وترك المسلمون بصمة نجاحهم التي لا تنسى في الخبرة البحرية والصناعة ومهارات الإبحار إلى آخر الزمان. بنيت مرافئ جديدة وأعِدّت أماكن لبناء السفن وأنشئت الطرق البحرية وطوِّر علم المحيطات. فالمسلمون الذين كانوا في السابق يخافون من المياه أصبحوا المسيطرين عليها. وهكذا تحققت رؤيا النبي ﷺ بطريقة رائعة.

رؤى احتاجت إلى تأويل وتحققت بصورة مختلفة

النوع الثالث للرؤى والكشوف هي التي لم تتحقق تماما كما فُهمت وقتها بل تحققت بصورة أجمل بفضل الله؛ ومثال ذلك صلح الحديبية.

كان المسلمون خلال إقامتهم في المدينة في حالة حرب مع أهل مكة ومنعوا من الحج والعمرة. فأرى الله النبي ﷺ رؤيا يطوف فيها بسلام حول الكعبة مع أصحابه. فأخذ النبي ﷺ الرؤيا على ظاهرها وأعد للعمرة مع ألف وأربعمائة من أتباعه. لكنه لم يتمكن من أداء العمرة لحكمة إلهية خفية وعقد صلح الحديبية الذي نص ألا يسمح للمسلمين بالعمرة إلا في العام التالي. وكانت بركة صلح الحديبية على المسلمين أن بشرهم الله بفتح مكة والنصر في خيبر.

فلو تحققت الرؤيا على ظاهرها واعتمر المسلمون تلك السنة لَما حَظُوا ببركات الصلح. وقد نُعت صلح الحديبية في القرآن الكريم بالفتح المبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: 2)[15]

وكانت الرؤيا المتعلقة بالهجرة من هذا النوع أيضا. إذ تبين المراد الحقيقي منها بعد حين. فقد رأى النبي ﷺ أن أرض مهجره سيكون فيها نخيل، فظن أن المقصود منها اليمامة أو هَجَر. لكن تبيّن لاحقا أنها يثرب.[16]

كان هناك حكمة كبيرة في إخفاء اسم المكان في الرؤيا لأن إظهاره كان سيشكل خطرا على المسلمين.

الكشف عن تعبير الرؤيا بعد تحققها

يصعب تأويل بعض الرؤى لأنها غير واضحة في حينها، ويكشف معناها وتفهم فقط بعد أن تتحقق. ويبدو أن الحكمة من هذه المهلة هي أن المرء وقت تحقق الحلم يحس بسلام في قلبه عندما يدرك قصد الله الكامن في الحدث. ومثال على ذلك، الرؤيا التي رآها النبي ﷺ قبل معركة أُحد أن بقرا يُذبح وأن رأس سيفه مكسور. فلم يكن تأويله واضحا. واتضح المعنى الكامن فيه لاحقا، إذ تبين أنه كان يشير إلى مقتل سبعين رجلا من المسلمين وإصابة الرسول ﷺ نفسه وكسر رباعيته.[17]

تحقق الرؤى والكشوف في الخَلَف أو الذرية

تحققت بعض الرؤى أو الكشوف في خلفاء أو أتباع أو أولاد الشخص المعني بها.

رأى النبي ﷺ كشفا مهما ورائعا يوم محنة غزوة الأحزاب. كان المسلمون يحفرون الخندق للدفاع عن أنفسهم ضد هجوم أهل مكة المرتقب وقد أصابتهم مجاعة. وقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ عمل مع أصحابه بحفره ولم يأكلوا منذ ثلاثة أيام وكان قد ربط على بطنه حجرا من شدة الجوع.[18]

وقد روى البراء بن عازب رضي الله عنه تفاصيل عن الحدث فقال: "أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول. فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ، فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: بسم الله. فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر. وقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا. ثم قال: بسم الله. وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر. فقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا. ثم قال: بسم الله. وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر. فقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا".[19]

أشارت هذه الرؤيا العظيمة إلى قوة إيمان النبي ﷺ وأصحابه. إذ كانوا جائعين وخائفين من هجوم العدو وفي حالة الخوف والخطر هذه كانوا يخندقون على المدينة وعلى أنفسهم، ولكن

كان إيمانهم بوعد الله إيمانا راسخا جعلهم وهم في حالة يرثى لها يكبّرون الله حمدا على انتصارات مستقبلية على أكبر قوتين آنذاك. وكانوا على ثقة تامة أن تلك الانجازات التي تبدو مستحيلة ستتحقق حتما.

والحمد لله، بدأت هذه الانتصارات تتحقق في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. وقاد خالد بن الوليد رضي الله عنه وأبو عبيدة رضي الله عنه جيوش المسلمين وفتحت الشام بالكامل في خلافة عمر رضي الله عنه. وقاد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الجيوش التي فتحت بلاد فارس. وهكذا، في بضع سنين، هزمت أعظم امبراطوريتين على يد هؤلاء المسلمين الجائعين ذوي العزيمة الواثقين بربهم.

كانت رؤيا النبي ﷺ تلك واضحة وضوحا يحير العقل البشري. وقد روى خريم بن أوس رضي الله عنه كشفا تحقق بأروع ما يكون فقال: "قال رسول الله ﷺ: هَذِهِ الْحِيرَةُ الْبَيْضَاءُ قَدْ رُفِعَتْ لِي، وَهَذِهِ الشَّيْمَاءُ بِنْتُ بُقَيْلَةَ الْأَزْدِيَّةُ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ مُعْتَجِرَةً بِخِمَارٍ أَسْوَدَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنْ نَحْنُ دَخَلْنَا الْحِيرَةَ وَوَجَدْتُهَا عَلَى هَذِهِ الصِفَةِ فَهِيَ لِي؟ قَالَ: هِيَ لَكَ".

أخبرت هذه النبوءة، بالإضافة إلى الانتصار على حيرة، أن خريم والأميرة شيماء سيكونان حينها على قيد الحياة. يقول خريم: " ثُمَّ سِرْنَا عَلَى طَرِيقِ أَلْطَفَ حَتَّى دَخَلْنَا الْحِيرَةَ فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَلَقَّانَا فِيهَا شَيْمَاءُ بِنْتُ بُقَيْلَةَ الْأَزْدِيَّةُ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهَا شَهْبَاءَ، مُعْتَجِرَةً بِخِمَارٍ أَسْوَدَ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَعَلَّقْتُ بِهَا وَقُلْتُ: هَذِهِ وَهَبَهَا لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي خَالِدٌ عَلَيْهَا الْبَيِّنَةَ، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَسَلَّمَهَا إِلَيَّ، وَنَزَلَ إِلَيْنَا أَخُوهَا عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَقَالَ لِي: بِعْنِيهَا، فَقُلْتُ: لَا أَنْقُصُهَا، وَاللهِ مِنْ عَشْرِ مِائَةٍ شَيْئًا، فَدَفَعَ إِلَيَّ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقِيلَ: لَوْ قُلْتَ: مِائَةَ أَلْفٍ لَدَفَعَهَا إِلَيْكَ فَقُلْتُ: مَا أَحْسِبُ أَنَّ مَالًا أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مِائَةٍ".[20]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه الذي شهد تحقق هذا الكشف وكل تلك الانتصارات قال: "قال النبي ﷺ: أُعطيتُ مفاتيح الكلم ونُصرت بالرعب وبينما أنا نائم البارحة إذ أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض حتى وُضعت في يدي. فقال أبو هريرة رضي الله عنه: فذهب رسول الله، وأنتم تنتقلونها".[21]

تحققت رؤى وكشوف النبي ﷺ بأشكال مختلفة وفقا لحكمة الله ومشيئته. وإن هذه الأحداث تقوي إيماننا وتؤكد لنا أن البعثة الثانية ستتحقق بالفعل. تلك الوعود وعدنا بها الله عن طريق النبي ﷺ. قال رسول اللَّه ﷺ متكلما عن جماعات من أمته ستكون محظوظة في آخر الزمان:

"عِصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمَا اللهُ مِنْ النَّارِ عِصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ وَعِصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَام". [22]

وتحقق الجزء الأول من هذه النبوءة حين فتح محمد بن القاسم الطريق إلى النصر في الهند من خلال فتحه لبلاد السند. فخلّص أهل السند من الحكام الوحشيين من خلال ترسيخه لسيادة القانون والعدالة. وكسب قلوب أهل السند بفضل نبل أخلاقه وقيمه العالية فبدأ الإسلام ينتشر في تلك المنطقة من العالم نتيجة لذلك.

الجزء الآخر من النبوءة يتعلق بآخر الزمان. قال النبي ﷺ: "إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ". [23]

وقال النبي ﷺ عن غلبة الإسلام الأخيرة: "لا يترك اللهُ بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله الإسلام". فعلى كل مؤمن أن يثق تمام الثقة بوعود الله إذ لا بد أن تتحقق.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن الترمذي؛ كتاب الرؤيا، باب قوله لهم البشرى فى الحيوة الدنيا.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب نكاح الأبكار.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة (القمر) ﴿اقتربت الساعة﴾، وباب قوله ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

[5] صحيح مسلم؛ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيْهِ.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل.

[7] تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 132،133، طبعة بيروت.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قِصَّةِ الأَسْوَدِ العَنْسِيِّ. كنز العمال؛ الجزء 14، ص 549، طبعة مصر.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب التعبير، باب النفخ في المنام.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 2، طبعة القاهرة.

[12] السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 215، طبعة بيروت.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء.

[14] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 1، ص 289، طبعة بيروت.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الفتح، ﴿إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[19] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 303، طبعة القاهرة.

[20] دلائل النبوة لإبي نعيم؛ الجزء 4، ص 150، طبعة بيروت.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب التعبير، باب رؤيا الليل.

[22] سنن النسائي؛ كِتَاب الْجِهَادِ، باب غَزْوَةُ الْهِنْدِ.

[23] صحيح مسلم ؛كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هَلاَكُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

الصدق التام للنبي ﷺ

إن الصدق والأمانة والموثوقية أهم أسس الأخلاق. فالصدق الحقيقي ينعكس في خُلُق المرء وكلامه وحتى في وجهه. لذا قال الله تعالى إن خُلُق أنبيائه ورسله هو دليل على صدقهم. فالنبي ﷺ توجه إلى أهل مكة وقال لهم: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 17)

ففي هذه الآية تُقدم حياة النبي ﷺ قبل البعثة كدليل على صدقه، إذ يستحيل على الصادق الذي لم يكذب قط في طفولته وشبابه أن يكذب على الله في عمر متقدم. فصدق النبي ﷺ هو دون أي شك الدليل الأساسي المقنِع على صدق دعواه. والنبي ﷺ يحقق هذا المعيار بامتياز إذ عرف بالصادق الأمين بين أصدقائه وخصومه منذ شبابه. وأصبح ذكر اسمه يعدل الصدق إذ لم يكذب أبدا. حتى أعداؤه شهدوا بصدقه قبل نبوته. سنقتبس من حياته بعض الأمثلة التي تثبت ذلك.

ما من أحد أقرب إلى الرجل من زوجته فهي الأقدر على الشهادة بخلقه.

شهادة زوجات النبي ﷺ

لما نزل الوحي على النبي ﷺ وعاد إلى البيت خائفا يرتجف، واسته خديجة رضي الله عنها وشهدت على صدقه، فقالت له أن الله لن يخزيه أبدا لأنه يصدق الحديث دائما.[1]

وشهدت له عائشة رضي الله عنها بأن خلقه كان القرآن، والقرآن والإسلام قائمان على الصدق، وقالت في حديث آخر أن ما من شيء أبغض على النبي ﷺ من الكذب، فكان إذا كذب أحد أبعد نفسه عنه حتى يعلم أنه تاب.[2]

شهادة الأقارب

حين أمر الله النبي ﷺ أن يدعو أقاربه إلى الإسلام صعد على الصفا فنادى قبائل قريش، ولما اجتمعوا قال: " أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبا لك ما

جمعتنا إلا لهذا ثم قام."[3]

الحكمة من تقديم حياة النبي ﷺ قبل البعثة النبوية كدليل على صدقه هي أن من شهدوا له بالصدق قد أصبحوا أعداءه.

شهادة أبي طالب

جاء وفد من قريش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ يشكونه إليه، فدعاه أبو طالب وطلب منه أن ينزل عند مطالبهم، فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: "أترون هذه الشمس؟"، قالوا: نعم، قال: "فما أنا بأقدرَ على أن أَدَعَ ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة". فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا".[4]

وشهادة أبي طالب الثانية تعود إلى فترة حصار شعب أبي طالب، لمّا دافع بنو هاشم وبنو المطلب عن النبي ﷺ اجتمعت قريش وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه ألَّا يَنْكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا يُنْكحوهم، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم، وعلَّقوا ذلك الكتاب في جوف الكعبة توكيدا للأمر.

وبعد ثلاث سنين من بدء الحصار أطلع الله تعالى نبيه ﷺ أن الأرَضة قد أكلت ما كان في صحيفتهم من جَوْر وظلم، وبقي ما كان من ذِكر الله، فذكر ذلك رسولُ الله ﷺ لأبي طالب الذي ذكره لأخويه فقال: والله ما كذَبني قط. قالوا: فما ترى؟ قال: أرى أن تخرجوا إلى قريش فتذكروا لهم ذلك مِن قَبْل أن يَبْلغهم الخبر. فخرجوا فقال أبو طالب: إنا قد جئنا في أمر فأجيبوا فيه، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يَكْذبني قط أن الله تعالى سلَّط على صحيفتكم الأرَضةَ، فلحست كلَّ ما كان فيها من جَوْر أو ظلم أو قطيعة رحم، وبقي فيها كلُّ ما ذُكر به الله تعالى، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعتُه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه إن شئتم. قالوا: قد رضينا بالذي تقول. وهكذا نُقِض حُكم الصحيفة.[5]

شهادة خزيمة بن حكيم السلمي

كان خزيمة صهر خديجة رضي الله عنها، وقد رافق النبي ﷺ قبل بعثته في عير خديجة إلى الشام. فتسنى له معرفة أخلاق النبي ﷺ عن كثب فقال: "يا محمد إني أرى فيك خصالا وأشهد أنك النبي الذي يخرج بتهامة وقد آمنت بك، فإذا سمعتُ بخروجِك أتيتُك. فأبطأ عن النبي ﷺ إلى يوم الفتح. فأتاه فلما رآه قال: مرحبا بالمهاجر الأول".[6]

شهادة صديق

كان أبو بكر رضي الله عنه صديق النبي ﷺ منذ الطفولة. فلما سمع بدعوته لم يطلب منه أي دليل مع أن النبي ﷺ حاول أن يعطيه إثباتا على نبوته. وهذا لأنه شهد صدق النبي ﷺ طول حياته.[7] كان خُلق النبي ﷺ الشاهد على صدق نبوته، فكان نور صدقه واضحا لعين أبي بكر رضي الله عنه فأسلم في الحال.

شهادة ألد الأعداء، أبي جهل

لم يشهد أصدقاء النبي ﷺ فقط على صدقه بل أعداؤه أيضا لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا له بالصدق، فكان أبو جهل وهو ألد أعداء النبي ﷺ يقول أمام الملأ: "إنَّا لا نُكذِّبك ولكن نكذّب بما جِئتَ به".[8]

شهادة أبي سفيان

كان أبو سفيان ثاني أكبر عدو للنبي ﷺ. وإن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان عدة أسئلة عن النبي ﷺ ومن ضمن ما سأله إن كانوا اتهموا مدعي النبوة هذا بالكذب قبل أن يعلن نبوته فأجاب أبو سفيان أن لا. فقال هرقل: "أعرف أنه لمْ يكُنْ لِيَذَر الكذِب على الناس ويَكذِب على الله".[9]

شهادة عدو متعطش للدم، النضر بن الحارث

كان النضر بن الحارث يؤذي النبي ﷺ ويُعد من أشرس أعدائه المتعطشين للدماء. وقد شارك في الاجتماع الذي جرى في دار الندوة وخططوا خلاله لقتل النبي ﷺ. فاقترح أحدهم أن تروج إشاعات ضد النبي ﷺ تنعته بالكاذب لكن النضر بن الحارث لم يستطع إلا أن يتصدى لذلك

فقال: "يا معشر قريش، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم".[10]

شهادة عدو الإسلام، أميّة بن خلف

لما سمع أمية بن خلف من صديقه القديم سعد بن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ تنبأ بمقتله قال: "والله ما يكذب محمد".[11]

شهادة زوجة أميّة

حين أخبر سعد بن معاذ رضي الله عنه زوجة أمية زعيم قريش عن تنبؤ محمد ﷺ بمقتل زوجها قالت: "فوالله ما يكذب محمد"، وحاولت منع زوجها من مرافقة أبي جهل إلى معركة بدر. وذكّرته بما أخبره به أخوه اليثربي. لكن أبا جهل أصر عليه أن يرافقه فقُتل أميّة في بدر وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ.[12]

شهادة عُتبة، زعيم قريش

بعثت قريش عتبة ممثلا عنهم إلى النبي ﷺ فقال: "إنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم"، وقال أيضا: "إن كنت تريد مالا جمعْنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا". فقال له النبي ﷺ: فاسمع مني: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ثم مضى حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك. فقام عتبة إلى أصحابه فقال: "سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحْر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ".[13]

شهادة حَبْر من علماء اليهود

كان المسلمون ويهود بني قريظة قد تعاهدوا على التعاون. وفي غزوة الأحزاب، جاء زعيم بني النضير حيي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد وأغراه ليساعد قريش وينقض عهد الاتفاق الذي بينه وبين المسلمين. وكان هدف مخططه هذا هو هزيمة المسلمين. فقال له: "وَيْحك يَا حُيَيّ: إنّك امْرُؤٌ مَشْئُومٌ وَإِنّي قَدْ عَاهَدْت مُحَمّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إلّا وَفَاءً وَصِدْقًا". [14]

كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه عالما يهوديا كبيرا قبْل دخوله في الإسلام. وقد روى أن النبي ﷺ لما قدِم إلى المدينة انجفل الناس، وكان هو بينهم، فقال: "فلما رأيتُ وجهه عرفتُ أنه غير وجه كذاب، فسمعته يقول: "أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وصَلّوا باللَّيْل والنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ". [15]

وقد شهد هربرت جورج ويلز على صدق وأمانة النبي ﷺ فكتب: "إن الدليل القاطع على صدق محمد أن أهله وأقرب الناس إليه آمنوا به، لأنهم كانوا مطَّلعين على أسراره وأخلاقه، ولو أنهم شكّوا في صدقه لما آمنوا به." [16]

إن إجماع آراء الأقارب والأصدقاء والأعداء والأجانب لهو أكبر شهادة على صدق النبي ﷺ وأمانته.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة.

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 378، طبعة بيروت.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير سورة المسد، باب ﴿تبت يدا أبي لهب﴾.

[4] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 62، طبعة بيروت.

[5] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 152، طبعة بيروت.

[6] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 1، ص 281، طبعة بيروت.

[7] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 34، طبعة بيروت.

[8] سنن الترمذي؛كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الانعام.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[10] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 480، طبعة بيروت.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

[13] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 303، طبعة بيروت.

[14] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 220، طبعة بيروت.

[15] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام. الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 194، طبعة بيروت.

[16] The Outline of History by H.G. Wells, vol. 2, p. 325. Third editon 1921, New York.

صدق رسول الله ﷺ وأمانته

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: 59)، هذا هو التعليم الأساسي لحفظ الأمانات الذي بينه رسول الله ﷺ من خلال الشريعة. إن رسل الله تعالى هم الأشخاص الأكثر أمانة في العالم لأنهم ينقلون رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لخلقه بصدق وأمانة، ومن أجل ذلك ورد في القرآن الكريم على لسان كثير من الأنبياء قولهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. إن الجانب المشرّف لشخصية رسولنا ﷺ هو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنفسه أشاد بأمانته؛ إذ قال: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: 22).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 73). لم تكن السماء قادرة على حمل هذه الأمانة فانسحبت من قبول هذا العرض ليحمل ذلك المحب المخلص على كاهله ذلك العبء الثقيل. كان رسول الله ﷺ خير من يؤدي الأمانة وقد علم ذلك لأصحابه بناءً على قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: 9)

يقول رسول الله ﷺ: " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا."[1]

الصادق والأمين

يعد النقاء والإخلاص أساس الصدق والأمانة. لقد تميز رسول الله ﷺ بهذا المجال حتى جعل أهل مكة يسمونه الصادق والأمين، وكانوا لا يترددون في إيداع أموالهم عنده كأمانات. هناك علاقة قوية بين الإيمان والأمانة، هذه هي الخاصية المميزة لتعاليم رسول الله ﷺ. عندما سأل هرقل، عظيم الروم، أبا سفيان بِمَ يأمرهم رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. بعد سماع ذلك أجابه هرقل: "إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ".[2]

في بلاط النجاشي، بيّن جعفر الطيار رضي الله عنه تعاليم رسول الله ﷺ قائلا: "أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ

الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ".[3]

كانت قريش العدو المتعطش لدم رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، وبالمقابل كان همُّ رسول الله ﷺ إعادة الأمانات التي أودعوها معه قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة، ولذلك خلّف رسول الله ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في موقف خطير للغاية من أجل أن يعيد الأمانات لأصحابها ثم ليهاجر بدوره إلى المدينة.[4]

يتبين من الحادثة التالية اهتمام رسول الله ﷺ الشديد بتأدية الأمانات؛ فذات مرة سأله رجل عن اللُّقَطَةِ فقال ﷺ: "اعْرِفْ وِكَاءَهَا أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا وَعِفَاصَهَا ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ. قَالَ فَضَالَّةُ الْإِبِلِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ أَوْ قَالَ احْمَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ وَمَا لَكَ وَلَهَا مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا".[5]

كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على أداء الأمانات فقال: "إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا".[6]

وفي حادثة أخرى، كان رسول الله ﷺ يؤتى بالتمر عند صرام النخل فيجئ هذا بتمره وهذا من تمره حتى يصير عنده كومًا من تمر فجعل الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بذلك التمر فأخذ أحدهما تمرة فجعله في فيه فنظر إليه رسول الله ﷺ فأخرجها من فيه فقال ﷺ: "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ".[7]

أداء الأمانة في الأمن والحرب

يقول عقبة بن الحارث رضي الله عنه: "صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الْعَصْرَ فَأَسْرَعَ ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ، فلما سُئل عن ذلك قال: كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي الْبَيْتِ تِبْرًا مِن الصَّدَقَةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ فَقَسَمْتُهُ".[8]

عن السَّائِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قال: "جِيءَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، جَاءَ بِي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَزُهَيْرٌ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا تُعْلِمُونِي بِهِ قَدْ كَانَ صَاحِبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: "نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ فَنِعْمَ الصَّاحِبُ كُنْتَ". فَقَالَ ﷺ: "يَا سَائِبُ انْظُرْ أَخْلَاقَكَ

الَّتِي كُنْتَ تَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاجْعَلْهَا فِي الْإِسْلَامِ أَقْرِ الضَّيْفَ وَأَكْرِمْ الْيَتِيمَ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ".

وفي رواية أخرى يخبرنا السائب بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة فلما كان يوم الفتح جاءه فقال النبي ﷺ: "مَرْحَبًا بِأَخِي وَشَرِيكِي".فأجاب السائبُ قائلا: بأبي وأمي لا تداري ولا تماري.[9]

لقد حصل أثناء حصار خيبر اختبار شديد لتأدية الأمانة، إذ أسلم راعي يهودي على يد رسول الله ﷺ وكان لا بد من أخذ قرار بشأن قطيع الماشية الذي كان أجيرا عليه وأمانة عنده. قرر رسول الله ﷺ تأدية تلك الأمانة التي كانت بعهدة ذلك الراعي، وفضّل ﷺ أن يستمر أصحابه يتضورون جوعًا على أن لا تؤدَّى الأمانة لأصحابها. كان من الممكن أن تكون تلك الشياه مؤونة أشهر لجيش المسلمين أثناء حصارهم الطويل. فحين سأله الراعي ماذا يفعل بالقطيع قال ﷺ: "اضْرِبْ فِي وُجُوهِهَا، فَإِنَّهَا سَتَرْجِعُ إِلَى رَبِّهَا". فخرجت مجتمعة كأن سائقًا يسوقها حتى دخلت الحصن واستلمها صاحبها. سبحان الله! كيف التزم رسول الله ﷺ التزامًا صارمًا بتأدية الأمانة في وقت الحرب حيث تكون القرارات المتخذة عندئذ مبررة أكثر من أي وقت آخر.[10]

في غزوة خيبر تلك، طال حصار اليهود في حصنهم، وعندما هزموا دخل المسلمون وسارع بعض الناس إلى حظائر اليهود وذبحوا بعض الماشية التي استولوا عليها كغنيمة حرب وبدأوا بطبخ لحومها، وعندما علم رسول الله ﷺ بفعلهم كرهه بشدة، وغضب لتصرفهم بالغنائم قبل توزيعها بالعدل وعدَّ ذلك التصرف اختلاسًا، وأمر بقلب القدور بما حوت لتعليم المسلمين درسًا في حفظ الأمانة ثم وزعت الماشية على الصحابة، فخصصت شاة واحدة لكل عشرة رجال. وورد في رواية قول رسول الله ﷺ: " لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا".[11]

حتى في أيامنا المتحضرة هذه، يُعتبر الاستحواذ على أملاك العدو أمرًا مشروعا. هل شهد العالم المتحضر الحديث مثل هذا الحدث؛ بأن تعاد ماشية وخيرات العدو في الحرب إليه بعد السيطرة عليها؟ كلا لم يحصل هذا بتاتًا بل على العكس تمامًا؛ إذ يُعدُّ نهب ممتلكات وثروات العدو مشروعا. حياتنا الفداء لأمين الأمناء ﷺ!

هذا القطيع الذي كان من الممكن أن يموّن المسلمين الجائعين لأشهر قد أعيد للعدو الذي كان من المحتمل أن يطيل الحصار ويجبر المسلمين على الانسحاب.

لقد أدى رسول الله ﷺ واجب الأمانة تجاه البشر وكذلك أدى واجباته تجاه الله ﷻ. ذات مرة جاءه ذهب من اليمن، فوزعه على أربعة من زعماء العرب لتأليف قلوبهم، فاعترض شخص على القسمة وقال كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. حين بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: " أَيَأْمَنُنِي اللهُ علَى أَهْلِ الأرْضِ فلا تَأْمَنُونِي؟" ، وفي رواية أخرى قال ﷺ: " أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ".[12]

إن تأدية أمانة الله تشمل عبادة الله تعالى وتبليغ الوحي القرآني، وسنتناول تفصيل أداء هذين الحقين في فصل آخر بعنوان: رسول الله ﷺ داعيا إلى الله.

لقد أدى رسول الله ﷺ حق الأمانة كاملا تجاه البشرية وتجاه الله سبحانه وتعالى.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 8، ص 195، طبعة بيروت.

[2] صحيح مسلم ؛كتاب الجهاد والسير، باب كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ. المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 8، ص 195، طبعة بيروت.

[3] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 201، طبعة القاهرة.

[4] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 792، طبعة بيروت.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب اللقطة، باب إذا وجد تمرة في الطريق.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل وهل يترك الصبي فيمس تمر الصدقة.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها.

[9] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 425، طبعة القاهرة.

[10] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 344، طبعة بيروت.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 89 و الجزء 4، ص 348، طبعة القاهرة.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 4، طبعة القاهرة.

وفاء النبي ﷺ بالعهود

يؤكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على ضرورة الوفاء بالعهود. ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: 35)

وقال النبي ﷺ: "إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ". [1]

وكذلك قال: " لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دِين لمن لا عهد له". [2]

حرِص النبي ﷺ كل الحرص منذ نعومة أظفاره على أداء الأمانة والوفاء بالوعود. فكان خير مثل في الوفاء.

قبل البعثة النبوية

عن عبد اللّه بن أبي الْحَمْسَاء قال: "بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ فَنَسِيتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاثٍ فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ فَقَالَ: يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَا هُنَا مُنْذُ ثَلاثٍ أَنْتَظِرُكَ". [3]

شارك النبي ﷺ قبل نزول الوحي عليه في حلف الفضول، وكان أساسه نصرة المظلومين والمستضعفين. قال: "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت". [4]

بعد البعثة النبوية

بعد بعثة النبي ﷺ، قام أبو جهل بهضم حق رجل غريب يدعى الإراشي. فاستنجد بالنبي ﷺ الذي رافقه إلى بيت أبي جهل فطالبه بحق الإراشي وظل ببابه حتى أعطاه حقه. [5]

عن حُذَيفة بن اليمان قال: "مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي سهل فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا فَقُلْنَا مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلا نُقَاتِلُ مَعَهُ. فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: "انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ". [6]

لما وصلتْ رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام استدعى أبا سفيان إلى

مجلسه فسأله عن أخلاق النبي ﷺ. ومن ضمن ما سأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجاب أبو سفيان: لا. ثم سأل: فهل يغدر؟ ومع أن أبا سفيان كان من ألد أعداء النبي ﷺ ما استطاع إلا أن يعترف لهرقل أن النبي ﷺ يفي دائما بوعده ولا يغدر. ثم أضاف: "ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. ولم تُمكنِّي كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة". [7]

الوفاء بالعهد مع المشركين

التزم النبي ﷺ بكل شروط صلح الحديبية. وقدَّر الله أن تنقض قريش العهد وتتحمل النتائج. وجنى النبي ﷺ بركات وفائه بالعهد وأكبرها فتح مكة.

كان من شروط صلح الحديبية أن يأتي المسلمون إلى مكة للعمرة في السنة التالية ويرحلوا منها بعد ثلاثة أيام. عن حويطب بن عبد العزى قال: "لما قدم رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخرجتْ قريش من مكة كنتُ فيمن تخلّف بمكة أنا وسهيل بن عمرو لأن نُخرج رسول الله ﷺ إذا مضى الوقت. فلما انقضت الثلاث، أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا: قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا. فصاح: يا بلال لا تغب الشمس وأحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا". [8]

واقتضى الصلح أيضا أن المسلم الذي يفرّ إلى المدينة يُردّ إلى مكة. وكان المسلمون يعملون بهذا الشرط حتى قبل الصلح. فأعادوا مثلا أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو الذي استأنف حبسه وتعذيبه. وبعد الصلح هرب بعض المسلمين من مكة فرُدّوا إلى مكة. [9] لكن هذا الشرط كان محنة على القرشيين أنفسهم لأن مسلما شجاعا يدعى أبا بصير هرب من مكة وجاء يردّه رجلان من قريش فتمكن في الطريق من قتل أحدهما وفرّ الآخر. ولم يرجع أبو بصير إلى المدينة بل خيّم على الشاطئ، فأخذ مسلمون آخرون فارين من مكة يتجمّعون إليه فكوّنوا خطرا على أهل مكة. مما أجبر المكيين على التخلي عن هذا الشرط من الصلح. [10]

وقّع سهيل بن عمرو، ممثل قريش، صلح الحديبية الذي ضمِن السِّلم بين المسلمين وقريش إلى عشر سنوات. وكان بنو بكر حلفاء قريش وبنو خزاعة حلفاء المسلمين وقد عُدَّ أي هجوم على الحليف بمثابة هجوم على الطرف العاقد للصلح. [11]

نصرة الصديق والوفاء بالوعد

خلال فترة السِّلم تلك، أغاظ نجاح المسلمين أهل مكة فأخذوا يحاولون فضّ الصلح. فتآمر فريق من قريش مع قبيلة بني بكر فهجموا على بني خزاعة في الليل. فلجأ بنو خزاعة إلى الكعبة ومع ذلك قتل منهم ثلاثة وعشرون رجلا دون رحمة. ولما علم أبو سفيان بذلك قال بأن ذلك استفزاز وأن محمدا سيقاتلهم.

وفي الصباح أعلم الله النبي ﷺ بما حصل. فقال لعائشة رضي الله عنها أن نقض قريش للصلح فيه مصلحة للمسلمين. وبعد ثلاثة أيام جاء النبي ﷺ أربعون راكبا على جمالهم من بني خزاعة وأخبروه بمؤامرة قريش مع بني بكر وبإغارتهم عليهم وقتلهم لرجالهم في الليل وأنهم بذلك نقضوا الصلح. وطلبوا نصرة النبي ﷺ بحسب ما جاء في بنود الصلح. فقال ممثلهم وهو عمرو بن سالم الخزاعي شعرا يصف فيه مصابهم ويستنجد بالنبي ﷺ، وكان أحد أبياته:

يَـــا رَبِّ إِنِّي نَاشِـــدٌ مُحَمّــدًا حِلْـــفَ أَبِينَـــا وَأَبِيـــهِ الْأَتْلَـــدَا

فلما سمع النبي ﷺ ما حلّ ببني خزاعة تأثر ودمعت عيناه وقال: "نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ. لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي".[12] وفي هذه الأثناء هرع أبو سفيان إلى المدينة آملا ألا تكون أخبار نقض الصلح قد وصلت بعد إلى النبي ﷺ فيَسْلَموا من عواقب انتهاكهم هذا. وبحنكة قال إنه لم يحضر كتابة صلح الحديبية وطلب أن يجَدَّد الصلح بينهم. فسأله النبي ﷺ إن كان أحد الأطراف قد خرق شروط الصلح. فأجابه أبو سفيان باضطراب أن لا. فقال في هذه الحالة نلتزم بالصلح ولا حاجة لنا لتجديده. ووفى النبي ﷺ بوعده لبني خزاعة فجمع جيش المسلمين لنصرة المظلوم وكانوا عشرة آلاف. فكان فتح مكة بإذن الله.[13]

الوفاء بالعهد مع سُراقة

ذهب سراقة في أثر النبي ﷺ وقت الهجرة طامعا بجائزة مائة ناقة إن قتله أو أسره. يقول: "فَلَمّا بَدَا لِي الْقَوْمُ وَرَأَيْتهمْ عَثَرَ بِي فَرَسِي، فَذَهَبَتْ يَدَاهُ فِي الْأَرْضِ وَسَقَطْت عَنْهُ ثُمّ انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنْ الْأَرْضِ وَتَبِعَهُمَا دُخَانٌ كَالْإِعْصَارِ. فَعَرَفْت حَيْنَ رَأَيْت ذَلِكَ أَنّهُ قَدْ مُنِعَ مِنّي، وَأَنّهُ ظَاهِرٌ. فَنَادَيْت الْقَوْمَ فَقُلْت: أَنَا سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ: أَنْظِرُونِي أُكَلّمْكُمْ، فَوَاَللّهِ لَا أُرِيبُكُمْ وَلَا يَأْتِيكُمْ مِنّي

شَيْءٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ قُلْ لَهُ وَمَا تَبْتَغِي مِنّا؟ فَقَالَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ قُلْت: تَكْتُبُ لِي كِتَابًا يَكُونُ آيَةً بَيْنِي وَبَيْنَك. قَالَ اُكْتُبْ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ". وعاد سراقة إلى مكة بهذا الكتاب.

وبعد فتح مكة، كان النبي ﷺ يخيم في الجعرانة بعد حُنين وتحرسه كتيبة من الأنصار فأتاه سراقة فلم يسمحوا له بالاقتراب من النبي ﷺ قال: "فَرَفَعْت يَدِي بِالْكِتَابِ ثُمّ قُلْت: يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا كِتَابُك لِيْ، أَنَا سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرّ، ادْنُهْ. قال: فَدَنَوْت مِنْهُ فَأَسْلَمْت". [14]

أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلا من أقربائها كان من المشركين واعترض عليّ رضي الله عنه على ذلك لكن النبي ﷺ احترم وعدها فقال: "قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ". [15]

عن أبي رافع رضي الله عنه قال: "بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الإِسْلامُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللهِ لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا. فَقَالَ: إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ. فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النبيّ ﷺ فَأَسْلَمْتُ". [16]

الوفاء بالعهد مع يهود المدينة

حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة عقد اتفاقية مع ثلاث قبائل من يهود المدينة وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير. ونصّت الاتفاقية على أن يعيش جميعهم مع المسلمين كأمة واحدة. والتزم النبي ﷺ بالاتفاقية وحكم دائما بالعدل ولصالح اليهود الذين تمتعوا بحرية دينية كاملة.

وحدث أن قال رجل مسلم إن محمدا ﷺ الأفضل بين الأنبياء فشعر يهودي بالإهانة وقال بل موسى عليه السلام الأفضل، فضربه المسلم فاشتكى اليهودي إلى النبي ﷺ فقال بتواضع ومراعيا مشاعر اليهود: "لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطشٌ جانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله". [17]

كان النبي ﷺ يقف لجنازات اليهود. وحدث أن مرت جنازة فقام لها النبي ﷺ فقيل له إنها جنازة يهودي فقال: "أليستْ نفسا". [18]

وخرق اليهود العهد مرات عديدة حتى وجب في النهاية طردهم من المدينة. لكن ليس

باستطاعة أي يهودي أن يقول إن النبي ﷺ نقض العهد.[19]

الوفاء بالعهد مع النصارى

من القبائل التي وقّعت عهودا مع المسلمين بعد فتح مكة قبيلتان من نصارى نجران واليمن. وحين أراد أهل نجران العودة إلى بلادهم طلبوا من النبي ﷺ أن يبعث معهم رجلا أمينا. فقال: "لأبعثنَّ إليكم رجلا أمينا حقَّ أمين". فبعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه الملقّب بأمين الأمة.[20] وباختصار، فإن النبي ﷺ مَضرِب المثَل في الوفاء وسيِّد الأوفياء.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن أبي داؤد؛ كتاب الجهاد، باب فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 135، طبعة القاهرة.

[3] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي الْعِدَةِ.

[4] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص133، طبعة بيروت.

[5] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 389، طبعة بيروت.

[6] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[8] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 561، طبعة بيروت.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 323، طبعة القاهرة.

[12] سيرة ابن هشام الجزء 2، ص 393، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 134، طبعة بيروت.

[13] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 109، طبعة بيروت. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 242، طبعة بيروت.

[14] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 489-490، طبعة بيروت.

[15] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب فِي أَمَانِ الْمَرْأَةِ.

[16] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب فِي الإِمَامِ يُسْتَجَنُّ بِهِ فِي الْعُهُودِ.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي.

[19] صحيح مسلم؛ الجهاد والسير، باب إِجْلاَءِ الْيَهُودِ مِنَ الْحِجَازِ.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران.

إرشادات النبي ﷺ في التجارة والمعاملات التجارية

التجارة ضرورة من ضرورات حياة الإنسان ويعود تاريخها إلى أقدم حضارة إنسانية. والأمة التي تتخلى عن قيم العدالة والأمانة والصدق وتدوس على المعايير الأخلاقية تؤول إلى الانهيار. وهو ما حصل في الجزيرة العربية فبعث الله الرسول ﷺ لإصلاحها. كانت مهمته إقامة القيم الأخلاقية والروحية العالية وترسيخها في المجتمع. وقد أعطى القرآن الكريم تعليمات خاصة ضد الاستغلال والإخلال بالأمانة، وأخبرنا أن أهل مدين قد أُنذروا بالهلاك لأنهم لم يعودوا أمناء في معاملاتهم وأصابهم الانحلال الخُلقي، فاستصغروا السيئة التي كانوا مصابين بها، فدُمروا بسببها تدميرا.

وتوجه القرآن الكريم إلى العرب الذين امتهنوا التجارة وغرقوا هم أيضا بالإثم فواجهوا الهلاك. وحذرهم الرسول ﷺ كما جاء في القرآن: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: 2-4)

فسَّر ابن العباس رضي الله عنه نزول هذه الآيات فقال: "لمّا قدمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أخبَثِ النَّاسِ كيلًا، فأنزلَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكيلَ بعدَ ذلِكَ".[1]

ويقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: 10)

التجارة الأخلاقية

جاء النبي ﷺ ليُخرِجَ العالم من الظلمات والانحطاط الأخلاقي ويهديه إلى التقوى. فعلّمهم الطرق الأخلاقية للتجارة من الله العليم. والمبدأ الأساسي هو خشية الله والنزاهة. ودعا تابعيه بما جاء في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف: 11-14)

قال الله تعالى مؤكدا على أهم مظهر من مظاهر هذه التجارة وفوائدها العظيمة:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 246)

ونقرأ في موضع آخر:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 262)

هذا الربح العظيم ليس نظريا محضا، بل شُوهد بالملاحظة والتجربة أنَّ مَن يخشون الله ويضعون ثقتهم فيه يُجزَون حسنات وبركات لا تُعد ولا تُحصى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور: 39)

قوانين التجارة في الإسلام

إن أساس النجاح حسب التعاليم الإسلامية هو النزاهة. ويعني ذلك تأدية حقوق الآخرين بشكل كامل من أجل الحصول على رضا الله. هذا ما تقوم عليه إرشادات الإسلام في التجارة.

أما الربا فهو الاستغلال في مختلف أشكاله. يقول القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 276)

يقول النبي ﷺ عن الربا: "الربا ثلاثة وسبعون بابا".[2] فالربا هو الفائدة التي يحصَل عليها من القروض محددة الآجال. وقد لعن النبي ﷺ من يدفع الفائدة ومن يتلقّاها ومن يشهد عليها ومن يكتب معاملتها. فقال: "ما أحدٌ أكثرَ من الربا إلّا كان عاقبةُ أمرِه إلى قِلَّةٍ".[3]

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَوَاللهِ لَا أَسْمَعُ بَعْدَهُ أَحَدًا، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ بَيْنَ ذَلِكَ أُمُورًا مُشْتَبِهَاتٍ. وَرُبَّمَا قَالَ: وَإِنَّ بَيْنَ ذَلِكَ أُمُورًا مُشْتَبِهَةً "، قَالَ: "وَسَأَضْرِبُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلًا إِنَّ اللهَ عز وجل حَمَى حِمًى، وَإِنَّ حِمَى اللهِ عز وجل مَا حَرَّمَ، وَإِنَّهُ مَنْ يَرْتَعُ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُخَالِطَ الْحِمَى، وَرُبَّمَا قَالَ: إِنَّهُ مَنْ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُرْتِعَ فِيهِ. وَإِنَّ مَنْ يُخَالِطُ الرِّيبَةَ يُوشِكُ أَنْ يَجْسُرَ".[4]

رسّخ الإسلام قواعد صارمة تضمن نجاح المجتمع فيما يتعلق بالقروض دون فائدة وكخدمة مجانية. أما الربح في التجارة فلم يحدده الإسلام.

وهذا ما يوصينا به القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: 30)

جاء رجل ذات مرة فقَالَ: "يَا رَسُولَ اللهِ سَعِّرْ. فَقَالَ: "بَلْ أَدْعُو". ثُمَّ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ سَعِّرْ فَقَالَ: "بَلِ اللهُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ لأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلَمَةٌ".[5] وحذَّر النبي ﷺ أصحابه فقال: "مَنْ دخلَ في شيءٍ من أسعارِ المسلمينَ ليُغْلِيَهُ عليهم فإنَّ حقًّا على اللهِ تبارَك وتعالَى أن يُقعدَهُ بعُظْمٍ من النارِ يومَ القيامةِ".[6]

إعطاء الدِّين الأولوية على الأمور الدنيوية

المبدأ الثاني في التجارة كما شرحه النبي ﷺ لأصحابه هو عدم إهمال الدِّين من خلال الانغماس في الأعمال والتجارة الدنيوية. بل يجب أن يكون لرضا الله الأولوية عندهم على شؤونهم الدنيوية. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة: 10-12)

إن المسلمين الأوائل اتبعوا تلك التعاليم بحذافيرها وأعطوا الأولوية لرضا الله فأثنى الله عليهم في قوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: 38)

فالمال الذي لا يُستخدم بالشكل الصحيح يتسبب بالعذاب الشديد لصاحبه. والإسلام يوازن تماما بين الدِّين والدنيا. كان النبي ﷺ كثيرا ما يتلو آية الدعاء التالية:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: 202) وتقول الآية التي تسبقها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة: 201)

صدَق النبي ﷺ في تصويره واقع الناس حين قال: "تَعِسَ عبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقطيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعطَ لَمْ يَرْضَ". وكذلك حين قال: "لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لابْتَغَى وادِيًا ثالِثًا، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللهُ علَى مَن تابَ".[7]

كان النبي ﷺ ينصح أصحابه فيما يخص متاع الدنيا. وحدث مرة أنه كان يزور السوق مع أصحابه فمروا بِجَدْيٍ ميت أذناه قصيرتان فتناوَلَه فأخذ بأذنه وسأل إنْ كان أحد منهم يريده مقابل دِرهم واحد، فأجابوا أنْ لا مصلحة لهم به لا ميتا ولا حيا إذ إنَّ فيه عيب في أذنيه فقال لهم النبي ﷺ: "فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ".[8]

فما نلاحظه من قوله عليه الصلاة والسلام هو أن كسب الحياة الكريمة ليس محظورا لكن بشرط أن يبقى الهدف الذي نسعى إليه على الدوام هو أن نكون قريبين من الله. إذا كان الأمر كذلك، فإن الله يبارك لنا في تجارتنا ويحثنا على بذل الجهد والعمل الدؤوب. يقول القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة: 199)

وجاء في موضع آخر: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: 11)

كان النبي ﷺ يحب أن يكسب المرء لقمته من عمل يده وعرق جبينه. فكان يقول: "خيرُ الكسبِ كسبُ يدِ العاملِ إذا نصَح (أي أَخْلَص)". وسُئل: أيّ الكسب أطيب؟ قال: عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور". وقال أيضا: "ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ".[9]

كان النبي ﷺ يشجع دائما الناس على العمل بيدهم، ومَرَّ يوما بصاحبه سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فصافحه ثم سأله: "ما هذا الذي أرى بِيدِك؟" فقال له: "أَضْرِبُ بِالْمَرِّ وَالْمِسْحَاةِ فَأُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِي". فقبّل النبي ﷺ يده وقال: "هَذِهِ يَدٌ لا تَمَسُّهَا النَّارُ أَبَدًا".[10]

كان زاهر رضي الله عنه بدويا بسيطا دميم الخلقة وكان يأتي بالهدايا من الريف والنبي ﷺ يعطيه أيضا بعض الهدايا. وذات مرة رآه النبي ﷺ في السوق يبيع بضائع له فوقف وراءه ووضع يديه على عيني زاهر وسأله من أنا فأدرك زاهر أنه لا يمكن أن يكون إلا سيده فأخذ زاهر يلصق ظهره

بصدر النبي والنبي ﷺ يقول: "مَن يشتري العبدَ فقال يا رسولَ اللهِ إذن تجِدَني كاسِدًا فقال النَّبيُّ ﷺ لكنَّك عندَ اللهِ لَسْتَ بكاسِدٍ، أو قال، عندَ اللهِ أنت غالٍ".[11]

آداب التجارة النزيهة

اختار النبي ﷺ مهنة التجارة وهو في شبابه. وشجعه عمه أبو طالب لينضم إلى قافلة تجارية متجهة إلى الشام تملكها أرملة ثرية من مكة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وقال له إنها ستأمنه على بضاعتها إن أراد ذلك، وعلِمت خديجة رضي الله عنها فأرسلت له أنها ستدفع له ضعف الأجر، فسافر النبي ﷺ مع خادمها ميسرة إلى بُصرى، وباع البضاعة وحقق ربحا فاق بكثير ما كانت تحققه من قبل.[12] فأصبح بفضل طبيعته الورعة وصدقه وأمانته ووفائه بالوعد بطل مبادئ التجارة النزيهة.

وعندما أوحي له بالنبوة أعطاه الله من لدنه علما ومعرفة فأقام مبادئ التجارة النزيهة وكان مثالا حيا على تطبيقها أمام العالم من خلال عمله بأوامر القرآن الكريم التي علّمها لأصحابه. وبذلك وضع حجر أساس التجارة الإسلامية الأخلاقية النزيهة.

كان البائعون والمشترون قبل ظهور الإسلام يُسمَّون بالسماسرة فسمّاهم النبي ﷺ بالتجار وأعطى هذه المهنة منزلة كريمة وحرمة، فالتجارة بيع وشراء بربح مبرر. وعلّم أصحابه أن يتصدّقوا ليحموا أنفسهم من الحَلف واللّغو اللذين يحدثان في البيع أثناء عقد الصفقات.[13]

وإلى جانب الصدقة شجعهم النبي ﷺ على الدعاء من أجل نجاح أعمالهم. كان كلّما دخل السوق قال: "بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ السُّوقِ وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُصِيبَ فِيهَا يَمِينًا فَاجِرَةً، أَوْ صَفْقَةً خَاسِرَةً".[14]

قال النبي ﷺ واصفا مكانة التجار الأخلاقيين: "التّاجِرُ الصَّدُوقُ الأمِينُ المُسْلِمُ مَعَ الشُّهَداءِ يَوْمَ القِيامَةِ". وقال أيضا: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ".[15]

عن رفاعة رضي الله عنه قال: "خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ إلى المصلَّى بالمدينةِ بُكرةً وبه ناسٌ منَ التُّجارِ وكانوا يُسمَّونَ السماسرةَ فإذا هم يتبايعون فناداهم يا معشرَ التُّجارِ فلما رفعوا إليه أبصارَهم ومدُّوا إليه أعناقَهم واشرأَبُّوا ولهَوا عما في أيديهم قال ألا إنَّ التُّجَّارِ يُبعثون يومَ القيامةِ فُجَّارًا إلا مَنِ اتَّقى وبرَّ وصدقَ".[16]

وعن صفوان بن أميّة ﵁ قال: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَامَ عُرْفُطَةُ بْنُ نَهِيكٍ التَّمِيمِيُّ، فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَأَهْلَ بَيْتِي مَرْزُوقُونَ مِنْ هَذَا الصَّيْدِ وَلَنَا فِيهِ قَسْمٌ وَبَرَكَةٌ، وَهُوَ مَشْغَلَةٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ، وَلَنَا إِلَيْهِ حَاجَةٌ أَفَتُحِلُّهُ أَمْ تُحَرِّمُهُ؟" فَقَالَ: "أُحِلُّهُ لِأَنَّ اللهَ ﷿ قَدْ أَحَلَّهُ. نِعْمَ الْعَمَلُ، وَاللهُ أَوْلَى بِالْعُذْرِ، قَدْ كَانَتْ قَبْلِي لِلَّهِ رُسُلٌ كُلُّهُمْ يَصْطَادُ أَوْ يَطْلُبُ الصَّيْدَ". [17]

مهنة التجارة المباركة

نصح النبي ﷺ أصحابه أن يمتهنوا التجارة فيكتفوا ذاتيا. وكان يؤمّن لهم رأس المال ويعلّمهم أساليب التجارة. عن أنس بن مالك ﵁ قال إنَّ رجلًا منَ الأنصارِ أتى النَّبيَّ ﷺ يسألُهُ فقال: أما في بيتِكَ شيءٌ. قال: بلى حِلسٌ نلبسُ بعضَهُ ونبسُطُ بعضَهُ وقَعبٌ نشربُ فيهِ منَ الماءِ. قال: ائتني بِهما. قال: فأتاهُ بِهما فأخذَهُما رسولُ اللهِ ﷺ بيدِهِ وقال: من يشتري هذَين؟ قالَ رجلٌ: أنا آخذُهُما بدِرهمٍ. قال: من يزيدُ على درهمٍ؟ مرَّتينِ أو ثلاثًا قالَ رجلٌ: أنا آخذُهُما بدِرهَمين. فأعطاهما إيَّاهُ وأخذَ الدِّرهمينِ وأعطاهما الأنصاريَّ وقال: اشترِ بأحدِهِما طعامًا فانبذهُ إلى أَهْلِكَ واشترِ بالآخرِ قدومًا فأتني بِهِ. فأتاهُ بِهِ فشدَّ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ عودًا بيدِهِ ثمَّ قالَ لَهُ: اذهب فاحتطِب وبع ولَا أرينَّكَ خمسةَ عشرَ يومًا. فذَهَبَ الرَّجلُ يحتطِبُ ويبيعُ فجاءَ وقد أصابَ عشرةَ دراهمَ فاشترى ببعضِها ثوبًا وببعضِها طعامًا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: هذا خيرٌ لَكَ من أن تجيءَ المسألةُ نُكْتةً في وجهِكَ يومَ القيامةِ إنَّ المسألةَ لَا تصلحُ إلَّا لثلاثةٍ لذي فَقرٍ مدقعٍ أو لذي غُرمٍ مُفظعٍ أو لذي دمٍ موجعٍ". [18]

ويقدّم الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﵁ الذي تدرب على يد النبي ﷺ مثالا آخر على قيمة التجارة النزيهة. كان وقت الهجرة تاجرا ثريا من تجار مكة، ووصل إلى المدينة فارغ اليدين بعد أن ترك وراءه منزله وبضائعه في سبيل الدِّين، وجرت مؤاخاته مع أنصاري ثري هو سعد بن ربيع ﵁ الذي أهداه نصف ثروته وأن يطلّق إحدى زوجاته ليتزوجها هو. لكن كرامته وعزة نفسه لم تسمحا له بقبول ذلك العرض وقال إنه لا يحتاج أيا من ذلك. بل سأله الطريق إلى السوق فدله على سوق يهود بني قينقاع. وفي الصباح التالي خرج إلى السوق ثم عاد بجبن وسمن، وبعد بضعة أيام أصبح معه ما يكفي من المال للزواج والمهر. وبناءً على حالته المادية تلك، حثه النبي

ﷺ على أن يقيم وليمة ولو بشاة واحدة.[19]

ومثال عليّ رضي الله عنه جميل جدا. فقد هاجر هو الآخر فارغ اليدين، وبعد غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة بدأ يخطط لزواجه من فاطمة رضي الله عنها بنت الرسول ﷺ الذي أعطاه ناقة. فاتفق عليّ رضي الله عنه مع صائغ من بني قينقاع أن يرافقه فيقطع الخشب ليبيعه لصائغين آخرين.[20] ومع أن هذا المخطط لم ينجح لأسباب مختلفة إلا أن ذلك يبين أن الصحابة بفضل تدريب النبي ﷺ لهم لم يفكروا أبدا أن البحث عن وسائل للعمل بيدهم لكسب عيشهم شيء يحط من كرامتهم.

كان النبي ﷺ ينصح أصحابه بالتجارة بالسلع التي تناسبهم. قال ذات مرة: "لَوْ أَذِنَ اللهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي التِّجَارَةِ لَاتَّجَرُوا فِي الْبَزِّ وَالْعِطْرِ".[21] وكان يحب أن يتاجر بالشياه.

عن أم هانئ رضي الله عنها قالت: "دخل النبي ﷺ فقال: ما لي لا أرى عِندَكِ من البركات شيئا؟ فقلتُ: وأي بركات تُريد؟ قال: إنّ الله ﷻ أنزل بركات ثلاثا: الشاة والنخلة والنار".[22]

كان الأنصار مزارعين ولم يكن لديهم خبرة في التجارة لكنهم طوروا اهتمامهم وفهمهم لها بحكم عيشهم بين يهود بني قينقاع. وشجعهم النبي ﷺ على ذلك. بعث يوما عروة البارقي رضي الله عنه ليشتري له شاة وأعطاه دينارا واحدا، ومن حنكته، ذهب إلى البادية فاستطاع أن يشتري شاتين بدينار، وباع إحداها بدينار ورجع إلى النبي ﷺ بشاة ودينار وقص عليه ما فعله فسرّ النبي ﷺ كثيرا لحنكته ودعا الله أن يبارك له في بيعه، واستجيب دعاؤه حتى أنه كان لو اشترى التراب لربح فيه.[23]

وبعث النبي ﷺ حكيم بن حزام رضي الله عنه ليشتري أُضحية بدينار واحد، فاشترى شاة وباعها بدينارين، ثم اشترى شاة بدينار واحد وعاد إلى النبي ﷺ بدينار وشاة، فطلب منه النبي ﷺ أن يضحي بالشاة ويتصدق بالدينار.[24]

أجر التجارة النزيهة

أكد النبي ﷺ أثناء تدريبه لأصحابه على أهمية النزاهة والعدالة في المعاملات. وروى ذات مرة قصة تاجر غير أمين ومخادع. كان يحمل في سفينة خمرا يبيعها، وكان يغشها فيضيف إليها الماء. وكان لديه قرد، وفي يوم من الأيام أخذ القرد كيس الدنانير وصعد به إلى أعلى السفينة وأخذ يرمي بدينار إلى البحر ودينار إلى السفينة حتى فرغ الكيس، وبهذا أعاد الأرباح التي جناها

التاجر من الماء إلى الماء وأبقى حصة التاجر على السفينة.[25]

وكذلك روى النبي ﷺ: "أنَّ رَجُلًا مِن بَني إسرائيلَ سأَلَ بَعضَ بَني إسرائيلَ أنْ يُسَلِّفَه ألْفَ دينارٍ، قال: ائْتِني بشُهَداءَ أُشْهِدُهم. قال: كَفى باللهِ شَهيدًا. قال: ائْتِني بكَفيلٍ. قال: كَفى باللهِ كَفيلًا. قال: صَدَقتَ. فدَفَعَها إليه إلى أجَلٍ مُسمًّى، فخرَجَ في البَحرِ، فقَضى حاجَتَهُ، ثم التَمَسَ مَرْكَبًا يَقدمُ عليه لِلأجَلِ الذي كان أجَّلَه، فلم يَجِدْ مَركَبًا، فأخَذَ خَشَبةً، فنَقَرَها، وأدخَلَ فيها ألْفَ دينارٍ وصَحيفةً معها إلى صاحِبِها، ثم زجَّجَ مَوضِعَها، ثم أتى بها البَحرَ، ثم قال: اللَّهمَّ إنَّكَ قد علِمتَ أنِّي استَلَفتُ مِن فُلانٍ ألْفَ دينارٍ، فسألَني كَفيلًا، قُلتُ: كَفى باللهِ كَفيلًا، فرَضيَ بكَ، وسألَني شَهيدًا، فقُلتُ: كَفى باللهِ شَهيدًا، فرَضيَ بكَ، وإنِّي قد جَهِدتُ أنْ أجِدَ مَركَبًا أبعَثُ إليه بالذي له، فلم أجِدْ مَركَبًا، وإنِّي استَودَعتُكها. فرَمى بها في البَحرِ حتى ولَجَتْ فيه، ثم انصَرَفَ يَنظُرُ وهو في ذلك يَطلُبُ مَركَبًا يَخرُجُ إلى بَلَدِه. فخرَجَ الرَّجُلُ الذي كان أسلَفَه يَنظُرُ لَعلَّ مَركَبًا يَجيءُ بمالِهِ، فإذا بالخَشَبةِ التي فيها المالُ، فأخَذَها لِأهلِه حَطَبًا، فلمَّا كَسرَها وجَدَ المالَ والصَّحيفةَ، ثم قَدِمَ الرَّجُلُ الذي كان تَسلَّفَ منه، فأتاه بألْفِ دينارٍ، وقال: واللهِ ما زلتُ جاهِدًا في طَلَبِ مَركَبٍ لِآتيكَ بمالِكَ، فما وَجَدتُ مَركَبًا قَبلَ الذي أتَيتُ فيه. قال: هل كُنتَ بعَثتَ إليَّ بشَيءٍ؟ قال: ألم أُخبِرْكَ أنِّي لم أجِدْ مَركَبًا قَبلَ هذا الذي جِئتُ فيه؟ قال: فإنَّ اللهَ قد أدَّى عنكَ الذي بعَثتَ به في الخَشَبةِ، فانصَرِفْ بألْفِكَ راشِدًا".[26]

وقد روى النبي ﷺ قصة أخرى عن تاجر "لم يعمل خيرا قط فكان يُداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسّر واتْرك ما عسر وتجاوزْ لعلَّ الله يتجاوز عنّا. فلمّا هلك قال الله ﷻ له: هل عملتَ خيرا قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أُداين الناس فإذا بعثته يتقاضى قلتُ له خُذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله ﷻ يتجاوز عنا. قال الله ﷻ قد تجاوزتُ عنك".[27]

ممارسة النبي ﷺ النموذجية للتجارة

لم يكتفِ النبي ﷺ بإعطاء النصائح عن التجارة النزيهة بل كان مثالا حيا وعمليا لتعاليمه. فأكد على أهمية كتابة العقود والديون بحضور الشهود: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ (البقرة: 283) وقال أن البيع والشراء من اليد إلى اليد لا يحتاج إلى كتابة، ولم تكن من عادة العرب أن يكتبوا المعاملات ومن أسباب ذلك أن معظم الناس كانوا أميين. فالنبي ﷺ هو الذي بدأ عُرْف

كتابة المعاملات التجارية والإيصالات، وإحدى اتفاقياته المكتوبة محفوظة إلى اليوم وهي إثبات لأول إيصال، وهذا ما جاء في الكتاب: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بْنِ هَوْذَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، اشْتَرَى مِنْهُ عَبْدًا، أَوْ أَمَةً عَلَى أَنْ لَا دَاءَ، وَلَا غَائِلَةَ، وَلَا خِبْثَةَ، بَيْعَ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ". [28]

إن مثل تلك الوثائق تضمن بالطبع وضوح المعاملات والأمانة والثقة فيها. يركّز الإسلام على المعاملات الصادقة والصريحة والعادلة التي تحفظ حقوق الجميع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (الأحزاب: 71)

مبدأ آخر تكلّم عنه النبي ﷺ هو "البَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا". [29]

وكذلك قال النبي ﷺ: "الحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ". [30]

علّم النبي ﷺ الأخلاق العالية وفِعل الخير في التجارة. فقال لأصحابه أن يكيلوا لمصلحة المشتري بحيث لا يُنقِصوه حقه ولا يُخسِروه. وهكذا كان تعامله هو.

عن سويد بن قيس رضي الله عنه قال: "جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَمَةُ الْعَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ فَأَتَيْنَا بِهِ مَكَّةَ فَجَاءَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي فَسَاوَمَنَا بِسَرَاوِيلَ فَبِعْنَاهُ وَثَمَّ رَجُلٌ يَزِنُ بِالأَجْرِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: زِنْ وَأَرْجِحْ". [31] ودعا للتاجر السمح في المعاملات التجارية فقال: "رَحِمَ الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى". [32]

حمى النبي ﷺ جميع التجار وحتى المشركين منهم وحفظ كرامتهم وقال إن الهجوم عليهم هو هجوم على الاقتصاد الوطني. عن جابر رضي الله عنه قال إنهم لم يهاجموا أبدا التجار في عهد الرسول ﷺ. [33]

علّم الرسول ﷺ سر النجاح في المهنة: كان يحب أن يبدأ العمل باكرا. وكان يدعو بهذا الدعاء: "اللّهمَّ بارِك لأمَّتي في بُكورِها" إذا بعث بقافلة أو نوى القيام بأي عملية أخرى. وقال أيضا إن النوم وقت الصباح عائق لكسب العيش. [34]

وقد حقّق تاجر اسمه صخر أرباحا كبيرة إذ كان يرسل القوافل في أول النهار. [35]

عن عبد الله بن أبي ربيعة رضي الله عنه عن أبيه عن جده قال: "اسْتَقْرَضَ مِنِّي النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَجَاءَهُ مَالٌ فَدَفَعَهُ إِلَيَّ، وَقَالَ: "بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ

وَالْأَدَاءُ". [36]

عرَف الرسول ﷺ بأمر رجل لا يُحسن البيع والشراء لأن الناس كانوا يغشونه، فحاول منعه من التجارة. فأخبره الرجل أن التجارة كانت مصدر رزقه، فقال له النبي ﷺ أنه إذا لم يستطع الاستغناء عنها فيجب عليه أن ينبه من يتعامل معه بألا يلجأ للغش والخديعة. [37]

إرشادات في مبادئ التجارة

عرف النبي ﷺ بالنزاعات بين المشترين والبائعين فأصدر التعليمات الآتية: إذا اختلف البَيِّعانِ فالقَولُ قَولُ البائعِ، والمُبتاعُ بالخِيارِ. [38]

وحرّم النبي ﷺ صرّ الماشية أي التوقف عن حلْبها من أجل الحصول على المزيد من المال وأصدر هذا الحكم: يمكن لأي شخص يشتري هذه الماشية أن يعيدها في غضون ثلاثة أيام وأن يعطي البائع صاعا من التمر كتعويض عن الحليب الذي استهلكه خلال هذه الفترة. [39]

كما وضع النبي ﷺ قاعدة مفادها أنه إذا أفلس شخص وعنده بضاعة تاجر ما فإن للتاجر حق عليها. وإذا توفي هذا الشخص، تُقسم البضاعة بالتناسب بين مُقرضيه. [40]

مرّ النبي ﷺ في أحد الأيام أمام كومة من الحبوب. فتلقى وحيا من الله، فوضع يده داخل الكومة فوجد الحبوب مبللة. فسأل التاجر: ما هذا؟ فأجاب: أصابه المطر. فقال له النبي ﷺ أن يجفف الحَب أو أن يجعله فوق الكومة كي يراه الناس. ثم قال: " مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي". [41]

اعتاد بعض الناس الخروج من المدينة مع القوافل التجارية وشراء السلع بثمن رخيص نسبيا. فنهى النبي ﷺ عن بيع الحبوب في نفس المكان وطلب منهم إحضار الحبوب إلى السوق وبيعها فيه، ونصح أيضا بأن يحصلوا أولا على ما اشتروه من حبوب ثم يبيعونها. [42]

وقال أيضا بأن لا يبيع مدني لبدوي، ولا يبيع بعضهم على بيع بعض. [43]

لم يسمح النبي ﷺ ببيعتي الملامسة والمنابذة، وَالْمُنَابَذَةُ أَنْ يَقُولَ إِذَا نَبَذْتُ إِلَيْكَ هَذَا الثَّوْبَ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ وَالْمُلامَسَةُ أَنْ يَمَسَّهُ بِيَدِهِ وَلا يَنْشُرُهُ وَلا يُقَلِّبُهُ فَإِذَا مَسَّهُ وَجَبَ الْبَيْعُ. وبالمثل، منع عقْد الصفقات مُقدّما، فنهى مثلا عن بيع جنين الناقة وهو لا يزال في بطنها. [44]

وبالمثل، لم يسمح ببيع الغرر، فهو احتيال. ومثال على ذلك هو بيع الأسماك التي لم يتم صيدها بعد، أو العبد الهارب، أو الطير في السماء. ونهى أيضا عن البيعتين ببيعة كأن يقول

أبيعُك داري هذه بكذا على أن تبيعني غلامَك بكذا.[45]

ولعن النبي ﷺ "الخمرَ وشاربِها وساقِيَها وبائِعَها ومُبْتَاعَهَا وعاصرَهَا ومُعْتَصِرَها وحامِلَها والمحمولَةَ إليهِ وآكِلَ ثَمَنِها"[46] قال النبي ﷺ: "إِنَّ اللهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ". فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ فَقَالَ: "لا هُوَ حَرَامٌ". ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: "قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ".[47] وحرم النبي ﷺ كذلك بيع البضائع المسروقة والانتفاع بها، كما قال ﷺ: ثمن الحريسة (الشاة المسروقة) حرام وأكلها حرام.[48]

نماذج تجارية رائعة

بلَغ النبي ﷺ أن البعض كان يبيع صاعَي التمر بصاع فقال: "لَا صَاعَيْ تَمْرٍ بِصَاعٍ، وَلَا صَاعَيْ حِنْطَةٍ بِصَاعٍ، وَلَا دِرْهَمًا بِدِرْهَمَيْنِ". وحدث أن جاء بلال ﷺ بصنف ممتاز من التمور يُسمى البَرنيّ. فرآها النبي ﷺ فأدرك أنها ليست محلية فسأله عنها. فقال إنه اشتراها صاعا بصاعين فقال النبي ﷺ: "أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا لَا تَقْرَبْهُ".[49]

عن البراء بن عازب ﷺ قال: "قَدِمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَنَحْنُ نَبِيعُ هَذَا الْبَيْعَ (أي النسيئة أو البيع بتأخير دفع الثمن)، فَقَالَ: "مَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ فَلَا بَأْسَ، وَمَا كَانَ نَسِيئَةً فَهُوَ رِبًا".[50]

بعد إعلانه تحريم الفائدة والاستغلال، أعطى النبي ﷺ بديلا ممتازا في التجارة وهو إمكانية إضافة مبلغ فوق القرض عند سداده شرط ألا تكون هذه الإضافة قد فُرضت أو حُدّدت سلفا. ومثال على ذلك أن النبي ﷺ استلف من رجل جملا صغير السن وعند التقاضي أعطاه النبي ﷺ جملا أكبر وقال: "إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً".[51]

ذات مرة اشترى النبي ﷺ عِجلا من قافلة لكن لم يكن لديه ثمنه. فأُربِح فيه فباعه فتصدّق بالربح على الأرامل، ثم قال: "لا أَشْتَرِي بَعْدَهَا شَيْئًا إِلَّا وَعِنْدِي ثَمَنُهُ".[52]

ويروي ابن عمر ﷺ أنه كان يتاجر في الإبل فيشتري بالدنانير، وهي عملة ذهبية، ويبيع بالدراهم، وهي عملة فضية. فاستفسر من النبي ﷺ فقال له: "لَا بَأْسَ أَنْ تَأْخُذَهَا بِسِعْرِ يَوْمِهَا مَا لَمْ تَفْتَرِقَا وَبَيْنَكُمَا شَيْءٌ".[53]

بعد الهجرة إلى المدينة، كان النبي ﷺ يشتري بنفسه مؤن البيت. عن عائشة رضي الله عنها أن

النبي ﷺ اشترى طعاما من يهودي إلى أجل ورهَنه درعا من حديد.[54]

ذات مرة اشترى النبي ﷺ فرسا من أعرابي فطلب منه مرافقته حتى يعطيه ثمنه. وكان النبي ﷺ يُسرع بينما يتبعه الأعرابي ببطء. فأخذ الناس يَسُومونَه بسعر الفرس وهم لا يعرفون أنه قد بِيع فعرض عليه أحدُهم ثمنا أعلى فجاء الأعرابي إلى النبي ﷺ فقال له إنْ كان ما يزال يريد شراء فرسه فعليه أن يدفع على الفور وإلا فإنه سيبيعه لشخص آخر. فقال له النبي ﷺ: "أَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، مَا بِعْتُكَهُ، فأكد النبي ﷺ أنه قد ابتاعه منه. فطلب الأعرابي شاهدا فتقدم خزيمة بن ثابت رضي الله عنه وشهد أنه قد باعه للنبي ﷺ. فسأله: "لِمَ تَشْهَدُ؟"، قَالَ خزيمة: "بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ".[55]

اشترى النبي ﷺ يوما من أعرابي حِمْلا من ورق الشجر الذي يستخدم كعلف فبعد أن اتفقا، سأل الرسول ﷺ الأعرابي إن كان ما يزال يريد أن يبيعه الحِمل، فالبيع عن تراض، فسُرّ الأعرابي من هذه اللفتة وباعه سلعته.[56] وفي مرة أخرى اشترى بعيرا من أعرابي آخر واتفقا على وَسَق ثمنا له وهو يعادل مائة وستين كيلوغراما من أفضل تمر المدينة. وعندما عاد النبي ﷺ إلى بيته لاحظ أن كمية التمر المطلوبة غير متوفرة لديه فأعلم الأعرابي بما حدث فبدأ يشكو أنه غُدر. فأخذ الناس يذمونه ويقولون له أيغدر رسول الله. فمنعهم النبي ﷺ من ذلك وقال: "دَعُوه فإن لصاحب الحق مقالا". وحين رأى النبي ﷺ أن ما من وسيلة معه بعث أحد أصحابه إلى خويلة بنت حكيم يسألها وسَقا من تمر تسلّفه إياه، فكان كذلك. فطلب من أصحابه أن يدفعوا للأعرابي حقه. فأتى الأعرابي النبي ﷺ فقال: "جزاكَ اللهُ خيرًا؛ فقد أوفيتَ وأطيبتَ". فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "أولئك خِيارُ عِبادِ اللهِ عِندَ اللهِ يومَ القيامةِ المُوفون المطيبونَ".[57]

كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تاجرا ناجحا جدا. سُئل يوما: "ما سبب يسارك؟ قال: ثلاث: "ما رددت ربحا قط، ولا طُلب مني حيوان فأخرتُ بيعَه، ولا بعتُ بِنَسيئة". ويُقال إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عُقُلها باع كل عِقال بدرهم فربح فيها ألفا وربح من نفقته عليها ليومه ألفا".[58]

شهادة من تاجروا مع النبي ﷺ

كان سيدنا الصادق الأمين محمد ﷺ في أمور التجارة قدوة يحتذي بها الصديق والعدو. فقد

أمِنَتْه خديجة رضي الله عنها على تجاراتها وبعثت برفقته إلى الشام خادمها ميسرة. فحقق النبي ﷺ أرباحا كبيرة بفضل نزاهته المهنية، وفي إحدى الصفقات أبى يهودي إلا أن يحلف باللات والعزى. فقال له النبي ﷺ إنه لم يحلف قط بتلك الأوثان ويُعرِض عنها إذا مرَّ بها. فوافقه اليهودي وقال لميسرة: "يَا مَيْسَرَة هَذَا نَبِيٌّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَإِنَّهُ لَهُوَ تَجِدُهُ أَحْبَارُنَا مَنْعُوتًا فِي كُتُبِهِمْ". [59]

رافق خُزيمة قَريب خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ في رحلته إلى الشام فشهد بما رآه من خُلقه العظيم فقال: "يا محمد إنِّي أرى فيك خصالًا وأشهَدُ أنَّك النَّبيُّ الَّذي يخرُجُ من تِهامةَ وقد آمَنْتُ بك فإذا سمِعْتُ بخروجِك أتَيْتُك فأبطَأ عن النَّبيِّ ﷺ حتَّى كان يومُ فتحِ مكَّةَ أتاه فلمَّا رآه قال مرحبًا بالمهاجِرِ الأوَّلِ". [60]

كان النبي ﷺ يحرص حرصا شديدا على الوفاء بالوعد في معاملاته التجارية. يروي عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه أنه تداول مع النبي ﷺ فبقي للنبي ﷺ عليه مبلغا فوعده أنْ سيأتيه به واتفقا على المكان والوقت فنسي عبد الله الموعد وتذكر بعد ثلاثة أيام فذهب إلى المكان نفسه فوجد النبي ﷺ الذي قال له: "يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَا هُنَا مُنْذُ ثَلاثٍ أَنْتَظِرُكَ". [61]

عن السائب بن عبد الله رضي الله عنه أنه جيء به إلى النبي ﷺ يوم فتح مكة جاء به عثمان بن عفان رضي الله عنه وزهير رضي الله عنه فجعلوا يثنون عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: "لَا تُعْلِمُونِي بِهِ قَدْ كَانَ صَاحِبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ". قَالَ: "نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنِعْمَ الصَّاحِبُ كُنْتَ"، فَقَالَ: "يَا سَائِبُ انْظُرْ أَخْلَاقَكَ الَّتِي كُنْتَ تَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاجْعَلْهَا فِي الْإِسْلَامِ، أَقْرِ الضَّيْفَ، وَأَكْرِمِ الْيَتِيمَ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ". وجاء في حديث آخر أن السائب كان شريك النبي ﷺ في التجارة فشهد له يوم فتح مكة فقال: "بأبي أنتَ وأُمِّي! كنتَ شَريكي فنِعمَ الشَّريكُ؛ كنتَ لا تُداري، ولا تُماري". [62]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجارة، باب التوقي في الكيل والوزن.

[2] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجارة، باب التغليظ في الربا.

[3] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجارة، باب التغليظ في الربا.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات. سنن النسائي؛ كتاب الأشربة، باب اجتناب الشبهات.

[5] سنن أبي داؤد؛ كتاب الإجارة، باب فِي التَّسْعِيرِ.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 27، طبعة القاهرة.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

[8] صحيح مسلم ؛كتاب الزهد، باب1.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء4، ص101، طبعة بيروت.

[10] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 3، ص 86، طبعة بيروت.

11مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 161، طبعة القاهرة. البداية والنهاية؛ الجزء 6، ص 53، طبعة بيروت.

12 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 130و154، طبعة بيروت.

[13] سنن أبي داؤد؛ كتاب البيوع، باب فِي التِّجَارَةِ يُخَالِطُهَا الْحَلِفُ وَاللَّغْوُ.

[14] كتاب الدعاء للطبراني؛ الجزء1، ص 252، طبعة بيروت.

[15] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجاره، باب الحث على المكاسب. سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم .

[16] سنن ابن ماجه؛ كتاب التجاره، باب التوقي في التجارة.

[17] مجمع الزوائد؛ الجزء 4، ص 35، طبعة بيروت.

[18] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجاره، باب بيع المزايدة.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب ما قيل في الصواغ.

[21] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 107، طبعة بيروت.

[22] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 113، طبعة بيروت.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر.

[24] سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب 34.

[25] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 306، طبعة القاهرة.

[26] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 348، طبعة القاهرة. صحيح البخاري؛ كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها.

[27] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 361، طبعة القاهرة.

[28] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 18، ص 12، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء4، ص 59، طبعة مصر.

[29] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا.

[30] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

[31] سنن أبي داؤد؛ كتاب البيوع، باب فِي الرُّجْحَانِ فِي الْوَزْنِ وَالْوَزْنِ بِالأَجْرِ.

[32] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف.

[33] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 128، طبعة بيروت.

[34] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 106، طبعة بيروت.

[35] سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة.

[36] سنن النسائي؛ كتاب البيوع، باب الاستقراض.

[37] سنن أبي داؤد؛ كتاب الإجارة، باب فِي الرَّجُلِ يَقُولُ عند الْبَيْعِ "لاَ خِلاَبَةَ".

[38] سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب ما جاء إذا اختلف البيعان.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم وكل محفلة.

[40] سنن أبي داؤد؛ كتاب الاجارة، باب فِي الرَّجُلِ يُفْلِسُ فَيَجِدُ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ بِعَيْنِهِ عِنْدَهُ.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الايمان، باب قَوْلِ النَّبِيِّ – صلى الله تعالى عليه وسلم – « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ». سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان.

[44] سنن أبي داؤد؛ كتاب البيوع، باب فِي بَيْعِ الْغَرَرِ.

[45] سنن الترمذي؛ كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية بيع الغرر. و باب ما جاء في النهي عن بيعتين في بيعة

[46] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 160، طبعة بيروت.

[47] سنن أبي داؤد؛ كتاب الإجارة، باب فِي ثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ.

[48] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 333، طبعة القاهرة. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 164، طبعة بيروت.

[49] سنن النسائي؛ كتاب البيوع، باب بيع التمر بالتمر.

[50] سنن النسائي؛ كتاب البيوع، باب بيع الفضه بالذهب.

[51] سنن النسائي؛ كتاب البيوع، باب استسلاف الحيوان.

[52] سنن أبي داؤد؛ كتاب البيوع، باب فِي التَّشْدِيدِ فِي الدَّيْنِ.

[53] سنن النسائي؛ كتاب البيوع، باب بيع الفضه بالذهب.

[54] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة.

[55] سنن نسائي؛ كتاب البيوع، باب التسهيل فى ترك الاشهاد.

[56] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجارات، باب بيع الخيار.

[57] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 431 و268، طبعة القاهرة.

[58] إحياء علوم الدين للغزالى؛ الجزء 2، ص 80، طبعة بيروت.

[59] الطبقات الكبرىٰ لابن سعد؛ الجزء 1، ص 130 و156، طبعة بيروت.

[60] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 2، ص 281، طبعة بيروت.

[61] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي الْعِدَةِ.

[62] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 425، طبعة القاهرة.

أمثلة رائعة للنبي ﷺ في صِلة الرّحم

صلة الرّحم خُلُق من الأخلاق الكريمة، وكما يقول المثل الفارسي: تأتي عائلة المرء في المقام الأول قبل الآخرين. فمن لا خير فيه لأهله لا خير فيه لأحد، ويقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: 91)

ويأمرنا الله في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (النساء: 2)

إن أحد الأهداف المهمة لمجيء النبي ﷺ هو تحقيق صلة الرحم ودعم حقوق الإنسان. عن عمرو بن عَنْبسة رضي الله عنه قال: " أتيت رسولَ اللهِ ﷺ في أوّلِ ما بُعِثَ وهو بمكةَ وهو حينئذٍ مستخْفٍ، فقلتُ: ما أنتَ؟ قال: أنا نَبِيّ، قلت: وما النبي؟ قال: رسولُ اللهِ. قلت: بم أرسلكَ؟ قال: بأن يُعبد اللهُ وتُكسرَ الأوثانُ وتُوصَل الأرحامُ بالبر والصلة". [1]

والوالدان يشغلان وفقا لتعاليم القرآن أعلى مكانة في صلة الرحم، ثم يأتي بعدهما الأقارب فيوصَلون بحسب درجة قرابتهم، وهم الأبناء، والزوج، والأخ والأخت، والعم والعمة. فالأقارب الأَولى بالإرث هم الأَولى بصلة الرحم، ولقد ركّز النبي ﷺ على أهمية أن نعامل أقاربنا معاملة حسنة، فقال: "إنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرحمنِ فقال اللهُ: مَن وَصَلَكِ وَصَلْتُه، ومن قَطَعَكِ قَطَعْتُه."[2]

في هذه التعاليم رسالة جميلة، فالذى يصل رحمه ينال نِعَمَ وبركات رحمانيةِ الله سبحانه وتعالى. وقال ﷺ أيضا: صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، ومنسأة في الأثر، أي تزيد في العمر.[3] وأضاف: "لا يَدخُل الجنةَ قاطِع".[4]

سأل رجل النبي ﷺ في إحدى المرات "يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي قال: أُمُّكَ قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: أُمُّكَ قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: أُمُّكَ قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: أَبُوكَ."[5] وإن واجبنا تجاه والدينا يستمر حتى بعد موتهما. سأل أحدهم النبي ﷺ إن كان هناك ما يُبَرُّ به الوالدان بعد موتهما فقال: " نَعَم، الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا."[6]

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا ذَبحَ الشّاةَ قال ﷺ: «أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ رضي الله عنها». قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا». [7]

كان النبي ﷺ يقول إن الصدقة على المسكين صدقة واحدة، والصدقة على من تربطنا به صلةُ رحمٍ صدقةٌ وصِلةٌ. [8]

ذات يوم، أَعتقت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها جارية لديها، وعندما سمع النبي ﷺ بذلك قال: "آجَرَكِ اللهُ أَمَا إِنَّكِ لَوْ كُنْتِ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ." [9]

جاء رجل إلى النبي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَبِرَّهَا» [10]، أي سيكون هذا الإحسان سببا لغفران ذنبك.

وقد قال النبي ﷺ في صلة الرحم: "لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، وَلكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا." [11]

وذات مرة قال رجل للنبي ﷺ: "يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إليهم وَيُسِيؤُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عنهمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فقالَ: لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ وَلا يَزَالُ معكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ علَى ذلكَ." [12]

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه أن أمها غير المسلمة شعرت بالوحدة فأتتها إلى المدينة. فسألت أسماء النبي ﷺ هل أَصِلُ أمّي وما زالت على كُفرِها؟ فقال لها نعم صِلِي أمّك. [13]

لقد كان النبي ﷺ مثالا في الإحسان إلى ذي القربى. وحين نزل عليه الوحي أول مرة طمأنته خديجة رضي الله عنها فقالت له: "والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم". [14]

وجاء أحدهم إلى النبي ﷺ فقال إنه راغب في الجهاد لكنه لا يقدر عليه، فسأله النبي ﷺ إن كان بقي له من والديه أحد. فأجاب أن أمه حيّة. فقال له: "فَأَبْلِ اللهَ فِي بِرِّهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ، وَمُعْتَمِرٌ، وَمُجَاهِدٌ، فَإِذَا رَضِيَتْ عَنْكَ أُمُّكَ فَاتَّقِ اللهَ وَبِرَّهَا." [15]

لقد مات والدا الرسول ﷺ وهو صغير السن غير أن قلبه لم يفرغ قط من مشاعر الحب والدعاء لهما، وقد ذهب مرة لزيارة قبر أمه وبكى بحرقة فأبكى الصحابة معه. [16]

وكذلك كان النبي ﷺ يحسن معاملة من ربّوه، فعن أبي الطفيل ﷺ قال: " رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعِرَّانَةِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ أَحْمِلُ عَظْمَ الْجَزُورِ، إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَتْ إِلَى النَّبِي ﷺ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ فَقُلْتُ مَنْ هِيَ فَقَالُوا هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ."[17]

كانت ثُوَيبة جارية أبي لهب قد أرضعت الرسول ﷺ، فكان يكرّمها فيُرسِل لها ثيابا، وبقي يسأل عن أقاربها حتى بعد موتها.[18]

كان مِسطح بن أثاثة وهو قريب أبي بكر ﷺ ممن تكلموا بالإفك ضد عائشة فتعهد أبو بكر أن يمتنع عن دفع النفقة التي كان قد خصصها له فنزلت آية قرآنية تأمر بعدم التعهد في حجب العطاء عن الأقرباء، والعفو عنهم.[19]

وحين أعلن النبي ﷺ عن نبوته عارضه معظم أقربائه فكان يقول: " إِنَّ آلَ أَبِي (يَعْنِي فُلاَنًا) لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، ولَكِنْ لهمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا ببَلَالِهَا. يَعْنِي أَصِلُهَا بصِلَتِهَا."[20]

وكلّما احتاجه أهل مكة ساعدهم النبي ﷺ. فحين أصاب مكة الجوع أتوا إليه باسم القرابة التي بينهم، فدعا النبي ﷺ الله أن ينزّل المطر فيُرفع عنهم الجوع وبعث إليهم مددا من المدينة.[21]

وقت فتح مكة أتى ابن عمِّ النبي أبو سفيان بن الحارث يطلب سماحه، فقد كان من عمره وصديق طفولته، بيد أنه أصبح عدوه اللدود وآذاه إيذاء شديدا بعد أن أعلن الرسول ﷺ نبوته، وكان يقول: لن أؤمن لك أبدا حتى تصعد في سلم إلى السماء فتنزل علينا كتابا وملائكة تشهد بصدقك، وكان يكتب أبياتا بذيئة في النبي ﷺ، ويوم فتحت مكة، كلّمته أم سلمة فيه ليعفو عنه، فلم يُرد النبي ﷺ بادئ الأمر. لكن عندما وصله من أبي سفيان أنه إن لم يأذن له فسيذهب وابنه في الأرض حتى يموتا جوعا وعطشا، رَقَّ لهما النبي ﷺ فأذن لهما بالدخول فأسلما، ومن أبيات الشعر التي قالها أبو سفيان في ذلك اليوم البيت التالي:

هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي

مَعَ اللّهِ مَنْ طَرّدْتُ كُلّ مُطَرّدِ

فضرب النبي ﷺ في صدره بألم وقال أنت طرّدتني كل مطرّد ولم تكترث لصديق الطفولة.[22]

عادى أبو سفيان بن حرب النبي ﷺ طول حياته، وقد كان زعيم مكة وقريب الرسول ﷺ، وترجع قرابتهما إلى أربعة أجيال، وعندما فتحت مكة، أتى به العباس ﷺ إلى النبي فلما رآه

عمر ﵁ غضب وقال للنبي ﷺ دعني أضرب عنقه، فطلب النبي ﷺ من العباس ﵁ أن يغادرا ويعودوا في اليوم التالي. في صباح اليوم التالي قال النبي ﷺ لأبي سفيان: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد، وقال بأنه ما يزال لديه شك في نبوة الرسول ﷺ. ثم أسلم وشهد شهادة الحق، فأعطاه النبي ﷺ الأمان ولمن دخل داره.[23]

وأسلمت أم حكيم رضي الله عنها وهي زوجة عكرمة بن أبي جهل الذي كان زعيما من زعماء مكة. كان عكرمة قد فرّ فتبِعتْه زوجته وردّته وقالت له استأمنت لك محمدا ﷺ فلما حضر أمام النبي استفسر عن ذلك فقال له النبي ﷺ: "نعم إنك آمِن". فقال عكرمة: "قد كنتَ والله فينا تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثًا، وأَبَرُّنَا بِرًّا".[24]

لقد شهد الجميع على صدق الرسول ﷺ وعلى حُسن معاملته للناس. ففي غزوة حنين أُسر بعض أفراد قبيلة هَوازِن. فأتى الرسول وفد منهم يطلب تحرير أسرى الحرب فقالوا: يا رسول الله، إنما في الحظائر (ويقصد الأسرى) عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنَّ يكفلنك، ثم سألوه أن يردّ إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فلبّى النبي ﷺ طلبهم لِما عُرف عنه من رحمة وعفو وكرم وقال: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فهو لكم.[25]

وهكذا كان حُسن معاملة النبي ﷺ لأقاربه مثاليا، وقد شهد له بذلك الأقرباء والغرباء.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 165، طبعة بيروت.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله.

[3] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعلم النسب.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب إثم القاطع.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

[6] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

[7] صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله تعالى عنها.

[8] سنن الترمذي؛ كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة.

[9] سنن أبي داؤد؛ كتاب الزكاة، باب فِي صِلَةِ الرَّحِمِ.

[10] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة، باب مَا جَاءَ فِي بِرِّ الْخَالَةِ.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ.

[12] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 300، طبعة القاهرة.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.

[15] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 255، طبعة بيروت.

[16] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب اسْتِئْذَانِ النَّبِيِّ ﷺ.

[17] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ.

[18] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 8، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور، قوله ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك...﴾.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلالها. صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب مُوَالاَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُقَاطَعَةِ غَيْرِهِمْ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم.

[22] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 400، طبعة بيروت.

[23] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب فتح مكة.

[24] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 290، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 13، ص 543، طبعة مصر.

[25] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 437، طبعة بيروت.

شفقة رسول الله ﷺ بالبشرية

لقد أعلن القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ هو سيد الأنبياء وأن أمته هي خير الأمم، وإن أهم متطلب لبلوغ تلك المكانة هو خدمة البشرية. يقول القرآن الكريم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 111)؛ فبخدمة البشرية يمكن للمسلمين أن يبرهنوا أنهم حقا خير الأمم، وللتأكيد على هذه النقطة قال رسول الله ﷺ: "سيد القوم خادمهم"، وقد عاش طيلة حياته وفق هذا المبدأ مثبتا بذلك أنه سيد البشرية.

قال رسول الله ﷺ: "الدين النصيحة"، فقيل له لِمن؟ فقال: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".[1]

لقد قدم رسول الله ﷺ بتعاليمه الجميلة والشاملة أعظم خدمة للبشرية وأقام حرمة حياة البشر وكرامتهم وممتلكاتهم.[2]

وكان ﷺ يقول: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده".[3]

"الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ."[4]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا سأل النبي ﷺ: يارسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام."[5]

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم." وكذلك روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة."[6]

كان رسول الله ﷺ يساعد دائما الفقراء والمحتاجين ويقول: "من كان في حاجة أخيه كان الله

في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كُربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة."[7]

لقد أحب رسول الله ﷺ خَلق الله منذ نعومة أظفاره وأحب مساعدة الآخر، وقبل نبوته شارك في حلف الفضول الذي كان هدفه الأساسي نصرة المظلوم وقال: "لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت."[8]

وقد شهدت السيدة خديجة رضي الله عنها على أخلاقه الرفيعة عند بدء نزول الوحي عليه فقالت: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتُكسب المعدوم وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق."[9]

إنصاف الرسول ﷺ رجلا من أبي جهل

كان رسول الله ﷺ ينصر المظلوم ضد من يجور. اشترى أبو جهل من الإراشِيّ وهو رجل غريب ابن سبيل إبلا فغلبه على حقه، فسأل القوم عن رجل يأخذ له حقه من أبي جهل فأشاروا له إلى رسول الله ﷺ وهم يهزأون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة، فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال: خُذْ لِي حَقّي مِنْهُ يَرْحَمُك اللّهُ قَالَ انْطَلِقْ إلَيْهِ وَقَامَ مَعَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَلَمّا رَأَوْهُ قَامَ مَعَهُ قَالُوا لِرَجُلِ مِمّنْ مَعَهُمْ اتْبَعْهُ فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُ. وَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ حَتّى جَاءَهُ فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ مُحَمّدٌ فَاخْرُجْ إلَيّ فَخَرَجَ إلَيْهِ وَمَا فِي وَجْهِهِ مِنْ رَائِحَةٍ قَدْ انْتُقِعَ لَوْنُهُ فَقَالَ أَعْطِ هَذَا الرّجُلَ حَقّهُ، قَالَ نَعَمْ لَا تَبْرَحْ حَتّى أُعْطِيَهُ الّذِي لَهُ، فَدَخَلَ فَخَرَجَ إلَيْهِ بِحَقّهِ فَدَفَعَهُ إلَيْهِ، ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَالَ لِلْإِرَاشِيّ الْحَقْ بِشَأْنِك، فَأَقْبَلَ الْإِرَاشِيّ حَتّى وَقَفَ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ فَقَالَ جَزَاهُ اللّهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَاَللّهِ أَخَذَ لِي حَقّي. ثُمّ لَمْ يَلْبَثْ أَبُو جَهْلٍ أَنْ جَاءَ فَقَالُوا لَهُ وَيْلَك مَا لَك؟ وَاَللّهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَنَعْت قَطّ! قَالَ وَيْحَكُمْ! وَاَللّهِ مَا هُوَ إلّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيّ بَابِي، وَسَمِعْت صَوْتَهُ فَمُلِئْتُ رُعْبًا، ثُمّ خَرَجْتُ إلَيْهِ وَإِنّ فَوْقَ رَأْسِهِ لَفَحْلًا مِنْ الْإِبِلِ مَا رَأَيْت مِثْلَ هَامَتِهِ وَلَا قَصَرَتِهِ وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطّ، وَاَللّهِ لَوْ أَبَيْتُ لَأَكَلَنِي.[10]

الشفقة بالأمة

كان قلب رسول الله ﷺ فياضا بالشفقة على أمته؛ فعن عباس بن مرداس السلمي أن النبي ﷺ دعا لأمته عشية عرفة في حجة الوداع بالمغفرة. فأجيب: إني قد غفرت لهم ماخلا الظالم فإني آخذ للمظلوم منه. فقال النبي ﷺ: "أيْ رب إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم"، فلم يُجب عشيته، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل، فضحك رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بأبي أنت وأمي إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها. فما الذي أضحكك؟ أضحك الله سنك. قال: "إن عدو الله إبليس لما علم أن الله ﷻ قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو بالويل والثبور؛ فأضحكني ما رأيت من جزعه".[11]

كان رسول الله ﷺ حريصا على ألا يثقل على أمته حتى في المسائل البسيطة؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت خرج النبي ﷺ من عندي وهو قرير العين طيب النفس ثم رجع إلي وهو حزين. فقلت يا رسول الله خرجت من عندي وأنت قرير العين ورجعت وأنت حزين؟ فقال: "إني دخلت الكعبة، وودت أني لم أكن فعلت؛ إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي". وذلك لوقوعهم في المشقة لقصدهم الاتباع في دخولهم الكعبة وذلك لا يتيسر لغالبهم لكثرة عددهم.[12]

أخّر رسول الله ﷺ ليلة العشاء حتى رقد الناس واستيقظوا ورقدوا واستيقظوا ثم خرج عليهم وقال: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يصلوها هكذا"، أي متأخرة.[13]

وفي مناسبة أخرى قال: "لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ".[14]

وقال ﷺ: "إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمّهِ".[15]

لقد كان رسول الله ﷺ عطوفا على فقراء أمته فكان يضحي يوم العيد بكبشين أقرنين أحدهما عن أمته ممن شهد لله بالتوحيد وشهد له بالبلاغ والآخر عن نفسه وأهل بيته.[16]

شفقته ﷺ بعامة الناس

ما كان رسول الله ﷺ يفوّت فرصة في خدمة البشرية، وكان يضطرب بسماع معاناة أحد بغض النظر عن بلده أو قومه. لما رجع المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة المدينةَ سألهم: "ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟" قال فتية منهم بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قُلَّةً من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها، فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت سوف تعلم يا غُدَرُ إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا. فقال رسول الله ﷺ: "صَدَقَتْ صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟". [17]

وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه إن جاء سائل أو طالب حاجة أن يخبروه بحاجته لنيل الأجر، فقال ﷺ: "اشْفَعُوا وَلْتُؤْجَرُوا وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ". [18]

حث الآخرين على خدمة البشرية

أمر رسول الله ﷺ الآخرين بمساعدة الفقير وطلب منهم إخباره بحاجات المحروم؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دَخَلَ رَجُلٌ الْمَسْجِدَ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ أَنْ يَطْرَحُوا ثِيَابًا فَطَرَحُوا فَأَمَرَ لَهُ مِنْهَا بِثَوْبَيْنِ ثُمَّ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ فَجَاءَ فَطَرَحَ أَحَدَ الثَّوْبَيْنِ فَصَاحَ بِهِ وَقَالَ: "خُذْ ثَوْبَكَ". [19]

وأُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِغُرَمَائِهِ: خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ. [20]

كانت لمعاوية بن الحكم جارية ترعى غنما له، وذات يوم ذهب الذئب بشاة من غنمه فغضب معاوية ولطمها ثم أخبر رسول الله ﷺ بالحادثة وقال: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ فقال رسول الله ﷺ: "ائتني بها" فأتاه بها فقال لها: "أين الله؟" قالت في السماء، قال: "من أنا؟" قالت أنت رسول الله. فقال ﷺ: "أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ". [21]

وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حادثا مهما عن خدمة رسول الله ﷺ الإنسانية

فقال بأن رسول الله ﷺ كان معه عشر دراهم، فاشترى من تاجر قميصا بأربعة دراهم فخرج وهو عليه فإذا رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله اكسني قميصا كساك الله من ثياب الجنة. فنزع القميص فكساه إياه ثم رجع إلى صاحب الحانوت فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم وبقي معه درهمان فإذا هو بجارية في الطريق تبكي فقال: "ما يبكيك؟". قالت: يا رسول الله دفع لي أهلي درهمين أشتري بهما دقيقا فهلكا فدفع النبي ﷺ إليها الدرهمين الباقيين ثم ولت وهي تبكي. فدعاها فقال: "ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين؟"، فقالت: أخاف أن يضربوني فمشى معها إلى أهلها وقال: "أشفقت هذه الجارية أن تضربوها". قال صاحبها: هي حرة لوجه الله لممشاك معها فبشرهم رسول الله ﷺ بالخير وبالجنة وقال: "لقد بارك الله في العشرة كسا الله نبيه قميصا ورجلا من الأنصار قميصا وأعتق منها رقبة وأحمد الله هو الذي رزقنا هذا بقدرته".[22]

أتى رجل فقير النبي ﷺ فقال: هلكتُ! وقعت على أهلي في رمضان. قال رسول الله ﷺ: "أعتق رقبة". قال ليس لي، قال: "فصم شهرين متتابعين". قال لا أستطيع، قال: "فأطعم ستين مسكينا". قال لا أجد. فأُتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر فقال: "أين السائل؟ تصدق بها". قال: على أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منا. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: "فأنتم إذا".[23]

وعن الْمُنْذِرَ بْنَ جَرِيرٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ فَجَاءَ قَوْمٌ عُرَاةً حُفَاةً مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ فَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ و﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. فتصدق الناس من ماهم وبُرِّهم وتمرهم وقال الراوي: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ.[24]

كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على عزة وكرامة الفقير وكان يقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره."[25]

وكان يحض أصحابه على دعوة الفقراء إلى موائدهم ويقول: "شر الطعام طعام الوليمة يُدعى لها

الأغنياء ويترك الفقراء ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله ﷺ."[26]

تحري فرص خدمة الإنسانية

ما كان رسول الله ﷺ يفوت أي فرصة للخدمة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال أن رسول الله ﷺ مر بغلام يسلخ شاة فقال له: "تنح حتى أريك"، فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم فدحس بها حتى توارت إلى الإبط، وقال: "يا غلام هكذا فاسلخ". ثم مضى وصلى للناس ولم يتوضأ.[27]

مساعدة الفقراء في زواجهم

كان رسول الله ﷺ مدركا لحوائج الناس ويساعدهم وكان يتدخل في تزويجهم؛ فعَنْ رَبِيعَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: "كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَزَوَّجُ؟ قُلْتُ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ، مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ. فَأَعْرَضَ عَنِّي فَخَدَمْتُهُ مَا خَدَمْتُهُ ثُمَّ قَالَ لِي الثَّانِيَةَ يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَزَوَّجُ؟ فَقُلْتُ مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ مَا عِنْدِي مَا يُقِيمُ الْمَرْأَةَ وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْكَ شَيْءٌ. فَأَعْرَضَ عَنِّي. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ وَاللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا يُصْلِحُنِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَعْلَمُ مِنِّي، وَاللهِ لَئِنْ قَالَ تَزَوَّجْ لَأَقُولَنَّ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ. قَالَ فَقَالَ: يَا رَبِيعَةُ أَلَا تَزَوَّجُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ. قَالَ: انْطَلِقْ إِلَى آلِ فُلَانٍ، حَيٍّ مِنْ الْأَنْصَارِ وَكَانَ فِيهِمْ تَرَاخٍ عَن النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْ لَهُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فُلَانَةَ، لِامْرَأَةٍ مِنْهُمْ. فَذَهَبْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فُلَانَةَ. فَقَالُوا مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللهِ وَبِرَسُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَا يَرْجِعُ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا بِحَاجَتِهِ. فَزَوَّجُونِي وَأَلْطَفُونِي وَمَا سَأَلُونِي الْبَيِّنَةَ. فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَزِينًا، فَقَالَ لِي: مَا لَكَ يَا رَبِيعَةُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَيْتُ قَوْمًا كِرَامًا فَزَوَّجُونِي وَأَكْرَمُونِي وَأَلْطَفُونِي وَمَا سَأَلُونِي بَيِّنَةً، وَلَيْسَ عِنْدِي صَدَاقٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا بُرَيْدَةُ الْأَسْلَمِيُّ اجْمَعُوا لَهُ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ فَجَمَعُوا لِي وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَخَذْتُ مَا جَمَعُوا لِي فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ، فَقُلْ هَذَا صَدَاقُهَا. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُلْتُ: هَذَا صَدَاقُهَا. فَرَضُوهُ وَقَبِلُوهُ وَقَالُوا كَثِيرٌ طَيِّبٌ. قَالَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَزِينًا، فَقَالَ يَا رَبِيعَةُ مَا

لَكَ حَزِينٌ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَكْرَمَ مِنْهُمْ رَضُوا بِمَا آتَيْتُهُمْ وَأَحْسَنُوا وَقَالُوا كَثِيرًا طَيِّبًا، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أُولِمُ؟ قَالَ يَا بُرَيْدَةُ، اجْمَعُوا لَهُ شَاةً. قَالَ فَجَمَعُوا لِي كَبْشًا عَظِيمًا سَمِينًا، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ اذْهَبْ إِلَى عَائِشَةَ فَقُلْ لَهَا فَلْتَبْعَثْ بِالْمِكْتَلِ الَّذِي فِيهِ الطَّعَامُ. قَالَ فَأَتَيْتُهَا فَقُلْتُ لَهَا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ هَذَا الْمِكْتَلُ فِيهِ تِسْعُ آصُعِ شَعِيرٍ، لَا وَاللهِ إِنْ أَصْبَحَ لَنَا طَعَامٌ غَيْرُهُ، خُذْهُ. فَأَخَذْتُهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ. فَقَالَ اذْهَبْ بِهَذَا إِلَيْهِمْ فَقُلْ لِيُصْبِحْ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْزًا. فَذَهَبْتُ إِلَيْهِمْ وَذَهَبْتُ بِالْكَبْشِ وَمَعِي أُنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ، فَقَالَ لِيُصْبِحْ هَذَا عِنْدَكُمْ خُبْزًا وَهَذَا طَبِيخًا. فَقَالُوا أَمَّا الْخُبْزُ فَسَنَكْفِيكُمُوهُ، وَأَمَّا الْكَبْشُ فَاكْفُونَا أَنْتُمْ. فَأَخَذْنَا الْكَبْشَ أَنَا وَأُنَاسٌ مِنْ أَسْلَمَ، فَذَبَحْنَاهُ وَسَلَخْنَاهُ وَطَبَخْنَاهُ، فَأَصْبَحَ عِنْدَنَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ، فَأَوْلَمْتُ وَدَعَوْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَانِي بَعْدَ ذَلِكَ أَرْضًا وَأَعْطَانِي أَبُو بَكْرٍ أَرْضًا."[28]

"خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا، فَقَالَ حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَعَمْ إِذًا. فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ لَاهَا اللهِ، إِذًا مَا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا جُلَيْبِيبًا وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ. وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْتَمِعُ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ، إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ. فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا. وَقَالَا صَدَقْتِ. فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ قَدْ رَضِيتَهُ فَقَدْ رَضِينَاهُ. قَالَ فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ. فَزَوَّجَهَا". واستُشهد جُليبيب بعد ذلك في غزوة لرسول الله ﷺ ووجدوه قد قُتِل وحوله سبعة من المشركين قد قتلهم.[29]

هدية زواج

ما رد رسول الله ﷺ قط سائلا خالي اليدين إلا وأعطاه شيئا من عنده، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني زوجت ابنتي وإني أحب أن تعينني بشيء فقال: ما عندي من شيء ولكن إذا كان غد فتعال فجئ بقارورة واسعة الرأس وعود شجرة وآية بيني وبينك أني أجيف ناحية الباب، فأتاه بقارورة واسعة الرأس وعود شجرة فجعل يَسْلُتُ العرقَ من ذراعيه حتى امتلأت فقال: "خذ ومر ابنتك إذا أرادت أن تطيب أن تغمس هذا العود في

القارورة وتطيب به". فكانت إذا تطيبت شم أهل المدينة رائحة الطيب فسُموا ببيت الْمُطَيَّبِينَ.[30]

عيادة المرضى

لقد ذكر رسول الله ﷺ حديثا عن ربه تبارك وتعالى يدل على أهمية التعاطف من بني البشر فقال:إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي.[31]

كان رسول الله ﷺ يعود أصحابه ويسألهم عما يشتهونه ويلبيه.[32]

وكان رسول الله ﷺ يقول أن لكل داء دواء، وكان يداوي بعض الأمراض بالصلاة والدعاء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: هَجَّرَ النَّبِيُّ ﷺ -أي بكّر للصلاة- فَهَجَّرْتُ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "اشِكَمَتْ دَرْدْ" -وهي بالفارسية، وتعني: أتشتكي بطنك- قُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شِفَاءً.[33]

كان النبي ﷺ يُرقي بالقرآن وينفث في المرض بالمعوذتين وقد فعل ذلك على نفسه في مرضه الذي توفي فيه، وأحيانا أخرى كان يرقي بسورة الفاتحة.[34]

كان رسول الله ﷺ يتابع ما يقوم به أصحابه من أعمال إنسانية ويشجع على هذه الأعمال؛ فذات مرة سألهم: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟" قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا. قَالَ: "فَمَنْ تبعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟" قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا. قَالَ: "فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟" قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا. قَالَ: "فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟" قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ".[35]

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضا أو أُتي به قال: "أذهِب الباس

رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما."[36]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَارٍ أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ إِلَّا عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ.[37]

لقد نصح رسول الله ﷺ صحابته بعيادة المرضى لأنه حق المسلم على المسلم. ولم يكن هو يعود عِليَة القوم وأسيادهم فقط من أمثال رئيس الأنصار سعد بن عبادة رضي الله عنه أو الصحابي الكبير سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ولكنه عاد أيضا شبابا وأطفالا وأعرابا كما عاد عمه أبو طالب وخادما يهوديا. كان جابر بن عبد الله من الصحابة الشباب وقد استُشهد أبوه في معركة أحد ولكنه دائما ما كان يذكر أنه لما مرض وأغمي عليه عاده رسول الله ﷺ ماشيا مصطحبا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.[38]

كان رسول الله ﷺ يُعنى بالمرضى ويصف لهم العلاج؛ فقد رافق الصحابي كعب بن عجرة رسول الله ﷺ يوم الحديبية مُحرما وكان كثيف الشعر وأصيب بالقمل فلم يستطع حلق شعر رأسه، فمر به رسول الله ﷺ وسأله إن كانت إصابته تؤذيه قائلا: "أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟" فقال كعب نعم. فدعا رسول الله ﷺ الحلاق فحلق له شعره ثم أمره بالفداء.[39]

أحب رسول الله ﷺ العسل وكان يصفه كعلاج؛ فجاءه مرة رجل فقال: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ ﷺ اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلًا فَقَالَ لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ.[40]

عالج رسول الله ﷺ بعض الأمراض بحليب النوق، وقال عن الحبة السوداء إنها شفاء من كل داء إلا من الموت.[41] وكذلك قال ﷺ: "من اصطبح كل يوم سبع تمراتٍ عجوةً لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل."[42]

وكان ﷺ ينصح بتبريد الجسم في حال الحمى فقال: "الحمى من فوح جهنم فأبردوها بالماء."[43]

وعادَ النبي ﷺ رجلا فَقَالَ مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ أَشْتَهِي خُبْزَ بُرٍّ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ خُبْزُ بُرٍّ فَلْيَبْعَثْ إِلَى أَخِيهِ ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِذَا اشْتَهَى مَرِيضُ أَحَدِكُمْ شَيْئًا فَلْيُطْعِمْهُ. ودخل ﷺ على

مريض آخر يعوده فقال: أَتَشْتَهِي شَيْئًا؟ أَتَشْتَهِي كَعْكًا؟ قَالَ نَعَمْ فَطَلَبُوا لَهُ.[44]

وقد نصح رسول الله ﷺ بالإضافة إلى العناية التمريضية بالمريض أن يُغذى تغذية جيدة. وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا كَانَتْ تَأْمُرُ بِالتَّلْبِينِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمَحْزُونِ عَلَى الْهَالِكِ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ التَّلْبِينَةَ تُجِمُّ فُؤَادَ الْمَرِيضِ وَتَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ. والتلبينة حَساء من دقيق أو نُخالة.[45]

وقالت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ أهله الوَعكُ أمر بالحَساء وكان يقول: إِنَّهُ لَيَرْتُو فُؤَادَ الْحَزِينِ وَيَسْرُو عَنْ فُؤَادِ السَّقِيمِ.[46]

إذن لقد كان رسول الله ﷺ أفضل أسوة عملية للشفقة بالإنسانية.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بعدد همه وغمه وحزنه لهذه الأمة.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

[4] سنن ابن ماجة؛ كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله.

[5] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 12، ص 453، طبعة بيروت.

[6] الترغيب والترهيب من الحديث الشريف؛ الجزء 3، ص 265، طبعة بيروت.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

[8] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 133، طبعة بيروت.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ.

[10] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 389، طبعة بيروت.

[11] سنن ابن ماجة؛ كتاب المناسك، باب الدعاء بعرفة.

[12] سنن ابن ماجة؛ كتاب المناسك، باب دخول الكعبة.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب مواقيت الصلاة، باب النوم قبل العشاء لمن غلب.

[14] صحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب السِّوَاكِ.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخفَّ الصلاة عند بكاء الصبي.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين ويذكر سمينين. تحفة الأحوذي؛ كتاب الأضاحي، باب في أضحية بكبشين.

[17] سنن ابن ماجة؛ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا.

[19] سنن أبي داود؛ كتاب الزكاة، باب الرَّجُلِ يَخْرُجُ مِنْ مَالِهِ.

[20] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 58، طبعة القاهرة.

[21] صحيح مسلم؛ كتاب المساجد، باب تَحْرِيمِ الْكَلاَمِ فِي الصَّلاَةِ وَنَسْخِ مَا كَانَ مِنْ إِبَاحَتِهِ.

[22] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 572، طبعة بيروت.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب التبسم والضحك.

[24] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 359، طبعة القاهرة.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الكبر.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله.

[27] سنن ابن ماجة؛ كتاب الذبائح، باب السلخ.

[28] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 58، طبعة القاهرة. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 136، طبعة القاهرة.

[29] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 58، طبعة القاهرة.

[30] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 503، طبعة بيروت.

[31] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ...

[32] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب المريض يشتهي الشيء.

[33] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب الصلاة شفاء.

[34] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات.

[35] صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض.

[37] سنن أبي داود؛ كتاب الجنائز، باب الدُّعَاءِ لِلْمَرِيضِ عِنْدَ الْعِيَادَةِ.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول إني وجع...

[40] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب دواء المبطون.

[41] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب الحبة السوداء.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب الحمى من فيح جهنم.

[44] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب المريض يشتهي الشيء.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب التلبينة للمريض.

[46] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب التلبينة.

رأفة رسول الله ﷺ وشفقته

لقد أشار القرآن الكريم بسمو أخلاق رسول الله ﷺ بالقول:
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 128)

لقد أُعلن في هذه الآية أن النبي ﷺ هو مظهر لصفتي الله تعالى الرءوف والرحيم، وهذا يعني أنه كان شديد المحبة واللطف. لقد كان شديد الحب والتقدير لمخلوقات الله وعلّمَ ذلك أتباعه أيضا.

لقد كان رسول الله ﷺ بنفسه أسوة حسنة في المحبة واللطف، وما كان بغضه ونفوره إلا في سبيل الله (أي على من كانوا يخالفون تعاليم الله تعالى)، وقد أمره الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: 53)

شفقته على الفقراء من صحابته

ما كان رسول الله ﷺ يحب العُسر في الدين؛ فهناك رخَص في الصلاة والصوم عند السفر والمرض، وبعض الناس يطبقون الدين بتزمت دون أن يستفيدوا من تلك الرخص؛ فكان رسول الله ﷺ يقول: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.[1]

ذات مرة سأل حمزة بن عمرو رضي الله عنه الرسول ﷺ بأن لديه القدرة على الصيام في السفر فماذا يأمره رسول الله ﷺ في ذلك. فأخبره النبي ﷺ بأن هناك رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فهذا أمر جيد ولكن إن أحب أحد أن يصوم فليس ذلك بمعصية.[2]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العُري، وقارئ يقرأ علينا القرآن، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ فسلّم ثم قال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا يا رسول الله إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله، فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم، فجلس رسول الله ﷺ وسطنا وطلب منا أن نتحلق وبرزت وجوههم له فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحدا غيري، فقال رسول الله ﷺ: أَبْشِرُوا يَا

مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَاكَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ.[3]

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، حادثا فريدا يدل على شفقة رسول الله على امرأة ضعيفة مجنونة. كانت في المدينة امرأة اسمها أم زُفر، وكانت قبْلها خادمة عند خديجة رضي الله عنها، وأصيبت لاحقا باضطراب في عقلها. فجاءت يوما إلى رسول الله ﷺ وقالت إنها تريد أن تناقشه في مسألة مهمة على انفراد، فقال رسول الله ﷺ لها: يا أم فلان، أيما طريق أو ممر في المدينة اخترتِ جلستُ معك واستمعتُ لك وأجبتُ طلبك. فذهبتْ وجلست مع رسول الله ﷺ في شارع وأخبرته مسألتها، فما برح رسول الله ﷺ ذلك المكان حتى اطمأنت.[4]

العارفون المطلعون على تاريخ تلك الحقبة من الزمن يعلمون حالة العبيد والخادمات في ذلك المجتمع؛ فقد كانوا يعاملون معاملة المواشي. كان في المدينة خادمة سوداء تعاني من الصرع، فأتت تلك المسكينة يوما رسول الله ﷺ وشكت له مرضها وقالت: إني أُصرع وإني أتكشف فادع الله لي، فواساها رسول الله ﷺ أيّما مواساة وقال: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت أصبر ولكن ادع الله أن لا أتكشف. وكان ابن عباس رضي الله عنه يشير إليها ويقول للناس: ألا أريكم امرأة من أهل الجنة؟[5]

مصادقة الفقراء

عن أنس رضي الله عنه أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا كان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه. وكان النبي ﷺ يحبه وكان رجلا دميما، فأتاه النبي ﷺ يوما وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال الرجل أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ وجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله إذا والله تجدني كاسدا؟ فقال النبي ﷺ لكن عند الله لست بكاسد أو قال لكن عند الله أنت غال.[6]

تعامله مع الأعراب

لم تقتصر رأفة وشفقة رسول الله ﷺ على أصحابه والمتسولين والفقراء بل امتدتا إلى الأعراب الأجلاف الغلظ. وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء الأعراب في القرآن الكريم بقوله:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 97)

وغالبا ما كان هؤلاء الأناس غير المتحضرين من البدو يسألون أسئلة غريبة في مجالس رسول الله ﷺ الذي كان يجيبهم بكل أدب. فذات مرة كان النبي ﷺ مشغولا بكلام أصحابه فقاطعه أعرابي وسأله: متى الساعة؟ ولكن أنى لشخص قليل الدراية بالإيمان أن يُفَهَّم جواب هذا السؤال؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث أصحابه، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ فأجاب السائل بأنه لا يزال هنا فقال رسول الله ﷺ: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. وما إن سمع الأعرابي الجواب سأل سؤالا آخر: كيف إضاعتها؟ وهذا دلّ على أنه لم يدرك معنى ضياع الأمانة، وبكل لطف شرح له النبي ﷺ قائلا: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.[7]

ذات مرة قام النبي ﷺ ليؤم الصلاة فجاء أعرابي وتمسك بثوبه وقال إن لدي عمل ما أريدك أن تأتي معي للخارج للقيام به على الفور خشية أن أنسى. فخرج النبي ﷺ معه من المسجد وقضى مطلبه ثم عاد وأمّ الصلاة.[8]

ومع كثرة انشغالاته الدينية كان النبي ﷺ يبذل ما بوسعه لكسب قلوب من أتى من الأعراب لزيارة المدينة. ذات مرة مرض أحد الأعراب فعاده رسول الله ﷺ ليطمئن على صحته وقال له مواسيا: لا بأس، طهورٌ إن شاء الله. فقال الرجل بيأسٍ: قلتَ: طَهور؟! كلا بل هي حُمَّى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور. فقال النبي ﷺ: فنعم إذا. أي إن كان هذا تفكيرك فهذا ما سيحدث.[9]

كان رسول الله ﷺ مشفقا فذهب ليعود ذلك الأعرابي ويطمئن على صحته ويواسيه ويدعو له. ولما لم يُقدّر الرسولَ ﷺ فما رأى النبي ﷺ من المناسب أن يجادله والتزم الصمت بسماع كلامه.

ذات مرة قال رسول الله ﷺ وهو ينقد التكهنات والأفكار الخاطئة: لا عدوى. فقاطعه أعرابي وقال: أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب؟ فأفهمه النبي ﷺ بكل حب وحكمة بقوله: فمن أعدى الأول؟[10] ففي مثل هذه الحال، لم يعنفه على مقاطعة حديثه ولم يصغر منه بل هدأه النبي ﷺ بجواب معقول.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا أهدى الرسول ﷺ ناقة فعوضه النبي ﷺ بستٍ من النوق فتسخطه الأعرابي بأنه لم يعط ما يكفي. فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن فلانا أهدى إلي ناقة وهي ناقتي أعرفها كما أعرف بعض أهلي، ذهبت مني يوم كذا وكذا فعوضته ستا من النوق فظل ساخطا، لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي.[11]

مواساة رجل أسود

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل أسود إلى رسول الله ﷺ يسأله فقال له النبي ﷺ: سل واستفهم، فقال: يا رسول الله فُضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: نعم، ثم قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام. ثم قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلا الله كتب له بها عهد عند الله ومن قال: سبحان الله وبحمده كتب له بها مائة وأربعة وعشرون ألف حسنة. فقال الرجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفد ذلك كله إلا أن يتطاول الله برحمته، ثم تلا النبي ﷺ الآيات الإحدى والعشرين الأولى من سورة الدهر التي ذكر فيها نعيم الجنة. قال الحبشي: وإن عيني لترىا عينك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فاستبكى الحبشي حتى فاضت نفسه. وقال ابن عمر: لقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده.[12]

لقد مكّن رسول الله ﷺ لأحكام الشريعة ولكنه أخذ باليُسر تبعا للمواقف، يقول الله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 186)

وقال رسول الله ﷺ: بشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا.[13]

وقد نصح الأمة بدرء الحدود قدر المستطاع فقال: ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة.[14]

وبذلك أمر بالحيطة وعدم المعاقبة على تجاوز حدود الشرع إذا كان هناك مجرد شك بإثبات الجريمة.

ذات مرة جاء رسول االله ﷺ شخص وأقر بارتكابه الزنا، فأعرض عنه رسول الله ﷺ فلما شهد على نفسه أربع مرات سأله النبي ﷺ: "أبك جنون؟" قال: لا. فأمر أن يُذهب به فيُرجم. فلما وجد مسّ الحجارة حاول الفرار إلا أنه قتل رجما وأحس النبي ﷺ بالشفقة عليه.[15]

وعندما أقرّ شخص آخر بهذه الجريمة قُبض عليه ورُجم فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم.[16]

وفي رواية أخرى عمن حاول الفرار من عقوبة الرجم، ورد أن رسول الله ﷺ لما علم بذلك قال: هلا تركتموه؟[17]

كان النبي ﷺ يتجاوز عن الجرائم التي لا تنتهك حقوق الآخرين وخاصة التي لم يُنص على العقوبة عليها في الشريعة الإسلامية، إذا جاءه مرتكبها وتاب بين يديه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا وقع على امرأته في رمضان فجاء النبي ﷺ وسأله عن الحكم فقال رسول الله ﷺ: أتجد ما تحرر رقبة؟ قال لا. قال: فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين. قال لا. قال: أفتجد ما تطعم به ستين مسكينا؟ قال لا، فأُتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر فأعطاه الرجل وقال له: أطعم هذا عنك. قال: على أحوج منا؟ ما بين لابتيها أهل بيت أحوج منا. فقال له رسول الله ﷺ: فأطعمه أهلك.[18]

واشتكى رجل من الأنصار حتى أُضني فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جاريةُ أحدهم فوقع عليها، فلما عاده رجال قومه أخبرهم بذلك وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا إنه غدا جِلدًا على عظم. فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة. وبذلك طبق عليه الحد الشرعي المتعلق بهذه الجريمة.[19]

وما تلك إلا بعض الأمثلة القليلة على رأفة وشفقة رسولنا الكريم ﷺ. وقد ضمَّنّا بعض الأمثلة الأخرى على رأفته وشفقته تحت عناوين أخرى من كتابنا هذا منها: أمثلة رائعة للنبي ﷺ في صِلة الرّحم، وشفقة رسول الله ﷺ بالبشرية، وحِلمُ رسول الله ﷺ، وحب النبي ﷺ لأصحابه، والنبي ﷺ مثال فريد في العفو ورسول الله ﷺ المربي.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 108، طبعة القاهرة.

[2] صحيح مسلم؛ كتاب الصيام، باب التَّخْيِيرِ فِي الصَّوْمِ وَالْفِطْرِ فِي السَّفَرِ.

[3] سنن أبي داود؛ كتاب العلم، باب فِي الْقَصَصِ.

[4] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 119، طبعة القاهرة. الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 3، ص 119، طبعة بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 8، ، ص 211، طبعة بيروت.

[5] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 2، ص 111، طبعة بيروت.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 161، طبعة القاهرة.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل.

[8] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب فِي الْحِلْمِ وَأَخْلاَقِ النَّبِيِّ.

[9] صحيح البخاري؛كتاب المرضى، باب عيادة الأعراب.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الطب، باب لا عدوى.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 292، طبعة القاهرة.

[12] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 777، طبعة بيروت.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الايمان، باب الدين يسر. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب فِي الأَمْرِ بِالتَّيْسِيرِ وَتَرْكِ التَّنْفِيرِ.

[14] سنن الترمذي؛ كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب الاحكام، باب من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حد. سنن الترمذي؛ كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود. صحيح البخاري؛ كتاب الحدود، باب لا يرجم المجنون والمجنونة.

[16] سنن الترمذي؛ كتاب الحدود، باب ما جاء في المرأة إذا استكرهت على الزنا.

[17] سنن الترمذي؛ كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحد عن المعترف إذا رجع.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب المجامع في رمضان هل يطعم أهله من الكفارة.

[19] سنن أبي داود؛ كتاب الحدود، باب فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى الْمَرِيضِ.

حب النبي ﷺ لأصحابه وعشقهم له ﷺ

ينمو الحب على قاعدتين: الجمال والشعور بالامتنان. للجمال جاذبية تجذب كل من لديه قلب. وكان النبي ﷺ المثل الأعلى للجمال. وهذا ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه عن جماله:

وَأَحسَنُ مِنكَ لَم تَرَ قَطُّ عَيني   وَأَجمَلُ مِنكَ لَم تَلِدِ النِساءُ
خُلِقتَ مُبرَّأً مِن كُلِّ عَيبٍ   كَأَنَّكَ قَد خُلِقتَ كَما تَشاءُ[1]

وقد وُصف أثر هذا الكيان ذو الجمال الفائق خَلقا وخُلقا من قبل محب حقيقي له وهو جابر بن سمرة رضي الله عنه الذي قال: "رأيتُ رسولَ اللهِ في ليلةٍ إِضْحِيانٍ، وعليه حُلَّةٌ حمراءُ، فجعلتُ أنظرُ إليه وإلى القمرِ، فإذا هو عندي أحسنُ من القمرِ".[2]

إن جاذبية وجه النبي ﷺ الجميل فريدة من نوعها لكن جمال خُلُقه كان تاما. وقد قال النبي ﷺ: "إن القلوب جُبِلت على حبِّ مَن أحسنَ إليها".[3]

فبالحب والإحسان كسب النبي ﷺ قلوب أصحابه. وهذه هي المعجزة، فحب هذا المحسن للبشرية نما وأزهر في قلوب أصحابه وقلوب آلاف المخلصين. إن بركات حبه المتفاني جعلته أعز عند أصحابه من أنفسهم. فكانوا مستعدين للموت على أن يُمس هو بالأذى. وإن الأحداث الناجمة عن حب أصحابه العميق له شكّلت فصلا مهما من شخصيته ﷺ وإنها لتسحر القلوب.

حبه لأبي بكر رضي الله عنه

كان أصحاب النبي ﷺ كلهم عزيزين عليه. لكن كان لأبي بكر رضي الله عنه، وهو الأغلى والأعز وصديق الطفولة المخلص، مكانة تفوق مكانة كل من سواه. فإخلاصه التام للنبي ﷺ تجلى في كل خطوة خطاها.

عن عائشة رضي الله عنها أن أحدهم سأل النبي ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قِيلَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، قِيلَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ".[4]

وأحب أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ حبا كبيرا، وحدث في أوائل الإسلام أن أصر أبو بكر رضي الله عنه على أن يُصلّوا علنا في الكعبة رغم أن النبي ﷺ قال له أن عددهم قليل، وبالفعل كانوا لا يتجاوزون الأربعين شخصا، فأقنعه وذهبوا إلى الكعبة وعندما رأى المشركون أبا بكر رضي الله عنه يخطب في الكعبة ضربوه ضربا مبرحا فاحتاج أن يُحمل إلى منزله، كانت حالته يرثى لها. وأول ما قاله حين استعاد الكلام: "ما فعل رسول الله؟".[5]

كان أبو بكر رضي الله عنه مستعدا دائما لحماية النبي ﷺ وكان يحبّه أكثر من نفسه. وبسبب استمرار اضطهاد المشركين للمسلمين في مكة بدأ المسلمون يهاجرون ولم يبق إلا بعض الصحابة، وطلب أبو بكر رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يأذن له بالهجرة فقال: "لَا تَعْجَلْ لَعَلّ اللهَ يَجْعَلُ لَك صَاحِبًا". وبعد ذلك بأيام قليلة بدأ المشركون يتآمرون على قتل النبي ﷺ، فذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه وأخبره أن الله أذن له بالهجرة. كان أبو بكر رضي الله عنه جاهزا وطلب من النبي ﷺ: "فَالصُّحْبَةُ بأَبِي أنْتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ." وقالت ابنته أسماء رضي الله عنها أنه أنفق كل ماله في سبيل الله وادخر مبلغا صغيرا أخذه معه. وأظهر في رحلة الهجرة إخلاصا لا مثيل له في تاريخ البشرية. كان قد جهّز ناقتين لهذه الرحلة وقدّم إحداهما للنبي ﷺ الذي قبل بشرط أن يدفع ثمنها. وخُلّدت تلك الصُّحبة المباركة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40)

وطول الرحلة، أخذ أبو بكر رضي الله عنه -كالجندي المخلص- يحرس النبي ﷺ من كل الجهات إلى أن وصلا إلى المدينة بأمان.[6]

وخلال رحلتهما أدركهما أحد المشركين وهو سُراقة وكان على فرس فلما اقترب منهما بكى أبو بكر رضي الله عنه فسأله النبي ﷺ ما يبكيه فقال: "أما والله ما على نفسي أبكي ولكن أبكي عليك".[7]

وبالإضافة إلى حبّه الكبير للنبي ﷺ كان أبو بكر رضي الله عنه بفراسته يفهم ما لا يفهمه الآخرون. ومثال على ذلك لَمّا نزلت سورة النصر، التي تذكر انتصار الإسلام ودخول الناس في الإسلام أفواجا، وقرأها النبي ﷺ على أصحابه فبكى أبو بكر رضي الله عنه بينما عجب الآخرون من بكائه لأن السورة تبشّرهم بالنصر. لكن أبا بكر رضي الله عنه رأى أنها تحمل أيضا خبر دنو أجل النبي ﷺ. فبكى

لفراق محبوبه. وهذا ما حصل إذ توفي النبي ﷺ بعد ذلك بسنتين.[8]

حبه لعمر رضي الله عنه

لقد عبّر النبي ﷺ عن حبه لِعُمر بعد حبّه لأبي بكر رضي الله عنهما. وكان إسلام عمر رضي الله عنه معجزة من معجزات استجابة دعاء النبي ﷺ. أحبّه النبي ﷺ على ما وهبه الله من قدرات وكان دائما يشجعه، وذات مرة قال عنه: "لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجالٌ يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإنْ يكنْ مِن أمّتي منهم أحدٌ فَعُمَر".[9]

كان عمر رضي الله عنه مخلصا بحق للنبي ﷺ. عن زهرة بن معبد رضي الله عنه قال: "كنّا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، قال: فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي، فقال: الآن يا عمر".[10] فالنبي ﷺ عرف أن عمر رضي الله عنه يحبه أكثر من نفسه قبل أن يعبر له عن شعوره.

من حبه الشديد للنبي ﷺ وهول صدمة خبر وفاته، لم يستطع عمر رضي الله عنه تقبّل الأمر بل لم يصدق أن النبي ﷺ قد مات فعلا، فراح يقول: مَن قال إن محمدا قد مات قطعتُ عنقه.[11]

حبه لعثمان وعلي وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم

كان النبي ﷺ يحبّ عثمان وعليّ رضي الله عنهما حبا خاصا أيضا. فقد زوّج اثنتين من بناته لعثمان رضي الله عنه واحدة تلو الأخرى وقال: "لو كانت عندي ثالثة لزوّجته، فما زوّجته إلا بوحي من السماء".[12]

أما عليّ رضي الله عنه فقد قال له النبي ﷺ: " أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى".[13] كما أنه قال: "من كنتُ مولاه فعَلِيّ مولاه".[14]

أخلص عثمان وعليّ رضي الله عنهما للنبي ﷺ إخلاصا شديدا فاستحق رضي الله عنه لقب "الغني" لإنفاقه السخي في سبيل الله. وأوفده النبي ﷺ إلى قريش في صلح الحديبية وعندما تأخر وأُشيع أنه قُتل، طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يبايعوه على الموت فداء لعثمان رضي الله عنه ووضع النبي ﷺ يده، ووضع الصحابة أيديهم فوق يده، ثم رفع يده الأخرى وقال: "وهذه يد عثمان".

ودخل عليّ رضي الله عنه الإسلام يوم أعلن النبي ﷺ نبوته، فعندما دعا النبي ﷺ عشيرته لقبول

الإسلام، عليّ رضي الله عنه وحده هو الذي قبِل ووعد بمساعدته على صغر سنه وضعفه، وبقي ثابتا على وعده طول حياته. فيوم هجرة الرسول خاطر بحياته إذ نام مكان النبي ﷺ على فراشه.[15]

كان أبو عبيدة رضي الله عنه الملقّب بـ "أمين الأمة" أحد صحابته المخلصين. فكان أحبّ الناس إلى النبي ﷺ بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، واختُبر حبّه للنبي ﷺ في معركة أُحد إذ كان أبوه يقاتل مع المشركين وكان أبو عبيدة كقائد عظيم يتقدم بشجاعة في ساحة المعركة فواجه أباه الذي حاول قتله مرات عدة فلم يتردد في سحق عدو الإسلام وعدو الله ولو كان أباه، فسقط أبوه المشرك وقد قتله ابنه المؤمن بالله الأحد. بارك الله بأمين الأمة الذي لم يوقفه أحد عن خدمة الإسلام، وأنزل الله تعالى هذه الآية يثني فيها على هؤلاء المؤمنين: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: 23)[16]

وفي حديث آخر روى أبو بكر رضي الله عنه فقال: "لما كان يوم أُحد ورُميَ رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلتْ في وجنتيه حلقتان من المغفر فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسانٌ قد أقبَل من قِبل المشرق يطير طيرانا فقلتُ اللهم اجعله طاعة حتى توافَينا إلى رسول الله ﷺ فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر، ألا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ قال أبو بكر فتركته فأخذ أبو عبيدة بِثنيّة إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنيَّة أبي عبيدة ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيَّته الأخرى فسقطت فكان أبو عبيدة في الناس أثْرم".[17] وهكذا تحمّل وجعا شديدا لكنه أنقذ النبي ﷺ وحماه من الهجمات الأخرى. لم يدَع أي فرصة يخدم فيها سيّده تضيع منه.

وكان جعفر رضي الله عنه أيضا من الصحابة المخلصين للنبي ﷺ. حدث ذات مرة نقاش بين زيد وعلي وجعفر رضي الله عنهم حول مَن أحبُّهم إلى النبي ﷺ. وحين سألوا النبي ﷺ أكّد لهم أنه يحبّهم جميعا. فقال: "أمّا أنت يا جعفر فأشبهَ خَلقك خَلقي وأشبهَ خُلقي خُلقك وأنت منّي وشجرتي".[18]

تجعلنا هذه الشهادة نحبّه تلقائيا، وقد استشهد في معركة مؤتة. عن زوجته أسماء رضي الله عنها

قالت إن النبي ﷺ زارها فقال: "ائتيني ببني جعفر. قالت فأتيته بهم فشمّهم وذرفت عيناه فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أَبَلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أُصيبوا هذا اليوم. قالت فقمت أصيح واجتمع إليّ النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال لا تُغفِلوا آل جعفر من أن تَصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شُغِلوا بأمر صاحبهم".[19]

عشق الصحابة لسيدهم ﷺ

تمنى الصحابة الذين شهدوا تلك الأحداث لو كانوا هم المعنيين، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه رأى مشهدا للمقداد بن الأسود رضي الله عنه في غزوة بدر تمنى لو كان مكانه فيحظى بما حظي به المقداد من بِشارة. حدث ذلك حين كان النبي ﷺ يشجع المسلمين على قتال المشركين فقال المقداد رضي الله عنه: "يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا الى برك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولنقاتلن عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك حتى يفتح الله لك".

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: "فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره".[20]

وحظي أبو طلحة رضي الله عنه بحب النبي ﷺ فكان يزوره ويعامل أولاده بكل حب، وكان عند أبي طلحة رضي الله عنه بعض من شَعر النبي ﷺ وقال إن شعرة من شعره أحب إليه من أن يكون له كل ما في الأرض.[21]

يوم أحد، حين كرَّ المشركون كان من بين الصحابة الذين خاطروا بحياتهم والتفّوا حول النبي ﷺ لحمايته أبو طلحة رضي الله عنه، وكان في الأمام والنبي ﷺ مِن خلفِه يسلّمه السهام ويُشرِف فينظر إلى العدو فقال له أبو طلحة رضي الله عنه: "بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصبْك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك".[22]

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه أيضا من أشد المخلصين للنبي ﷺ. كان من عائلة ثرية جدا وعندما قبل الإسلام ترك حياة الترف واختار حياة التقشف. روي عنه ما يلي: "أقبل مصعب بن عمير ذات يوم والنبي ﷺ جالس في أصحابه عليه قطعة نَمِرَة قد وصلها بإهاب قد ردّنه ثم وصله إليها فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة له ليس عندهم ما يغيّرون عنه

فسلم فرد عليه النبي ﷺ وأحسن عليه الثناء وقال: الحمد لله، ليقلِب الدنيا بأهلها، لقد رأيت مصعبا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله". [23]

بعد أن عاد مصعب رضي الله عنه إلى مكة، وهو أول داع للإسلام بعد الهجرة، ذهب قبل كل شيء إلى النبي ﷺ فأخبره بم يجري في المدينة وبأن الإسلام ينتشر بسرعة فسر النبي ﷺ بالخبر وبجهود مصعب رضي الله عنه في الدعوة.

وحين خبرت أمه أنه في مكة ولم يعرج عليها أرسلت إليه تلك الكلمات: "يا عاق! أتقدم بلدا أنا فيه لا تبدأ بي؟". فقال لها: "ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ". [24]

وقُتل مصعب رضي الله عنه في غزوة أحد وهو يحمي لواء الإسلام إلى آخر رمق. وروي أن النبي ﷺ حين انصرف من أُحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 24)، ثم قال: "أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يُسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رَدُّوا عليه". [25]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمه أنس بن النضر رضي الله عنه لم يشارك في غزوة بدر وتأسف على عدم وجوده في أول غزوات المسلمين، ووعد النبي ﷺ أنه إذا تسنت له فرصة القتال في غزوة معه سيشهد الله على شجاعته، وحصل ذلك في أُحد حيث قاتل بكل شجاعة ولما غادر المسلمون مواقعهم قال: "اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به المشركون". فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: "أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد". فمضى فقُتل فما عُرف من شدة ما طعن وجرح بالسيوف والسهام إلى أن تعرّفت عليه أختُه من علامة له على إصبعه. [26]

وكان من بين المخلصين أيضا زعيم الأنصار سعد بن الربيع رضي الله عنه. يوم أحد استشهد سبعون مقاتلا، فأخذ النبي ﷺ يذكر خدمات كل واحد منهم. ثم قال: هل مِن رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات، فإني رأيت الأسِنّة قد أُشرِعت إليه، فذهب أبي

بن كعب ﵁ وقال له النبي ﷺ: إن رأيت سعد بن الربيع فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله كيف تجدك. فنظر فوجده جريحا وبه رمق أي بقية روح. فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات قد طُعنت اثنتي عشرة طعنة، وإني قد أُنفِذَتْ مَقاتِلِي، فأبلغْ رسول الله عني السلام، وقلْ له إنَّ سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنَّا خيرا ما جزِي نبيا عن أمَّته. وأبلغ قومَك عني السلام، وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عُذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عَينٌ تَطْرُف. قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرته خبره. لا بد أن كلام سعد أراح قلب النبي ﷺ، فقال فيه: "رحمه الله نصح لله ولرسوله حيا وميتا".[27]

وهناك زيد بن الدثنة ﵁ الذي ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله انتقاما لأبيه، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس فأخرجوه من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليُقتل: "أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟". قال: "والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي". قال أبو سفيان: "ما رأيت في الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا".[28]

طلبت بعض القبائل من النبي ﷺ أن يرسل إليهم القراء فيعلموهم القرآن وعلوم الدين. فبعث النبي ﷺ سبعين قارئا وكتب لهم كتابا فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فلما نزلوها بعثوا حرام ابن ملحان ﵁ وهو خال أنس بن مالك ﵁ بكتاب رسول الله ﷺ فقتله بنو سليم. ثم خرجوا حتى أحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم، ولما أحاطوا بهم قالوا: "اللهم إنا لا نجد من يبلّغ رسولك عنا السلام غيرك، فأقرِئه منا السلام، اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا". فأخبره جبريل ﵇ بذلك، فقال النبي ﷺ: وعليهم السلام. فقام فخطب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إن إخوانكم قد لقوا المشركين، وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا ورضينا عنه ورضي عنا ربنا".

وذكر أنس ﵁ أنه لم ير النبي ﷺ بمثل حزنه على شهداء بئر معونة، فلمدة ثلاثين يوما راح يرفع يديه في آخر ركعة من الصلاة ويدعو على هذه القبائل التي عصت الله ورسوله، ومن أجل

النصر.[29]

حبّ عشّاقه له ﷺ

وهناك حدثٌ يُظهر حرص الصحابة ﷺ على سلامة النبي ﷺ. عن أبي موسى ﷺ أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فتوقفوا في الطريق وخيّموا في مكان واحد وفي الليل ذهب إلى رسول الله فلم يجده. قال: "فخرجت بارزا أطلبه وإذا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يطلب ما أطلب. فبينا نحن كذلك إذ اتجه إلينا رسول الله ﷺ، فقلنا: "يا رسول الله أنت بأرض حرب ولا نأمن عليك فلولا إذ بدت لك الحاجة قلت لبعض أصحابك فقام معك". فقال رسول الله ﷺ: "إني سمعت هزيزاً كهزيز الرحى أو حنينا كحنين النحل وأتاني آت من ربي ﷻ فخيرني أن يدخل شطر أمتي الجنة وبين شفاعتي لهم فاخترت شفاعتي لهم وعلمت أنها أوسع لهم. فخيرني بأن يدخل ثلث أمتي الجنة وبين الشفاعة لهم فاخترت لهم شفاعتي وعلمت أنها أوسع لهم". فقالا: "يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلنا من أهل شفاعتك". فدعا لهما. ثم إنهما نبّها أصحاب رسول الله وأخبراهم بقول رسول الله. فجعلوا يأتونه ويقولون: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلنا من أهل شفاعتك. فيدعو لهم. فلما أضب عليه القوم وكثروا قال رسول الله ﷺ: "إنها لِمَن مات وهو يشهد أن لا إله الا الله".[30]

جاء عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ يوم الحديبية موفدا من قريش. وكان المغيرة بن شعبة ﷺ واقفا بالقرب من النبي ﷺ يحمل سيفه حماية للنبي ﷺ. وكما تقتضيه العادات والتقاليد العربية في التفاوض أمسك عروة بلحية النبي ﷺ كلما كان يطلب منه طلبا، لكن الصحابي لم يتحمل أن يلمس مشرك لحية النبي ﷺ. فكلما مد عروة يده يريد الوصول إلى لحية النبي ﷺ أبعدها المغيرة ﷺ بنعل سيفه وقال: أخِّرْ يدَك عن لِحْيَة رسول الله! فرفع عروة رأسه فقال من هذا؟ قالوا المغيرة بن شعبة.[31] مع أن عروة كان عمَّ المغيرة وكان له فضل عليه إذ كان ما زال يسعى في دفع فدية أناس قتلهم المغيرة في الجاهلية، ولكن حبه لرسول الله ﷺ كان أعظم.

كان النبي ﷺ عند أصحابه أعز من أصدقائهم وأهلهم، وهذا ما شهده عروة الذي أخذ يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، فقال لقريش عند عودته من المفاوضات: أيْ قَوْمِ، واللهِ لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ على قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ

أَصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا؛ واللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بِهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ على وَضُوئِهِ، وإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإِنَّه قدْ عَرَضَ علَيْكُم خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا".[32] لقد صعق زعيم قريش المشرك بعظمة حب الصحابة للنبي ﷺ.

إن أبا أيوب الأنصاري ﷺ صحابي آخر أحسن في إخلاصه للنبي ﷺ. نزل النبي ﷺ في منزله لمدة ستة أو سبعة أشهر، فقام بواجب ضيافته على أكمل وجه، فكان يطلب تحضير الطعام ويبعث به إلى النبي ﷺ، وعندما يعود إليه ما تبقى كان ينظر في الطعام فيضع أصابعه حيث أثر أصابع النبي ﷺ ويأكل منه، حتى كان طعام فيه ثوم، فلم يأكل منه النبي ﷺ، فاستفسر النبي ﷺ فقال إنه لا يحبه. فقال أبو أيوب ﷺ: "فإِنِّي أَكْرَهُ ما تَكْرَهُ".[33]

حبُّ الرسول ﷺ يفوق حُبَّ الأب والأمّ

وزيد بن حارثة ﷺ صحابي آخر كان متيّما في حب النبي ﷺ. أغارت قبيلة على قوم أهله فأُخذ وما زال يافعا وبِيع في سوق العبيد فاشتراه قريبُ خديجة رضي الله عنها فأصبح خادمها، ولما تزوجها النبي ﷺ وهبته له فأعتقه وتبناه، ولقِّب بـ "حِبِّ رسول الله" من شدة ما أحبه النبي ﷺ، ولما علم أهل زيد بمكانه أتى أبوه وعمه يستعيدانه فخيّره النبي ﷺ فقال زيد: "ما أنا بالذي أختار عليك أحدا، أنت مني بمكان الأب والأم"، فلما رأى رسول الله ذلك قال: "يا من حضر، اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني". فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام.[34]

حين وصل النبي ﷺ إلى المدينة بعد الهجرة من مكة، احتاج إلى من يعينه. فقدمت أم سُليم رضي الله عنها وأبو طلحة ﷺ ابنهما أنس خادما له.[35]

فكان النبي ﷺ يناديه بـ "يا بني"، وأحيانا بـ "يا أُنَيس" للتدليل، وكان يمازحه أحيانا أخرى فيقول له "يا ذا الأذنين".[36]

ودعا له النبي ﷺ فقال: "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته".[37]

عُرف أنس ﷺ بـ "خادم الرسول" وكان يتشرف بهذه اللقب لأن ما من مكانة أشرف للمرء من أن يكون خادما للنبي ﷺ، فاستحق لخدمته تلك ثواب الدنيا والآخرة.

أحب أنس رضي الله عنه النبي ﷺ حبا جما، واحتفظ بشعرة من شعره وبعصا له وطلب أن تدفن العصا معه بعد وفاته وأن توضع شعرة النبي تحت لسانه. من شدة حبه للنبي ﷺ لم يستطع أن يفارق أشياءه. كان أنس رضي الله عنه قرة عين النبي ﷺ والنبي ﷺ نور عينيه. فكان يرى سيده في المنام وحين كان يتكلم عن النبي ﷺ كان المستمعون يتصورون المشهد وكأنما يرونه حقا.

كان أسامة رضي الله عنه ابن "زيد الحُب" أو "حِب رسول الله". وكان النبي ﷺ يقول أسامة الأحب إليَّ بعد ابنتي فاطمة. وعن أسامة رضي الله عنه قال أن النبي ﷺ كان يأخذه والحسن فيقول: "اللهم أحبهما فإني أحبهما".[38]

وفي مرضه الأخير، سلَّم النبي ﷺ أسامة رضي الله عنه رغم صغر سنه قيادة الجيش لقتال الروم.[39] وروى أسامة لما أتى النبي ﷺ يودعه: "دخلت على رسول الله ﷺ، وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليَّ، فأعرف أنه يدعو لي". يظهر من ذلك حب النبي ﷺ لأسامة رضي الله عنه فكان يدعو له وهو على فراش الموت وأودعه في حفظ الله.

شوق الأنصار لخدمة الرسول ﷺ وحبه لهم

وفي معركة مؤتة التي قُتل فيها زيد والد أسامة رضي الله عنهما، رأى النبي ﷺ أخت أسامة تبكي فأخذ يبكي هو الآخر. فسأله سعد بن عبادة رضي الله عنه: "أتبكي؟". فقال: "نعم، هذه رحمة". وكان ثوبان رضي الله عنه صحابيا مخلصا للنبي ﷺ، وقد أتى النبي ﷺ ذات مرة وهو يبكي وقال: "يا رَسُولَ اللهِ، كيفَ تَرَى في رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فبشّره النبي ﷺ فقال: "المَرْءُ مع مَن أَحَبَّ".[40]

وعن ربيعة الأسلمي رضي الله عنه قال: "كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: سَلْ. فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ. قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ".[41]

وعن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه قال: "أمر أبي بخزيرة -وهو حساء من دسم- فصُنعت ثم أمرني فأتيت بها رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا جابر، ألحم ذا؟ فقلتُ: لا يا رسول الله، ولكن أبي أمر بخزيرة وأمرني أن آتيك بها، فأخذها. ثم أتيت رسول الله ﷺ قال: ألحم ذا يا جابر فقلت لا يا رسول الله. فقال أبي: عسى أن يكون رسول الله ﷺ اشتهى اللحم فقام إلى

داجن له فأمر بها فذبحت ثم أمر بها فشويت ثم أمرني فحملتها إلى رسول الله ﷺ فأتيته وهو في مجلسه فقال: جزاكم الله معشر الأنصار خيرا ولا سيما آل عمرو ابن حرام". [42]

استشهد عبد الله الأنصاري يوم أُحد وهو والد جابر رضي الله عنهما وترك ست بنات وترك على عاتق ابنه دَينا كثيرا، فأعانه النبي ﷺ وبفضل دعائه استطاع جابر أن يسدد دينه. [43]

غزا جابر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ فتعب بعيره فرفض أن يسير فدعا له النبي ﷺ فأسرع في السير، فقال النبي ﷺ: " كيف ترى بعيرك؟" قال: "بخير قد أصابته بركتك". [44]

عن جابر رضي الله عنه قال: "إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال: أنا نازل. ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا. فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئا ما كان في ذلك صبر. فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناق (أي ماعز تسمنها). فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج فقلت: طُعيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له. قال: كثير طيب. قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة". [45]

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فرأيته متغيرا فقلتُ: بأبي أنت، ما لي أراك متغيرا؟ قال: ما دخل جوفي ما يدخل جوف ذات كبد منذ ثلاث. فذهبتُ فإذا يهودي يسقي إبلا له فسقيتُ له على كل دلو بتمرة فجمعتُ تمرا فأتيت به النبي ﷺ فقال: من أين لك يا كعب؟ فأخبرته، فقال: أتحبني يا كعب؟ قلت: بأبي أنت، نعم. قال: "إن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى معادنه وإنه سيصيبك بلاء فأعد له تجفافا".

بعد ذلك فقده النبي ﷺ بضعة أيام فقال: ما فعل كعب؟ قالوا: مريض. فخرج يمشي حتى

دخل عليه، فقال: أبشر يا كعب![46]

وذكر سعد بن خيثمة رضي الله عنه تخلفه عن رسول الله في تبوك وكيف لحق بحبيبه فقال: "تخلفتُ عن رسول الله ﷺ فدخلتُ حائطا فرأيتُ عريشا قد رش بالماء ورأيتُ زوجتي فقلتُ: ما هذا بالإنصاف، إن رسول الله في السموم والحميم وأنا في الظل والنعيم. فقمت إلى ناضح فاحتقبته وإلى ثمرات فتزودتها فنادت زوجتي إليّ: أين يا أبا خيثمة؟ فخرجت أريد رسول الله. فلما طلعتُ على العسكر فرآني الناس فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة". فجئتُ، فقلتُ: كدت أهلك يا رسول الله فحدثته حديثي فقال لي رسول الله ﷺ: "خيرا"، ودعا لي.[47]

إن حب النبي ﷺ من الإيمان، ولم تكن الصحابيات أقل إخلاصا للنبي ﷺ. فقد أولَينَ اهتماما كبيرا لظروف النبي ﷺ وأمَّنَّ له احتياجاته.

إخلاص الصحابيات له ﷺ

ومَن أكثر حبا للنبي ﷺ من زوجته عائشة رضي الله عنها؟ عن مسروق رضي الله عنه، قال: "دخلت على عائشة، فدعت لي بطعام فقالت: ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق عليها رسول اللّه ﷺ الدنيا، واللّه ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم".[48]

عن عمران بن زيد المدني حدثني والدي قال: "دخلنا على عائشة رضي الله عنها فقلنا سلام عليك يا أمّه فقالت وعليك السلام ثم بكت فقلنا ما بكاؤك يا أمّه؟ قالت بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواء يمرئه فذكرت نبيكم ﷺ فذاك الذي أبكاني خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر فذاك الذي أبكاني".[49]

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها فلبسها فرآها عليه رجل من الصحابة. فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها. فقال: نعم. فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئا فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لَعلِّي أُكفن فيها.[50]

كان النبي ﷺ إذا مر ببيت أم سُليم دخل وسلَّم عليها، ويوم زواج زينب رضي الله عنها أهدته أم سُليم تمرا وسمنا وأَقِطا فأقام النبي ﷺ وليمة ودعا الناس فأكل جميعهم.[51]

قالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه فإن لي غلاما نجارا؟ قال: إنْ شئتِ، فعملت المنبر.[52]

لما كان يوم أُحد خاض أهل المدينة خيضة وقالوا: قُتل محمد! حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة. فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستُقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها، فلما مرّت على أحدهم، قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجك، ابنك. تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ يقولون: أمامك. حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا أبالي إذ سلمت من عطب".[53]

إذن، كان الصغير والكبير نساءً ورجالا يعشقون النبي ﷺ لحسن خلقه. أقرّ العالم بذلك وسيظل يقدّره.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] معجم أعلام شعراء المدح النبوي، الجزء 1، ص118.

[2] سنن الترمذي؛ كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال.

[3] الكامل لابن عدي؛ الجزء 2، ص 286، طبعة بيروت.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ (لو كنت متخذا خليلا). صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل. صحيح ابن حبان؛ الجزء 15، ص 459، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت.

[5] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 138، طبعة بيروت.

[6] السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 199، طبعة بيروت.

[7] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 2، طبعة القاهرة.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 336، طبعة القاهرة.

[11] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ما جاء في وفاة رسول الله ﷺ.

[12] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 597، طبعة بيروت.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة.

[14] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[15] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 181، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 13، ص 128، طبعة مصر.

[16] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 1، ص 154، طبعة بيروت.

[17] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 410، طبعة بيروت.

[18] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 204، طبعة القاهرة.

[19] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 370، طبعة القاهرة.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى.

[21] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 505، طبعة بيروت.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله﴾.

[23] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 116، طبعة بيروت.

[24] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 119، طبعة بيروت.

[25] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 789، طبعة بيروت.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

[27] السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 150، طبعة بيروت.

[28] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 466، طبعة بيروت.

[29] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 470، طبعة بيروت.

[30] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 415، طبعة القاهرة.

[31] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[32] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[33] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب إِبَاحَةِ أَكْلِ الثُّومِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِى لِمَنْ أَرَادَ خِطَابَ الْكِبَارِ. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء5، ص 415، طبعة القاهرة.

[34] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 40-42، طبعة بيروت.

[35] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى ﴿ وصل عليهم﴾ (التوبة: 103).

[36] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المزاح.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى' ﴿ وصل عليهم﴾ (التوبة: 103).

[38] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد ﵁.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷻ.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب فَضْلِ السُّجُودِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ.

[42] دلائل النبوة لأبي نعيم؛ الجزء 1، ص 48، طبعة بيروت.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما...

[44] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب استئذان الرجل الإمام.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[46] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 565، طبعة بيروت.

[47] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 285، طبعة بيروت.

[48] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 565، طبعة بيروت.

[49] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 406، طبعة بيروت.

[50] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

[51] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب الهدية للعروس.

[52] صحيح البخاري؛ أبواب المساجد، باب الاستعانة بالنجار والصناع في أعواد المنبر والمسجد.

[53] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 165، طبعة بيروت.

رسول الله ﷺ داعيا إلى الله

إن دعوة الناس إلى الله واجب مهم من واجبات محمد المصطفى ﷺ كونه رسولا ونبيا، ويذكر القرآن صفة الداعي في الآية التالية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ (الأحزاب: 47)

إن النبي محمد ﷺ هو أفضل البشر إذ إنه لم يدعُ فقط الناس إلى الله بل وعمل هو نفسه بأوامر الله فأثبت للعالم أنه أفضل الطائعين، وامتثل امتثالا كاملا لأمر الله أن ﴿بَلِّغْ﴾. فدعا الناس إلى الله خفية وجهرة، في الليل والنهار.

وإن خوفه على الناس وتفطر قلبه حزنا وألما على حالهم هو ما دفعه لأن يبلّغ كل واحد منهم رسالة الإسلام، فبلّغ الفقير والمعدَم كما بلغ الملك والزعيم، ولم تُرهبه أو تُثْنه عن ذلك لا سُلطتهم ولا عظمتهم الملَكية، فما فتئ يعلّمهم تعاليم القرآن بصبر وحكمة.

ولقد قال النبي ﷺ عن هذه المهمة السامية: "إنَّما أنا مُبَلِّغٌ واللهُ يَهْدي، وقاسِمٌ واللهُ يُعْطي، فمَن بلَغَه مِنِّي شَيءٌ بحُسنِ رَغبةٍ وحُسنِ هَدْيٍ، فإنَّ ذلك الذي يُبارَكُ له فيه."[1]

يمكن أن نقدّر الشغف الذي كان يحرك قلب النبي ﷺ لدعوة الناس إلى الله وحرصه على هداية البشرية في قوله: "إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا، فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الفَراشُ وهذِه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وهُمْ يَقْتَحِمُونَ فيها."[2]

ولتبليغ دعوة الله اتّبع النبي ﷺ الحكمة، فكلّم الناس بلطف ودعاهم بالموعظة الحسنة إلى رسالة الإسلام الجميلة، وبشَّرهم بالخير والبركات وحذَّرهم من عذاب الله وأثبت صدق قوله بتواضع ولطف.

وإحدى القواعد التي كان يتّبعها والتي تدل على تبصّره وحكمته أنه كان يتحدث أولا عن القيم المشتركة بين الناس، وكان يعطي دائما الأولوية لرسالة التوحيد، وكلما احتاج الأمر سعى إلى كسب قلوب الناس. لكنه واجه في مهمته الصعوبات والمحن، فشُتم وضُرب، إلا أنه بقي صابرا. فمن بداية دعوته إلى آخر يوم من حياته ما انقطع عن وعظ الناس وما قصَّر في أداء واجبه.

وبهداية من الله كان يتجنب الوثنيين والجاهلين الأشد عداءً، وكان يتجنب الاشتباك في النقاش فكان يضع حدا للحوار وينصح الحاضرين بمناقشة المشاكل بِوُد ولُطف، وكان لا يحكم على أحد بقسوة إلا في حال تجاوز الخصم حدوده. كان أساسيا بالنسبة له أن تبلّغ الرسالة بالحُجة والعقل كما أمره الله تعالى، فلم يُجبر أحدا قط على قبول وجهة نظره. وكان يقول إن الله بعثه مبلّغا لا متعنّتا.[3]

كان النبي ﷺ يدعو لمن بلّغهم رسالته ولمن ساعدوه ودعموه في مهمته، فبعد أن تدربوا على يده قام هؤلاء بتبليغ الآخرين، ودَرّبوا بدورهم دعاة آخرين إلى الله.

التبليغ الفردي

إن الحكمة أحد المبادئ الأساسية في الدعوة. والنبي ﷺ كان أفضل مثال للحكمة، إذ هداه الله في كل خطوة وعلّمه الحكمة الضرورية للدعوة، فعمل وفقا لهذه المبادئ، فكانت أخلاقه وخصاله الانعكاس التام لتعاليم القرآن الكريم. في البداية، كان التبليغ فرديا للاحتراز، فقام النبي ﷺ خلال السنوات الثلاث الأولى بالتبليغ الفردي والسري، وبهذه الطريقة قبِل أفراد أسرته خديجة رضي الله عنها وعليّ رضي الله عنه وصديقه الحميم أبو بكر رضي الله عنه وزيد رضي الله عنه الإسلام.

وقد روى إسماعيل بن إياس عن جدّه بعض التفاصيل عن الفترة الأولى تلك، فعن عفيف رضي الله عنه قال: "كنتُ امرأً تاجرا فقدِمتُ مِنى أيام الحج وكان العباس بن عبد المطلب امرأً تاجرا فأتيتُه أبتاع منه وأبيعه، قال: فبَينا نحن إذ خرج رجل من خباء (خيمة) يصلي، فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلي، وخرج غلام فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما ندري ما هو؟ فقال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله تبارك وتعالى أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه آمن به، فقال عفيف رضي الله عنه: فليتني كنت آمنت به يومئذ، فكنت أكون ثالثا".[4] لكن هذا الشرف كان لأبي بكر رضي الله عنه.

عندما يؤيد الله رسله استجابة لدعائهم فإنه يمنحهم صحابةً ومؤيدين مخلصين، فالله ألهم قلب أبي بكر الورع فسأل النبيَ ﷺ عن دعوته.

أول فضل للدعوة إلى الله

عن ابن إِسْحَاق أنه قال: "ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَحَقٌّ مَا تَقُولُ قُرَيْشٌ يَا مُحَمَّدُ؟ مِن تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آبائنا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "بَلَى إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّهُ، بَعَثَنِي لِأُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ وَأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ بِالْحَقِّ، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَلْحَقُّ، أَدْعُوكَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تَعْبُدْ غَيْرَهُ، وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ". ثم قرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم.

فقبل أبو بكر رضي الله عنه الإسلام وعبّر عن كرهه ورفضه للأوثان، ولم يطلب أي دليل على صدق دعوة النبي ﷺ. ولهذا كان النبي ﷺ يقول: " مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ عَنْهُ كَبْوَةٌ وَتَرَدُّدٌ وَنَظَرٌ، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ مَا عَتَّمَ حِيْنَ ذَكَرْتُهُ لَهُ مَا تَرَدَّدَ فِيْهِ."[5]

وقد وصفه مولانا جلال الدين الرومي بشكل جميل حين قال: "لكن ذلك الصدّيق الحق لم يطلب معجزة، بل قال: حريٌّ بهذا الوجه ألا يقول غير الصدق."

ثم دخل زيد بن حارثة رضي الله عنه الإسلام فأصبح عدد المسلمين أربعة أشخاص. حينها لم تكن الدعوة الجهرية قد بدأت بعد.

تبليغ تدريجي

عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: "أتيتُ رسول اللهِ ﷺ في أوّلِ ما بُعِثَ وهو بمكةَ وهو حينئذٍ مستخفِي، فقلتُ: ما أنتَ؟ قال: أنا نَبِيّ، قلت: وما نبي؟ قال: رسولُ اللهِ. قلت: آللهُ أرسلكَ؟ قال: نعم. قلت: بِمَ أرسلك؟ قال: بأن يُعبد اللهُ، وتُكسرَ الأديانُ والأوثانُ، وتُوصَل الأرحامُ. قلت: نِعم ما أرسلكَ بهِ. قلت: فمن تَبِعَكَ على هذا؟ قال: عبدٌ وحُرٌّ، يعني: أبا بكر وبلالا" (هنا ذكر النبي من أسلموا من خارج عائلته) فلم يذكر زوجته خديجة رضي الله عنها ولا عليّا رضي الله عنه الذي كان شابا صغيرا. وأسلم عمرو. وقال إنه ربما يكون رابع رجل يدخل الإسلام. ثم سأل النبي ﷺ هل يبقى في مكة يتبع تعاليمه. فقال له النبي ﷺ أن يعود إلى قومه حتى يسمع بهجرته فيلحق به.[6]

وفعل عمرو بن عنبسة رضي الله عنه ما أمره النبي ﷺ. فعاش في قومه وثبت على الإسلام. وبعد هجرة

الرسول ﷺ رحل إلى المدينة ليكون في صحبته.

في بداياته، كان التبليغ تدريجيا. عن عائشة رضي الله عنها قالت إن السوَر التي نزلت على النبي في البداية كانت طويلة نسبيا وكان فيها وصف للجنة والنار، وعندما دخل عدد كبير في الإسلام نزلت التعاليم المتعلقة بالحلال والحرام، فلو أمر النبي ﷺ الناس في بداية دعوته أن يمتنعوا عن الزنا وشرب الخمر والسرقة لرفضوا الطاعة والامتناع عن تلك الأشياء.[7]

كان من الضروري البدء أولا بإعلان التوحيد ونبوة الرسول ﷺ، وعندما نزلت التعاليم الأخرى دعت الناس تدريجيا إلى الأخلاق الحميدة، وهكذا تلقوا التعاليم شيئا فشيئا.

الانتشار تحت غطاء السرية

في البداية، نشر النبي ﷺ دعوته بشكل فردي وسري، وبعد أن قبل أبو بكر رضي الله عنه الإسلام بدأ يبلّغ ذوي الثقة من قبيلته ونجح في ذلك، وهكذا بدأت الدعوة تنتشر، فقبل بعض شباب قريش الإسلام على يد أبي بكر رضي الله عنه فظهرت بصمة ورعه فيهم، ومنهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، وبشرهم النبي ﷺ بالجنة، ودخل الإسلام في تلك الفترة بلال رضي الله عنه وبعض العبيد الآخرين.

بداية التبليغ العلني للأقرباء

بعد ثلاث سنوات نزل الأمر التالي: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: 95)

ثم نزل أمر آخر ببدء دعوة الأقرباء: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 215-216)

إن في أمر معاملة الأقربين والمؤمنين بلطف حكمة كبيرة، إذ كانت مبدأ أساسيا لإقامة جماعة تقية، ولكي يحقق هذا الأمر بحذافيره، فكر النبي ﷺ أن يجمع أقرباءه عند الصفا فصعد عليه في الصباح الباكر وأعلن دعوته. كان من عادة العرب أنهم إذا دهمَتهم مصيبة ما لجأوا إلى الصفا وطلبوا مساعدة الناس. فنادى النبي ﷺ على قبائل قريش "يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا معشر بني قصي" ثم نادى القبائل الأصغر، فلم يروا أي خطر قادم من أي جهة، ثم أدركوا أن محمدا من يناديهم فاجتمعوا عند الصفا، ومن لم يستطيعوا المجيء بعثوا بمن يتحرى

لهم الأمر، فقال لهم النبي ﷺ:

"إِنِّي نَذِيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد، إِنَّما مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى العَدُوَّ، فانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: "يا صَباحاه!"

عندها أراد النبي ﷺ أن يعرف موقفهم فقال لهم: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا، ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله. فغضب أبو لهب وتذمر وغادر.

ثم أضاف: "إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرْ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِين. اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا".

وبعد إنذاره هذا انفض الناس وتفرقوا.[8]

التبليغ بدعوة عشاء

عن عليّ بن أبي طالب: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ، دعاني رسول الله ﷺ، فقال لي: "يا عليُّ، إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرْ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِين"، قال: "فضقتُ بذلك ذرعا، وعرفتُ أني متى ما أنادهم بهذا الأمر أَرَ منهم ما أكره، فصمتُّ حتى جاءِ جبرائيل، فقال: "يا محمد، إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربك." فاصنعْ لنا صاعا من طعام، واجعلْ عليه رِجل شاة، واملأْ لنا عسا من لبن، ثم اجمعْ لي بني عبد المطلب، حتى أكلمهم وأبلغهم ما أُمرتُ به". ففعلتُ ما أمرني به، ثم دعوتُهم له، وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب. فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناولَ رسول الله ﷺ حِذْية من اللحم، فشقها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحفة، قال: "خذوا باسم الله". فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وما أرى إلا مواضع أيديهم. وايمُ الله الذي نفسُ علي بيده إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمتُ لجميعهم. ثم قال: "اسْقِ النَّاسَ". فجِئْتُهُمْ بذلك العس، فشربوا حتى رووا منه جميعا، وايم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم، بدره أبو لهب إلى الكلام، فقال: لَهَدَّ ما (أي: لشدَّ ما) سَحَرَكم به صاحبُكم.

فتفرّق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ. فقال: "الغد يا عليّ، إن هَذَا الرَّجُل قَدْ سَبَقَنِي إلى ما قَدْ سَمِعْتَ مِنَ القَوْلِ، فَتفرّق القوم قبلَ أنْ أُكَلِّمَهُمْ، فأَعِدَّ لَنا مِنَ الطَّعَامِ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ، ثُمَّ اجْمَعْهُمْ لِي". قال: ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقرّبته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة. قال: "اسقهم". فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعًا. ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: "يا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ، إنِّي والله ما أعْلَمُ شابا فِي العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بأفْضَلَ ممَّا جئْتُكُمْ بِهِ، إنّي قَدْ جِئتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَقَدْ أمَرَنِي الله أنْ أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، فَأيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلى هَذَا الأمْرِ، عَلى أنْ يَكُونَ أخِي" وكَذَا وكَذَا؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعا، وقلتُ، وإني لأحدَثُهم سنا، وأرمصهم عينا، وأعظمهم بطنا، وأحمشهم ساقا:، أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك. فأخذ برقبتي، ثم قال: "إن هذا أخي" وكذا وكذا، "فاسمعوا له وأطيعوا". قال: فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع! [9]

حتى عندما نزل أمر الجهر بالتبليغ، طُلب من النبي ﷺ أن يتجنب المشركين الوثنيين. فالحكمة كانت تقتضي الابتعاد عمن يتمسكون بشدة بالشرك حتى لا تتشكل معارضة كبيرة، وكان الغرض أن يُدعى الناس الميّالين للتوحيد والكارهين للوثنية أولا.

أول مركز للدعوة إلى الله: دار الأرقم

إن الأرقم بن أبي الأرقم كان من السابقين الأولين إلى الإسلام وقيل إنه كان الحادي عشر. كان له منزل عند الصفا واحتاج المسلمون إلى مركز إسلامي في الفترة الأولى فقدم الأرقم منزله الذي أصبح أول مركز للمسلمين. وفي هذا المركز دعا النبي ﷺ قريش إلى الإسلام في السر حتى وصل عدد المسلمين إلى أربعين. وبدأت الدعوة الجهرية والعبادة العلنية بعد إسلام عمر رضي الله عنه. [10]

وهكذا بدأ الشباب والفقراء يدخلون في الإسلام، وإلى جانب الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله، أُمِروا بمعاملة أقربائهم معاملة حسنة، ولهذا السبب لم تعارض قريش الإسلام بشدة، ولم تكن متحدة في معارضتها للإسلام، لكن حينما كان النبي ﷺ يمر بجماعة من قريش كانوا يشيرون إليه قائلين إن رسائل تتنزل من السماء على ابن عبد المطلب هذا.

ومن ثم بدأ النبي ﷺ بالدعوة إلى عبادة الله وحده وتحريم عبادة الأوثان، فكان يفضح عيوب وعجز آلهتهم، مما دفع الوثنيين لمعارضة النبي ﷺ. والسبب الثاني لمعارضتهم هو أن زعماء قريش

رأوا في ذلك خطرا على سلطتهم وبداية نزاع داخل قبائل قريش، ولهذا فإنه رغم كون أبو جهل شخصا متعلما ويقينه بصدق رسالة النبي ﷺ إلا أنه لم يقبل الإسلام خشيةَ أن يصبح بنو هاشم أهَمّ من بني أميّة.

دعوة أبي جهل، زعيم مكة

استمر النبي ﷺ بدعوة عشيرته وبدأ في الوقت نفسه يجهر بدعوته إلى الإسلام التزاما بما أمره الله: ﴿فاصْدَع بما تؤمر﴾. وكان مصمما على تنفيذ أوامر الله فاستمر بالدعوة بكل شجاعة وبلّغ الرسالة إلى زعماء وقادة مكة وحتى إلى أبي جهل.

عن المغيرة بن شُعبة رضي الله عنه قال: "إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنِّي كُنْتُ أَمْشِي أَنَا وَأَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ فِي بَعْضِ أَزِقَّةِ مَكَّةَ، إِذْ لَقِينَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِأَبِي جَهْلٍ: "يَا أَبَا الْحَكَمِ هَلُمَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ". قَالَ أَبُو جَهْلٍ: "يَا مُحَمَّدُ، هَلْ أَنْتَ مُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا؟ هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ. فَوَاللهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقُولُ حَقٌّ مَا اتَّبَعْتُكَ."

فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَقْبَلَ أبو جهل عَلَى المغيرة رضي الله عنه فَقَالَ: "فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنَّ بَنِي قُصَيٍّ، قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ فَقُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا اللِّوَاءُ فَقُلْنَا: نَعَمْ. قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ فَقُلْنَا: نَعَمْ. ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ. وَاللهِ لَا أَفْعَل."[11]

اتحاد كفار قريش

لما بدأ النبي ﷺ يجهر بالدعوة وحرم عبادة الأوثان تجمع بعض الناس حول هذه الرسالة، فخافت قريش على مركزها القيادي فأخذت تخطط لوقف دعوته.

ذات يوم توجه أبو جهل إلى كبار قريش فقال: "لقد انتشر علينا أمْرُ محمدٍ فلو اِلْتَمَسْتُم رجلا عالما بالسِّحر والكهانة والشِّعر فكلَّمه ثم أتانا بِبيانٍ مِن أمْره، فقال عُتبة: لقد سمعت قول السحر والكهانة والشعر وعلمتُ من ذلك علما وما يَخفى علَيَّ إن كان كذلك، فأتاه فلما أتاه قال عتبة: "يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله"، فلَم يُجبه. قال: "فبِم تشتم آلهتنا وتُضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنتَ

رأسنا ما بقيتَ وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستعين بها أنت وعقبك من بعدك". ورسول الله ﷺ ساكت ولا يتكلم، فلما فرغ، قال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾ فقرأ حتى بلَغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: 14) فأمسَك عُتبة على فيه وناشَده الرَّحِم أن يَكُفَّ عنه ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم فقال أبو جهل: "يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد." وعندما استفسر أبو جهل من عتبة، حكى له القصة كلها ثم قال له: "وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفتُ أن ينزل بكم العذاب."[12]

التبليغ في أعقاب المعارضة

إن معارضة المخططات الإلهية كالسماد الذي يغذي الزرع، فرغم معارضة كفار مكة، أخذ الإسلام ينتشر حتى وصل إلى الضواحي والبادية، وهنا يجدر ذكر حدثين مهمين ومثيرين للدهشة.

الأول هو أن زعيم قبيلة أَزْدِ شَنُوءَةَ وكان اسمه ضِمَاد كان يعالج الناس بالرُّقى، وعندما قدِم مكة سمع أعداء الإسلام يقولون إن محمدا مجنون، وكان ضماد بطبيعته إنسانا ورعا فرأى أن يقابل محمدا فيَشفيه من مسه بعون الله. فيروي أنه حين لقِيَ النبي ﷺ قال: "يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ؟" فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"إِنَّ الْحَمْدَ لِلّٰهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ"، فَقَالَ: "أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاءِ." فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

كان ضماد أعرابيا لكن الله منحه البصيرة، فعندما سمع ضِماد، الذي يخاف الله، الرسالةَ التي رفضَها بِتكبُّر أبو الحكم مُفكِّر مَكة، قال تلقائيا: "لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ – قَالَ – فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلامِ."

فضماد الذي جاء ليشفي النبي ﷺ وجد شفاء روحانيا على يده عليه الصلاة والسلام. وعرف

النبي ﷺ أن ضماد شخص حكيم وله أثر كبير على قبيلته فحين بايعه سأله إن كان يبايعه أيضا على أن يبلِّغ قومه دعوة الإسلام، فقبل ضماد بكل ثقة، وذات مرة كان النبي ﷺ قد بَعث سريّة من الجيش فمروا بقبيلة ضماد، وعندما تعرّف قائد السريّة على القبيلة سأل رجاله إن كانوا أخذوا شيئا منهم فقيل له أنهم أصابوا منهم بعض الأشياء في وقت الغداء. فأمرَهم بإعادتها على الفور لأنهم قوم ضِماد.[13]

الإسلام ينتشر في قبائل تعيش بالقرب من مكة

إن خبر دعوة النبي ﷺ انتشر شيئا فشيئا بين القبائل التي تعيش بالقرب من مكة نتيجة المعارضة التي شُنت على الإسلام، فأخذ الأتقياء من بينهم يستجيبون لدعوة النبي ﷺ، وأحدهم الأكثم بن صيفي الذي أراد أن يذهب بنفسه إلى النبي ﷺ لكن قومه منعوه من ذلك، فأرسل وفدا إلى رسول الله يتحرى أمرَه وأمرَ دعوتِه، فأخبرهم النبي ﷺ أنه مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله، وعَبْدُ الله وَرَسُولُه، وتلا عليهم الآية التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:91)

فاستمعوا إلى الآية عدة مرات وحفظوها. وعادوا إلى الأكثم وأخبروه عن شرف نسب النبي ﷺ وطهر تعاليمه، فقال الأكثم: "يَا قَوْمُ أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلائِمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الأَمْرِ رُؤَسَاءَ، وَلا تَكُونُوا أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أُوَّلا وَلا تَكُونُوا فِيهِ أُخَّرًا". فشد الرحال للقاء النبي ﷺ وتبعه مائة شخص من قومه، وتُوفيَ في هذه الرحلة لكنّه أوصى أصحابَه أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وجعلهم يشهدون على إسلامه.[14] وانتشر الإسلام على هذا النحو في ضواحي مكة.

انتشار الإسلام نتيجة المعارضة

سمع أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بعض الأخبار عن الإسلام فبعث بأخيه يستطلع الأمر، وقال له أن يذهب ويصغي لكلام مدّعي النبوة الذي يقول إنه يُوحى إليه، فجاءه أخوه يخبره أن ذلك الشخص يأمر بمكارم الأخلاق وكلاما ما هو بالشعر، فقال له أبو ذر ما شَفَيتَني، وذهب إلى مكة يَخبَر بنفسه، هناك بحث عن النبي ﷺ في الكعبة لكن لم يسأل أحدا عنه، ونام في الكعبة، فرآه عليّ رضي الله عنه وعرف أنه غريب. فأنزله عنده فكان أبو ذر ينام عند عليّ رضي الله عنه ويمضي يومه في الكعبة، وفي اليوم الثالث سأله عليّ رضي الله عنه عما جاء به إلى مكة، فأخبره، فقال له عليّ رضي الله عنه أن

محمدا رسول الله حقا، وفي الصباح أوصله إلى النبي ﷺ فقبل أبو ذر الإسلام بعد أن استمع للنبي ﷺ الذي أوصاه أن يرجع إلى قومه فيخبرهم عن الإسلام حتى يأتيه أمر منه، فقال له أبو ذر رضي الله عنه إنه يريد أولا إعلان إسلامه أمام كفار مكة فذهب إلى الكعبة وصرخ بأعلى صوته "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله". عند سماعه، ثار القوم وضربوه ضربا مبرحا فأسرع العباس رضي الله عنه إليه وقال ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفار التي تعيش على طريق تجّاركم إلى الشام فأنقذه منهم. لكن أبا ذر رضي الله عنه عاد في الغد لمثلها فضربوه مجددا فأكب العباس رضي الله عنه عليه مرة أخرى.[15]

زعيم قبيلة دَوس يقبَل الإسلام

وثاني أشهَر حدَثٍ هو قبول الطفيل بن عمرو الإسلام، فلم يعلم بالإسلام مباشرة من النبي ﷺ بل من معارضة قريش له. كان الطفيل بن عمرو من أشراف العرب وأديبا وشاعرا، وحين زار مكة أخبره بعض رجال قريش: "يا طفيل، إنك قدِمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنّ منه شيئا". فما زالوا به حتى حشى أذنيه كُرْسُفا فَرَقا مِن أن يبلغه شيء منه. قال: فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي: واثُكلَ أمِّي، إِني لَرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى عليَّ الحَسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته". فلما ذهب إلى الكعبة فإذا رسول الله يصلي فقام منه قريبا فلما رجع النبي ﷺ إلى بيته لحقه وقال: "يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولا حسنا، فاعرِض عليَّ أمرَك."

فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليه القرآن فقال: "لا والله ما سمعتُ قولًا قطّ أحسن من هذا ولا أمرا أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقّ فقلتُ: يا نبيّ الله إني امرؤ مطاعٌ في قومي وأنا راجع إليهم إلى الإسلام فادْعُ الله أن يكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه"، فقال: "اللهم اجْعَلْ له آيَةً"، قال فخرجتُ إلى قومي حتى إذا كنتُ بثنيّةٍ تُطْلِعُني على الحاضر

وقع نور بين عينيّ مثل المصباح فقلتُ اللهمّ في غير وجهي فإنّي أخشى أن يظنّوا أنّها مُثْلة وَقَعَتْ في وجهي لفراق دينهم، فتحول النور فوقع في رأس سوطي فجعل الحاضر يتراءوْنَ ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلّق."

وفي اليوم التالي أتاه أبوه وكان عجوزا، فقال له: "إليك عني يا أبتاه فلستَ مني ولستُ منك، قال: ولِمَ يا بُنيّ؟ قلتُ: إني أسلمتُ واتّبعتُ دين محمد، قال: يا بنيّ ديني دينك، قال فقلتُ: فاذهب فاغتسل وطهّر ثيابك، ثمّ جاء فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم".

"ثمّ أتَتْني صاحبتي فقلتُ لها: إليك عني فلستُ منكِ ولستِ مِنّي، قالت: ولِمَا بأبي أنتَ؟ قلتُ: فرّق بيني وبينك الإسلامُ، إني أسلمتُ وتبعتُ دينَ محمد، قالت: فديني دينك، فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمَتْ. ثمّ دعوت دَوْسا إلى الإسلام فأبطأوا عليّ، ثمّ جئتُ رسول الله ﷺ بمكّة فقلتُ: يا رسول الله قد غلبَتْني دَوْسٌ فادعُ الله عليهم، فقال: "اللهمّ اهْدِ دوسا وأتِ بها"، فقال له الطفيل: ما كنت أحبُّ هذا، فقال له النبي: "إنَّ فيهم مثلك كثيرا"، وبهذه الكلمات جعل الطفيل يدرك أنه كان هو الآخر جاحِفا وأن ما جذبه إلى الإسلام هو ورعه وحبه للحق، وأنه ينبغي دعوة الناس إلى الإسلام بكل لطف وحكمة، والحقيقة هي أن الطفيل استطاع إقناع أبيه وزوجته من خلال تهديدهما بقطع الصلة معهما لكن قومه لم يكونوا جاهزين لِتَرْك عبادة الأصنام وعمَل السوء والرِبا، ولهذا نبَّه النبي ﷺ الطفيلَ إلى دعوة قومه إلى الإسلام بحُبٍ ولُطف.

وما توقف الطفيل عن دعوة قومه حتى أسلم بعضهم، ومنهم جُندب بن عَمرو الذي كان يقول في الجاهلية بوجود خالق لهذا العالم لكنه لم يكن يعرف من هو، وحين خبِر جندب بدعوة الإسلام أتى الرسول ﷺ ومعه خمسة وسبعون رجلا من قومه فأسلموا جميعا.[16]

وقال الطفيل إنه قام بما أمره به النبي ﷺ، واستمر بدعوة قومه. وفي غضون سبع سنوات، سبعون أو ثمانون بيتًا من دوس أسلموا على يده واستقرت في المدينة.[17]

قبول الحق برؤيا

عندما ظهرت المعارضة، كان رسول الله ﷺ يدعو الله كثيرا وبتضرع من أجل النصر، وكان يدعو ليل نهار لهداية قومه، والله ألهم النفوس التقية فمالت إلى صدق الإسلام وإلى محمد ﷺ، وإن إسلام خالد بن سعيد لَمثال على ذلك، إذ كان أول من أسلم من ذويه بعد أن رأى حلما.

رأى خالد في المنام أنه وُقِفَ به على شفير النار وكأنَّ أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ آخذا بحَقْوَيه لئلا يقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إنَّ هذه لرؤيا حق، فلقي أبا بكر ﷺ فذكر له ذلك، فقال: أُريدَ بك خيرٌ، هذا رسول الله ﷺ اتْبَعْهُ فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإِسلام يحجُزُك أن تدخل فيها، وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجْياد، فقال: يا محمد، إلامَ تدعو؟ قال: "أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا يبصر ولا ينفع، ولا يدري مَنْ عَبدَه ممن لا يعبده". عند سماع ذلك، قال خالد: "فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله"، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيّب خالد وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه فأُتي به فأنَّبه وضربه بمَقْرعة في يده حتى كسرها على رأسه، وقال: "والله لَأمنَعَنَّك القُوت"، فقال خالد: "إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به"، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه.[18]

أول وفد لقريش

بعد ما لقيَتْ دعوة النبي ﷺ الجهرية من نجاح أقبل بعض أشراف وزعماء قريش إلى أبي طالب فقالوا له: "يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه"، فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه.

الوفد الثاني

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه. ولكن لم تصبر قريش طويلًا حين رأته ﷺ ماضيًا في عمله ودعوته إلى الله، حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

وجاء الوفد الثاني إلى أبي طالب فقالوا له: "يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين".

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: "يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق".

فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته"، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: "اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُك لشيء أبدا."[19]

أقصى درجات المعاناة

تعرّض النبي ﷺ إلى أقصى درجات الألم وعانى كثيرا في تبليغه رسالة الله. وقيل إن أشد ما تعرض له مِنْ قُرَيْشٍ "أَنَّهُ خَرَجَ يَوْما فَلَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ مِنْ النّاس إلّا كَذّبَهُ وَآذَاهُ لَا حُرّ وَلَا عَبْدٌ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلَى مَنْزِلِهِ فَتَدَثّرَ مِنْ شِدّةِ مَا أَصَابَهُ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾".[20]

انتشار الإسلام في البلاد الأجنبية

بعد أن جهر النبي ﷺ بالدعوة انصبّ عليه وعلى أصحابه التعذيب، ونعِم النبي ﷺ بفضل حماية أبي طالب بشيء من الراحة، لكنه حزِن كثيرا وصعُب عليه مصاب المسلمين وعدم قدرته على التخفيف عنهم، وبعد المباحثة مع أصحابه نصحهم باللجوء إلى الحبشة التي يحكمها ملك نصراني عادل، فهاجرت إلى الحبشة جماعتان من المسلمين، الأولى تضمّنت اثنا عشر شخصا والثانية ثمانين شخصا، فلحقت بهم قريش وحرّضت النجاشي، ملك الحبشة، ضدهم، فطلب الملك أن يحضُر المسلمون فحضَروا وتحرّى منهم أمر دينهم. وتكلم جعفر بن أبي طالب الملقب بالطيار رضي الله عنه باسم المسلمين وقرأ آيات من سورة مريم وبيّن تعاليم الإسلام، فكان لذلك أثر عظيم على الملك الذي أسلم لاحقا.[21]

ثمرة طيّبة من ثمار الاضطهاد: حمزة رضي الله عنه

تعاطف بعض أشراف مكة مع النبي ﷺ نتيجة الاضطهاد الذي شُنّ ضد المسلمين، وكان من

ثمار الصبر على الاضطهاد إسلام حمزة رضي الله عنه، مما جعل أبا جهل حين مرّ بالنبي ﷺ عند الصفا يسيء له ويؤذيه. لقد هاجم أبو جهل الإسلام بأبشع الطرق وهزأ بالنبي ﷺ واستهان به بينما لزم النبي ﷺ الصمت والصبر.

وسمعت خادمة عبد الله بن جدعان كل ما جرى وهي جالسة في البيت. وذهب أبو جهل فجلس مع بعض زعماء قريش وكانوا قد اجتمعوا في الكعبة، حينها عاد حمزة رضي الله عنه من الصيد وكان من عادته أن يطوف بالكعبة فيُسلِّم على رجال قريش قبل عودته إلى البيت، وحين مرّ بالقرب من الخادمة التي هزتها شتائم أبي جهل للنبي ﷺ. قالت له: "يَا أَبَا عُمَارَةَ لَوْ رَأَيْتَ مَا لَقِيَ ابْنُ أَخِيكَ مُحَمّدٌ آنِفا مِنْ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ وَجَدَهُ هَاهُنَا جَالِسا فَآذَاهُ وَسَبّهُ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا يَكْرَهُ ثُمّ انْصَرَفَ عَنْهُ وَلَمْ يُكَلّمْهُ مُحَمّدٌ ﷺ."

فلم تحتمل كرامة حمزة رضي الله عنه واستشاط غضبا فذهب يبحث عن أبي جهل فلما لقِيَه ضربه بِقوسه فشجّ رأسَه شَجّة منكَرة، ثم قال: "أتَشْتُمه! فأنا على دينِه أقولُ مَا يَقُولُ. فَرُدّ ذَلِكَ عَلَيّ إنْ اسْتَطَعْت، فَقَامَتْ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ إلَى حَمْزَةَ، لِيَنْصُرُوا أَبَا جَهْلٍ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: دَعُوا أَبَا عُمَارَةَ، فَإِنّي وَاَللهِ قَدْ سَبَبْتُ ابْنَ أَخِيهِ سَبّا قَبِيحا."

وَأسلم حَمْزَة رضي الله عنه عَلَى يد النبي ﷺ فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أن النبي ﷺ قَدْ عَزّ وَامْتَنَعَ، وَأَنّ حَمْزَةَ سَيَمْنَعُهُ، فَكَفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.[22]

الدعاء لخصوم الإسلام

تقوم استراتيجية الدعوة أولا وأخيرا على الدعاء، فالنبي ﷺ تعامل مع رؤساء قريش المعارضين له أشد معارضة بِتروٍ وحِكمة وبدأ يدعو لهم وخاصة لأقوى وأشجع زعيمين من بينهم، فيَقوى الإسلام ويَضعف الأعداء، فكان النبي ﷺ يقول: "اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجُلين إليك بأبي جهلٍ أو بعمرَ بنِ الخطابِ." فكان أحبُّهما إلى اللهِ عمرَ بنَ الخطابِ.[23]

لقد كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نعمة، وكان ثمرة استجابة دعاء النبي ﷺ وقت اضطهاد المسلمين في مكة. عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة أثّر ذلك على كبار مكة وكاد عمر أن يبكي، وروى أنه سمع ذات ليلة النبي ﷺ وهو يتلو القرآن في الكعبة فرقّ قلبُه، وسِرُّ هذا التحوّل هو دعاء النبي ﷺ.

وكانت أخت عمر وزوجها قد أسلموا سرا خوفا من بطشه، وذات يوم غادر عمر بيته حاملا سيفه وفي طريقه التقى بِنُعَيم بن عبد الله الذي كان أيضا يخفي إسلامه فقال له عمر إنه ذاهب لقتل محمد وللفتك بدينه الجديد، فسأله نُعَيم: "يَا عُمَرُ أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَارِكِيك تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْت مُحَمّدا أَفَلَا تَرْجِعُ إلَى أَهْلِ بَيْتِك فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ؟ قَالَ: وَأَيّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ خَتَنُك وَابْنُ عَمّك سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَأُخْتُك فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطّابِ، فَقَدْ وَاَللّهِ أَسْلَمَا، وَتَابَعَا مُحَمّدا عَلَى دِينِهِ فَعَلَيْك بِهِمَا".

فذهب عمر إلى بيت أخته، وكان خبّابُ بنُ الأَرَتّ يتدارس القرآن مع أخته وزوجها، فدخل عليهما عمر، فاختبأ خباب في مخدع داخل البيت. فسألها عمر ما هذا الصوت الذي سمعته؟ ثم أخبرهما أنه قد علم بإسلامهما، وضربهما بشدة فأدمى أخته. فقالت له افعلْ ما بدا لك، فلن نحيد عن الإسلام. وحين رأى عمر ما فعله بهما رقّ قلبه وطلب من أخته أن تُريه ما كانا يقرءانه. فأجابته إنه القرآن الكريم وعليه أولا أن يغتسل ويتطهر. والحكمة وراء ذلك أن ينطفئ غضب عمر. فاغتسل عمر وقرأ بضع آيات من سورة طه، فقال: "ما أعجبَ هذا الكلامَ!" ولما سمع خباب قول عمر خرج من مخبئه وقال له: أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك قد أجيبتْ، فقد سمعتُه البارحة يدعو بهذا الدعاء: "اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ." ثم قال خباب: "فاللهَ اللهَ يا عمر"، وأخبره أن النبي ﷺ في بيتٍ عند الصفا (دار الأرقم). فذهب إليه عمر متقلدا سيفه، وطرق الباب، فرآه أحد أصحاب رسول الله ﷺ فأخبره أنه عمر. فقال حمزة: دَعْه، "إن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه." ولما دخل سأله النبي ﷺ: ما الذي أتى بك يا عمر؟ قال: "يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله." فكبّر النبي ﷺ.[24]

الدعوة إلى الله في ساحة مصارعة

كان النبي ﷺ يدعو كل فرد إلى الإسلام، ومنهم رُكانة وهو مصارع من مكة والذي قال له النبي ﷺ: "يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ " قال: "إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال له رسول الله ﷺ: "أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟" قال: نعم. قال: "فقم حتى أصارعك". فقام ركانة إليه فصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه

لا يملك من نفسه شيئا، ثم قال: "عد يا محمد." فعاد فصرعه، فقال: "يا محمد، والله إن هذا للعجب، أتصرعني!" وهكذا أسلم ركانة.[25]

المعاناة في سبيل الدعوة

إن ما تعرض له النبي ﷺ وأصحابه من إيذاء وتعذيب لينفطر له القلب، ولكنهم لم ينقلوا إلا قلة قليلة من هذه الأحداث وذكرياتها الموجعة (يحتوي فصل "ثبات النبي ﷺ واستقامته" على تفاصيل هذه المعاناة).

قال النبي ﷺ: "لقد أُخِفتُ في اللهِ ﷻ وما يُخافُ أَحدٌ، لقد أوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثونَ من بينِ يومٍ وليلةٍ وما لي ولا لبلالٍ طعامٌ يأْكلُهُ ذو كبدٍ إلَّا شيءٌ يواريهِ إبطُ بلالٍ."[26]

حكمة الدعوة خلال حصار شِعب أبي طالب

بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة، أدركت قريش أن المسلمين وجدوا لهم حصنا في هذا البلد وملجأ عند ملِكه، وحتى في مكة أسلم صناديد أولي بأس ونفوذ مثل عمر رضي الله عنه وحمزة رضي الله عنه، وكان الإسلام ينتشر وأبو طالب وقبيلته يدعمون النبي ﷺ. شَنّت قريش معارضة مشتركة ضد المسلمين، وفي السنة السابعة من النبوة وفي شهر محرم عقدت قبائل قريش اتفاقا فيما بينها يقضي بتضييق الخناق على المسلمين ومحاصرتهم في وادٍ ومعهم كل داعميهم من المسلمين ومن غير المسلمين وبني هاشم وبني المطلب.

وقرروا أن لا تربطهم أي علاقة أو تجارة مع المسلمين أو داعميهم ما لم يسلموهم النبي ﷺ، ولضمان تنفيذ هذا الاتفاق عُلّق في جوف الكعبة.[27]

وخلال هذا الحصار، أصبح اتصال المسلمين بمن هم خارج شعب أبي طالب نادرا جدا. أما أبو لهب وبعض الأعداء الآخرين فلم يحاصَروا بل ظلّوا يناصرون الكفار. كان الاتصال النادر بين الشِعب وخارجه يحدث عبر بعض رجال بني هاشم وبني المطلب الذين كانوا تحت الحصار مع المسلمين لكونهم متعاطفين أو أصدقاء قبيلة واحدة. فقد تأثر أفراد بني هاشم من غير المسلمين والمتعاطفون مع المسلمين بمعاملة المسلمين الحسنة لهم إذ اختلطوا بهم بحكم الجيرة

فشهدوا أخلاقهم العالية وتمسُّكهم بالعبادة فأثّر ذلك على طريقة تفكيرهم، فغدَتِ الصداقة القبَلِية التي كانت تربطهم ببعض علاقة أخوة في الإيمان، ومع أن تفاصيل هذه الفترة شحيحة إلا أن لها أهمية لا يمكن تجاهلها على صعيد الدعوة.

وخلال الحصار ساعد رجال مكة الطيبين المسلمين فبعثوا إليهم ببعض الطعام. هؤلاء الرجال رق قلبهم وقد شاهدوا من جهة، القسوة المرتكبة بحق المسلمين ومن جهة أخرى، تقوى المسلمين وأدبهم وأخلاقهم، ولكل هذه الأسباب أُعجِبوا بالمسلمين.

والاتصال الآخر الذي كان ممكنا لهم في حصارهم كان مع القوافل الآتية من بلدان أخرى ليست ملزمة باتفاقية قريش، فكان المسلمون يشترون احتياجاتهم الضرورية من تلك القوافل وكانت في الوقت نفسه فرصة لدعوتهم إلى الإسلام، ولم يكن لكفار مكة السلطة لمنع هذه القوافل التجارية لكنهم عملوا على رفع الأسعار حتى يُضيِّقوا أكثر على المسلمين، فكان أبو لهب يحضّ التجار على رفع أسعارهم كي لا يعود بمقدور المسلمين الشراء، وحصل أيضا أن اشترى كل بضاعتهم بثمن غال.[28]

أما وسيلة الاتصال الرابعة فكانت في موسم الحج. فلم يكن من عادة العرب أن يمنعوا أحدا من أداء الحج، لذا استطاع المسلمون أن يتنقلوا بحرية وأن يحجوا، فدخل أناس من خارج مكة في اتصال مع المسلمين وعندما سمعوا بما يتعرضون له من ظلم تعاطفوا معهم، ومن هذا المنظور قلَّ الأذى والتعذيب في فترة الحصار، وركّز المسلمون خلالها على الدعوة إلى الإسلام، وهكذا كانت هذه الفترة فترة تدريب ذاتي بفضل الله تعالى وحكمته واختبارا للمؤمنين الحقيقيين، وقد اجتازوه بامتياز.

الدعوة في موسم الحج

تكلم النبي ﷺ إلى كل مَن في الجزيرة لنشر دعوته ولذلك اختار الله تعالى مكة التي كانت تُدعى بأُمِّ القرى لموقعها المركزي إذ كان الناس يأتونها من أصقاع الجزيرة للحج وفقا لدين إبراهيم عليه السلام. فكان النَّبيّ ﷺ يبلّغ دعوة الحق إلى كل الحُجاج والزوار فيقول: "أَلا رجلٌ يَحْمِلُنِي إلى قَوْمِهِ، فإنَّ قُرَيْشا قد مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ ربِّي." وبشَّر كل مَن وافقه بالجنّة.[29]

فأَتاه ذات مرة رجُلٌ مِن هَمْدانَ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: ممَّن أنت؟ فقال الرَّجلُ: مِن هَمْدانَ، قال:

فهَل عِندَ قَومِك مِن منَعةٍ؟ قال: نعَم، ثمَّ إنَّ الرَّجُلَ خَشِي أنْ يَخفِرَه قومُه، فأتَى الرسول فقال: آتيهِم، فأُخبِرُهم، ثمَّ آتيك مِن عام قابِل.[30]

تلك كانت ردة فعل القبائل، فبالنسبة لهم قوم الرجُل أعلم به، فكيف لرجلٍ أن يُصلِحهم وقد أفسد قومَه ولفظوه ؟[31]

الدعوة في الأسواق

كانت الأسواق تُقام بعد الحج في المناطق المحيطة بمكّة مثل عُكاظ وذو الْمَجاز ومجَنّة، وإلى جانب العملية التجارية كانت تعقد فيها فعاليات للتسلية، وكل ما شَغل فِكر النبي ﷺ هو البحث عن ذوي النفوس التّقية الذين سيقبلون دعوة الحق، فكان يقوم بالدعوة في هذه المعارض أيضا. لكن كل العراقيل التي وُضعت في طريقه والأذى الذي تَعرّض له لم يُوقِفه عن متابعة مهمّته.

يروي ربيعة بن عِباد ﷺ أنه رأى النبي ﷺ بذي المجاز يدعو الناس إلى الله في كل شوارع السوق والناس تتجمع حوله دون أن يقولوا شيئا، وكان يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، آمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا." وَخَلْفَهُ رَجُلٌ أَحْوَل، وضيء الوجه، وطويل الشعر يَقُولُ: "إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مِنكُمْ أَنْ تَسلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَلَا تَتَّبِعُوهُ"، فسأل ربيعة أباه: "مَنْ هَذَا؟" قَال: "هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ."[32]

وعن أبي طارق ﷺ قال: "رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، وخَلْفَه رجل له غديرتان (أي ذؤابتان) يرجمه بالحجارة حتى أُدمي كعبه يقول: "يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب"، فسألت عنه، فقيل إنه غلام عبد المطلب، فقلت ومن الرجل الذي يرجمه؟ فقيل هو عمه عبد العزى يعني أبا لهب".[33]

عن شيخ من بني مالك بن كنانة قال: "رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يتخلَّلُها يَقُولُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا"، قال: وَأبُو جَهْلٍ يُحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لايَغُرَّنَكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللاتَ وَالْعُزَّى"، قال: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.[34]

إن ما رُوي من أحداث بخصوص تبليغ الدعوة لن يكتمل إلا بذكر حادثة الطائف الأليمة وإنها

كما ذكرها النبي ﷺ نفسه لأفظع يوم في حياته.

رحلة النبي ﷺ إلى الطائف

انتهى حصار شِعب أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة. لكن لم يتحمل أبو طالب وخديجة رضي الله عنها مشقة الحصار فتوفيا، واشتدت معارضة أهل مكة وأصروا على رفض الدعوة مما جعل النبي ﷺ يذهب إلى الطائف ليبلغ أهلها الدعوة ورافقه في رحلته زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومكث النبي ﷺ في الطائف عشرة أيام يحاول أن يبلغ أشرافها رسالة الإسلام.[35]

تتميز مدينة الطائف بجوِّها اللطيف لكونها منطقة جبلية ولذلك كانت مَصْيَفا للأغنياء، وهي تبعد 40 ميلا إلى الجنوب الشرقي من مكة. التقى النبي ﷺ فيها، بالإضافة إلى أسياد مناطق أخرى، ثلاثة إخوة من أشراف قبيلة ثَقيف وهُم عَبْدُ يَالِيْل وَمَسْعُودُ وَحَبِيبُ وكان بينهم وبين الرسول ﷺ صلة قرابة من جهة أمه، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وحدثهم عن معارضة قريش وطلب مساعدتهم. فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: "إنْ كَانَ اللّهُ أَرْسَلَك فهُوَ يَمْرُطُ ثِيابَ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ الْآخَرُ أَمَا وَجَدَ اللّهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك، وَقَالَ الثّالِثُ وَاللّهِ لَا أُكَلّمُك أَبَدا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولا مِنْ اللّهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خطَرا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى اللّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك". فيما بعد، أسلم هذا الثالث لكن لا يوجد ما يُثبت أنه نال شرف الصُحبة.[36]

وأراد النبي ﷺ أن يوصِل رسالته إلى آخرين في الطائف، غير أن رجال ثقيف اعترضوا مخافة أن يضل شبابهم، فأمروه بمغادرة الطائف، فقال لهم النبي ﷺ: "إذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي، وَكَرِهَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ فَيُذْئِرَهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ".[37]

لكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وأخذوا يرمونه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أزلقته الحجارة . أي وجد ألمها . قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون.

كل ذلك وزيد بن حارثة رضي الله عنه يحاول أن يقيه بنفسه لكنهم كانوا كُثُر فلم يستطع أن يحميه من كل هذا الحشد. فلما خلصا منهم كانت رِجلا النبي ﷺ تسيلان دما وفي رأس زيد شجّ كبير، فعمدا إلى بستان عِنب من بساتينهم، فاستظلا تحته.[38] وظل النبي ﷺ صابرا رغم إصابته

فصلّى ركعتين ودعا الله فقال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، إلى مَن تَكِلُني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملّكته أمْري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات وأشرقت له الظلمات وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة أن تُحِل عليّ غضبَك أو تُنزل عليَّ سخطَك، ولك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بِك".[39]

واستجاب الله لدعائه إذ إن ثماره المادية والروحية نزلت فورا على النبي ﷺ، فَلَمّا رَأى عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وهما من أسياد مكة مَا لَقِيَه النبي ﷺ تَحَرّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا، فَأرسلا غُلَاما لَهُمَا نَصْرَانِيّا يُقَالُ لَهُ عَدّاسٌ بشيء مِنْ الْعِنَبِ إلى النبي ﷺ فقَالَ: ""بِاسْمِ اللّهِ" ثُمّ أَكَلَ. فَنَظَرَ عَدّاسٌ فِي وَجْهِهِ ثُمّ قَالَ وَاللّهِ إنّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدّاسُ وَمَا دِينُك؟ قَالَ نَصْرَانِيّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ قَرْيَةِ الرّجُلِ الصّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتّى، فَقَالَ لَهُ عَدّاسٌ وَمَا يُدْرِيك مَا يُونُسُ بْنُ مَتّى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيّا وَأَنَا نَبِيّ، فَأَكَبّ عَدّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ يُقَبّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ قَالَ يَقُولُ ابْنَا رَبِيعَةَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ أَمّا غُلَامُك فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْك، فَلَمّا جَاءَهُمَا عَدّاسٌ قَالَا لَهُ وَيْلَك يَا عَدّاسُ مَالَكَ تُقَبّلُ رَأْسَ هَذَا الرّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ؟ قَالَ يَا سَيّدِي مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إلّا نَبِيّ."[40]

لقد كان يوم الطائف هذا شاقا جدا على سيدنا محمد ﷺ. ذات مرة سألته عائشة رضي الله عنها: "يَا رَسولَ اللهِ، هلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ (وفيه كُسرت رباعيته السفلى، وجرحت شفته السفلى وجبهته) فَقالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ وَكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ علَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلَّا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بسَحَابَةٍ قدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَما رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، قالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ، فَقالَ له

رَسولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئا". [41]

شهادة ويليام موير

حتى السِير ويليام موير وهو مستشرق وعدو للإسلام أُعجب برحلة النبي ﷺ إلى الطائف في سبيل الدعوة فقال: "هناك شموخ وبطولة في الرحلة التي قام بها محمد إلى الطائف: رجل وحيد، محتقر ومرفوض من قومه، يذهب في جسارة باسم الله، مثل يونس بسفره إلى نينوى، ويدعو مدينة من الوثنيين كي يتوبوا ويساندوه في مهمته. إن ذلك لدليل ساطع على شِدّة إيمانه بأن دعوته من الله."[42]

البحث عن فُرَص للدعوة

بعد أن أمره الله ﷻ بدعوة الجميع إلى الإسلام، صمّم النبي ﷺ على إيصال رسالة الله إلى قبائل الجزيرة العربية وانتهاز كل فرصة تسنح له. ذات مرة، أتى إلى مكة رجال من بني عبد الأشهل وهم من قبيلة أوس بقيادة أبي الحَيسَر يطلبون من قريش مناصرتهم على الخزرج. فحضر النبي ﷺ وجلس إليهم وقال: "هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْكِتَابَ. قَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ. قَالَ: فَقَالَ إِيَاسُ ابْن مُعَاذٍ، وَكَانَ غُلَاما حَدَثا: أَيْ قَوْمِ، هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ. قَالَ: فَيَأْخُذُ أَبُو الْحَيْسَرِ، أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ، حَفْنَةً مِنْ تُرَابِ الْبَطْحَاءِ، فَضَرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَاسِ ابْن مُعَاذٍ.. وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ."[43]

دعوة أهل يثرب

عن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة وعكاظ، ومنى، يقول: "من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة"؟ فلا يجد، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن، فيأتيه قومه أو ذو رحمه يقول: احذر فتى قريش لا يفتنك، يمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله ﷻ، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله له من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم

يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط يظهرون الإسلام، ثم ائتمرنا واجتمعنا سبعين رجلا منا، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده، فقمنا نبايعه".[44]

وهكذا جعل الله من يثرب (المدينة) مكانا آمنا للمسلمين، فبعث النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه أميرا على يثرب ليقيم مركزا يوحّد المسلمين، وبعد ذلك بفترة قصيرة أُقيمت صلاة الجمعة في المدينة المنورة.

الدعوة خلال رحلة الهجرة

كان بُريدة الأسلمي رضي الله عنه وهو من الأنصار يسافر مع سبعين شخصا من أهله، وكانوا من بني سَهْم، والتقوا بالنبي ﷺ خلال رحلة الهجرة، ومع أن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر عرَّفهم النبي ﷺ على نفسه ودعاهم إلى الحق. وتكلم مع بريدة رضي الله عنه بكل حكمة وتهذيب فأسلم هو وأهله. فقد سأله النبي ﷺ من يكون فأخبره عن اسمه فقال النبي ﷺ إنه فأل خير وقال لأبي بكر رضي الله عنه: "يَا أَبَا بَكْرٍ، بَرُدَ أَمْرُنَا وَصَلُحَ"، ثم سأله عن قبيلته فقال إنه من أَسلَم، فقال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: "سَلِمنا".

ثم سأله مِمَنْ؟ قال: من بني سهم، فقال لأبي بكر رضي الله عنه: "خَرَجَ سَهْمُكَ." فسأل بريدة النبي ﷺ: مَنْ أنت؟

قال: "أَنَا مُحَمَّدُ بنِ عبْدِ الله رَسُولُ الله"، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فأسلم بُريدة وأسلم مَنْ كان معه جميعا. فلما أصبح قال للنبي ﷺ: "لا تَدْخُلْ المَدِيْنَةَ إِلَّا وَمَعَكَ لِوَاءٌ". فحلَّ عمامته ثم شدَّها في رمح، ثم مشى بين يديه. فقال: "يا نبي الله، تَنْزل عليَّ، فقال النبي ﷺ: "إنَّ نَاقَتِي هذه مَأْمُورَةٌ". فقال بُريدة: "الحمد لله الذي أسلمتْ بنو سَهْم طائعين غير مُكْرهين".[45]

الدعوة الجهرية في المدينة

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه حدث قبل وقعة بدر أن الرسول ﷺ راح على ظهر دابة يسأل عن صحة الأنصاري سعد بن عبادة فمر بجماعة من الأنصار، وكان عبد الله بن أُبيّ (أحد أسياد

الخزرج) جالسا معهم ولم يكن قد أسلم بعد، فكان في هذا المجلس بعض المسلمين وعدد كبير من اليهود والمشركين عبدة الأوثان. فقال: "فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ أنْفَهُ بردَائِهِ، ثُمَّ قالَ: لا تُغَبِّرُوا عَلَيْنا، فَسَلَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ عليهم، ثُمَّ وقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إلى اللهِ وقَرَأَ عليهمُ القُرْآنَ، فَقالَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ: أيُّها المَرْءُ، إنَّه لا أحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إنْ كانَ حَقًّا، فلا تُؤْذِنَا به في مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إلى رَحْلِكَ، فمَن جَاءَكَ فَاقْصُصْ عليه". فَقالَ الصحابي عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: "بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا به في مَجَالِسِنَا، فإنَّا نُحِبُّ ذلكَ". فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ واليَهُودُ، حتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ وغَادر.[46]

كان النبي ﷺ يعامل الآخرين بتواضع فلم يحتقر أحدا لا المتسول ولا العبد الفقير ولا الطفل ولا الهرم. كان يدعو الجميع للإسلام. ذات يوم مرض عبد يهودي كان يخدم النبي ﷺ في السابق فذهب النبي ﷺ يعوده فجلس عند رأسه ونصحه أن يُسلِم فنظر الشاب إلى أبيه الجالس بالقرب منه فقال له أبوه وقد أُعجب بطيبة وحب النبي ﷺ: يا بُنيّ، "أطِعْ أبا القاسِمِ." فأسلَم. فخرَجَ النَّبيُّ ﷺ مِن عندِه وهو يقولُ: "الحمدُ للهِ الَّذي أنقَذه مِن النَّارِ."[47] وذكر حديث آخر أن الغلام مات فطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يصلّوا على أخيهم.[48]

تضحيات للدعوة في المدينة

لم يكن من الممكن أن يبلِّغ النبي ﷺ وحده رسالة الإسلام في الجزيرة العربية كلها. لذا احتاج بالطبع إلى معاونين وداعمين ومبلغين، وطلبت عدة قبائل مدرِّسين للدِّين ومبلغين، فبعث النبي ﷺ بعشرة من أصحابه بقيادة عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه نزولا عند طلب قبيلتي عَضَل والقارَّة، فسافروا ليلا وتخفّوا في النهار. فقريش كانت تتقصى الأخبار على الدوام، ولما وصلوا إلى الرجيع علمت بهم بنو هذيل وهم يعادون النبي ﷺ فأرسلوا مائة رامٍ في إثرهم، ولما أحسَّ المسلمون بوجود هؤلاء صعدوا إلى موضع من جبل. فأحاطوا بهم وقالوا لهم انزلوا ولكم العهد ألا نقتل أحدا منكم، فقال لهم عاصم رضي الله عنه لا أنزل على عهد كافر واستمر في رميهم بالسهام وهو ينشد أبياتا ومنها:

"المـــوتُ حـــقٌ والحيـــاةُ باطـــل   وكـــلُّ مـــا قَضـــى الإلـــهُ نـــازل"

ولما فَنِيَت سهام عاصم ﵁، طاعنهم حتى انكسرت رمحه، ثم سلَّ سيفه. وقال: "اللهمّ إني حميت دينك صدر النهار فاحم لحمي آخره"، فقتلوه، وعندما أرادوا أن يأخذوا جثته فيُمثّلوا بها هاجمهم سِرب من الزنابير، فمنعهم عن جسده حتى جرفه الطوفان بعيدا.[49]

وتُعرف هذه الحادثة بـ "حادثة الرجيع" التي استُشهد فيها عاصم بن ثابت ﵁ وستة من أصحابه، أما الثلاثة الباقين، خبيب وزيد وعبد الله بن طارق ﵃، فقبلوا بعهد الأعداء ونزلوا من الجبل مستسلمين، فلما أمسكوهم ربطوا خبيبا وزيدا بالحبال وامتنع عبد الله وقال إنه لَأول غدْر للعهد، فمات وهو يقاتل أعداءه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما إلى رجال من مكة حتى ينتقموا لرجالهم الذين قُتلوا في بدر، ويوم جُلبوا إلى مكان إعدامهما طلب خبيب أن يُصلّي ركعتين وعندما انتهى قال: "والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع لزدت." لما خرجوا به ليقتلوه خرج النساء والصبيان والعبيد ثم أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها، وصلبوه عليها، ثم قالوا له: اِرجع عن الإسلام نُخل سبيلك، وإن لم ترجع لَنقتلنَّك قال: "إن قتلي في سبيل الله لقليل، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلّغ رسولك عني السلام، فبلّغه أنت عني السلام وبلِّغه ما يُصنع بنا."

وعن أسامة بن زيد ﵁ أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي فسمعناه يقول: "وعليه السلام ورحمة الله وبركاته"، فلما سري عنه قال: "هذا جبريل ﵇ يقرئني من خبيب السلام، خبيب قتلته قريش".

وقد دعت قريش أربعين ولدا ممن قُتل آباؤهم يوم بدر فأعطوا كل واحد رمحا، وقالوا هذا الذي قتل آباءكم، فطعنوا خبيبا ﵁ بتلك الرماح حتى قتلوه.[50]

واستشهد مبلّغون آخرون في بئر معونة وكانوا سبعين صحابي، وما حدث هناك هو أن زعيم بني عامر، عامر بن الطفيل، والذي لم يقبل الإسلام مع أنه صرّح بحبه لرسالة الإسلام، أتى الرسول ﷺ يطلب أن يبعث برجاله إلى قومه ليبلّغوهم الإسلام لعل بعضهم يُسلم، فقال له النبي ﷺ إنه يَخشى عليهم من قوم نجْد، فتولى أبو عامر أمرَ حراستهم وأخبر قومه أنه أجار أصحاب محمد، وكانوا سبعين ممن حفظوا القرآن الكريم، فأخذوا يعلِّمون القرآن والصلاة في النهار ويتعبدون الله في الليل، ودعا قائدهم حرام بن ملحان بني سُليم إلى الإسلام وسلّمهم

كتابا من النبي ﷺ، وبينما كان يتكلم وإذ بأحد يهجم عليه ويطعنه بالرمح من الخلف فتدفق الدم من عنقه. فقال: "الله أكبر، فُزتُ وربِّ الكَعبة"، وأَخذ دمَه في يديه ونَضَحَه على وجهِه ورأسه. لاحقا، هُوجم أصحابه السبعون الذين كانوا يَدعون إلى سبيل الله فاستُشهدوا.[51]

هذا ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من ولاء وتسليم بأمر الله حتى إنهم دعوا الله لحظة استشهادهم فقالوا: "اللهم إنا لا نجد من يبلّغ رسولك عنا السلام غيرك، فأقرِئه منا السلام". فأخبره جبريل عليه السلام بذلك، فقال ﷺ: وعليهم السلام، وأخبر أصحابه بما حدث. وقد حزن الرسول ﷺ وتأثر كثيرا كما لم يتأثر لموت من قبل، فدعا الله شهرا كاملا أن يعينه وينصره.[52]

استشهاد عروة رضي الله عنه سيد الطائف

بعد فتح مكة أقام النبي ﷺ حصارا على الطائف لبضعة أيام ثم أنهاه وعاد إلى المدينة، وفي طريق العودة أسلم عروة بن مسعود الذي كان سيد ثقيف، وطلب إذن العودة إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقال له النبي ﷺ إنهم سيقتلونه، فقال عروة إن قومه يحبونه أكثر من حبهم لأطفالهم، فعاد عروة إلى الطائف ولما أتوا للقائه دعاهم إلى الإسلام فرفضوا وذموه، وفي الصباح التالي لما خرج عروة من غرفته يتشهد، قتله رامٍ من ثقيف برُمحه، وقبل أن يلفُظ أنفاسه الأخيرة سُئل عن دِيّته فقال: " كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي فليس فيّ إلا ما في الشهداء".

وقال النبي ﷺ في حق عروة رضي الله عنه: "إن مثله في قومه كمثل صاحب يس (أي المذكور في سورة يس)، إنه قال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، فقتله قومه."[53]

الدعوة في سبيل الله في ساحة المعركة

بعد الهجرة إلى المدينة، ساد السلام، وأخذت الدعوة تنتشر بسرعة أكبر لكن مُشركي مكة ما لبثوا أن هاجموا المدينة، فما كان من أمير السلام ﷺ إلا أن رفع السلاح دفاعا عن نفسه، لكن الأولوية ظلت لنشر الدعوة حتى خلال هذه الفترة، وبسبب تهديدات يهود خيبر بالهجوم على المدينة وتداركا للخطر اضطر جيش المسلمين لحصار خيبر، وكان عبدٌ أسود يرعى غنم أسياده اليهود فاقترب من جيش المسلمين وعندما رأى أنهم أحاطوا بخيبر أقبل على النبي ﷺ الذي بدأ

يدعوه إلى الإسلام. فسأله العبد وماذا يكون لي إنْ أَسْلَمْت؟ فأجاب النبي ﷺ: "الجنّة إنْ مِتَّ على ذلك"، فقبل الإسلام.[54]

وصية لعليّ رضي الله عنه

قال رسول الله ﷺ يومَ خيبرَ لأُعطِينَّ الرايةَ رجلا يفتحُ اللهُ على يديهِ فذكرَ أنَّ الناسِ طمِعوا في ذلكَ فلمَّا كان من الغدِ قال أين عليٌّ؟ فقالَ على رسلِكَ انفُذْ حتَّى تنزلَ بساحتِهِم، فإذا أُنزلتَ بساحتِهم فادعُهم إلى الإسلامِ وأخبِرهُم بما يجبُ عليهِم منهُ منَ الحقِّ أو من حقِّ اللهِ فواللهِ لَإنْ يَهدي اللهُ بكَ رجلا واحدا خيرٌ لكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ."[55]

اللُّطف بالعدو في المعارك وانتشار الإسلام

بعد غزوة نَجْد التي سُميت بمعركة ذات الرِّقاع لأنَّ دَوابَّهُمُ الَّتي يَرتَحِلونَ عليها كانت قَليلةً، وقدْ تَقرَّحَتْ ووَرِمَتْ أقْدامُهم منَ الحَفاءِ، فلَفُّوا عليها الخِرَقَ، وهي الرِّقاعُ. وبينما كان النبي ﷺ ورجاله على طريق العودة مروا بواد فنزلوا يستريحون ويستظلون تحت الشجر وعلق النبي ﷺ سيفه على غصن الشجرة، وإذ بالنبي ﷺ يدعوهم فقدموا إليه فرأوا أعرابيا يجلس عنده، فقال لهم النبي ﷺ: "إنَّ هذا أتَانِي وأَنَا نَائِمٌ، فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو قَائِمٌ علَى رَأْسِي، مُخْتَرِطٌ صَلْتا، قالَ: مَن يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلتُ: اللَّهُ، فسقط السيف مِن يدهِ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال: من يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقال: كُنْ خَيرَ آخِذٍ، فقال: تَشهد أن لا إله إلا الله وَأَنِّي رسول الله؟ قال: لا، ولكني أُعَاهِدُكَ أن لا أُقَاتِلَكَ، ولا أكُون مع قوم يُقَاتِلُونَكَ."[56]

وعفا النبي ﷺ عنه وَخَلَّى سَبيلَهُ، فأتى الرجل أصحابه، فقال: جئتُكُمْ من عندِ خير الناسِ. وإن إعجابهم بعفو وإحسان النبي ﷺ جعل الكثير منهم يُسلم بعد ما رآه الرجل من معجزة الله في حماية نبيِّه.[57]

تدريب المبلّغين

اعتاد أفراد من قبائل تعيش حول المدينة أن يجلسوا مع النبي ﷺ فيدربهم على التبليغ ومن ثم يعودون إلى قومهم فيدعونهم إلى الإسلام. ذات مرة نزل المدينة مالك بن حُوَيرِث ومعه عشرون شابا وظلوا فيها عشرين يوما، فتعلموا تعاليم الإسلام ثم رجعوا إلى أهليهم.[58]

كان أصحاب الصُّفَّة يتلقون باستمرار تعاليم القرآن والسنة الشريفة في مسجد الرسول ﷺ، وإن أسلوب النبي ﷺ اللطيف وشخصيته المحبوبة لهما أفضل الوسائل في الدعوة والتعليم فهي تفلح دائما، ويرجع إسلام أول من أسلموا، خديجة رضي الله عنها وعليّ رضي الله عنه وأبو بكر رضي الله عنه، إلى خُلُق النبي ﷺ الكريم، ومن بعدهم قام النبي ﷺ بدعوة الكثير من الناس إلى الإسلام فأسلموا تأسِّيا به.

أثر الإحسان في كسب القلوب

لقد بعث النبي ﷺ بكتيبةٍ خيَّالة إلى نجْد فأمسكوا بثمامة بن أثال وهو زعيم بني حنيفة فربطوه بأحد أعمدة المسجد النبوي. فسأله النبي ﷺ: "مَاذَا عِنْدَكَ يا ثُمَامَةُ؟ فَقالَ: عِندِي يا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ علَى شَاكِرٍ، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ"، فَتَرَكَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ. وكان الهدف من ذلك أن يرى ثمامةُ المسلمين وهم يصلون. وأتاه النبي ﷺ في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه يعيد عليه السؤال نفسه ويعطيه ثمامة الجواب نفسه. ثم طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يُطلقوا ثمامة، وكان ثمامة قد أعجب بحسن معاملة النبي ﷺ وبما شاهده عند المسلمين خلال صلواتهم اليومية الخمس من وحدة وطاعة لسيدهم ﷺ. فلما أطلقوه اغْتَسل، ثُمَّ دخل المسْجِد، فقال: "أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، يا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ، ما كانَ علَى الأرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إلَيَّ مِن وَجْهِكَ، فقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ كُلِّهَا إلَيَّ، وَاللَّهِ، ما كانَ مِن دِينٍ أَبْغَضَ إلَيَّ مِن دِينِكَ، فأصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إلَيَّ، وَاللَّهِ، ما كانَ مِن بَلَدٍ أَبْغَضَ إلَيَّ مِن بَلَدِكَ، فأصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ كُلِّهَا إلَيَّ، وإنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قالَ له قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ، فَقالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ، لا يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسولُ اللهِ ﷺ".[59]

وبعد فتح مكة، أسلم كبار مكة متأثرين برأفة النبي ﷺ وإحسانه. تجدون المزيد من التفاصيل في الفصلين اللذين بعنوان "أخلاق النبي ﷺ العظيمة في الحروب" وعنوان "كرم وسخاء النبي ﷺ في الإنفاق في سبيل الله".

دعوة يهود المدينة

قبْل وصول النبي ﷺ إلى المدينة كان فيها ثلاث قبائل يهودية كبيرة. وكانت جميعها مشاركة في ميثاق المدينة الذي ضمن السلام مع المسلمين لكن هذه القبائل طُردت من المدينة الواحدة تلو الأخرى لخرقها الميثاق.

ومع أن أدلة صدق الإسلام كانت واضحة لهم وبعض أسيادهم كانوا على علم تام بالحقيقة إلا أن عالما يهوديا واحدا فقط هو الذي دخل الإسلام، ولم يتوقف باقي اليهود عن سلوكهم العدائي بل استمروا على ذلك ومعهم أسيادهم. وسبب ذلك هو أن هؤلاء رفضوا تسليم القيادة لغرورهم وتعنتهم، ولهذا قال النبي ﷺ: " لو آمن بي عشرة من اليهود، من أحبارهم، لآمن بي اليهود اتباعا لهم."[60]

كان اليهود يحضرون اجتماعات النبي ﷺ فيطرحون اعتراضاتهم وأسئلتهم لكنهم للأسف لم يهتدوا رغم تلقيهم أجوبة شافية. إن النبي ﷺ جاهدهم بالإقناع لكنهم لم يغيروا من سلوكهم قيد أنملة.

وكان النبي ﷺ يزور بيت المدراس وهو مركز تعليم لديهم، ويروي أبو هريرة ﷺ أنهم كانوا جالسين في المسجد النبوي فأتاهم النبي ﷺ فقال لهم: "انطلِقوا إلى اليهود"، فذهبوا إلى بيت المدراس فتوجه النبي ﷺ إلى اليهود يدعوهم للإسلام فقال: "يا معشر يهود أسلِموا تَسلَموا".[61]

دعوة النصارى

لقد دعا النبي ﷺ أقوام كل الأديان الموجودة آنذاك في الجزيرة العربية، ومنهم نصارى نجران. في بداية الإسلام كان هناك دولة نصرانية صغيرة في نجران وكان يحكمها قيصر الروم، وعرف قوم نجران بدعوة النبي ﷺ عبر المهاجرين المسلمين إلى الحبشة فبعثوا وفدا من نحو عشرين نفرا إلى مكة في السنة العاشرة من النبوة فأسلموا.[62]

في المدينة، جرى التواصل مع أهل نجران من خلال رسالة كتبها النبي ﷺ إلى أسقفهم يدعوه فيها إلى الإسلام لافتا انتباهه إلى القيم المشتركة بين العقيدتين، وذكر حبهم واحترامهم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم دعاه إلى عبادة الله الواحد الأحد وأن يسلموا أو يقبلوا بدفع الجزية

مقابل الحماية، فأتى وفد مكون من ثلاثة أشخاص من نجران إلى المدينة ومعهم كتاب قبولهم معاهدة الصُّلح.[63]

وأتى وفد آخر مكون من ستين شخصا في وقت لاحق في السنة التاسعة للهجرة، وكان في هذا الوفد زعماء دينيون وسياسيون، وبعد تفاوض مع أهل نجران دُعوا إلى المباهلة لكنهم لم يقتنعوا إلا أنهم جددوا معاهدة الصلح.

يجدر التذكير هنا بما حدث في تلك الجلسة بين النبي ﷺ وزعماء النصارى، حيث دعاهم ليسلموا فقالوا له إنهم مسلمون أصلا لاتباعهم دينا حقا ولأنهم يطيعون الله، فقال النبي ﷺ موجها كلامه لكبيرَيْهم: "كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاثة أشياء دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير". فقالوا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا في عيسى، فقال لهم النبيّ ﷺ: "ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟" فوافقوه. فقال: "ألستم تعلمون أنّ ربنا حيّ لا يموت وأنّ عيسى أتى عليه الفناء؟" فقالوا بلى. فقال: "ألستم تعلمون أنّ ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟" قالوا بلى، فقال: "هل يملك عيسى من ذلك شيئا؟" قالوا: لا، فقال: "ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟" فقالوا بلى، فقال: "فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علمه الله؟" قالوا لا، فقال: "فإنّ ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب". قالوا بلى، فقال: "ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبيّ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟" قالوا بلى، فقال: "وكيف يكون هذا كما زعمتم؟" فسكتوا ولم يعرفوا بما يجيبون.[64]

رسالة إلى الملوك

إن كتابة الرسائل إلى الملوك من أجل دعوتهم إلى الإسلام لهي خطوة جريئة وعبقرية أَقْدم عليها النبي ﷺ، فبعد الهجرة إلى المدينة كان الخطر الأكبر على المسلمين هم قريش مكة في الجنوب، وقد عُقد اتفاق معهم في السنة السادسة للهجرة، فتخلص المسلمون من أكبر خطر عليهم، رغم استمرار التهديد من يهود خيبر في الشمال، إلا أن أحوال المدينة عرفت نوعا من الاستقرار، وهذا أمَّن للمسلمين شيئا من الراحة، فانتهز النبي ﷺ هذه الفرصة لنشر دعوته،

فكتب إلى ملوك البلدان المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وكانت مملكتا الروم والفرس أقوى الامبراطوريات في ذلك الوقت. أما الدول العربية فما كانت إلا دويلات ملحقة تدفع لهما الضرائب؛ فَأنْ يتوجه عربي إلى هؤلاء الحكام فيدعوهم إلى طاعته فهو كإعلان حرب، وما كان شخص عادي يتجرأ على هذا أصلا، فقد أظهرت تلك الرسائل إيمان النبي ﷺ الراسخ بدعوته وثقته التامة بالله وشجاعته العظيمة.

رسالة إلى كِسرى، مَلِك الفُرس

بعث النبي ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس رضي الله عنه برسالة إلى كسرى بن هرمز، ملك بلاد فارس، وكانت تلك الرسالة نموذجا للرسائل التي كتبها لتبليغ الدعوة. جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم... مِن محمد رسول الله إلى كِسرى عظيم فارس، سلام على مَنِ اتَّبع الهُدى، وآمنَ بالله ورسوله، وشَهِد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لِيُنذِر من كان حيّا ويُحِق القول على الكافرين. فأَسلِم تَسلَم، فإنْ أَبَيتَ فإنّ إثمَ المجوس عليك".[65]

فمزّق كسرى الرسالة. فقال النبي ﷺ: مزَّق الله مُلكه، كما مزق الرسالة.[66] وكان كسرى قد أمرَ باذان عامِلَه في اليمن بالقبض على النبي ﷺ، فلما أتاه رجاله قال له: "إن ربي قد قتل ربك الليلة". وتحققت هذه النبوءة. ففي الليلة نفسها انقض شيرويه ابن كسرى على أبيه وقتله، ومات بدوره مسموما بعد ستة أشهر فقط وتولّت أخته الحكم من بعده. وهكذا مُزِّق مُلك فارس كل ممزَّق.[67]

رسالة إلى قيصر، ملك الروم

كتب النبي ﷺ هذه الرسالة وحملها دَحْيَة الكلبي رضي الله عنه إلى هرقل، جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم.... من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضا أَرْبَابا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾".

كان موقف هرقل موقفا كريما، إذ وضع الرسالة باحترام في صندوق من الذهب، ثم دعا إليه رجالا من قريش كانوا بالشام للتجارة، وفيهم أبو سفيان بن حرب، فأخذ يسأله، وكان ذلك قبل إسلامه، أسئلة دقيقة عن حياة صاحب الدعوى قبل البعثة وبعدها، ودار بينهما حوار طويل قال هرقل عَقِبه لأبي سفيان: "إن كان ما تقول حقا، فسيملك موضع قَدميّ هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنه مبعوث من الله ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أصِل إليه لتحمّلتُ المشاقّ في سبيله ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه". ثم فكر هرقل جيدا كيف يعرض دعوى النبي ﷺ على الروم، لكن لَمَّا فعل رفضوه بحزم فخاف هرقل ولم يجرؤ على إعلان إسلامه.[68]

قبول فروة بن عامر، عامِلِ مَلِك الروم، الإسلام

تتعلق القدرة على الإيمان بطِيبة الشخص وبفضل الله عليه. كان هرقل الحاكم على مملكة عظيمة لكنه فضّل الدنيا وخاف أن يقبل الإسلام. غير أن مأموره فروة الذي كان يحكم على أرض العرب قَبِل رسالة الإسلام، فبعد أن كتب إليه النبي ﷺ رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام. بعث فروة بمبعوث له إلى النبي ﷺ يُعلمه بإسلامه ويحمل معه هدايا وكان من ضمنها بغلا وفرسا وثيابا ثمينة مرصّعة بالذهب، ولما علم قيصر بإسلام فروة سجنه ووعده أن يعيده إلى مُلْكه إن رجع عن دين محمد، لكن فروة الذي كان استقام واهتدى أجابه قائلا: "لا أفارق دين محمد، فإنك تعلم أن عيسى عليه السلام بشَّر به، ولكنك تضنّ بمُلكك". فصَلَبه قيصر الروم.[69]

رسالة إلى النجاشي، ملك الحبشة

بعث النبي ﷺ عمرو بن أميّة الضَّمري رضي الله عنه برسالة إلى النجاشي، ملك الحبشة وقد كتب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتّبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بَعثتُ إليكم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقِرَّهم، ودَعِ التجبُّر فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغتُ

ونصحتُ، فاقْبلوا نصيحتي، والسلام على مَنِ اتَّبع الهُدى".[70]
عندها وضع النجاشي الرسالة على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض وأعلن إسلامه، ثم قال إنه لو استطاع لأتى النبي ﷺ بنفسه.

رسالة إلى ملك مصر

حمل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه رسالة النبي ﷺ إلى المُقَوقس ملك القِبط بينما كان الرسول عائدا من الحُديبية، وكان المقوقس نصرانيا، وكانت هذه الرسالة مشابهة للرسالة التي كتبها لقيصر الروم.
فسأل المقوقس المبعوث بعض الأسئلة بكل احترام، وجعل الرسالة في صندوق من العاج وكتب إلى النبي ﷺ أنه فَهِم رسالته وأنه كان ينتظر ظهور نبي في الشام، أكرم المقوقس حاطبا وأعطاه مئة دينار وخمسة أثواب، وبعث بعشرين ثوبا وامرأتين من نسب رفيع كهدية، وتزوج النبي ﷺ إحداهما وهي مارية القبطية، وطلب المقوقس من حاطب أن لا يخبر حاشيته لأنه يخاف أن يضيع منه ملكه لذا لا يريد أن يعلم قومه بالإسلام. وتنبأ النبي ﷺ بفتح مصر فقال لأصحابه: "إنَّكم ستفتحونَ مصر، وهِيَ أرضٌ يُسَمَّى فيها القيراطُ، فإذا فتحتُموها، فاستَوْصُوا بأَهْلِها خيرا، فإنَّ لهم ذمَّةً ورَحِما"، وهذا ما حدث بالفعل وفُتحت مصر في السنة السابعة عشرة للهجرة.[71]

رسالة إلى الملك الغسّاني

بعث رسول الله ﷺ شجاعَ بن وهب رضي الله عنه إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني أمير دمشق بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام. فقرأ فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شَمِر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك"، ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟" وطلب منه أن يخبر النبي بذلك وأنه سائر إليه بجيش.
وأخبر الحارثُ قيصر برسالة النبي ﷺ وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر ألا يسير إليه، وطلب منه أن يوافيه بالقدس، فلما جاءه جواب قيصر، دعا شجاعا فأعطاه مئة دينار وكسوة، ولما علم

النبي ﷺ بذلك قال: "باد مُلكه". ومات الحارث بن شَمِر عام فتح مكة.[72]

رسالة إلى حاكم اليمامة

أعطى النبي ﷺ رسالته الموجهة إلى هوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة لأحد أصحابه وهو سَليط بن عمرو العامري رضي الله عنه. كتب يدعوه فيها إلى الإسلام: "اِعلَم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر: أي حيث تقطع الإبل والخيل، فأسلِم تسلَم، وأجعل لك ما تحت يديك". وبعد أن انتهى من قراءة الرسالة كتب: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك". فقال النبي ﷺ: "لو سألني سيابة، أي قطعة من الأرض، ما فعلت. باد وباد ما في يديه". وفي عودته من فتح مكة أخبره جبريل عليه السلام أن هوذة قد مات.[73]

رسالة إلى ملك الغساسنة

كتب النبي ﷺ إلى ملك غسان جبلة بن الأَيْهم يدعوه إلى الإسلام، فقبل الإسلام لكنه ارتدّ في عهد عمر رضي الله عنه.[74]

رسالة إلى ملك الطائف

كان ذو الكَلاع الحِمْيَري أحد ملوك الطائف، واسمه سُمَيْفَع بن حَوشب. وقد ادَّعى الألوهية فأرسل إليه النبي ﷺ جرير بن عبد الله رضي الله عنه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، توفي النبي ﷺ قبل عودة جرير.[75]

رسائل إلى ملوك عُمان

بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه برسالتين إلى جيفر وعبد، وهما مَلِكا عُمان. فقال له الأخ الأكبر إنه سيُفكّر في الأمر ثم يُجيبه في الغد، وبعد بعض التردّد قبِل الإسلام وسَمح لعمرو بجمع الزكاة ممن أسلَموا، فجمع الزكاة من الأغنياء ووزَّعها على الفقراء.[76]

رسالة إلى ملك البحرين

بعث النبي ﷺ علاء بن الحضرمي رضي الله عنه برسالة إلى منذر بن ساوي العبدي ملك البحرين. فشهد

بصدق النبي ﷺ وقبِل الإسلام، فأبقى له النبي ﷺ مُلكه ونصَحَهُ بإعطاءِ الحرية الدينية إلى المسلمين وبأن يأخذ الجزية من اليهود والمجوس.[77]

رسالة من ملوك حِمْيَر إلى الرسول ﷺ

سمع النبي ﷺ بأن جيوش الروم قد تجمعت عند تَبوك فذهب إليها وقد رهَّب الخبر بعض القبائل ولَمَّا عاد وَصَلَه كتاب من ملوك حِمير يُعْلِمونه بإسلامهم فكتب يَردُّ عليهم ويَعِظُهم: "وإنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ هَدَاكُم بِهِدَايَتِه إن أصْلَحْتُم وأطَعْتُم اللهَ ورَسُولَه وأقَمْتُم الصَّلاةَ وأعْطَيْتُم الزَّكَاةَ وأعْطَيْتُم مِن المَغْنَامِ خُمْسَ اللهِ وخُمْسَ نَبِيِّه وصَفِيَّة، ومَا كَتَبَ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ مِن الصَّدَقَةِ، ومَن كانَ عَلَى يَهُودِيَّتِه أو نَصْرَانِيَّتِه، فإنَّه لا يُغَيَّرُ عَنْهَا وعَلَيْه الجِزْيَةُ، وإذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرا، وآمُركم بِحِميَرَ خيرا، فإن رسول الله هو وليُّ غنيِّكم وفقيرِكم، وأن الصدَقة لا تَحِلُّ لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكّى بها على فقراءِ المسلمين وابن السبيل".[78]

عام الوفود

كانت القبائل العربية الحيادية تشاهد الجانبين المقتتلين في حرب مكة والمدينة وتنتظر لترى أيهما يخرج منها منتصرا فتنحاز إليه، كانوا يتوقعون أن ينتصر المسلمون فانتظروا حتى فُتحت مكة، فجاءت وفود كثيرة في عام الفتح إلى المدينة لتُسلم فسُمِّي هذا العالم بعام الوفود، فأتى ما يقرب من سبعين وفدا واستضافهم الصحابة ﷺ كما طلب منهم النبي ﷺ بحفاوة، ومن أجل كسب قلوبهم كان النبي ﷺ يقدم لهم بعض الهدايا، وهذا الكرَم قرَّبهم أكثر إلى الإسلام. نذكر بعض ما روي عن تلك الوفود وما دار من حوار بينهم وبين النبي ﷺ.

1- وفد سعد بن بكر

روى أنس بن مالك ﷺ وصول هذا الوفد إذ قال: "بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متّكئ بين ظهرانيهم فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك، فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول مَن ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر".[79]

كان ضمام زعيم هذه القبيلة وقد عاد إلى أهله بعد تلك الحادثة ودعاهم إلى الإسلام.

2- وفد عَديّ بن حاتِم الطائي

كان حاتم الطائي مشهورا بكرمه بين العرب، وقد مات قبل زمن الرسول ﷺ. يروي ابنه عَديّ كيف قبِل الإسلام فيقول: "ما رجلٌ من العربِ كان أشدَّ كراهةً لرسولِ اللهِ ﷺ حين سمع به مني أما أنا فكنتُ امْرأً شريفا وكنتُ نصرانيّا وكنتُ أسيرُ في قومي بالمِرباعِ وكنتُ في نفسي على دِينٍ وكنتُ ملِكا في قومي لما كان يصنع بي فلما سمعتُ برسولِ اللهِ ﷺ كرهتُه فقلتُ لغلامٍ كان لي عربيٍّ وكان راعيا لإبلي لا أبا لك أعدد لي من إبلي أجمالا ذللا سمانًا فاحتَبِسْها قريبا مني فإذا سمعتَ بجيشٍ لمحمدٍ قد وطِئَ هذه البلادَ فآذِنِّي ففعل، ثم أنه أتاني ذاتِ غداةٍ فقال: يا عَديّ ما كنتَ صانعا إذا غشَيتْك خيلُ محمدٍ فاصنَعْه الآن فإني قد رأيتُ راياتٍ فسألتُ عنها فقالوا هذه جيوشُ محمدٍ قال قلتُ فقرِّبْ إليَّ أجمالي فقرَّبها فاحتملتُ بأهلي وولدي ثم قلتُ أَلحقُ بأهل ديني من النصارى بالشامِ فسلكتُ الحُوشِيَّةَ وخلَّفتُ بنتا لحاتمٍ في الحاضرِ فلما قدمتُ الشامَ أقمتُ بها فتخالفَتْني خيلُ رسولِ اللهِ ﷺ فتصيَّبتْ ابنةَ حاتمٍ فيمن أصابت فقدِم بها على رسولِ اللهِ ﷺ في سبايا من طَيِّءٍ وقد بلغ رسولَ اللهِ ﷺ هربي إلى الشامِ قال فجُعِلَتِ ابنةُ حاتمٍ في حظيرةٍ ببابِ المسجدِ كانت السبايا تُحبَسُ بها فمرَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ فقامت إليه وكانت امرأةً جزلةً فقالت: يا رسولَ اللهِ هلك الوالدُ وغاب الوافدُ، فامنُنْ عليَّ مَنَّ اللهُ عليك. قال: ومَن وافدُكِ؟ قالت عَديّ بنُ حاتمٍ. قال: الفارُّ من اللهِ ورسولِه، قد فعلتُ فلا تعْجَلي بخروجٍ حتى تجدي من قومِك من يكون لك ثقةً حتى يُبَلِّغَك إلى بلادكِ، قالت: وإنما أريد أن آتيَ أخي بالشامِ فجئتُ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ قد قدم رهطٌ من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغٌ قالت: فكساني وحمَلني وأعطاني نفقةً فخرجتُ معهم حتى قدمتُ الشامَ قال: عَديّ فواللهِ إني

لقاعدٌ في أهلي فنظرتُ إلى ظعينةٍ تصوب إلى قومِنا قال فقلتُ ابنةُ حاتمٍ. قال: فإذا هي هي فلما وقفتْ عليَّ استحَلَّتْ تقولُ القاطعُ الظالمُ احتملتَ بأهلِك وولدِك وتركتَ بقِيَّةَ والدِك عورتِك قال: قلتُ أيْ أُخَيَّةَ لا تقولي إلا خيرا فواللهِ مالي من عذرٍ لقد صنعتُ ما ذكرتِ، قال: ثم نزلتْ فأقامتْ عندي فقلتُ لها وكانت امرأةً حازمةً ماذا ترين في أمرِ هذا الرجلِ قالت: أرى واللهِ أن تلحقَ به سريعا فإن يكن الرجلُ نبيّا فللسابقِ إليه فضلُه وإن يكن ملِكا فلن تزَلْ في عزِّ اليمنِ وأنت أنت، قال: قلتُ واللهِ إنَ هذا الرأيُ.

فخرجْتُ حتى جِئتُه بالمدينة فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ الرَّجُلُ؟ فَقُلْتُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ بِي إِلَى بيته، فوالله إِنَّهُ لَعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ، فاستوقفته، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ، قَالَ: ثُمَّ مَضَى بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ، تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوَّةٍ لِيفًا، فَقَذَفَهَا إِلَيَّ، فَقَالَ: اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ قُلْتُ: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ، فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْأَرْضِ، قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، ثُمَّ قَالَ: إِيهِ يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ! أَلَمْ تَكُ رَكُوسِيًّا؟ (فئة من النصارى) قُلْتُ: بلَى. (قَالَ): أولم تَكُنْ تَسِيرُ فِي قَوْمِكَ بِالْمِرْبَاعِ؟ (أي يأخذ ربع الغنائم لنفسه) قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ، قُلْتُ: أَجَلْ وَاللَّهِ، وعرفت أنه نبي مرسل يَعلم ما يُجهَل، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِي هَذَا الدِّينِ مَا تَرَى من حَاجة أهله، فوالله لَيُوشِكَنَّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتَّى لَا يُوجد من يَأْخُذهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقلة عَددهمْ، فوالله لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنْ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتَّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ، لَا تَخَافُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِيهِ أَنَّكَ تَرى أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، وَايْمُ اللهِ لَيُوشِكَنَّ أَنَّ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ". وبعدما سمع عُديّ هذا الكلام المقْنِع أَسلم.[80]

3- وفد فروة

وفَدَ على رسول الله ﷺ فروة مفارقا لملوك كندة، وكان بين قومه مراد وبين همدان، قُبيلَ الإسلام، وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا، في يوم يقال له الرَّدْم، فقال له رسول الله ﷺ:

هل ساءَك ما أصاب قومك يوم الردم. فقال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوؤه؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا، واستعمله على مراد وزبيد، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.[81]

4- وفد كندة

وفد على رسول الله ﷺ ستون شخصا من قبيلة كندة بزعامة الأشعث بن قيس، وكانوا يلبسون الثياب الحريرية المصنوعة في اليمن، فحيوه بتحية الملوك قائلين: أبيت اللعن. فقال لهم: "لست ملكا أنا محمد بن عبد الله. قالوا: لا نسميك باسمك، قال: أنا أبو القاسم، فقالوا: يا أبا القاسم إنا خبأنا لك خبئا فما هو؟ وكانوا خبأوا لرسول الله ﷺ عين جرادة في ظرف سمن، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والكهانة والمتكهن في النار، فقالوا: كيف نعلم أنك رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه، فتلا رسول الله: ﴿والصَّافَّاتِ صفًّا﴾ حتى بلغ ﴿رَبُّ المشَارِقِ﴾ ثم سكت رسول الله ﷺ وسكن بحيث لا يتحرك منه شيء ودموعه تجري على لحيته، فقالوا: إنا نراك تَبكي، أفَمِن مخافةِ مَن أرسلَكَ تَبكي؟ فقال: إنَّ خَشْيَتي مِنهُ أبْكَتْني، بعثَني على صراط مستقيم في مثل حدِّ السيف، إن زِغْتُ عَنه هَلَكْت، ثم قال لهم: ألم تُسلموا؟ قالوا بلى، قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم. فعند ذلك نزعوه وألقوه.[82]

5- وفد همدان

كان هناك حرب بين همدان وفروة، لذا فإسلام فروة أزعج بالطبع أهل همدان، وبعد فتح مكة، بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد ؓ يدعوهم إلى الإسلام، فأقام بينهم ستة أشهر فلم يجيبوه، ثم بعث عليّا ؓ فتقدم بين أيديهم وقرأ عليهم كتاب الله فأسلموا جميعا، وكتب بذلك لرسول الله، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجدا ثم رفع رأسه، ثم قال: "السلام على همدان، السلام على همدان".[83]

6- وفد تُجيب

أتى ثلاثة عشر شخصا من قبيلة تُجِيب ومعهم زكاتهم، فأمرهم النبي ﷺ بتوزيعها على الفقراء،

فقالوا له إنهم قد فعلوا وأحضروا ما فاض عنهم، فسُرّ النبي ﷺ كثيرا منهم لأنهم ما جاؤوا يطلبون شيئا بل ليُسْلِموا ويقدموا التضحيات المالية، فشرح لهم النبي ﷺ تعاليم الإسلام بكل حب، ولما قرروا شد الرحال قال لهم لِمَ العجلة وطلب منهم أن يبقوا لبعض الأيام، فقالوا له إنهم يريدون تبليغ أفراد قبيلتهم فأجاز لهم النبي ﷺ وقدَّم لهم الهدايا.[84]

7- وفد سعد بن هُذَيم

أتى هذا الوفد بزعامة نعمان رضي الله عنه الذي روى أنهم عندما وصلوا كان النبي ﷺ يصلي على جنازة في المسجد فلم ينضموا إلى المصلِّين، وبعد أن عرّفوا بأنفسهم سألهم النبي ﷺ إن كانوا مسلمين فقالوا نعم فسألهم لم لم يصلوا على جنازة أخيهم المسلم فقالوا إنهم ظنوا أن لا تجوز لهم الصلاة حتى يبايعوه، فقال رسول الله ﷺ: "أيما أسلمتم فأنتم مسلمون" فقال نعمان رضي الله عنه: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام. فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا، وإنه خادمنا فقال: "سيد القوم خادمهم، بارك الله عليه"، فقال النعمان رضي الله عنه: فكان والله خيرَنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله له، ثم أمرَه علينا فكان يؤمُّنا".[85]

8- وفد بَلِيّ

أتى وفد من بني قضاعة وقبلوا الإسلام. فقال زعيمهم: "يا رسول الله إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غنيّ أو فقير فهو صدقة، فقال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: ثلاثة أيام". فأقاموا ثلاثة أيام، ثم ودّعوا رسول الله، وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم يدعون قبائلهم إلى الإسلام.[86]

9- وفد بني عذرة

أتى وفد بني عذرة من اليمن، فقالوا إن بينهم وبين النبي ﷺ صلة رحم من جهة الأم وأنهم أولاد أخ قصي بن كلاب. فقال رسول الله ﷺ: "مرحبا بكم وأهلا، فاستأنسوا ولا تستوحشوا، ما أعرفني بكم". ثم شرح لهم تعاليم الإسلام ونهاهم عن سؤال الكهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها إلى أصنامهم، فأسلموا وعادوا إلى بلادهم.[87]

فمع قدوم تلك الوفود كلها إلى الرسول ﷺ لتعلن إسلامها علت راية الإسلام بفضل جهود

النبي ﷺ فصدحت الأصوات بالتوحيد في كل الجزيرة العربية بعد أن كانت تعبد الأوثان.

آخر وصية للنبي ﷺ

بعد أن كرّس النبي ﷺ حياته كلها لنشر الإسلام ذكّر في حجة الوداع آلافا من أتباعه لب تعاليم الإسلام العظيمة، وقال في وصيته الأخيرة: "لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فإنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أنْ يُبَلِّغَ مَن هو أوْعَى له منه".[88]

ثم سأل من كان حاضرا: "هل بلَّغْتُ؟" قالوا: نَعَمْ. وبذلك شهدوا بصوت واحد أنه قد بلّغ. فرفع إصبعه إلى السماء وطَفِقَ يقول: "اللهمَّ فاشْهَد".[89]

لا شك في أن الله وملائكته يشهدون أنك يا سيدنا أديت الواجب وبلغت رسالة الإسلام.

اليوم بعد أربعة عشر قرن، نشهد نحن أتباعك كما شهد آلاف أصحابك بأنك بلغت الرسالة. ونشهد أيضا أن الطريقة التي اتبعتها لنشر الإسلام لا مثيل لها في التاريخ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 101، طبعة القاهرة.
[2] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي.
[3] صحيح مسلم؛ كتاب الطلاق، باب فِي الإِيلاَءِ وَاعْتِزَالِ النِّسَاءِ وَتَخْيِيرِهِنَّ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾.
[4] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 31، طبعة بيروت.
[5] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 34، طبعة بيروت.
[6] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 39 طبعة بيروت. المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 268، طبعة بيروت.
[7] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.
[8] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء.
[9] تفسير الطبري؛ الجزء 19، ص 409و410، طبعة بيروت.
[10] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 37، طبعة بيروت.
[11] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 82، طبعة بيروت.
[12] الخصائص الكبرى؛ الجزء 1، ص 188، طبعة بيروت.
[13] صحيح مسلم؛ كتاب الجمعة، باب تَخْفِيفِ الصَّلاَةِ وَالْخُطْبَةِ.
[14] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 148، طبعة بيروت.
[15] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
[16] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 3، ص 522-521، طبعة بيروت.
[17] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 4، ص 239، طبعة بيروت.
[18] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 45، طبعة بيروت.
[19] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 266، طبعة بيروت.
[20] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 291، طبعة بيروت.
[21] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 201، طبعة القاهرة.
[22] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 291، طبعة بيروت.
[23] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
[24] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 343 و 344، طبعة بيروت. كنز العمال، الجزء 12، ص 605 - 609، طبعة مصر .
[25] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 390، طبعة بيروت.
[26] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 120، طبعة القاهرة.
[27] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 350، طبعة بيروت.
[28] دلائل النبوة لأبي نعيم؛ الجزء 1، ص 198، طبعة بيروت.

[29] سنن الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب 24.

[30] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 287، طبعة بيروت.

[31] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 288، طبعة بيروت.

[32] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 492، طبعة القاهرة.

[33] السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 135، طبعة بيروت.

[34] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 376، طبعة القاهرة.

[35] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 212، طبعة بيروت.

[36] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 419، طبعة بيروت.

[37] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 419، طبعة بيروت.

[38] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 264، طبعة بيروت.

[39] كنز العمال؛ الجزء 2، ص 202، طبعة مصر.

[40] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 421، طبعة بيروت.

[41] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى.

[42] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 117. New edition 1877, London.

[43] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 294، طبعة بيروت.

[44] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 339، طبعة القاهرة.

[45] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 190، طبعة بيروت.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران.

[47] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام.

[48] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 260، طبعة القاهرة.

[49] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 455- 457، طبعة بيروت.

[50] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 458-460، طبعة بيروت.

[51] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 468-471، طبعة بيروت.

[52] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 242، طبعة بيروت.

[53] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 64، طبعة بيروت.

[54] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 137، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 344، طبعة بيروت.

[55] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل.

[56] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق.تفسير حقي (روح البيان)؛ الجزء 3، ص 296، طبعة بيروت.

[57] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 347، طبعة بيروت.

[58] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

[59] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.

[60] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة.

[61] صحيح البخاري؛ كتاب الإكراه، باب في بيع المكره ونحوه في الحق وغيره.

[62] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 247، طبعة بيروت.

[63] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص483-485، طبعة بيروت.

[64] أسباب النزول؛ الجزء 1، ص 61و 62، طبعة عالم الكتب بيروت.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر. تاريخ الطبرى؛ الجزء 2، ص 132، 133، طبعة بيروت.

[66] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 19، طبعة بيروت.

[67] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 137، طبعة بيروت.

[68] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

[69] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 235، طبعة بيروت.

[70] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص483-485، طبعة بيروت.

[71] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 251، طبعة بيروت.

[72] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 255، طبعة بيروت.

[73] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 254، طبعة بيروت.

[74] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 255، طبعة بيروت.

[75] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 482،483، طبعة بيروت.

[76] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 483، طبعة بيروت.

[77] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 295، طبعة بيروت.

[78] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 485، طبعة بيروت.

[79] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب ما جاء في العلم. وقوله تعالى ﴿وقل رب زدني علما﴾ (طه: 114).

[80] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 225، طبعة بيروت.

[81] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 226، طبعة بيروت.

[82] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 228، طبعة بيروت.

[83] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 230، طبعة بيروت.

[84] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 231، طبعة بيروت.

[85] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 232، طبعة بيروت.

[86] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 236، طبعة بيروت.

[87] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 235، طبعة بيروت.

88 صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ (رب مبلغ أوعى من سامع).

89 صحيح البخاري؛ كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.

رسول الله ﷺ المربي والمعلم

لقد أُرسل سيدنا محمد ﷺ إلى قوم جاهل لا مثيل لهم في الظلم، فدرّب هؤلاء الأعراب بكل حب وعاملهم بالحسنى ودعا لهم بضراعة وأنار قلوبهم حتى باتوا نجوما متلألئة في سماء الروحانية، وقد كانت تلك المعجزة بحد ذاتها شهادة عملية على مكانة رسول الله ﷺ الخُلقية والعملية. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: 34)، ورسول الله ﷺ كان تجسيدا عمليا لهذا التعليم، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 22)

إن التعليم الأساسي في التربية الذي أقره القرآن الكريم هو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم: 7) وبناء على هذا المبدأ القرآني بدأ رسول الله ﷺ عملية التدريب من الوحدة الأساسية وهي العائلة وجعل نفسه أسوة بالبدء بتدريب أفراد عائلته، فجاء في القرآن الكريم:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: 33-35)

تدريب أهل بيته

لقد كان رسول الله ﷺ الأسوة في صلاته التهجد إذ كان يداوم عليها ويؤديها بانتظام، وكان يوقظ زوجاته للصلاة، فذات ليلة استيقظ وقال شفقة عليهن: "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن، أيقظوا صواحبات الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة." أي لباس التقوى.[1]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَلَى فَاطِمَةَ رضي الله عنها مِنْ اللَّيْلِ فَأَيْقَظَنَا لِلصَّلَاةِ قَالَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ فَصَلَّى هَوِيًّا مِنْ اللَّيْلِ قَالَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَنَا حِسًّا قَالَ

فَرَجَعَ إِلَيْنَا فَأَيْقَظَنَا وَقَالَ قُومَا فَصَلِّيَا قَالَ فَجَلَسْتُ وَأَنَا أَعْرُكُ عَيْنِي وَأَقُولُ إِنَّا وَاللهِ مَا نُصَلِّي إِلَّا مَا كُتِبَ لَنَا إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا قَالَ فَوَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ وَيَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِهِ مَا نُصَلِّي إِلَّا مَا كُتِبَ لَنَا مَا نُصَلِّي إِلَّا مَا كُتِبَ لَنَا، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا.[2]

وفي رواية أخرى أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمُرُّ بِبَابِ فَاطِمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ إِذَا خَرَجَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ يَقُولُ الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: 33).[3]

إن رسول الله ﷺ قد وضح تمام الوضوح لابنته فاطمة رضي الله عنها ولكل أقربائه بأنه لا يغني عنهم من الله شيئا وأن عليهم القيام بالأعمال الصالحة.[4]

كانت ركيزة تدريب رسول الله ﷺ لأطفاله حب الله تعالى، وذلك ليزدهروا في حبه وليتجذر حب الله في قلوبهم فيستغنوا عن كل شيء إلا الله تعالى، وكان رسول الله ﷺ يضم إليه الحسن والحسين رضي الله عنهما ويقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا".[5]

عندما زوّج رسول الله ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلي رضي الله عنه جهزها بِخَمِيلَةٍ وَوِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ وَرَحَيَيْنِ وَسِقَاءٍ وَجَرَّتَيْنِ فَقَالَ عَلِيٌّ لِفَاطِمَةَ رضي الله عنها ذَاتَ يَوْمٍ وَاللهِ لَقَدْ سَنَوْتُ (أي استقيت من البئر) حَتَّى لَقَدْ اشْتَكَيْتُ صَدْرِي، وَقَدْ جَاءَ اللهُ أَبَاكِ بِسَبْيٍ فَاذْهَبِي فَاسْتَخْدِمِيهِ فَقَالَتْ وَأَنَا وَاللهِ قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجَلَتْ يَدَايَ (أي غلُظ جلدها) فَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ مَا جَاءَ بِكِ أَيْ بُنَيَّةُ قَالَتْ جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكَ وَاسْتَحْيَتْ أَنْ تَسْأَلَهُ وَرَجَعَتْ فَقَالَ مَا فَعَلْتِ قَالَتْ اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ فَأَتَيْنَاهُ جَمِيعًا فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى اشْتَكَيْتُ صَدْرِي وَقَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجَلَتْ يَدَايَ وَقَدْ جَاءَكَ اللهُ بِسَبْيٍ وَسَعَةٍ فَأَخْدِمْنَا فَقَالَ رَسُولُ ﷺ وَاللهِ لَا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ لَا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ وَلَكِنِّي أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ فَرَجَعَا فَأَتَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ دَخَلَا فِي قَطِيفَتِهِمَا إِذَا غَطَّتْ رُءُوسَهُمَا تَكَشَّفَتْ أَقْدَامُهُمَا وَإِذَا غَطَّيَا أَقْدَامَهُمَا تَكَشَّفَتْ رُءُوسُهُمَا فَثَارَا فَقَالَ مَكَانَكُمَا ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي قَالَا بَلَى فَقَالَ كَلِمَاتٌ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ تُسَبِّحَانِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَتَحْمَدَانِ عَشْرًا وَتُكَبِّرَانِ عَشْرًا وَإِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا

فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ.

وقال علي رضي الله عنه عن هذه الكلمات: فَوَاللهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فقالوا له: ولا ليلة صِفِّين؟ فقال: ولا ليلة صفّين. [6]

النصيحة والتذكير بها

كان رسول الله ﷺ يضع بالحسبان دائما نظام التدريب المذكور في القرآن الكريم: "فذكّر". وكان يحب أن يكرر نصحه في المسائل المهمة بناء على هذا المبدأ القرآني، وكان ينصح الناس بتقوى الله خاصة. ففي مناسبات النكاح أو خطاباته وقت الحاجة، كان يتلو الآيات التي تحض على التقوى. ونجد في وعظه العام ذكره الكثير للآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: 19) وكذلك الآيات التي تحض على محاسبة النفس والتسابق في الخيرات.[7]

محاسبة النفس

إن محاسبة النفس والتسابق في الخيرات أداة تدريب رائعة، وقد استخدمها رسول الله ﷺ استخداما خاصا؛ فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أن رَسُولُ اللهِ ﷺ صلى الصبح ثم أقبل على أصحابه فقال: "هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أَنَا بِسَائِلٍ يَسْأَلُ فَوَجَدْتُ كِسْرَةَ خُبْزٍ فِي يَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَأَخَذْتُهَا مِنْهُ فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ.[8]

ثم سأل النبي ﷺ: هل منكم أحد عاد مريضا؟" فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله صلينا ثم لم نبرح فكيف نعود المرضى؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلغني أن أخي عبد الرحمن بن عوف اشتكى فجعلت طريقي عليه حين خرجت إلى المسجد لأنظر كيف أصبح، وسأل النبي ﷺ: "هل منكم أحد أصبح صائما؟" فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لم أحدث نفسي بالصوم البارحة فأصبحت مفطرا. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لكني حدثت نفسي بالصوم البارحة فأصبحت صائما. فقال رسول الله ﷺ: " أنت فأبشر بالجنة". فتنفس عمر رضي الله عنه فقال: واها للجنة. فقال النبي ﷺ كلمة رضي بها عمر: "رحم الله عمر رحم الله عمر لم يرد خيرا قط إلا سبقه أبو بكر إليه".[9]

بيعة التوبة

كان رسول الله ﷺ، بهدف تربية الصحابة وترقيتهم روحانيا، وتبعا للحكم الرباني، يأخذ البيعة على الطاعة والقيام بالصالحات والامتناع عن السيئات وكان يحرص على أن يلتزم الناس بعهدهم.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ".[10]

إن الدرس الأساسي في التدريب الذي أشار إليه رسول الله ﷺ هو صدق النية، فقال: "إنما الأعمال بالنيات".[11] وقال أيضا: "إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ."[12] وقد ضرب مثلا على ذلك بقوله: "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار. إن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة."[13]

وأضاف ﷺ: "وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[14] وبذلك لا تتم الأعمال الصالحة إلا بالنية الحسنة ولهذا فإن الدعاء أساسي في التدريب الفردي والجماعي. كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: "اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، ولما سُئل ﷺ عن سبب دعائه بذلك لنفسه قال: "إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كما يشاء".[15]

ما كان رسول الله ﷺ يحب المديح وإن كان بهدف التشجيع؛ فعندما سمع أحدا يثني على شخص قال له: "ويحك قطعت عنق صاحبك"، وذلك لما قد يؤدي المدح إلى نشوء الكبر في صاحبه، وأضاف ﷺ قائلا: "إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسِب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك والله حسيبه ولا يزكي على الله أحدا".[16]

قصّت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها مناما رآه أخوها عبد الله بن عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فعبّره لها معطيا نصيحة قيمة فقال: "إن عبد الله رجل صالح لو كان يكثر الصلاة من الليل".[17]

إن هذه الرغبة الصادقة والتشجيع الذي قدمه رسول الله ﷺ قد أحدث ثورة في حياة عبد الله بن عمر رضي الله عنه الذي أصبح شخصا مخلصا تقيا.

مثال رائع في الصدق

يلعب الصدق دورا أساسيا في تربية النفس. تاب ذات مرة شخص على يد رسول الله ﷺ وأقر بضعفه وأنه يصعب عليه التخلص من سيئاته كلها مرة واحدة ولكن إن منع من واحدة فيمكنه فعل ذلك، فقال له رسول الله ﷺ أن يمتنع عن الكذب وأن ذلك سيكون كفيلا بخلاصه من عيوبه الأُخرى.

وقد نصح رسول الله ﷺ أصحابه أن يكونوا أسوة لأطفالهم في الصدق وألا يكذبوا وإن كانوا مازحين؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي، فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطك، فقال رسول الله ﷺ وما أردت أن تعطيه؟ قالت أعطيه تمرا، فقال رسول الله ﷺ: "أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليك كذبة."[18]

كان رسول الله ﷺ حريصا على حالة أصحابه الروحانية، ومن أساليب تطور الصحابة الروحاني أن يجعلهم يتسابقون في الخيرات وأن ينصحهم عندها. افتقد النبي ﷺ ثابت بن قيس فذهب رجل يستعلم عنه وعاد منه بالخبر؛ أنه قرر الجلوس في بيته بعد أن أنزلت آية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: 3) لأن صوته كان جَهوريا فلا بد أن عمله قد حبِط، فأرسل إليه الرسول ﷺ ببشارة عظيمة وقال: "إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة".[19]

التربية بحب عميق

لقد استخدم رسول الله ﷺ أسلوبا مهما في التربية، ألا وهو كسب قلوب الناس باللطف والمحبة. فعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: "خمس صلوات في اليوم والليلة"، فقال هل علي غيرها؟ قال: "لا إلا أن تطوع". قال رسول الله ﷺ: "وصيام رمضان". قال هل علي غيره؟ قال: "لا إلا أن تطوع". قال وذكر له رسول الله ﷺ

الزكاة، قال هل علي غيرها؟ قال: "لا إلا أن تطوع". قال فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: "أفلح إن صدق".[20]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِن الْقَوْمِ، فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ. فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ.[21]

وجاء أعرابي فأناخ راحلته ثم بال في المسجد، فحاول الصحابة منعه من ذلك فقال رسول الله ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين." ثم نصح الأعرابي قائلا: إنما بني هذا البيت لذكر الله والصلاة ولا يُبال فيه.[22]

وذكر أبو هريرة رضي الله عنه أن هذا الأعرابي ظل يذكر هذا الخُلق الرفيع للرسول ﷺ ويقول: بأبي هو وأمي فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب.[23]

ذات مرة، قام رسول الله ﷺ في الصلاة وقام معه صحبه فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا. فلمّا سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: "لقد حجّرت واسعا"، يريد رحمة الله تعالى.[24]

غالبا ما كسب رسول الله ﷺ قلوب أصحابه بمجرد غض النظر عن أخطائهم غير المقصودة، وبتشجيعه لهم قد استطاعوا تطوير أعلى درجات الأخلاق. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة (أي هربوا) وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت له توبة وإلا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال من القوم؟ فقلنا نحن الفرارون، قال: لا بل أنتم العكارون (أي العائدون) أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين قال فأتيناه حتى قبلنا يده.[25]

نظام مركزي للتربية الجماعية

بدأ رسول الله ﷺ هذا النظام بهدي من القرآن الكريم؛ وذلك بأن يأتي أناس من مناطق مختلفة إلى المركز ليتفقهوا بالدين بصحبة الرسول ﷺ ثم يعودوا إلى قومهم ليعلّموهم وفق ما ورد في الآية:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: 122)

ووفقا لهذا الترتيب كان أصحاب الصفّة يقون باستمرار قرب مسجد رسول الله ﷺ وبصحبته وكان يُعنى بنفسه بتدبير مأكلهم وإقامتهم. عن مالك بن الحويرث قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا لأهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه وكان رقيقا رحيما فقال: "ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم."[26]

إقناع السامع بالمنطق

كان رسول الله ﷺ يفضل الإقناع بالمنطق في أمور التربية وكان يدعو لمن يتلقون التربية والتدريب منه. أتاه مرة فتى شاب فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا مه مه، فقال أدنه فدنا منه قريبا فجلس. قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والّله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.[27] فيا له من معلم مشفق بالإنسانية!

وروي أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال: "أحسنتُ إليك؟". قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه،

فأشار النبي ﷺ إليهم أن كفوا، فلما قام النبي ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال له: "إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت". فزاده رسول الله ﷺ شيئا فقال: "أحسنتُ إليك؟". فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرا. فقال له النبي ﷺ: "إنك كنت جئتنا، فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم". فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: "إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذاك؟". قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرا. فقال النبي ﷺ: "إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فقال صاحب الناقة: خلو بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها، ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال دخل النار".[28]

مجالس العلم

إن صحبة رسول الله ﷺ الصالحة ومجالسه المباركة كانت أفضل مصدر للتربية، ولذلك أوصى القرآن الكريم بصحبة الصادقين والصالحين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: 119). وفي مكان آخر وصفت صحبة رسول الله ﷺ بأنها مصدر إحياء فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأَنْفال: 25). وبحضور مثل هذه المجالس تلين القلوب وتؤخذ النصائح، وبتجنب هذه المجالس تقسوا القلوب، وهذا هو السبب وراء الطبع على القلوب عند تفويت الجُمع في قول رسول الله ﷺ: "من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طُبع على قلبه". وبالاستمرار على ذلك تسوَّد القلوب ويتضاءل قبول النصح.[29]

كان رسول الله ﷺ يحض على حضور هذه المجالس المباركة؛ فذات مرة بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل إثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم

فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه."[30]

النصح بضرب الأمثال

تمتع رسول الله ﷺ بالقدرة على النصح بضرب الأمثال؛ فلإصلاح المجتمع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرب مثلا وقال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا".[31]

فمجتمع لا تبذل فيه المساعي لوقف الشر ونشر الصلاح يلقى المصير نفسه من الهلاك.

وبالمثل فقد شبّه ﷺ الصلوات الخمس بالنهر الجاري فقال: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ما تقول ذلك يبقي من درنه؟". قالوا لا يبقى من درنه شيئا قال: "فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا."[32]

وقد ضرب النبي ﷺ مثل النخلة للمسلم في التعاطف وخدمة الإنسانية، وقد بين ذلك بطريقة ملفتة جعلت من الفكرة تترسخ في أذهان كل من حضر ذلك المجلس إذ سألهم أولا: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي؟". فوقع الناس في شجر البادية ثم أخبرهم رسول الله ﷺ أنها النخلة.[33]

فالنخلة تنتصب وحدها في الصحراء وتتحمل تقلبات الطقس ومتطلباتها ضئيلة بل يستظل بظلها وتؤتي أُكلها وينتفع بورقها وجذعها، وكذلك نفع المؤمن لغيره.

كانت صحبة رسول الله ﷺ المباركة ومجالسه أفضل مصدر لتربية النفوس؛ فقد عطس عنده رجلان فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ عَطَسَ فُلانٌ فَشَمَّتَّهُ وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تُشَمِّتْنِي. قَالَ: "إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ".[34]

لقد كان الله ﷻ هو نفسه معلم رسول الله ﷺ، فبالإضافة إلى تعاليم القرآن الكريم كانت الرؤى والوحي والكشوف مستمرة كمصدر للهدي الروحاني. قال رسول الله ﷺ: "أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ فَجَذَبَنِي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ الْآخَرِ فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الْأَصْغَرَ مِنْهُمَا

فَقِيلَ لِي كَبِّرْ فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ."[35]

وقد كان رسول الله ﷺ ينصح دائما باحترام الكبير.

آداب الأكل والشرب

ذات مرة أُتي النبي ﷺ بشراب فشرب منه وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخٌ فقال للغلام: "أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟"، فقال الغلام: لا. والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا.[36]

وفي مرة أخرى كان رسول الله ﷺ يأكل طعاما مع بعض أصحابه فجاء أعرابي فأكله بلقمتين. فقال رسول الله ﷺ: "أما أنه لو كان قال بسم الله لكفاكم. فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله فإن نسي أن يقول بسم الله في أوله فليقل بسم الله في أوله وآخره."[37]

آداب دخول البيت

كان رسول الله ﷺ يُعنى بأدق التفاصيل في تربية أصحابه، فعلّمهم آداب دخول البيت. فعن جابر رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فدق بابه فقال: "من ذا؟"، فقال جابر رضي الله عنه: أنا. فقال ﷺ: "أنا، أنا" كأنه كرهها.[38] فقد كان يريد من أصحابه أن يعرفوا بأنفسهم وهذا ما أصبحوا يفعلونه عند الاستئذان بالدخول.

أسلوب تأدية الصلاة

لقد علم رسول الله ﷺ طريقة تأدية الصلاة من خلال أسوته الحسنة، وكان أيضا يراقب تأدية أصحابه لها وينصح لهم. ذات مرة، دخل النبي ﷺ المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاءِ فسلم على الرسول ﷺ فرد النبي ﷺ عليه السلام وقال: "ارجع فصل فإنك لم تصل"، فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال له مرة أخرى: "ارجع فصل فإنك لم تصل". وتكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال الرجل: والذي بعثك بالحق فما أُحسِن غيره فعلمني، فقال الرسول ﷺ: "إذا قمت إلى الصلاة فكبر واقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها."[39]

تعليم آداب الطعام

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ، فَرَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: وَيْحَكَ، اصْنَعْ لَنا طَعَامًا لِخَمْسَةِ نَفرٍ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، قَالَ: فَصَنَعَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَاهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ وَاتَّبَعَهُمْ رَجُلٌ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا اتَّبَعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعَ»، قَالَ: لَا، بَلْ آذَنُ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ.[40]

عن حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا."[41] ثم ذكر اسم الله وبدأوا بالأكل.

أسلوبه في النصح

في بعض الأحيان يهاجم الشيطان من خلال الأعمال الصالحة، لذلك كان الرسول ﷺ حريصا في مثل هذه المسائل وينصح بالحسنى وفقا للموقف. فإن استأذن أحد للجهاد وأبواه بحاجة له منعه وقال له أن يجاهد فيهما، وإن وجد تهاونا في الصلاة نصح بأن خير الأعمال الصلاة على وقتها، وإن أحسَّ أي شائبة من رياء أو تكلف منعها. جاء أعرابي إلى المدينة، وعادة لا يبقى الأعراب في المدن ولا يدخلونها إلا لحاجة ماسة، وقد سمع قبل فتح مكة أن رسول الله أخذ البيعة على الهجرة واستفسر من النبي ﷺ عن الهجرة وإن كان عليه أن يبقى في المدينة فقال رسول الله ﷺ: "ويحك إن شأنها شديد فهل لك من إبل تؤدي صدقتها". قال نعم قال: "فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يَتِرَك من عملك شيئا".[42]

فقد أدرك النبي ﷺ أن هذا الأعرابي لن يستطيع المحافظة على وعد الهجرة إن وعد بها، فنصحه بالزكاة وأن الله لن يحرمه عمله الصالح أينما عمله.

كان من عادة رسول الله ﷺ عندما تأتيه شكوى على أحد أن ينصح المخطئ وإن كان عزيزا عليه، ولكنه في الوقت نفسه كان يتحين الوقت والمكان المناسبين لذلك. فقبل تحريم الخمر، آذى أشخاص ناقتين لعلي رضي الله عنه وهم بحالة سكر، وكان حمزة رضي الله عنه عمّ رسول الله ﷺ الفاعل، فذهب رسول الله ﷺ إلى المكان على الفور، فطفق يلومه فيما فعل ولما رأى أنه ثمِلٌ نكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى وخرج.[43]

وذات مرة كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظُلل عليه فقال: "ما هذا؟"، فقالوا صائم. فقال: "ليس من البر الصوم في السفر."[44]

وفي حجة الوداع أفاض رسول الله ﷺ من عرفات إلى منى فسمع وراءه زجرا شديدا وضربا وصوتا للإبل إذ كان الناس يتسابقون عليها، فأشار بسوطه إليهم وقال: "أيها الناس، عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع" أي ليس بالإسراع.[45]

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من كل رمضان، فاستأذنته أن تعتكف فأذن لها فضربت في المسجد قبة، فسمعت بها حفصة رضي الله عنها فضربت قبة، وسمعت زينب رضي الله عنها بها فضربت قبة أخرى، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الغد أبصر أربع قباب فقال: "ما هذا؟"، فأخبر خبرهن فقال: "ما حملهن على هذا؟ آلبر؟ انزعوها فلا أراها"، فنزعت فلم يعتكف في رمضان حتى اعتكف في آخر العشر من شوال.[46]

لقد أشار النبي ﷺ بذلك إلى مبدأ أخلاقي بأن على المرء أن يضع رضا الله تعالى في الحسبان دوما وألا يكون الدافع هو الغيرة التي تولد العُجب.

ما كان رسول الله ﷺ يحب العسر والتضييق في الدين لأن ذلك ينفّر من الدين وكان يأمر بالتيسير وعدم التعسير، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فقال أبو مسعود رضي الله عنه: فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ فقال: "أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة".[47]

وكان رسول الله ﷺ يقول: بشروا ولا تنفروا. وكان يراعي الأوقات بالموعظة فلا يفعل ذلك كل يوم كي لا يمل الناس.[48]

في المراحل الأولى من التربية لا بد من ترسيخ الأعمال البسيطة والأخذ بيد الناس، وكان رسول الله ﷺ يحب الأعمال الحسنة المستديمة على العابرة المنقطعة؛ فكان يقول: "إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ".[49]

وقد دخل مرة على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة، قال: "من هذه"، قالت فلانة تذكر من صلاتها، قال: "مَهْ! عليكم بما تطيقون فوالله لا يملُّ الله حتى تملُّوا."[50]

عندما علم رسول الله ﷺ أن بعض الناس قد انقطعوا عن الدنيا للتعبد قام بمنع ذلك، وعندما قالوا له إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر غضب ﷺ حتى عُرف الغضب في وجهه وقال: "وَاَللَّه إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُوم وَأُفْطِر وَأُصَلِّي وَأَرْقُد وَأَتَزَوَّج النِّسَاء."[51]

وكان رسول الله ﷺ يعرف طباع أصحابه فيربيهم بكل محبة، وفي بعض الأحيان كانت إشارة منه أو تعبير عن كراهة شيء، بدل النصح بالكلام، أفضل وأكثر فعالية كوسيلة تربية. فمرةً وبينما رسول الله ﷺ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ فَآذَاهُ فَصَمَتَ عنه أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ."[52]

إظهار عدم الرضا في محله

في بعض الأحيان، كان عدم الرضا يعلو وجه رسول الله ﷺ؛ فذات مرة قدم رجل من نجران إلى رسول الله ﷺ وعليه خاتم ذهب فأعرض عنه رسول الله ﷺ ولم يسأله عن شيء فرجع الرجل إلى امرأته فحدثها فقالت إن لك لشأنا (أي أنه يختال) فارجع إلى رسول الله ﷺ فرجع إليه فألقى خاتمه وجبة كانت عليه، فلما استأذن أُذن له وسلم على رسول الله ﷺ فرد عليه السلام، فقال يا رسول الله أعرضت عني قبل حين جئتك، فقال رسول الله ﷺ إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار، فقال يا رسول الله لقد جئت إذا بجمر كثير وكان قد قدم بحلي من البحرين، فقال رسول الله ﷺ إنما جئت به غير مغن عنا شيئا إلا ما أغنت حجارة الحرة ولكنه متاع الحياة الدنيا، فقال الرجل يا رسول الله اعذرني في أصحابك لا يظنون أنك سخطت علي

بشيء، فقام رسول الله ﷺ فعذره وأخبر أن الذي كان منه إنما كان لخاتمه الذهب.[53]

وعن أنس رضي الله عنه قال أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يجامعوها، وحين نزلت الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أمرهم رسول الله ﷺ أن يصنعوا كل شيء إلا النكاح، قالت اليهود ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه فجاء عباد بن بشر وأسيد بن حضير فقالا يا رسول الله إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا ننكحهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظنوا أنه قد وجد عليهما فخرجا من عنده واستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فبعث في آثارهما فسقاهما فظنوا أنه لم يجد عليهما.[54]

وأَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ طَيَالِسَةٍ مَكْفُوفَةٌ بِدِيبَاجٍ أَوْ مَزْرُورَةٌ بِدِيبَاجٍ فَقَالَ إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ ابْنِ رَاعٍ وَيَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُغْضَبًا فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَاجْتَذَبَهُ وَقَالَ: لَا أَرَى عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لَا يَعْقِلُ ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ فَقَالَ إِنَّ نُوحًا عليه السلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ إِنِّي قَاصِرٌ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ أَنْهَاكُمَا عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ وَآمُرُكُمَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَلَيْهَا لَفَصَمَتْهَا أَوْ لَقَصَمَتْهَا وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ.[55]

التنبيه والتأديب

في بعض الأحيان لا بد من التنبيه والتأديب من أجل التربية، وقد لجأ رسول الله ﷺ في بعض المناسبات إلى العقوبة دون أن يكون دافع ذلك الحقد أو الغضب بل دافعه الشفقة والرحمة، ونتيجتها إصلاح عظيم. ففي غزوة تبوك تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه واثنان آخران دون عذر، فأقر كل منهم بخطأه بصدق عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بمقاطعتهم فقال كعب رضي الله عنه: "...فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على

صلاتي أقبل إلي وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني."

وفيما بعد أمر رسول الله ﷺ الثلاثة باعتزال نسائهم أيضا، وقد استمرت تلك المحنة خمسين يوما، وعندما جاء خبر التوبة عليهم انطلق كعب إلى رسول الله ﷺ وسلّم عليه ووجه رسول الله ﷺ يبرق من السرور فقال له: "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك". قال كعب رضي الله عنه: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: "لا بل من عند الله". ولما جلس كعب بين يدي رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك". وأضاف كعب رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله إنما نجّاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت.[56]

إجراءات تربوية حذرة وأفعال مؤثرة

كانت نصائح رسول الله ﷺ في التربية الأخلاقية عميقة ومليئة حكمةً، فمن ناحية عدَّ النساء على أنهن جزء مهم من المجتمع وعاملهن بلطف، ومن ناحية أخرى أشار وحذر إلى الأخطار التي يمكن أن تنشأ في المجتمع عند انحرافهن عن جادة الصواب، فقال بأنه أخوف ما يخاف على أمته فتنة النساء، وحذر النساء الكاسيات العاريات من النار وكذلك المائلات والمميلات.[57]

كان رسول الله ﷺ حريصا على المجتمع من حيث التربية الأخلاقية، فكان يستأصل الشر من جذوره، وكان يُعنى عناية خاصة بالتربية الأخلاقية للشباب وينصحهم بطرق فعالة إذ كان يحب لهم الزواج في وقته ليُحفظوا من الرذيلة. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ عَكَّافُ بْنُ بِشْرٍ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَا عَكَّافُ هَلْ لَكَ مِنْ زَوْجَةٍ قَالَ لَا قَالَ وَلَا جَارِيَةٍ قَالَ وَلَا جَارِيَةَ قَالَ وَأَنْتَ مُوسِرٌ بِخَيْرٍ قَالَ وَأَنَا مُوسِرٌ بِخَيْرٍ قَالَ أَنْتَ إِذًا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ وَلَوْ كُنْتَ فِي النَّصَارَى كُنْتَ مِنْ رُهْبَانِهِمْ. إِنَّ سُنَّتَنَا النِّكَاحُ شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُمْ عُزَّابُكُمْ أَبِالشَّيْطَانِ تَمَرَّسُونَ؟ مَا لِلشَّيْطَانِ مِنْ سِلَاحٍ أَبْلَغُ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا الْمُتَزَوِّجُونَ أُولَئِكَ الْمُطَهَّرُونَ الْمُبَرَّءُونَ مِنْ الْخَنَا. وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ إِنَّهُنَّ صَوَاحِبُ أَيُّوبَ وَدَاوُدَ وَيُوسُفَ وَكُرْسُفَ فَقَالَ لَهُ بِشْرُ بْنُ عَطِيَّةَ وَمَنْ كُرْسُفُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ بِسَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَحْرِ ثَلَاثَ مِائَةِ عَامٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ ثُمَّ إِنَّهُ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ فِي

سَبَبِ امْرَأَةٍ عَشِقَهَا وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ اسْتَدْرَكَهُ اللهُ بِبَعْضِ مَا كَانَ مِنْهُ فَتَابَ عَلَيْهِ. وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ تَزَوَّجْ وَإِلَّا فَأَنْتَ مِنَ الْمُذَبْذَبِينَ. قَالَ زَوِّجْنِي يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ قَدْ زَوَّجْتُكَ كَرِيمَةَ بِنْتَ كُلْثُومٍ الْحِمْيَرِيِّ.[58]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

كان رسول الله ﷺ يضع حدا للسلوكيات غير السليمة ما استطاع، ونصحنا أن نفعل مثل ذلك فقال: "مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُنْكِرْهُ بِيَدِهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ."[59]

كان الفضل بن العباس رضي الله عنه وهو ابن عم رسول الله ﷺ رديف رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فجاءت جارية شابة من خَثْعَم تستفتيه أتحج عن أبيها الشيخ الذي لا يثبت على الراحلة، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر.[60] وهنا نرى أن رسول الله ﷺ أخذ الأمر بيده ولو كان النصح بالكلام يفي بالغرض لفعل.

لقد منع رسول الله ﷺ النُواح على الميت، ولكن المشاعر تغلب أحيانا لفجيعة المصيبة، وعندها كان رسول الله ﷺ يلطف بالناس. أحزن النبيَ ﷺ بشدة استشهادُ ابن عمه جعفر رضي الله عنه في مؤتة، وقالت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ جلس يُعرف فيه الحزن وأنا أنظر من شق الباب، فأتاه رجل فقال إن نساء جعفر وذكر بكاءهن، فأمره أن ينهاهن فذهب ثم أتاه الثانية لم يطعنه، فقال: "انههن". فأتاه الثالثة قال: والله غلبننا يا رسول الله، فزعمت أنه قال: "فاحْثُ في أفواههن التراب" (أي اتركهن). فقالت عائشة رضي الله عنها: أرغم الله أنفك، لم تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ ولم تترك رسول الله ﷺ من العناء.[61]

وعندما علم رسول الله ﷺ بأن بعض الرجال يمنعون نساءهم المساجد بالليل، نصحهم قائلا: "لا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ.[62]

وبالمثل، عندما شكت نساءٌ كثيرٌ أزواجهن إلى رسول الله ﷺ أنهم يضربونهن متذرعين بالآية (فاضربوهن)، قال عن هؤلاء: "ليس أولئك بخياركم."[63]

إصلاح النزاعات الزوجية

كانت الخلافات الزوجية ترفع إلى رسول الله ﷺ فيسمعها باهتمام وينصح الأطراف ويسويها.

جَاءَتْ امْرَأَةُ صَفْوَانَ بْنِ مُعَطَّلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ إِنَّ صَفْوَانَ يُفَطِّرُنِي إِذَا صُمْتُ وَيَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ وَلَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ مَا تَقُولُ هَذِهِ قَالَ أَمَّا قَوْلُهَا يُفَطِّرُنِي فَإِنِّي رَجُلٌ شَابٌّ وَقَدْ نَهَيْتُهَا أَنْ تَصُومَ. فَيَوْمَئِذٍ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَصُومَ الْمَرْأَةُ إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا. وَأَمَّا قَوْلُهَا إِنِّي أَضْرِبُهَا عَلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا تَقْرَأُ بِسُورَتَيْنِ فَتُعَطِّلُنِي قَالَ لَوْ قَرَأَهَا النَّاسُ مَا ضَرَّكَ. وَأَمَّا قَوْلُهَا إِنِّي لَا أُصَلِّي حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِنِّي ثَقِيلُ الرَّأْسِ وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُعْرَفُونَ بِذَاكَ بِثِقَلِ الرُّءُوسِ، قَالَ فَإِذَا قُمْتَ فَصَلِّ.[64]

غاضَب عليٌ رضي الله عنه يوما فاطمة رضي الله عنها، فخرج فاضطجع في المسجد، فجاءه النبي ﷺ وقد امتلأ ظهره ترابا، فجعل النبي ﷺ يمسح التراب عن ظهره ويقول: "اجلس يا أبا تراب" مرتين،[65] ثم أصلح بينهما.

التعليمات في الفرح والترح

الأعراس والوفيات أوقات يُعبّر فيها عن المشاعر وهي مناسبات قد ينجم عنها عادات سيئة، وكان رسول الله ﷺ دائم الحرص في هذه المسائل، فلوقف الإسراف في الأعراس واتخاذ البساطة فيها سنّ الأسوة عند تزويجه ابنته فاطمة رضي الله عنها، وفي زيجاته هو أولَم وفقا للظروف ببساطة شديدة؛ فوليمة السيدة صفية رضي الله عنها أقيمت بعد العودة من خيبر وقدّم فيها التمر والأَقِط (أي اللبن الجامد).[66]

والوليمة المثالية التي تذكّرها الناس كانت للسيدة زينب رضي الله عنها. قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت النبي ﷺ أَوْلَمَ على أحد نسائه ما أَوْلم عليها، أولم بشاة.[67]

وفي حالات الوفاة والحِداد أظهر النبي ﷺ مثالا منقطع النظير في الصبر والتماسك، خاصة عند وفاة ابنه إبراهيم واستشهاد عمه حمزة وابن عمه جعفر رضي الله عنهما، وكان ينصح النساء بالصبر في تلك الصدمات.

تربية وتعليم النساء

بناء على طلب النساء خُصِّص يوم في الأسبوع لتعليمهن.[68] وقد أعلن رسول الله ﷺ أن حضور النساء الأعياد واجب، ونصحَ الحائضات منهن أن يحضرن الخير ودعاء المؤمنين غير أنهن لا يصلين. وكان رسول الله ﷺ يأتي النساء بعد الخطبة ويعظهن ويذكرهن في مسائل مختلفة.[69]

فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ حِينَ تُوُفِّيَ أَخُوهَا فَدَعَتْ بِطِيبٍ فَمَسَّتْ بِهِ ثُمَّ قَالَتْ مَا لِي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا.[70]

ومن أسوته ﷺ الرائعة في النصح أنه كان ينصح على العموم دون ذكر الشخص باسمه على الملأ، وذات مرة قال لعائشة رضي الله عنها: "ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا"، وكانا رجلين من المنافقين.[71]

ابتاعت عائشة رضي الله عنها عبدة ثم أعتقتها وكان الذين امتلكوها قد اشترطوا أن يكون الولاء لهم (أي أن يرثوها هم إن ماتت) فعندما سمع رسول الله ﷺ بذلك قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "ما بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ، قَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ، وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ."[72]

تجنب سوء الظن

لقد أرسى رسول الله ﷺ مبدأ في التربية الأخلاقية وهو أن يجتنب المرء دائما الشبهة والاتهام. وكان هو بنفسه ﷺ يعمل وفقا لهذا المبدأ، فعندما كان معتكفا في رمضان جاءته زوجه صفية رضي الله عنها تزوره وعندما قامت رافقها إلى مسكنها وفي الطريق مر بهما رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ ثم نفذا فقال لهما رسول الله ﷺ: "على رِسلكما إنما هي صفية بنت

حيي"، قالا سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما ما قال، فقال ﷺ: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما."[73]

وقد تبنى رسول الله ﷺ طريقة في التعليم ملؤها الحب وما كان يقرِّع أحدا ولم يكن فاحشا ولا لعانا ولا سبابا وإنما كان يقول عند المعتبة: "ما له ترب جبينه."[74] ولم يكن هذا التعبير مسبّة وإنما يحتمل معنى الدعاء له بالعبادة كأن يصلي فيَتْرَب جبينه.

أسلوب النصح

استبّ رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير فقال النبي ﷺ: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد". فانطلق إليه رجلٌ فأخبره بقول النبي ﷺ وقال تعوذ بالله من الشيطان، فقال: أترى بي بأسا؟ أمجنون أنا؟ اذهب![75] كان هذا الغاضب أعرابيا وما أخذ بنصح رسول الله ﷺ. ولو أنه فعل لجرّب بنفسه إعجاز معرفة رسول الله ﷺ بالنفس البشرية، فما انتفع بتلك الوصفة. فيا أيها الباحث جرب تلك الوصفة!

كان رسول الله ﷺ مسالما، وكان الشجار والصراع والجدال يُحزن قلبه، وقد أراد أن يتنبه أصحابه إلى ذلك أيضا.

في أواخر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ ليخبر الناس بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين. قال النبي ﷺ: "خرجت لأخبركم فتلاحى فلان وفلان، وإنها رُفعتْ، وعسى أن يكون خيرا لكم، فالتمسِوها في التاسعة والسابعة والخامسة." أي في الليالي الوتر من العشر الأواخر من الشهر.[76]

كان رسول الله ﷺ يداري ذوي الطبائع القاسية لتربيتهم، وقد استأذن رجل كان يسيء معاملة أهله وقومه على النبي ﷺ فلما رآه قال: "ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة." وعندما دخل انبسط له رسول الله ﷺ، فسألت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، قلتَ الذي قلتَ، ثم ألنتَ له الكلام؟ فقال ﷺ: "يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ."[77]

وعن أبي رافع بن عمرو الغفاري قال: كُنْتُ غُلامًا أَرْمِي نَخْلَ الأَنْصَارِ، فَأُتِيَ بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: "يَا غُلامُ لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ"؟ قَالَ: آكُلُ. قَالَ: "فَلا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي

أَسْفَلِهَا". ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ."[78]

لقد علّم رسول الله ﷺ التوحيد وجانس بين أصحابه. وكان يبغض ذا الوجهين الذي يتلون حسب المصلحة الخاصة.[79]

وكان مُبتغى تربيته أن يصبح المسلمون كلهم إخوة وأن ينشأ مجتمع مسالم، فنصح أصحابه باجتناب البغض والغيرة والنميمة وأراد لهم أن يكونوا عباد الله وإخوة فقال ﷺ: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام."[80]

يمكن أن يَحدث انقلاب أخلاقي عظيم في ضوء هذه التعاليم والمبادئ النبوية السامية المجرَّبة والشرط الوحيد لذلك أن تُجعل حياة رسول الله ﷺ منارة الهدى.

عــادت بـــلادُ العُــرْبِ نحــوَ نضــارةٍ بعــد الــوَجى والــمَحْلِ والخســرانِ

أحييـــتَ أمـــواتَ القـــرون بـــجَلوةٍ مــــاذا يماثلـــك بهـــذا الشّـــانِ

كـــانوا كمشـــغوفِ الفســـادِ بجهلـــهم راضِـــــين بالأوســـــاخ والأدرانِ

فطَلَعــتَ يــا شمــسَ الهــدى نُصــحًا لهــم لتُضــيئَهم مــن وجهِــك النّــوراني•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• التبليغ؛ ميرزا غلام أحمد الطَّلِيُّلا، أبيات من قصيدته (يا عين فيض الله)، ص153– 154.

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 91، طبعة القاهرة.

[3] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الأحزاب.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين..﴾ .

[5] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 446، طبعة القاهرة.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 106، طبعة القاهرة.

[7] سنن أبو داؤد؛ كتاب النكاح، باب فى خُطْبَةِ النِّكَاحِ. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 358، طبعة القاهرة.

[8] سنن أبو داؤد؛ كتاب الزكاة، باب الْمَسْأَلَةِ فِي الْمَسَاجِدِ.

[9] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 385، طبعة بيروت.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[12] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخَذْلِهِ وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[14] صحيح مسلم؛ كتاب القدر.

[15] سنن الترمذي؛ كتاب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما يكره من التمادح.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب التعبير، باب الأخذ على اليمين في النوم.

[18] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 447، طبعة القاهرة.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجرات.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام.

[21] صحيح مسلم؛ كتاب المساجد، باب تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ وَنَسْخِ مَا كَانَ مِنْ إِبَاحَتِهِ.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد.

[23] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 503، طبعة القاهرة.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

[25] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 70، طبعة القاهرة.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

[27] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 256، طبعة القاهرة.

[28] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 576، طبعة بيروت.

[29] سنن ابن ماجه؛ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في من ترك الجمعة من غير عذر.

[30] صحيح البخاري ؛كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها.

[31] صحيح البخاري؛ كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

[32] صحيح البخاري؛ كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة.

[33] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

[34] صحيح مسلم؛ كتاب الزهد والرقائق، باب تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَكَرَاهَةِ التَّثَاؤُبِ.

[35] صحيح البخاري؛ كتاب الرؤياء، باب رؤيا النبي.ﷺ

[36] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب اسْتِحْبَابِ إِدَارَةِ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ وَنَحْوِهِمَا عَنْ يَمِينِ الْمُبْتَدِئِ.

[37] سنن ابن ماجه؛ كتاب الأطعمة، باب التسمية عند الطعام.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب الاستئذان باب إذا قال من ذا؟ فقال أنا.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب صفة الصلاة باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والاطمأنينة.

[40] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب مَا يَفْعَلُ الضَّيْفُ إِذَا تَبِعَهُ غَيْرُ مَنْ دَعَاهُ صَاحِبُ الطَّعَامِ.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب آدَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَأَحْكَامِهِمَا.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

[44] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب الحج باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة وإشارته إليهم بالسوط.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في شوال.

[47] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره.

[48] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

[49] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه.

[50] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه.

[51] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب قول النبيﷺ (أنا أعلمكم بالله). فتح الباري لابن حجر؛ كتاب الأدب، طبعة بيروت.

[52] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب في الاِنْتِصَارِ.

[53] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 14، طبعة القاهرة.

[54] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 246، طبعة القاهرة.

[55] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 225، طبعة القاهرة.

[56] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله ﷻ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا.

[57] صحيح مسلم؛ كتاب اللباس والزينة، باب النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ الْمَائِلاَتِ الْمُمِيلاَتِ.

[58] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 163، طبعة القاهرة.

[59] صحيح سنن الترمذي؛ كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب.

[60] صحيح البخاري؛ أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب حج المرأة عن الرجل.

[61] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن.

[62] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَا جَاءَ فِي خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الْمَسْجِدِ.

[63] سنن أبي داود؛ كتاب النكاح، باب في ضرب النساء.

[64] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 84، طبعة القاهرة.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب التكني بأبي تراب وإن كانت له كنية أخرى.

[66] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب باب من أولم بأقل من شاة.

[67] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب من أولم على بعض نسائه أكثر من بعض.

[68] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم.

69 صحيح البخاري؛ كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد.

[70] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب حد المرأة على غير زوجها.

[71] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما يجوز من الظن.

[72] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الولاء.

[73] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب.

[74] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.

[75] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.

[76] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن..

[77] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب.

[78] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب مَنْ قَالَ إِنَّهُ يَأْكُلُ مِمَّا سَقَطَ.

[79] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين.

[80] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الهجرة.

كرم وسخاء النبي ﷺ في الإنفاق في سبيل الله

تعاليم القرآن بخصوص الإنفاق

للدِّين هدفان أساسيان هما القيام بواجبنا تجاه الله أولا وتجاه بني البشر ثانيا، وعندما ننفق في سبيل الله فإننا نؤدي واجبنا تجاه الناس، وبالإضافة إلى مساعدة الفقراء والمعدمين على تلبية حاجاتهم فإن الإنفاق من أجل التعليم والتدريب ونشر الأدبيات الإسلامية والإعداد للدفاع عن البلد يُعدُّ حسب القرآن الكريم جهادا بالمال وتأدية لواجبنا تجاه الله.

إن الإسلام يركّز كثيرا على الإنفاق، فإحدى صفات المؤمن هي أن ينفق مما رزقه الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 4)

وكذلك يأمر القرآن الكريم: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: 39)

إن جوهر تعليم القرآن الكريم في الإنفاق في سبيل الله هو: إن الله غني، له كنوز لا حدود لها ولا يحتاج إلى أموالكم، أما البشر ففقراء محتاجون، لذا أمر الله المؤمنين بالإنفاق فهو لمصلحتهم لأنه مثل القروض التجارية، والله يكافئ على هذا القرض سبعمائة ضِعف وأكثر، فيقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 262)

وإن كسب رضا الله لهو أفضل مكافأة، وعدم إنفاق المرء في سبيل الله رغم سعته المادية يُغضب الله ويعادل إلحاق الدمار بالنفس، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ (محمد: 38)

وعلّمنا الله آداب الإنفاق، إذ جاء في القرآن الكريم: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: 93) ويقول أيضا: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: 216)

ويعلّم أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: 265)

سنة النبي ﷺ ووصاياه

إن النبي ﷺ قدوة لنا في الإنفاق في سبيل الله. قالت عائشة رضي الله عنها أن خُلق النبي ﷺ كان القرآن الكريم. إذ عكست شخصيتُه الورعة التعاليمَ القرآنية في إنفاقه الكريم في سبيل الله، وبرزت مكارم أخلاقه وهو في أشد المحن والمصاعب. كان مَثله ومَثل الدنيا كمسافر استظلّ تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها، فلم يعبأ بهذه الدنيا الفانية وأموالها.[1]

وجعل النبي ﷺ أسرته وأصحابه يحذون حذوه، فذات مرة قال لأصحابه: "أَيُّكُمْ مالُ وارِثِهِ أحَبُّ إلَيْهِ مِن مالِهِ؟ قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، ما مِنَّا أحَدٌ إلَّا مالُهُ أحَبُّ إلَيْهِ، قالَ: فإنَّ مالَهُ ما قَدَّمَ، ومالُ وارِثِهِ ما أخَّرَ."[2]

طلب النبي ﷺ يوما أن تُذبح شاة ويُوزع لحمها على الفقراء. ثم سأل ما بقي منها؟ فأجابت زوجته بقي كتفها، فقال النبي ﷺ: "بقي كلّها غير كتفها."[3]

ومرة وصل إلى النبي ﷺ مال كثير من البحرين فكثر عدد المصلين وقت الفجر فقال النبي ﷺ: "إنِّي لَسْتُ أَخْشَى عليكُم أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا، كما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ."[4]

يمكن أن نرى موقف النبي ﷺ من الغنى الدنيوي وشعوره تجاهه من كلامه عندما نظر إلى جبل أحدٌ وقال: "ما أُحِبُّ أنَّه تَحَوَّلَ لي ذَهَبًا، يَمْكُثُ عِندِي منه دِينَارٌ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إلَّا دِينَارًا أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، ثُمَّ قالَ: إنَّ الأكْثَرِينَ هُمُ الأقَلُّونَ، إلَّا مَن قالَ بالمَالِ هَكَذَا وهَكَذَا –وأَشَارَ بيْنَ يَدَيْهِ، وعَنْ يَمِينِهِ، وعَنْ شِمَالِهِ– وقَلِيلٌ ما هُمْ."[5]

أراد النبي ﷺ أن يغرس في أصحابه القيم نفسها فقد قال: "لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورجل آتاه الله حِكْمَة، فهو يقضي بها ويُعَلِّمَها".[6]

وعرّف النبي ﷺ أفضل الصدقات بقوله: "أن تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ البَقَاءَ، وَلَا تُمْهِلَ حتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كانَ لِفُلَانٍ."[7]

كان النبي ﷺ يقول: "قالَ اللهُ ﷻ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ."[8]

كما كان يقول: "ليسَ الغنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولَكنَّ الغِنى غنى النَّفسِ".[9]

وقال النبي ﷺ لأسماء رضي الله عنها بنت أبي بكر رضي الله عنه: "أَنْفِقِي أو انْفَحِي، أو انْضَحِي، ولا تُحْصِي فيُحْصِي الله عليك، ولا تُوعِي فيُوعِي الله عليك".[10]

إن حب النبي ﷺ ورغبته في الإنفاق في سبيل الله واضحين في المثال الذي ضربه عن البخيل والمتصدق فقال: "مَثَلُ البَخِيلِ والْمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عليهما جُبَّتانِ مِن حَدِيدٍ، قَدِ اضْطُرَّتْ أيْدِيهِما إلى ثُدِيِّهِما وتَراقِيهِما، فَجَعَلَ المُتَصَدِّقُ كُلَّما تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عنْه، حتَّى تُغَشِّيَ أنامِلَهُ وتَعْفُوَ أثَرَهُ، وجَعَلَ البَخِيلُ كُلَّما هَمَّ بصَدَقَةٍ قَلَصَتْ، وأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكانَها، فلوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُها ولا تَوَسَّعُ."[11]

وقد شرح النبي ﷺ لأصحابه كيف تنزل البركات على من ينفق في سبيل الله فقال: "بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ. فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلَانٌ، لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ. فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ".[12]

آداب الصدقة

قال النبي ﷺ لأصحابه شارحا لهم آداب الصدقة: "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ".[13] وأن أفضل الناس: "رجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شمالُه ما صنعت يمينه". فهو ممن "يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه".[14]

علّمنا النبي ﷺ أفضل وسائل الإنفاق في سبيل الله وعمِل بها، وقد قال: "أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".[15]

وقد قال مؤكدا على هذه النقطة: "الصدقةُ على المسكينِ صدقةٌ وعلى ذي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ صدقةٌ وصِلَةٌ".[16]

لذلك نصح الزوجة بأن تتصدق على زوجها وشجع الأب على أن يتصدق على ابنه.

القناعة تؤدي إلى الصدقة

عمل سيدنا محمد ﷺ بتعاليمه الطاهرة في كل جوانبها، وتجلى خلق هذا العبد الرائع للرحمن في طباعه. فما أسرف قط ولا قتّر بل كان بين ذلك قواما. اتبع في حياته اليومية البساطة والرضا وأنفق حسب الظروف، وما مكنه من أن ينفق في سبيل الله هو زهده في العيش، وقد عانى المشقات إلا أنه أعطى الأولوية لحاجات الإسلام.

عن عائشة رضي الله عنها: " ما شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ، مِن خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حتَّى لَحِقَ باللَّهِ. كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ ما نُوقِدُ فيه نَارًا، إنَّما هو التَّمْرُ والمَاءُ، إلَّا أنْ نُؤْتَى باللُّحَيْمِ". [17]

أكرمُ البشر

لم يكن أحد أكرم من النبي ﷺ في الإنفاق في سبيل الله وفي تلبية احتياجات الفقراء، فعن أنس رضي الله عنه قال بأن رسول الله ﷺ قال: "ألا أخبرُكم عن الأجوَدِ؟ اللهُ الأجوَدُ، وأنا أجوَدُ ولد آدمَ". [18]

وليس هذا محض ادعاء بل شهادة الناس التلقائية على كرم النبي ﷺ تؤكد ذلك؛ قال ابن عم النبي ﷺ عبد الله بن العباس رضي الله عنه والذي سنحت له الفرصة مشاهدة النبي ﷺ عن كثب: " كان رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ الناسِ بالخيرِ، وكان أجودَ ما يكون في شهرِ رمضانَ حتى ينسلِخَ، فيأتيه جبريلُ فيعرضُ عليه القرآنَ، فإذا لقِيَه جبريلُ كان رسولُ اللهِ أجودَ بالخيرِ من الرِّيحِ الْمُرسَلَةِ". [19]

رمضان شهر البركة تؤجر الحسنة فيه أضعافا، فكان النبي ﷺ يتصدق أكثر، وتطورت إمكاناته الروحية والفكرية أكثر في أيام رمضان بسبب لقائه جبريل عليه السلام.

وتنوعت طرق إنفاق الرسول ﷺ في سبيل الله. مع أنه أعطى الأولوية للشؤون الوطنية والدينية إلا أنه في فترة الإسلام المبكرة أسلم عدد كبير من الفقراء فلزم الاهتمام بهم وتأمين حاجاتهم، فأولى لهم النبي ﷺ عناية خاصة فحظُوا برعاية شخصية منه وبرعاية جماعية أيضا، وأنفق قسما كبيرا من المال لهذا الغرض.

لم يكن هناك في الفترة المبكرة نظام ضيافة مركزي، فكان من مسؤولية أهل بيته أن يعتنوا

بالضيوف، ولذا كان الجزء كبير من نفقات منزل النبي ﷺ يُصرف لتلك المهمة. كان ﷺ دائما يعطي الأولوية لاحتياجات الفقير على متطلباته الخاصة. لقد اعتنى ﷺ باحتياجات الأشخاص الآخرين، فالمتسول على بابه لا يعود خالي الوفاض أبدا. كان يقدم الهدايا ويتصدق، وبهذه الطريقة تلقى الغني والفقير شيئا منه. كان ﷺ يرسل الهدايا إلى أصحابه، ويعطي مقابل الهدية هدايا أفضل منها بكثير. وكانت عطاياه عديدة، فإذا اقترض مبلغا كان يزيد عند السداد على المبلغ الذي اقترضه، وإذا اشترى شيئا كان يدفع زيادة على سعر السلعة، وكان ﷺ أحيانا يعيد ما اشتراه ولا يسترد ثمنه.

هذه السمة من الإنفاق السخي في سبيل الله وُجدت فيه منذ شبابه، وقد كان يتيما وفقيرا، وبمجرد أن أصبح قادرا على إعالة نفسه، بدأ يساعد الفقراء بما استطاع. وفي الفترة المبكرة من نبوته في مكة، أصبح عضوا في معاهدة "حلف الفضول" حتى يتمكن من مساعدة أولئك الذين اغتُصبت حقوقهم.

جهاده بالمال في مكة وشهادة خديجة رضي الله عنها

كان النبي ﷺ ينفق الأرباح التي يحققها من تجارة خديجة رضي الله عنها في سبيل الله ولم يستثمرها في العقارات. بعد الزواج، أعطته ﷺ خديجة رضي الله عنها كل ثروتها وعبدها زيد بن حارثة، فأعتقه وأنفق هذه الثروة بسخاء في سبيل الله. بعد تلقي الوحي الأول، شعر طبعا بالتوتر وخشي على نفسه، فخففت عنه خديجة رضي الله عنها بكلمات كشفت عن إنفاقه السخي وطرق صدقاته، فقالت: " كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبَدًا؛ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ". [20]

جاء في بعض الأحاديث أن ورقة بن نوفل أدلى بشهادة مماثلة حين سمع عن نزول الوحي الأول. وهذا يبين أن النبي ﷺ خدم البشرية بشتى الطرق، فعندما هاجر إلى المدينة ترك كل ما لديه في مكة ورحل دون أي دخل شخصي، وتولى الله أمره وسد جميع احتياجاته كما قال في القرآن: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ (طه: 133).

كرم النبي ﷺ في المدينة

عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، قدم له أنصار المدينة هدايا تعبيرا عن حبهم وإخلاصهم، وقدم له البعض ماشية حَلوب وخصص له آخرون بعض نخيل التمر، وقد استفاد منها النبي ﷺ لسد حاجاته وحاجات الفقراء.

وعندما نفي يهود بني النضير من المدينة بسبب نقضهم للمعاهدة، أصبح خُمس نخيلهم ملك النبي ﷺ. فكان يبيع ثمارها ويسد بثمنها قوت أسرته السنوي ويتصدق بالباقي في سبيل الله.[21]

فكان خُمس دخله هذا تحت تصرفه ينفقه كما شاء، على الشؤون الدينية وعلى نفسه وعائلته وأقاربه وعلى اليتامى والمحتاجين والمسافرين، لكنه لم يُبقِ لنفسه إلا ما يكفيه وأنفق الباقي في سبيل الله، وكان لا يدّخر شيئا للغد.[22]

باختصار اختار طريق الرضا. وفي أيام الرخاء، عندما طالبت زوجاته ببعض الأشياء، أعطاهن الخيار وفقا لأمر الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب 29-30)

لا شك أن زوجات النبي ﷺ تقيات وكن يدركن مكانتهن ويعطين الأفضلية لله ورسوله. كان الغرض من هذا التحذير هو ألا يمِلْنَ إلى الإسراف في أيام الرخاء، وبعد ذلك خصص لهن دخلا مناسبا، فأنفقن أموالهن بسخاء في سبيل الله على غرار النبي ﷺ. باختصار، أنفق النبي ﷺ بسخاء في سبيل الله في الرخاء وفي الشدة.

رعاية شخصية للمحتاجين

كان النبي ﷺ يعتني بنفسه بالفقراء ويسد احتياجاتهم، وكما ورد في القرآن الكريم: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ (البقرة: 274) فإنه كان يعرف حاجتهم من وجوههم دون أن يسألوا. كثيرا ما حظي أصحاب الصُفّة بإحسانه ولطفه، وكم كانت ملهمة استضافتُه لهم ولأبي هريرة؟ ومثال على ذلك أن أبا هريرة رضي الله عنه سأل عمر رضي الله عنه عن معنى آية قرآنية على أمل أن يعمل بها ويعطيه

بعض الطعام. أما حين مر به النبي ﷺ تبسم حين رآه وعرف ما في نفسه وما في وجهه ثم قال: "يا أبا هِرّ، اِلْحَقْ". فرافقه أبو هريرة وأحضر النبي ﷺ وعاء فيه الحليب وطلب منه أن يدعو أهل الصفة أيضا وهم الفقراء والمحتاجون الذين أقاموا في المسجد النبوي الشريف وتعلموا القرآن والسنة، وكثيرا ما كان النبي ﷺ يعطيهم الهدايا والصدقات، ولم ينسهم في هذه المناسبة فقدّم لهم الحليب أولا وبعد ذلك أعطى الوعاء لأبي هريرة ليشرب منه حتى يرتوي، وفي النهاية شرب بدوره منه.[23]

تقول عائشة رضي الله عنها: "وَلَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَكِلُ صَدَقَتَهُ إِلَى غَيْرِ نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَضَعُهَا فِي يَدِ السَّائِلِ".[24]

الاهتمام بالمعاقين

اهتمَّ النبي ﷺ كثيرا بالمعاقين عند توزيع الصدقات، وكان بمجرد حصوله على بعض الملابس يوزعها على الفقراء. كان في المدينة رجل أعمى محتاج يدعى مخرمة، وعندما علم بأن الرسول ﷺ يوزع الألبسة، ذهب إليه فعرف النبي ﷺ صوته وهو خارج منزله فخرج إليه ومعه قَبَاء وقال: "يا مخرمة هذا خبأناه لك"، فأعطاه إياه".[25]

أساليب بارعة ومتنوعة لمساعدة الآخرين

اهتم النبي ﷺ باحتياجات أصحابه اهتماما كبيرا. كان يحرص جدا على حفظ كرامتهم ومساعدتهم قبل أن يطلبوا المساعدة. فقد تعامل النبي ﷺ مع رفيقه المخلص، جابر بن عبد الله رضي الله عنه بمحبة. استشهد والد جابر في أُحد، فوقع على ابنه عبء رعاية أخواته السبع وسداد ديون أبيه الكثيرة ليهود المدينة، ونظرا لاحتياجات أسرته، اضطر جابر إلى الزواج دون تأخير. كان النبي ﷺ على علم بظروفه، فأراد المساعدة لكنه كان يضع في اعتباره عزة نفس جابر وإباءه. بعد ذلك بوقت قصير وجد النبي ﷺ فرصة لمساعدته. في طريق العودة من المعركة، توقف جمل جابر ورفض التزحزح فعرض عليه النبي ﷺ شراء جمله، وحين وصل إلى المدينة، طلب من أمين صندوقه بلال رضي الله عنه أن يدفع له ثمن جمله، فلما جاء جابر رضي الله عنه ليستلم المال، قال له النبي ﷺ أن يأخذ المال ويحتفظ بجمله. وبهذه الطريقة لم يساعد رفيقه العزيز فحسب، بل حافظ على عزة

نفسه أيضا.[26]

كان النبي ﷺ ينزعج كثيرا من رؤية فقراء محتاجين ولم يهدأ له بال حتى يساعدهم. جاء وفد من قبيلة مضر لرؤيته وعندما رأى أقدامهم العارية واستخدامهم لجلود الحيوانات كغطاء وآثار الجوع واضحة على وجوههم تغيّر لون وجهه ودخل منزله وعاد فطلب من بلال رضي الله عنه جمع الناس، فاجتمع الناس فألقى النبي ﷺ خطبة مؤثرة ونصح الناس بمساعدة هذا الوفد، فلبّى الصحابة رضي الله عنهم طلب النبي ﷺ فأعطوا بسخاء ووفروا لهم جميع الأساسيات. فلما رأى النبي ﷺ تحقق ما تمناه قلبه تهلل وجهه فرحا.[27]

قال جابر رضي الله عنه في النبي ﷺ أنه: "إذا سئل شيئا فأراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد أن لا يفعل سكت وكان لا يقول لشيء: لا".[28]

إذا جاء محتاج وأراد النبي ﷺ مساعدته لكنه لم يكن لديه ما يقدمه قال: "ابْتَعْ عَلَيَّ فَإِذَا جَاءَنِي شَيْءٌ قَضَيْتُهُ، فَقَالَ عُمَر رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَعْطَيْتَهُ فَمَّا كَلَّفَكَ اللهُ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَكَرِهَ النَّبِيُّ قَوْلَ عُمَرَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفِقْ وَلَا تَخَفْ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالا، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْبِشْرَ لِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ، ثُمَّ قَالَ: بِهَذَا أُمِرْتُ".[29]

كرم النبي ﷺ

كان النبي ﷺ كريما سخيا في العطاء حتى اعتقد أحيانا بعض المحتاجين أن من حقهم أن يسألوه ويلحّوا في السؤال. لكنه لم ينزعج أبدا من سؤالهم. ذات مرة، جاء أعرابي وطلب المساعدة بطريقة فظة للغاية. وكان النبي ﷺ يرتدي بُرْدا نجرانيّا غليظ الحاشية فشدّه منه بقوة فتركتْ حاشيةُ الرداء أثرا على عنق النبي ﷺ، ثم قال بجرأة: "مُرْ لي من مال الله الذي عندك". لم يكتف النبي ﷺ بالصبر وضبط النفس، بل الْتَفتَ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.[30]

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه في ثمن بعير، فأعانهما بدينارين، فخرجا من عنده فلقيهم عمر رضي الله عنه، فأثنيا وقالا معروفا وشكرا ما صنع بهما رسول الله ﷺ، فدخل عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ فأخبره بما قالا. فقال النبي ﷺ: لكن فلانا أعطيته ما بين العشرة إلى المئة فلم يقل ذلك، إن أحدهم يسألني فينطلق بمسألته متأبطها وما هي إلا نار، قال عمر رضي الله عنه:

فلم تعطيهم ما هو نار؟ قال: يأبون إلا أن يسألوني، ويأبى الله لي البخل".[31] وهذا يعني أنهم لا يغيرون من عاداتهم، فلِمَ نغير نحن؟

مقابلة الإساءة بالإحسان

ذات مرة كان على النبي ﷺ بُرْدٌ غليظ الحاشية فشده منه أعرابي بشدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ثم قال: "يا محمد، احمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك! فسكت النبي ﷺ ثم قال: المال مال الله وإنما أنا عبده. ثم قال: ويقاد منك (أي يُقتَصُّ منك) يا أعرابي ما فعلتَ بي؟ قال: لا. قال: لمَ؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة. فضحك النبي ﷺ، ثم أمر أن يُحمَل له على بعيرٍ تمرٌ وعلى الآخر شعير".[32]

ذات مرة توسّل أعرابي أن تُسد حاجته، فأعطاه النبي ﷺ كل ما كان متاحا في ذلك الوقت، فتذمر ونطق بكلمات فظة. أراد الصحابة معاقبته لكن النبي ﷺ أوقفهم وأخذه إلى منزله وأطعمه وأعطاه المزيد من الهدايا ثم سأله إن كان راضيا. فأجاب بفرح: "نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرا". فقال له النبي ﷺ: "إنك كنت جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم". فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: "إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، أكذاك؟" قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشير خيرا. فقال النبي ﷺ: "إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا".[33]

ووزع النبي ﷺ غنائم غزوة حنين الكثيرة، وفي طريق العودة، علِقتهُ مجموعة من البدو وسألته بإلحاح من الغنائم حتى اضطروه إلى شجيرة فخطفت رداءه، فأخذ يخلِّص رداءه ويقول: "لو كانَ عَدَدُ هذه العِضاهِ نَعَمًا لَقَسَمتُهُ، ثم لا تَجِدوني بَخيلًا، ولا كَذَّابًا، ولا جَبانًا".[34]

إعطاء الأولوية لاحتياجات الآخرين

ضحّى النبي ﷺ باحتياجاته الخاصة لأجل سد احتياجات المحرومين. ذات مرة لاحظ أحد

أصحابه حاجته إلى رداء، فقدم له بردة مطرزة وجميلة أعجبته كثيرا. وبما أنه كان بحاجة إلى بردة جديدة، دخل منزله ثم خرج مرتديا إياها، فأثنى أحد الصحابة على بردته ورأى أنها جميلة ومناسبة جدا له، فخلعها على الفور وأعطاها له ولبس بردته القديمة، فسأل أحدهم هذا الصحابي لمَ أخذ بردة النبي ﷺ بينما كان يحتاجها فقال: "إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني".[35]

وبسبب تضحياته وسخائه في سبيل الله، بارك الله بأمواله وبالتالي تسنى له التصدق أكثر، وكان حين يوزع المال يعطي الأولوية للآخرين على أفراد عائلته، ذات مرة كان لديه عدد قليل من الأسرى، فعلمت فاطمة بذلك وجاءت تطلب خادما منهم من النبي ﷺ فلم تجده في المنزل فغادرت بعد أن أبلغت عائشة بطلبها، وعندما رجع النبي ﷺ أبلغته عائشة أن يدا فاطمة مصابتان بالورم بسبب العمل واستخدامها الرحى وأنها تحتاج لخادم. فذهب النبي ﷺ على الفور إلى بيت ابنته وقال لها ولعلي رضي الله عنه: "ألا أدُلُّكُما على ما هو خَيْرٌ لَكُما مِن خادِمٍ؟ إذا أَوَيْتُما إلى فِراشِكُما، أوْ أخَذْتُما مَضاجِعَكُما، فَكَبِّرا ثَلاثًا وثَلاثِينَ، وسَبِّحا ثَلاثًا وثَلاثِينَ، واحْمَدا ثَلاثًا وثَلاثِينَ، فَهذا خَيْرٌ لَكُما مِن خادِمٍ".[36] المغزى من ذلك هو أن تسبيح الله وحمده والدعاء يسدان جميع احتياجاتهما.

البركات في الكرم والتضحية

يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هذه الحادثة الملهمة لحياة النبي ﷺ فيقول: "سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ رأى صاحبَ بَزٍّ، فاشتَرَى منه قَميصًا بأربعةِ دَراهِمَ، فخرَجَ وهو عليه فإذا رجُلٌ مِن الأنصارِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، اكْسُني قَميصًا كساكَ اللهُ مِن ثيابِ الجنَّةِ، فنزَعَ القَميصَ فكَسَاه إيَّاه، ثمَّ رجَعَ إلى صاحبِ الحانوتِ، فاشتَرَى منه قَميصًا بأربعةِ دراهِمَ، وبقِيَ معه دِرهمانِ، فإذا هو بجاريةٍ في الطريقِ تبكي، فقال: ما يُبكيكِ؟ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، دفَعَ إليَّ أَهْلي دِرْهَمينِ أَشْتري بهما دَقيقًا، فهلَكا، فدفَعَ إليها رسولُ اللهِ الدِّرْهَمينِ الباقيينِ، ثمَّ انقلَبَ وهي تبكي فدعاها، فقال: ما يُبكيكِ، وقد أخَذتِ الدِّرْهَمينِ؟ فقالتْ: أخافُ أنْ يَضْرِبوني. فمشَى معها إلى أَهْلِها، فسلَّمَ فعرَفوا صَوتَه، ثمَّ عاد فسلَّمَ، ثمَّ عاد فسلَّمَ، ثمَّ عاد فثلَّثَ فرَدُّوا، فقال: أسَمِعتُم أوَّلَ السلامِ؟ قالوا: نعَمْ، ولكنْ أحبَبْنا أنْ تَزيدَنا مِن السلامِ، فما أشخَصَكَ بأبينا وأُمِّنا؟

فقال: أشفَقَتْ هذه الجاريةُ أنْ تَضْرِبوها. فقال صاحبُها: هي حُرَّةٌ لوَجهِ اللهِ؛ لـمَمْشاكَ معها، فبشَّرَهم رسولُ اللهِ بالخَيرِ والجنَّةِ، ثمَّ قال: لقد بارَكَ اللهُ في العشَرةِ، كسا اللهُ نبِيَّه قَميصًا، ورجُلًا مِن الأنصارِ قَميصًا، وأعتَقَ اللهُ منها رَقَبةً، وأحمَدُ اللهَ هو الذي رزَقَنا هذا بقُدرتِه". [37]

مثال رائع في الكرم

حصل النبي ﷺ على غنائم كثيرة في الغزوات. وتصدق بها في سبيل الله ولم يحتفظ بدرهم واحد لحاجته الشخصية. كانت رغبته هذه صادقة إذ كان يثق بالله ثقة تامة فهو يكفيه كل احتياجاته. ذات مرة هرع إلى المنزل بعد أن انتهى من صلاة العصر. لم يكن هذا من عادته. عندما وصل دخل منزله ثم خرج يحمل ذهبا في يده. وقال: "كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي الْبَيْتِ تِبْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ، فَقَسَمْتُهُ". [38]

كان ينفق في سبيل الله وهو واثق ثقة تامة بالله الرزاق الذي لا تنفد خزائنه، وهو يزيد من ثروة الشخص الذي ينفق ويمنحه المزيد. دخل النبي ﷺ على بلال رضي الله عنه وعنده صُبرةٌ من تمر فقال: "ما هذا يا بلال؟" قال: "يا رسول الله ذخرته لك لضيفانك" قال: "أما تخشى أن يفور لها بخار من جهنم؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا". [39]

ويروي موسى بن أنس رضي الله عنه عن أبيه أنه قَالَ: "مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ". [40]

أعطى رسول الله ﷺ رهطا وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جالس فروى: "فترك رسول الله ﷺ رجلا هو أعجبهم إلي فقلت يا رسول الله ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا فقال: "أو مسلما". فسكتُ قليلا ثم غلبني ما أعلم منه فعدتُ لمقالتي فقلتُ: "مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا" فقال: "أو مسلما"، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: "يَا سَعْدُ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ". [41]

ذات مرة جاء شخص إلى النبي ﷺ فأعطاه غنما ملء وادٍ. [42]

وفي رواية أخرى أن رجلا من العرب جاء رسول الله ﷺ فَأَعْطَاهُ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ. فسأله أرضا بين جبلين، فكتب له بها. [43] إن هذه الحادثة لمعجزةُ خُلقه العظيم.

بعد سقوط مكة والانتصار في حنين، شهدت تلك الأمم كرم النبي ﷺ الاستثنائي الذي امتلك قلوبهم. يقول ابن شهاب الزهري ﷺ: "غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً. فقال صَفْوَانَ: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ".[44]

وبالمثل أعطى النبي ﷺ أبا سفيان زعيم مكة وابنه معاوية وزعيم آخر من زعماء قريش وهو الحارث بن هشام مائة جمل لكل منهم. تشير بعض الأحاديث إلى أن النبي ﷺ قدم الهدايا لستين شخصا من أجل كسب قلوبهم.[45]

في غزوة حنين، وقع ستة آلاف رجل من قبيلة بني هوازن في الأسر. جاء أهالي حنين يطلبون إطلاق سراحهم. وكان الأسرى قد وُزِّعوا. فاستشار النبي ﷺ صحابته وحفزهم على تحريرهم. ووعد بدفع مكافأة لكل من يعتق عبدا في المستقبل. وتحقيقا لرغبة النبي ﷺ، حرر المسلمون جميع الأسرى.[46] لا بد أن فرَح هؤلاء الأسرى المحررون وهم يركضون في الشوارع، كان مشهدا رائعا.

كان العرب يضربون الأمثال بكرم حاتم الطائي، الرجل الأكثر سخاءً في الجزيرة العربية، وقدم النبي ﷺ الهدايا لعائلته، وبعد غزوة حنين، أُحضر أسرى الحرب أمام النبي ﷺ. وكان من بينهم امرأة شابة جميلة للغاية. يقول الراوي: "فلما رأيتُها أعجبتُ بها وقلتُ: لأطلبن إلى رسول الله ﷺ يجعلها في فيئي، فلما تكلمتْ أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها، فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عنا ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولا يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيء، فقال النبي ﷺ: "يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق"، فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، الله ﷻ يحب مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق".[47]

كان الصراع بين مكة والمدينة عائقا أمام إسلام القبائل العربية التي كانت تراقب الوضع منتظرة

النتيجة، وبعدما فتحت مكة وفدت هذه القبائل إلى المدينة وقبلت الإسلام، حتى سمي العام التاسع للهجرة عام الوفود، وتلقت هذه الوفود هدايا كثيرة من النبي ﷺ. أتى في ذلك العام وفدٌ من تُجِيب مؤلَّفٌ من ثلاثة عشر شخصا إلى المدينة وأحضروا معهم أموال الزكاة. سعد النبي ﷺ جدا بمجيئهم ورحب بهم واتخذ الترتيبات المناسبة لإقامتهم. وأمر بلال رضي الله عنه باتخاذ أفضل الترتيبات لطعامهم وتجهيز هداياهم، لقد أعطاهم النبي ﷺ أكثر بكثير مما اعتاد أن يعطي. ثم استفسر إن كان بقي أحد منهم بلا هدية، فأشاروا إلى غلام لهم أبقوه في رحلهم، وجاء هذا الصبي وقال: "إني أمرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي قال: "وما حاجتك؟" قال: "تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي". فقال: "اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه"، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ثم عادوا في موسم حج العام المقبل فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام فقالوا: "ما رأينا مثله أقنع منه بما رزقه الله".[48]

جاء فروة بن مُسيك المرادي مفارقا لملوك كندة ومتابعا للنبي ﷺ فأعطاه اثنتا عشرة أوقية من الذهب وبعيرا ورداء مصنوعا من نسج عمانية، وعيّنه رئيسا لقبيلة مراد.[49]

في السنة العاشرة للهجرة، سنة حجة الوداع، جاء وفد من محارب وقبلوا الإسلام. ولم يكن أفظ ولا أغلظ منهم على النبي ﷺ في الفترة المكية، ورغم ذلك، عاملهم النبي ﷺ كما عامل الوفود الأخرى بلطف وود وكرم وسماحة.[50]

إذن، بعد فتح مكة، أتت سلسلة من الوفود التي مثلت مختلف قبائل الجزيرة العربية لرؤية النبي ﷺ ومع أنهم أُعجبوا بمجد الإسلام وكانوا يأتون بحثا عن الحقيقة، إلا أنهم انجذبوا كثيرا إلى فضل النبي ﷺ ومعاملته الكريمة فقبل معظمهم الإسلام، وجلب هؤلاء المندوبون وفقا للعرف العربي الهدايا وما يميز مناطقهم. وتمشيا مع وصية القرآن الكريم، أهداهم النبي ﷺ بدوره أفضل الهدايا.

ولما وصل وفد الداريين قدَّموا هداياهم إلى النبي ﷺ الذي قبل بعضها وأعاد إليهم البعض الآخر. من بين هذه الهدايا كان رداء حريري له أزرار من ذهب أعطاه لعمه العباس رضي الله عنه الذي باعه ليهودي بثمانية آلاف درهم.

وتقدَّم أحد ممثلي هذا الوفد وهو تميم بطلب فقال: "لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حِبرى والأخرى بيت عَينون فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي قال فهما لك فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتابا وأقام وفد الداريين حتى توفي رسول الله ﷺ وأوصى لهم بجاد (أي نخل فيه ثمر) مائة وسق". (الوسق يعادل مئتان وخمسة وعشرون صاعا).[51]

ذات مرة قدِم على النبي ﷺ سبعون ألف درهم، وهو أكثرُ مالٍ أُتي به قط، فوُضِع على حصير، ثم قام فقسمه، فما ردَّ سائلا حتى فرغ منه.[52]

وجاء في حديث آخر تسعون ألف درهم.[53]

يقول عبد الله الْهَوْزَنِيّ: "لَقِيتُ بِلَالا مُؤَذِّنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَلَب فَقُلْتُ يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ مَا كَانَ لَهُ شيءٌ كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الإِنْسَانُ مُسْلِمًا فَرَآهُ عَارِيًا يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ حَتَّى اعْتَرَضَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ يَا بِلَالُ إِنَّ عِنْدِي سَعَةً فَلَا تَسْتَقْرِضْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مِنِّي فَفَعَلْتُ فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ ثُمَّ قُمْتُ لِأُؤَذِّنَ بِالصَّلَاةِ فَإِذَا الْمُشْرِكُ قَدْ أَقْبَلَ فِي عِصَابَةٍ مِنَ التُّجَّارِ فَلَمَّا أَنْ رَآنِي قَالَ يَا حَبَشِيُّ. قُلْتُ يَا لَبَّاهُ. فَتَجَهَّمَنِي وَقَالَ لِي قَوْلا غَلِيظًا وَقَالَ لِي أَتَدْرِي كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهْرِ قَالَ قُلْتُ قَرِيبٌ. قَالَ إِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَرْبَعٌ فَآخُذُكَ بِالَّذِي عَلَيْكَ فَأَرُدُّكَ تَرْعَى الْغَنَمَ كَمَا كُنْتَ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَخَذَ فِي نَفْسِي مَا يَأْخُذُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ الْمُشْرِكَ الَّذِي كُنْتُ أَتَدَيَّنُ مِنْهُ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا وَلَيْس عِنْدَكَ مَا تَقْضِي عَنِّي وَلا عِنْدِي وَهُوَ فَاضِحِي فَأْذَنْ لي أَنْ آبَقَ إِلَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ الأَحْيَاءِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا حَتَّى يَرْزُقَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقْضِي عَنِّي فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ مَنْزِلِي فَجَعَلْتُ سَيْفِي وَجِرَابِي وَنَعْلِي وَمِجَنِّي عِنْدَ رَأْسِي حَتَّى إِذَا انْشَقَّ عَمُودُ الصُّبْحِ الأَوَّلِ أَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ فَإِذَا إِنْسَانٌ يَسْعَى يَدْعُو يَا بِلَالُ أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَإِذَا أَرْبَعُ رَكَائِبَ مُنَاخَاتٍ عَلَيْهِنَّ أَحْمَالُهُنَّ فَاسْتَأْذَنْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ "أَبْشِرْ فَقَدْ جَاءَكَ اللهُ بِقَضَائِكَ". ثُمَّ قَالَ "أَلَمْ تَرَ الرَّكَائِبَ الْمُنَاخَاتِ الأَرْبَعَ". فَقُلْتُ بَلَى. فَقَالَ "إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةً وَطَعَامًا أَهْدَاهُنَّ إِلَيَّ عَظِيمُ فَدَكَ فَاقْبِضْهُنَّ وَاقْضِ دَيْنَكَ". فَفَعَلْتُ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ ثُمَّ

انْطَلَقْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ "مَا فَعَلَ مَا قِبَلَكَ". قُلْتُ قَدْ قَضَى اللهُ كُلَّ شيءٍ كَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَبْقَ شيءٌ. قَالَ "أَفَضَلَ شَيءٌ؟". قُلْتُ نَعَمْ قَالَ "انْظُرْ أَنْ تُرِيحَنِي مِنْهُ فَإِنِّي لَسْتُ بِدَاخِلٍ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي حَتَّى تُرِيحَنِي مِنْهُ". فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَتَمَةَ دَعَانِي فَقَالَ "مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ". قَالَ قُلْتُ هُوَ مَعِي لَمْ يَأْتِنَا أَحَدٌ.

فَبَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَقَصَّ الْحَدِيثَ حَتَّى إِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ - يَعْنِي مِنَ الْغَدِ - دَعَانِي قَالَ "مَا فَعَلَ الَّذِي قِبَلَكَ". قَالَ قُلْتُ قَدْ أَرَاحَكَ اللهُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَكَبَّرَ وَحَمِدَ اللهَ شَفَقًا مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَعِنْدَهُ ذَلِكَ ثُمَّ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَزْوَاجَهُ فَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ امْرَأَةٍ حَتَّى أَتَى مَبِيتَهُ فَهَذَا الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ". [54]

السعي إلى العطاء السخيّ

وفقا لأوامر القرآن الكريم، حاول النبي ﷺ دائما أن يرد الهدية بأفضل منها. عن الربيع بنت مُعَوِّذ قالت: "أتيتُ النبي ﷺ بقناع فيه رُطَبٌ وأَجْرٌ زُغْبٌ (أي القثاء الصغير) فوضع في يدي شيئا فقال تحلّي بهذا واكتسي بهذا". وكان النبي ﷺ قد تلقّى بعض المجوهرات من البحرين فأعطى قبضة منها لربيع. وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ أعطاها حفنتين من المجوهرات المصنوعة من الذهب وطلب منها أن ترتديها.[55]

الإحسان في قضاء الدَّين

ذات مرة استعار النبي ﷺ جملا من شخص ما، وعندما حان وقت إعادة الجمل أعطاه جملا أفضل منه بكثير وقال: " إنَّ خيارَ النَّاسِ أحسنُهُم قضاءً". [56]

وبالمثل، يروي جابر رضي الله عنه : "كان لي على النبي ﷺ دَيْنٌ فقضاني وزادَني". [57]

ذات مرة طالب يهودي قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة بوجه غليظ أن يقضي له النبي ﷺ حقه، فتهدده عمر رضي الله عنه. فمنعه النبي ﷺ من ذلك وأمره بقضاء القرض وإعطائه زيادة، وعندما رأى اليهودي صبر النبي ﷺ، قبِل الإسلام.[58]

عظمة كرم الرسول ﷺ

كان كرم النبي ﷺ فريدا من نوعه، واستمر سخاؤه حتى وفاته. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله جابر بن عبد الله ﵁: "قال رسول الله ﷺ لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَالَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَقُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ فَقَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بَعْدَهُ فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى مَنْ كَانَتْ لَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِ. فَقُمْتُ فَقُلْتُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ "لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا". فَحَثَى أَبُو بَكْرٍ مَرَّةً ثُمَّ قَالَ لِي عُدَّهَا، فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ فَقَالَ خُذْ مِثْلَيْهَا".[59]

التصدق بآخر ما يملك

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبْعَةُ دَنَانِيرَ وَضَعَهَا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَلَمَّا كَانَ فِي مَرَضِهِ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، ابْعَثِي بِالذَّهَبِ إِلَى عَلِيٍّ، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَشَغَلَ عَائِشَةَ مَا بِهِ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يُغْمَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَشْغَلُ عَائِشَةَ مَا بِهِ، فَبَعَثَ إِلَى عَلِيٍّ فَتَصَدَّقَ بِهَا".[60]

وصف سيدنا المسيح الموعود ؑ كرم النبي ﷺ في أبيات من شعره هكذا:

يـــا بحـــرَ فضـــل المـــنعم المنّـــانِ تهـــوي إليـــك الزمـــر بـــالكيزانِ

يـــا شمـــس ملـــك الحســـن والإحســـانِ نـــورت وجـــه الـــبر والعمـــرانِ•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد ؑ، ص351.

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 91، و الجزء 1، ص 301، طبعة القاهرة.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق باب ما قدم من ماله فهو له.

[3] سنن الترمذي؛ كتاب الصفة القيامة، باب 33.

[4] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته. صحيح البخاري؛ كتاب الجزية ، باب باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ (ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا).

[6] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وكان عرشه على الماء﴾.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الهبة وفضلها، باب هبة المرأة لغير زوجها.

[11] صحيح مسلم؛ كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل.

[12] صحيح مسلم؛ كتاب الزهد، باب الصَّدَقَةِ فِي الْمَسَاكِينِ.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب صدقة السر.

[15] صحيح مسلم ؛ كتاب الزكاة، باب فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَى الْعِيَالِ وَالْمَمْلُوكِ.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر۔سنن الترمذي؛ الجزء 2، كتاب الزكاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[18] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 571، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.

[22] سنن الترمذي كتاب؛ كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[24] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 370، طبعة بيروت.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب باب المزرر بالذهب.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب من ضرب دابة غيره في الغزو.

[27] صحيح مسلم؛ كتاب الزكاة، باب الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ.

[28] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 571، طبعة بيروت.

[29] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ..

[30] صحيح البخاري؛ كتاب فرض الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس.

[31] مختصر تاريخ دمشق؛ الجزء 1، ص 214، طبعة بيروت.

[32] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 108، طبعة بيروت.

[33] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 576، طبعة بيروت.

[34] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب الشجاعة في الحرب والجبن.

[35] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن النبي ﷺ فلم ينكر عليه.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب النفقات، باب عمل المرأة في بيت زوجها.

[37] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 572، طبعة بيروت.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها.

[39] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 1، ص 340، طبعة بيروت.

[40] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لا.

[41] صحيح البخاري؛ كتاب الايمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل.

[42] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لا.

[43] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لا. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 572، طبعة بيروت.

[44] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا.

[45] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص 250، طبعة بيروت.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى يوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا.

[47] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص 433، طبعة بيروت.

[48] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 323، طبعة بيروت.

[49] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 327، طبعة بيروت.

[50] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 299، طبعة بيروت.

[51] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 7، ص 407و408، طبعة بيروت.

[52] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ ص 324، طبعة بيروت.

[53] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 113، طبعة بيروت.

[54] سنن أبو داؤد؛ كتاب الخراج، باب فِي الإِمَامِ يَقْبَلُ هَدَايَا الْمُشْرِكِينَ.

[55] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 359، طبعة القاهرة.

[56] سنن الترمذي؛ كتاب الفضائل، باب ما جاء في استقراض البعير أو الشيء من الحيوان.

[57] صحيح البخاري؛ كتاب الاستقراض، باب حسن القضاء.

[58] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 700، طبعة بيروت.

[59] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا.

[60] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 308، طبعة بيروت.

كرم الضيافة عند رسول الله ﷺ

التعاليم الجميلة في كرم الضيافة

يُعد كرم الضيافة في التعاليم الإسلامية صفة أساسية وخُلقا حميدا، يقدم الإسلام على عكس الأديان الأخرى، سردا مفصلا ومتميزا واستثنائيا لكرم الضيافة، ويأمر القرآن الكريم بإكرام حتى المسافر الغريب. أكد الرسول ﷺ على وجوب إكرام الضيف وعلمنا أن نظهر احتراما وتكريما له. تقديم الطعام للضيف هو جانب من كرم الضيافة، ولكن لم يعلمنا الإسلام الاهتمام بالضيف وتقديم الطعام له فحسب، بل علمنا أن نراعي شعوره أيضا، وأن نستجيب لأدق متطلباته والتفاني في خدمته والتضحية براحتنا الشخصية لأجله. الإسلام يأمرنا بإطعام الضيف بكل سرور، حتى لو تطلب الأمر أن نجوع نحن، وأن نحقق كل رغباته دون انتظار أجر أو حمد أو مطمع.

لقد أعلن رسول الله ﷺ أن إكرام الضيف من الإيمان. ومن المحقق أن رسول الله ﷺ قد فاق غيره بهذه الخصلة؛ إذ كان الأول والسبّاق بين المؤمنين. لقد علمنا أسلوب حسن الضيافة وقال: "الضيافة ثلاثة أيام".[1] وقد علّمنا أن نشارك الضيف في الأكل حتى ينهي طعامه كي لا يتحرج من الأكل وحده.[2]

وقد أرانا الرسول ﷺ الأسوة الحسنة في اصطحاب الضيف لباب الدار.[3]

باختصار، قد ضرب لنا الرسول ﷺ بسلوكه مثلا في كرم الضيافة وإكرام الضيف، وكان يتحلى بهذه الخصلة منذ نعومة أظفاره. عند نزول أول وحي عليه ﷺ، قالت له خديجة رضي الله عنها معبرة عن انطباعاتها ومثنية على خصاله: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق".[4]

ومن المظاهر البارزة في حسن الضيافة عند رسول الله ﷺ ما صرح به بأمر الله قائلا: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. (ص: 87)

لم يكن الرسول ﷺ يظهر أي سلوك رسمي كضيف ولا تكلفا كمضيف. كذلك لم ينتظر البتة

أي عائد من تكريم ضيفه، تماما كما وصف القرآن الكريم المؤمنين الحقيقيين بالقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. (الإِنْسان: 9-10)

كرم الضيافة والدعوة إلى الله

لقد بدأ رسول الله ﷺ الدعوة للإسلام بكرم متفان وبخدمة الإنسانية. عندما بلّغ عشيرته الأقربين عند الصفا، رفضه الجميع وغادروا. حاول جمعهم بكرم الضيافة فطلب من علي بن أبي طالب رضي الله عنه التحضير لمأدبة وأن يجعل على الطعام أرجل شياه. فحضر أربعون شخصا من أقاربه ﷺ فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة ثم أُشربوا لبنا حتى رووا منه جميعا. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم، سبقه أبو لهب بالكلام وقال: لَهَدَّ ما (أي: لشدَّ ما) سحرَكم به صاحبُكم! فتفرق القوم.

وقال علي رضي الله عنه أنه في اليوم التالي طلب منه رسول الله ﷺ أن يُعِدَّ من الطعام مثل الذي صنع ثم تكلم رسول الله ﷺ قائلا: "يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنِّي واللهِ ما أعْلَمُ شابا فِي العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بأفْضَلَ مِمَّا جئتُكُمْ بِهِ، إنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا والآخرَةِ، وَقَدْ أمَرَنِي اللهُ أنْ أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، فَأيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلى هَذَا الأمْرِ؟" فما أجابه إلا عليّ رضي الله عنه وكانت تلك أول ثمرة يجنيها رسول الله ﷺ من حسن ضيافته.[5]

إن حسن الضيافة غالبا ما يكون وسيلة لكسب قلوب الناس وقد يهتدي به بعضهم. فعَنْ جَهْجَاهٍ الْغِفَارِيِّ أَنَّهُ قَدِمَ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ يُرِيدُونَ الإِسْلاَمَ، فَحَضَرُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: "يَأْخُذُ كُلُّ رَجُلٍ بِيَدِ جَلِيسِهِ". فَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَسْجِدِ غَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَغَيْرِي. وَكُنْتُ عَظِيمًا طَوِيلا لا يُقَدَّمُ عَلَيَّ أَحَدٌ. فَذَهَبَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَحَلَبَ لِي عَنْزًا، فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا، حَتَّى حَلَبَ لِي سَبْعَ أَعْنُزٍ، فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا. ثُمَّ أُتِيتُ بِصَنِيعِ بُرْمَةٍ، فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا. وَقَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: أجاعَ اللَّهُ مَنْ أجاعَ رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ. قَالَ: "مَهْ يَا أُمَّ أَيْمَنَ، أَكَلَ رِزْقَهُ، وَرِزْقُنَا عَلَى اللَّهِ". فَأَصْبَحُوا فَغَدَوْا، فَاجْتَمَعَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يُخْبِرُ بِمَا أُتِيَ إِلَيْهِ، فَقَالَ جَهْجَاهٌ: حُلِبَتْ لِي سَبْعُ أَعْنُزٍ فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا، وَصَنِيعُ بُرْمَةٍ فَأَتَيْتُ عَلَيْهَا. فَصَلَّوْا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَقَالَ: "لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ بِيَدِ جَلِيسِهِ"، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَسْجِدِ غَيْرُ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ وَغَيْرِي، وَكُنْتُ عَظِيمًا طَوِيلا لا يُقَدَّمُ عَلَيَّ أَحَدٌ. فَذَهَبَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَحَلَبَ لِي عَنْزًا، فَرُوِّيتُ وَشَبِعْتُ. فَقَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هَذَا ضَيْفَنَا؟ قَالَ: "بَلَى"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّهُ أَكَلَ فِي مِعَى مُؤْمِنٍ اللَّيْلَةَ، وَأَكَلَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مِعَى كَافِرٍ، الْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ".[6] أي أن المسلم يوهَبُ الصبر والقناعة.

وروى هذه القصة مفصلًا تلميذ الإمام أحمد بن حنبل، الحافظُ أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحَرْبي (المتوفى: 285هـ) عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ، نا نُفَيْرٌ، نا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا بَصْرَةَ عَنْ إِسْلَامِ غِفَارَ، فَقَالَ: أَصَابَتْنَا سَنَةٌ وَقِلَّةُ مَطَرٍ، فَتَحَدَّثْنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنُصِيبَ مَعَهُ مِنَ الطَّعَامِ، وَنَرْجِعَ إِلَى خَيْلِنَا. فَانْطَلَقْنَا وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ الْإِسْلَامَ. فَقَالَ: «فَمَنْ أَنْتُمْ؟» قُلْنَا: رَهْطٌ مِنْ غِفَارَ. قَالَ: «الْمُسْلِمُونَ أَنْتُمْ أَمْ صَابِئُونَ؟» فَقُلْنَا: لَا، بَلْ صَابِئُونَ. فَمَكَثْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ الْمَبِيتُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ». فَوَفَّقَ اللَّهُ لِي أَنْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي. فَانْطَلَقَ بِي إِلَى بَيْتِهِ، وَلَهُ ثَمَانِ أَعْنُزٍ، فَدَعَا كُلَّ عَنْزٍ بِاسْمِهَا، فَدَعَا مَوْهِبَةَ بِعَنْزٍ مِنْهَا، فَأَتَتْ بِهَا، فَحَلَبَهَا وَسَقَانِي، فَكَأَنِّي لَمْ أَشْرَبْ شَيْئًا، ثُمَّ دَعَا بِأُخْرَى، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى دَعَا بِحِلَابِ سَبْعِ أَعْنُزٍ، فَمَا تَرَكْتُ الثَّامِنَةَ إِلَّا حِفَاظًا. فَغَضِبَتْ مَوْهِبَةُ غَضَبًا لَا نَرَى مِثْلَهُ، وَأَبْغَضَتْنِي بُغْضًا لَا نَرَى مِثْلَهُ، غَيْرَ أَنْ لَمْ يُرَ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهَا، فَقَالَ: «يَا مَوْهِبَةُ، بَيِّتِي هَذَا الرَّجُلَ فِي بَيْتٍ، وَلَا تُوثِقِي عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنَ الْعَيْشِ». فَذَهَبَتِ الْجَارِيَةُ فَأَدْخَلَتْنِي فِي بَيْتٍ، وَأَغْلَقَتْ عَلَيَّ الْبَابَ غَضَبًا. فَتَحَرَّكَتْ عَلَيَّ بَطْنِي فِي لَيْلَتِي كُلِّهَا، حَتَّى أَصْبَحْتُ وَقَدْ مَلَأْتُ ثِيَابِيَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْغُسْلِ، فَغَسَّلَنِي، وَآزَرَنِي شَمْلَةً مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَا بِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدْتُ خَلْفَهُ أَصْحَابِيَ قَدْ أَسْلَمُوا، فَأَسْلَمْتُ. فَلَمَّا كَانَ الْمَبِيتُ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ رَجُلٍ بِيَدِ رَجُلٍ فَبَيَّتَهُ. فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي، وَانْطَلَقَ إِلَى بَيْتِهِ، فَدَعَا مَوْهِبَةَ، فَقَالَ: «ائْتِنِي بِفُلَانَةَ»، فَحَلَبَهَا، فَلَمْ أَشْرَبْ نِصْفَ حِلَابِهَا، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَصْرَةَ، إِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَالْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ».[7]

خدمة الضيف

بعد فتح خيبر، عاد مهاجرو الحبشة تحت قيادة جعفر الطيار ﵁، وجاء مع هؤلاء المهاجرين ممثلون عن النجاشي، فقام الرسول ﷺ بخدمتهم بنفسه فقال له أصحابه: "نحن نكفيك يا رسول الله، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم".[8]

ما كان رسول الله ﷺ، على قدر سعته، يتوانى أن يُعِدَّ الطعام الجيد لضيوفه وكان يشعر بالسعادة عند خدمة الضيف بنفسه. فعن المغيرة بن شعبة ﵁ قَالَ: "ضِفْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَأَمَرَ بِجَنْبٍ (أي جَدْيٍ) فَشُوِيَ، وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ فَجَعَلَ يَحُزُّ لِي بِهَا مِنْهُ، فَجَاءَ بِلالٌ فَآذَنَهُ بِالصَّلاةِ، فَأَلْقَى الشَّفْرَةَ وَقَالَ: "مَا لَهُ تَرِبَتْ يَدَاهُ". وَقَامَ يُصَلِّي.[9]

كان من عادة الرسول ﷺ أنه إذا زاره أحد في وقت الطعام، أن يدعوه للطعام دون تكلف. فعن عبد الله بن أنس ﵁ قال: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ بَنِي سَلِمَةَ وَأَنَا أَصْغَرُهُمْ فَقَالُوا: مَنْ يَسْأَلُ لَنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَذَلِكَ صَبِيحَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ. فَخَرَجْتُ فَوَافَيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلاةَ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ قُمْتُ بِبَابِ بَيْتِهِ، فَمَرَّ بِي فَقَالَ: "ادْخُلْ". فَدَخَلْتُ فَأُتِيَ بِعَشَائِهِ، فَرَآنِي أَكُفُّ عَنْهُ مِنْ قِلَّتِهِ. فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: "نَاوِلْنِي نَعْلِي". فَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ فَقَالَ: "كَأَنَّ لَكَ حَاجَةً". قُلْتُ أَجَلْ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. فَقَالَ: "كَمِ اللَّيْلَةُ". فَقُلْتُ: اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ. قَالَ: "هي اللَّيْلَةُ". ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: "أَوِ الْقَابِلَةُ". يُرِيدُ لَيْلَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرِين".[10]

إطعام الضيف

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ طِخْفَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَثُرَ الضَّيْفُ عِنْدَهُ قَالَ: لِيَنْقَلِبْ كُلُّ رَجُلٍ بِضَيْفِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ ضِيفَانٌ كَثِيرٌ وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِيَنْقَلِبْ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ جَلِيسِهِ. قَالَ فَكُنْتُ مِمَّنْ انْقَلَبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ يَا عَائِشَةُ هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ نَعَمْ حُوَيْسَةٌ كُنْتُ أَعْدَدْتُهَا لِإِفْطَارِكَ. قَالَ: فَجَاءَتْ بِهَا فِي قُعَيْبَةٍ لَهَا. فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا قَلِيلًا فَأَكَلَهُ ثُمَّ قَالَ خُذُوا بِسْمِ اللهِ. فَأَكَلْنَا مِنْهَا حَتَّى مَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ هَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَرَابٍ؟ قَالَتْ نَعَمْ لُبَيْنَةٌ كُنْتُ أَعْدَدْتُهَا لَكَ. قَالَ هَلُمِّيهَا. فَجَاءَتْ بِهَا فَتَنَاوَلَهَا

رَسُولُ اللهِ ﷺ فرَفَعَهَا إِلَى فِيهِ فَشَرِبَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ اشْرَبُوا بِسْمِ اللهِ. فَشَرِبْنَا حَتَّى وَاللهِ مَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا. ثُمَّ خَرَجْنَا فَأَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى وَجْهِي فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يُوقِظُ النَّاسَ الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ. وَكَانَ إِذَا خَرَجَ يُوقِظُ النَّاسَ لِلصَّلَاةِ، فَمَرَّ بِي وَأَنَا عَلَى وَجْهِي فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ أَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ طِخْفَةَ. فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ ضِجْعَةٌ يَكْرَهُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.[11]

ضيافة الجياع

كَانَ أبو هريرة ﷺ يَقُولُ: أَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِن الْجُوعِ وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنْ الْجُوعِ. وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ. ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ. ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا هِرٍّ. قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: الْحَقْ، وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي. فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟ قَالُوا أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ. قَالَ أَبَا هِرٍّ. قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ الْحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي. قَالَ وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا. فَسَاءَنِي ذَلِكَ فَقُلْتُ وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا. فَإِذَا جَاءَ أَمَرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِن الْبَيْتِ قَالَ يَا أَبَا هِرٍّ قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ خُذْ فَأَعْطِهِمْ قَالَ فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ أَبَا هِرٍّ قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ قُلْتُ صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ اقْعُدْ فَاشْرَبْ فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ فَقَالَ اشْرَبْ فَشَرِبْتُ فَمَا زَالَ يَقُولُ اشْرَبْ حَتَّى قُلْتُ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا قَالَ فَأَرِنِي فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ فَحَمِدَ

اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ.[12]

كان المقداد رضي الله عنه صحابيا فقيرا مُعدما، وقد روى تجربته الشخصية عن كرم رسول الله ﷺ، وقد وردت تفاصيلها في الفصل الذي بعنوان: "سِرّ استجابة دعاء النبي ﷺ"، فقال: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَيْس أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعْنُزٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا". قَالَ فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ.

ثم يكمل المقداد رضي الله عنه روايته بأنه ذات ليلة شرب نصيب النبي ﷺ أيضا وذهب لينام ثم ندم على فعله فلما جاء رسول الله ﷺ وما وجد نصيبه قال: "اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي"، فخرج المقداد رضي الله عنه وحلب في إناء وجاء الرسول ﷺ فسقاه وشرب الفضلة ثم أخبره بما فعل. وكان المقداد يذكر هذه الحادثة عن لطف رسول الله ﷺ بكل الحب.[13]

الإيثار وإكرام الضيف

جاء شخص مُعدَم إلى رسول الله ﷺ وأخبره أنه أصابته المشقة من الجوع. فبعث رسول الله ﷺ إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ: "من يضيف هذا؟" فقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه أنا. فانطلق به إلى امرأته أم سُليم رضي الله عنها (التي كانت ذكية ومخلصة وتؤثر على نفسها) وقال لها أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت ما عندنا على قوت صبياني فقال: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 10).[14]

كثرة الضيوف والبركات الإلهية

كان زمن معركة الخندق زمن مجاعة وشدة على المسلمين. وقد وصف جابر رضي الله عنه هذا الزمن

قائلا: "كنا يوم الخندق نحفر فعرضت صخرة شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجرين لتخفيف أثر الجوع وكنا لم نذق شيئا منذ ثلاثة أيام أيضا، فأخذ النبي ﷺ المِعْول فضربها ثلاثا فكُسرت أجزاء.

لم يطق جابر رضي الله عنه أن يرى جوع رسول الله ﷺ فذهب إلى بيته وقال لامرأته: رأيت بالنبي ﷺ شيئا ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ قالت عندي شعير وعَناقٌ (أي ماعز تسمنها). فذبح جابر العَناق وطحنت زوجه الشعير حتى جعلا اللحم في القِدر ثم جاء النبيَ ﷺ والعجين قد جَهُز والقدر على النار كاد أن ينضج ليدعوه. وطلبت منه زوجه ألا يفضحها عند رسول الله ﷺ بجلب عدد كبير من الضيوف فلا يكفيهم الطعام. فدعا جابر رضي الله عنه النبي ﷺ وأخبره أن الطعام قليل وأن بإمكانه اصطحاب رجل أو رجلين معه. ولكن أبّى لرسول الله ﷺ أن يترك أصحابه الجياع خلفه. فسأله عن مقدار الطعام فأخبره جابر فقال رسول الله ﷺ: "كثير طيب" وطلب منه أن يخبر زوجه ألا تنزع القدر عن النار ولا الخبز من التنور حتى يأتيهم ثم طلب من المهاجرين والأنصار أن يقوموا إلى بيت جابر وأنه قد أعدّ طعاما لهم. فلما دخل جابر على امرأته وأخبرها أن رسول الله ﷺ آت بالمهاجرين والأنصار بعدد يقارب الألف غضبت ولكنها سكنت لما عرفت أن زوجها أخبر الرسول ﷺ بالحال وهو من قرر ذلك.

عندما وصل النبي ﷺ، دعا بالبركة على العجين ونفخ على القدر، ثم أمرهم أن يباشروا بخبز الخبز وأن يُبقوا القِدر على النار. فجعل يكسر الخبز ويضع اللحم عليه ويوزع على أصحابه ويغطي القدر والتنور. فلم يزل يكسر الخبز ويغرِف حتى شبعوا وبقي بقية فقال لامرأة جابر رضي الله عنهما: "كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة."[15]

كرم ضيافة الوفود الأجنبية

كانت السنة التاسعة للهجرة بعد فتح مكة معروفة بـ " عام الوفود". جاء في تلك السنة، عدد كبير من الوفود من مناطق مختلفة من البلاد إلى المدينة ودخلوا الإسلام. فسُرّ رسول الله ﷺ بهم وأحسن ضيافتهم بنفسه ﷺ. فقد استقبل ورحب بنفسه بوفد تُجِيْب وأكرم منزلهم. وأمر بلالا رضي الله عنه أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم وأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفد.[16]

قدِم وفد عبد القيس الشهير من البحرين وهم من قبيلة ربيعة، وربيعة كان أخا مضرٍ جد

الرسول ﷺ، وكانت هذه القبيلة قد هاجرت إلى البحرين بسبب صراع داخلي. ظهر كرم ضيافة النبي ﷺ بأجلى صوره عند استقبال هذا الوفد والترحيب به. روى لاحقا أعضاء من هذا الوفد كيف أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد اشتد فرحهم بهم وأوسعوا لهم المجالس وقد رحب بهم رسول الله ﷺ وسألهم من يكون سيدهم وزعيمهم فأشاروا إلى المنذر بن عائذ، فأجلسه عن يمينه ورحب به وألطفه ثم أقبل على الأنصار فقال: "يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام، أشبه شيئا بكم أشعارا وأبشارا وأسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين." فلما أصبحوا قال رسول الله ﷺ للوفد: "كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم؟" قالوا خير إخوان، ألانوا فراشنا وأطابوا مطعمنا وباتوا وأصبحوا يعلمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى وسنة نبينا ﷺ، فأعجبت النبي ﷺ وفرح بها، ثم أقبل عليهم فعرضوا عليه ما تعلموه وعلمهم أمورا في الدين.[17]

كرم ضيافة أهل بيت النبي ﷺ

عن لقيط بن صبرة ﷺ قال: "كُنْتُ فِي وَفْدِ بَنِي الْمُنْتَفِقِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَرَتْ لَنَا بِخَزِيرَةٍ (وهو حِساء من دقيق ودسم) فَصُنِعَتْ لَنَا، وَأُتِينَا بطبق فِيهِ تَمْرٌ. ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "هَلْ أَصَبْتُمْ شَيْئًا أَوْ أُمِرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ". قُلْنَا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ فَبَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ إِذْ دَفَعَ الرَّاعِي غَنَمَهُ إِلَى الْمُرَاحِ وَمَعَهُ سَخْلَةٌ تَيْعَرُ (أي تصيح)، فَقَالَ: "مَا وَلَّدْتَ يَا فُلانُ". قَالَ بَهْمَةً (أي أنثى). قَالَ فَاذْبَحْ لَنَا مَكَانَهَا شَاةً. ثُمَّ قَالَ لا تَحْسِبَنَّ أَنَّا مِنْ أَجْلِكَ ذَبَحْنَاهَا؛ لَنَا غَنَمٌ مِائَةٌ لا نُرِيدُ أَنْ تَزِيدَ فَإِذَا وَلَّدَ الرَّاعِي بَهْمَةً ذَبَحْنَا مَكَانَهَا شَاةً.[18]

نجد في الأحاديث ذكر المعاملة التي يجب أن يعامل بها الضيف مُضيفَه؛ فقد زار رسول الله ﷺ أهل بيت من الأنصار فطعِم عندهم طعاما فلما أراد أن يخرج أمر بمكان من البيت فصلى ودعا لهم بالبركة والرزق.[19]

عدم التكلف أمام الضيف

قدم صهيبٌ ﷺ على النبي ﷺ وبين يديه تمر وخبز فقال: "ادن فكل"، فأخذ يأكل من

التمر، فقال له النبي: "إن بعينك رمدا"، فقال: يا رسول الله إنما آكل من الناحية الأخرى، فتبسم النبي ﷺ.[20]

كان رسول الله ﷺ غير متكلف مع مضيفيه؛ فكان له جار فارسي حديث الإسلام، طيبَ المَرَقِ فصنعه لرسول الله ﷺ ثم جاءه يدعوه فسأل رسول الله ﷺ إن كانت عائشة رضي الله عنها مدعوة أيضا فقال لا فلم يجب رسول الله ﷺ دعوته وتكرر الطلب والرفض وفي الثالثة قبل جارُه، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.[21]

كان الرسول ﷺ لا يتكلف عندما كان يحل ضيفا على أحد. ذات مرة، دعا أبو شعيب الأنصاري رضي الله عنه الرسول ﷺ لبيته وطلب منه إحضار أربعة أشخاص معه، وبينما هم في طريقهم لبيته انضم إليهم شخص آخر، عند وصولهم، أبلغ الرسول ﷺ المضيف بكل صراحة أنه طلب منه إحضار أربعة أشخاص لكن انضم إليهم شخص إضافي في طريقهم وسأله إن كان يأذن لهذا الشخص بالدخول معهم أو يعود أدراجه. فأذِن له.[22]

اللهم أعنا على اقتفاء أثر الرسول ﷺ في آداب الضيافة والعمل بها. آمين.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأدب، باب حق الضيف.

[2] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب 31.

[3] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب الصدافة.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي.

[5] تفسير الطبري؛ الجزء 19، ص 409و410، طبعة بيروت.

[6] المعجم الكبير للطبراني ؛ الجزء 2، ص 274، طبعة بيروت.

[7] إكرام الضيف لأبى إسحاق إبراهيم البغدادي الحَرْبي؛ ص 42، طبعة مكتبة الصحابة،طنطا، مصر.

[8] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 191، طبعة بيروت.

[9] سنن أبو داؤد؛ كتاب الطهارة، باب فِي تَرْكِ الْوُضُوءِ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ.

[10] سنن أبو داؤد؛ كتاب شهر، رمضان باب فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 426، طبعة القاهرة.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب ،الرقاق باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه.

[13] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب قول الله ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق.

[16] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 488، طبعة بيروت.

[17] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 432، طبعة القاهرة.

[18] سنن أبي داؤد؛ كتاب الطهارة، باب فى الاستنثار.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الزيارة ومن زار قوما فطعم عندهم.

[20] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 61، طبعة القاهرة.

[21] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 123، طبعة القاهرة.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب الرجل يتكلف الطعام لإخوانه.

حب الوطن عند رسول الله ﷺ

إنّ حب المرء لوطنه شعورٌ فطري، ذلك المكان الذي يولد فيه الشخص، المحيط الذي يفتح فيه عينيه، التربة التي يلعب عليها كطفلٍ، والأرض التي تؤمن له المأكل لهي بمثابة أم. حبٌّ عميقٌ يتمايز في شخصيته تجاه هذه الأرض.

إن الوطنية لواجب قومي وديني، ولهذا السبب وُعِد بأجرٍ عظيمٍ من يهاجر ويفارق موطنه في سبيل الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: 101).

وقال الرسول الكريم ﷺ "حبُّ الوطنِ من الإيمان."[1]

وكشقٍّ من الإيمان، تلقي الوطنية بعض المسؤوليات على كاهل المرء، وواجبٌ على كل مؤمنٍ أن يؤدي حق هذه الالتزامات.

صورة الوطنيّة الحقّة

في عالم اليوم، وباسم "الوطنية" يتم التحريض على مشاعر الفخر بالبلد، واللون، والعقيدة، والقومية. كما تُسحق حقوق الضعفاء باسم هذه المشاعر المقدسة!

وبينما يتم تنشأة المرء على حب بلده، تُرتكب الكراهية ضد البلدان الأخرى، ولا يُمنح الأناس حقوقهم على أرضهم الأم! هذه التحيزات والإجحافات إنما هي نتاج العصور الحديثة والتي لا تمتّ بأي صلةٍ لدين سيدنا محمد ﷺ.

إن الرسول الكريم ﷺ لأمثل وأصدق مثالٍ على التعاليم القرآنية، وعبر دراسة سماته الشخصية نشرع بفهم الوطنية من وجهة النظر الدينية، وهذا قائمٌ على مبدأ كون مؤسس الإسلام محمد ﷺ رحمةً للعالم كافة، إنه النبي العالمي، وجميع العالم أرضه وموطنه.

إنه امتيازه ﷺ أن صُيّرَ سطح الأرض جميعُه مطهّرا وجديرا بسجداته. لقد أحبَّ كل جزءٍ من

العالم وشعبه دون أي تفرقة لونية أو عقائدية، وبدافع القضاء على الانقسامات الوطنية، علّمنا أن الجميع متساوٍ، وليس لأحدٍ أي أفضلية على الآخرين بناءً على عرقه، أو لونه، أو عقيدته. لقد أرسى الحق العادل لكل شخصٍ بحبه لوطنه، وبحريته المطلقة.

ذاك الجزء من الجزيرة العربية حيث وُلد ﷺ، وقضى أيام طفولته يلعب بأزقته، المنزل الذي عاش به لفترةٍ طويلةٍ، كل ذلك كان فطريا محببا إليه أكثر، وكان هذا الحب واضحا بشدةٍ في مناسباتٍ مختلفة.

الذّودُ عن الوطن

كان هناك اعتدالٌ وتوازنٌ مثاليٌ بوطنية رسول الله ﷺ، وقد أوفى جميعَ واجباته تجاهها. وكلّما نزلت الضوائق على أبناء موطنه تقدم لهم بمدّ يد الغوث والمساعدة.

كان يبلغ من العمر 20 عاما فقط حينما اندلعت الحرب بين قبيلته وقبيلة "قيس عيلان". كانت قريشٌ وبنو كنانة من جهة، وقيس عيلان وهوازن من جهةٍ أخرى. ففي تلك الأوقات الحرجة والخطرة قاتل ﷺ كجنديٍ عاديٍ يناول النبال لأعمامه.[2]

التعاطف مع أبناء جلدته

أحب الرسول ﷺ أبناء وطنه، وحين أُعِد ميثاق "حلف الفضول" لحماية حقوق الإنسان، ورفع القسوة عن الضعفاء، انضمّ إليه. واعتاد حتى بعد تكليفه كرسولٍ أن يقول: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النَعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت."[3]

كان حب النبي ﷺ لوطنه وأبناء شعبه متجذّرا في أعماق قلبه، وتعبيرٌ واحدٌ عن هذا الحب كان بزمن الحرب بين الرومان والفرس القساة، الذين استهدفوا العرب.

دعم العرب الرومان وانتصروا، وبهذه الطريقة تخلّص العرب من الفرس. وفي ذلك اليوم وبالتفكير بمقدار السعادة والسلام الحاصل لأبناء وطنه قال الرسول الكريم ﷺ: "اليوم انتقصت العرب ملك العجم."[4]

دموعٌ من الدم

في عالم الحرية اليوم، لك أن تتخيل مشاعر شخص مظلوم، لم يسمح له زملاؤه المواطنون بالبقاء في بلده الأم! لقد طردوه وأصبحوا أعداءه المتعطشين لدمائه. لا شك أن هذا الشخص سيكون الأكثر اضطهادا وتضررا، لكن حبيبنا محمد ﷺ تحمّل هذه القسوة في سبيل الإيمان بالتسليم لإرادة الله.

بعد نزول أول وحيٍ، عندما أخذت سيدتنا خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ لابن عمها ورقة بن نوفل، وبعد سماع الرواية الكاملة قال: "هذا الناموس الذي نزَّل اللهُ على موسى، يا لَيتني فيها جذعًا (أي: شابًّا قويًّا) ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك." لا بد وأن هذه الفكرة كانت موجعة للتخيّل، ويبيّن تعبيرُ الرسول الكريم بذاك الوقت ألمَه حين قال: "أوَمُخرِجيَّ هم؟" يعني كيف سيكون ممكنا لشعبي أن يطردوا شخصا نافعا، وغير ضارٍّ لهم، شخصا يكترث لأمرهم، ويصلي لأجلهم في كل حين؟[5]

قد كان ورقة بن نوفل محقًّا بقوله أنّ كل من أعلن مهمةً كهذه، عومل بالطريقة ذاتها.

وأن رسول الله ﷺ كان سيلقى المعاملة نفسها على يد أبناء وطنه.

وهذا ما حدث بالفعل؛ أنّ ملِك العالَمين الذي لأجله خُلق العالم، قد نُفي من موطن ولادته!

ما مدى ثقل ذلك على قلبه حينما أُجبر على هجر أزقة موطن أجداده، وفي يوم مغادرته مكة، كان قلبه يذرف دموعا من دم. خرج من المدينة، وعند المعبر عندما بدأت مكة تتلاشى وتختفي، وقف ﷺ على صخرة وواجه مكة مخاطبا:

"والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ﷻ. ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت."[6]

بقلبٍ يعتصره الألم ودّع رسول الله ﷺ مكةَ وبدأ رحلة الهجرة. كان الله تعالى راعيا لمشاعر رسوله الحبيب ومُعدّه لهذه التضحية، إذ علّمه الدعاءَ سلفا، وفي هذا الدعاء كان عزاؤه بدخوله مكةَ مرةً أخرى، فخفف ذلك من ثقل حزنه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: 81).

وفي الحقيقة، كان سبب نزول الآية التالية عزاء سيدنا محمد ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: 86).

لقد واسى الله ﷻ نبيه الحبيب ﷺ من خلال استدعاء اسم مدينته وتنبؤ دخوله المؤكّد لمكة المكرمة (أم القرى) وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ - وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: 2-3).

الدعوات لأبناء وطنه

حتى بعد هجرة النبي ﷺ للمدينة، بقيت ذكرى ومحبة أصحاب موطنه بمكة راسخةً بقلبه، وكان يدعو لأجلهم دوما. يروي الصحابي أبو ذرّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف ذات ليلة للصلاة وكان يتلو الآيات التالية في صلاته: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[7]

لم يتمنّ النبي محمد ﷺ دمار وموت معذّبيه، لكنه تمنّى إقناعهم بحقيقة الإسلام بالحكمة.

دعا ﷺ مرةً: "اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف." (حينما أجبروا على المجيء ليوسف طائعين) وتم قبول هذه الدعوة.

اجتاحت مثل هذه المجاعة الشديدة مكة ولجأ الناس لتناول عظام الحيوانات الميتة، ومن شدة القحط جعل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهْد. حلّ الرعب بأهل مكة بسبب المجاعة، وعلموا جيدا أن محمدا ﷺ يمتلك صلة مع الله بالإضافة لصلته مع مخلوقات الله، وأنه كان شخصا محبا لوطنه. لذا قدِم أبو سفيان لرؤية محمد ﷺ وقال:

"يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك هلكوا جوعا، فادع الله لهم." (ليمطرهم ويوقف المجاعة)، فقال النبي الكريم ﷺ مذكّرا إياه بسلوكهم قائلا: "إِنَّكَ لَجَرِيءٌ"[8]؛ أي وقع عليكم العقاب لرفضكم لي، وبدلا من التصديق بالله الأحد، تطالبونني برفع هذه العاقبة؟"

إن حبه لموطنه حرّك قلبه ﷺ فدعا الله لاستسقاء المطر ونهاية المجاعة، وقبلت هذه الصلاة فنزلت الأمطار وانحسرت المجاعة. لكن ولما تمتّع أهل مكة بالرفاهية مرةً أخرى، انغمسوا بعبادة الأوثان ومعارضة الإسلام.[9]

وخلال هذه المجاعة جمع رسول الله ﷺ 500 دينار من أهل المدينة وأرسلها لأهالي مكة.[10]

ذكرى الوطن

إن الحب العميق الذي تمتع به رسول الله ﷺ لموطنه يمكن تقديره من الحادث التالي:

قدم رجلٌ من قبيلة غفار من مكة للمدينة بعد الهجرة واسمه أُصَيل، (وكان ذلك قبل نزول حكم الحجاب) فقالت له سيدتنا عائشة رضي الله عنها: كيف تركت مكة؟ فأجاب ببلاغة: "اخضرت جنباتها، وابيضت بطحاؤها، وأغدق أذخرها" وحينما سمع النبي محمد ﷺ ذلك، اهتزت ذكرى موطنه في قلبه وتوقد حبه لها وقال: "حسبُكَ يا أُصَيل لا تُحزنّا"، أي أحجم عن الوصف ولا تحزن قلبي. وفي بعض المواضع كتب أنه ﷺ قال: "ويها يا أُصيل دع القلوب تقر" أي قد أسعدت قلبي.[11]

سفير السلام

اختار رسول الله ﷺ في معاهدة صلح الحديبية الهدنةَ بأصعب الشروط، ذلك أنه ما رغب بخسارة حياة أبناء موطنه.[12]

عامٌ تلا، وتبعا لشروط معاهدة الحديبية ذهب النبي ﷺ لأداء العمرة وكان لديه الإذن للبقاء لثلاثة أيام في مكة. خلال هذه المدة تزوج الرسول من سيدتنا ميمونة رضي الله عنها. رغب ﷺ أن تقام وليمة في مكة ليتمكن أهل مكة من الانضمام إليها، فأرسل رسالة لأهل مكة لإعطائه الإذن بالبقاء ليوم أو اثنين إضافيين ليتمكن من دعوتهم للوليمة، فلم يسمحوا له.[13]

حتى في ذلك الحين ما قلَّ حبه لأبناء جلدته أبدا.

في زمن فتح مكة، كانت جلّ تدابيره ﷺ بهدف المحافظة على حياة المكيين. وصل الرسول ﷺ مكةَ بسرعة كبيرة برفقة جيش من عشرة آلاف رجل، وكانت رغبته القلبية قد تحققت. اليوم الذي فتحت فيه مكة بعد أن كانت محطا للتعذيب لم يُسمَع فيها إلا إعلان العفو والأمن! وقد تجمع بعض رجال قريش للمقاومة وبادروا بالهجوم فقتل شخصان.[14]

الولاء لمكة

لقد تجلى حب الرسول ﷺ لأرضه بقوةٍ حين فتح مكة، والسؤال الذي يطرح نفسه: أين سيمكث سيدنا محمد ﷺ؟ هل سيبقى في معقل أجداده؟ قال رسول الله ﷺ:

"وهل ترَكَ عقيلٌ من رباعٍ ودُور؟" أي أن ابن عمنا عقيل قد أخذ كل هذه المنازل. وحتى في زمن الانتصار هذا لم يستملك النبي ﷺ هذه المنازل وحفظ بذلك كرامة مواطنيه.[15]

والرواية التالية لعبد الله بن عَدي تكشف مشاعر الوطنية العميقة في قلب رسول الله ﷺ، إذ سمعَ النبي ﷺ وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة (قرب باب الحناطين) يخاطب موطنه الحبيب قائلا: "وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ عَجَلَّ وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ."[16]

قد علم أنصار المدينة مدى حبه ﷺ لمكة، فجعلوا يتهامسون يوم الفتح أن قد أدركت النبيَّ رغبةٌ بقريته، وقد يرجع إلى الإقامة فيها دائما. سمع النبي ﷺ ذلك وهو على الصفا، فناداهم وأخبرهم بما سمع عنهم فقالوا:

"والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضِّنّ بالله وبرسوله" (أي شُحًّا بك أن تفارقنا ويختص بك غيرنا)، فقال رسول الله ﷺ "إنّ الله ورسولَه يصدّقانكم ويعذرانكم"[17] وأردف قائلا: "معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم."[18]

عندما قدم رسول الله ﷺ مكة لآخر مرة في حجة الوداع، تقلّب حبه لوطنه في قلبه مرة أخرى، وسمعه عبد الرحمن بن الحارث يقول واقفا على راحلته:

"والله إنكِ لخير الأرض، وأحب الأرض إلى الله. ولولا أني أخرجت منك ما خرجت."

فقال عبد الرحمن: "يا ليتنا نفعل فارجع إليها إنها منبتك ومولدك" فقال رسول الله ﷺ:

"إني سألت ربي عَجَلَّ فقلت اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إلي، فأنزلني أحب الأرض إليك، فأنزلني المدينة."[19]

المدينة المنورة، الوطن الثاني

منح قدَرُ الله تعالى رسول الله ﷺ وطنا ثانيا، وقد أوفى النبي ﷺ بجميع واجبات الحب والولاء لموطنه هذا، وكان من حسن حظ أهل المدينة أن رحبوا برسول الله وبذلك بورِكوا.

من المذهل تلقّي المدينة وأهلها عظيم البركات بعد ما أصبحت وطن رسول الله ﷺ الثاني، وهي التي كانت تُعرف باسم يثرب إشارةً إلى كونها موبوءةً، لكن وبعد وصول رسول الله ﷺ إليها أصبحت تعرف بـ "مدينة الرسول".

كان رسول الله ﷺ يقول بكل حب: "يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد"، قاصدا أن نقاء الجو وورع الصّحبة لفعّالة جدا. لقد أكد قدسية المدينة المنورة وقال: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة". وقصد بذلك منع القتال وإراقة الدماء فيها.[20]

الدعاءُ للمدينة

في أيام الهجرة الأولى، لم يكن مناخ المدينة المنورة مناسبا لأصحاب النبي ﷺ فبدؤوا يعانون من الحمى، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو قائلا:

"اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ".[21]

وأضحى حب الرسول ﷺ وصحابته للمدينة متأصلا في قلوبهم فشقَّ عليهم البقاء بعيدا عنها، ويذكر الصحابة الكرام أن رسول الله ﷺ كان كلما عاد إلى المدينة من سفر كان ينظر إلى طرقات وجدران المدينة بحب ويحث دابته لتسرع بدخول المدينة. وكان ﷺ يدعو للمدينة قائلا:
"اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ".[22]

في السنوات الأخيرة مكث الرسول ﷺ خارج المدينة قرابة شهر بسبب غزوة تبوك، وفي طريق عودته وبوصوله التلال المتاخمة للمدينة، تعلق ناظره فيها وقال هائما: "هذه طابة."[23]
"انظروا المدينة المنورة هنا، المدينة هنا" كان الرسول ﷺ يدعو المدينة طابة أو طيبة أيضا، أي المقدّسة والمطهّرة.

وبالمثل حينما وصل ﷺ المدينة بعد غزوة خيبر، وعند اقترابه من المدينة استحضّ ناقته لتجدّ بالسير، وحين رؤيته جبل أحد والشوق يعتمر قلبه، بكى ﷺ قائلا: "هذا جبل يحبّنا ونحبّه".[24]
برؤية الحب الشديد الذي أكنّه رسول الله ﷺ للمدينة، كان سيدنا عمر رضي الله عنه يدعو قائلا:
"اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ" أي المدينة المنورة.
نسأل الله تعالى متأسين بسيدنا محمد ﷺ أن يهبنا الحب الحقيقي لوطننا فنخدمه ونضحي من أجله. ربنا أعنا على ألا نبخس أبناء وطننا حقوقهم وإن هضموا حقوقنا، وإن تعذر علينا خدمة وطننا بأنفسنا فاجعل أفئدتنا تتضرع إليك لتكون أنت بنفسك حاميه وأن يتحقق

الهدف من نشأته.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] المقاصد الحسنة؛ ص 297، طبعة بيروت.

[2] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 186، طبعة بيروت.

[3] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 133، طبعة بيروت.

[4] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 7، ص 77، طبعة بيروت.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي باب 1.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 305، طبعة القاهرة.

[7] سنن النسائي؛ كتاب الافتتاح، باب ترديد الآية.

[8] صحيح مسلم؛ كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي ﷺ (اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف)، وباب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط.

[10] المبسوط للسرخسي؛ الجزء 12، ص 198، طبعة بيروت.

[11] المقاصد الحسنة؛ ص 298، طبعة بيروت.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب عمرة القضاء.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز رسول الله ﷺ الراية يوم الفتح.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب الحج، باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في مسجد الحرام سواء خاصة.

[16] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 305، طبعة القاهرة.

[17] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب فَتْحِ مَكَّةَ.

[18] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 416، طبعة بيروت.

[19] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 312، طبعة بيروت.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل المدينة، باب المدينة طابة.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو.

ثبات النبي ﷺ واستقامته

إن أطهر وأشرف خلق الله هم الرُسل والذين يَصطفيهم الله ﷻ، ويشهد التاريخ على صدقهم وأمانتهم وتقواهم. لكن ما إن يبلّغوا رسالة الحق ويرشدوا المجتمع الضال إلى الصدق والتقوى حتى يعارضهم الأشرار والوضعاء أشد المعارضة فيستهزئون بهم ويعذبونهم. هذا ما يقوله الله تعالى في وصف سلوك هؤلاء: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس: 31)

ولقد لَقي النبي المعاملة نفسها، ولمواساته قال له الله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فصّلت: 44).

وأمَره بالصبر والاستقامة: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى: 16).

وحضّه على الصبر أيضا في الآية التالية:﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(الأحقاف: 36)

وكذلك عندما قال له: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(آل عمران: 187)

الصبر على المطاعن

إن سيدنا ونبينا محمد ﷺ امتُحن أكثر من سائر الأنبياء. فقد سمع كلاما مسيئا وصبر، وعُذّب جسديا وثبت. إنه تحمّل كل تلك الصعاب في سبيل الله عن طيب خاطر ودون أي تذمر أو استياء، وواصل رسالته بكرامة وجلال، وأظهر قدرا كبيرا من الاستقامة.

كم كان النبي ﷺ عظيم الكرامة، فقد نُعت والعياذ بالله بالشاعر والمجنون والساحر والكاذب وعفا عن تلك الإساءات التي وجّهها له أعداؤه في الدين بل ودعا لهم فقال: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".[1]

فلولا أنْ أمَر الله ﷻ النبي ﷺ بالصبر، وضَمِن دعْمه، ووعَد بحمايته لَما صمد النبي ﷺ ولا

طاق ألم ومعاناة تلك الأيام. فكان الله يُعزّيه في كل خطوة فيقول له أحيانا: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحِجر: 96).

وأحيانا أخرى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: 68).

وحين أخذ مَن تقصّدوا الاستهزاء بالنبي ﷺ يدعونه بمذمّم بدلا من محمد، قال ﷺ: "أَلَا تَعْجَبُونَ كيفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُمْ؟! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا ويَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ."[2]

الصبر على إيذاء أصحابه

ولتعذيبه استَخدم كُفّار مكة وسائل مختلفة، كلها وحشية ومشينة ومهينة لكرامة الإنسان. لكن ما استطاعت أي منها أن تهز عزيمته عليه الصلاة والسلام، وكان من بين تلك الوسائل أن قريشا سعت لتطليق بناته من أزواجهن. فأولا حثّوا عُتبة بن أبي لهب على الطلاق فطلق رقية رضي الله عنها.[3] ومن ثم ضغط أبو لهب على ابنه الثاني عُتيبة فطلق أم كلثوم رضي الله عنها.[4]

ولم يُسمح للنبي ﷺ أن يصلي، لا خفية ولا بمفرده ولا مع أحد.[5]

وكان على رأس من قاموا بهذا التعذيب الوحشي أبو جهل، فكان بحكم مكانته يهين ويشتم ويرهّب المسلمين الجدد. فإذا كان المسلم الجديد تاجرا، كان يُهدَّد بالحظر، وإذا كان من قبيلة فقيرة فكان يُضرب.[6]

في البداية، عُذِّب بوحشية حتى الأشراف مثل أبو بكر وطلحة وعثمان والزبير ومصعب بن عمير رضي الله عنهم. لكن الكفار يئسوا منهم في النهاية فتركوهم وشأنهم. أما الوحشية التي مورِسَت بحق بلال رضي الله عنه وآل ياسر وخبّاب رضي الله عنهم فكانت مُروِّعة. كان بلال رضي الله عنه من عبيد أميّة الذي كان يلقيه على الرمل الحارق ويضع على صدره صخرة ثقيلة ويطلب منه أن يكفر بمحمد ويؤمن باللات والعزى وإلا مات في هذه الوضعية. لكن بلالا لم يقل إلا "أحدٌ، أحد". كان النبي ﷺ لا يحتمل معاناة هذا العبد التقي والمخلص. فقال: "لو كان عندنا شيء لابتعنا بلالا"؛ فكان لأبي بكر رضي الله عنه الفضل في عتق بلال.[7]

كان ياسر رضي الله عنه وزوجته سميّة رضي الله عنها وابنهما عمّار عبيدَ بني مخزوم وهم قبيلة من قريش، وعُذّبوا وسط النهار في الصحراء الحارة، ولِيُصبّرهم على ذلك قال لهم النبي ﷺ: "صبرا آل

ياسر، فإنَّ موعدكم الجنة". عن عثمان ﷺ قال: "أَلا أُحَدِّثُكُمَا عَنْهُ يَعْنِي عَمَّارًا أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ آخِذًا بِيَدِي نَتَمَشَّى فِي الْبَطْحَاءِ حَتَّى أَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ يَا رَسُولَ اللهِ الدَّهْرَ هَكَذَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ اصْبِرْ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتُ."[8]

وفي النهاية استُشهدت سميّة رضي الله عنها بعد أن طعنها أبو جهل بحربة.[9] وقد لقي خبّاب وصهيب وعامر وأبو فكيهة المصير نفسه من التعذيب، وقد أُلقي خبّاب في النار فاحترق جسمه حتى أطفأ شحم ظهره الجمر ثم صعد هؤلاء الوحوش على صدره حتى علَّمت آثار الحرق في جسده إلى مماته.[10]

فعن خبّاب ﷺ أنه قال: "شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ."[11]

ولم يأمن النبي ﷺ نفسُه من استهزاء وسخرية المشركين القساة. إذ كانت أم جميل، زوجة أبي لهب، تضع على طريقه الشوك وترميه بالحجارة لكن الله حماه من أذاها.[12]

إيذاء الرسول ﷺ نفسه

ولم يسلم من أذى هؤلاء الهمجيين حتى في بيته، فقد كانوا يضعون له القذارة في قِدر الطعام، وليتقي شرهم خلال صلاته اتخذ حِجرا يستتر به منهم.[13]

وكانت أم جميل تسيء إلى النبي ﷺ فتصيح: "مُذَمَّمًا أَبَيْنا، وَدِينَه قَلَينا، وأَمْرَهُ عَصَينا".[14]

وكان أميّة بن خلف أيضا يؤذي النبي ﷺ ويستهزئ به على الملأ فكان كلما رآه همزه ولمزه، أي أشار إليه وشتمه علانية. أما أُبي بن خلف فقد "مَشَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَظْمٍ بَالٍ قَدْ ارْفَتّ فَقَالَ يَا مُحَمّدُ أَنْتَ تَزْعُمُ أَنّ اللّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمّ ثُمّ فَتّهُ فِي يَدِهِ ثُمّ نَفَخَهُ فِي الرّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللّهُ وَإِيّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا، ثُمّ يُدْخِلُك اللّهُ النّارَ."[15]

وكان العاص بن وائل يقلل من قدر النبي ﷺ ومكانته. والوليد بن المغيرة قال: إنْ نزَل ملك فلِمَ لمْ ينزل على رجل عظيم من القوم.[16]

وازداد التعذيب والإيذاء بعد ممات أبي طالب. فمرّة دخل النبي ﷺ بيته وقد نثر سفيه على رأسه التراب، فبكت ابنته وهي تغسل رأسه، فواساها النبي ﷺ قائلا: "لَا تَبْكِي يَا بُنَيّةِ فَإِنّ اللّهَ مَانِعٌ أَبَاك." ثم قال إن قريشا بعد أن مات أبو طالب وصلوا بِشرِّهم إلى أقصى حد.[17]

فباختصار لم تُضيع قريش فرصة واحدة لإيذاء النبي بعد أن مات عمه أبو طالب، وقال النبي ﷺ وقد افتقد لعمه: "ما أسرع ما وجدت فقدك يا عم."[18]

استقامة النبي ﷺ على أشدّ الأذى

وبلغ اضطهادهم أشد مبلغ حين خرج النبي ﷺ يوما من بيته فما لقيه أحد، لا حر ولا عبد، إلا أساء له وآذاه، فحزن النبي ﷺ ورجع إلى بيته فاستلقى ودثّر نفسه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.[19]

صحيح أن الصحابة ﷺ لم يرووا إلا جزءا مما تعرض له النبي ﷺ من محن وأذى لأن ذلك كان مؤلما بالنسبة لهم ولم يريدوا نشر هذه الأحداث حفاظا على كرامته ﷺ. كان النبي مثالا في الصبر ولم يعلن على الملأ ما تعرض له. في إحدى المرات قال لعائشة رضي الله عنها: "كُنتُ بين شر جارَين، بين أبي لهبٍ وعقبة بن أبي معيطٍ، إن كانا لَيأتيان بالفُروث فيطرحانها على بابي"، فيخرج بها رسول الله ﷺ فيقول: "يا بني عبد منافٍ أي جوارٍ هذا؟" ثم يلقيه بالطريق.[20]

وقد مُنع النبي من الطواف بالكعبة وأحيانا من الصلاة في بيت الله، فعن عروة أنه سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أكثر ما رآه من عداوة قريش للنبي ﷺ فقال: "حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا: قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي، حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ

فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَقَالَ: تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ، فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِدًا، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا، قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عليهم رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، دُونَهُ، يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟" ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ."[21]

في يوم من الأيام اجتمع كبار مكة قرب الحجر يعبدون أوثانهم وقالوا "إذا مر محمد علينا ضربه كل واحد منا ضربة"، فسمعت فاطمة رضي الله عنها بمكرهم فجاءت أباها ﷺ وقالت له: " هؤلاءِ الملأُ من قريشٍ في الحِجْرِ يتعاقدونَ باللَّاتِ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى، لو قد رأوكَ لقاموا إليك فيقتلوكَ، وليس منهم إلا من عَرَفَ نصيبَهُ من دَمِكَ، فقال: يا بُنَيَّةِ، ائتني بوُضوءٍ، فتوضأَ رسولُ اللهِ ﷺ، ثم خرج إلى المسجدِ، فلمَّا رَأَوْهُ قالوا: إنَّما هو ذا. فطأطأوا رؤوسهم، وسقطتْ أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناولَ رسولُ اللهِ ﷺ قبضةً من ترابٍ فَحَصَبَهُمْ بها، وقال: شاهَتِ الوجوهُ. فما أصاب رجلا منهم حصاةٌ من حصياتِهِ إلا قُتِلَ يومَ بدرٍ كافرا."[22]

وذات مرة قال أبو جهل: "لئن رأيتُ محمدا يُصلِّي عند الكعبةِ لآتينَّه حتى أطأَ على عنقِه" فأجاب النبي ﷺ: "لو فعل لأخذتْهُ الملائكةُ عيانًا."[23]

لم يكن النبي ﷺ يتمتع بحرية العبادة فكانوا يؤذونه حتى أثناء أدائه للصلاة. فعن عبد الله بن مسعود قال: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ

أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ، لا أُغَيِّرُ شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنْعَةٌ. قَالَ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ " اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ."[24]

الثبات في وجه الاضطهاد

عن عمرو بن عثمان عن أبيه عثمان رضي الله عنه عن الاضطهاد الذي تعرض له النبي ﷺ على يد قريش قال: "أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيته يوما، كان رسول الله يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاث نفر جلوس عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعُرف ذلك في وجه النبي ﷺ، فدنوت منه حتى وسطتُه، فكان بيني وبين أبي بكر، فأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعا. فلما حاذاهم قال أبو جهل: "والله لا نصالحك ما بلّ بحرٌ صوفة وأنت تنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا". فقال رسول الله ﷺ أنا ذلك، ثم مضى عنهم. فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، فوثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجمع ثوبه، فدفعت في صدره فوقع على إسته، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط. ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف، ثم قال لهم: " أَمَا وَالله لا تَنْتَهُونَ حَتَّى يَحِلَّ عِقَابُه عَاجِلاً ". قال عثمان رضي الله عنه فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذه الخوف وهو يرتعد. فجعل رسول الله ﷺ يقول: بئس القوم أنتم لنبيكم. ثم انصرف إلى بيته وتبعناه خلفه حتى انتهى إلى باب بيته، وقف على السدة ثم أقبل علينا بوجهه فقال: "أبشِروا فإن الله عز وجل مُظهِر دينه، ومتمُّ كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون ممن يذبح الله بأيديكم عاجلا". ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا."[25]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "جاءَ جبريلُ عليه السلام ذاتَ يومٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ جالسٌ حزينٌ قد خُضِّبَ بالدِّماءِ قَد ضربَهُ بعضُ أهْلِ مَكَّةَ، فقالَ ما لَكَ؟ قالَ فَعلَ بي هؤلاءِ وفعَلوا، قالَ أتحبُّ أن أريَكَ آيةً قالَ نعم أرِني فنظرَ إلى شجرَةٍ من وراءِ الوادي قالَ ادعُ تلكَ الشَّجرةَ فدَعاها فجاءَت تَمشي حتَّى قامَت بينَ يدَيهِ قالَ قل لَها فَلترجِع فقالَ لَها فرجَعَت حتَّى عادَت

إلى مَكانِها فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ حَسبي."[26]

قد يكون هذا الحدث آية على قوة النبي ﷺ كالتي ظهرت في معجزة تكثير الماء أو الطعام. أو أنها رؤيا تخبره بأن الله إذا شاء جعل أهل مكة يأتونه طائعين كتلك الشجرة. إلا أنه لا إكراه في الدين. والطبائع الطيبة واللطيفة ستلجأ إليه في نهاية المطاف، وكان في هذا الحدث مواساة عظيمة لقلب النبي ﷺ حتى إنه قال "حسبي".

أسير في سبيل الله

مع تعرض النبي لمختلف أنواع الأذى إلا أن عزيمته لم تتزعزع أبدا، وهذا ما حير كفار مكة فقرروا أن يقتلوه واتفقوا فيما بينهم أن من تعاطف معه سوف يقاطعونه ويضايقونه فلا يخالطوه ولا يتعاملوا معه لا في زواج ولا في تجارة حتى يسلِّمهم النبي.[27]

وحين أدركت قريش أن آل بني هاشم كلهم، المسلم فيهم وغير المسلم على حد سواء، في صف النبي ﷺ حظروا عليهم السوق.

وحوصر أبو طالب وذويه في شِعبهم، وقطعت عنهم المؤن، وكل البضائع التجارية كانت تُشرى قبل أن تصل إليهم، والهدف من كل ذلك هو أن يسلموا النبي ﷺ وإلا ماتوا من الجوع.

دام الحصار ثلاث سنوات فلم يبعهم أحد أي شيء، ومُنع عنهم الطعام فكانوا يرجعون من السوق بخفي حنين، فتدهورت أحوالهم ووصل بهم الأمر إلى الموت جوعا.[28]

وعن سعد بن أبي وقاص أنه ذات ليلة خرج ليبول فسمع قعقعة تحت البول وإذا بقطعة من جلد بعير فأخذها وغسلها ثم أحرقها ثم طحنها وأخذ يأكل منها مع الماء فكانت طعامه لثلاثة أيام.[29]

وعندما أتت القوافل المحملة بالحبوب إلى مكة وأراد المسلمون الشراء منها، كان أبو لهب يطلب من التجار أن يغلوا سعر سلعهم لأصحاب محمد حتى لا يقدروا على شرائها، فكانوا يعودون إلى البيت دون طعام وأطفالهم يبكون من الجوع، وكان أبو لهب يشتري الحبوب والثياب بسعر أعلى، فأصبح المسلمون عراة وجياع.[30]

ولقد روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه كان يتضور جوعا حتى وطئ ذات ليلة على شيء رطب فالتقطه وأكله ولم يعرف أبدا ما أكل.[31]

كان الحصار سببا لجوع المسلمين وخطرا شديدا على سلامتهم وسلامة النبي ﷺ بشكل خاص، فكانت ثلاث سنوات من الخوف، حتى أن أبا طالب كان في كل ليلة ينصح النبي ﷺ بالنوم في مكان مختلف، فلو عرف مَن يُكِنّ له الشر مكان نومه لهاجمه. لذلك كان أبو طالب عندما ينام الجميع يطلب من أخيه أو ابنه أو ابن أخيه أن يبدلوا مكان نومهم مع النبي ﷺ، وهكذا بقي مكان نوم النبي سرا واستمرت هذه الاستراتيجية الذكية لحمايته مدة ثلاث سنوات.[32] إن هذا الوصف يبين بوضوح الحالة الحرجة التي آلت إليها شئون المسلمين والأخطار التي واجهوها في تلك الأيام.

لما توفي أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ واجترأوا عليه، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نُبِّئ رسول الله ﷺ ... فأقام بالطائف عشرة أيام لا يَدَعُ أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه، فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم، فقالوا يا محمد اخرُجْ من بلدنا والحقْ بمجابك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجليْ رسول الله ﷺ لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه شجاج. فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة. فلما نزل نخلة قام يصلي من الليل، فصُرِف إليه نفر من الجن، سبعةٌ من أهل نصيبين، فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، فهم هؤلاء الذين كانوا صرفوا إليه بنخلة. وأقام بنخلة أياما، فقال له زيد بن حارثة كيف تدخل عليهم يعني قريشا وهم أخرجوك؟ فقال يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصرُ دينه ومُظهِرُ نبيه. ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بن عدي: أدخُلُ في جوارك؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرتُ محمدا. فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش إني قد أجرت محمدا فلا يُهِجْه أحد منكم. فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده مطيفون به.[33]

عَنْ مُحَمّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ، قَالَ لَمّا انْتَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلَى الطّائِفِ، عَمَدَ إلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُمْ وَهُمْ إخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ عَبْدُ يَالَيْل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عُقْدَةَ بْنِ غِيرَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ فَجَلَسَ إلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ وَكَلّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إنْ كَانَ اللّهُ أَرْسَلَك، وَقَالَ الْآخَرُ أَمَا وَجَدَ اللّهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك وَقَالَ الثّالِثُ وَاَللّهِ لَا أُكَلّمُك أَبَدًا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ اللّهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى اللّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك. فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ -فِيمَا ذُكِرَ لِي-: إذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي، وَكَرِهَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ فَيُذْئِرَهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ.[34]

إن سادات ثقيف وأشرافهم قالوا لرسول الله ﷺ أن يخرج من بلدهم، وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مر بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا دقوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه ﷺ.

وفي لفظ: حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان ﷺ إذا أزلقته الحجارة، أي وجد ألمها. قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، كل ذلك وزيد بن حارثة، أي بناء على أنه كان معه ﷺ يقيه بنفسه حتى لقد شجّ رأسه شجاجا، فلما خلص منهم رجلاه يسيلان دما عمد إلى حائط من حوائطهم: أي بستان من بساتينهم، فاستظل في حَبلة.[35]

فدعا رسول الله ﷺ في حضرته تبارك وتعالى: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم، الذي أضاءت له السموات، وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".[36]

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت للنبي ﷺ هل أتى عليك يوم أشد

من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا.[37]

عن الأشعث بن سليم قال: سمعت رجلا في إمرة بن الزبير قال سمعت رجلا في سوق عكاظ يقول يا أيها الناس قولوا لا إله الا الله تفلحوا ورجل يتبعه يقول إن هذا يريد أن يصدكم عن آلهتكم فإذا النبي ﷺ وأبو جهل.[38]

وفيما يلي ما كتبه دافِنْبورت عن ثبات النبي ﷺ: "لا شك في أن محمدا آمن برسالته ورَضيَ عن الإصلاح الذي أحْدَثَه في البلد بِصِفَتِه رسول الله، لم تكن رسالتُه رسالةً لا أساس لها ولا قائمةً على الخداع أو الكذب. فلم يُثْنِه الطمع أو أي تهديد آخر عن نشر رسالته، ولم تَحُلْ الجراحُ والمصاعب الشديدة دون استمراره في نشر دعوة الحق."[39]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ.

[3] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 652، طبعة بيروت.

[4] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 37، طبعة بيروت.

[5] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 57، طبعة بيروت.

[6] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 342، طبعة بيروت.

[7] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 232، طبعة بيروت.

[8] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 62، طبعة القاهرة.

[9] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 264، طبعة بيروت.

[10] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 165، طبعة بيروت.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. وكتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

[12] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 354، طبعة بيروت.

[13] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 415، طبعة بيروت.

[14] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 393، طبعة بيروت.

[15] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 361، طبعة بيروت.

[16] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 360 و 393، طبعة بيروت.

[17] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 416، طبعة بيروت.

[18] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 9، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 419، طبعة بيروت.

[19] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 291، طبعة بيروت.

[20] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 137، طبعة بيروت.

[21] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 218، طبعة القاهرة.

[22] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 163، طبعة بيروت. المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 268، طبعة بيروت.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب سورة العلق.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته.

[25] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 7، ص 168، طبعة بيروت. الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزى؛ الجزء 1، ص 141، طبعة بيروت.

[26] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 21، طبعة بيروت.

[27] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 208، طبعة بيروت.

[28] دلائل النبوة لأبي نعيم؛ الجزء 1، ص 198، طبعة بيروت.

[29] الروض الأنف؛ الجزء 2، ص 159، طبعة بيروت.

[30] الروض الأنف؛ الجزء 2، ص 159، طبعة بيروت.

[31] حاشيه سيرة ابن هشام؛ الجزء2، ص 17، طبعة بيروت.

[32] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 2، ص 14، طبعة بيروت.

[33] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 212، طبعة بيروت.

[34] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 419، طبعة بيروت.

[35] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 499، طبعة بيروت.

[36] كنز العمال؛ الجزء 2، ص 202، طبعة مصر.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى.

[38] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 371، طبعة القاهرة.

[39] An Apology for Mohammed and The Koran; John Davenport, Chapter 3, p. 133,134. London 1889.

الصبر على المصائب

لغويًا؛ كلمة "الصبر" تعني التجَلُّد، والصبر من الأخلاق الرفيعة. يشير الصبر ضمنيًا إلى ضبط النفس، والقدرة على تكبد المشاق والمحافظة على الفطنة وعدم الشكوى، عندها يوصف الصبر بأنه الصبر الجميل. إن من صفات الله تعالى الصبور.

إن الله تعالى يصبر على الكفار فلا يعاقبهم على الفور. ورد في الحديث أنْ لا أحد أكثر صبرًا من الله تعالى، فقد قال رسول الله ﷺ: "ليس أحد أصبرَ على أذًى سمعه مِن الله، إنهم ليدْعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم."[1]

يعد التصبغ بهذه الصفة الإلهية من أعلى درجات الجهاد، وعندما يتحلى الشخص بهذه النوعية من الصبر، تتحسن أخلاقه في كثير من النواحي. إن سيطرة المرء على نفسه أوقات المحن صبرٌ، والبقاء حازمًا في مواجهة السيوف والسهام شجاعةٌ، والامتناع عن الإسراف رغم الثراء زهدٌ، وستر الأعضاء الخاصة من الجسم عفةٌ، وكبح جماح الإفراط في الأكل كرامةٌ والتحكم بالغضب تسامح.

حقيقة الصبر وأجرهُ

قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْها".[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةُ".[3]

وفي مناسبة أخرى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ".[4]

وقد قال رسول الله ﷺ أن الرجل يُبتلى على حسب دينه فإن كان دينه صُلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة.[5]

لقد أظهر رسول الله ﷺ في حياته العملية صبرًا فائقًا، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكا شديدًا، فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: "أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم". فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: "أجل". ثم أضاف ﷺ: "ما من مسلم يصيبه أذى، مرض فما سواه، إلا حط الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها."[6]

يقول جُنْدَب رضي الله عنه: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ فَقَالَ: "هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ."[7]

إن الله تبارك وتعالى يختبر إخلاص ووفاء عباده المقربين فيقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 156-158).

ذات مرة سأل سائل رسول الله ﷺ: مَن أَشَد النَّاسِ بَلَاءً وأكثرهم اختبارًا؟ فقال ﷺ: "الْأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ."[8]

الصبر أثناء المرض

كان رسول الله ﷺ بطبيعته صبورًا وشكورًا. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ."[9]

لقد عانى سيدنا الحبيب ومولانا رسول الله ﷺ من محن أكثر نسبيا من أي شخص آخر نظرًا لمقامه العالي جدًا. لقد تألم على يد الكفار وعبدة الأصنام، كما تعرض لصدمات عدة بوفاة أقاربه وأشخاص عزيزين عليه، إلا أنه تحمل كل ذلك بثبات عظيم. كان ﷺ ينصح دومًا أصحابه بالصبر، وعند أخذ البيعة من النساء الحديثات في الإسلام كان رسول الله ﷺ يجعلهن يتعهدن بالقول: "أَنْ لَا نَخْمُشَ وَجْهًا وَلَا نَدْعُوَ وَيْلًا وَلَا نَشُقَّ جَيْبًا وَأَنْ لَا نَنْشُرَ شَعَرًا".[10]

قال رسول الله ﷺ أيضًا في السياق نفسه: "إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي! فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده! فيقولون: نعم، فيقول ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: إبنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد."[11]

تلقين الصبر

كان رسول الله ﷺ شاكرًا لله تعالى لأن أتباعه قد وُجهوا لقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ والاستسلام لإرادة الله تعالى، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت أمتي شيئًا لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون". [12]

عن أم المؤمنين، أُمُّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها قَالَتْ: "لَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ غَرِيبٌ وَفِي أَرْضِ غُرْبَةٍ لَأَبْكِيَنَّهُ بُكَاءً يُتَحَدَّثُ عَنْهُ فَكُنْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْبُكَاءِ عَلَيْهِ إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الصَّعِيدِ تُرِيدُ أَنْ تُسْعِدَنِي (أي تساعدني بالبكاء) فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: أَتُرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْهُ مَرَّتَيْنِ فَكَفَفْتُ عَنْ الْبُكَاءِ فَلَمْ أَبْكِ". [13]

تقول أم سلمة رضي الله عنها أيضًا بأن رسول الله ﷺ قد علمها أن تدعو بدعاء "اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا". قَالَتْ فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. [14]

ذات مرة، مرَّ النبي ﷺ بإمرأة وَهِيَ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: "اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ خِلْوٌ مِنْ مُصِيبَتِي! فَجَاوَزَهَا وَمَضَى، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ فَقَالَ: مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: مَا عَرَفْتُهُ. قَالَ: إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ. فَجَاءَتْ إِلَى بَابِهِ فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِ بَوَّابًا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ مَا عَرَفْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ. [15]

كان سبب اعتذار تلك المرأة من رسول الله ﷺ أنها تعرف حق المعرفة بأن رسول الله ﷺ تحلى بالصبر عند مصائب عظيمة كوفاة والدته، وجده الحبيب، وعمه، وزوجته الحبيبة خديجة وموت ابنيه والبنات.

ويقال أن عدد هؤلاء الأبناء أحد عشر طفلا. [16]

الصبر على وفاة الأولاد والأقارب

لقد توفي أبناؤه من السيدة خديجة رضي الله عنها، القاسم وعبد الله والطاهر والمطهر والطيب والمطيب وعبد مناف رضي الله عنهم في سن مبكرة جدًا، كما توفي له في حياته كل من أم كلثوم ورقية وزينب رضي الله عنهن. [17] وقد صبر ﷺ على وفاتهم. وولد ابنه إبراهيم رضي الله عنه من زوجته السيدة مريم القبطية رضي الله عنها عندما كان رسول الله ﷺ متقدمًا في السن وكان هذا الابن عزيزا

عليه، لقد وضع في منزل أبي سيف ﵁ من أجل الرضاعة، وكان رسول الله ﷺ يزوره دومًا، فيحتضنه ويشعر تجاهه بعاطفة كبيرة، وقد قال رسول الله ﷺ بإخبار من الله تعالى إنه: "لو عاش لكان صديقًا نبيًا".[18]

لقد تحلى رسول الله ﷺ بالصبر وقت وفاة ابنه، فسلم أمره لمشيئة الله تعالى الذي هو أعز إليه كثيرًا من ابنه إبراهيم وقال: "إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ".[19]

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ لَمَّا وُضِعَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقَبْرِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى".(طه: 56) فَلَمَّا بَنَى عَلَيْهَا لَحْدَهَا طَفِقَ يَطْرَحُ لَهُمْ الْجُبُوبَ وَيَقُولُ: "سُدُّوا خِلَالَ اللَّبِنِ ثُمَّ قَالَ أَمَا إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْحَيِّ".[20]

يقول أنس ﵁: شهدنا بنتًا لرسول الله ﷺ قال ورسول الله ﷺ جالس على القبر، قال: فرأيت عيناه تدمعان.[21]

وعن عبد الله بن عباس ﵁ قال: لما ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه فقال النبي ﷺ لعمر: "دعهن يبكين وإياكن ونعيق الشيطان" ثم قال رسول الله ﷺ: "مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما كان من اليد واللسان فمن الشيطان".[22]

وعن أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَرْسَلَتْ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ (وهي زينب رضي الله عنها) إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ. فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذَا فَقَالَ هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ.[23]

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لَمَّا حُضِرَتْ بِنْتٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ صَغِيرَةٌ فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللهِ ﵇ فَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَقَضَتْ وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ

اللهِ ﷺ، فَبَكَتْ أُمُّ أَيْمَنَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: "يَا أُمَّ أَيْمَنَ، أَتَبْكِينَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَكِ"، فَقَالَتْ: مَا لِي لَا أَبْكِي وَرَسُولُ اللهِ يَبْكِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةٌ"، ثُمَّ قَالَ: "الْمُؤْمِنُ بِخَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ عَجَلًا."[24]

لقد استشهد في أُحد عم رسول الله ﷺ المحبوب حمزة رضي الله عنه الذي كان يحميه خلال سنوات الاضطهاد في مكة، وقد مُثِّل بجثته فجُدِع أنفه وأذناه واستخرجت كبده وليكت، فأتى عليه رسول الله ﷺ فوقف عليه فرآه على هذا الحال فقال: لَوْلَا أَنْ تَجِدَ صَفِيَّةُ فِي نَفْسِهَا لَتَرَكْتُهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الْعَافِيَةُ (أي السباع والطير) حَتَّى يُحْشَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بُطُونِهَا. ثم دعا برداء فكفنه به.[25]

وعانى رسول الله ﷺ أيضًا من صدمة وفاة أصدقائه، ففي غزوة أحد استشهد سبعون من أصحابه، فتحلى ﷺ بأقصى درجات الصبر والتسليم لمشيئة الله تعالى، كما استشهد في غزوة مؤتة ابن عمّ رسول الله ﷺ، جعفر الطيار، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وأخبر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالوحي عن استشهادهم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعرَف فيه الحزن، فأتاه رجل يخبره عن نحيب نساء جعفر، فأمره أن ينهاهن."[26]

وبناء على تعليم رسول الله ﷺ هذا دعت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها في اليوم الثالث من وفاة أخيها بطيب فمست منه ثم قالت: أَمَا وَاللهِ مَا لِي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: "لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا". وكذلك كانت زوجات رسول الله ﷺ الأخريات يفعلن.[27]

موعظة الرسول ﷺ عند فقدان الأولاد

لقد شارك رسول الله ﷺ في العزاء على وفاة أقارب أصحابه، وكان دومًا ينصحهم بالتحلي بالصبر، وعندما توفي ابن صحابيه الشاب معاذ بن جبل أرسل له رسول الله ﷺ رسالة تعزيه هي تحفة في النصح على الصبر جاء فيها بعد البسملة:

"من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر فإن أنفسنا وأموالنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك الله به في غبطة وسرور وقبضه منك بأجر كثير الصلاة والرحمة والهدى. إن احتسبته فاصبر ولا يحبط جَزعُك أجرك فتندم واعلم أن الجزع لا يرد ميتًا ولا يدفع حزنًا وما هو نازل فكان قدر والسلام."[28]

كتب باركاش ديفجي يصف ثبات وصبر رسول الله ﷺ في مواجهة الاضطهاد قائلا: "كان الرسول يتحمل أي اضطهاد يتعرض له، لكن ما لم يكن يطيقه هو تعذيب أصحابه، فكان الأمر يقلقه إذ كانت القسوة مفرطة ضد المؤمنين. لقد اعتاد الأعداء على اصطحابهم إلى العراء، وتجريدهم من ملابسهم وجبرهم على الاستلقاء على الرمال الحارقة. كما وضعوا الصخور الحارقة على صدورهم فكانوا يتَلَوَّون من شدة الحر وكان ثقل الصخور يكبت أنفاسهم. لقد فقد عدد كبير من المؤمنين حياتهم بهذه الطريقة. كان عمار أحد هؤلاء المظلومين، وينبغي أن يُقال له السيد عمار؛ لتحليه بالصبر والثبات، كان يُطرح أرضًا ويجبر على الاستلقاء على الصخور، ثم توضع صخرة ثقيلة على صدره ويكره على شتم رسول الله ﷺ. كان والده المسن يُعامل بالطريقة نفسها، لكن أمه المسكينة لم تستطع تحمل تلك القسوة فكانت تشتكي. ولذلك، فإن هذه السيدة التي كانت ترى زوجها وابنها الشاب وهما يتعرضان لمثل تلك القسوة قد جردت من ملابسها وعذبت بطريقة مخجلة يحول الحياء دون وصفها، فتوفيت هذه المرأة المؤمنة تحت وطأة التعذيب."[29]

والفضل ما شهدت به الأعداء

كتبت المستشرقة الشهيرة الدكتورة فاليري (Vaglieri) عن ثبات رسول الله ﷺ ما يلي:

"بشّر محمد، خلال حياته في مكة، بالإسلام الذي يقوم على التوحيد، وعندما هاجر هو وأصحابه إلى المدينة المنورة، أصبح الإسلام قوة سياسية كبيرة. تحمّل محمدٌ اضطهاد قريش بصبر، وفي نهاية الأمر تلقى الأمر الإلهي الذي يسمح بمقاتلة الأعداء، لقد أجبر على رفع السيف، وكان الوحي الإلهي الذي يتلقاه يتضمن الصبر على القسوة."[30]

وقد أثنى المؤرخ الشهير جيبون (Gibbon) على ثبات وتحمل رسول الله ﷺ فيقول: "لم يُبتلَ أي نبي في السابق بالشدة التي ابتلي بها محمد؛ فمنذ بداية نبوته، بلّغ عشيرته الأقربين الذين

كانوا على دراية تامة بنقاط ضعفه كبشر أكثر من أي شخص آخر، بينما كانت الحالة معاكسة بالنسبة للأنبياء السابقين، إذ كانوا محترمين في كل مكان ومن قبل الجميع باستثناء الأشخاص الذين كانوا الأكثر معرفة بهم."[31]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى.
[2] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب مَا يُقَالُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ.
[3] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله.
[4] صحيح مسلم؛ كتاب الزهد، باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ.
[5] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء.
[6] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب وضع اليد على المريض.
[7] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.
[8] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 369، طبعة القاهرة.
[9] صحيح البخاري؛ كتاب المرضى، باب شدة لمرض.
[10] سنن أبو داؤد؛ كتاب الجنائز، باب في النَّوْحِ.
[11] سنن الترمذي؛ كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب.
[12] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 76، طبعة بيروت.
[13] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب الْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ.
[14] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب مَا يُقَالُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ.
[15] صحيح البخاري؛ كتاب الأحكام، باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب.
[16] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 267، طبعة بيروت. ذخائر العقبى الطبري؛ الجزء 1، ص 152، طبعة دار الكتب المصرية. سبل الهدى والرشاد؛ الجزء 11، ص 16، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
[17] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 267، طبعة بيروت. تاريخ الخميس؛ الجزء 1، ص 272، طبعة بيروت.
[18] سنن ابن ماجة؛ كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته.
[19] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (إنا بك لمحزونون).
[20] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 160، طبعة بيروت.
[21] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه.
[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 335، طبعة القاهرة.
[23] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب الْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ.
[24] سنن النسائي؛ كتاب الجنائز، باب في البكاء على الميت.
[25] سنن الترمذي؛ كتاب الجنائز عن رسول الله.
[26] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام.
[27] صحيح البخاري؛ كتاب الطلاق، باب تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا.

[28] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 81، طبعة بيروت.

[29] سوانح حياة حضرة محمد ﷺ صاحب مؤسس اسلام، شردهى باركاش ديفجي (بالأردية)؛ ص 36، طبعة كاشى رام پريس لاهور 1923.

[30] An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar, p.10-12, The American Fazl Mosque, Washington, 1958

[31] The Decline & Fall of the Roman Empire by Gibbon. Naqush Rasul Number, v.11, p.548.

أخلاق النبي ﷺ العظيمة في الحروب

الإسلام دين السلام يُحرِّم الحروب والنزاعات، ولكن إذا هوجِم المرء سُمح له بالدفاع عن نفسه، ولهذا فحروب النبي ﷺ كانت حروبا دفاعية. كان فيها جنديا مقاتلا وقائدا لجيشه في آن واحد وأفضل قدوة. كانت له الغلبة في معظم المعارك وخسر بعضا منها بسبب انسحاب أصحابه، وظهر خُلُقه العظيم في كل وقت وموقف.

برزت شهامة نبينا الحبيب ﷺ في مختلف الظروف، في السلم كما في الحرب، ورغم المحن والشدائد التي نزلت عليه كالعواصف، لم يتزعزع عزمه ولا شجاعته، ولم تُغير انتصاراته ونجاحاته من طبعه الكريم، ولم يكن عنده أي تكلّف وتصنّع. فنرى في كل جانب من جوانب طبعه مجد الله حتى أن البصير ليقول إن وجه سيدنا مشرق وجميل لكن خلقه وطبعه فاق الجمال.

وأكثر سمة مميزة في شخصيته هي أنه اتبع سبيل السلام وتجنب الأذى بكل ثمن، وإن السنوات الثلاثة عشرة التي عاشها في مكة لتشهد على أنه وأصحابه تحمّلوا أشد اضطهاد لكنهم كانوا مثالا للصبر. خسروا حياتهم وماِلهم ولم يجاهِوا الجُناة، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه: "إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا."[1]

وعندما بلغت مضايقات العدو للنبي ﷺ أبعد حد وخططوا لقتله، ضحى هو وأصحابه بأملاكهم وفارقوا أحبابهم وودّعوا موطنهم الأُم بقلوب حزينة، ولجأوا إلى المدينة لكن العدو لم يتركهم يهنأوا فيها بالسلام.

فقد أخذ أهل مكة يتهجمون على المسلمين في المدينة، وبعد الهجرة بسنة نزلت الآية التالية التي تسمح للمسلمين بأن يدافعوا عن أنفسهم ويرفعوا سيوفهم من أجل حرية الدين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 40)

إن هذه الآية والآيات التي تليها تبين بوضوح الهدف وراء الحروب الإسلامية.

1. المشركون هم الذين بدأوا بالحرب.
2. المسلمون هم المضطهَدون.
3. نيّة المشركين كانت تدمير الإسلام.

4.فُرض على المسلمين حمل السلاح دفاعا عن أنفسهم.

وقد ذكرت الراهبة البروفيسورة كارن أرمسترونغ في كتابها "محمد" وجهة النظر الإسلامية للجهاد فتقول:

"ليس الجهاد أحد أركان الإسلام الخمسة، وليس الركيزة الأساسية للدين رغم المفهوم الشائع عند الغرب، بل إن الجهاد كان وما زال واجبا على المسلمين، فعليهم أن يناضلوا على كل الجبهات الأخلاقية والروحية والسياسية من أجل خلق مجتمع عادل وكريم حيث لا يُستغل الفقير والضعيف، بل يعيش فيه الإنسان كما أراد الله له. ربما يكون القتال ضروريا أحيانا لكنه يُشكِّل جزءا بسيطا فقط من مفهوم الجهاد. يصف حديث مشهور الجهاد الأكبر، وهو الجهاد للتغلب على قوى الشر في أنفسنا وفي مجتمعنا، في كل تفاصيل الحياة اليومية."[2]

أخلاقيات الحرب في الإسلام

للحديث عن أخلاقيات الإسلام في الحروب ينبغي مقارنتها بأخلاقيات أديان أخرى، فاليهود والمسيحيون أُعطوا في سِفْر التثنية الأوامر التالية للتعامل مع أعدائهم:

"مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا، وَطَرَدَ شُعُوبًا كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الْحِثِّيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ. وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ، وَضَرَبْتَهُمْ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لاَ تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا، وَلاَ تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ... وَلكِنْ هكَذَا تَفْعَلُونَ بِهِمْ: تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتُقَطِّعُونَ سَوَارِيَهُمْ، وَتُحْرِقُونَ تَمَاثِيلَهُمْ بِالنَّارِ." (التثنية 7: 1-5)

القرآن الكريم هو الشهادة الأصدق والأوثق لزمن النبي ﷺ. جاءت فيه أوامر الله بخصوص سلوكيات وأخلاقيات الإسلام في الحروب كما يلي: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 191)

ويعلمنا الله أيضا: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة: 13)

وحتى في تلك الظروف، كان أمرُ الله للمسلمين: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال 62)

وفي ضوء هذه المبادئ الإسلامية، أمر النبي ﷺ أصحابه ألا يبتغوا قتال العدو أبدا، وأن يدعوا

الله دائما من أجل السلام والأمان. لكن إذا قوتلوا فعليهم أن يقاتلوا ويتذكروا أن الجنة تحت ظلال السيوف.[3]

عن بُريدة ﷺ قال: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا."

أما المشركين الذين ظلوا يحاربون المسلمين بعد فتح مكة، فقد قال النبي ﷺ بخصوصهم: "وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ."[4]

وقد وضّح النبي ﷺ أنه لا ينبغي لأحد التعرض للمشقة حين خروجه للجهاد. فعن جابر ﷺ قال: "قال النبي ﷺ: وَإِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمْ الْغِيلَانُ فَنَادُوا بِالْأَذَانِ وَإِيَّاكُمْ وَالصَّلَاةَ عَلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ وَالنُّزُولَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ وَالسِّبَاعِ وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ فَإِنَّهَا الْمَلَاعِنُ."[5]

عن عبد الرحمن بن عائذ ﷺ عن رسول الله ﷺ: "تألَّفوا النّاسَ، وتَأنَّوهُم، ولا تُغيروا عليهِم حتّى تَدْعُوهُم، فمَا على الأرضِ مِن أهلِ بَيتِ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلّا تَأتوني بِهِم مسلِمينَ أحَبُّ إليَّ مِن أنْ تَأتوني بنِسائِهم وأوْلادِهِم وتَقْتُلوا رِجالَهُم."[6]

وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يقرأوا في كل صباح ومساء خلال الحرب الآية التي يقول الله فيها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 116)، والحكمة من هذه الآية هي أن يخشى أصحابُ النبي ﷺ الله فلا يؤذوا أحدا ويحافظوا على هدفهم الذي هو الإخلاص لله وكسب رضاه حيا في قلوبهم.

ولقد أمرهم النبي ﷺ حين كلّمهم عن الأخلاقيات الثابتة التي ينبغي اتباعها في الحروب بما

يلي: " انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾". [7]

وكان النبي ﷺ "إذا أتَى قَوْمًا بلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حتَّى يُصْبِحَ". [8]

طُبقت هذه الأخلاقيات بحذافيرها في حياة النبي ﷺ والتزم بها كذلك الخلفاء الراشدون الأربعة ﷺ من بعده، فأبقوا على روح تلك الأخلاقيات وأصدروا توجيهاتهم متى لزم الأمر، واليوم تشكل هذه المبادئ جزءا من أخلاقيات الإسلام في الحرب، وعلى المسلمين اتباع أوامر النبي ﷺ وإرشادات الخلفاء الراشدين ﷺ، فقد قال أبو بكر ﷺ أن من كرّسوا حياتهم للدِّين لا ينبغي منْعُهم من أداء واجبهم، فلا ينبغي انتهاك قدسية أهدافهم، ولا تُقطع شجرة مثمرة ولا تُخرّب منطقة مأهولة ولا يُذبح حيوان إلا لمأكَلة ولا يُحرق أحد بالنار. [9]

باختصار، لما رفع النبي ﷺ السيف للدفاع عن نفسه، أرسى مبادئ الحرب للعالم بأكمله ليتبعها. عادةً ما يُحسب كل عمل في الحرب مبررا، ولكن النبي ﷺ كان يخرج للجهاد في ضوء مبادئه وأخلاقياته، وكانت ثقته بالله تامة. عن أنس ﷺ قال إن النبي ﷺ كان إذا غزا قال: "اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي وَبِكَ أُقَاتِلُ". [10]

سلوك مثالي في غزوة بدر

كان النبي ﷺ قائدا ممتازا سيطر على جيشه سيطرة كاملة، فيوم بدر عندما كان في ساحة المعركة ينتظر مع أصحابه وصول جيش المشركين قال لهم: "لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُؤْذِنُهُ". فلما دنا المشركون قَالَ: "قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ". وقدّم المسلمون أنفسهم في سبيل الله. [11]

كان النبي ﷺ يعتني بأصحابه عناية كبيرة خلال الغزوات، فعن رفاعة بن رافع ﷺ قال: "أقبلنا يوم بدر ففقدنا رسول الله ﷺ فنادت الرفاق بعضها بعضا: أفيكم رسول الله؟ فوقفوا حتى جاء رسول الله ﷺ معه علي بن أبي طالب فقالوا: يا رسول الله فقدناك؟ فقال: إن أبا حسن وجد مغصا في بطنه فتخلفت عليه". [12]

لم يكن في غزوة بدر من رَكوب يكفي الجميع فقسم النبي ﷺ لكل ثلاثة أشخاص بعيرا واحدا ليتناوبوا على ركوبه، فكان أبو مرثد الغنوي ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ورسول الله ﷺ

يتناوبون بعيرا واحدا، وكان دور رسول الله فقالا: "نحن نمشي عنك". فقال: "ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما".[13]

رفع معنويات الجنود

لكون النبي ﷺ قائدا عظيما فقد حرص على جنوده وسهر على راحتهم ورفع من معنوياتهم كما يجب.

بعد غزوة أُحد جاء عليّ رضي الله عنه إلى فاطمة رضي الله عنها فقال لها: "أَمْسِكِي سَيْفِي هَذَا، فَقَدْ أَحْسَنْتُ بِهِ الضَّرْبَ الْيَوْمَ". فقال رسول الله ﷺ: "إِنْ كُنْتَ أَحْسَنْتَ بِهِ الْقِتَالَ، فَقَدْ أَحْسَنَهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ الصِّمَّةِ، وَأَبُو دُجَانَةَ".[14]

اللطف بأصحابه

كان النبي ﷺ لطيفا جدا مع أصحابه. كان يكرّم الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل الله حتى يتحمس الآخرون فيقدموا بدورهم التضحيات. لم يَنْجُ الصحابي عامر رضي الله عنه في غزوة خيبر من ضربة سيف الزعيم اليهودي مرحب، وظن البعض أنه لم يستشهد بل قتل نفسه لأنه عندما حاول ضرب اليهودي ارتد عليه سيفه القصير فأصاب ركبته فمات، وسمع ابن أخيه سلمة بن الأكوع بالإشاعة فحزن، وهذا ما رواه: "رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي، قَالَ: مَا لَكَ قُلْتُ لَهُ: فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ -وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ- إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ".[15]

العطف على المُعِيْنِيْن

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال عن النبي ﷺ: "بَعَثَنِي مع أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أبو عَامِرٍ في رُكْبَتِهِ؛ رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بسَهْمٍ فأثْبَتَهُ في رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إلَيْهِ، فَقالَ: انْزِعْ هذا السَّهْمَ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا منه المَاءُ، قالَ: يا ابْنَ أخِي، أقْرِئِ النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ، وقُلْ له: اسْتَغْفِرْ لِي. واسْتَخْلَفَنِي أبو عَامِرٍ علَى النَّاسِ، فَمَكُثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ علَى النَّبِيِّ ﷺ في بَيْتِهِ فأخْبَرْتُهُ بخَبَرِنَا وخَبَرِ أبِي عَامِرٍ، فَدَعَا بمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أبِي عَامِرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَومَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِن خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ، فَقُلتُ: ولِي فَاسْتَغْفِرْ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ

بنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وأَدْخِلْهُ يومَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا".[16]

الثقة في استجابة الدعاء

كل الانتصارات التي حققها المسلمون كانت نتيجة دعاء النبي ﷺ، وقد عُولج هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الذي هو بعنوان "سِرّ استجابة دعاء النبي ﷺ." وقد ذكر عليّ رضي الله عنه شدة تركيزهم في الصلاة يوم بدر فقال: "لَمَّا كانَ يومُ بدرٍ قاتلتُ شيئًا من قتالٍ ثمَّ جئتُ لأنظُرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ما فعلَ فجئتُ فإذا هوَ ساجدٌ يقولُ: يا حيُّ يا قيُّومُ يا حيُّ يا قيُّومُ لا يزيدُ عليْها. فرجعتُ إلى القتالِ ثمَّ جئتُ وَهوَ ساجدٌ يقولُ ذلك ثمَّ ذهَبْتُ إلى القتالِ ثمَّ رجَعْتُ وهو يقولُ ذلك ففتَح اللهُ عليه".[17]

حمد الله على النصر

كلما أنعم الله على النبي ﷺ بالنصر في ساحة المعركة لم يمدح نفسه بل مجد الله تعالى وكبّره وعظّمه. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "أتيت النبي ﷺ يوم بدر فقلت: إني قد قتلت أبا جهل قال: الله الذي لا إله غيره لأنت قتلته؟ قلت: الله الذي لا إله غيره لأنا قتلته".

وعندما وقف النبي ﷺ بجثة أبي جهل قال: "الحمد لله الذي أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة".[18]

كان النبي ﷺ كلما انتصر في معركة حمد الله دون سواه وخفض رأسه تواضعا، وأول انتصار كبير له كان في غزوة بدر التي استنزفت قوة المشركين، إذ قُتل فيها سبعون محاربا من جيشهم. كان من بينهم أربعة وعشرون زعيما من قريش. ولم يُرد النبي ﷺ ترك جثثهم على أرض المعركة فأمر أن يدفنوا في حفرة، ولم يحتفل بالنصر بل كبّر الله ومجّده، وذكّر أصحابه أنه يومُ تحقق وعود الله وأن ذلك يسرّ أكثر من الانتصار، وحين وقف النبي ﷺ بالقرب من هذه الحفرة وجثث زعماء قريش مُلقاة فيها ورأى مصيرهم المحزن والمستدعي للشفقة قال: "يا فلانُ ابنَ فلانٍ أيسرُّكم أنَّكم أطَعْتُم اللهَ ورسولَه فإنَّا قد وجَدْنا ما وعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجَدْتُم ما وعَد ربُّكم حقًّا".[19]

رد الجميل

تجلّى خُلق النبي ﷺ العظيم في الكرم والإخلاص في المعارك، وأحد الأمثلة على ذلك هو المطعم

بن عدي الذي كان مشركا وزعيم بني نوفل وشخصا مهما في قريش، وقد لعب دورا كبيرا في إلغاء وثيقة مقاطعة بني هاشم ومحاصرة المسلمين في شِعب أبي طالب التي كتبتها قريش وعلقتها في جوف الكعبة. وكذلك عندما يئس النبي ﷺ من أهل مكة وذهب إلى الطائف لينشر الدعوة كان يلزمه حسب أعراف العرب أن يجيره زعيم كي يستطيع الرجوع إلى مكة، فكتب إلى عدة زعماء لكنهم رفضوا حمايته، وكان المطعم بن عدي هو ذلك النبيل الذي أجاره، فرافق أبناؤه الأربعة النبي ﷺ إلى مكة يحمونه بسيوفهم ويعلنون إجارتهم له، للأسف لم يتمتع هذا الزعيم النبيل بنعمة قبول الإسلام ومات قبل غزوة بدر عن عمر ناهز المائة عام.

ويوم انتصر المسلمون في بدر أُسِرَ سبعون مشركا فقال النبي ﷺ عندما تذكر المطعم بن عدي: "لو كانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلَاءِ النَّتْنَى؛ لَتَرَكْتُهُمْ له". [20]

ذكر السير ويليام موير في كتابه "حياة محمد" معاملة أسرى الحرب في بدر، فكتب: "وتبعا لأوامر محمد قام أهل المدينة والمهاجرين الذين أصبح لهم بيوت في المدينة، باستقبال الأسرى وأحسنوا معاملتهم، وفيما بعد قال أحد هؤلاء الأسرى: "جزى الله أهل المدينة خيرا! كانوا يحملوننا ويمشون، وآثرونا بالخبز على قلته وأكلوا التمر"، فلا عجب أنه عندما أتى أصدقاء أمثال هؤلاء الأسرى فيما بعد ليفتدوهم وجدوهم قد أعلنوا إسلامهم وأن النبي قد أطلق سراحهم دون فدية."[21]

بُعد النظر يوم أُحُد

لم تعكس الحروب كرم أخلاق النبي ﷺ فحسب بل أظهرت أيضا صفاته القيادية وحِسّه الاستراتيجي وبُعد نظره. ففي غزوة أُحد قرّر أن يخرج من المدينة للقاء العدو، وحتى يحمي المدينة، جعل جيشه أمامها ووزعه بطريقة استراتيجية بحيث يكون جبل أحد إلى الجانب درعا لهم، ولاحظ أن الخطر يمكن أن يأتي من الممر الجبلي، فجعل الرُّماة وكانوا خمسين رجلا بقيادة عبدَ اللهِ بنَ جُبَيْرٍ على الجبل ليحموا الممر. إن أوامره تلك تعكس استراتيجية قائد كبير، فقد أدرك الخطر الذي يشكله هذا الممر، وقال لرجاله مؤكّدا: "إن رأيتُمونا تَخطفُنا الطَّيرُ، فلا تبرَحوا من مَكانِكُم هذا حتَّى أُرْسِلَ لَكُم، وإن رأيتُمونا هزَمنا القومَ وأوطَأناهُم فلا تبرَحوا حتَّى أُرْسِلَ إليكُم". [22]

تربية الصحابة

عن أنس رضي الله عنه يقول أن يوم أُحد انهزم المسلمون عن النبي ﷺ فظل هو وبعض أصحابه فقط في ساحة المعركة، فوقف أبو طلحة أمامه كالدرع يدرأ عنه السهام، وكلما رفع النبي ﷺ رأسه لينظر إلى صفوف العدو قال أبو طلحة رضي الله عنه: "بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، لا تُشْرِفْ، يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِن سِهَامِ القَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ."[23]

كان أبو طلحة رضي الله عنه بطلا شجاعا وراميا شديد النَّزع حتى أن القوس كان ينكسر بين يديه من شدة قوته. وقد كسر قوسين أو ثلاثة في أُحد. وكان سريعا جدا في الرمي حتى أن النبي ﷺ كلما مرّ موزّع السهام قال له: "انْثُرْهَا لأبِي طَلْحَةَ".[24]

مساعدة الجنود وكسب قلوبهم

روى سَعدُ بنُ أبي وَقَّاص رضي الله عنه فقال أنَّ "النَّبي ﷺ نَثَلَ لي كِنانَتَه يومَ أُحُدٍ، (أي استَخرَجَ السِهامَ من الجَعْبة فنَثَرَها له)، فقال: ارْمِ، فِداكَ أبي وأُمِّي".[25]

ولَمَّا كانَ يَومَ أُحُدٍ هُزِمَ المُشْرِكُونَ، فَصاحَ إبْلِيسُ: أيْ عِبادَ اللهِ أُخْراكُمْ، فَرَجَعَتْ أُولاهُمْ فاجْتَلَدَتْ هي وأُخْراهُمْ، فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ فإذا هو بأَبِيهِ اليَمانِ، فقالَ: أيْ عِبادَ اللهِ أبِي أبِي، فَواللهِ ما احْتَجَزُوا حتَّى قَتَلُوهُ، فقالَ: حُذَيْفَةُ غَفَرَ اللهُ لَكُمْ، قالَ عُرْوَةُ فَما زالَتْ في حُذَيْفَةَ منه بَقِيَّةُ خَيْرٍ حتَّى لَحِقَ باللَّهِ".[26]

تصرف النبي ﷺ بلطف مع أصحابه وأعطى حذيفةَ رضي الله عنه ديّة أبيه عندما قتله المسلمون خطأً يوم أحد، كما يروي محمود بن لَبِيد مفصلا أن الْيَمَان (أَبُو حُذَيْفَةَ) كان صحابيا مخلصا جعله النبي ﷺ هو وصاحبه ثَابِت بن وَقْشٍ لكبر سنّهما يبقيان في المدينة لحماية النساء والأطفال. لكنهما لما رأوا هزيمة المسلمين وهما يرغبان بنيل الشهادة التحقا بالجيش وشاركا في القتال. فقُتل ثابت رضي الله عنه على يد المشركين. أما اليمان رضي الله عنه فاختلفت أسياف المسلمين عليه فقتله عتبة بن مسعود خطا. فَقَالَ حُذَيْفَةُ: "أَبِي، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا عَرَفْنَاهُ". فقال حُذَيْفَةُ: "يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ". فخفّف عنه النبي ﷺ وأعطاه مائة ناقة دِيّة من بيت المال، فتصدّق بها حذيفة على الفقراء فزادَه ذلك عند رسول اللَّه ﷺ قدرا.[27]

استراتيجية القتال في غزوة أُحد

استشهد العديد من المسلمين بسبب مغادرة الرماة مواقعهم، فاشتد القتال على النبي ﷺ وأصحابه، فاتبع النبي ﷺ استراتيجية الصمت لحماية زعماء جيش المسلمين. عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: "كنتُ أولَ من عرفته فقلت هذا رسولُ اللهِ فأشار إليَّ بيدِهِ أنِ اسكتْ ثم ألبسَني لأمَتَه (أي درعه الأصفر اللون) ولبس لأمَتِي فلقد ضربت حتى جُرحت عشرينَ جراحةً أو قال بضعةً وعشرين جرحًا كلُّ من يضربُني يحسبُني رسول اللهِ ﷺ."[28]

كان هذا التكتيك ضروريا لإنقاذ قيادة المسلمين ولذا عمد إليه النبي ﷺ، واجه النبي ﷺ قلقا شديدا وكانت تلك أكبر المحن في حياته، فالصدمة الأولى كانت عدم التزام الرماة بأوامره، فدفع الجيش ثمن هذا الخطأ، ثم كان الحزن على خسارة حياة سبعين شخصا، ثم إن النبي ﷺ أصيب إصابات بالغة. لكنه صبر على كل ذلك صبرا جميلا وأظهر شجاعة كبيرة.

كُسرت رباعية النبي ﷺ وشُجَّ في رأسه فجعل يسلُت الدم عنه ويقول: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ".[29]

فتألم أصحاب النبي ﷺ لجراحه تلك أشد الألم، فقالوا له أن يدعو على مشركي مكة فقال: "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"، ثم دعا: "رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".[30]

وفي أُحد نفسها لبس أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه عمامة حمراء ليميز نفسه وأخذ يختال في مشيته بين الصفين فقال النبي ﷺ: "إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع"؛ إذ كانوا في مجابهة مع العدو.[31]

التسليم لإرادة الله

في أُحد، جُرح النبي ﷺ واستشهد سبعون صحابيا فحزن كثيرا على موتهم لكنه كان واثقا تمام الثقة بوعود الله، فلم يزعزع هذا الأسى إيمانه وقوته البتّة، وبان ذلك واضحا في دعائه بعد أن انكفأ المشركون، إن دعاءه هذا يعكس ما كان يشعر به في الصميم. طلب من أصحابه أن يسووا صفوفهم حتى يتمكن من أن يشكر الله. يبتهج العالم عادة في مناسبات النصر أما هذا المشهد فهو لشخص عظيم يحمد ربه في وقت الكرب والحزن مستسلما لمشيئة الله في كل

الأحوال.

وهذا ما قاله النبي ﷺ: "استوُوا حتى أُثنِيَ على ربي عزّ وجلّ. اللّهُمَّ لك الحمدُ كلُّه، اللّهُمَّ لا قابضَ لما بسطتَ، ولا مُقَرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قرَّبتَ، ولا مُعطِيَ لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أَعطيتَ اللّهُمَّ ابسُطْ علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك، اللّهُمَّ إني أسألُك النَّعيمَ المقيمَ الذي لا يحُولُ ولا يزولُ، اللّهُمَّ إني أسألُك النَّعيمَ يومَ العَيْلَةِ، والأمنَ يومَ الحربِ.

اللّهُمَّ عائذًا بك من سوءِ ما أُعطِينا، وشرِّ ما منَعْت منا، اللّهمَّ حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبنا، وكَرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلْنا من الراشدين.

اللّهُمَّ توفَّنا مسلِمين، وأحْيِنا مسلمِين وألحِقْنا بالصالحين، غيرَ خزايا، ولا مفتونين. اللّهمَّ قاتِلِ الكفرةَ الذين يصدُّون عن سبيلِك، ويُكذِّبون رُسُلَك، واجعلْ عليهم رِجزَك وعذابَك اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتابَ، إلهَ الحقِّ". [32]

الشجاعة

إذن استشهد سبعون مسلما في أُحد، وغادر المشركون مبتهجين. وفي الروحاء، قال لهم أبو سفيان: " لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ، وَلَا الْكواعبَ أَرْدَفْتُمْ، شَرٌّ مَا صَنَعْتُمْ". [33]

فقرر المشركون معاودة الهجوم على المسلمين وعندما عَلِم النبي ﷺ صمم على أن يقوم بمطاردة الجيش المكي. كان قراره هذا مفاجئا حتى أنه أدهش أصحابه، فكيف يمكنهم أن يقاتلوا العدو وهم منهكون وجرحى وحزناء. لكنهم شهدوا الصفات القيادية الفائقة التي أظهرها النبي ﷺ وشجاعته وتصميمه وثقته بالله. فلم يرد أن يعطي أية فرصة للعدو بالهجوم على المدينة ولذا قرر أن يلاحقهم ولو لوحده. لكن أصحابه لما رأوا شجاعة قائدهم رافقوه بحماس، وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك. وكان من آثار ذلك أن عدل المشركون عن قرارهم في مهاجمة المدينة، وانطلقوا نحو مكة أشبه بالهاربين. [34]

نقض يهود المدينة للعهد وأفضال النبي ﷺ

بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة عقد معاهدة صلح مع ثلاث قبائل يهودية وهم بنو قينقاع وبنو

النضير وبنو قريظة التي كانت تعيش جنوب شرقي المدينة في منطقة مساحتها أربعة أو خمسة أميال. وفي السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر بدأ سلوك هذه القبائل يتبدل، فتآمرت مع منافقي المدينة ومشركيها ضد المسلمين، وكان على رأس الفتن بنو قينقاع. وحين استُدعوا لِيُبينوا سبب خيانتهم وأذاهم ووقاحتهم، تحصّنوا داخل حصنهم وأخذوا يحضّرون للهجوم على المسلمين. كان العقاب على ما فعلوه وفقا لكتابهم أن يُقتل الرجال وتؤسر النساء والأطفال. (التثنية؛ 20: 13-14)

لكن النبي ﷺ بسماحته أبقى على حياتهم. لكن بقاءهم في المدينة كان خطِرا فأمرهم بمغادرة المكان.

وفي السنة الثالثة للهجرة نقضت القبيلة الأكبر وهم بنو النضير عهدها مع المسلمين بتآمرها مع أهل مكة ضدهم وخططت لقتل النبي ﷺ.[35] ولما استُدعوا للمحاسبة على خيانتهم تحصنوا هم الآخرون وأخذوا يقاتلون المسلمين، وبعد حصار دام خمسة عشر يوما فتحوا أبواب حصنهم على شرط أن يسمح لهم بمغادرة المدينة بممتلكاتهم.[36]

كان هدف النبي ﷺ أن يضع حدا لفسادهم ولذا أسدى إليهم جميلا أنْ قبِل شرطهم، وغادر اليهود المدينة في السنة الرابعة للهجرة ومعهم كل أغراضهم وحليّهم من الفضة والذهب. غادروها بِطَنَّة ورنَّة، يغنون ويرقصون ويضربون الدفوف.[37]

أرى الزعيم اليهودي سَلّامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ كنزَه الثمين للمسلمين وقال إنه جمعه لمثل هذه المناسبة، ولأنهم كانوا على يقين بأن النبي ﷺ يصْدُق الوعد ولن يمنعهم من أخذ كل تلك الأموال خارج المدينة، أخذوا يعرضون كنوزهم بفخر، وذهب زعماء بني النضير حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ وَكِنَانَةُ بْنُ ربيع وسَلّامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ إلى خيبر وهي مدينة محصنة فاستقروا فيها وأصبحوا حكاما عليها.

لا يسع حتى الكاتب المتحامل على المسلمين، مثل مونتيجومري وات، إلا أن يكتب أنه: "تم نفي اليهود من المدينة بسبب سلوكهم العدائي وتآمرهم على محمد".[38]

زاد طرد بني النضير من عنفهم، فأخذ زعيمهم حيي بن أخطب الذي أراد أن يثأر من المسلمين يحرّض أهل مكة والقبائل العربية الأخرى ضد النبي ﷺ والإسلام. كان هذا التحريض

النابع من الكره سبب تعاون الجزيرة كلها لمهاجمة المدينة فيما سمي بغزوة الأحزاب. دافع المسلمون عن أنفسهم بحفر خندق حول المدينة، وحرَّض حيي بن أخطب القبيلة اليهودية المتبقية وهم بنو قريظة على خيانة المسلمين وتعريض حياتهم للخطر. بينما كان المسلمون يعتبرون أن المنطقة التي يسكنها بنو قريظة آمنة وفقا للاتفاق والعهد الذي بينهم، فلم يحفروا خندقا في الجهة المقابلة لهم، لكن الله أخزى جيوش العدو وكشف خيانة بني قريظة.[39]

بعد غزوة الأحزاب، أراد النبي ﷺ معاقبة بني قريظة على خيانتهم ونقضهم للعهد وعلى عداوتهم للمسلمين، لكنهم تحصنوا فعيّن النبي ﷺ سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه وقد كان قبل إسلامه حليفا لهذه القبيلة كوسيط، فحكم عليهم سعد وفقا للشريعة اليهودية التي تحكم بقتل الرجال وأسر النساء.[40]

غزوة ذي قَرَد

أعلنت بنو فزارة وهي قبيلة من قبائل غطفان الحرب على المسلمين، فهاجمت مراعي ذي قَرَد حيث ترعى جمال النبي ﷺ وسرقوا بعضا منها، فباغتهم صحابي شاب وشجاع فأخذ يرميهم بالسهام فنزلت عليهم كالمطر بينما كانوا يستريحون عند النبع واستطاع استرداد الجمال المسروقة، فعلم النبي ﷺ فحضر مع أصحابه. فطلب هذا الشاب الشجاع وهو سلمة بن الأكوع رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يسمح له باللحاق بالعدو فقال: "يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي قَدْ حَمَيْتُ الْقَوْمَ الْمَاءَ وَهُمْ عِطَاشٌ فَابْعَثْ إِلَيْهِمُ السَّاعَةَ".

فقال له رسول الله ﷺ بجملة جميلة ومفيدة تعكس رحمته الواسعة: "يَا ابْنَ الأَكْوَعِ مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ". أي تغلّبتَ على العدو فاصْفَح.[41] صلى الله عليك وسلم يا رسول الرحمة!

إن الرحمة وسعت كل شيء لكن الأمثلة التي نجدها في حياة النبي ﷺ في الرحمة استثنائية، فلم تقتصر على الأقربين والأحباب بل وعلى الغرباء أيضا.

سلوك بديع في غزوة الأحزاب

بعد غزوة أُحد، كانت غزوة الأحزاب اختبارا كبيرا لمسلمي المدينة. خططت بنو غطفان وبنو سُليم وقريش مكة بتحريض من بني النضير لهجوم جماعي على المدينة، فجمعوا لهذا الهدف

أربعة آلاف جندي وثلاثمائة من الخيّالة وألف وخمسمائة راكب جمل، وغادر هذا الجيش مكة بقيادة أبي سفيان. وانضمّت إليه القبائل الأخرى، بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة، فأصبحوا جيشا بعشرة آلاف جندي، وبالمقارنة كان جيش المسلمين مكوّن من ثلاثة آلاف فقط.

استشار النبي ﷺ أصحابه وأخذ برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروا خندقا حول المدينة للدفاع عنها. وهكذا فإن هذا الإجراء الاحترازي حمى المسلمين من أن يباغتهم المشركون. بل احتار العدو وأحس بالعجز فاشتعلت نار الغضب فيه طلبا للانتقام.

وفي هذه اللحظات العصيبة ظهرت قدرات النبي ﷺ القيادية بشكل استثنائي، ومع أنها كانت أخطر فترة عند المسلمين هزت حياتهم وجعلت وضعهم لا يطاق إلا أن النبي ﷺ كان سندهم ومصدر راحة لهم.

بينما كان في الخندق يحفر جنبا إلى جنب مع أصحابه، وإذ بصخرة تعيق عملهم، ولم يستطع أحد نزعها أو تحطيمها، فنزل النبي ﷺ وهو يربط على بطنه حجرين ليسكت تشنجات معدته من شدة الجوع، وأخذ يضرب الصخرة بالمعول، فتفتتت بعد ثلاث ضربات. حتى في تلك الظروف القاسية كان إيمانه بالله وبصدق وعده عظيما. فروى لأصحابه يشجعهم أنه سمى بالله ثم ضرب وكبّر فأبصر الشام وأُعطي مفاتيحها ثم مرة أخرى رأى فارس وفي المرة الثالثة رأى صنعاء واليمن.[42] لا بد أن ذلك أشعر أصحابه الجوعى بالبهجة خاصة في مثل ذلك الوقت الحرج والخطِر على حياتهم.

وما حدث بعد ذلك أثبت أن قرار حفر الخندق كان قرارا حصيفا، إذ حمى المسلمين الفقراء الجائعين الذين لا يملكون السلاح والنساء والأطفال من وحشية وغضب العدو الذي كان ينوي نهب المدينة واتخاذ العبيد والجواري من المسلمين والمسلمات، فطال الحصار وضعفت المعنويات، لكن عون الله أتاهم على شكل إعصار شديد هبّ في أشهر الشتاء الباردة فانهزم العدو، وكبّر النبي ﷺ فقال: "لا إِلهَ إِلاّ الله وَحْدَهُ نَصرَ عَبْدَه وَهَزَمَ الأَحْزابَ وَحْدَهُ".[43] وقرر أنهم لن يُعطوا العدو بعد الآن فرصة محاصرتهم بل سيتقدمون وسيدافعون عن أنفسهم.

كانت تقع على عاتق النبي ﷺ، بصفته قائدا للجيش، مسؤولية ثقيلة. كانت الشؤون الأمنية في غزوة الخندق شديدة الأهمية وأبلغ الاحترازات كانت مطلوبة لحماية القائد، فكان النبي ﷺ

ينزل في مكان سِرّي لا يعلم به إلا مجموعة خاصة من أصحابه، وكانت مسؤولية حماية النبي ﷺ تقع على عاتق طلحة رضي الله عنه والزبير رضي الله عنه وعليّ رضي الله عنه وسعد رضي الله عنه وأبي دجانة الأنصاري رضي الله عنه والحارث بن الصِّمة الأنصاري رضي الله عنه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كنتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ وهو بالخندقِ فكان يتعاهدُ ثغرةً من الجبلِ يخافُ منها فيأتِي فيضطجعُ في حِجرِي ثم يقومُ فيتسمَّعُ فسمع حسَّ إنسانٍ عليه الحديدُ فانسلَّ في الجبلِ فقال رسولُ اللهِ ﷺ من هذا قال أنا سعدٌ جئتُك لتأمرَني بأمرِك فأمره رسولُ اللهِ ﷺ أن يبيتَ في تلكَ الثغرةِ فقالت عائشةُ فنام رسولُ اللهِ ﷺ في حِجرِي حتى سمعت غطيطَه فقالت عائشةُ لا أنساها لسعدٍ".[44]

قيم أخلاقية رفيعة في الحديبية

كانت وقعة الحديبية اختبارا للمسلمين تجلى فيها خُلُق النبي ﷺ العظيم. لم تكن الرحلة إلى الحديبية قط بهدف الجهاد أو المجابهة. بل كانت محاولة تحقيق رؤيا رأى فيها النبي ﷺ أنه وأصحابه يطوفون بالكعبة، وفسّرها على أنها إشارة من الله فاتجه إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه. في تلك الأيام كان السيف يعتبر جزءا أساسيا من الزّيّ. ولإظهار نواياهم السلمية أمرهم النبي ﷺ أن يُبقوا سيوفهم في أغمادها ولم يسمح لهم بحمل أي سلاح آخر معهم، وأحرموا من ذي الحليفة وأخذوا معهم الأضاحي.

ولما علم أهل مكة بذلك، أرسلوا جيشا من مائتي جندي لمواجهة المسلمين ومقاتلتهم لمنعهم من الوصول إلى مكة، وتوقفت ناقة النبي ﷺ في الحديبية ولم تتزحزح، وإيمان النبي ﷺ بالله ورضاه بإرادة الله جعلاه يقول: "ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ". ثم أضاف: "والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا".

وبعثت قريش الزعيم بُديل بن ورقاء إلى النبي ﷺ ليبلغه أن قريشا لا تسمح لهم بالطواف حول الكعبة وأنها جمعت مقاتلين من المناطق المجاورة تعهدوا بألا يتركوا المسلمين يدخلون مكة بسلام، فقال له النبي ﷺ أنهم لم يأتوا لقتال أحد بل ليطوفوا بالكعبة فقط، وليوضح موقفه الحازم قال: "إنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ

فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ على أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمْرَهُ".

ولان موقف قريش قليلا أمام هذا القرار الحازم، فجاءهم عروة بن مسعود بكتاب من قريش يقضي بأن يعود المسلمون أدراجهم هذه السنة ويرجعوا السنة المقبلة للطواف بالكعبة، وكان هذا عناد منهم فقط، والنبي ﷺ راغب بالسلم، فأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة لعله بمكانته ونفوذه يستطيع الوصول معهم إلى تسوية ودِّية، فطالت المفاوضات وانتشرت إشاعة مقتل عثمان رضي الله عنه. لكن ذلك كان إرادة الله فالنبي ﷺ أخذ عهدا من أصحابه على أن يقاتلوا حتى الموت. كانوا مستعدين لبذل أرواحهم فداءً لعثمان رضي الله عنه، ولم يريدوا أن يغادروا دون الطواف بالكعبة. غير أن النبي ﷺ ضحى بمشاعره ومشاعر أصحابه ورغبتهم هذه في سبيل الحفاظ على حرمة الكعبة.

وجاء سهيل بن عمرو فقال له النبي ﷺ أن يبدأ اتفاق الصلح بينهما باسم الله الرحمن الرحيم. فقال: " أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ ما أدْرِي ما هو، ولَكِنِ اكْتُبْ "باسْمِكَ اللَّهُمَّ" كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلِمُونَ: واللهِ لا نَكْتُبُهَا إلَّا "بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: اكْتُبْ "باسْمِكَ اللَّهُمَّ"." وأملى عليه النبي ﷺ أن ذلك الكتاب من محمد رسول الله فاعترض سهيل مرة أخرى لأنهم لا يؤمنون بأنه رسول الله وإلا ما منعوه من دخول الكعبة، فكتب محمد بن عبد الله. كان ذلك مؤلما بالنسبة للمسلمين، لكن النبي ﷺ قال: "واللهِ إنِّي لَرَسولُ اللَّهِ، وإنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ".

ثمَ قالَ له: "علَى أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذلكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ."

ثم أضاف سهيل هذا الشرط: "وعلَى أنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ علَى دِينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كيفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟!"

لم يكن هذا البند قد كتب بعد بل كان النقاش جاريا حوله، فدخل أبو جندل بن سهيل الذي كان قد أسلم وهو مكبل ومقيد بالسلاسل، وسهيل كان يعذبه ويضطهده. وتوسل للمسلمين أن يصحبوه معهم، فقال سهيل: "هذا يا مُحَمَّدُ أوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النَّبيُّ

ﷺ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللهِ إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شَيءٍ أبَدًا، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: فأَجِزْهُ لِي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِهِ لَكَ".

فقالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟! وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللَّهِ، قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلتُ: ألَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي، قُلتُ: أوَليسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتي البَيْتَ فَنَطُوفُ بهِ؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟ قالَ: قُلتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به".

كان معظم أصحاب النبي ﷺ يفكرون بالطريقة نفسها، ومثّل عمر رضي الله عنه شعورهم. لكن النبي ﷺ صمد كالجبل. أبو بكر رضي الله عنه هو الوحيد الذي وقف بكل قلبه مع النبي ﷺ ونصح عمر رضي الله عنه بطاعة نبيّه فقال له: "أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِ ﷺ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ؛ فَوَاللهِ إنَّه علَى الحَقِّ". وفيما بعد، قال عمر رضي الله عنه بخصوص تلك الحادثة: "فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا". "ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به".

وبعدما انتهى النبي ﷺ من كتاب الصلح، أمر أصحابه بالنحر في سهل الحديبية وهم لا يتحركون وأعاد عليهم ما أمرهم به ثلاثا دون جدوى، وذهب إلى أم سلمة يخبرها بما حدث فقالت له: "يا نَبِيَّ اللَّهِ، أتُحِبُّ ذلكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ". كانت نصيحة أم سلمة في محلّها. كان أصحابه تحت تأثير الحزن يحتاجون إلى من يرشدهم ويبين لهم ما يفعلون، ولما رأوا النبي ﷺ يذبح ويحلق قاموا فذبحوا وحلق الواحد للآخر وهم يرتجفون من شدة الحزن حتى كادوا يجرحون بعضهم بعضا.[45]

سلوك بديع بعد الانتصار في خيبر

كان مسلمو المدينة يخشون هجوم أهل مكة من الجنوب واليهود من الشمال، وكانت فائدة صُلح الحديبية أنه مهّد للانتصار في خيبر. فكانت نتيجة الصلح على المسلمين أنهم نعِموا بسلام مع أهل مكة، فسهُل عليهم التعامل مع الخطر الآتي من اليهود، وبعد صلح الحديبية،

فُتحت خيبر في غضون ثلاثة أشهر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة.

لما أعطى النبي ﷺ التعليمات بخصوص التحضير لحملة خيبر قال: "لا تخرُجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأمَّا الغنيمة فلا (أي لا تُعطَوا منها شيئا)."[46]

فأمر فقط من خرجوا إلى الحديبية أن يحضّروا أنفسهم للحرب فهم الذين رافقوه بقصد الحج والعمرة لا غير وعاهدوه على أن يضحّوا بأنفسهم وبايعوه من جديد على أن يطيعوه، وبشرهم الله بأن النصر قريب جزاءً لهؤلاء المؤمنين الصالحين:

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (سورة الفتح: 19)

وواجه جيش المسلمين المؤلف من ألف وأربعمائة رجل جيش اليهود المؤلف من عشرة آلاف مقاتل تحصنوا في حصنهم. من منظور استراتيجي حربي، كان من المستحيل أن يكسب المسلمون الحرب.[47] وبقي النبي ﷺ متمسكا بنيّته الصافية فلم تكن الغنائم قط غايتهم، وأمْرُه هذا لأصحابه سيكون دائما دليلا على أن هدف الحروب الإسلامية لم يكن أبدا السلب والنهب.

جهود المصالحة مع يهود خيبر

حين علم النبي ﷺ بمؤامرات اليهود، حاول المصالحة معهم لوضع حد لهذا الأذى، فكتب لهم رسالة جاء فيها: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَاحِبِ مُوسَى وَأَخِيهِ وَالْمُصَدِّقُ لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى: أَلَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ، وَإِنَّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح 30)

وَإِنِّي أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَيْبَسَ الْبَحْرَ لِآبَائِكُمْ حَتَّى أَنْجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ

إِلّا أَخْبَرْتُمُونِي: هَلْ تَجِدُونَ فِيمَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمّدٍ؟ فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كُرْهَ عَلَيْكُمْ. ﴿قَدْ تَبَيّنَ الرّشْدُ مِنْ الْغَيّ﴾ فَأَدْعُوكُمْ إلَى اللّهِ وَإِلَى نَبِيّهِ". [48]

كم هذا الكتاب بيّن وجميل. ففيه توازن تام بين المحبة والبشرى من جهة والإنذار والوعظ من جهة أخرى. لكن لم يستجب اليهود لمبادرات السلام هذه.

عندما قدِم محمد بن مسلمة إلى النبي ﷺ بعد أن قُتل أخوه محمود بن مسلمة على يد اليهود وقال له أن اليهود اقترفوا إثما بذلك وأنه سيثأر لأخيه لا محالة، لو كان أمامه قائد غير النبي ﷺ لربما أثنى عليه وشجعه على ذلك لكن النبي ﷺ الذي هو مثال الصبر والاستقامة قال له: "لا تمنّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تُبتلون به منهم، فإذا لقيتموه فقولوا: "اللّهمَّ أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت". [49]

عن أنس رضي الله عنه قال: " أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلا وكان إذا أتى قوما بليلٍ لم يغزُ بهم حتى يصبح". فلم يستغل النبي ﷺ الظلام ليهجم على اليهود على حين غرة. [50]

تكريم النساء

كانت العادة السائدة في ذلك الوقت أن النساء كنّ يشارِكْن في الحرب لتشجيع الرجال وللترويح عنهم. أما النبي ﷺ فقد أرسى المكانة الحقيقية للمرأة وكرامتها، وبَغَضَ أن تُستَغَل، فقد سمح في غزوة خيبر لبعض النساء بمرافقة الجيش كممرضات يعتنين بالجنود الجرحى.

فعَنْ أُمَيَّةَ بِنْتِ أَبِي الصَّلْتِ عَنِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ وَقَدْ سَمَّاهَا لِي قَالَتْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ فَقُلْنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ إِلَى وَجْهِكَ هَذَا، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى خَيْبَرَ، فَنُدَاوِيَ الْجَرْحَى وَنُعِينَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا اسْتَطَعْنَا. فَقَالَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. قَالَتْ فَخَرَجْنَا مَعَهُ. [51]

وعن حَشْرَجِ بْنُ زِيَادٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ أَبِيهِ أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِى غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَادِسَ سِتِّ نِسْوَةٍ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ إِلَيْنَا، فَجِئْنَا فَرَأَيْنَا فِيهِ الْغَضَبَ، فَقَالَ «مَعَ مَنْ خَرَجْتُنَّ وَبِإِذْنِ مَنْ خَرَجْتُنَّ». فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْنَا نَغْزِلُ الشَّعَرَ وَنُعِينُ بِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَعَنَا دَوَاءُ الْجَرْحَى، وَنُنَاوِلُ السِّهَامَ، وَنَسْقِى السَّوِيقَ. فَقَالَ: «قُمْنَ»، حَتَّى إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ أَسْهَمَ لَنَا كَمَا أَسْهَمَ لِلرِّجَالِ. قَالَ فَقُلْتُ لَهَا: يَا جَدَّةُ وَمَا كَانَ ذَلِكَ قَالَتْ تَمْرًا. [52]

وقد أشاد المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم) في كتابه "حياة محمد" بفكرة النبي ﷺ النبيلة هذه، فكتب: "وخرج مع النبي ﷺ في غزوة خيبر نسوة من بنى غفار لمداواة الجرحى".[53]

هذه الحادثة ذات أهمية كبيرة في التاريخ حيث انضمت النساء إلى الجيش بهدف التمريض، فقَبْل هذا كانت النساء يُستخدمن فقط لتشجيع الرجال وتلبية شهواتهم، ولم يفكر أحد في دورهن كممرضات، وأنهن يستطعْن القيام برعاية الجرحى على أفضل وجه.

استراتيجية مضَرة

بعد رحلة دامت ثلاث ليال دون توقف قطع النبي ﷺ وجيشه مسافة بلغت مائة وخمسين ميلا حتى وصلوا إلى خيبر، وفي صباح اليوم التالي عندما دخلوا وادي الخرس فرح أصحابه بوصولهم بسلام فأخذوا يجهرون بالتكبير، لكن ذلك ينسف استراتيجية النبي ﷺ القائمة على التحرك بهدوء وسِرّية وعلى مفاجئة العدو بالوصول إليه على حين غرة، فنصحهم وقال: "ارْبَعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهو معكُمْ".[54]

تُبين هذه النصيحة بلاغة النبي ﷺ، فقد استخدم لِيُعَبِّر عن رغبة في قلبه كلمات جميلة ومفهومة لا يسع أحدا الاعتراض عليها بل إنهم توقّفوا عن رفع أصواتهم خوفا من تنبيه العدو.

لقد أخبرهم أن السلوك اللائق هو أن يخفضوا من أصواتهم لأن الله يسمعهم أما رفع أصواتهم بالتكبير كان عملا غير حكيم ودعوة لدمارهم.

استخدم النبي ﷺ استراتيجية أخرى وهي تقسيم الجيش إلى خمس فرق: المقدمة، والميمنة والميسرة والقلب والمؤخرة وهكذا يبدو وكأنه جيش كبير جدا فيفاجأ العدو، ونجح النبي ﷺ في مفاجئة العدو.

وفي الصباح الباكر خرج اليهود من بوابة الحصن يحملون معاولهم وأدوات العمل الزراعي وفوجئوا بجيش كبير على عتبة بابهم، كان زعيم المنافقين قد حذّرهم أن حفنة من المسلمين ستهاجمهم، وعندما رأوا كل هؤلاء الجند ارتبكوا فركضوا عائدين إلى الحصن يصرخون: "مُحَمَّدٌ واللَّهِ، مُحَمَّدٌ والخَمِيسُ".[55] وقصدوا بذلك أن النبي ﷺ أتى ومعه جيش بخمس فرق.

كان النبي ﷺ قد انتصر بهذه المفاجئة الصادمة لعدوه.

تكبير الله

وكان الوقت المناسب للتكبير، وأول من كبّر الرسول ﷺ الذي رفع صوته في سهل خيبر وقال: "اللهُ أَكْبَرُ! خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ".[56]

ما قاله النبي ﷺ يبيّن ميزته وهي أنه لن يهاجم أحدا أبدا ما لم يحذره أولا بالطريقة المناسبة أو يعطه إنذارا أخيرا، ومع أنه فاجأ العدو بوصوله المباغت إلا أنه لم يشن الهجوم عليه ليلا، وهذا يدل على سلوكه الحسن فرغم قربه من العدو انتظر حتى الصباح.

عن العِرْبَاض بن سَارِيَة السُّلَمِيّ قال: "نَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْبَرَ وَمَعَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانَ صَاحِبُ خَيْبَرَ رَجُلا مَارِدًا مُنْكَرًا فَأَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَلَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا حُمُرَنَا وَتَأْكُلُوا ثَمَرَنَا وَتَضْرِبُوا نِسَاءَنَا فَغَضِبَ يَعْنِي النَّبِيّ ﷺ وَقَالَ: "يَا ابْنَ عَوْفٍ ارْكَبْ فَرَسَكَ ثُمَّ نَادِ أَلا إِنَّ الْجَنَّةَ لا تَحِلُّ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ وَأَنِ اجْتَمِعُوا لِلصَّلاةِ". قَالَ فَاجْتَمَعُوا ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ النَّبِيّ ﷺ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: "أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَلا وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ وَلا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ".[57]

القائد بين جنوده

وعلى طريق العودة من خيبر عسكر الجيش على بعد ثلاثة أميال من خيبر في مكان اسمه الصهباء، وبعد صلاة العصر دعا لإحضار ما لديهم من أكل، فلم يكن لديهم إلا بعض السَويق، وَهيَ أَكْلةٌ مِن قَمحٍ أَوْ شَعيرٍ يُقلى على النَّارِ ثُمَّ يُطحَنُ، فأكل هو وأصحابه.[58]

كم جميل هذا المشهد الذي يشارك فيه السيد طعامه مع أصحابه بكل تواضع وبساطة.

سلوك بديع عند فتح مكة

في أُحد وبدر، قاتلت جيوش قريش بضعة مسلمين عزّل وفقراء، وفي غزوة الخندق جمعت الجزيرة كلها قواها ضد المسلمين الذين أنقذوا حياتهم بحفر خندق وتحصنوا في المدينة. إن النبي ﷺ يقاتل دائما قتالا دفاعيا، لم يكن يُسمح للأمناء الحقيقيين على الكعبة بالطواف بها

وأُرجعوا في السنة السادسة للهجرة من الحديبية وعقد في تلك المناسبة اتفاق صلح بينهم كما بينا.

أمير السلام

إن العالم بأكمله شهد على سلوك النبي ﷺ البديع يوم فتح مكة. حتى عندما نقضت قريش اتفاق الصلح بهجومها الليلي على بني خزاعة وهم حلفاء المسلمين سعى النبي ﷺ إلى السلام فأرسل مبعوثا إلى من انتهكوا المعاهدة يطلب منهم قبول إحدى الشروط الثلاثة: أن يدفعوا دية من قتلوا، أن يتوقفوا عن دعم بني بكر أو أن يُعلَن صلح الحديبية باطلا. وجاء جوابهم بإبطال المعاهدة.[59]

التحضير السري للرحلة إلى مكة والدعاء

كان الهدف وراء إخفاء تجهيز الجيش للخروج إلى مكة الإحسان حتى لا تستطيع قريش التخطيط للمجابهة، وأمر النبي ﷺ من يعيشون في البادية أن يمضوا شهر رمضان في المدينة، وأمر أهل المدينة أن يتهيؤوا للرحلة دون أن يفصح لهم عن وجهتهم. كان من الصعب جدا إخفاء التجهيز لجيش كبير. لكن النبي ﷺ أولى في كل موقف حرج أهمية كبيرة للدعاء وللتخطيط الحذر والمتين. فدعا الله قائلا: "اللَّهُمَّ خذِ العُيُون والأخبار عن قُرَيْشٍ، حتَّى نبغَتَها في بلادِها". وللسلامة جعل حراسا على كل الطرق المؤدية إلى مكة.[60]

خطر إفشاء السر

حدث شيء غريب خلال تحضيرات الجيش وهو أن السرّ كاد أن ينكشف، لأن أحد المسلمين وهو حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حمّل امرأة رسالة إلى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِمَّنْ بمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ أن النبيّ ﷺ جمع جيشا لا نعرف مقصده لكن على أهل مكة أن يتهيؤوا للدفاع عن أنفسهم، وأنه كتب لهم بهدف إسداء الخدمة، والله كشف للنبي ﷺ مضمون الرسالة بالوحي، فأرسل رجالا بقيادة عليّ رضي الله عنه وراء تلك المرأة واستعادوا الرسالة، واستدعى النبي ﷺ حاطبا فقال له: ما هذا يا حَاطِبُ؟ قالَ: لا تَعْجَلْ عَلَيَّ يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي كُنْتُ امْرَأً مِن قُرَيْشٍ، ولَمْ أكُنْ مِن أنْفُسِهِمْ، وكانَ مَن معكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لهمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بهَا أهْلِيهِمْ وأَمْوَالَهُمْ بمَكَّةَ، فأحْبَبْتُ إذْ فَاتَنِي

مِنَ النَّسَبِ فيهم، أنْ أصْطَنِعَ إليهِم يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وما فَعَلْتُ ذلكَ كُفْرًا، ولَا ارْتِدَادًا عن دِينِي، فَقالَ النبيُّ ﷺ: إنَّه قدْ صَدَقَكُمْ فَقالَ عُمَرُ: دَعْنِي يا رَسولَ اللهِ فأضْرِبَ عُنُقَهُ". وأصرّ عمر رضي الله عنه أن من اقترف خيانة يجب أن يُقتل.

رحمة لا حدود لها

مِن جهة صبَر النبي ﷺ على قسوة عمر رضي الله عنه، ومن جهة أخرى عفا عن حاطب فقال: "إنَّه شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ وجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ أو فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". [61]

وعندما رأى عمر رضي الله عنه سعة رحمة النبي ﷺ دَمعتْ عَيْناه، وقالَ: "اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ". وقد تصرف عمر هذا التصرف الخاطئ لأنه لو كان هناك أي قائد دنيوي عادي لما تردد في معاقبة حاطب على ما فعل، لأنه كان سيكشف مخططاته ﷺ، وعادة في مثل هذه المناسبة يتجاهل القائد خدمات المذْنِب الماضية ويسجنه حتى يأمن منه في المستقبل، لكن النبي ﷺ أظهر أعلى درجات الرحمة وصفح عن حاطب.

استراتيجية مذهلة

وضع النبي ﷺ في سهل مَرّ الظَهران بما وهبه الله من حكمة استراتيجية مذهلة، إذ أمر أصحابه أن ينتشروا فيصعدوا إلى التلال ويشعلوا نيرانا، فأُشعلت في تلك الليلة عشرة آلاف من النيران على تلال مر الظهران فكان المشهد عظيما ومرهبا. [62]

من المتعارف عليه عند العرب أن النار يُشعلها كل عشرة أشخاص، فبدى الجيش مع كل تلك النيران أكبر بكثير مما هو عليه في الحقيقة.

العفو عن أبي سفيان

حين خرج أبو سفيان مع دورية الحرس يتجولون حول مكة تفاجؤوا بكل تلك النيران. فقال: "مَا رَأَيْت كَاللَّيْلَةِ نِيرَانًا قَطّ وَلَا عَسْكَرًا". وبينا هم في حيرة وتساؤل جيش من يكون هذا إذ ألقتْ عليهم القبض دوريةُ الحرس بقيادة عمر رضي الله عنه. وقُدِّموا أمام النبي ﷺ. أراد عمر رضي الله عنه أن يقتل أبا سفيان عدو الإسلام لكن النبي ﷺ كان قد أعطاه الأمان احتراما للجهود التي بذلها في

المدينة بعد أن نقضوا صلح الحديبية. كأن رحمة النبي ﷺ كانت تبحث عن ذريعة لتُظهر نفسها.[63]

وفي الصباح التالي لما حضر أبو سفيان أمام النبي ﷺ قال له: "وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَك أَنْ تَعْلَمَ أَنّهُ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ؟ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي مَا أَحْلَمَك وَأَكْرَمَك وَأَوْصَلَك، وَاللّهِ لَقَدْ ظَنَنْت أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللّهِ إلَهٌ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنّي شَيْئًا بَعْدُ قَالَ وَيْحَك يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَك أَنْ تَعْلَمَ أَنّي رَسُولُ اللّهِ؟ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي، مَا أَحْلَمَك وَأَكْرَمَك وَأَوْصَلَك أَمّا هَذِهِ وَاللّهِ فَإِنّ فِي النّفْسِ مِنْهَا حَتّى الْآنَ شَيْئًا".[64]

وطلب النبي ﷺ من العباس رضي الله عنه أن يصطحب أبا سفيان إلى مكان عال فيرى جيش المسلمين وهم يمشون نحو مكة، وكان الهدف من ذلك أن يترك المشهد انطباعا كبيرا عليه فيقبل الحق، وتقدم جيش من عشرة آلاف مسلم مخلص وكل قائد كتيبة يحمل رايته، فمر القائد سعد بن عبادة الأنصاري أمام أبي سفيان فقال له بحماسة: "اليومَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليومَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ".[65]

خلع النبي ﷺ سعدا من القيادة رغم مكانته وقوته لأن ما قاله عن الكعبة غير مقبول ثم إنه جرح مشاعر أبي سفيان الذي غُلب وبقي مع ذلك مترددا في قبول النبي ﷺ.

أيها الناس الدنيويون، انظروا إلى شهامة هذا النبي العظيم، وكيف أنه في خضم المعركة، خاطر بخلع قائد مهم وأمر أن تؤخذ منه راية الإسلام.[66]

إن إحسان النبي العظيم واضح في اهتمامه بسعد الذي رفع شعار شرف الإسلام فقد أمر أن ينوب عنه ابنه قيس بن سعد.[67]

هل رأينا مثل هذه العناية بمشاعر الآخرين في خضم الحرب؟ هذا هو سلوك من بُعث "رحمة للعالمين"، الذي وجد مجالا للرحمة حتى أثناء معاقبته لشخص ما.

فتح مكة قمة العظمة في الأخلاق

إن سلوك القادة الفاتحين معروف جيدا، فعندما يدخلون بلدا يدمرونه ويذلون السكان المحترمين. قارِنوا ذلك بأعظم انتصار في حياة الرسول ﷺ الذي تجلت خلاله عظمة سلوكه الأخلاقي.

عندما دخل جيش من عشرة آلاف مسلم مخلص مكة المكرمة، ما قتلوا ولا أراقوا الدماء. وكانت أوامر أمير السلام كالتالي: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، ومَن دخلَ تحتَ لواءِ أبي رُويحة فهوَ آمِنٌ".[68] وأُقرّت حرمة الكعبة بهذا الإعلان الذي هدّأ في الوقت نفسه مشاعر أعداء الإسلام، وهذا السلوك البديع هو الذي فاز أخيرا بقلب أبي سفيان الذي آمن بالنبي ﷺ بسبب لطفه ﷺ.

مراعاة مشاعر بلال رضي الله عنه

إن إعلان حرمة لواءِ أخي بلال رضي الله عنه وفقًا لِعِلْم النفس هو مثال كبير على سلوك النبي ﷺ البديع. كان أهل مكة قد قاموا بتعذيب بلال رضي الله عنه وشهدت شوارع مكة اضطهاده، وربما ظن النبي ﷺ أن قلب بلال قد يميل إلى الانتقام، وفي الوقت نفسه، كان من الضروري إنصاف هذا الصحابي المخلص بما تتجلى به تعاليم الإسلام السامية. كان من الممكن للنبي ﷺ أن يثأر لبلال بقطع رؤوس أعدائه فقد تعرض بلال رضي الله عنه للإذلال والتعذيب في شوارع مكة المكرمة، لكنه أعطى الأمان لكل من يلجأ إلى لواء أخي بلال رضي الله عنه ويحتمي به، وبهذه الطريقة سامح النبي ﷺ أعداءه وعزّى صاحبه.

ما أجملَه من مشهد حين أمر ﷺ أبا رويحة رضي الله عنه أخا بلال رضي الله عنه (وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما) أن ينادي: "يا أهل مكة، من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن ".69

يا له من شرف عظيم لأخي بلال منحه إياه سيده، فسيُعفى عن معذِّبيه إذا لجأوا إليه. هذا المثال الرائع دليل على ترسيخ كرامة الإنسان.

جهود لحَقْن الدماء

نصح الرسول ﷺ قادته بألا يبادروا بالقتال، وألا يقاتلوا ما لم يفرض عليهم القتال. دخل الرسول ﷺ مكة من الجانب الشمالي حيث قبري أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما، وبهذه الطريقة تذكر أنصاره السابقين أيضا وقت النصر، وأمر الرسول ﷺ قائده المتمرس خالد بن الوليد رضي الله عنه بدخول مكة من الجانب الجنوبي، فهاجمهم عكرمة بن أبي جهل وأصحابه وقُتل اثنين من المسلمين.[70]

والعدد الإجمالي لقتلى المشركين يومها تراوح بين العشرة والثمانية والعشرين، لو لم يقاوم المشركون، لأمكن تفادي القتلى.[71]

وقد كتب السير ويليام موير ما يلي: "لقد قسم محمد جيشه إلى أربعة أقسام وأمرهم بدخول المدينة من جهات مختلفة. وأُعطوا تعليمات صارمة بأن يقاتلوا فقط للدفاع عن أنفسهم أو عندما يفرض القتال عليهم".[72]

ونتيجة لهذه التعليمات لم يقتل سوى عدد قليل من المشركين، وهذه الخسارة في الأرواح التي حصلت من أجل نصر عظيم كفتح مكة على صغرها أحزنت النبي ﷺ.[73]

استدعى النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه يستفسر منه عن سبب حدوث هذا السفك للدماء عقب التعليمات الصارمة بعدم المبادرة بالقتال، وعندما أعلمه بالظروف، قال الرسول ﷺ: "قضى الله أمرا "، واستسلم لإرادته سبحانه وتعالى.[74]

نكران الذات والتواضع المذهلانِ

كان مشهد دخول سيدنا محمد ﷺ إلى مكة مذهلا، كانت المدينة بأكملها شغفة لرؤية هذا الفاتح العظيم. كانوا يتوقعون أن يدخل القائد المنتصر مكة رافعا رأسه عاليا، ولكن عندما وصل الرسول ﷺ، كان المشهد عكس ذلك تماما. كان جندي الله هذا يرتدي عمامة سوداء فوق خوذته وراكبا على ناقته القصواء وعلى كتفه بُرْد يمني أحمر اللون، وخلْفَه أسامةُ ابن خادمه المخلص زيد رضي الله عنه وعلى يمينه صاحبه المخلص أبو بكر رضي الله عنه، وعلى يساره بلال رضي الله عنه وزعيم الأنصار أسيد بن حضير رضي الله عنه.[75]

ولإعلان السلام للجميع، كان مع رسول الله راية بيضاء في يده بينما رايته المعتادة سوداء. وأثناء دخوله مكة قرأ سورة الفاتحة وناقته تتقدم حتى وصلت إلى المكان الذي وقف عنده قبل ثماني سنوات، حين غادر مكة، لإلقاء نظرة وداع على موطنه العزيز وقال: "وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ".

كتب السير ويليام موير: "كان يُخشى أن يواجه النبي مقاومة في هذا المكان، لكنه دخل مدينته في ذلك اليوم بسلام تام".[76]

في هذا اليوم رأى شعب مكة مشهدا مذهلا. لم يُظهر النبي ﷺ وهو يحقق أكبر انتصار له أي

كِبر بل كان هذا الفاتح العظيم قد أحنى رأسه على رحله تواضعا لله وثناءً على أفضاله، وكاد رأسه يلمس سرج ناقته وهو ساجد يشكر الله ويقول: "اللّهُمّ لَا عَيْشَ إلّا عَيْشَ الْآخِرَةِ".[77]

كان جَلَد النبي ﷺ مذهلا، وقد تجلى نكران الذات هذا نفسه في أكبر محنة في حياته وهي غزوة الأحزاب حيث دعا بالدعاء نفسه: "اللّهُمّ لَا عَيْشَ إلّا عَيْشَ الْآخِرَةِ".

أي: هذه المعاناة مؤقتة أما الحياة الحقيقية فهي الآخرة. وبالمثل، دعا في وقت انتصاره الأكبر بهذا الدعاء الذي يدل على صموده الكامل. سبحان الله، كم هي سامية كرامة هذا الرجل الذي لا يهتز إيمانه في أقسى أوقات المعاناة ولا في أعظم أوقات النجاح. ولكي نقدر تماما حقيقة هذا البيان، دعونا نرى كيف احتفل هذا الفاتح العظيم بانتصاره.

البساطة والرضا

كان وقت الظهيرة ووقت تناول الطعام. بينما نتخيل تماما ما يقوم به الغزاة الأبطال من الدنيويين في هذه الحال، دعونا نرى كيف يحتفل هذا القائد المنتصر بانتصاره. ما هي الولائم التي أُعدت على شرفه؟ وكم عدد الحيوانات التي ذبحت له وعدد الأطباق الشهية التي كانت بانتظاره؟ وهو الذي خُلق الكون كله لأجله، وبفضله نحن خدامه المتواضعون نحظى ونتمتع بطعام متنوع. دعونا نرى ما الوجبة التي تناولها في أعظم يوم في حياته.

ذهب النبي ﷺ إلى ابنة عمه أم هانئ رضي الله عنها وقال: "هل عندكِ من طعام نأكله؟ قالت: ليس عندي إلا كِسَر يابسة وأنا أستحي أن أقدّمها إليك، فقال: هلمّي بهنّ، فكسرهنّ في ماء، وجاءت بملح فقال: هل مِن أُدُم، فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خَل، فقال: هلمّيه، فصبّه على الكِسَر وأكل منه، ثم حمد الله، ثم قال: نِعم الأُدُم الخَلّ. يا أم هانئ لا يفقر بيت فيه خل". هذه كانت وجبته يوم أعظم انتصار له.[78]

سجدة خاشعة

إن تكبير النبي ﷺ وسجدة الشكر التي قام بها على ظهر ناقته مجرد لمحة من مشاعره في تلك اللحظة. كانت عظمة الله ووحدانيته تشرفانه وتملآن قلبه والسجدة الخاشعة تزيّن الكعبة وتعزز جمال بيت الله. بُني هذا البيت لمثل هذا السجود النقي والمتواضع. والآن حان الوقت لمثل هذا

السجود الخاشع. دخل النبي ﷺ الكعبة وصلّى شكرا لله، وأسامة وبلال معه. لقد صلى لفترة طويلة.[79]

في البداية صلى ركعتين بين عمودين ثم خرج فصلى ركعتين بين الحجر الأسود وباب الكعبة. ثم عاد للداخل وتضرع لفترة طويلة فوقف في كل ركن من أركان الكعبة ودعا ربه.[80]

مقابلة الإساءة بالإحسان

بعد أن طاف النبي ﷺ بالكعبة أرسل وراء عثمان بن طلحة رضي الله عنه الذي كان أمينا على المفتاح. كان باب الكعبة يُفتح يومي الاثنين والخميس فيدخل إليها الناس. وذات مرة –قبل الهجرة– منع عثمان الرسول ﷺ من دخول الكعبة فقال له وهو مَن بُنِيَ لأجله هذا البيت: "لعلكَ سترى هذا المفتاح يوما بِيدي أضعه حيث شئتُ". وجاء اليوم الذي قدم فيه عثمان بن طلحة المفتاح للنبي ﷺ بيد مرتجفة.[81]

كان العالم ينتظر لمعرفة من سيكون له شرف استلام المفتاح بعد أن استُعيد من عثمان بن طلحة. ورأى عليّ أن تعطى لبني هاشم. خرج النبي ﷺ من الكعبة بعد الصلاة، وحصل ذلك القصاص التاريخي، إذ أعاد النبي ﷺ المفتاح إلى عثمان وقال: "هَاكَ مِفْتَاحَك يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ؛ يا عثمان هاك خُذُوا مَا أعطاكمُ الله، خُذُوهَا يا بني طلحةَ خالدةً تالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالم". عندما رأى عثمان هذا اللطف أحنى رأسه إعجابا وإجلالا للنبي ﷺ وقال: "بلى أشهد أنك رسول الله".[82]

هذا هو الانتقام الجميل. هل يمكن للعالم أن يقدم أي مثيل له؟

العفو عن الأعداء المتعطشين للدماء

عندما خرج النبي ﷺ من باب الكعبة، كان أمامه كل أعدائه المتعطشين للدماء. هنا ألقى خطبة تاريخية أعلن فيها العفو عن جميع أعدائه الألداء، وأعلن المساواة بين الرجال وأبطل كبرياء وغطرسة الجاهلية، وقال: "لَا إلَهَ إلّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ أَلَا كُلّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدّعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ إلّا سَدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجّ أَلَا وَقَتِيلُ الْخَطَأِ شِبْهِ الْعَمْدِ بِالسّوْطِ وَالْعَصَا، فَفِيهِ الدّيَةُ مُغَلّظَةً مِئَةٌ مِنَ الْإِبِلِ

أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ. النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات 14).

ثُمَّ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟". وإليكم أن تتخيّلوا الناس الذين كان يخاطبهم؟ المتعطشون للدماء الذين تلطخت أيديهم بدماء المسلمين التي سفكوها على مدى السنوات العشرين الماضية، وجرّوا العبيد المسلمين في شوارع مكة. أولئك كانوا قتلة لا يرحمون النساء المسلمات، وأخرجوا المسلمين من منازلهم، وسجنوا نبينا في واد لمدة ثلاث سنوات، وقتلوا المسلمين ومثّلوا بجثثهم، واعتدوا على ابنته وتسببوا في إجهاضها، ومضغوا كبد عمه حمزة. لكن عندما طلب منهم النبي ﷺ أن يصِفوا نوع المعاملة التي يستحقونها، أجابوا: "خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ". فعاملهم كما عامل يوسف إخوته.[83]

عفو حقيقي

يعتقد الناس أن الفتح كان بدخول مكة ولكن الواقع هو أن الفتح كان بخُلق النبي ﷺ العظيم. اعترف العدو بهذا الانتصار عندما توقعوا الرحمة من النبي ﷺ الذي عاملهم بطريقة فاقت توقعاتهم. إذ قال لهم:

"فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ".[84]

هذا هو العفو الحقيقي الذي انبثق من قلب سيدنا ودهش العالم بعفوه الصادق والشامل وبشهامة هذا الإعلان. المستشرقون يحنون رؤوسهم أمام هذه الرأفة الكبيرة ويكرمون هذا النبي العظيم. لقد وصف السيد آرثر مشهد فتح مكة وأشاد به بهذه الكلمات:

"يوم فتح مكة، حصل عمل جدير بالثناء وهو أن أهل مكة الذين عذبوا المسلمين كانوا أمام النبي، وكان هناك ما يبرر أي قدر من الانتقام منهم، وأوقف النبي كل إراقة للدماء، وأعلن عبوديته وإخلاصه لله وحَمَدَه. لم يُنف سوى عشرة أو اثني عشر شخصا بسبب وحشيتهم، وقُتل أربعة منهم فقط. كان سلوك النبي لطيفا وإنسانيا من جميع النواحي. عندما تقارن

معاملته بمعاملة الغزاة الآخرين الوحشية (على سبيل المثال، قسوة الصليبيين الذين قتلوا في عام 1099 وقت فتح القدس أكثر من سبعين ألف رجل وامرأة وطفل مسلم؛ أو الجيش الإنجليزي ومن قاتل تحت قيادته الذين أحرقوا مدينة بأكملها في عام 1874 على الساحل الإفريقي).

كان انتصار محمدًا انتصارا لإيمانه وانتصارا لمنظوره السياسي، فرفض كل المصالح الشخصية، ورفض أي علامة تباهٍ ملكي، وعندما جاء قادة قريش المتغطرسون ورؤوسهم منحنية، سألهم محمد: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟" أجابوا: "خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ". فقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".[85]

يوم انتصر على نفسه أجمل انتقام

يكتب المستشرق الشهير ستانلي لين بول (Stanley Lane Poole):

"هذا هو الوقت الذي كان بإمكان النبي أن يظهر فيه جانبا وحشيا، فمعذبوه كانوا عند قدميه. هل يدوس عليهم بلا رحمة؟ هل ينتقم لنفسه ويمارس عليهم تعذيبا جسيما؟ ففي مثل هذا الوقت تظهر الطبيعة الحقيقية للشخص. في مثل هذا الوقت، يمكننا أن نتوقع مثل هذه الوحشية التي تقشعر لها الأبدان. مجرد تخيلهم يبرر أي إدانة، ولكن يا له من سيناريو متناقض! فلا دماء تسيل في السوق أو جثث بالآلاف في الشوارع. هذه المناسبات بطبيعتها لا ترحم. والحقيقة هي أن اليوم الذي تفوق فيه محمد على أعدائه، كان يوم انتصاره على نفسه، وأهل قريش الذين ألحقوا به الحزن والجراح لسنوات طويلة وأهانوه بلا رحمة، غفر لهم جميعا بقلب صادق، وأعلن العفو العام".[86]

وإنا نخالف هذا المستشرق في قوله بأن رسول الله ﷺ قد انتصر على نفسه وكأنه قاوم رغبة عارمة في الانتقام، وتصنع خُلقا ما كان جُبِل عليه، بل كان انتقامه مخالفا لتوقعات أهل الدنيا إذا كان انتقامه ﷺ عفوا عاما. صلى الله عليه وسلم.

انتصار لا تشوبه شائبة

وأصبح الرسول ﷺ حاكم مكة، وكل ما في أرضها أصبح تحت سيطرته، فكان عليه أن يقرر أين سيقيم. استفسر أسامة إن كان سيبقى في منزل أجداده (الذي يحمل ذكريات طفولته

وشبابه) فأجابه النبي ﷺ قائلا: "وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ". [87]

الإحسان لمجرمي الحرب

تذكرنا معالم الغزاة الدنيويين بالدمار وأكوام الجماجم. أما سيدنا محمد ﷺ فقد أضاء برج المغفرة والرحمة، وعفوه ليس له مثيل في تاريخ العالم، ولم يعدم سوى عدد قليل من المجرمين الذين استحقوا العقاب على جرائمهم. كان إعلانه العفو العام انتصارا للخُلق الذي فاز بقلوب شعبه، ومن بين الأشخاص العشرة الذين حكم عليهم بالإعدام بسبب جرائمهم، قُتل أربعة " فقط لأنهم أصروا على جرائمهم ولم يطلبوا المغفرة، وجرت معاقبتهم وفقا للعدالة وخدمةً للمجتمع بشكل عام، أصروا على جرائمهم ولم يطلبوا العفو من المحكمة التي لم تحرِم أحدا من العفو.

المجرم الأول

أحد هؤلاء المجرمين البائسين كان عبد الله بن خطل، وكان اسمه الحقيقي عبد العزى، لكن عندما أسلم، أعطاه الرسول ﷺ اسم عبد الله وعينه لجمع الزكاة، وأُرسل معه أنصاري يساعده، في مرحلة ما من الرحلة، غضب من الأنصاري الشاب لأنه لم يطهو الطعام في الوقت المحدد وقتله، فاستحق عقوبة الإعدام على هذه الجريمة غير المبررة، وارتدّ بعد ذلك، وانضم إلى مشركي مكة، وبدأ يعادي المسلمين علنا وفتح جبهة ضد الإسلام، وكتب أبياتا قذرة يهجو فيها النبي ﷺ. كان شِعره فاحشا وجعل قصائده تُغنى في التجمعات. يوم فتحت مكة، بدل طلب العفو، لبس درعا وبدأ يصرخ من على ظهر حصانه بأنه لن يسمح لمحمد بدخول مكة، وعندما قدِم النبي ﷺ لم يطلب منه العفو، بل هرع وتشبث بستائر الكعبة خوفا على حياته، ونُفّذ فيه الحكم وكانت نهايته وخيمة. لو كان طلب العفو، لغفر له مثل المجرمين الآخرين. [88]

المجرم الثاني

كان لدى ابن خطل مغنيتان اعتادتا على غناء هجائه ونشر الفحش، وحُكم عليهما بالإعدام. وأُعدمت إحداهما وهربت الأخرى وكانت تدعى سارة. وعفا عنها النبي ﷺ عندما طلبت منه المغفرة، ثم أسلمت. [89]

المجرم الثالث

أما المجرم الثالث فهو الحويرث بن نقيذ بن وهب، كان يؤذي النبي ﷺ إيذاء شديدا في مكة، وينشد الهجاء فيه. كانت جريمته الحقيقية التي حكم بسببها بالإعدام هي هجومه على ابنة الرسول ﷺ بنية قتلها. فبعد الهجرة، رتب عمه العباس رضي الله عنه لإرسال ابنتيه، فاطمة وأم كلثوم رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة. وساعدهما على ركوب الناقة، ثم هاجمهما هذا الشخص البائس فنخس ناقتهما فرمى بها أرضا، وقتله عليّ رضي الله عنه تطبيقا للحكم يوم فتحت مكة.[90]

المجرم الرابع

وكان المجرم الرابع الخاضع لعقوبة الإعدام هو مِقْيَس بن صُبابة. وحكم عليه بتهمة قتل أنصاري، وكان قد ارتدّ وانضم إلى قريش.[91]

عندما أسلم مقيس، طالب بديّة أخيه الذي كان قد قُتِل في المعركة عن طريق الخطأ على يد أنصاري ظنّه من العدو، فدفع له النبي ﷺ دية أخيه، لكنه استلم المال وذهب وقتل الأنصاري، ورجع إلى قريش مشركا، وحكم عليه بالإعدام لقتله الأنصاري.[92]

وبصرف النظر عن هؤلاء المجرمين الأربعة، فإن كل الذين طلبوا المغفرة نالوا عفو الرسول ﷺ. ويوم فتح مكة، شمل العفو العام الذي أعلنه الرسول ﷺ عبد الله بن سعد كاتب الوحي، وهبار بن الأسود الذي روّع زينب رضي الله عنها وتسبب بإجهاضها. وصدر عفو بحق عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهما ما يزالان على شركهما، وعفي كذلك عن هند التي مضغت كبد حمزة عم الرسول ﷺ، وعن الحارث وزهير اللذين حكم عليهما بالإعدام بناء على طلب سيدة مسلمة (تجدون تفاصيل هذا في الفصل الذي هو بعنوان "النبي ﷺ مثال فريد في العفو".

باختصار، تم العفو عن جميع المجرمين باستثناء الأربعة المذكورين آنفًا. هذا حدث فريد من نوعه في تاريخ العالم. لقد اندهش ويليام موير من هذا السلوك الذي لا مثيل له فكتب: "كان القتلة المعلنون قليلي العدد وربما استوجب قتلهم وفقا للعدالة باستثناء المغنية فكلهم استحقوا عقوبة الإعدام للجرائم التي ارتكبوها وليس لعدائهم السياسي. كان سلوك محمد المذهل مثالا فريدا في الكرم والاعتدال اللَّذَيْن لا حدود لهما، وسرعان ما جنى محمد ثماره. لقد قاد جميع

أبناء وطنه إلى الوقوف إلى جانبه بإخلاص، وكانت النتيجة أن قاتل ألفا شخص من مكة إلى جانب المسلمين في غزوة حنين".[93]

ثم إن المغنية المذكورة في رواية المستشرق الشهير نالت العفو وفقا لما جاء في الأحاديث.[94]

وهكذا ثبت أن يوم فتح مكة هو اليوم الذي تم فيه تبديد كل الادعاءات القائلة بأن الرسول ﷺ استخدم القوة لنشر الإسلام. عندما فتحت مكة كان زعماؤها يرتجفون خوفا من المسلمين. فالوقت الأمثل لإجبارهم على قبول الإسلام كان في لحظة خوفهم هذه، وكان من الممكن مصادرة ممتلكاتهم أيضا. لكن شهد يوم فتح مكة على أن ذلك لم يحدث وبدد كل ادعاءات استخدام النبي ﷺ القوة.

كتبت المستشرقة الإيطالية الأستاذة الدكتورة فاليري (Vaglieri) كلاما جميلا عن ادعاء الإكراه لنشر الإسلام: "إن تعاليم القرآن وشخصية النبي تشهد على أن هذا الادعاء كاذب، فقد خاض معارك كان فيها أحد الطرفين تجسيدا للصبر والآخر تجسيدا للغطرسة الخالصة، أو كانت معركة لم يرغب فيها طرفا على الإطلاق في شن حرب ولكنه اضطر إلى محاربة العدو الذي كان عازما في غطرسته على إبادته. فكل معارك نبي الإسلام كانت لإنقاذ دينه الحنيف وحمايته. لم تُخض تلك الحروب لأجل الحرب، بل كانت في كل الأحوال حروبا دفاعية لا هجومية. يقول القرآن بوضوح: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 191) إذا نظرنا إلى نبوءات محمد أو درسنا انتصارات المسلمين في الفترة المبكرة، يمكننا أن نفهم بسهولة أن ادعاء استخدام القوة والإكراه لنشر الإسلام هو ادعاء كاذب تماما وغير مبرر".[95]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1]سنن النسائي؛ كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد.

[2] Muhammad a Biography of the Prophet; Karen Armstrong, page.168, UK 1991.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب الجنة تحت بارقة السيوف.

[4] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب تَأْمِيرِ الإِمَامِ الأُمَرَاءَ عَلَى الْبُعُوثِ وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا.

[5] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 305، طبعة القاهرة.

[6] كنز العمال؛ الجزء 4، ص 469، طبعة بيروت.

[7] سنن أبو داؤد؛ كتاب الجهاد، باب في دُعَاءِ الْمُشْرِكِينَ.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[9] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 184، طبعة القاهرة.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 136، طبعة القاهرة.

[12] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 89، طبعة بيروت.

[13] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 411، طبعة القاهرة.

[14] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 178، طبعة بيروت.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس.

[17] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 220، طبعة بيروت.

[18] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 9، ص 82، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس.

[21] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 242. New edition 1877, London.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

[26]صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

[27] عمدة القاري على شرح صحيح البخاري؛ الجزء 25، ص 370، طبعة بيروت.

[28] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 161، طبعة بيروت.

[29] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب غَزْوَةِ أُحُدٍ.

[30] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة، باب النَّهْيِ عَنْ لَعْنِ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا.

[31] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 157، طبعة بيروت.

[32] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 424، طبعة القاهرة.

[33] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 176، طبعة بيروت.

[34] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 101، 102، طبعة بيروت.

[35] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم.

[36] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 191، طبعة بيروت.

[37] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 2، ص 8، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 191، طبعة بيروت.

[38] Muhammad at Medina; William Montgomery Watt, p 216, Oxford University Press 1956.

[39] سيرة ابن هشام الجزء 2، ص 214و215، طبعة بيروت.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب غَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ وَغَيْرِهَا.

[42] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 303، طبعة القاهرة.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[44] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 196، طبعة بيروت.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[46] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 153، طبعة بيروت.

[47] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 157، طبعة بيروت.

[48] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 544، طبعة بيروت.

[49] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 160، بيروت.

[50] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[51] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 380، طبعة القاهرة.

[52] سنن أبو داؤد؛ كتاب الجهاد، باب فِي الْمَرْأَةِ وَالْعَبْدِ يُحْذَيَانِ مِنَ الْغَنِيمَةِ.

[53] حياة محمد لإميل درمنغم؛ ص340، طبعة ثانية داراحياء الكتب العربية.

[54] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[55] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[56] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[57] سنن أبو داؤد؛ كتاب الخراج، باب فِي تَعْشِيرِ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتِّجَارَاتِ.

[58] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر. تاريخ الخميس الجزء 2، ص 43، طبعة بيروت.

[59] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 2، ص 292، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 10، ص 524-526، طبعة مصر.

[60] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 250، طبعة بيروت.

[61] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الفتح.

[62] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[63] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 401، طبعة بيروت.

[64] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 401، طبعة بيروت.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[66] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 406، طبعة بيروت.

[67] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 268، طبعة بيروت.

[68] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 401، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 265، طبعة بيروت.

[69] سيرة ابن هشام؛ الجزء 7، ص 145، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 116، طبعة بيروت.

[70] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 407، طبعة بيروت.

[71] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 270، طبعة بيروت.

[72] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 424. New edition 1877, London.

[73] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 271، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 407، طبعة بيروت.

[74] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 273، طبعة بيروت.

[75] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 274، طبعة بيروت.

[76] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 426. New edition 1877, London.

[77] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 495، طبعة بيروت.

[78] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 293، طبعة بيروت.

[79] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة.

[80] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 169، طبعة بيروت.

[81] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 411-412، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء3، ص 145، طبعة بيروت.

[82] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 412، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 303، طبعة بيروت. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 635، طبعة بيروت.

[83] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 411، طبعة بيروت.

[84] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 304، طبعة بيروت.

[85] The Saracens; Arthur Gilman, p.184-185, London 1887.

[86] Selection From the Kuran, Stanley Lane Poole; p 67. London 1879.

[87] صحيح مسلم؛ كتاب الحج، باب النُّزُولِ بِمَكَّةَ لِلْحَاجِّ وَتَوْرِيثِ دُورِهَا.

[88] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 288، طبعة بيروت.

[89] فتوح البلدان للبلاذري؛ الجزء 1، ص 46-47، طبعة بيروت. عيون الأثر؛ الجزء 2، ص 195، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 136، طبعة بيروت.

[90] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 289، طبعة بيروت.

[91] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 410، طبعة بيروت.

[92] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 289، طبعة بيروت.

[93] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 425. New edition 1877, London.

[94] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 410، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 292، طبعة بيروت.

[95] An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar, p.13, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

استراتيجية النبي ﷺ وفطنته في المعارك

إن النبي ﷺ هو أفضل قائد، فقد حاز أعلى الميزات القيادية. وظهرت هذه الصفات في تطبيقه العملي لمبدأ سَيّد القوم خادمهم. كان قائدا رائعا، باسلا وشجاعا، يقاتل على الجبهة وفي أخطر مواقع المعركة وأصعبها. وحيثما تعثّر أشهر الأبطال بقي النبي ﷺ صامدا، ولم تزعزعه حتى أشد المواقف، فقد تعرض هو والمسلمون خلال ثلاث عشرة سنة لاضطهاد شديد في مكة إلا أنه بقي يأمر أتباعه أن يصبروا ويعفوا عن مضطهديهم، وأُخرج من موطنه وأرضه وفُرض عليه القتال وهو البطل المدافع عن الحرية الدينية وحرمة دور العبادة وحفظ الأمن، ولم يكن المسلمون جاهزين للحرب لا ماديا ولا معنويا، لا عددا ولا عُدة.

حدثتْ أول معركة عندما قرر النبي ﷺ وأصحابه اعتراض طريق قافلة تجارية كانت ترمي لاستعمال كل أرباحها من أجل قتال المسلمين، وإذ بجيش بُعث من مكة لحماية القافلة يشتبك مع المسلمين. يَصِف القرآن الكريم الحالة المعنوية للمسلمين المسالمين في تلك الحادثة:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال: 8)

وفي تلك الظروف، أخبر النبي ﷺ أصحابه بما أمره الله به وبما بشّره والمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: 66)

وبعد الدعاء قام النبي ﷺ، وهو واثق من تحقق وعد الله له، بإعداد أصحابه لما سيواجِهُونه من محن وخطر. يقول القرآن الكريم عن خطاب النبي ﷺ الفعال في غزوة بدر:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (آل عمران: 125-128)

وحدث ذلك بالفعل إذ إن المقاتلين الألف بِعُدتهم الكاملة هُزموا من قِبَل ثلاثمائة وثلاثة عشر مسلما بعضهم بعدة بسيطة والبعض الآخر بدون عدة، وقُتل سبعون بطلا من العدو بما فيهم أربعة وعشرون من كبار زعمائهم.

وفي معركة أُحُد، كان النبي ﷺ في المقدمة يدير توزيع الجيش بخبرة قائد متمرس، فشكّل بنفسه كتائب الميمنة والميسرة. يقول القرآن الكريم:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران: 112)

وباختصار، قام النبي ﷺ بتحضير أصحابه على قلة عددهم وعتادهم لمواجهة جيوش مجهزة بالكامل والانتصار عليها.

لا شك في أن دعم الله ونصره لهم بالإضافة إلى دعائهم الشديد صَنَع المعجزات، واستخدم النبي ﷺ تدبيرات ناجحة في كل معركة. كان يدرك أن الحروب مليئة بالخداع ولذلك وَجَبَ استخدام استراتيجيات بارعة ودقيقة للانتصار. هناك العديد من الأمثلة الرائعة على تلك التخطيطات والاستراتيجيات التي استخدمها في المعارك، سنذكر هنا بعضا منها.

معرفة حركة العدو وخُطته

إن وعي قائد الجيش لتحركات العدو وخطته أثناء الحرب هو أفضل استراتيجية تضمن نصف الطريق إلى النصر. كان النبي ﷺ يدرك ذلك إدراكا كبيرا.

كان المخطط له هو مصادرة عِير أبي سفيان، ولم يكونوا ينوون القتال، في أول يوم عسكَر فيه المسلمون في بدر، بعث النبي ﷺ نفرا من أصحابه إلى ماء بدر في مهمة جمع الأخبار عن جيش مكة، فالتقوا بخادم لقريش فأمسكوا به وأخذوا يتحرون أخبار عير أبي سفيان بينما كان النبي ﷺ يصلّي، فقال لهم الخادم إنه لا يعرف عنها شيئا إنما كان هو مع جيش أبي جهل وأتى لجلب الماء، فلم يعجبهم جوابه وأخذوا يصرون عليه لكن جوابه لم يتغير، فضربوه فقال إنه سيخبرهم عن العِير ثم تركوه فأنكر معرفة أي شيء وأنه كان مع جيش أبي جهل، وحين انتهى النبي ﷺ من الصلاة قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَتَضْرِبُونَهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَدَعُونَهُ إِذَا كَذَبَكُمْ". ثم بحكمة كبيرة استقى بنفسه المعلومات من الخادم، فحين سأله كم عدد جيش قريش أجاب إنه عدد كبير دون أن يستطيع إعطاءه عددا محددا، فسأله النبي ﷺ كم يذبحون

من الجِمال لإطعام الجيش في كل يوم قال تسعة أو عشر، فاستنتج النبي ﷺ أن عدد أعدائه لا بد أن يكون بين التسعمائة والألف، ثم سأله عن كبار مكة المشاركين في الجيش فسمَّى له الخادم عُتبة وشَيبة وأبا جهل والنضْر بن الحارث وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدِ وُد، فقال رسول الله ﷺ: " هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ كَبِدِهَا". وقبل أن يفزع المسلمون من سماع أسماء هؤلاء المقاتلين بدَّد النبي ﷺ مخاوفهم ورفع من معنوياتهم عندما أراهم مواضع مصارع صناديد قريش هؤلاء، فقال: هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض ههنا، وههنا. فما ماط أحد عن موضع يده ﷺ. فقُتل في ذلك اليوم أربعة وعشرون من أشراف قريش.[1]

كان العباس رضي الله عنه يخفي إسلامه فأُجبر على الانضمام إلى جيش المشركين في معركة بدر، وكان النبي ﷺ على علم بذلك فأخبر أصحابه أن بعضا من بني هاشم ومنهم العباس رضي الله عنه أُكرهوا على القتال، ومَنَعَهم من قتلهم إذا لقوهم في ساحة المعركة، وعندما أُسر العباس رضي الله عنه كان الوِثاق يشدّ على يديه فيُسمَع أنينه، فأُرخي وثاقه ووثاق كل الأسرى، ثم فُكّ أسره وأسر ما عداه بِدِيةٍ. وكان هدف النبي ﷺ من ذلك هو الإبقاء على سرِّية إسلام العباس رضي الله عنه.[2]

ومِن نِعم بقاء العباس رضي الله عنه في مكة أنه كتب قبل غزوة أُحُد رسالة إلى النبي ﷺ بعثها مع رجل من بني غِفار يُعلِمه فيها أن جيشا مكوّنا من ثلاثة آلاف جندي يوشك أن يهاجم المدينة، وبذلك نَجَت المدينة من غارة مفاجئة واستطاع مواطنوها أن يستعدوا ويخرجوا للدفاع عن أنفسهم.[3]

وفي وقت لاحق، خرج العباس رضي الله عنه من مكة يطمئن على النبي ﷺ بعد ما سمعه من إشاعات عن هزيمة المسلمين في خيبر، فلَقِيهُ وسمع منه حقيقة انتصارهم ففرح واطمأن وأخذ كذلك حصته من الغنائم.

وقد انضم قبل فتح مكة إلى جيش المسلمين وأطلق عليه النبي ﷺ اسم خاتَم المهاجرين قائلا: يا عم فإنك خاتم المهاجرين في الهجرة كما أنا خاتم النبيين في النبوة،[4] تنويهًا للخدمات التي قدمها للمسلمين وهو في مكة، وذلك أكسبه أجرا أكبر من الهجرة ذاتها.[5]

كان نظام استخبارات النبي ﷺ نظاما قويا ومتكاملا ففي غزوة الأحزاب أتى وفد من قبيلة خزاعة، التي كانت حليفا للمسلمين، يحذره من هجوم جيش مكة على المدينة، مما مكّنهم من

حفر الخنادق والدفاع عن أنفسهم.[6]

وأثبت هذا النظام فعاليته كذلك في غزوة خيبر فقبل انتهاء المعركة أمسك عمر رضي الله عنه بجاسوس يهودي حصل منه على معلومات قيمة أسهمت كثيرا في انتصار المسلمين. فقد علِم بنفاد مؤن العدو وانكسار معنوياتهم، وهذه المعلومات التي كشفت وهن العدو أمدّت جيش المسلمين بالقوة.[7]

وإن فتح مكة وحقن الدماء كان يرجع إلى نظام الاستخبارات القوي عند المسلمين بينما كان نظام العدو ضعيفا جدا في هذا المجال. كان عشرة آلاف رجل يقفون على أبواب مكة دون أن يعرف أهلها ما عليهم فعله، حتى إن زعماء قريش خرجوا يمشون حول مكة كما كانوا يفعلون كل ليلة، وأمسكت فرقة بقيادة عمر رضي الله عنه بأبي سفيان وجاءت به إلى النبي ﷺ،[8] وبعد انتصار المسلمين أعلن النبي ﷺ أن كل من دخل بيت أبي سفيان كان آمنا،[9] ودخل جيش المسلمين مكة من جهات مختلفة سلما دون قتال.

تشجيع الجنود والتعاطف معهم

لعب رفع معنويات المتفانين في خدمة الدين والأمة دورا مهما. فالنبي ﷺ كان يتعاطف مع أصحابه حتى في ساحة المعركة، فكرّم الذين جاهدوا بأنفسهم وشجع الأجيال القادمة على أن يحذوا حذوهم.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللهِ ﷺ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً فَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ قَالَ فَلَمَّا بَرَزْنَا قُلْنَا كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنْ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ فَقُلْنَا نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ فَنَتَثَبَّتُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ قَالَ فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ذَهَبْنَا قَالَ فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا نَحْنُ الْفَرَّارُونَ فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَّارُونَ (أي: العائدون إلى القتال والعاطفون) قَالَ فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ".[10]

وروى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له يوم أُحُد: "ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي". وكلما مر موزع السهام بالقرب من النبي ﷺ وهم في ساحة القتال قال له: "انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ" وكان ذلك تشجيعا لأبي طلحة رضي الله عنه الذي كان يواجه العدو بكل بسالة.[11]

وفي غزوة خيبر تبادل القائدُ اليهودي مع عامر بن الأكوع رضي الله عنه ضربات بالسيف وكان سيف عامر قصيرا، فرجع سيف عامر عليه فمات فقال الناس حَبِط عمله وأنه لم يمت شهيدا، فسمعهم سلمة بن الأكوع فتأثر بهذه الإشاعة فسأله النبي ﷺ عما يحزنه. فروى له ما يُقال عن عمه فقال النبي ﷺ وقد جمع بين إصبعيه "إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ. إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ."[12]

بُعد النظر في غزوة أُحُد

تشهد كل المعارك بصفات النبي ﷺ القيادية واستراتيجيته الناجحة وحكمته الكبيرة، فيوم أُحُد قرر أن يقاتل العدو خارج المدينة ونظم الجيش بحيث تكون المدينة وراءهم وجبل أُحُد أمامهم كدرع يقيهم. ثم رأى أن يجعل خمسين من الرماة على قمة هضبة عالية مشْرِفة على ميدان المعركة بقيادة عبد الله بن جبير للتصدي لأي خطر قادم من الممر الجبلي، ونظرا لخطورة الموقف قال لهم النبي ﷺ: "إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ". والخسارة الكبيرة التي تكبّدها المسلمون في تلك المعركة كانت نتيجة عدم طاعتهم لأمر النبي ﷺ.[13]

إن مغادرة الرماة لمواقعهم فسح المجال للعدو بالهجوم بشراسة على النبي ﷺ وأصحابه مما أدى إلى استشهاد عدد كبير من المسلمين، وعندما ظن العدو أن النبي ﷺ قُتل أخذَ أبو سفيان ينادي النبي ﷺ وأصحابه بأسمائهم الواحد تلو الآخر ليعرف إن كانوا ما زالوا أحياء فمنع النبي ﷺ أصحابه أن يجيبوه ليحميهم ولتكون لهم الريادة، فشاع خبر موت النبي ﷺ. لكن عندما بدأ المشركون يهتفون لآلهتهم فطلب منهم أن يجيبوهم فيهتفوا بوحدانية الله عز وجل.[14]

ولما عاد أبو سفيان إلى مكة أدرك أنه ليس لديهم أسرى ولا غنائم فكيف يواجهون قومهم؟ فقرر أن يرجع فيهجم على المدينة، وحين علم النبي ﷺ بمخطط أبي سفيان قرر أن يذهب في إثره. كانت حالة المسلمين يرثى لها فقد قتل سبعون وأصيب آخرون بإصابات خطيرة. بالطبع كانت مجابهة الجيش المنتصر اختبارا صعبا على المسلمين ولذلك ترددوا. فأعرب النبي ﷺ عن قراره فقال: "إني ذاهبٌ وإن لم يتبعني أحد". فلما سمعوا ذلك وقد أعيتهم وأقعدتهم إصاباتهم تحمّسوا وعرضوا أنفسهم للذهاب وراء أبي سفيان فأنزل الله آية تُثني عليهم وتعِدهم بأجر

عظيم.[15]

استراتيجية غزوة الخندق

في السنة الخامسة للهجرة حرّض أبو سفيان بمساعدة اليهود جميع القبائل العربية على الهجوم على المدينة، فقدِموا بعشرة آلاف جندي. كانت بنو خُزاعة حليفة المسلمين، فأرسلت إليهم فارسا يُعلمهم بالمؤامرة التي تُحاك ضدّهم. وبعد أن شاور النبي ﷺ أصحابه قرر وفقا لاقتراح سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق شمال المدينة للدفاع عنها. كانت تحيط المدينة من الشرق والغرب سهول صخرية ومن الجنوب بساتين النخيل وكان جبل أُحد حاجزا ضد الغزاة. كان حفر خندق على طول الجانب الشمالي للمدينة مهمة شاقة. لكنهم تمكّنوا من إنجازه بفضل فِطنة النبي ﷺ وحكمته ودعائه. ثم نَزل بنفسه في الخندق وقسمه إلى عدة أجزاء بلغ كل جزء أربعين ذراعا، ثم جعل على كل جزء عشرة جنود.[16]

وكالعادة، لم يشارك المنافقون في مهمة الحفر الشاقة وقدّموا الأعذار. أما النبي ﷺ فقد كان ليل نهار مع أصحابه يرفع من هِمَّتهم، ويحفر ويحمل التراب معهم وهو وإياهم يتضورون جوعا. فكان يشُدّ من عزيمة الأنصار والمهاجرين فيُنشد لهم أبياتا ويقرأ عليهم بعض آيات الدعاء. واستطاعوا إنهاء عمل بدا مستحيلا في غضون ستة أو تسعة أيام.[17]

بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة، وعرضه تسعة فأكثر.[18] واستُخدم التراب كجدار حماية من العدو.

وعلى الجانب الآخر، كان المشركون يحلُمون باحتلال المدينة ويعتقدون أن المهمة سهلة المنال فصُعقوا لما رأوا خندقا يمنعهم من التقدم، إذ لم يعتد العرب على هذه التكتيكات الحربية. فاضطروا أن يعسكروا خلف الخندق وخططوا أن يهجموا عبر مَضِيق في الخندق. إلا أنهم اضطروا في النهاية للانسحاب لأن خطتهم أخفقت ومؤنهم نفدت واشتد عليهم البرد وعصفت بهم ريح رملية.[19]

حماية المدينة واستراتيجية دوريات الحراسة

هدَّد المسلمين بعد الهجرة خطرٌ مستمر من قِبَل قريش مكة في الجنوب ومن قبل يهود خيبر في

الشمال. ففي بادئ الأمر، لم تكن القبائل العربية التي حول المدينة حليفة المسلمين، مما أجبر المسلمين على إقامة نظام حِراسة صارم. حتى إن الصحابة تساءلوا إن كانوا سيتمكنون يوما من النوم بسلام.

وبعد صُلح الحُدَيبية، بعث المسلمون بحملات استكشافية لجمع الأخبار وجعْل القبائل المجاورة تدرك قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم وخاصة في المناطق التي يسكنها حلفاء كفار مكة حتى يرى هؤلاء أن المسلمين يقظين فلا يجرؤوا على مهاجمتهم، وعندما استنتجت بعض تلك القبائل وجود المسلمين في المنطقة من خلال بذور التمر التي تركوها خلفهم، فضّلت أن تسالم المسلمين بدلا من محاربتهم، وهكذا أدّت استراتيجية الدفاع هذه إلى أن تُقرّر القبائل المعادية عقْد معاهدة صُلح مع المسلمين أو قبول الإسلام.

خلال رحلة استكشافية إلى نجْد أمسكت فرقة الخيّالة بثمامة بن أثال زعيم بني حنيفة المعادية، فأحضروه إلى المدينة وربطوه إلى سارية من سواري المسجد، فأتى النبي ﷺ وقال له: "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ".[20] وبعد ذلك، سمح النبي ﷺ بناءً على طلب من قريش أن تأتيهم الحنطة من اليمامة لشدة ما لقوا من منعها عنهم.

تبصر حكيم في حادثة الإفك

إن المحن تُظهر قدرات الشخص الحقيقية وأخلاقه العالية. لذا يجدر أن نذكر، إلى جانب سرد المصاعب التي واجهتها جماعة المسلمين، الاختبار الشديد الذي مر به النبي ﷺ شخصيا وأكد على حكمته وتبصره. هذا الاختبار متعلق بحادثة الإفك على زوجته عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما. كان أثر هذا الاتهام الكاذب لا يقل عند أهل المدينة عن هزة أرضية واستمر شهرا كاملا، فبينما كان المسلمون العائدون من غزوة بني المصطلق يستريحون على الطريق، ذهبت عائشة رضي الله عنها لتقضي حاجتها فضاع منها عِقدها فأخذت تبحث عنه فتأخر رجوعها إلى المخيّم، وظن رجال القافلة أنها كانت في هودجها فرفعوه ووضعوه على جَمَلها وبدأوا الرحلة، لكن صفوان رضي الله عنه -بينما كان يتفقد المكان بعد مغادرة القافلة- رأى عائشة رضي الله عنها جالسة هناك، فأدرك أن القافلة رحلت دونها بالخطأ فرافقها مباشرة ولحقا بالقافلة عند الظهر.

فأخذ عبد الله بن أُبي بن سلول بفكره المعوج يتهم عائشة رضي الله عنها بشرفها وانضم إليه بعض البسطاء في هذا الإفك، مع أن النبي ﷺ كان قادرا على معاقبتهم وهذا ما يقتضيه الأمر في تلك الظروف إلا أنه لم يغضب ولم يعاقبهم ولم ير مناسبا أن يسأل زوجته مع أن الأمر كان حساسا جدا، نصحه بعض أصحابه أن يطلّقها حفاظا على كرامته لكن النبي ﷺ لم يناقش الأمر معها أو مع أهلها كي لا يجرح مشاعرهم بل أبقى الأمر كله لنفسه، فلم تدرِ عائشة رضي الله عنها بالإفك الذي حاكوه لها، وكان النبي ﷺ ينتظر توجيها من الله.

ولأن هذا الإفك تجاوز كل حدود الأدب، كان على النبي ﷺ، رغم ثقته بطهارة عائشة رضي الله عنها وبراءتها، أن يحاول بحكمة وتبصّر تقييم الحالة بهدوء وصبر وانتظار الحل. وخلال هذه الفترة سمع من أقرب الأهل، أي من زينب رضي الله عنها ومن عليّ رضي الله عنه ومن أسامة رضي الله عنه، ثم سمع من بريرة خادمة عائشة التي دافعت عنها وبرأتها من كل سوء، وكانت فترة انتظار نزول الوحي من الله تعالى فترة قلق شديد، فقرر النبي ﷺ، آخذا بالاعتبار حاجة الوقت، أن يُعلم أصحابه المضطربين أن الإفك على عائشة رضي الله عنها إنما كان مؤامرة من عبد الله بن أُبي بن سلول وأن يطلب من المسلمين أن يكونوا حذرين جدا في هذا الأمر، فجمعهم وأخبرهم

بحقيقة ما جرى باختصار ووضوح، فقال: "يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَن يَعْذِرُنِي مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَ أَذَاهُ في أَهْلِ بَيْتي فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلَّا خَيْرًا، ولقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وما كانَ يَدْخُلُ على أَهْلِي إلَّا مَعِي، فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الأنْصَارِيُّ، فَقالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ منه، يا رَسُولَ اللهِ، إنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ". فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ: "كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِهِ". فَثَارَ الحَيَّانِ الأوْسُ وَالْخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ، قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وامتنع النبي ﷺ من اتخاذ قرار حاسم قبل أن تظهر حقيقة ما حدث. كان صحابته الأتقياء يثقون به حق الثقة أما ضعاف الإيمان فأخذوا حِذرهم، ومضى شهر كامل، ورغم قناعة النبي ﷺ بأن الاتهامات كاذبة، إلا أنه قرر خوفا من الله وحرصا على إحقاق العدل أن يعالج الموضوع، وللمرة الأولى والأخيرة قال لعائشة رضي الله عنها: "أَمَّا بَعْدُ يا عَائِشَةُ، فإنَّه قدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عليه". عندها تقول عائشة رضي الله عنها أنْ "قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً". لكن رغم صغر سنّها فقد تدربت على يد أبي بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ فكان في جوابها حكمة كبيرة، إذ قالت: "إنِّي وَاللهِ لقَدْ عَرَفْتُ أنَّكُمْ قدْ سَمِعْتُمْ بهذا حتَّى اسْتَقَرَّ في نُفُوسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ به، فإنْ قُلتُ لَكُمْ إنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي بذلكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُونَنِي وإنِّي، وَاللهِ ما أَجِدُ لي وَلَكُمْ مَثَلًا إلَّا كما قالَ أَبُو يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ المُسْتَعَانُ علَى ما تَصِفُونَ﴾." ثم نزلت آيات من سورة النور تُبرّئ عائشة رضي الله عنها.[21] وهكذا أُحبطت فتنة خطيرة وأنزل الله سبحانه وتعالى أمر جَلْد مَن اتهموها زورا.

الحكمة يوم صلح الحديبية

إن غزوات بدر وأُحد والأحزاب أضعفت أهل مكة اقتصاديا فقد خسروا تجارات وأرواح كثيرة، وخاصة تجارتهم مع الشام لكون المدينة واقعة على الطريق بين مكة الشام. فسعوا لتصحيح هذا الضعف والضغط الاقتصادي. كان النبي ﷺ قد رأى في السنة السادسة للهجرة رؤيا أنه يحج

بسلام ويطوف بالكعبة هو وأصحابه. طبعا هذه الرؤيا كانت تنبئ بالمستقبل إذ إن مشركي مكة منعوهم في تلك السنة من أداء الحج والعمرة، وإن أداء النبي ﷺ للعمرة في ذلك الحلم بينما كانت قريش تعاديه في تلك الفترة جعل النبي ﷺ يدرك أن قريشا لا تملك القدرة على قتال المسلمين ومنعهم من الطواف بالكعبة، لذا شدّ الرحال ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه وسيوفهم مغمّدة ويعني هذا عند العرب أنهم أتوا بِنيّة السلام، فأُوقفوا على الطريق لكن النبي ﷺ لم يكن يريد القتال فنزلوا في الحديبية وهي بالقرب من مكة، وهناك كتبوا معاهدة الصلح مع ممثّل عن مكة وقبِل النبي ﷺ باقتراحاته لأن هدفه كان السلام، وطلب أن يُسمح لهم بالطواف بالكعبة، وبغرور سمحت لهم قريش بالمجيء السنة التالية لأداء العمرة، وكان النبي ﷺ في الحديبية قد بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي كان له أثر كبير عند زعماء قريش سفيرا إلى مكة حتى يتفاوض مع قريش ليتمكن المسلمون من أداء العمرة تلك السنة. فطالت المفاوضات وشاع خبر قتل المشركين لعثمان رضي الله عنه.

المبايعة على الموت

كانت هذه الفترة صعبة جدا على مشاعر المسلمين. كان من الممكن أن تخرج الأمور عن السيطرة إن لم تُدر وتوجّه بشكل صحيح. فالسفير يحظى باحترام كبير وسلامته ذات أهمية عالية، فحوّلهم النبي ﷺ عن تلك المشاعر، وبايع الله على الطاعة التامة وعلى أنه جاهز لبذل كل التضحيات ووعد بأن يفدي عثمان رضي الله عنه بحياته، ولأن روحَ هذه البيعة الصدقُ والتفاني سُميت ببيعة الرضوان، والعهد بالقتال حتى الموت أرهب كفار مكة فكانت وسيلتهم الوحيدة إلى الأمان هي أن يعقدوا الصلح، ويمكن أن نرى فطنة النبي ﷺ وتبصره في الأحداث التالية: عندما بعث المشركون وفدهم بزعامة سهيل بن عمرو لعقد معاهدة الصلح قال النبي ﷺ "لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ"، ومع أن البنود لم تَبْدُ لصالح المسلمين، ورغم ما وضعوه من عراقيل بسبب غرورهم وتعنّتهم، إلا أن النبي الحكيم ﷺ وجَدَ لها حلا من أجل إتمام عقد الصلح. فمثلا قبِل أن يُكتب "باسمك اللهم" بدل "بسم الله الرحمن الرحيم"، و"محمد بن عبد الله" بدل "محمد رسول الله". كان أبو جندل وهو ابن سهيل قد فر من مكة بعد أن سجنته قريش بسبب إسلامه، فطلب المشركون أن يُسلَّم إليهم، مع أن ذلك الشرط لم يكن قد تمت الموافقة

عليه بعد. فبكى أبو جندل واستنجد بهم قائلا: "أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا! أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟"، فتفطّرت له قلوب المسلمين، لكنهم امتنعوا عن الرد طاعةً للرسول ﷺ. وبعد انتهاء عقد الصلح، أمر النبي ﷺ أن ينحروا الهدي في الحديبية، ولكن الحزن كان قد أعْيَا أصحابه فلم يحرّكوا ساكنا، فكرر النبي ﷺ أمره ثلاث مرات ولم يتحرك أحد، ويُحتمل أنهم كانوا ينتظرون منه أن يبادر هو أولا، وهذا ما نصحته به زوجته المطهرة أمُّ سلمة، بأن يخرج ولا يكلم أحدا وينحر بُدْنه ويحلق رأسه، فقام النبي ﷺ ونحر وحلق وتحلل، فتبعه أصحابه.[22]

وما حدث لاحقا أثبت أن صلح الحديبية كان دون شك انتصارا للمسلمين لأنهم أمِنوا من شر مشركي مكة وبالتالي ركّزوا على اليهود في الشمال واستطاعوا غزو خيبر. هذا كان أول فوائد الصلح. أما شرط إعادة المسلمين الفارين من مكة إلى قريش فقد شجع أبا بصير لإقامة مخيم مستقل على مسافة من المدينة حيث تجمع بعض المسلمين الهاربين من مكة وشكل ذلك خطرا على قوافل مكة المسافرة إلى الشام. وتلك كانت الفائدة الثانية للصلح. أما الفائدة الثالثة فكانت فترة السلم التي استطاع خلالها النبي ﷺ أن يتواصل مع عدة زعماء وملوك فكتب لهم يدعوهم إلى الإسلام، ودخل عدد كبير من الناس في الإسلام في تلك الفترة، أما الفائدة الرابعة والتي أدت إلى نصر عظيم فهي عندما نقضت قريش الصلح وأحست بخيانتها فبعثت أبا سفيان ليجدد الصلح فلم يجبه النبي ﷺ ثم سار إلى مكة ففتحها، وهكذا كان صلح الحديبية نصرا مبينا للمسلمين.

التبصر الرائع في التحرك المباغت للجيش

بعد أن طرد اليهود من المدينة جعلوا من خيبر الحصن الحصين لنفوذهم، فبدأوا يخططون ويهددون باجتياح المدينة، وفي مثل هذه الحالة، تقتضي الحكمة الاستراتيجية أن يستبق المسلمون مهاجمة العدو للدفاع عن أنفسهم. فلا يتمكن العدو من الإغارة على المدينة. واقتضى ذلك من الجنود أن يتحركوا خُفية حتى لا تسنح الفرصة للعدو أن يستحضر حلفاءه من بني غطفان فيعاضدوه. لقي النبي ﷺ نجاحا كبيرا في هذا التخطيط. إذ تمكن جيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل، بقيادة النبي ﷺ، من الوصول إلى المكان المقصود بعد أن قطعوا مسافة

ألف وخمسمائة ميلا في غضون ثلاث ليال دون توقف. كانت تلك الرحلة مرهقة جدا، وعندما اقتربوا من خيبر أخذ أصحاب الرسول ﷺ يصدحون بالتكبير من فرحهم. لكن ذلك كان يضر بخطة النبي ﷺ الذي أراد مباغتة العدو، فنصحهم أن يكبروا ويدعوا الله بصوت خافت فالله هو السميع وليس ببعيد عنهم.[23] وتمكنوا من المتابعة بهدوء وبينما كانوا يعسكرون في خيبر تبنى النبي مناورة أخرى اقتضت أن ينقسم الجيش إلى خمسة أقسام فينتشروا أمام الحصن فيتراءى لليهود أنهم جيش عرمرم، فلما طلع الفجر، فتح اليهود الأبواب وخرجوا يحملون فئوسهم ومجاريفهم للعمل في الحقول ففوجئوا وفزعوا لرؤية هذا الجيش الكبير على أبوابهم. إذ كان عبد الله بن أُبي زعيم المنافقين قد أخبرهم أن حفنة من الجنود فقط ستجتاح خيبر، فرجعوا أدراجهم مسرعين إلى الحصن وقد أصابهم الذهول وأخذوا يصرخون " مُحَمَّدٌ واللَّهِ، مُحَمَّدٌ والخَمِيسُ."[24] فكان تقدم الجيش المدهش بحد ذاته نصرا، ولم يجرؤ اليهود الذين كان في نيتهم مهاجمة المدينة على الخروج من حصنهم للقتال بل تحصّنوا وتترّسوا خلف أبوابهم، واستطاع النبي ﷺ أن يفتح قلاعهم الواحدة تلو الأخرى وظل اليهود يهربون حتى وصلوا إلى آخر قلعة فتجابه المسلمون مع اليهود الذين قاتلوا بشراسة فصعُب الانتصار عليهم لكن الله استجاب لدعاء النبي ﷺ، وحتى يرفع من معنويات جيشه قال لهم النبي ﷺ: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ". وفي اليوم التالي أعطى الراية لعليّ رضي الله عنه وهكذا فُتحت آخر القِلاع بقيادته.

إجراءات حكيمة يوم فتح مكة

إن استراتيجية إبقاء تحرك الجيش سريا عاد بالفائدة الكبيرة على النبي ﷺ، فكان يقول إن الحرب خدعة، واستخدم هذه الاستراتيجية يوم فتح مكة، فلم يستطع المشركون التحضير للمواجهة وبالتالي حقنت الدماء. طلب النبي ﷺ من أهل البادية أن يقضوا شهر رمضان في المدينة وأمر أهل المدينة بالتحضير للسفر دون أن يكشف لهم الوجهة التي سيقصدونها. بدا إخفاء تحرك جيش بهذا الحجم مستحيلا خاصة أن مكة تقع على بعد ثلاثمائة ميلٍ فقط، وأن جواسيس قريش وحلفاءها كانوا يراقبون المنطقة، ولذلك جعل النبي ﷺ حرّاسا على كل الطرق التي تصل بين المدينة ومكة.[25]

لم يعرف أحد من الجيش أين يتجهون. فحين أرسل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه مع امرأة رسالةً يُعلِم فيها قريشًا بتجهيز جيش مسلم كبير، وأمسك المسلمون بها وأخذوا الرسالة منها، لم يكن فيها أي تحديد للوجهة التي يقصدها الجيش، وعندما غادر الجيش المدينة خرجوا عن الطريق المعتاد للذهاب إلى مكة بل سلكوا طريقا آخر وتحركوا بسرعة حتى وصلوا مَرّ الظَهران وهو قريب من مكة، وفي سهل مر الظهران حاك النبي ﷺ بهداية من الله خطة رائعة فطلب من أصحابه أن يتفرقوا وينتشروا بين الكُثب الرملية فيُشعلوا النار، حتى أن عشرة آلاف من تلك النيران أضاءت في تلك الليلة رمال مر الظهران. فكان المشهد رهيبا.[26]

كان من المعروف عند العرب أن النار الواحدة يُشعلها عشرة أشخاص، فمع هذا العدد الكبير من النيران سيُظنّ أن عددهم عشرة أضعاف العدد الحقيقي، وعندما خرج زعماء مكة لحراسة المنطقة دهشوا بما رأوه واحتاروا لأن ما من قبيلة بهذا الحجم في المنطقة، فلم يتخيلوا أبدا أن يكون للمسلمين جيشا بهذا العدد، وفي الصباح التالي بدأ الجيش يمشي نحو مكة وأبو سفيان يشاهده من قمة هضبة، وهذا ما كان النبي ﷺ قد خطط له والغرض منه كان أن يشجعه هذا المشهد على الإسلام، ولما مر به سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه قال له بحماس: "الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ".[27] فاشتكاه أبو سفيان إلى النبي ﷺ، فقام بتعيين قائد آخر بدلا عنه، فمع أنه كان قائدا كبيرا لكنه أخطأ بحق الكعبة وجرح شعور أبي سفيان.[28]

ومَن عيّنه قائدا مكانه كان ابنه قيس بن سعد.[29] وبهذا القرار والاختيار الحكيم يكون الرسول ﷺ تفادى الخلاف القبَلي.

كسب القلوب والثأر لبلال رضي الله عنه

يوم فتح مكة، رأى النبي ﷺ ضرورة الثأر لبلال رضي الله عنه لما تعرّض له من فظائع. فقد تعرض للسب والتعذيب في شوارع مكة تلك. فأعطاه النبي ﷺ وأبا سفيان لقب الداعي إلى الأمان، فأعلن أن كل من دخل دار أبي سفيان آمن، وكل من دخل تحت لواء بلال رضي الله عنه فهو آمن. هذه اللفتة الحكيمة أنقذت حياة أعداء كانوا متعطشين للدم وقتلة وفازت بقلوبهم. وهكذا عفا النبي ﷺ عمن آذوا بلالا رضي الله عنه وواساه في الوقت نفسه.

وكان الانتصار على مكة هو في الواقع انتصار أخلاق النبي ﷺ السامية. فعندما سأل الكفار

كيف يريدون أن يعاملهم قالوا إنهم ينتظرون منه حُسن المعاملة. لكن النبي ﷺ الذي بُعث رحمة للعالمين تجاوز توقعاتهم حين قال لهم: "اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ، لَا تَثْرِيب عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِر اللَّه لَكُمْ". [30]

لقد كتب المستشرق المعروف ستانلي لين بول أن يوم انتصر محمد ﷺ على أعدائه انتصر على نفسه. إذ صفح صفحا كاملا عن قريش التي ارتكبت الاضطهادات لسنوات. [31]

والحقيقة هي أن ذلك الصفح الكامل لم يحقق له انتصارا على أعدائه فقط بل وامتلك قلوبهم، ويعترف ويليام موير أن محمدا ﷺ سريعا ما حصد ثمار هذا الصفح، وحصل ذلك حين أسلم جميع أهل موطنه الأم، وبعد بضعة أسابيع كان ألفان منهم يقاتلون إلى جانبه في غزوة حُنين. [32]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 616، طبعة بيروت. صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب غزوة بدر.

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 4، ص 10و13، طبعة بيروت.

[3] المغازي للواقدي؛ الجزء 1، ص 204، طبعة بيروت.

[4] كنز العمال؛ الجزء 13، ص 519، طبعة مصر.

[5] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 4، ص 18، طبعة بيروت. السيرة الحلبية؛ الجزء 4، ص 90، طبعة بيروت.

[6] السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 418، طبعة بيروت.

[7] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 51، طبعة بيروت.

[8] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 8، ص 6، طبعة بيروت.

[9] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد، باب فتح المكة.

[10] سنن أبو داؤد؛ كتاب الجهاد، باب فِي التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه.

[14] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 157و161، طبعة بيروت.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا وباب ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾، عمدة القاري؛ الجزء 25، ص 392، طبعة بيروت.

[16] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 691، طبعة بيروت.

[17] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 66، طبعة بيروت.

[18] التفسير المنير لوهبة بن مصطفى الزحيلي ؛ (المتوفى: 1436هـ) طبعة دار الفكر ، دمشق.

[19] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 67-68، طبعة بيروت.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث الإفك.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

[25] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 249، طبعة بيروت.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[27] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[28] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 406، طبعة بيروت.

[29] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 268، طبعة بيروت.

30 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 94، طبعة بيروت.

31 Selection From the Kuran, Stanley Lane Poole; p 67. London 1879

32 Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 42. New edition 1877, London

رسول الله ﷺ القاضي العظيم

أوتي نبينا الكريم محمد ﷺ شريعة كاملة دائمة وهي الأخيرة، وقد أوتي الملك وكان عليه أن يطبق الشريعة الإلهية.

لقد كان القائدَ الذي أُمر المسلمون بطاعته منذ أن كُلِّف بالنبوة، لتقع على عاتقه مسؤولية عظيمة ألا وهي الحكم والفصل بين الناس. إن قانون العدل المطلق المفصل الذي أُعطيْه، أي القرآن الكريم، أصبح أساس السلام العالمي. كانت بداية ذلك التقدير الإلهي من جزيرة العرب التي كان القانون السائد فيها الظلم والوحشية والعدوان بكافة ألوانه. كان رسول الله ﷺ هو ذلك القاضي الذي قدم الأسوة للعالم بإنشائه مجتمعا عادلا على أرض الطغيان والقمع تلك. عندما بُعث كانت الطبقة المستضعفة من المجتمع ترضخ تحت مظالم ساحقة؛ فحرر النساء من الظلم المطبق عليهن وحرر العبيد من عبوديتهم، وهدم الفوارق المجتمعية وأقام عدلا اجتماعيا واقتصاديا. كانت تلك المهمة الأولية من النبوة، ولذلك أُمر بما يلي: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (الشورى: 16)

كان ذلك الأمر الإلهي أساس النظام القضائي الإسلامي الذي جعل لزاما على المؤمنين أن يرضوا بأحكام رسول الله ﷺ كأحكام قاطعة. وهذا ما ورد في الآية التالية:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 66)

وكان التعليم الرباني الواجب تطبيقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: 91)

التعليم الإسلامي بالعدل

لقد أعطانا القرآن الكريم تعليما واضحا فيما يتلعق بالعدل في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والدينية، نذكر هنا بعض النقاط فقط من ذلك الموضوع الواسع:

1. ليس من العدل الشرك بالله وهو العدل دينا.

2. يتطلب العدل الاجتماعي الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الأنعام: 152)، أو الإحسان إليهما كما أحسنوا إليك: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: 61)

3. العدل في أداء حقوق الأطفال: فالأبوان مسؤولان عنهم حتى يبلغوا.

4. من العدل في الحياة العائلية أن يمتنع الزوجان عن الفواحش: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: 152)

5. من العدل أن تُقِر كل نفس منفوسة على هذه الأرض بحق حياة غيرها وألا تقتل غيرها دون حق.

6. يتطلب العدل الاجتماعي حماية الطبقات المستضعفة وحفظ أموال اليتامى، وأن يوفي المؤمنون الكيل والميزان بالقسط: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: 153)

7. ويأمر القرآن الكريم بما يلي: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ (الأنعام: 153)

8. وأُمر بالعدل في كتابة المواثيق. (البقرة: 283)

9. يجب أن يعامل العدو بالعدل أيضا. (المائدة: 9)

10. أُمر الحُكام بالعدل في معاملة رعيتهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: 59).

11. الالتزام بالعدل أساسي في المحافظة على السلم العالمي، وعلى كافة الأمم الضغط على الطرف المعتدي بهدف تحقيق العدل في العالم.

فتعاليم النبي ﷺ الطاهرة والفريدة في العدل قدمت للعالم المبادئ الأساسية لإقامته. كان قلبه ﷺ ممتلئا عدلا، وقد ثبّت الله قلبه على مبادئ العدل والإنصاف منذ طفولته.

العدل الفطري

تذكر حليمة السعدية مرضعُ رسول الله ﷺ أنها لما أخذته ووضعته في حجرها جاءها إدرار الحليب بكثرة إلا أنه ما كان محمد ﷺ يرضع إلا من الثدي الأيمن ويأبى الرضاعة من الأيسر بينما كان ابنها ورضيع آخر يرضعان من الاثنين.[1]

وإن كان سلوكه في هذا العمر الصغير ليس عن وعي منه، إلا أننا نستطيع أن ندرك أن خالقا قادرا قويا كان يهديه وهو ذاته الذي حرّم المراضع على موسى عليه السلام عندما التقطته امرأة فرعون من اليم وجعله لا يرضع إلا من أمه.

وعن السائب بن عبد الله رضي الله عنه أن محمدا ﷺ كان فيمن أعاد بناء الكعبة في الجاهلية، وعندما بلغوا موضع الحجر الأسود قال بطن من قريش نحن نضعه، وقال آخرون نحن نضعه، فقالوا اجعلوا بينكم حكما، قالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي ﷺ، فقالوا أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ في موضعه.[2]

آداب القضاء

عن أبي بكرةَ رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يقضينّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان".[3]

وعن علي رضي الله عنه قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ تُرْسِلُنِي وَأَنَا حَدِيثُ السِّنِّ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقَضَاءِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ. قَالَ: فَمَا زِلْتُ قَاضِيًا، أَوْ مَا شَكَكْتُ فِي قَضَاءٍ بَعْدُ.[4]

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها."[5]

العدل بين الأولاد

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سألتْ أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضى حتى تُشهد النبي ﷺ، فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي ﷺ فقال: إن أمه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال ﷺ: "ألك ولد سواه؟" قال: نعم. قال فأراه قال: "لا تشهدني شهادة جور".[6] وبيّن له أن من العدل إذا وهب أحد أطفاله أن يهب الآخرين مثله.

العدل مع الأسرى

كان العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ من بين أسرى أهل مكة في معركة بدر، وكان عمر رضي الله عنه

المسؤول عنهم، فأوثقهم بمن فيهم العباس بالقيود، وقد احتُفظ بالأسرى قرب مسجد رسول الله ﷺ، وكان العباس يئنُّ من الألم، فأقلق ذلك النبي ﷺ وحال دون نومه، وعندما علم الأنصار بذلك حلوا قيد العباس، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك طلب أن تُحل قيود الأسرى جميعا. واقترح الأنصار لِما رأوا من حب النبي ﷺ للعباس رضي الله عنه أن يُحرَّر دون فدية فأبى رسول الله ﷺ وقال للعباس: افتدِ نفسك وابنيْ أخيك نوفل وعقيل وحليفَك عتبة بن عمرو. قال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنت مسلما، فقال رسول الله: الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا.[7]

القضاء بالعدل في يهود المدينة

كان بنو النضير يُعَدّون أشرف من بني قريظة، فكان إذا قَتل رجل من قريظة رجلا من النضير قُتل به، وإذا قَتل رجل من النضير رجلا من قريظة فودي بمئة وسق (ستون صاعًا) من تمر. فلما بُعث النبي ﷺ قَتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا ادفعوه إلينا نقتله، فأبوا. فاحتكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (المائدة: 43) فقضى النبي ﷺ أن القسط: النفسُ بالنفس.[8]

ذات مرة، قَتل يهودي جارية بحجر وسلب حليّها الفضية فجيء بها إلى النبي ﷺ وبها رمق فقال:"أقتلك فلان؟" فأشارت برأسها أن لا ثم قال الثانية فأشارت برأسها أن لا ثم سألها الثالثة فأشارت برأسها أن نعم. فقتله النبي ﷺ بحجرين.[9]

الحُكم لصالح يهودي

عن عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي رضي الله عنه أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال: يا محمد إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها. فقال أعطِه حقه. قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها. قال: أعطِه حقه. قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تُغْنِمنا شيئا فأرجع فأقضيه. قال: أعطِه حقه. قال: وكان النبي ﷺ إذا قال ثلاثا لم يُراجَع. فخرج به ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متّزر ببرد، فنزع العمامة عن رأسه فاتّزرَ بها ونزعَ البردة، فقال: اشترِ مني هذه البردة، فباعها منه

بأربعة الدراهم، فمرت عجوز فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ. فأخبرها، فقالت: ها دونك هذا ببرد عليها طرحتْه عليه.[10] فأتى الحكم بالعدل بالخير على الطرفين.

ذات مرة كان يهودي يعرض سلعته فأعطي بها شيئا كرهه فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدا، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: "لم لطمت وجهه". فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رُئي في وجهه ثم قال: "لا تفضلوا بين أنبياء الله".[11]

لا شك أن محمدا ﷺ أفضل الأنبياء جميعا ولكنه بتواضعه هذا حال دون أن تحدث مشاحنات تؤدي إلى اضطراب أمن المجتمع.

القضاء والقصاص

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه تقاضى عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه دينا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف سِجْفَ (ستْرَ) حجرتِه فنادى: "يا كعب!". قال: لبيك يا رسول الله. قال: "ضَعْ مِن دينك هذا"، وأومأ إليه أي الشطر. قال: لقد فعلت يا رسول الله. فقال لعبد الله: "قُمْ فاقضِه".[12]

كان أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه رجلا من الأنصار فيه مِزاح، وبينما هو يحدث القوم ويضحكهم طعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود. ولما كان أسيد يعلم عدل النبي ﷺ طلب أن يمكّنه من القصاص من نفسه، فوافق رسول الله ﷺ وقال له أن يقتص منه، ولكن أسيدا قال: إن عليك قميصا وليس عليَّ قميص. فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه أُسيد وجعل يقبل كَشْحه (أي جنبه) وقال: إنما أردت هذا يا رسول الله.[13]

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ شَيْئًا أَقْبَلَ رَجُلٌ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُرْجُونٍ كَانَ مَعَهُ فَجُرِحَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعَالَ فَاسْتَقِدْ (أي اقتص). قَالَ قَدْ عَفَوْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.[14]

لما نزلت سورة النصر على رسول الله ﷺ قال لجبريل: يا جبريل! نفسي قد نُعيت. فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن ينادي بالصلاة جامعة. فاجتمع المهاجرون والأنصار إلى مسجده ﷺ، فصلى

بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله ﷻ وأثنى عليه ثم خطب خطبة وجلت منها القلوب وبكت منها العيون ثم قال: "معاشر المسلمين أناشدكم بالله وبحقي عليكم من كانت له قِبَلي مظلمة فليقم فليقتص مني". فلم يقم إليه أحد، فناشدهم الثانية فلم يقم إليه أحد، فناشدهم الثالثة: "معاشر المسلمين أنشدكم بالله وبحقي عليكم من كانت له قِبَلي مظلمة فليقم فليقتص مني قبل القصاص في القيامة". فقام من بين المسلمين شيخ كبير يقال له: عكاشة فتخطى المسلمين حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: فداك أبي وأمي لولا أنك نشدتنا بالله مرة بعد أخرى ما كنتُ بالذي أتقدم على شيء من هذا. كنت معك في غزاة فلما فتح الله ﷻ علينا ونصر نبيه ﷺ وكنا في الانصراف، حاذت ناقتي ناقتك فنزلت عن الناقة ودنوت منك لأقبل فخذك فرفعتَ القضيب فضربت خاصرتي، ولا أدري أكان عمدا منك أم أردت ضرب الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: "أعيذك بجلال الله أن يتعمدك رسول الله ﷺ بالضرب. يا بلال انطلق إلى بيت فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق". فخرج بلال من المسجد ويده على أم رأسه وهو ينادي: هذا رسول الله ﷺ يعطي القصاص من نفسه. فقرع الباب على فاطمة فقال: يا بنت رسول الله ﷺ ناوليني القضيب الممشوق. فقالت له فاطمة: يا بلال وما يصنع أبي بالقضيب وليس هذا يوم حج ولا يوم غزاة؟ فقال: يا فاطمة ما أغفلك عما فيه أبوك، رسول الله ﷺ يودع الناس ويفارق الدنيا ويعطي القصاص من نفسه. فرجع بلال إلى المسجد ودفع القضيب إلى النبي ﷺ ودفع رسول الله ﷺ القضيب إلى عكاشة. فلما نظر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى ذلك قاما وقالا: يا عكاشة هذا نحن بين يديك فاقتص منا ولا تقتص من رسول الله ﷺ. فقال لهما رسول الله ﷺ: "امض يا أبا بكر، وأنت يا عمر فامض؛ فقد عرف الله مكانكما ومقامكما". فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم الحسن والحسين وطالبوا عكاشة أن يقتص منهم بدل النبي ﷺ ولكن رسول الله ﷺ أقعدهم أيضا، ثم قال: "يا عكاشة اضرب إن كنت ضاربا". قال: يا رسول الله ضربتني وأنا حاسر عن بطني. فكشف عن بطنه ﷺ وصاح المسلمون بالبكاء وقالوا: أترى عكاشة ضارب رسول الله ﷺ؟ فلما نظر عكاشة إلى بطن رسول الله ﷺ لم يملك أن أكب عليه فقبل بطنه وهو يقول: فداك أبي وأمي ومن تطيب نفسه أن يقتص منك؟ فقال له النبي ﷺ: "إما أن تضرب وإما أن تعفو". قال: قد عفوت عنك يا رسول الله رجاء أن يعفو

الله عني في يوم القيامة. فقال النبي ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رفيقي في الجنة فلينظر إلى هذا الشيخ". فقام المسلمون فجعلوا يقبلون ما بين عيني عكاشة ويقولون: طوباك طوباك، نلت درجات العلا ومرافقة النبي ﷺ.[15]

وحتى بعد أن ناشد المسلمين بالقصاص منه إن كانت لديهم مظلمة قِبَلَه، كان رسول الله ﷺ يدعو: "اللهم فإنما أنا بشر، فأيما مسلم لعنتُه أو آذيتُه فاجعلْها له زكاةً وقُربةً."

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهم إني أتخذ عندك عهدا لا تُخْلِفْنيه؛ إنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته أو شتمته –أو قال: لعنته، أو جلدته– فاجعلْها له صلاة وزكاةً وقربة."[16]

حرمة بيت الله وإقامة العدل

لقد أعاد رسول الله ﷺ الحرمة إلى بيت الله عند فتح مكة وكذلك توقير أوامر الله تبارك وتعالى، وكان ذلك أحد أدوار نبوته المهمة. فلما كان الغد من يوم الفتح قتلت خزاعة رجلا من بني ليث في مكة بقتيل منهم قتلوه في الجاهلية، فأُخبر رسول الله ﷺ فغضب وقام في الناس خطيبا فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، لَمْ تَحْلِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَاتَلَ بِهَا فَقُولُوا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ وَلَمْ يُحْلِلْهَا لَكُمْ. يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ وَارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ."[17]

بعد إقامة الحكم الإسلامي قدم رسول الله ﷺ الأسوة في الالتزام بأعلى درجات العدل؛ فعندما أُتي بمسلم قتل معاهدا من أهل الذمة، فقدمه رسول الله ﷺ، فضُرب عنقه وقال: "أنا أولى من أوفى بذمته".[18]

وسرقت امرأة اسمها فاطمة المخزومية في غزوة الفتح، ولما كانت هذه المرأة من قبيلة شريفة فزع قومها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه يُشفعونه لمعزّته عند رسول الله ﷺ. فلما كلمه أسامة فيها تلون

وجه رسول الله ﷺ وقال: "أتكلمني في حد من حدود الله؟". قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: "أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.[19]

كان رسول الله ﷺ يقول: "لَا يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَبِيهِ وَلَا بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ". وعندما كان يكلم رجلا وابنه الصغير قال له: "أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه"، ثم قرأ الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.[20]

العدل بين الزوجات

عامل النبي ﷺ زوجاته بعدل مطلق ومساواة؛ وذكرت عائشة رضي الله عنها مسلكه في ذلك فقالت بأنه ﷺ كان: لَا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا.[21]

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقصعة فيها طعام فضربت بيدها فكسرت القصعة فضمها وجعل فيها الطعام وقال: "كلوا". وحبس الرسول والقصعة حتى فرغوا فدفع القصعة الصحيحة وحبس المكسورة.[22]

وهناك رواية أخرى عن حادث مشابه روتها عائشة رضي الله عنها فقالت: مَا رَأَيْتُ صَانِعًا طَعَامًا مِثْلَ صَفِيَّةَ صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَعَامًا فَبَعَثَتْ بِهِ، فَأَخَذَنِي أَفْكَلٌ فَكَسَرْتُ الإِنَاءَ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَفَّارَةُ مَا صَنَعْتُ؟ قَالَ: إِنَاءٌ مِثْلُ إِنَاءٍ وَطَعَامٌ مِثْلُ طَعَامٍ.[23] أي لما رأت حسن طعام صفية أخذتها رعدة من غيرتها، فسقط الإناء فكُسِر.

وروى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أرسل إناءً صحيحا عوضا عن المكسور من بيت التي كَسرته وأمسك في بيتها الإناء المكسور.[24]

ما كان رسول الله ﷺ منحازا لأقاربه أو أفراد أسرته فيما يتعلق بالأحكام والإنصاف؛ ففي حادثة الإفك مثلا، أشيعت اتهامات باطلة ضد زوجه عائشة رضي الله عنها، ومع كونه على

ثقة مطلقة بعفتها إلا أنه نصح لها قائلا: "أما بعد يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه."[25]

كان رسول الله ﷺ يقْسم بين زوجاته فيعدل ومع ذلك فإنه كان يدعو قائلا: "اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ."، يَعْنِي الْقَلْبَ.[26]

العدل بين العامة

عن أَنَسٍ ﷺ أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الْأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا الْقِصَاصَ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ يَا رَسُولَ اللهِ أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ. فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ.[27]

فمع أن رسول الله ﷺ كان على علاقة خاصة بهذه العائلة الأنصارية إلا أنه التزم مبدأ العدل ورأى أن القصاص هنا هو العدل.

وكان رسول الله ﷺ يحكم بين أصحابه بالعدل التام ولكنه كان ينصحهم أيضا قائلا: "إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها."[28]

أحداث مدهشة من الإحسان والعدل بعد معركة حنين

في طريق العودة من حنين وزع رسول الله ﷺ الغنائم، فأجزل العطاء لبعض زعماء قريش لتأليف قلوبهم وكانوا حديثي الإسلام، فاعترض رجل أن تلك القسمة لم يُراع فيها العدل، وعندما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: "فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر."[29]

وذُكر في رواية أخرى أنه ﷺ قال: "أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟"[30]

والواقع أن عطاءه لهؤلاء الزعماء ما كان إلا من نصيبه هو من الخُمس، وقد أصبح ذلك سببا في تقريبهم للإسلام ودخول قبائلهم أيضا في الإسلام. فقد كان رسول الله ﷺ هو المالك الوحيد لهذه الخيرات التي وزعها كما رآه مناسبا وشرح ذلك بقوله: "إني أعطي قوما أخاف ظَلْعَهم (أي اعوجاجهم) وجزعهم، وأَكِل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء."[31]

وفي مناسبة أخرى قال رسول الله ﷺ ملقيا المزيد من الضوء على هذه النقطة: "إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يُكبه الله في النار."[32]

جيء رسولُ الله ﷺ بسبي فطلبت فاطمة وعلي رضي الله عنهما أن يمنحهما خادما من هذا السبي يعينهما في شؤون المنزل فقال: "والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم."[33]

وبذلك فضّل رسول الله ﷺ أصحابه الفقراء على ابنته وصهره مظهرا مثالا رائعا في العدل.

إذن، قد وضع النبي ﷺ أسس إقامة العدل المطلق.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 193، طبعة بيروت.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 425، طبعة القاهرة.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الاحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان.

[4] سنن أبو داؤد؛ كتاب الأقضية، باب كَيْفَ الْقَضَاءُ.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد.

[7] عمدة القاري؛ الجزء 20، ص 1-3، طبعة بيروت.

[8] سنن أبو داؤد؛ كتاب الديات، باب النَّفْسِ بِالنَّفْسِ.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الديات، باب من أقاد بالحجر.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 423، طبعة القاهرة.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الانبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

[12] صحيح البخاري؛ أبواب المساجد، باب التقاضي والملازمة في المسجد.

[13] سنن أبو داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي قُبْلَةِ الْجَسَدِ.

[14] سنن أبو داؤد؛ كتاب الديات، باب الْقَوَدِ مِنَ الضَّرْبَةِ وَقَصِّ الأَمِيرِ مِنْ نَفْسِهِ.

[15] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 598، طبعة بيروت.

[16] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 390، طبعة القاهرة.

[17] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 32، طبعة القاهرة.

[18] نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية؛ الجزء 4، ص 336، بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب من شهد الفتح.

[20] سنن أبو داؤد؛ كتاب الديات، باب لَا يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ أَوْ أَبِيهِ.

[21] سنن أبو داؤد؛ كتاب النكاح، باب فِي الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب المظالم، باب إذا كسر قصعة أو شيئا لغيره.

[23] سنن أبو داؤد؛ كتاب الاجارة، باب فِيمَنْ أَفْسَدَ شَيْئًا يَغْرَمُ مِثْلَهُ.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب الغيرة.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث الإفك.

[26] سنن أبو داؤد؛ كتاب النكاح، باب فِي الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ.

[27] صحيح البخاري؛ كتاب الصلح، باب الصلح في الدية.

[28] صحيح البخاري؛ كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه.

29 صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.

30 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع.

31 صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.

32 صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف.

33 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 106، طبعة القاهرة.

حبُّ النبي ﷺ لأطفاله ولأطفال الآخرين

كُلّف الرسول ﷺ بالنبوة في زمن كانت فيه حقوق الإنسان مسحوقة، حيث أنكر الآباء حقوق الأطفال بمن فيهم أطفالهم، فقُتلت أجنةٌ خوفا من الفقر وسادتْ في بعض القبائل عادة دفْن المولودات وهنَّ على قيد الحياة، ولقد جاء الرسول ﷺ فأعطى الأطفال حقهم في العيش بكرامة، فقد قال: "أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ".[1]

وبالمثل قال: "مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ".[2]

كانت تعاليم الرسول ﷺ بخصوص تربية الأطفال مليئة بالحكمة. فقد أمر بأن يؤذَّن ويكبَّر في أُذن الوليد، والحكمة في ذلك أن يسمع الطفل اسم الله ورسوله منذ ولادته. وأمر كذلك أتباعه بأن يطلبوا من طفلهم البالغ سبع سنوات أن يصلّي، وسمح بفترة ثلاث سنوات للنصح والإقناع، ومن بعدها أمر بالتالي: "وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا".[3]

لم يعاقب الرسول ﷺ قط طفلا كان يدربه، بل درّبه دائما بمحبة ودعا له كثيرا، وهكذا دعا لحفيديه اللذين تعلّما على يده: "اللَّهُمَّ أَحِبَّهُمَا فَإِنِّي أُحِبُّهُمَا".[4]

الحب الأبوي الحقيقي هو أن نُحبّ كل طفل كما نحب أولادنا. ذات مرة شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له: "إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ".[5]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِأَوَّلِ الثَّمَرِ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَفِي ثِمَارِنَا وَفِي مُدِّنَا وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنْ الْوِلْدَانِ.[6]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُفُّ عَبْدَ اللهِ وَعُبَيْدَ اللهِ وَكَثِيرًا مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا قَالَ فَيَسْتَبِقُونَ إِلَيْهِ فَيَقَعُونَ عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ فَيُقَبِّلُهُمْ وَيَلْزَمُهُمْ".[7]

كان النبي ﷺ يعي مدى حب الأم لطفلها حتى أنه قال: "مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وذات مرة قدِم أبو أسيد بأسرى من البحرين فصفّوا فرأى النبي ﷺ امرأة بينهم تبكي. وعندما استفسر عن السبب، أخبرته أن طفلها الصغير قد بِيع في بني

عبس. فأمر النبي ﷺ أبا أسيد أن يذهب ويستعيد الطفل، ففعل.[8]

ويروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كلّما أُتيَ بأسرى من مكان ما، جعل النبي ﷺ أفراد العائلة الواحدة في بيت واحد حتى لا يفرّق بين الأطفال والأبوين.[9]

اعتاد النبي ﷺ وفقا للتعاليم القرآنية أن يدعو للأطفال ليكونوا قرّة أعيُنٍ لوالديهم ودرّبهم بكل حب، وشهد أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لم ير أحدا أكثر من الرسول ﷺ حبا وحنانا تجاه الأطفال.[10]

ذات مرة قبَّل النبي ﷺ أطفاله بحنان وأعرابي جالس فقال: "إِنَّ لِي عَشَرَةً مِن الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنهُمْ أَحَدًا"، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النبي ﷺ ثُمَّ قَالَ: "أوَ أَمْلِكُ لك أَنْ نزَع اللهُ مِن قلبِك الرَّحمَةَ ".[11]

وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ: "مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ". كان يحب الأطفال لدرجة أنه في بعض الأحيان كان يقصُر في الصلاة فقد قال: "إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ".[12]

ذات مرة أعطى أحدهم هدية إلى ابنه فأبَتْ زوجتُه إلا أن يُشهد النبي ﷺ فذهب الرجل إليه فسأله النبي ﷺ: "أَعطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِك مِثْلَ هَذَا؟" قال: لَا. فقَالَ النبي ﷺ: "اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ".[13]

وهكذا أمر أتباعه أن يعاملوا جميع أولادهم معاملة عادلة فلا يفرّقوا بينهم. وكان مثالا حسنا في تربية الأطفال. سنذكر هنا بعض الأمثلة.

قال أَبو قَتَادَةَ رضي الله عنه: "بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ جُلُوسٌ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ وَأُمُّهَا زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِي صَبِيَّةٌ يَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ وَهِيَ عَلَى عَاتِقِهِ يَضَعُهَا إِذَا رَكَعَ وَيُعِيدُهَا إِذَا قَامَ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهَا".[14]

مِن بين أطفال النبي ﷺ بنات خديجة رضي الله عنها الأربع هنَّ اللّواتي عِشْنَ أطول مُدّة، وهنَّ بالترتيب: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء رضي الله عنهن، كما كان لخديجة رضي الله عنها ابنان هما القاسم وعبد الله الذي لقّب بالطاهر والطيب وقيل المطيب والمطهر. كان النبي ﷺ يُكنّى بأبي القاسم نسبة إلى ابنه الأكبر. أنجبت مارية القبطية إبراهيم الذي توفي في السنة التاسعة للهجرة عن عمر يناهز ستة عشر شهرا. كان النبي ﷺ يعامل جميع أبنائه بمحبة ومودة

شديدتين، وقام بواجبه من حيث التنشئة والتربية فدرّبهم أحسن تدريب، ولهذا قَبِلتْ جميع بناته الإسلام منذ البداية مع والدتهنّ خديجة رضي الله عنها.[15]

حُسن معاملة زينب رضي الله عنها

تزوجت زينب رضي الله عنها قبل نبوة الرسول ﷺ من ابن شقيق أمها خديجة رضي الله عنها أبي العاص بن الربيع، وخديجة رضي الله عنها من اقترحت هذا الزواج، فلم تتمكن زينب من الهجرة إلى المدينة، وشارك زوجها أبو العاص في معركة بدر مع المشركين وأُسر، فبعثت زينب رضي الله عنها القلادة التي أهدتها إياها خديجة رضي الله عنها في زفافها فدية لزوجها، وعندما رأى النبي ﷺ القلادة أوشك أن يبكي، ونزولا عند رغبته أُطلق سراح أبي العاص دون فدية بشرط أن يَسمح لزينب رضي الله عنها التي أسلمت بالهجرة إلى المدينة.[16]

ونتيجة لهذه المعاملة الطيبة، وفى أبو العاص بوعده وسمح لزينب بالهجرة إلى المدينة. عندما علم المشركون في مكة بذلك، لحقوا بها وهاجم هبار بن الأسود بعيرها فسقطت زينب رضي الله عنها من على ظهره فسقط جنينها.[17]

قلِقَ النبي ﷺ على ابنته بعد إسلامها بسبب ما عانته من قمع وفقر، وباءت جهود زوجها لإرسالها إلى المدينة إيفاء بوعده بالفشل، ولتفادي المزيد من الألم أرسل النبي زيدا رضي الله عنه إلى مكة ليصطحب زينب إلى المدينة وأعطاه خاتمه وطلب منه أن يعطيها إياه، وبعث زيد الخاتم إلى زينب وأبي العاص عن طريق راعي غنمهما، وفي الليلة نفسها غادرت زينب رضي الله عنها برفقة زيد رضي الله عنه إلى المدينة وحين وصلت قال النبي ﷺ: "هِيَ أَفْضَل بَنَاتِي أُصِيبَتْ فِيَّ".[18]

وأثنى النبي ﷺ على صهره أبي العاص لأنه صدَقَه ووفى بوعده وأرسل زينب رضي الله عنها إلى المدينة لتكون معه.[19]

ذات مرة هجمت سريّة من سرايا المسلمين على قافلة تجارية تابعة لأبي العاص وهي عائدة من بلاد الشام وصادرت بضائعها، فأتى أبو العاص إلى المدينة يستجير زينب، ومع أن زينب انفصلت عن زوجها المشرك، إلا أنها أجارته مقابل سلوكه الحسن، ومن باب القيام بعمل إنساني. فالنبي ﷺ الذي لم يرفض أي حماية قدمتها امرأة مسلمة قبِل حماية زينب رضي الله عنها وأعاد جميع البضائع إلى أبي العاص، وكانت نتيجة هذه الخدمة أن استطاع أبو العاص

إعادة الأمانات التي كان يدين بها لقريش، وأعلن إسلامه، ثم عاد إلى المدينة.[20]

وردَّ النبي ﷺ زينب رضي الله عنها على أبي العاص بالنكاح الأول بعد أن أسلم وبعد انفصال دام ست سنوات.[21]

توفيت زينب رضي الله عنها في السنة الثامنة للهجرة، وأعطى النبي ﷺ بنفسه جميع التعليمات بخصوص غسلها والجنازة كما روت أم عطية: "اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَاجْعَلْنَ فِي الْآخِرَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي". ولما فرغنَ من غسلها أعلمنَه فأعطاهنَّ إزاره وطلب منهنَّ تكفينها فيه. وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ طلب أن يجعلنَ شعرها ثلاث ضفائر.[22]

وأن يبدأنَ غسيلها بميامنها ومواضع الوضوء منها.[23]

ونزل النبي ﷺ في قبرها وهو مهموم محزون، فلما خرج سُرِّي عنه وقال: "كنتُ ذكرت زينب وضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفّف عنها ضِيق القبر وغمّه، ففعل وهوّن عليها".[24] ووقت دفن زينب رضي الله عنها، قال النبي ﷺ: "الْحَقِي بِسَلَفِنَا الصَّالِحِ الْخَيْرِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ" فَبَكَتْ النِّسَاءُ فَجَعَلَ عُمَرُ يَضْرِبُهُنَّ بِسَوْطِهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِهِ وَقَالَ: "مَهْلًا يَا عُمَرُ"، ثُمَّ قَالَ: "ابْكِينَ وَإِيَّاكُنَّ وَنَعِيقَ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ فَمِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنَ الرَّحْمَةِ وَمَا كَانَ مِنَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ فَمِنْ الشَّيْطَانِ".[25]

اللّطف برُقيّة رضي الله عنها

زوّج النبي ﷺ ابنته رقية رضي الله عنها لصاحبه العزيز عثمان بن عفان رضي الله عنه. ونصحها بأن تعتني به كثيرا لأنه أشبه أصحابه به خُلقا. وذات مرة زار ابنته فرآها تغسل رأس عثمان رضي الله عنه.[26]

هاجرت رقية رضي الله عنها إلى الحبشة مع عثمان رضي الله عنه، ولم تصل النبي ﷺ أخبارهما فقلق وراح يسأل القادمين من الحبشة عن أي خبر يخصّ ابنته وصهره، فأخبرته امرأة من قريش أنها رأتهما على ظهر بغل، فدعا لهما النبي ﷺ بالسلامة.[27]

ويوم بدر، مرضت رقية رضي الله عنها فقال النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه أن يبقى في المدينة لرعايتها، وبعد الانتصار أعطاه نصيبه من الغنائم.[28]

وكان للنبي ﷺ خادمة تُدعى أم عياش كانت تساعده في الوضوء وبعض حاجاته. فأعطاها

لرقية وقت زفافها حتى تساعدها في الأعمال المنزلية.[29]

توفيت رقية رضي الله عنها في السنة الثانية للهجرة، وحزن النبي ﷺ كثيرا. روى أنس رضي الله عنه أنه رأى النبي ﷺ جالسا على قبرها وعيناه تدمعان.[30]

أتى النبي ﷺ وابنته فاطمة رضي الله عنها قبر رقية رضي الله عنها. فجلست فاطمة على شفير القبر بجانب أبيها وبكت فواساها ومسح دموعها بثوبه.[31]

حبُّ أم كلثوم رضي الله عنها

بعد الهجرة إلى المدينة، أعطى النبي ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع رضي الله عنهما جملين وخمسمائة درهم لإحضار ابنته أم كلثوم رضي الله عنها من مكة.[32]

عند وفاة ابنته رقية، زوّج النبي ﷺ ابنته أم كلثوم من عثمان رضي الله عنه فطلب من خادمته أم أيمن أن تهيئ ابنته وتزفها إلى عثمان وتضرب بالدُّف، ففعلت. فجاءها النبي ﷺ بعد ثلاثة أيام فقال: "يَا بُنَيَّةُ، كَيْفَ وَجَدْتِ بَعْلَكِ؟"، قالت: "خَيْرَ بَعْلٍ". فقال: "أما إنه أشبه الناس بجدّك إبراهيم وأبيك محمد صلى الله عليهما".[33]

توفيت أم كلثوم رضي الله عنها في السنة التاسعة للهجرة. وأمّ النبي ﷺ جنازتها، وجلس بجانب القبر ودفنت في حضوره، وقد أشرف بنفسه على الجنازة وترتيبات الدفن.

تقول ليلى الثقفية رضي الله عنها: "كُنْتُ فِيمَنْ غَسَّلَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهَا فَكَانَ أَوَّلُ مَا أَعْطَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحِقَاءَ ثُمَّ الدِّرْعَ ثُمَّ الْخِمَارَ ثُمَّ الْمِلْحَفَةَ ثُمَّ أُدْرِجَتْ بَعْدُ فِي الثَّوْبِ الْآخَرِ"، والنبي ﷺ عند الباب يناولهنَّ الكفن ثوبا ثوبا.

ويقول أبو أمامة لما وُضعت أم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ في القبر تلا هذه الآية:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: 56).

فَلَمَّا بَنَى عَلَيْهَا لَحْدَهَا طَفِقَ يَطْرَحُ لَهُمْ الْجَبُوبَ وَيَقُولُ: "سُدُّوا خِلَالَ اللَّبِنِ"، ثُمَّ قَالَ: "أَمَا إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْحَيِّ".[34]

حبٌّ ومودة لفاطمة رضي الله عنها

تعامل النبي ﷺ مع ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها بمحبة وانعكس تدريبه لها بحب على

شخصيتها.

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهَا. كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا".[35]

كان النبي ﷺ يقول: "فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي".[36] روت عائشة رضي الله عنها أنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ اشْتَكَتْ ما تَلْقَى مِنَ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بسَبْيٍ، فأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَلَمْ تُوَافِقْهُ، فَذَكَرَتْ لِعَائِشَةَ، فَجَاءَ النبيُّ ﷺ، فَذَكَرَتْ ذلكَ عَائِشَةُ له، فذهب النبي ﷺ إلى فاطمة وعليّ رضي الله عنهما في البرد وكانت فاطمة رضي الله عنها تستعدّ للنوم فجلس بالقرب منها فشعرتْ ببرد قدميه فأخبرها أنه قد وزّع الخدّام على المحتاجين وليُعزّيها وزوجها قال: "أَلَا أَدُلُّكُما على خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ، إذَا أَخَذْتُما مَضَاجِعَكُما فَكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وثَلَاثِينَ، واحْمَدَا ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، وسَبِّحَا ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، فإنَّ ذلكَ خَيْرٌ لَكُما مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ."[37]

حبٌّ حقيقي للأطفال وحُسن تدريبهم

اهتمّ النبي ﷺ بتدريب أولاده اهتماما كبيرا. فحين كان يجد عليّا وفاطمة نائمين وقت التهجد أيقظهما وسألهما: "ألا تُصلّيان؟". وذات ليلة قالَ عَلِيٌّ: "يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّما أنْفُسُنَا بيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أنْ يَبْعَثَنَا بعَثَنَا"، ثم سَمِعَه وهو مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ ويقولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: 55).[38]

تذكُر الأحاديث أن النبي ﷺ كلّما خرج إلى صلاة الفجر كان يمرُّ بمنزل فاطمة فيوقظها ودام ذلك ستة أشهر، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: 34).

وتقول عائشة رضي الله عنها إنه في يوم مرض النبي ﷺ جاءت فاطمة، فقال ﷺ: مرحبا بابنتي، ثم أجلسها عَن شماله، ثم إنه أسرّ إليها حديثا، فبكت فاطمة، ثم إنه سارّها، فضحكت أيضا".[39]

لقد أحبتْ فاطمة رضي الله عنها النبي ﷺ حبّا جمّا، والكلمات المؤثرة التي قالتها عند وفاة أبيها تعكس هذا الحب. عَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّ فَاطِمَةَ قَالَتْ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَا أَبَتَاهُ إِلَى جِبْرَائِيلَ أَنْعَاهُ. وَا أَبَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ. وَا أَبَتَاهُ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ. وَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ". [40]

حبُّ أحفاده

يقول أبو ليلى ﵁ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى بَطْنِهِ الْحَسَنُ أَوْ الْحُسَيْنُ قال: "فَبَالَ حَتَّى رَأَيْتُ بَوْلَهُ عَلَى بَطْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَسَارِيعَ فَوَثَبْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ دَعُوا ابْنِي أَوْ لَا تُفْزِعُوا ابْنِي. ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ". [41]

وعَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى طَعَامٍ دُعُوا لَهُ قَالَ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَامَ الْقَوْمِ وَحُسَيْنٌ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَهُ قَالَ فَطَفِقَ الصَّبِيُّ هَاهُنَا مَرَّةً وَهَاهُنَا مَرَّةً فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ قَالَ فَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ فَوَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ فَقَبَّلَهُ وَقَالَ: "حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنْ الْأَسْبَاطِ". [42]

وعَنْ جابر ﵁ قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَقُولُ: نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلَانِ أَنْتُمَا". [43]

أحبّ النبي ﷺ أطفال زينب حبا كبيرا. توفي أحد أبنائها في سن مبكرة جدا، وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، أرسلت زينب إلى أبيها: "إنَّ ابنًا لي قُبِضَ فأْتِنا"، فأرسل يقرئ السلام ويقول: "إنَّ للَّهِ ما أخذَ ولَهُ ما أعطى وَكُلُّ شيءٍ عِندهُ بأجَلٍ مُسمًّى، فلتَصبِرْ ولتَحتسِبْ". [44]

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا". [45]

قدِمتْ على النبيِّ ﷺ حِليةٌ من عند النجاشيِّ أهداها له فيها خاتَمٌ من ذهبٍ فيه نقشٌ أو حجرٌ حبشيٌّ فأخذَه رسولُ اللهِ ﷺ بعودٍ مُعرِضًا عنه أو ببعضِ أصابعِه ثمَّ دعا أمامةَ بنتَ أبي العاصِ وابنتِه زينبَ فقال: "تحلَّيْ بهذا يا بُنَيَّةُ". [46]

توفي ابن رُقيّة الوحيد وعمره ستة أعوام. نقره ديك في عينيه فأصابه إصابة بالغة فمات، وأقام

النبي صلاة الجنازة.[47]

عن أم سلمة قالت: "جاءت فاطمة بنت النبي إلى رسول الله ﷺ متوركة الحسن والحسين في يدها بُرمة للحسن فيها سخين حتى أتت بها النبي ﷺ فلما وضعتها قدامه. قال: "أين أبو حسن؟" قالت: في البيت فدعاه فجلس النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين يأكلون. قالت أم سلمة: وما سامني النبي ﷺ، وما أكل طعاما وأنا عنده إلا سامنيه قبل ذلك اليوم –تعني سامني: دعاني إليه– فلما فرغ الْتفَّ عليهم بثوبه ثم قال: "اللّهمَّ عادِ مَنْ عاداهُم ووالِ مَنْ والاهُم".[48]

وأحبّ النبي ﷺ أولاد فاطمة رضي الله عنها كثيرا. فقد قال البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيتُ رسولَ الله ﷺ واضِعا الحَسَنَ على عاتِقِه فقال: "مَن أَحَبَّني فليُحِبّه".[49]

كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما يلبسان قميصين أحمرين يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما وأجلسهما أمامه ثم قال: "صَدَق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلمْ أصبر حتى قطعْتُ حديثي ورفعتهما".[50]

يقول عليّ رضي الله عنه: "دخَل عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وأنا نائمٌ على المَنامةِ، فاستسقى الحَسَنُ والحُسَينُ، فقام رسولُ اللهِ ﷺ إلى شاةٍ لنا بِكرٍ فحلَبها فدرَّتْ، فجاء الحَسَنُ فنحَّاه النَّبيُّ ﷺ، فقالت فاطمةُ كأنَّه أحَبُّهما إليك يا رسولَ اللهِ؟ قال لا ولكنَّه استسقى قَبْلَه".[51]

وجاء في حديث آخر أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة ذات يوم وعلي نائم وهي مضطجعة وابناهما إلى جنبهما فاستسقى الحسن فقام رسول الله ﷺ إلى لقحة لهم فحلب رسول الله ﷺ فأتى به فاستيقظ الحسين فجعل يعالج أن يشرب قبله حتى بكى فقال رسول الله ﷺ: "إن أخاك استسقى قبلك". فقالت فاطمة رضي الله عنها: كأن الحسن آثر عندك؟ فقال: "ما هو بآثر عندي منه وإنهما عندي بمنزلة واحدة وإني وإياك وهما وهذا النائم لفي مكان واحد يوم القيامة".[52]

يروي أبو بكرة رضي الله عنه أنه عندما كان الحسن يصعد على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، كان يرفعه عنه بلطف حتى لا يقع. فقال الصحابة إنه يعامل الحسن كما لم يعامل أحدا. فقال النبي ﷺ:

"إنَّ ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ". وفي حديث آخر كان النبي ﷺ ساجدا فصعد الحسن على ظهره ولم يُنزله وأطال السجود حتى نزل الحسن لوحده.[53]

لقد وهب الله ﷻ النبيَّ ﷺ ابنا من زوجته مارية القبطية، كما ذكرنا، فسمّاه إبراهيم على اسم جدّه. كان أصغر سنا من أحفاد النبي الحسن والحسين، أحبّه النبي ﷺ حبا جما وعهِدَه إلى أمِّ سَيف لِتُرضعه، وكان يزوره ويطمئن على صحته فيحمله ويحتضنه ويقبّله.[54]

كان النبي ﷺ سعيدا جدا بملكاته في ذلك العمر الصغير. توفي هذا الطفل المحبوب جدا وعمره ستة عشر شهرا. وعند وفاته قال النبي ﷺ عنه: "لو عاش لكان صدّيقا نبيا".[55]

أظهر النبي ﷺ صبرا عظيما عند وفاة هذا الطفل العزيز جدا، فأخذه وقبله وشمه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف ؓ: "وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة. ثم أضاف: "إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولَا نَقُولُ إلَّا ما يَرْضَي رَبُّنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ."[56]

وصادف حدوث كسوف يوم وفاة إبراهيم، فبدأ الناس يقولون حتى الشمس تُحجب عند وفاة ابن النبي ﷺ. ما أحب إبراهيم أحدٌ كما أحبه النبي ﷺ. لكن النبي ﷺ خطب في الناس ووضّح الأمر: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخَسِفان لموت أحدٍ ولا لحياتِه فإذا رأيتُم ذلك فادْعوا الله وكبّروا وصلّوا وتصدّقوا".[57]

وباختصار، لقد قدّم لنا النبي ﷺ مبادئ توجيهية جميلة في كيفية التعامل مع الأطفال وتدريبهم.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 77 ، طبعة القاهرة.

[3] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب مَتَى يُؤْمَرُ الْغُلاَمُ بِالصَّلاَةِ.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه.

[5] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 263، طبعة القاهرة.

[6] صحيح مسلم؛ كتاب الحج، باب فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا.

[7] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 214، طبعة القاهرة.

[8] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 591، طبعة بيروت.

[9] سنن ابن ماجة؛ كتاب التجارات، باب النهي عن التفريق بين السبي.

[10] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 316، طبعة بيروت.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة.

[14] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب الْعَمَلِ فِي الصَّلاَةِ.

[15] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 32، طبعة بيروت.

[16] سنن أبي داود؛ كتاب الجهاد، باب فِي فِدَاءِ الأَسِيرِ بِالْمَالِ.

[17] التاريخ الصغير للبخاري؛ الجزء 1، ص 33، طبعة بيروت.

[18] التاريخ الصغير للبخاري؛ الجزء 1، ص 34، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب الشروط في النكاح.

[20] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 657، طبعة بيروت.

[21] سنن أبي داود؛ كتاب الطلاق، باب إِلَى مَتَى تُرَدُّ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ إِذَا أَسْلَمَ بَعْدَهَا.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب يجعل الكافور في آخره.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل.

[24] اسد الغابة؛ الجزء 1، ص 1360، طبعة بيروت.

[25] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 335، طبعة القاهرة.

[26] كنز العمال؛ الجزء 11، ص 590، طبعة مصر.

[27] البداية والنهاية؛ الجزء 3، ص 66، طبعة بيروت. أُسْد الغابة؛ ص 1352، طبعة بيروت.

[28] صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب إذا بعث الإمام رسولا في حاجة أو أمره بالمقام هل يسهم له.

[29] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطهارة وسننها، باب الرجل يستعين على وضوئه فيصب عليه.

[30] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه).

[31] السنن الكبرىٰ للبيهقي؛ الجزء 4، ص 71، طبعة بيروت.

[32] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 62، طبعة بيروت.

[33] الكامل لابن عدي؛ الجزء 5، ص 134، طبعة بيروت.

[34] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 254، طبعة القاهرة.

[35] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب مَا جَاءَ فِي الْقِيَامِ.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب الخمس باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين وإيثار النبي ﷺ.

[38] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف، ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾.

[39] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 27، طبعة بيروت.

[40] سنن ابن ماجة؛ كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ.

[41] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 348، طبعة القاهرة.

[42] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 194، طبعة بيروت.

[43] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 291، طبعة بيروت.

[44] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه).

[45] سنن أبي داود؛ كتاب الصلاة، باب الْعَمَلِ فِي الصَّلاَةِ.

[46] سنن أبي داود؛ كتاب الخاتم، باب مَا جَاءَ فِي الذَّهَبِ لِلنِّسَاءِ.

[47] البداية والنهاية؛ الجزء 85، ص 330، طبعة بيروت. سبل الهدى والرشاد؛ الجزء 11، ص 35، طبعة بيروت.

[48] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 262، طبعة بيروت.

[49] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

[50] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام.

[51] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 268، طبعة بيروت.

[52] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 271، طبعة بيروت.

[53] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 37، طبعة القاهرة.

[54] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (إنا بك لمحزونون).

[55] سنن ابن ماجة؛ كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته.

[56] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ (إنا بك لمحزونون).

[57] صحيح البخاري؛ كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف.

حياة النبي ﷺ الزوجية خير مثال

إن النقاش حول حقوق الرجال والنساء نقاش قديم جدا. ورسولنا الكريم، محمد المصطفى ﷺ لم يعلّم تلك الحقوق بالعدل والاعتدال فحسب بل كان هو نفسه خير مثال على رعاية تلك الحقوق في حياته اليومية، وهو الذي قال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي".[1]

إن تعاليم الإسلام الطاهرة حددت حقوق المرأة وواجباتها في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 229).

لا شك أن الرجل والمرأة مختلفان على الصعيد الجسدي، فجسم المرأة مهيأ أساسا للحمل وتربية الأطفال وتدريبهم بينما أعطي الرجل جسما قويا ومسؤولياته تكمن خارج المنزل وقدراته تؤهله لكسب عيش أسرته وحمايتها. لقد قال النبي ﷺ : "أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ". يجدر بنا القول إن الإسلام جعل من المرأة ملكة على بيتها وكرّمها تكريما كبيرا. فأعطيت كامل المسؤولية في إدارة البيت ورعاية الأطفال. لكن الأسرة بحاجة إلى من يعتني بالأمور الخارجية وتأمين قوت الأسرة وهذه مسؤولية الرجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: 35).

وقد حدا ذلك، حتى في أيامنا هذه، بالمنادين بالمساواة بين الرجل والمرأة بفصل الجنسين في المباريات الرياضية؛ فالنساء يتنافسن مع النساء والرجال مع الرجال، ولا يرسلون النساء إلى الجبهات القتالية. فلا جدوى من المطالبة بمساواة المرأة والرجل مع وجود الفروق بتكوينهما الجسدي.

قال رسول اللّه ﷺ: "إِنَّ الْمَرْأَةَ كَالضِّلَعِ إِذَا ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَإِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ".[2]

وأوصى الزوجين أن يتحليا بالصبر وأن يبحث كل واحد منهما في الآخر عن الحسنات ويتغاضى عن العيوب، وفي ذلك حث على حُسن العِشرة والصُّحبة. فقد قال النبي ﷺ: "لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا غَيْرَهُ".[3]

كان خُلُق النبي ﷺ القرآن وبُعث لإتمام مكارم الأخلاق.[4]

مسئولية كسب قوت الأسرة

إن حياة الرسول ﷺ الأسرية خير مثال من كل النواحي، فكان يقوم بالترتيبات اللازمة لتأمين قوت عائلته. لكن حصل أن مر عليهم أشهر صعبة لم يوقدوا خلالها النار في بيوتهم وعاشوا على التمر والماء فقط.[5]

لم يؤمِّن النبي ﷺ فقط قوت عائلته بل كان يرعاهم ويهتم بهم أكثر من اهتمامه بنفسه فوقت الشح كان يصوم حتى أنه كان أحيانا يربط حجرا على معدته من شدة الجوع لكنه كان يؤمِّن الطعام لأسرته مع كل ذلك، وقبل وفاته أمر أن تُغطّى نفقات زوجاته بانتظام.[6]

كان النبي ﷺ يدعو دائما بهذا الدعاء: "اللهم اجعل رزق آل بيتي قوتا"، فلا يموتون جوعا.[7]

سَهل الخُلُق ولَيّن الكلام

لم يذم النبي ﷺ أحدا من عائلته أبدا ولم يكن قط فظا. عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النبيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقالَ: ائْذَنُوا له، فَبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ وبِئْسَ أخُو العَشِيرَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ له الكَلَامَ، فَقُلتُ له: يا رَسولَ اللَّهِ، قُلْتَ ما قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ له في القَوْلِ؟ فَقالَ: يا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَومَ القِيَامَةِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ".[8]

وقد قالت عائشة رضي الله عنها متكلمة عن أخلاق الرسول ﷺ: "لم يكن فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا". وشهدت له بالطيبة والكرم وعدم التكلّف. فقالت: " كان دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظ". وقالت أيضا: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إلا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا ضَرَبَ خَادِمًا أَوِ امْرَأَةً".[9]

أثر كرم النبي ﷺ على خديجة رضي الله عنها

أعجبت خديجة رضي الله عنها بخلق النبي ﷺ الكريم فعرضت عليه الزواج، وبعد زواجهما سلّمته كل أموالها وعبيدها لكرمه. فأعتق النبي ﷺ كل العبيد.[10]

كانت مخلصة جدا له فلم تشتكِ أبدا من توزيعه لأموالها ولم تعترض على ذلك، بل كانت تثني

عليه كثيرا، وكانت طول حياتها الدرع الذي يحميه في أصعب المراحل التي مر فيها في مكة، وبعد خمس عشرة سنة زواج، شهدت له، وقت تلقيه أول وحي، بمكارم الأخلاق فقالت: "واللهِ لا يُخزِيك اللهُ أبدًا، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَديثَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتُكرِمُ الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائِبِ الحَقِّ". [11]

تقدير خديجة رضي الله عنها

إن أبرز ما تميز به النبي ﷺ في نطاق العائلة هو تقديره الدائم لخصال زوجاته الحميدة، وقد كنّ كل الاحترام لخديجة رضي الله عنها على تضحياتها وإخلاصها، في حياتها وبعد موتها، ولم يتزوج بعد موتها بسنين. فكان دائما يذكرها بكل حب وحنان، وكل أولاده الذين عاشوا كانوا منها، فقد اهتم كثيرا بتربيتهم، ولم يقم فقط بدور الأب معهم بل كانوا أمانة في عنقه من خديجة رضي الله عنها فكان يعاملهم بحب شديد، وكلما أتت هالة أخت خديجة رضي الله عنها كان يستقبلها ويرحب بها ويُسَرّ كثيرا بمجيئها، وكان إذا ذبح شاة أرسل من لحمها إلى أصدقاء خديجة رضي الله عنها.[12]

وباختصار، لم يمل أبدا من ذكر أفضالها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غِرتُ على امرأة ما غرت على خديجة ولقد هلكتْ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين". [13] وقالت أيضا: "كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء. فغرتُ يوما فقلتُ: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها. قال: ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدّقتني إذ كذّبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء". [14]

الزواج من سودة رضي الله عنها

حزن النبي ﷺ حزنا شديدا على موت خديجة رضي الله عنها، وفي السنة نفسها مات أيضا عمه أبو طالب، فسميت تلك السنة بعام الحزن، فقد كانت هاتان الشخصيتان المباركتان مصدرا لراحة النبي ﷺ ودعمه. فمن الطبيعي أن يشعر بالحزن والوحدة على رحيلهما. لقد شعر أصحابه بضرورة ملء الفراغ من بعدهما لأجل مصلحة المسلمين. جاءت خولة بنت حكيم

زوجة عثمان بن مظعون رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ فقالت: "يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خَلّة لفقد خديجة؟ فقال: أجل، فكانت أم العيال وربة البيت".[15] فاقترحت أن تخطب له سودة رضي الله عنها فوافق أن يتزوجها حتى تهتم بإدارة الأمور المنزلية وتعتني ببناته.

حسن المعاملة مع سودة رضي الله عنها

كانت سودة امرأة بسيطة وكانت مثل النساء الكبيرات في السن اللواتي حين يسمعن عن عمل حسن يسعين بجد للقيام به. قال النبي ﷺ يوم حجة الوداع: "هذه الحَجَّة ثمَّ ظُهورَ الحُصُرِ" وقصد بذلك أنها آخر حجة له فما كان من سودة رضي الله عنها إلا أن جعلتها آخر حجة لها أيضا.[16]

وقد بلغ من بساطة سودة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أخبر ذات مرة عن ظهور الأعور الدجال وحذر أمته منه، ثم بعد ذلك شك في أن يكون ابن صياد (أحد سكان المدينة) هو الدجال، فكانت سودة رضي الله عنها تفزع من ذكر الدجال فزعا شديدا. ذات يوم جرى الحديث عن الدجال (ابن صياد) وقيل إنه قد ظهر، فاختبأتْ تحت السرير، ثم خرجتْ من تحته تنفض عنها نسج العنكبوت بعد أن هدأ رسول الله ﷺ من روعها.

وكانت كثيرا ما تُضحك النبي ﷺ بكلامها. فحدث مرة أن صلت التهجد معه، فأطال الصلاة فقالت له بعد ذلك: "صَلَّيْتُ خَلْفَكَ الْبَارِحَةَ فَرَكَعْتَ بِي حَتَّى أَمْسَكْتُ بِأَنْفِي مَخَافَةَ أَنْ يَقْطُرَ منه الدَّمُ". فضحك رسول الله ﷺ.[17]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيتُ النبي ﷺ بحريرة قد طبختُها له فقلتُ لسودة – والنبي ﷺ بيني وبينها: كُلِي. فأبَتْ. فقلتُ: لَتأكُلين أو لَألْطخَنّ وجهَكِ. فأبت فوضعتُ يدي في الحريرة فطليت وجهها فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: "اِلْطَخي وجْهها"، فضحك النبي ﷺ.[18] كانت عائشة تحب بساطة سودة وبراءتها وقد قالت: "مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ مِنِ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدَّةٌ".[19]

ولما كبرت سودة رضي الله عنها رأت أن أعباء المنزل ثقلت عليها ولم تعد ترغب بالعلاقة الزوجية لكنها كانت تريد أن تُبعث يوم القيامة في نساء النبي ﷺ فأعطت يومها لعائشة رضي الله عنها فقبل النبي ﷺ بطلبها وبقي يؤَمِّن لها احتياجاتها.[20]

تزوج النبي ﷺ عدة مرات خلال الفترة المدنية لأجل المصلحة القومية ولغرض التدريب، مع أنه كان لديه تسع زوجات في آن واحد إلا أن مسؤولياته لم تسبب له توترا بل قام بواجباته على أكمل وجه وبكل عدل، واهتم بالكل. وكان يجمع زوجاته بعد صلاة العصر في البيت الذي هو فيه فيقابلهن كلهن يوميا.

كان النبي ﷺ يمضي يوما عند كل زوجة ومع أن دور كل واحدة منهن يأتي بعد ثمانية أيام إلا أنهن كن سعيدات بصحبته وراضيات في كل الظروف ولم تطلب أي واحدة منهن الانفصال عنه، ولم يغضبن أبدا منه وما ابتعدن عنه ولو مؤقتا، ولما توفرت الغنائم وطلبت بعضهن أمور دنيوية نزلت الآيتان التاليتان من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا* وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 29-30)

خيِّرت زوجات النبي ﷺ في هاتين الآيتين، فسأل النبي ﷺ كل زوجة من زوجاته إن كانت تريد البقاء معه على الفقر أو الانفصال، وكلهن رغبن دون تردد في أن يعشن معه مهما كانت الظروف، وبدأ بعائشة رضي الله عنها وخشي لصغر سنها أن تخطئ في قرارها، فنصحها أن تأخذ وقتها في التفكير وتستشير أهلها لأن الأمر حساس ومهم. غير أن إجابتها نمّت عن نضج إذ قالت: "ففي أي هذا أستأمر أبوَيّ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة".[21]

تأدية واجبات المنزل

يرجع إخلاص زوجات النبي ﷺ له إلى نمط حياته غير المتكلف والبسيط ومعاملته الحسنة، فقد حمل مسؤولية هداية العالم بأكمله وتبليغ رسالة الحق للبشرية بأكملها، فأدى واجبه تجاه الله وتجاه الناس دون أن يهمل الواجبات المنزلية، وأولى الأهمية نفسها للواجبات العائلية ولمسؤولياته الأخرى. عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان في مهنة أهله فإذا حضرتْ الصلاة قام إلى الصلاة".[22]

وسئلت عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟" قالت: "كان بشرا من البشر يَفلِي ثوبَه ويحلُب شاتَه ويخدُم نفسَه".[23]

وقالت أيضا إنه: "كان يَخيط ثوبَه ويخصِفُ نعلَه ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم".[24] وكان

إذا عاد إلى البيت في وقت متأخر لا يُوقِظ أحدا ويخدم نفسه فيشرب الحليب أو يأكل.[25]

العدل بين الزوجات

حرص النبي ﷺ دائما على تأدية واجباته تجاه زوجاته بالعدل، فكان يختار الزوجة التي سترافقه في سفره بالقرعة.[26]

سمح الله للنبي ﷺ في الآية التالية: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ (الأحزاب: 52) أن يؤخر دور إحدى زوجاته ليطيل بقاءه عند أخرى لكنه لم يفعل ولم يغير شيئا في دورهن بدون سبب. قالت عائشة رضي الله عنها أنْ لو كان الخيار لها لبقيت دائما مع النبي ﷺ .[27]

كان العدل بين زوجاته أمرا مهما للغاية بالنسبة للنبي ﷺ ، ولما مرض حرص أن يدور على زوجاته كعادته وكان يسأل كل يوم عند من أنا اليوم، وهو يريد يوم عائشة، حتى سمحت له أزواجه أن يكون عندها.[28]

كان النبي ﷺ يخشى الله كثيرا ويعامل زوجاته ويقسم بينهن بالعدل لكنه مع ذلك كان يدعو الله أن يغفر له إن كان مال قلبه إلى زوجة دون الأخريات فهو لا يستطيع السيطرة على العواطف. فكان يقول: "اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ"، يَعْنِي الْقَلْبَ.[29]

التعبير عن الحب والوفاء

كان أحد مظاهر إساءة المعاملة مع النساء قبل الإسلام أنهن عندما يحِضْن لا يُسمح لهن بالجلوس والأكل مع أزواجهن أو أفراد عائلتهن.[30]

ألغى النبي ﷺ هذا الظلم الاجتماعي، وبيّن القرآن أنه: ﴿أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: 223) فكان يعتني أكثر بزوجاته في فترة الحيض فيجلس معهن ويستلقي معهن في السرير. عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَظْمَ وَأَنَا حَائِضٌ فَأُعْطِيهِ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ وَضَعْتُهُ وَأَشْرَبُ الشَّرَابَ فَأُنَاوِلُهُ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْهُ".[31] هذا كان تعبيرا بسيطا عن حبه.

العناية بزوجاته خلال مرضهن

كان النبي ﷺ إذا مرضت زوجاته رعاهن بنفسه أفضل رعاية، ويمكننا معرفة ذلك من خلال ما ذكرته عائشة رضي الله عنها من تغيير في لطفه المعهود عند مرضها عند حادثة الإفك فقالت: "فَقَدِمْنَا الـمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، والنَّاسُ يُفِيضُونَ في قَوْلِ أصْحَابِ الإفْكِ، لا أشْعُرُ بشيءٍ مِن ذلكَ، وهو يَرِيبُنِي في وجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الذي كُنْتُ أرَى منه حِينَ أشْتَكِي، إنَّما يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسولُ اللهِ ﷺ فيُسَلِّمُ، ثُمَّ يقولُ: كيفَ تِيكُمْ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذلكَ يَرِيبُنِي".[32]

معاملة عائشة رضي الله عنها بحب

حرص النبي ﷺ على أن يعدل بين زوجاته إلا أن عائشة رضي الله عنها حازت على حب أكبر. فعلى صغر سنها كانت ذكية وفطنة، ويَكْفي أنَّها عقَلَتْ من النَّبي ﷺ ما لم يَعقِلْ غَيرُها من النساء. فقال النبي ﷺ : "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".[33]

فاعترضت أم سلمة رضي الله عنها فقال لها: "يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها".

وحظيت عائشة رضي الله عنها بمعاملة ألطف لصغر سنها فقد قالت: "كُنْتُ أَلْعَبُ بالبَنَاتِ عِنْدَ النبيِّ ﷺ ، وكانَ لي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ منه، فيُسَرِّبُهُنَّ إلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي".[34]

فرس له أجنحة

كان النبي ﷺ يتحدث مع زوجاته عن اهتماماتهن وهواياتهن وحسب مستوياتهن الفكرية. عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: "قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟" قَالَتْ بَنَاتِي. وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ فَقَالَ: "مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟" قَالَتْ: فَرَسٌ. قَالَ: "وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟". قَالَتْ: جَنَاحَانِ. قَالَ: "فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟". قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ فقالت: "فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ".[35]

ضياع عقد

كان النبي ﷺ يحرص على راحة الزوجة المرافقة له في السفر. تروي الأحاديث أن عائشة رضي الله عنها أضاعت عقدها أكثر من مرة فأرسل النبي ﷺ في إحدى المرات بعض الرجال للبحث عنه وكان الموقع الذي خيم فيه المسلمون لا يوجد فيه ماء للشرب والوضوء، وانزعج والد عائشة أبو بكر رضي الله عنه منها فقال لها: "يا بنية في كل سفرة تكونين عناء وبلاء وليس مع الناس ماء".[36] لكن النبي ﷺ لم يؤنبها قط رغم الجهد الذي سببته للجيش. وهكذا كانت معاملته لها في الحياة اليومية.

احتفاليات العيد

كان يوم عيد وكانت جاريتان من جواري الأنصار عند عائشة تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث. فدخل أبو بكر رضي الله عنه فقال لعائشة رضي الله عنها أن تُوقف الغناء وقال: " أمَزامير الشيطان في بيت رسول الله؟". فأخذ النبي ﷺ صفَّ عائشة رضي الله عنها وقال له: "يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا".[37]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فسأل النبي ﷺ : "تشتهين تنظرين؟" فقلتُ: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده وهو يقول: "دونكم يا بني أرفدة". حتى إذا مللتُ، قال: "حسبك؟". قلتُ: نعم. قال: "فاذهبي".[38]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ جالسًا فسمِعنا لغطًا وصوتَ صبيانٍ، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ فإذا حبشيَّةٌ تَزفِنُ والصِّبيانُ حولَها، فقالَ: يا عائشةُ تعالَي فانظُري. فَجِئْتُ فوضعتُ لَحْيَيَّ علَى منكبِ رسولِ اللَّهِ، فجعلتُ أنظرُ إليها ما بينَ المنكبِ إلى رأسِهِ، فقالَ لي: أما شبعتِ، أما شبعتِ؟ قالت: فجَعلتُ أقولُ لا لِأنظرَ منزلتي عندَهُ إذ طلعَ عمرُ، قالت: فانفضَّ النَّاسُ عنها: قالَت: فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : إنِّي لأنظرُ إلى شياطينِ الجنِّ والإنسِ قد فرُّوا مِن عمرَ. قالت: فرجَعتُ".[39]

وقالت أيضا: " كان رسول الله ﷺ إذا غضبتُ وضع يده على منكبي وقال: "اللهُمَّ اغْفِرْ لَهَا ذَنْبَها وأذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِها وأعِذْهَا منَ الفِتَنِ". وجاء في حديث آخر: " كان إذا غضبت

عائشة عرك بأنفها وقال: يا عُوَيش قولي: اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن".[40]

جلسات قصص

كان النبي ﷺ طيب العشرة مع نسائه وكان يسمع لعائشة رضي الله عنها ويطيب خاطرها. روت له ذات مرة أن ثلاث عشرة امرأة كن يجتمعن وتعاهدن على ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا، وقامت إحداهن، وهي أم زرع، تمدح بزوجها وكرمه مطولا ثم قالت إنه التقى بأخرى فطلق أم زرع وتزوج تلك المرأة، فتزوجت أم زرع رجلا ثريا جدا يهتم بها وبراحتها كثيرا وطلب منها أن تصل أهلها وتأخذ لهم الطعام، ومع كل ذلك قالت: لو جَمَعتُ كُلَّ شيءٍ أَعطانيهِ، ما بَلَغَ أصغَرَ آنيةِ أبي زَرْعٍ. فقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: " كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع، إلّا أنّه طلّقها وإنّي لَا أُطلِّقُكِ".[41] وورد في حديث آخر أن عائشة رضي الله عنها قالت: "يَا رَسُولَ اللهِ بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي زَرْعٍ".[42]

وحدّث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثا، فقالت امرأة منهن: "يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة؟" فقال: "أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا من عذرة، أَسَرتْهُ الجن في الجاهلية، فمكث فيهن دهرا طويلا. ثم ردّوه إلى الإنس. فكان يحدّث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب. فقال الناس: حديث خرافة".[43]

مرافقة زوجته له إلى مأدبة

يبين الحدث التالي احترام النبي ﷺ لمشاعر عائشة رضي الله عنها. عَنْ أَنَسٍ أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ. فَقَالَ: "وَهَذِهِ؟" لِعَائِشَةَ. فَقَالَ: لا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا. فَعَادَ يَدْعُوهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَذِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا. ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَذِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. في الثالثة. فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.[44]

قال عليّ رضي الله عنه: "بتنا ليلة بغير عشاء. فأصبحتُ، فخرجتُ ثم رجعتُ إلى فاطمة عليها السلام وهي محزونة، فقلت: ؟ فقالت: لم نتعش البارحة ولم نتغد اليوم وليس عندنا عشاء. فخرجتُ

فالتمستُ فأصبتُ ما اشتريتُ طعاما ولحما بدرهم ثم أتيتها به فخبزت وطبخت فلما فرغت من إنضاج القدر، قالت: لو أتيت أبي فدعوته. فأتيت رسول الله ﷺ وهو مضطجع في المسجد وهو يقول: أعوذ بالله من الجوع ضجيعا. فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله عندنا طعام فهلم، فتوكأ علَيَّ حتى دخلَ، والقدر تفور، فقال: اغرفي لعائشة، فغرفتْ في صحفة، ثم قال: اغرفي لحفصة، فغرفت في صحفة، حتى غرفت لجميع نسائه التسع، ثم قال: اغرفي لأبيك وزوجك، فغرفت، فقال: اغرفي فكلي، فغرفتْ ثم رفعت القدر وإنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله". [45]

صفية رضي الله عنها إحدى أزواج النبي ﷺ وهي بنت ألد أعدائه حيي بن أخطب زعيم بني النضير. قُتل أبوها وزوجها في غزوة خيبر فتزوجها النبي ﷺ قاصدا إعزازها وإكرامها وتعويضها من فقدت من أهلها وعلى أمل أن تخفف مصاهرته لليهود من عدائهم وتمهد لإسلامهم، فكسب قلب ابنة عدوه المتعطش للدم بحبه ولطفه، فحضّر لها وليمة، ثم لما أرادوا العودة إلى المدينة رأى أصحاب النبي النبيَّ ﷺ وهو يحوي لها وراءه بعباءة ثم يضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب على البعير. [46]

وعن صفية رضي الله عنها قالت: "ما رأيت قط أحسن خلقا من رسول الله ﷺ لقد رأيته ركب بي من خيبر على عجز ناقته ليلا فجعلت أنعس فيضرب رأسي مؤخرة الرحل فيمس بيده ويقول: "يا هذه مهلا، يا بنت حيي". حتى إذا جاء الصهباء قال: "أما إني أعتذر إليك يا صفية مما صنعت بقومك إنهم قالوا لي كذا وكذا". وقالت أيضا: "ما زال يعتذر إليَّ حتى ذهب ذلك من نفسي". [47]

تربية زوجاته

تتضمن قوامة النبي ﷺ على زوجاته مسؤولية تدريبهن وتربيتهن. فقام بدوره فدربهن أحسن تدريب وتربية وبكل محبة. وبعد نزول آية التخيير، اختارت جميع أزواجه البقاء معه، فكانت وصاياه الأساسية لهن ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: 32-35) وإن التزامهن بتلك الوصايا كان سيمكنهن من تأسيس مجتمع طاهر في المدينة.

كان النبي ﷺ يؤكد في بيته على العبادة فقد قال: "رحم الله رجلا قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته فصلَّت، فإن أبت رش في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها فصلّى. فإن أبى رشت في وجهه الماء".[48]

هكذا كان النبي ﷺ يفعل مع كل أفراد عائلته. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ يصلي وأنا راقدة معترضة على فراشه فإذا أراد أن يوتر أيقظني فأوترت".[49]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله".[50]

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعا يقول: "سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن من يوقظ صواحب الحجرات – يريد أزواجه لكي يصلّين – رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة".[51]

دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فإذا نسوة في جانب البيت يصلِّين فقال: "يا أم سلمة أي صلاة يصلين؟" فقالت: "يا رسول الله، المكتوبة". فقال: "أفلا أمَّتِهنّ؟". قالت: "يا رسول الله أوَيصلُح ذلك؟" قال: "نعم تقومين وسطهنّ، لا هنَّ أمامك ولا خلفك، ولكن عن يمينك وشمالك".[52] وبذلك علّمهنّ أن يتعبّدن الله جماعة.

طرق فريدة للتعبير عن حب الله

كان بيت النبي ﷺ عامرا بذكر الله والدعاء، وكانت لديه طرق فريدة ومشوقة مع أهل بيته تحثهم على ذكر الله. عن عائشة قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اللهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيِّب المبارك الأحبِّ إليك؛ الذي إذا دُعيتَ به أجبت، وإذا سئلت به أعطيت، وإذا استُرحِمت به رحِمْت، وإذا استُفرجت به فرَّجت".

قالت: "وقال ذات يوم: يا عائشة هل علمتِ أن الله قد دلَّني على الاسم الذي إذا دُعي به أجاب؟ قالت فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي فعلِّمْنيه، قال: إنه لا ينبغي لك يا عائشة.

قالت فتنحيتُ وجلستُ ساعة، ثم قمتُ فقبّلتُ رأسه ثم قلت: يا رسول الله علِّمْنيه. قال: إنه لا ينبغي لك يا عائشة أن أعلمك، إنه لا ينبغي لك أن تسألين به شيئا من الدنيا. قالت فقمت فتوضأت، ثم صلّيت ركعتين. ثم قلت اللهم إني أدعوك الله، وأدعوك الرحمن، وأدعوك البر الرحيم، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، أن تغفر لي وترحمني، قالت فاستضحك رسول الله ﷺ ثم قال: إنه لفي الأسماء التي دعوتِ بها".[53]

ترسيخ وحدانية الله

رسخ النبي ﷺ وحدانية الله في قلوب أزواجه في كل حين وحتى أثناء مرضه الأخير إذ ذكرت أم سلمة رضي الله عنها ما رأته من صور في كنيسة مارية في الحبشة، ورغم مرضه حرص على تذكيرهن بأهمية وحدانية الله فقال: "أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".[54] وهكذا أوصى نساءه، وقد عرف أن موته قريب، أن يثبتن على وحدانية الله فلا يجعلن من قبره وثنا يُعبَد كما فعل النصارى واليهود.

الصبر والتضحية

من الطبيعي أن تشعر الزوجات بالغيرة، وكان ذلك سيسبب مشكلة صعبة وحساسة للنبي ﷺ لولا صبره وتضحياته لإيجاد الحلول. حصل أن كان النبي ﷺ عند عائشة رضي الله عنها فأرسلت إليهما زوجة أخرى طعاما فما أحبت عائشة أن يخدمه أحد سواها وهو في بيتها، فغضبت وضربت إناء الطعام فوقع وانكسر، لكن النبي ﷺ ظل هادئا ولم يقل لها شيئا بل أخذ يجمع الطعام من الأرض، وهذا كان إحراجا كافيا لعائشة رضي الله عنها، فعندما طلب منها النبي ﷺ أن تبدل الإناء المكسور بإناء صحيح فعلت بكل سرور وبعثت به إلى الزوجة الأخرى مع الخادمة.[55]

عن ميمونة رضي الله عنها قالت: "خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة من عندي فأغلقت دونه الباب فجاء يستفتح الباب فأبيت أن أفتح له فقال أقسمت إلا فتحته لي فقلت له تذهب إلى أزواجك في ليلتي هذه قال ما فعلت ولكن وجدت حقنا من بولي".[56]

تضحيات لأجل أزواجه

لم يتردد النبي ﷺ في تقديم التضحيات لأجل أزواجه. حدث ذات مرة أن شرب عسلا عند إحدى زوجاته فتأخر قليلا فغارت عائشة وحفصة رضي الله عنهما وحاولن إقناعه أن يعدل عن شرب العسل فقالتا أن رائحة العسل هذا غير مستحبة. ففهم النبي ﷺ قصدهن وحفاظا على مشاعر زوجاته عدل عن تناول العسل.[57] فنزلت الآية التالية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحريم: 2)

وعجب أقرباء زوجات النبي ﷺ من مدى صبره عليهن واستماعه لهن، ولم يقْسُ عليهن قط ولم تتغير معاملته لهن أبدا.

عفو تام

كانت عائشة رضي الله عنها تتكلم بصوت مرتفع فدخل أبوها أبو بكر رضي الله عنه فأراد أن يضربها لأنها رفعت صوتها على النبي ﷺ فوقف النبي ﷺ بينه وبين عائشة رضي الله عنها يحجزه عنها، وعندما غادر أبو بكر قال النبي ﷺ مازحا: "كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟". وبعد بضعة أيام عاد أبو بكر وإذ بهما قد اصطلحا فقال: "أَدْخِلانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا".[58]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان بيني وبين رسول الله كلام، فقال: مَن ترضين أن يكون بيني وبينك، أترضين بعمر؟ قلتُ: لا. قال: فترضين بأبيك؟ قلتُ: نعم. فأرسل إلى أبي بكر، فجاء فقال: اقصصي، قلت: اقصص أنت، فقال: هي كذا وكذا. فقلت: اقصد! فرفع أبو بكر يده فلطمني، قال: تقولين يا بنت فلانة لرسول الله ﷺ : اقصد! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ﷺ ؟! وجعل الدم يسيل من أنفها على ثيابها فاحتمت وراء رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : إنا لم نرد هذا. وجعل رسول الله ﷺ يغسل الدم بيده من ثيابها ويقول: رأيتِ كيف أنقذتك منه؟"[59]

التعبير عن الحب

كان النبي ﷺ يعامل عائشة بكل الحب، وذات مرة قال لها: "إني لأعلمُ إذا كنتِ عني راضية

وإذا كنتِ عليَّ غضبى". قالت: "مِن أين تعرف ذلك؟" فقال: "أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا ورب محمد وإذا كنت غضبى قلتِ لا ورب إبراهيم". قالت: "أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك".[60]

كان لحفصة رضي الله عنها بنت عمر رضي الله عنه شخصية قوية. وكانت زوجة عمر تنصح زوجها ذات مرة حول أمر ما فانزعج ولم يعجبه تدخل النساء في شؤون الرجال. فقالت له زوجته: "تقول هذا لي وابنتك تؤذي النبي ﷺ". فذهب عمر رضي الله عنه إلى بيت حفصة فقال لها: "إني أحذرك أن تعصي الله ورسوله". ثم ذهب إلى أم سلمة رضي الله عنها وقال لها الشيء ذاته. فقالت: "أعجب منك يا عمر قد دخلت في أمورنا فلم يبق إلا أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟". فسكت عمر رضي الله عنه. وعندما أخبر النبي ﷺ بما قاله لحفصة وأم سلمة رضي الله عنهما والذي ردت عليه أم سلمة ضحك النبي ﷺ .[61]

تأنيب مبرر

كان النبي ﷺ يحب أزواجه ويعاملهن دائما بكل لطف إلا أنه كان يعاتبهن بما يناسب إذا أخطأن أو ارتكبن مظلمة، ومثال على ذلك أن عائشة سخرت ذات مرة من حفصة لقصر قامتها. فقال لها النبي ﷺ : "لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ".[62]

وأراد من ذلك أن تلتزم بأوامر الله فلا سخرية ولا تنابز بالألقاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: 12)

ظل مبدأ النبي ﷺ الثبات على الحق والقرارات الصحيحة إلى مماته ولا يحيده عنه شيء. فحين اشتد مرضه قال: "مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس". فقالت عائشة رضي الله عنها: "إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلّي بالناس". فقال: "مروا أبا بكر فليصلّ بالناس". فعادتْ، فقال: "مُرِي أبا بكر فليصلِّ بالناس. فإنكن صواحب يوسف عليه السلام".[63]

فباختصار، قام النبي ﷺ بواجباته العائلية على أكمل وجه، بكل حب وعدل وإحسان.

حب أزواج النبي له

أحبته زوجاته كلهن أكثر من حبهن لحياتهن لأنه عاملهم أحسن معاملة. قال لهن قبل موته: "أسرعُكنَّ لحاقا بي أطولكنَّ يدا"، فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يدا، وهذا من أثر الحب الذي عاملهن به فأرادت كل واحدة منهن اللحاق به أولا.[64]

وكتبت الأستاذة والراهبة سابقا كارن أرمسترونغ داحضة الادعاء الغربي القائل بأن تعدد زوجات النبي ﷺ كان سببه الجنس:

"لكن كما هو واضح في هذا النص فإن تعدد الزوجات لم يكن إشباعا جنسيا للرجال بل كان جزءا من التشريع الاجتماعي. فمنذ بداية نبوته قلق محمد بشأن اليتيمات، وساء الوضع بعد أُحد بسبب الوفيات، فمن سقطوا في المعركة لم يكن لديهم زوجات فحسب بل بنات وأخوات وأقارب بحاجة للحماية، ولا يضمن أن يكون الأوصياء الجدد عليهن حريصين على الحفاظ على ممتلكات اليتيمات وإعطائهن حقوقهن، وكان بإمكان البعض أن يُبقوا اليتيمات دون زواج لتبقى ممتلكاتهن بحوزتهم، وكان من الشائع أن يتزوج الرجل من اليتيمات اللاتي كن في وصايته بهدف ضم ممتلكاتهن إلى ممتلكاته".[65]

اللهم اجعلنا نحذو حذو النبي ﷺ في حياته العائلية وأن نكون قادرين على بناء مجتمع طاهر على غرار المجتمع الذي بناه حبيبنا المصطفى ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

1 سنن الترمذي؛ كتاب المناقب، عن رسول الله ﷺ، باب فضل أزواج النبي ﷺ.

2 صحيح مسلم؛ كتاب الرضاع، باب الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ.

3 صحيح مسلم؛ كتاب الرضاع، باب الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ.

4 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 91، طبعة القاهرة.

5 صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

6 صحيح البخاري؛ كتاب الوصايا، باب نفقة القيم للوقف.

7 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 232، طبعة القاهرة.

8 صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا.

9 الشمائل المحمدية للترمذي ؛ باب ماجاء في خلق رسول الله.

10 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي ؛ الجزء 1 ص108، طبعة بيروت. تفسير الرازي؛ الجزء 17، ص 82، طبعة بيروت.

11 صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

12 صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله تعالى عنها.

13 صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب حسن العهد من الإيمان.

14 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 118، طبعة القاهرة.

15 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 227، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 57، طبعة بيروت.

16 الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 375، طبعة بيروت. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 227، طبعة بيروت.

17 أُسْد الغابة؛ ص: 1341، طبعة بيروت. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 54، طبعة بيروت. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 227، طبعة بيروت.

18 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 578، طبعة بيروت.

19 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 227، طبعة بيروت. صحيح مسلم؛ كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرّتها.

20 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 3، ص 227، طبعة بيروت. سنن ابن ماجة؛ كتاب النكاح، باب المرأة تهب يومها لصاحبتها. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 54، طبعة بيروت.

21 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب.

22 صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله.

23 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 254، طبعة القاهرة.

24 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 121، طبعة القاهرة.

25 صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.

26 صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه.

27 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب.

28 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها.

29 سنن أبو داؤد؛ كتاب النكاح، باب في الْقَسْمِ بَيْنَ النِّسَاءِ.

30 صحيح مسلم؛ كتاب الحيض، باب جواز غَسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارةِ سؤرِها.

31 سنن أبو داؤد؛ كتاب الطهارة، باب في مؤاكلة الحائض ومجامعتها.

32 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب حديث الإفك.

33 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها.

34 صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا).

35 سنن أبو داؤد؛ كتاب الأدب، باب في اللَّعِبِ بِالْبَنَاتِ.

36 السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 17، طبعة بيروت.

37 صحيح البخاري؛ كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

38 صحيح البخاري؛ كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد.

39 سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

40 الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 425، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 7، ص 141، طبعة مصر.

41 صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل. فتح البارى لابن حجر؛ الجزء 9، ص 275، طبعة بيروت.

42 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 580، طبعة بيروت.

43 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 157، طبعة القاهرة.

44 صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة باب ما يفعل الضيف إذا تبِعه غير من دعاه صحاب الطعام واستحباب إذن صاحب الطعام للتابع. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 123، طبعة القاهرة.

45 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 186–187، طبعة بيروت.

46 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

47 مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 406، طبعة بيروت.

48 سنن ابن ماجة؛ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل.

49 صحيح البخاري؛ أبواب سترة المصلي، باب الصلاة خلف النائم.

50 صحيح البخاري؛ كتاب صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان.

51 صحيح البخاري؛ كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

52 مسند زيد بن علي؛ الجزء 1، ص 118، طبعة بيروت.

53 سنن ابن ماجة؛ كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم.

54 صحيح البخاري؛ أبواب المساجد، باب الصلاة في البيعة.

55 سنن النسائي؛ كتاب عشرة النساء، باب الغيرة.

56 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 8، ص 138، طبعة بيروت.

57 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير سوره الطلاق، باب ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ (التحريم: 2)

58 سنن أبو داؤد؛ كتاب الأدب، باب مَا جَاءَ فِي الْمِزَاحِ.

59 مختصر تاريخ دمشق لابن منظور؛ الجزء 13، ص 76، طبعة بيروت.

60 صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن.

61 صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والبسط.

62 سنن أبو داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي الْغِيبَةِ.

63 صحيح البخاري؛ كتاب الجماعة والإمامة، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة.

64 صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل ، باب من فضائل زينب، أم المؤمنين، رضي الله عنها.

65 Muhammad a Biography of the Prophet; Karen Armstrong, page.160, UK 1991.

إحسان رسول الله ﷺ إلى المرأة

النساء قبل الإسلام

لم يكن رسول الله ﷺ أول من دافع عن حقوق المرأة فحسب، بل كان أيضا أول من أنشأ لهن مكانة.

لتقدير مدى إحسانه ﷺ إلى النساء، لا بد أن نفحص حالة المرأة في عصره. إن الصورة الحقيقية لمكانة المرأة في ذلك الزمن قد ذكرها لنا القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى:
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: 59-60). لقد جرت عادة دفن الفتيات الصغيرات في بعض القبائل العربية بسبب العار الناجم عن ولادتهن. ذات مرة روى شخص لرسول الله ﷺ قصة يتمزق لها الفؤاد بشأن دفن ابنته في الرمال، حيث قال: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ فَكُنَّا نَقْتُلُ الْأَوْلَادَ وَكَانَتْ عِنْدِي ابْنَةٌ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاتَّبَعَتْنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْرًا مِنْ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِي الْبِئْرِ وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ فَبَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ فَأَعَادَهُ فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ.[1]

لقد علّم سيدنا محمد ﷺ أصحابه قائلا: مَنْ وُلِدَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا يَعْنِي الذَّكَرَ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّةَ.[2] قال عمر بن الخطاب ﷺ: وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتِي لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ فَقُلْتُ لَهَا مَا لَكَ وَلِمَا هَا هُنَا وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ فَقَالَتْ لِي عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.[3]

كما كانت الأرامل أيام الجاهلية توزع كإرث. كان أقرب شخص للمتوفى كالإبن الأكبر للزوج مثلًا لديه الحق الأكبر عليها، فكان إما يتزوجها بنفسه إن شاء أو أن يزوجها لمن يرضاه هو؛ فلم يكن للنساء أدنى حق بهذا الأمر.[4]

أعطى النبي الكريم محمد ﷺ للأرامل حق الزواج حيث قال إنهنّ أحق باتخاذ قرار زواجهنّ من أوليائهنّ، كما جاء في الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ: "لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ أَنْ تَسْكُتَ".[5]

في تلك الأيام، لم يكن هناك أي ضمان لحقوق الفتيات اليتيمات وفي بعض الأحيان كان أولياء أمورهن يتزوجون بهن طمعًا بثروتهن إن كن ثريات، وبذات الوقت يحددون مهرًا ضئيلا لهن. لقد نهى القرآن الكريم عن جميع هذه الممارسات الشريرة وأمر بالعدل في شئون اليتامى.[6]

كانت في الجاهلية عادة تُذِلُّ النساء إذ كان عليهن البقاء في عزلة تامة أيام الحيض، لم يكن يسمح للزوجة بمخالطة زوجها، كما كان باقي أفراد الأسرة يمتنعون عن التواصل معها خلال تلك الأيام أيضا فلا يؤاكلوها ولا يشاربوها.[7]

لقد أبطل رسول الله ﷺ هذه العادة السيئة تماما؛ وتلقى في ذلك الآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: 223).

إن التعاليم الإسلامية لا تفرض أي قيود على التواصل الاجتماعي مع النساء أيام حيضهن، وقد كان رسول الله ﷺ أكثر لطفًا بتعامله مع زوجاته في تلك الأيام، حيث كان يجالسهن ويستريح بالسرير معهن دون أن يتغير من لطفه تجاههن شيء.[8]

أما المعاملة الأسوأ والذل والهوان الذي كانت تتعرض له المرأة فقد كان بعد وفاة زوجها. كانت تعطى ملابس بالية وتعزل في مكان مهجور من المنزل لتستكمل فترة الحداد على زوجها، وبحسب عادات العرب وقتها، كان يسمح لها بالخروج من هذه العزلة بعد عام، وذلك بعد أن ترمي كلبا مارا ببعرة.[9]

إن أصدقَ وأروعَ صورة لتعاسة المرأة وبؤسها أيام الجاهلية، وللثورة التي أحدثها النبي الكريم محمد ﷺ قد رسمتْها السيدة نواب مباركة بيغم رضي الله عنها ابنةُ سيدنا ميرزا غلام أحمد القادياني المسيح الموعود عليه السلام، فقالت مخاطبةً المرأة في أبيات شعر لها ما تعريبه:

"أيتها الأخت، تَذكّري الأيامَ التي كنتِ تُدفَنين فيها حيّةً،

حتى إن جدران المنزل كانت تبكي عند ولادتك،

عندما كان الشعور الزائف بالشرف لدى أبيك يغلي،

كانت أمُّك تشعر بالذعر كما لو أنها أنجبتْ ثعبانًا،

أولئك الذين غذّوك بدم الحياة، هم الذين كانوا يسفكون دمك،

وكان شعور الكراهية تجاهك يطغى على شعور الحب الطبيعي،

ماذا كانت قيمتك؟ فكّري مليًّا كم كنتِ تُحترمين؟

لو بقيتِ على قيد الحياة مِن حسن الحظ فكانت حياتك أسوأ من الموت

كونك امرأةً كان خطأً فادحًا ومدعاةً لكل قهر،

وما كان هناك من سبيل للتكفير عن هذه الجريمة، بل كنت تعاقَبين طول الحياة،

كما لو كنتِ حجرًا بلا إحساس ومشاعر،

تَذكّري مذلتك حين كنت توزَّعين كمال الإرث،

فأتى ذلك الذي هو "رحمة للعالمين" وأصبح حاميَك،

وضمِن لك حقوقك وحماك من الظلم، فسُميتِ أنت أيضا إنسانةً

صلِّي على ذلك المحسن مئات المرات كل يوم،

ذلك الطيب الكريم محمد سيدُ الرسل ﷺ!" •

احترام المرأة

لتبديد مشاعر الكراهية والاشمئزاز من النساء التي كانت سائدة في الجاهلية، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ".[10]

نستنتج من قول رسول الله ﷺ هذا أن المرأة، رغم ضعفها الفكري، تمتلك قدرات تجعلها تتفوق بعض الأحيان على الرجال.[11]

• درّ عدن؛ ص 18-19، للسيدة نواب مباركة بيغم المحترمة ابنة حضرة ميرزا غلام أحمد المسيح الموعود عليه السلام، طبعة كراتشي 2008.

وقد خصص رسول الله ﷺ بناء على طلب النساء يومًا لهن فقط لتعليمهن وتدريبهن، وكان في ذلك اليوم يعظهن ويجيب على أسئلتهن.[12]

لقد أشرك رسول الله ﷺ النساء في الحياة الاجتماعية العامة، حيث نصح أن يشارك كل الرجال والنساء والفتيات في العيد وغيره، وقال بأنه إن لم يكن لإحداهن جلبابا فلتلبسها صاحبتها جلبابا ولتشهد الخير ودعوة المؤمنين، ونصح أيضا الحُيَّض أن يخرجن للعيد ليشتركن بالدعاء وإن لم يصلين.[13]

لقد رفع رسول الله ﷺ من شأن المرأة بصورة فريدة في تاريخ البشرية سواء أكانت أما أو ابنة أو أختًا؛ فأخبرنا أن "الجنة تحت أقدام الأمهات".[14]

كما بشر ﷺ الذين اعتادوا على وأد بناتهم في الجاهلية بالجنة إن هم أحسنوا تربية بناتهم. عندما كانت ابنته فاطمة رضي الله عنها، تأتي لزيارة رسول الله ﷺ كان يقوم إكرامًا لها. لقد أقام احترام وكرامة الزوجات وجعلهن ملكات البيت، وقال ﷺ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي".[15]

لقد اهتم رسول الله ﷺ بشكل خاص باحترام النساء وحساسيتهن كما يتبين جليا من الحديث التالي: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَغُلَامٌ أَسْوَدُ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ يَحْدُو فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ "يَا أَنْجَشَةُ! رُوَيْدَكَ، سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ." وقَالَ أَبُو قِلَابَةَ: تَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ لَوْ تَكَلَّمَ بِهَا بَعْضُكُمْ لَعِبْتُمُوهَا عَلَيْهِ.[16]

حقوق المرأة

لا شك أنه كان عملا شجاعًا من رسول الله ﷺ بأن يدافع عن حقوق النساء في زمن كان المجتمع كله ينظر إليهن بازدراء. الحقيقة أن نبينا الكريم محمد ﷺ كونه نفسه رجلا، كان متفردا في حمل لواء حقوق الإنسان، وسيسجل ذلك بحروف من ذهب في تاريخ العالم.

في مجتمع كانت حقوق النساء فيه مفقودة كليًا، وكن يعامَلن بأسوأ مما يعامل به العبيد، جعل رسول الله ﷺ منهن ملكات البيوت وقال: "المرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها".[17] وقد بيّن بالكامل حقوق المرأة.

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ قَالَ « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ -أَوِ اكْتَسَبْتَ- وَلاَ تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلاَ تُقَبِّحْ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلا فِى الْبَيْتِ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: « وَلاَ تُقَبِّحْ » أَنْ تَقُولَ قَبَّحَكِ اللَّهُ.[18]

أما فيما يتعلق بضرب النساء المسموح به في الحالات القصوى فلا بد من التذكير أن رسول الله ﷺ قد أذن للزوج فقط الذي هو المسئول في البيت، باتخاذ إجراء كهذا في حال إتيانهم بفاحشة فقط، وعندما رأى رسول الله ﷺ أن هذا السماح قد أسيء استخدامه منعه وقال "لا تضربوا إماء الله". وفي مناسبة أخرى، عندما علم ﷺ أن البعض يعامل النساء بقسوة قال: "ليس أولئك بخياركم".[19]

قدّم رسول الله ﷺ في خطاب حجة الوداع قانونًا كاملا وشاملا للحياة. وركز خصوصا على حقوق النساء قائلا: "أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا. أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ.[20]

شهادة الأغيار

لقد كتبت المستشرقة الإيطالية الأستاذة الدكتورة فاليري (Vaglieri): في كتابها "شرح دين الإسلام"، هذه الكلمات عن حماية حقوق النساء في الإسلام:

"قبل ظهور الإسلام، لم يكن هناك حد لعدد الزوجات، وما سمحت الشريعة الإسلامية بتعدد الزوجات إلا بشروط كثيرة مفروضة. لم يسمح الإسلام بالزيجات المشروطة أو المؤقتة التي كانت ذريعة لارتكاب الفواحش. كما أعطى الإسلام المرأة حقوقًا لم تكن قد تمتعت بها قط من قبل. ومع أن النساء في أوروبا يتمتعن بمكانة اجتماعية عظيمة، إلا أننا لو رجعنا بضع سنوات إلى الوراء وقارنا استقلالية النساء الأوروبيات باستقلالية النساء المسلمات، لتبين جليًا بأن مكانة النساء الأوروبيات قانونًا كانت أقل بكثير من مركز نظيراتهن المسلمات. وهذا الوضع مستمر في بعض الدول حتى اليوم.

وتشارك المرأة المسلمة إخوتها في الميراث (مع أن نصيبها أقل)، ولا تُزَوَّج كرهًا، ولا ينبغي أن يعاملها زوجها بقسوة، ومِن حقها مطالبة زوجها بالمهر والنفقة حتى لو كانت ثرية، وإذا كانت المرأة قادرة فلها أن تدير ممتلكاتها بنفسها."[21]

شهادة جون دافنبورت

"لقد ضَمِن محمد قبل ألف وثلاثمئة عام للأمهات والزوجات والبنات المسلمات مكانةً وكرامة لم تؤمّنهما القوانين الغربية للمرأة."[22]

الحقيقة أن رسول الله ﷺ الذي هو رحمة للعالمين قد دعم النساء وأقام لهن حقوقهن كاملة، وبتعليمه النقي قد أصبحت النساء في زمرة البشر.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

1 سنن الدارمي؛ الجزء 1، ص 14، طبعة بيروت.

2 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 223، طبعة القاهرة.

3 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب سورة التحريم.

4 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء.

5 صحيح البخاري؛ كتاب الحيل، باب في النكاح.

6 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء.

7 صحيح مسلم؛ كتاب الحيض، باب جَوَازِ غَسْلِ الْحَائِضِ رَأْسَ زَوْجِهَا وَتَرْجِيلِهِ وَطَهَارَةِ سُؤْرِهَا وَالاِتِّكَاءِ فِي حِجْرِهَا وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ.

8 سنن أبي داود؛ كتاب الطهارة، باب فِي مُؤَاكَلَةِ الْحَائِضِ وَمُجَامَعَتِهَا.

9 صحيح البخاري؛ كتاب الطلاق، باب الكحل للحادة.

10 سنن النسائي؛ كِتَاب عِشْرَةِ النِّسَاءِ، بَاب حُبِّ النِّسَاءِ.

11 صحيح مسلم؛ كتاب الايمان، باب بَيَانِ نُقْصَانِ الإِيمَانِ بِنَقْصِ الطَّاعَاتِ. صحيح ابن خزيمة الجزء 1، ص 495، طبعة بيروت.

12 صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة.

13 صحيح البخاري؛ كتاب العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد.

14 الكامل لابن عدي؛ الجزء 6، ص348، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 16، ص461، طبعة مصر.

15 سنن الترمذي؛ كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ.

16 صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب فِي رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلنِّسَاءِ وَأَمْرِ السُّوَّاقِ مَطَايَاهُنَّ بِالرِّفْقِ بِهِنَّ.

17 صحيح البخاري؛ كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه.

18 سنن أبي داود؛ كتاب النكاح، باب فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا.

19 سنن أبي داود؛ كتاب النكاح، باب فِي ضَرْبِ النِّسَاءِ.

20 سنن الترمذي؛ كتاب الرضاع باب ما جاء في حق المرأة على زوجها.

21 An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar , p.37.41, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

22 Muhammad and Teachings of Quran; John Davenport, p.126, Sh. Muhammad Ashraf, 1964.

حسن معاملة رسول الله ﷺ للأصدقاء والجيران

يُعّرف المجتمع البشري بأنه مجموعة من الأفراد، ولا يمكن أن يزدهر دون تفاعل أفراده ووجود علاقات متبادلة بينهم. إذا تعلَّم كل شخص فن صداقة واحترام الناس الذين يعيشون بالقرب منه، ستختفي المشاكل والأذى وسيصبح العالم جنة سلام.

يقول رسول الله ﷺ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ".[1]

لقد شبه رسول الله ﷺ المؤمنين الذين يتعاملون مع بعضهم البعض بالمحبة واللطف بالجسد الواحد حيث قال: "إِنَّمَا مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالرَّجُلِ الْوَاحِدِ إِذَا وَجِعَ مِنْهُ شَيْءٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ".[2]

وقال ﷺ أيضًا: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".[3]

ثم جمع رسول الله ﷺ المؤمنين في رابطة هي أقوى من الصداقة؛ رابطة الأخوة في الإسلام فقال: "لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا".[4]

رسّخ رسول الله ﷺ الحقوق الواجبة على المؤمن تجاه غيره من المؤمنين فقال:

"لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سِتُّ خِصَالٍ يَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ وَيَشْهَدُهُ إِذَا مَاتَ وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ وَيُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ وَيَنْصَحُ لَهُ إِذَا غَابَ أَوْ شَهِدَ".[5]

بدأ رسول الله ﷺ مهمتة المتعلقة بإحلال السلام إنطلاقا من الأفراد ثم من منازلهم. تُبنى أسس الصداقة بتواصل المرء مع شخص آخر، كما تنشأ حقوق الجيرة من تفاعل الأسرة مع جيرانها. لقد نهض ﷺ بهاتين المسئوليتين بأسلوب رائع كلما سنحت الفرصة.

شملت صداقات رسول الله ﷺ في معظم الأحيان الفقراء والضعفاء. يقول ﷺ: "ابْغُونِي فِي ضُعَفَائِكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ ".[6]

كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يدعو بالدعاء التالي: "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ".[7]

قال سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه في إحدى خطبه: " إِنَّا وَاللهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي

السَّفَرِ وَالْحَضَرِ وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا وَيَغْزُو مَعَنَا وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَإِنَّ نَاسًا يُعْلِمُونِي بِهِ عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ".[8]

لقد علمنا رسول الله ﷺ آداب الصداقة والأخوة إذ قال: "لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ".[9]

كان رسول الله ﷺ مراعيًا جدًا لمشاعر أصحابه ويظهر ذلك جليًا من قوله ﷺ: "إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةٌ فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ".[10]

كما علمنا ﷺ أيضا أن نراعي حقوق الآخرين عند الجلوس لتناول الطعام معًا حيث ورد في الحديث الشريف: "حَدَّثَنَا جَبَلَةُ بْنُ سُحَيْمٍ قَالَ أَصَابَنَا عَامُ سَنَةٍ مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَرَزَقَنَا تَمْرًا فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَمُرُّ بِنَا وَنَحْنُ نَأْكُلُ وَيَقُولُ لَا تُقَارِنُوا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ الْقِرَانِ ثُمَّ يَقُولُ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ".[11] والقِران جمْع تمرتين بلقمة واحدة.

إن الوفاء جوهرة ثمينة. يقول رسول الله ﷺ :" مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ".[12]

والحق أن الذين يظهرون أسمى الامتنان لله ﷻ هم أولئك الذين يتفوقون على البقية في وفائهم وعلاقاتهم مع الناس.

شمل لطف رسول الله ﷺ كل شخص كان على تواصل معه وكان دومًا يؤدي واجبه تجاه جيرانه؛ فقال ﷺ: "مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ".[13]

وفي هذا السياق، قد ورد في الحديث الشريف أنه يمكن معرفة أعمال الشخص إن كانت خيرًا أم شرًا من خلال سلوكه مع جيرانه؛ فقال ﷺ: "إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ وَإِذَا قَالُوا إِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ".[14]

قدّم رسول الله ﷺ مثالًا رائعًا للصداقة من خلال الحادثة التالية: لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه صديق طفولته، فحصل نزاع بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلم رسول الله ﷺ بذلك، فأظهر استياءه من عمر رضي الله عنه وقال له: "إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي" مرتين، فما أوذي بعدها.[15]

وروى ابن عباس رضي الله عنه حادثًا آخر عن حب رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه فقال بأن رسول الله ﷺ: "كان هو وأصحابه يسبحون في غدير أي في الجُحْفة، فقال النبي ﷺ: "ليسبح كل رجل

منكم إلى صاحبه، فسبح كل رجل إلى صاحبه وبقي النبي ﷺ وأبو بكر، فسبح النبي ﷺ إلى أبي بكر ﵁ حتى اعتنقه وقال: "أنا وصاحبي، أنا وصاحبي" وفي رواية "أنا إلى صاحبي، أنا إلى صاحبي". [16]

كان بلال وزيد بن حارثة رضي الله عنهما أصحاب رسول الله ﷺ في الأيام الأولى الصعبة في مكة، وكان أبو بكر الصديق ﵁ صاحبه في هجرته الخطيرة إلى المدينة؛ لذا فلم ينسهم رسول الله ﷺ عند فتح مكة. في ذلك اليوم أقبل رسول الله ﷺ من أعلى مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد ومعه عن يمينه أبو بكر الصديق ﵁ وعن يساره بلال ﵁. هكذا دخل الموكب الذي يظهر الولاء للأصحاب مكة المكرمة. [17]

قبيل معركة الخندق، كان رسول الله ﷺ يَرْتَجِزُ وأصحابه أثناء حفرهم الخندق قائلا:

"اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ   فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ". [18]

كان رسول الله ﷺ يقدر تضحيات الأنصار في المدينة المنورة؛ ذات مرة رأى النبي ﷺ نساء وصبيانا من الأنصار مقبلين من عرس فقام ﷺ مُمْثِلا (أي منتصبًا) فقال: "اللهم أنتم من أحب الناس إلي"، قالها ثلاث مرات. [19]

كان رسول الله ﷺ يحب خدمه كثيرًا وكان شديد التقدير لخدماتهم.

وكان ﷺ يكنُّ مشاعر خاصة لشهداء أحد. هناك حادثة جديرة بالذكر؛ إذ تعبر عن حبه ﷺ هذا. أثناء عودته ﷺ من غزوة خيبر منتصرًا انتصارًا عظيمًا، مر بأحُد فغمرته مشاعر قوية بذكرى شهداء أُحد، إذ اصطبغت رمال الوادي بدمائهم ودفنوا في ساحة المعركة، وأثناء عبوره الوادي قال ﷺ: "هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ". [20] كان ﷺ يقصد من أُحد، شهداء أحد الذين دفنوا هناك وأيضا جيرانه أي الأنصار.

ذات مرة قال رسول الله ﷺ مشيرًا إلى شهداء أُحد: "هَؤُلَاءِ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَلَسْنَا يَا رَسُولَ اللهِ بِإِخْوَانِهِمْ أَسْلَمْنَا كَمَا أَسْلَمُوا وَجَاهَدْنَا كَمَا جَاهَدُوا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَلَى وَلَكِنْ لَا أَدْرِي مَا تُحْدِثُونَ بَعْدِي فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ بَكَى ثُمَّ قَالَ أَئِنَّا لَكَائِنُونَ بَعْدَكَ. [21]

يروي عقبة بن عامر ﵁ أنه بعد مرور ثماني سنوات على غزوة أحد (وكانت السنة الحادية عشرة من الهجرة وهي التي توفي فيها رسول الله ﷺ)، خرج رسول الله ﷺ يوما، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف، فكانت صلاته تلك كالمودع للأحياء والأموات. [22]

صون رسول الله ﷺ كرامة أصدقائه

عند فتح مكة، نزل المسلمون أثناء رحلتهم في وادي مرّ الظهران، فأمر رسول الله ﷺ ابن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا منها فقال رسول الله ﷺ: "مَا تَضْحَكُونَ! لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ."[23]

احترام رسول الله ﷺ لوالد صديقه المسن

عندما دَخَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَكّةَ وَجلس في الْمَسْجِدَ، أَتَى أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَقُودُهُ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَالَ هَلّا تَرَكْت الشّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللّهِ هُوَ أَحَقّ أَنْ يَمْشِيَ إلَيْك مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إلَيْهِ. فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَأَسْلَمَ. وقد دخل به أبو بكر وَكَأَنّ رَأْسَه ثَغَامَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "غَيّرُوا هَذَا مِنْ شَعرِهِ". [24]

كان رسول الله ﷺ يحترم أصدقائه القدامى احترامًا شديدًا، وظل محافظًا على علاقات الصداقة تلك بكل ولاء واحترام؛ فلم ينسَ ﷺ أبدًا الفضل الذي أُسدي إليه.

ذات مرة، قدم وفد النجاشي إلى رسول الله ﷺ فقام يخدمهم، فقال أصحابه: "نحن نكفيك يا رسول الله". قال ﷺ: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم". [25]

لم ينسَ رسول الله ﷺ صديقات زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها بعد وفاتها فكان يرسل لهن الهدايا.[26]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟، قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: "بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟" قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت قلت: "يا رسول الله تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: "إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإنَّ حُسن العهد من الإيمان". [27]

لما كان يوم فتح هوازن جاءت جارية إلى النبي ﷺ، فقالت: "يا رسول الله، أنا أختك، أنا شيماء بنت الحارث"، فقال لها: "إن تكوني صادقة فإن يك مني أثرًا لن يبلى"، فكشفت عن

عضدها ثم قالت: "نعم يا رسول الله حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة". فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، ثم قال: "سلي تعطي، واشفعي تشفعي".[28]

يقول السائب بن عبد الله رضي الله عنه: جيءَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، جَاءَ بِي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَزُهَيْرٌ فَجَعَلُوا يَثْنُونَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تُعْلِمُونِي بِهِ قَدْ كَانَ صَاحِبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ".[29]

فتح مكة المكرمة والولاء لأهل المدينة المنورة

إن المشهد الأكثر تأثيرًا هو حين كان رسول الله ﷺ وأصحابه ينعمون بفوزهم بمكة بينما أخفى بعض الأنصار المخلصين مخاوفهم بأن يتخذ رسول الله ﷺ من مكة مُقاما دائما. ثم بدأت مخاوفهم تلك تجري على ألسنتهم، إذ كانوا يقولون بأن رسول الله ﷺ يعامل أهل مكة بمنتهى اللطف مما يعني أنه يكن لموطنه حبًا خاصًا، وإن سيطر حبه هذا على قلبه فلربما يقرر العيش في مكة، وإن حصل ذلك فماذا سيحل بنا؟

يُقال بأن الحب يؤدي إلى آلاف الشبهات. كانت تلك المخاوف تعكس حب الأنصار لرسول الله ﷺ. أثناء مواساته وتشجيعه لأصحابه في مكة المكرمة على ما عانوه أيام الاضطهاد والضعف، أخبره الله سبحانه وتعالى بوحي عما يجول في خاطر الأنصار، فجمع رسول الله ﷺ الأنصار عند الصفا وقال لهم: "قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ. أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ ".

فبعد أن أفصح الأنصار عن مخاوفهم، طمأنهم رسول الله ﷺ وقال بكل هيبة: إذا تصرفت على هذا النحو فماذا عسى يُقال عني؟ إنني أسألكم هل سيذكرني العالم بالخير؟ اسمي محمد ويعني الحمد في كل حال. لن تجدوني غير مخلص، لا شك أنني رسول الله وخادمه، لقد غادرت هذه القرية لله سبحانه وتعالى، فلا أعود إليها أبدًا. أنا الآن صاحبكم في الحياة، ولا جدال في عدم إقامتي في مكة، لن يفصلني عن أصدقاء محبين ومخلصين مثلكم إلا الموت. كان الأنصار كتموا مخاوفهم عن رسول الله ﷺ، نتيجة حبهم الشديد له، وقد شعروا بالحزن والخجل من إيذاء مشاعر الرسول

ﷺ؛ فبكوا بكاءً شديدًا ومريرًا وقالوا: "وَاللهِ مَا قُلْنَا إِلَّا ضِنًّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ. قَال ﷺ: "فَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ". [30]

كما أن اللطف بين الأفراد يجلب السلام والأمن للمجتمع، فإن علاقة المحبة بين عائلة وأخرى توحّد الحي، وفي هذا المجال فإن تعاليم رسول الله ﷺ قد وسّعت مجال الجيرة؛ إذ قال ﷺ إن حقوق الجار تمتد إلى أربعين بيتا مجاورا. [31]

إذا تعلَّم الأشخاص الذين ينسبون أنفسهم إلى رسول الله ﷺ واجباتهم تجاه الجيران وطبقوا تلك التعاليم؛ بحيث يهتم كل فرد بصاحبه، وتعتني كل أسرة بجيرانها سيصبح كل جزء من المدينة مراعيا للجزء الآخر، وهكذا يعي كل بلد حقوق البلد الذي يجاوره فيصبح العالم ملاذًا للسلام. باختصار، إن تعاليم رسول الله ﷺ فيما يتعلق بحقوق الجار فريدة من نوعها.

يقول رسول الله ﷺ: "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ". [32]

كما يقول ﷺ أيضًا: "إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قِيلَ وَمَا عَسَلُهُ قَالَ يَفْتَحُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ". [33] وعسَلَه أي طيّب ثناءه.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ". [34]

حقوق الجار

لقد شرح رسول الله ﷺ حقوق الجار بالتفصيل فقال: "من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه. أتدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقتار ريح قِدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده". [35]

لقد علمنا رسول الله ﷺ من خلال القصة التالية بأنه إذا كان هناك شخص لا يؤدي مسؤوليته تجاه جاره فعلى المجتمع كله أن يساعد الجار المظلوم.

في إحدى الأيام جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جارَهُ فَقَالَ اذْهَبْ فَاصْبِرْ فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَقَالَ اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جارُهُ فَقَالَ لَهُ ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ". [36]

كما كان ﷺ يكثر من قول: " لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ، وَجَارُهُ جَائِعٌ". [37]

كان رسول الله ﷺ لطيفًا جدًا مع جيرانه. وكان من الذين عاشوا بالقرب منه ﷺ أصحابُ الصُفّة، وهم الأتقياء الجائعون الذين سكنوا على منصة بالقرب من المسجد، واعتاد رسول الله ﷺ أن يشاركهم أي صدقة تأتيه أو هدية يستلمها. كانوا كالضيوف الدائمين على المسلمين. كان أبو هريرة ﷺ واحدًا منهم حيث قال: "كنتُ في الصُفّة وهم عشرون رجلا". [38]

وقال ﷺ أيضا: "مرة، لاحظ رسول الله ﷺ علامات الجوع على وجهي فقال:"يَا أَبَا هِرٍّ!" قُلْتُ: "لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ"، قَالَ:"خُذْ فَأَعْطِهِمْ" قَالَ فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ:"أَبَا هِرٍّ!" قُلْتُ:"لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ"، قَالَ:"بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ" قُلْتُ:"صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ"، قَالَ:"اقْعُدْ فَاشْرَبْ"، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ فَقَالَ:"اشْرَبْ" فَشَرِبْتُ فَمَا زَالَ يَقُولُ اشْرَبْ حَتَّى قُلْتُ:"لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا" قَالَ:" فَأَرِنِي"، فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ". [39]

كان أبو عبد الله بن طهفة ﷺ أحد الأتقياء ومن أصحاب الصُفة أيضا فقال:

"كان رسول الله ﷺ إذا كثر الضيف عنده قال لينقلب كل رجل بضيفه حتى إذا كان ذات ليلة اجتمع عنده ضيفان كثير وقال رسول الله ﷺ لينقلب كل رجل مع جليسه قال فكنت ممن انقلب مع رسول الله ﷺ فلما دخل قال يا عائشة هل من شيء قالت نعم حويسة كنت أعددتها لإفطارك قال فجاءت بها في قعيبة لها فتناول رسول الله ﷺ منها قليلا فأكله ثم قال خذوا بسم الله فأكلنا منها حتى ما ننظر إليها ثم قال هل عندك من شراب قالت نعم لبينة كنت أعددتها لك، قال هلميها فجاءت بها فتناولها رسول الله ﷺ فرفعها إلى فيه فشرب قليلا

ثم قال اشربوا بسم الله فشربنا حتى والله ما ننظر إليها ثم خرجنا". [40]

ومن بين هؤلاء كان المقداد بن الأسود وصاحبيه، وبما أنهم كانوا جيران رسول الله ﷺ فكان يعاملهم كضيوف دائمين له، وطلب منهم رسول الله ﷺ أن يتقاسموا معه يوميا حِلبة ثلاثة أمعز كانت له، فتمتعوا بجيرة رسول الله ﷺ لفترة طويلة من الزمن. [41]

كان رسول الله ﷺ ينصح النساء مرارًا بتقديم الهدايا لجيرانهم حتى لو كان شيئًا قليلا: فيقول ﷺ: "يا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ". [42] و"فِرْسن شاة" ما دون الرسغ من اليد، وقيل هو عظم قليل اللحم.

لقد عمل رسول الله ﷺ وزوجاته بهذه التعاليم؛ فذات مرة استفسرت السيدة عائشة رضي الله عنها من رسول الله فقالت: "قلتُ يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: "إلى أقربهما منك بابا". [43]

يجب أن تكون معاملة الجار لطيفة بغض النظر عن الاختلاف بالعقيدة أو الطائفة أو الجنس، وقد تعلم الصحابة هذه الأخلاق الرفيعة من سيدهم ﷺ.

لقد ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أَنَّهُ ذَبَحَ شَاةً فَقَالَ: "أَهْدَيْتُمْ لِجَارِي الْيَهُودِيِّ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ". [44]

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ. قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ• وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ. [45]

تلك هي صفات المجتمع السوي الذي أراد النبي ﷺ أن يتمثلها الناس على المستوى الفردي وفي بيوتهم. يجب أن يكون هدفنا إنشاء مجتمع مثله.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• من مشتقات الحليب.

المراجع والمصادر

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 54، طبعة بيروت.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 278، طبعة القاهرة.

[3] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 251، طبعة القاهرة.

[4] صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب بَيَانِ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الإِيمَانِ وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلاَمِ سَبَبٌ لِحُصُولِهَا.

[5] سنن النسائي؛ كِتَاب الْجَنَائِزِ، باب النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الْأَمْوَاتِ.

[6] سنن الترمذي؛ كتاب الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسملين.

[7] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم.

[8] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 69، طبعة القاهرة.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الهجرة.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب القران في التمر.

[12] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار.

[14] سنن ابن ماجة؛ كتاب الزهد، باب الثناء الحسن.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبيﷺ (لو كنت متخذا خليلا).

[16] السيرة الحلبية؛ الجزء 1، ص 110، طبعة بيروت.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ للأنصار (أنتم أحب الناس إلي).

[20] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب (أحد يحبنا ونحبه).

[21] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب الجهاد، بَاب الشُّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة أحد. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 205، طبعة بيروت.

[23] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 155، طبعة بيروت.

[24] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 405، طبعة بيروت.

[25] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 183–184، طبعة بيروت.

[26] صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها.

[27] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 62، طبعة بيروت.

[28] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 272، طبعة بيروت.

[29] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 425، طبعة القاهرة.

[30] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب فَتْحِ مَكَّةَ.

[31] السنن الكبرى للبيهقي؛ الجزء 1، ص 276، طبعة بيروت.

[32] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حق الجوار.

[33] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 200، طبعة القاهرة.

[34] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب الْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ.

[35] الترغيب والترهيب؛ الجزء 3، ص 243، طبعة بيروت.

[36] الترغيب والترهيب؛ الجزء 3، ص 242، طبعة بيروت.

[37] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 12، ص 154، طبعة بيروت.

[38] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 538، طبعة بيروت. المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 17، طبعة بيروت.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[40] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 426، طبعة القاهرة.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الأشربة، باب إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَفَضْلِ إِيثَارِهِ.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب الشفعة، باب أي الجوار أقرب.

[44] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب في حَقِّ الْجِوَارِ.

[45] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 2، طبعة القاهرة. سنن ابن ماجة؛ كتاب الوصايا، باب الحيف في الوصية.

حسن معاملته ﷺ للعبيد والأسرى

كان رسول الله ﷺ رحمة لكل طبقة من طبقات المجتمع. وما كان في الزمن الذي بُعث فيه من حريةٍ في الدين والمعتقد. وما أصدق ما قاله عمر رضي الله عنه: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا." [1] ولكن الحقيقة المرّة أن العبودية كانت شائعة في تلك الأيام وكانت الأقوام أو القبائل القوية تُغيرُ على الضعيفة وتستعبدها.

وقد حرر رسول الله ﷺ- المحسن للإنسانية- البشرَ من الأغلال، ومنها قيد العبودية، فقد أسقط العبودية عندما أعلن: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: 68)

وقد جعل طرقا عديدة لينال من يؤسَرون في الحرب ويُستعبدون حريتهم، وإحداها دفع الفدية، وإن تعذر على أسير دفع الفدية كاملة فكان من حقه المكاتبة وهو تعاقد مكتوب بأن يدفع الفدية على أقساط.

أُسِر في بدر سبعون من المشركين وكانوا ممن اضطَهدوا أقاربهم المسلمين، فاضطروهم للهجرة من بيوتهم في مكة إلى المدينة، وما اكتفى هؤلاء بذلك بل تبعوهم إلى المدينة وهاجموهم وما تركوهم للعيش بسلام، ولكن رسول الله ﷺ أمر أن يعامل كفار قريش هؤلاء بالحسنى. فعندما جُعل الأسرى في عائلات مختلفة قال لهم رسول الله ﷺ: "استوصوا بالأُسارى خيرا". فعن أبي عزيز بن عُمير أخي مصعب بن عمير رضي الله عنه قال: كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنْ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصّوني بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التّمْرَ لِوَصِيّةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إيّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إلّا نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ فَأَستَحِيي فَأَرُدّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ فَيَرُدّهَا عَلَيّ ما يَمَسّهَا. [2]

وكان العباس رضي الله عنه أحد هؤلاء الأسرى ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصا، وكان رجلا طويلا، فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيّ يقدر عليه فكساه النبي ﷺ. [3]

تحرير أسرى بدر

كان القتل مصير الأسرى وفقا للعرف في ذلك الزمن، وقد ورد في سفر التثنية من العهد القديم

التعليم بقتل جميع الذكور واستعباد نساء وأطفال الأمم المغلوبة. (التثنية 20: 13-14). أما رسول الله ﷺ فقد عامل الأعداء المتعطشين لدمه بكل طيب وأبقى على حياتهم. لقد اقترح عمر رضي الله عنه بأن يُقتل صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم ولكن رسول الله ﷺ رحمهم وقال: "إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس." ورأى أبو بكر رضي الله عنه أن تؤخذ منهم الفدية، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه فأُخِذ من الأسرى الفداء.[4]

وقد تباين الفداء بين الأسرى وفقا لمقدرتهم من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، أما الفقراء والمعدمين منهم فحُرروا دون فدية، وكان من أمثال هؤلاء أبو عزّة عمرو بن عبد الله.[5]

بعض الأسرى ممن لم يكن لهم فداء وكانوا يعلمون القراءة والكتابة، دُفع لكل واحد منهم عشرة من أطفال الأنصار ليعلِّموهم، فإن حذَقوا كان ذلك فداؤهم.[6]

إن حسن المعاملة هذه دفع العديد من الأسرى لقبول الإسلام، وكان عدد هؤلاء ستة عشر من بينهم عقيل بن أبي طالب ونوفل بن حارث وأبو العاص بن ربيع وأبو عزيز بن عمير وخالد بن هشام وسهيل بن عمرو.

شجع رسول الله على إعتاق الرقيق وأعلن أنه عملٌ صالحٌ يثاب المرء عليه، فكان من كفارة العديد من الذنوب تحرير رقبة؛ فمن قتل مؤمنا خطأ عليه تحرير رقبة، ومن كفارة اليمين تحرير رقبة، ومظاهرة الزوجات ثم العودة من كفارته تحرير رقبة.

إن معاملة رسول الله ﷺ وأصحابه الرائعة للعدو المتعطش لدمائهم المهزوم بالحرب أجبر المستشرقين على الثناء عليها، فكتب السير ويليام موير (Sir William Muir) في كتابه "حياة محمد":

"وتبعا لأوامر محمد قام أهل المدينة والمهاجرين الذين أصبح لهم بيوت في المدينة، باستقبال الأسرى وأحسنوا معاملتهم. وفيما بعد قال أحد هؤلاء الأسرى: "جزى الله أهل المدينة خيرا! كانوا يحملوننا ويمشون، وآثرونا بالخبز على قلته وأكلوا التمر". فلا عجب أنه عندما أتى أصدقاء أمثال هؤلاء الأسرى فيما بعد ليفتدوهم وجدوهم قد أعلنوا إسلامهم وأن النبي قد أطلق سراحهم دون فدية."[7]

وبالمثل كتبت الراهبة كارن أرمسترونغ (Karen Armstong) في كتابها: "محمد":

"بعض الأسرى قد تأثروا جدا من الحياة في الأمة فانقلبوا مسلمين، وربما يكون إسلام عمير بن وهب (وهو الذي حاول ثني قريش عن القتال في بدر) من أكثرها إثارة؛ فقد أقنعه صفوان بن أمية أن يرجع إلى المدينة ويغتال محمدا، فرجع عُمير ولكن محمدا ألقى القبض عليه فأسلم."[8]

إن تحرير العبيد التدريجي فيه حكمة ومنفعة؛ فلو حُرر العبيد كلهم في يوم واحد كما حصل في أميركا، لنجم عن ذلك مشاكل اجتماعية لا حصر لها من حيثُ معيشة وسكن هؤلاء المعدمين، ولعانت النساء والأطفال من التشرد والفاقة، ولكن عندما كانت الظروف مواتية، حرر رسول الله ﷺ أعدادا كبيرة دفعة واحدة، ففي معركة حُنين أُسر ستة آلاف من بني هوازن وعندما جاء أقاربهم إلى رسول الله ﷺ لتحريرهم أطلقهم جميعا دون فدية رحمة بهم، فكان ذلك حدثا فريدا من نوعه في التاريخ البشري.[9]

بقي بعض العبيد متعلقين بأسيادهم حتى بعد تطبيق إجراءات تحرير الرقيق، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بحسن معاملة العبيد، في مجتمع كان يعاملهم أسوأ من معاملة الحيوانات، ورفع من مكانتهم وأقام أواصر الأخوة والحب بين العبيد وأسيادهم. كان العرب يضربون العبيد دون رحمة وكأنهم دواب، فمنع رسول الله ﷺ هذه الممارسة بشدة وقال: "خيركم خيركم لمواليهم".[10]

كان أبو مسعود البدري رضي الله عنه يضرب أحد عبيده على خطأ ارتكبه فرآه رسول الله ﷺ فأمره أن يعتقه ففعل.[11]

وقال رسول الله ﷺ: "للمملوك على سيده ثلاث خصال: لا يعجله عن صلاته ولا يقيمه عن طعامه ويشبعه كل الإشباع."[12]

أعطى النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه فتى وأمره أن يحسن إليه، وعندما سأله رسول الله ﷺ عن حال الفتى بعد مدة أخبره أنه أعتقه لأن رسول الله ﷺ قال له أن يحسن إليه. وأعطى النبي ﷺ فاطمة وعليا رضي الله عنهما غلاما وقال لهما: "أحسنا إليه فإني رأيته يصلي."[13]

أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إن خادمي يسيء ويظلم أفأضربه؟ قال: "تعفو عنه كل يوم سبعين مرة."[14]

وعن الْمَعْرُورِ (بْنِ سُوَيْدٍ) قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ

فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ.[15]

وهناك رواية أخرى عن المعرور أيضا، تلقي المزيد من الضوء على هذه الحادثة، قال:

رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيظٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ كُنْتَ أَخَذْتَ الَّذِي عَلَى غُلَامِكَ فَجَعَلْتَهُ مَعَ هَذَا فَكَانَتْ حُلَّةً وَكَسَوْتَ غُلَامَكَ ثَوْبًا غَيْرَهُ؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ إِنِّي كُنْتُ سَابَبْتُ رَجُلا وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَشَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فَضَّلَكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ فَمَنْ لَمْ يُلائِمْكُمْ فَبِيعُوهُ وَلا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللَّهِ."[16]

وفي مناسبة أخرى، قال رسول الله ﷺ: "إذا جاء خادم أحدكم بطعامه فليقعده معه أو ليناوله منه، فإنه هو الذي وَلِيَ حَرَّهُ ودخانه."[17]

وقد نصحنا رسول الله ﷺ بعدم التطاول على العبيد ومراعاة كرامتهم وعزة نفوسهم كبشر، فقال: "وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي."[18]

قد حفظ رسول الله ﷺ حقوق العبيد، فقبل مجيء الإسلام كان بإمكان السيد أن يفرق بين عبده وأمته بعد أن يزوجهما، فحصر النبي ﷺ حق الطلاق بالعبيد أنفسهم.[19]

حب العبيد

كان زيد بن حارثة عبدا لخديجة رضي الله عنها فأهدته للنبي ﷺ فأعتقه ثم تبناه. ومن حسن معاملته له رفض أن يتحرر ويذهب مع أهله عندما جاءوا يطالبون به، مع أن رسول الله ﷺ قد خيره في ذلك إلا أنه أبى أن يتحرر ويعود معهم، مبرهنا بذلك أن صحبة رسول الله ﷺ كانت أفضل من حريته بألف مرة، وقد زوَّجه رسول الله ﷺ خلافا لعادات العرب وقتها من امرأة ذات حسب ونسب من قريش، ابنة عمه زينب رضي الله عنها، ودلل بذلك على أن الإكرام الحقيقي إنما هو للتقوى، ولكن بسبب اختلاف الطبائع لم يستمر ذلك الزواج فزوجه رسول الله ﷺ من أم أيمن رضي الله عنها فأنجبت له أسامة رضي الله عنه.[20]

كان رسول الله ﷺ يحب أسامة حبا شديدا، "أراد النبي ﷺ أن ينحي مخاط أسامة، قالت عائشة دَعْني حتى أنا الذي أفعل، قال: يا عائشة أحبّيه فإني أحبّه."[21]

وكان ﷺ يأخذ أسامة والحسين رضي الله عنهما فيقول: "اللهم أحبهما فإني أحبهما."[22] وقال مرةً معبرا عن حبه له: "لو كان أسامةُ جاريةً لحلّيتُه وكسَوته حتى أُنفِّقه."[23]

كان أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ فقال: خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ وَاللهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ وَلا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا.[24]

وقال أيضا: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ما دريت شيئا قط وافقه ولا شيئا قط خالفه، رضي من الله بما كان، وإن كان بعض أزواجه ليقول: لو فعلت كذا وكذا يقول: دعوه فإنه لا يكون إلا ما أراد الله.[25]

كان رسول الله ﷺ يرفع من معنويات العبيد بمجالستهم على الطعام؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: بعثت معي أم سليم بمكتل فيه رطب إلى رسول الله ﷺ، فلم أجده، وخرج قريبا إلى مولى له، دعاه فصنع له طعاما، فأتيته وهو يأكل، فدعاني لآكل معه، وصنع ثريدة بلحم وقرع، فإذا هو يعجبه القرع، فجعلت أجمعه فأدنيه منه. فلما طعمنا منه رجع إلى منزله. قال ووضعت المكتل بين يديه فجعل يأكل ويقسم حتى فرغ من آخره.[26]

كان خدم رسول الله ﷺ ومواليه (أي من حرر من العبيد) مخلصين له لدرجة تمني صحبته في الآخرة ومنهم ثوبان رضي الله عنه الذي كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه رسول الله ﷺ يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله عن حاله، فقال يا رسول الله ما بي وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك، لأني إن أدخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين وأنا في درجة العبيد فلا أراك، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبدا. فقال رسول الله ﷺ: "المرء مع من أحب."[27]

أما ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه فقد أحسن خدمة رسول الله ﷺ فأراد مكافأته فقال له: "سَلْ" فقال: أسألك مرافقتك في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: "أو غير ذلك؟" فقال: ذاك. فقال رسول الله ﷺ: "فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ".[28]

تقول المستشرقة الإيطالية الشهيرة الدكتورة فاليري (Vaglieri):

"وُجدت عادة الاسترقاق منذ نشأة المجتمعات البشرية وهي موجودة الآن أيضا. ظروف العبيد أفضل نسبيا في البيوت المسلمة سواء أكانوا حضرا أم رُحلا، ولا مجال لمقارنة الممارسات الاستعبادية في المشرق مع الاستعباد في أميركا قبل مئات السنين. نجد من الأحاديث تعاطفا رائعا بحيث قال النبي ﷺ: "لا يقل أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي". إن حُلِّلت هذه الأحداث تاريخيا سيظهر جليا أن النبي محمد ﷺ قد أصلح هذا النظام بطريقة ممتازة. كان المرء قبل الإسلام تحت خطر خسران حريته إن لم يفِ بدينه، أما بعد الإسلام فما كان بمقدور مسلم أن يستعبد رجلا حرا. لم يحدّ النبي محمد ﷺ من الاستعباد فقط بل أصدر قوانين خاصة بذلك وحض المسلمين على الاستمرار بالكفاح في هذا المجال حتى تحرير آخر عبد." [29]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] كنز العمال؛ الجزء 12، ص 661 ، طبعة مصر. رحمة للعالمين لمحمد سليمان المنصورفوري (المتوفى: 1348هـ)؛ الجزء 1، ص 418، طبعة الرياض.

[2] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 644، طبعة بيروت. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 6، ص 115، طبعة بيروت.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب كسوة للأسارى.

[4] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 30و383، طبعة القاهرة.

[5] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 60، طبعة بيروت.

[6] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 2، ص 22، طبعة بيروت.

[7] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 242. New edition 1877, London.

[8] Muhammad a Biography of the Prophet; Karen Armstrong, page.180, UK 1991.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى يوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا.

[10] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 433، طبعة بيروت.

[11] صحيح مسلم؛ كتاب الأيمان، باب صُحْبَةِ الْمَمَالِيكِ وَكَفَّارَةِ مَنْ لَطَمَ عَبْدَهُ.

[12] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 299، طبعة بيروت.

[13] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 434، طبعة بيروت.

[14] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 435، طبعة بيروت.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك.

[16] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب فِي حَقِّ الْمَمْلُوكِ.

[17] سنن ابن ماجه؛ كتاب الأطعمة، باب إذا أتاه خادمة بطعام فليناوله منه.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي.

[19] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطلاق، باب طلاق العبد.

[20] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 42، طبعة بيروت.

[21] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب، باب مناقب أسامة بن زيد رضي الله عنه.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنه.

[23] سنن ابن ماجة؛ كتاب النكاح، باب الشفاعة في التزويج.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل. صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا.

[25] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 577، طبعة بيروت.

[26] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب الدباء.

[27] تفسير الرازي؛ الجزء 5، ص 273، طبعة بيروت.

28 صحيح مسلم؛ كتاب الصلاة، باب فَضْلِ السُّجُودِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ.

29 An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar, p.41, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

رسولنا الكريم ﷺ المدافع عن الأيتام والأرامل وحاميهم

حال المجتمع قبل مجيء الإسلام

لم يكن قبل مجيء الإسلام من حماية للأيتام، فبدل إعطائهم حقوقهم وحفظ كرامتهم كانوا ينبذون باحتقار، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ.* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: 2-4). وفي موقع آخر قال ﷻ: ﴿كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الفجر: 18-19).

لقد كان النبي ﷺ بنفسه يتيما ولكونه من عائلة فقيرة ما كانت من مرضع لتقبل به حتى قبلت به حليمة السعدية، امرأة من قبيلة بني سعد، التي كانت تبحث يائسة عن طفل ترضعه. لم يكن في ذلك المجتمع من ضمان لحقوق الأيتام، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال إنه كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوّجها أبدًا، فإن كانت جميلة وهويها تزوَّجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. لقد نهى القرآن الكريم عن هذه العادات السيئة وأمر بالعدل مع اليتيمات.[1]

وكذلك كان حال حقوق الأرامل، فبعد وفاة أزواجهن كانت حتى حقوقهن في العيش تنزع منهن، ففي الهند كانت النساء تحرقن على محارق أزواجهن، وفي الجزيرة العربية كانت الأرامل تعامل معاملة الأموات، ووفق تقاليد العرب في ذلك الوقت كانت النساء تقسّمن كما توزع التركة، وكان الأقرباء المقربون خاصة بِكر زوجها من الأبناء أحق بها، فإن أراد تزوجها وإن لم يفعل فما كان بإمكانها الزواج من غيره دون إذنه. فباختصار لم يكن للأرامل من حقوق. لقد أعطى رسول الله ﷺ الأرامل حق النكاح وقال بأنها أحق بالقرار لنفسها من ولي أمرها.[2]

كانت معاملة الأرامل مهينة ومن أسوأ المعاملات، فكانوا يلبسونها ثيابا مقرفة ويبقونها في مكان معزول من البيت إلى سنة كاملة لانقضاء المدة وبعد مرور عام كان يسمح لها بالخروج بعد أن ترمي كلبا مارا ببعرة، وفق تقليد العرب.[3]

باختصار، فعند بعثة رسول الله ﷺ كانت حقوق اليتامى والأرامل معدومة في العالم العربي إلا عند قليل من ذوي الأخلاق العالية الذين برز منهم النبي ﷺ كما وصفه عمُّه أبو طالب في

بيت شعر له:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجههِ ثِمالُ اليتامى عصمة للأراملِ[4]

أي مطعم اليتامى والقائم بأمرهم والحافظ للأرامل.

وقد اختار الله ﷻ عبد المطلب وأبا طالب لكفالة أعظم شخص سيحدث ثورة في المجتمع. لقد خاطب الله تبارك وتعالى النبي ﷺ قائلا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (الضحى: 7)، حيث جعله يمر بتجربة اليتم ومصاعبها، ليدرك أدق مشاعر اليتامى، فيؤدي حقوقهم على أحسن وجه، ويوصي العالم بذلك وصية بليغة. وهكذا قد جعل الله الأيتام كلهم مكرمين.

تعاليم الإسلام المتعلقة بالأرامل والأيتام

واجه مسلمو المدينة في العام الثالث من الهجرة ابتلاء عظيما عندما استُشهد سبعون من صحابة رسول الله ﷺ، وقد نتج عن ذلك عدد كبير من الأرامل واليتامى، وفي تلك المرحلة الحرجة بيّن القرآن الكريم أن الخسارة كانت بسبب أخطاء المسلمين وبالوقت نفسه رفع من درجات الشهداء إلى أعلى عليين، وقد أثنى القرآن الكريم على صبر وثبات أفراد عائلاتهم وذلك كان مصدر عزاء لهم. لقد بين القرآن الكريم في ذلك الوقت التعليم المتعلق باليتامى ليكون إرشادا في الظروف المستقبلية. ما يحصل عادة في ظروف مماثلة أن اليتامى والأرامل، بعد تلقيهم بعض العون المباشر، يتركون دون مساعد ولا دعم، يهجرون ويتركون دون كفيل، لتصبح الأطماع الشخصية سيدة الموقف في تدبير ممتلكاتهم. ففي بعض الأحيان تُتزوج الأرامل طمعا بأموالهن وبدل أن يلقى أيتامهن العناية يصبحون محط القسوة وتنهب ثروتهم ويصبحون الطبقة المضطهدة في المجتمع.

لقد حض القرآن الكريم مرارا على حسن معاملة الأرامل واليتامى وهي من أهم المسئوليات الملقاة على الأقارب، وقد وصف أداء هذه المسئولية بالعقبة: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (البلد: 12-19). وقد حُض المؤمنون على الزواج من الأرامل والإماء بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى

مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: 33). فإن فشل الأقارب في أداءِ هذه المسئولية عندها تقع تلك المسئولية على المجتمع. وقد نصح رسول الله ﷺ المؤمنين أن يعتنوا بالأيتام في حال عدم تمكن أقاربهم من أداء حقهم، وقد أمر برعاية الأولاد من اليتامى حتى يبلغوا الحلم والبنات حتى تزويجهن، وأن يربوا التربية الأخلاقية والدينية. إن كلمة اليتيم من اليُتم الذي يعني الغفلة وسمي اليتيم يتيما لأنه يُتغافل عن بره بعد وفاة أبيه. وبالمثل فإن كلمة مسكين من ساكن، أي العاجز الذي لا يقدر على الكسب لنفسه وهذا يشمل الأرامل الفقيرات، وفي النظام الإسلامي فإن حاجاتهم وحقوقهم تُنال من بيت المال.

إن الهدي الموحى به لرسول الله ﷺ لم يشر فقط إلى المظالم الاجتماعية بل وجه للطرق الإصلاحية أيضا وبحكمة وضع التدابير للمحافظة على ممتلكات الأيتام.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: 10-11).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: 35).

وفيما يتعلق بتدريبهم والإشراف عليهم جاء التوجيه للمجتمع كما يلي:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 221).

ولمّا أنزل الله عز وجل هذه الآية قال ابن عباس التزم الصحابة بتعليم القرآن الكريم بشدة بألا ينفقوا مال اليتيم حتى عزلوا طعامه عن طعامهم وشرابه عن شرابهم، فأصبحوا يرمون ما يفضُل من طعامه خشية استهلاكه، فأنزل الله ﷻ هذه الآية وأنه لا جناح عليكم بمخالطتهم، وأن الله يعلم نواياكم.[5]

وفيما يتعلق بكفالة البنات اليتيمات وحفظ مالهن، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ

لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: 128).

وفي شرحها للآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ (النساء: 4) المتعلقة بالزواج من اليتيمات قالت عائشة رضي الله عنها أن المقصود هنا تلك اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيريد وليها أن يتزوجها لمالها وجمالها، فيجب ألا يبخسها حقها لكونه وليها وأن لا يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها.[6]

لقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى ضرورة احترام اليتيم وتلبية حاجاته العاطفية فقال: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: 11). إن كتابنا الكريم قد بشر من يكرم اليتيم بالنعيم والجنة، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: 9-13).

إن مؤسس الإسلام قد نجّى المرأة من الظلم الذي كان يصب عليها بأن تكون تركةً تُقتسم بين الورثة، وأعطى النساء حق قبول الزواج بملء إرادتهن أو الرفض. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (النساء: 20) ثم قيل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 23).

لقد أقام الإسلام حق المرأة فجعل القرار قرارها في النكاح بعد انقضاء تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاة زوجها السابق، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 235)، وأمر أيضا ألا تُخرج من بيت زوجها إلى عام كامل وأن يُصرف عليها في هذه المدة فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 241)

محرر اليتامى والأرامل

إن سيدنا ومعلمنا، رسول الله ﷺ، ذاق بنفسه اليُتم وأصبح حامي وولي الأيتام والأرامل، ولم يقم فقط بإرساء حقوقهم وفقا لتعاليم القرآن الكريم بل حرص على أمنهم عمليا في المجتمع.

وقال مطبقا تعليم الإسلام الجميل: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل".[7]

لقد حمل رسول الله ﷺ لواء حقوق اليتامى وقال لمن شاركوه هذا الحماس: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى، وفي رواية أخرى ورد أنه ﷺ اشترط ذلك بأن يكون ذلك الشخص يخشى الله ويؤدي حقوق اليتيم تماما.[8]

وعن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وفرق بين إصبعيه السبابة والوسطى.[9]

وقد كتب العلامة ابن بطال: "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك".[10]

وقد فصّل رسول الله ﷺ في التعليمات الخاصة بمراعاة مشاعر اليتيم الحساسة فقال: "من قبض يتيما بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتّة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له".[11]

كتب أبو الدرداء ﷺ إلى صديقه سلمان الفارسي ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينهما: "يا أخي! أدنِ اليتيم منك وامسح برأسه والطف به وأطعمه من طعامك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول، وجاءه الرجل يشكو إليه قسوة القلب، قال: "أدنِ اليتيم منك والطف به وامسح برأسه وأطعمه طعامك، فإن ذلك يليّن قلبك وتُدرك حاجتك." وقال أيضا: " لا يقرب الشيطان مائدة عليها يتيم".[12]

وقد أرى رسول الله ﷺ أصحابه طريقة المسح برأس اليتيم، وهذا الأمر يجنب اليتيم عقدة الشعور بالدونية. وقد ذَكر أسلوب المسح لعبد الله ﷺ بأن يضع يده على ناصية الطفل ثم يمررها إلى وسط رأسه ثم يعود بها إلى ناصيته. وقال إن كان أبُ الطفل حيا فحرك يدك من وسط رأسه إلى مؤخرة رأسه. كان رسول الله ﷺ يؤكد على أهمية إظهار الحب للأيتام، فعن عبد الرحمن بن أبزى أن رسول الله ﷺ قال: " كن لليتيم كالأب الرحيم".[13]

وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: أحب بيوتكم إلى الله ﷻ بيت فيه يتيم مكرَّم.[14] وفي رواية أخرى قال: "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسَن إليه. وشر بيت في المسلمين بيت

فيه يتيم يُساء إليه".[15]

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام ورحم يتمه وضعفه".[16]

ورُوي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم وبكاء اليتيم فإنه يسري في الليل والناس نيام".[17]

لقد أقام النبي ﷺ حقوق الأرامل وكان يقدر تضحيات المرأة التي كرست نفسها لتدريب ورعاية أولاد زوجها؛ فعن عوف بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أنا وامرأة سَفعاءُ الخدّيْن (هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الإِيمة وترك الزينة) كهاتين يوم القيامة" وأومأ بالوسطى والسبابة، امرأة آمَتْ من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا.[18]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني فأقول لها ما لك ومن أنت؟ فتقول أنا امرأة قعدت على أيتام لي.[19]

وقد نصح رسول الله ﷺ أمته معبرا عن تخوفه عليهم مما سيفتح عليهم من خيرات الدنيا من بعده بأن أفضل المسلمين وقتها يكون من يؤدي حقوق الفقراء والأيتام وأبناء السبيل.[20]

لقد أكد رسول الله ﷺ على التحذيرات القرآنية من بعض الممارسات المتبِّرة كأكل مال اليتيم، ووجه إلى الاحتياط الشديد في هذا الأمر فنصح المؤمنين بعدم التولي على مال اليتيم.[21]

وإن وُلِيَّ أحد مال يتيم فعليه ألا يبدده أو يستخدمه لشراء العقارات بل عليه أن ينفقه للطعام وغيره وهذا السماح محصور بمن يعملون بجد وحذر مستخدمين هذا المال بالتجارة، فيكون ذلك أجرا على خدماتهم. لقد نصح رسول الله ﷺ أيضا ألا يُكنز مال اليتيم فتستهلكه الزكاة الواجبة تدريجيا.[22]

أسوة رسول الله ﷺ الرائعة في أداء حقوق اليتيم

إن تعاليم رسول الله ﷺ تفصيلية فيما يتعلق بمراعاة عزة نفس اليتيم وحمايته من الإصابة بعقدة النقص، وهذه الإرشادات تهدف إلى دعمهم نفسيا وجعلهم مستقلين. إن كلمة يتيم قد استخدمت بحق رسول الله ﷺ نفسه في القرآن الكريم وقد بيّن ﷺ أن لا يُتْم بعد بلوغ .[23]

وقد أهمَّت سيدنا وإمامنا ﷺ حقوق اليتامى حتى توسل إلى الله تعالى مستعينا: اللهم إني أُحرّج عن حق الضعيفين اليتيم والمرأة.[24] أي أشدد على الناس كي لا يضيع حقهما.

إن زينب رضي الله عنها زوجة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كانت تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها فقالت لعبد الله سَلْ رسول الله ﷺ أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري صدقة؟ فقال سلي أنت رسول الله ﷺ فانطلقت إلى النبي ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتي فمر علينا بلال فقلنا سل النبي ﷺ أيجزي عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري وقلنا لا تخبر بنا فدخل فسأله فقال: "من هما"، قال زينب قال: "أي الزيانب"، قال امرأة عبد الله قال: "نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة".[25]

وعن بشير بن عقربة الجهني رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ يوم أُحد فقلت: ما فعل أبي؟ قال: استشهد رحمة الله عليه، فبكيت فأخذني فمسح رأسي وحملني معه وقال: أما ترضى أن أكون أنا أبوك وتكون عائشة أمك؟[26]

وكان لسعد بن الربيع أملاك وقد استشهد في أُحد أيضا وترك وراءه ابنتيه، لم تكن أحكام الميراث قد نزلت بعد، ووفقا للعرف القديم قام عمهما بالاستحواذ على مالهما، ثم أوحيت الآيات القرآنية المتعلقة بالميراث فاستحق كافة الأقارب المقربين حصتهم، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما وقال له أن يعطي الفتاتين اليتيمتين الثلثين وأمهما الثمن.[27]

استشهد عبد الله بن جحش أخو أم المؤمنين زينب رضي الله عنها في معركة أحد بعد أن دعا لذلك، وكان شابا، فتولى النبي ﷺ بنفسه أملاكه وإرثه واشترى لابنه اليتيم محمد قطعة أرض زراعية في خيبر.[28]

وكذلك ترك حمزة رضي الله عنه الذي استشهد يوم أحد ابنةً اسمها فاطمة، فرغب كل من علي وجعفر رضي الله عنهما في رعايتها، وكذلك أراد زيد بن حارثة رضي الله عنه أن يتكفل فاطمة بنت أخيه (إذ كان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين حمزة رضي الله عنه)، إلا أن رسول الله ﷺ قضى أن يكفلها عمها جعفر رضي الله عنه لأن خالتها تسكن عند جعفر رضي الله عنه.[29]

وكان هناك شهيد آخر في أحد هو عبد الله رضي الله عنه الذي ترك خلفه تسع بنات وابن واحد هو جابر رضي الله عنه الذي كان معيلهم الوحيد، وقد كان رسول الله ﷺ يعامل هذه العائلة بحب وعطف

خاصين. ذات مرة لقي النبي ﷺ جابرا رضي الله عنه ورآه منكسرا فسأله عما به، فأخبره ما أصابه من ثقل الدين بسبب الإنفاق على أخواته، فواساه رسول الله ﷺ وتولى بنفسه سدَّ الدين الذي عليه. كان جابرا عزيز النفس لذلك استمر رسول الله ﷺ بدعمه ببراعة كي لا يجرح كبرياءه، فبعد زواج جابر وفي إحدى الأسفار اشترى النبي ﷺ من جابر جمله ثم أعاده له مع ثمنه وما كان ذلك إلا ليساعده ماليا، كما وعده ﷺ بنصيب مما سيأتي من مال من البحرين لو جاء، وفي زمن أبي بكر رضي الله عنه لما جاء مال البحرين أعطي حصة منه، فاستمرت صدقة رسول الله ﷺ حتى بعد وفاته.[30]

كان رسول الله ﷺ سخيا مع الأيتام، فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: بينا نحن قعود عند رسول الله ﷺ أتاه غلام فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله غلام يتيم وأخت له يتيمة وأم له أرملة، أطعمنا أطعمك الله مما عندك حتى نرضى، فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن ما قلت يا غلام، انطلق إلى أهلنا فاتنا بما وجدت عندهم من طعام، فجيء بواحدة وعشرين تمرة ووضعت في كف رسول الله ﷺ الذي دعا بالبركة عليها ثم قال: " يا غلام سبعا لك وسبعا لأمك وسبعا لأختك فتعشى بتمرة وتغدى بأخرى". فلما انصرف الغلام من عند رسول الله ﷺ قام إليه معاذ بن جبل فوضع يده على رأسه ثم قال: جبر الله يتمك وجعلك خلفا لأبيك. فقال رسول الله ﷺ: قد رأيت ما صنعت بالغلام يا معاذ. قال: يا رسول الله رحمة للغلام. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: "والذي نفس محمد بيده لا يلي أحد من المسلمين يتيما إلا جعل الله تبارك وتعالى له بكل شعرة درجة وأعطاه بكل شعرة حسنة وكفر عنه بكل شعرة سيئة".[31]

وبالمثل عومل بقية أقارب شهداء مؤتة بالطيب والحنان، وكان من بين شهداء مؤتة ابن عم رسول الله ﷺ جعفر رضي الله عنه. وقد ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته بنفسه ليبلغ الخبر الفاجع باستشهاد جعفر، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ قَالَتْ لَمَّا أُصِيبَ جَعْفَرٌ وَأَصْحَابُهُ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ دَبَغْتُ أَرْبَعِينَ مَنِيئَةً وَعَجَنْتُ عَجِينِي وَغَسَّلْتُ بَنِيَّ وَدَهَنْتُهُمْ وَنَظَّفْتُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ائْتِينِي بِبَنِي جَعْفَرٍ. قَالَتْ فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ، فَشَمَّهُمْ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا يُبْكِيكَ، أَبَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ أُصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ.

قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ وَاجْتَمَعَ إِلَيَّ النِّسَاءُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: لَا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ.[32]

وعن الشعبي قال: لما بلغ رسولَ الله ﷺ قتلُ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تركَ ﷺ امرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها حتى أفاضت عبرتها، فذهب بعضُ حزنها، ثم أتاها فعزّاها، ودعا بني جعفر، فدعا لهم.[33]

أمهل رسول الله ﷺ آل جعفر ثلاثا أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم. ادعوا لي ابنيْ أخي. قال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: فجيء بنا كأنّا أفرخٌ، فقال: ادعوا إلي الحلاق. فجيء بالحلاق، فحلق رءوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: اللهم اخلف جعفرا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرار.[34]

ذات مرة خاصم يتيمٌ أبا لبابة في نخلة فقضى بها رسول الله ﷺ لأبي لبابة فبكى الغلام، فقال رسول الله ﷺ لأبي لبابة أعطه نخلتك فقال لا فقال: "أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة". فقال: لا. فسمع بذلك أبو الدحداح فقال لأبي لبابة: أتبيع عذقك ذلك بحديقتي هذه قال نعم فجاء أبو الدحداح رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله النخلة التي سألت لليتيم إن أعطيته إياها ألي بها عذق في الجنة قال: نعم. ثم استشهد أبو الدحداح يوم أحد فقال رسول الله ﷺ: "رب عذق مذلل لأبي الدحداح في الجنة".[35]

كان رسول الله ﷺ يحسن معاملة الأيتام والأرامل، وفي إحدى المعارك نفِد الماء من جيشه وبدأ الصحابة البحث عن الماء فلقوا امرأة تحمل الماء على جملها بقربتين كبيرتين وكانت أرملة ولها طفل يتيم. أخذ رسول الله ﷺ إحدى القرب فمسح على فمها ودعا، فروى ماؤها عطش الجيش كله دون أن ينقص منه شيء ثم جمع لها رسول الله ﷺ من الصحابة من الخبز والتمر وأعطاه لها وقال لها بأنهم لم ينضبوا ماءها وأن الطعام هدية لولدها، وعندما أتت أهلها قالت: لقيت أسحر الناس أو هو نبي كما زعموا، فهدى الله قبيلتها، فأسلمتْ وأسلموا.[36]

لقد شهد الصحابة المخلصين حسن معاملة سيدهم للأيتام فاقتفوا أثره وعاملوهم معاملة أبنائهم وربوهم أفضل تربية.

وذُكر أنه كان في المدينة يتيم ويتيمة في بيت أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه وأم سُليم رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يزورهم، وروي أنه صلى مرة في بيتهم نفلا وصلى معه الولد اليتيم، وفي مناسبة أخرى رأى اليتيمة ووجد أنها تلقى عناية جيدة وأنها تكبر بسرعة فقال لها: "آنتِ هِيَهْ؟ لقد كبرت لا كَبِر سِنُّك". ظنت اليتيمة أن رسول الله ﷺ دعا عليها ألا تكبر أبدا فرجعت إلى أم سليم تبكي. كانت أم سليم رضي الله عنها تحبها كثيرا، فخرجت مستعجلة تَلوثُ خمارها حتى لقيت رسول الله ﷺ فقالت له: يا نبي الله أدعوت على يتيمتي أن لا يكبر سنها؟ فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: "يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ تَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟". [37]

كان النبي ﷺ الرحمة للعالمين حريصا جدا على مال اليتامى إلى درجة أن أحدهم قال له: يا رسول الله بلغني أن الخمر قد حرّمت؟ قال: أجل، قال: ألي أن أردها على من ابتعتها منه؟ قال: لا يصلح ردها. قال: ألي أن أهديها إلى من يكافئني منها؟ قال: لا، قال: إن فيها مالا ليتامى في حجري قال: إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم. [38]

الإحسان للأرامل

لقد طبق رسول الله ﷺ بنفسه تعليم القرآن الكريم بالزواج من الأرامل، فكان من الأسباب المهمة لكل زيجاته من الأرامل، بالإضافة إلى المصالح الأخرى، دعمُ الأرامل. لقد تزوج من تسع أرامل. كان زواجه الأول من خديجة رضي الله عنها التي كانت أرملة ولها بنتين من زوجها المتوفى، وقد بقيت اليتيمتان هند وهالة في ولايته.

لقد ترملت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها بعد استشهاد زوجها عُبيدة في معركة بدر فتزوجها النبي ﷺ، وكذلك كان حال أم سلمة وحفصة رضي الله عنهما. لقد حقق رسول الله ﷺ بزواجه من أرملة صحابيه العزيز أبو سلمة مصلحة قومية، وفي بيته قامت أمهم برعاية هؤلاء الأيتام، وقال لأم سلمة رضي الله عنها بأن الله يجزيها على ما تنفقه من مال على هؤلاء الأطفال، وكان رسول الله ﷺ يجلسهم معه على الطعام ويعلمهم آدابه. [39]

الزوج الأول لحفصة بنت عمر رضي الله عنهما كان خنيس بن حذيفة الذي أصيب بجرح قاتل في أحد وتوفي في المدينة، قلق عمر رضي الله عنه بطبيعة الحال على ابنته الشابة التي ترملت، فطلب من أبو بكر وعثمان أن يتزوجها أحدهما، فرفض عثمان رضي الله عنه قائلا بأنه لا ينوي الزواج وبقي أبو بكر رضي الله عنه صامتا فلم يعجب ذلك عمر رضي الله عنه، وفيما بعد أخبره أبو بكر رضي الله عنه أنه لزم الصمت لأن رسول الله ﷺ كان قد أسرّ إليه عن رغبته في الزواج منها فما أراد أن يبوح بذلك. لقد فرح عمر رضي الله عنه بذلك، وبذلك أزال رسول الله ﷺ قلق صديقه العزيز.[40]

لقد توفي الزوج الأول للسيدة أم المؤمنين سودة رضي الله عنها وكذلك زوج أم حبيبة رضي الله عنها في الهجرة إلى الحبشة فبقيتا أرملتين، فتزوجهما رسول الله ﷺ. وقد كان زواجه ﷺ من أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها بتشجيع من العباس رضي الله عنه الذي كان شقيق زوجها، وقد ذكر لرسول الله ﷺ ترملها وحضه على الزواج منها فقبل ﷺ. توفي زوج السيدة جويرية رضي الله عنها في غزوة خيبر على كفره ثم تزوجها رسول الله ﷺ. باختصار فإن رسول الله ﷺ كان أسوة حسنة في منح الأرامل حقوقهن، وأعماله في العناية والعمل الدءوب والتضحية معروفة جدا.

وكان رسول الله ﷺ يُعنى عناية خاصة بتأمين الأرامل ماليا؛ فذات مرة أبرم صفقة مع قافلة ولم يكن معه ثمن ما اشترى ثم باعه وربح فتصدق بالربح على أرامل بني عبد المطلب.[41]

إحسان رسول الله ﷺ المستمر

إن معجزة الانقلاب الذي حصل في جزيرة العرب كانت نتيجة شخصية وروحانية رسول الله ﷺ، ولم يقتصر ذلك على حياته، بل استمرت الطبقات المستضعفة من المجتمع تنتفع بذلك حتى بعد وفاته، وقد أظهر الخلفاء من بعده أسوة رائعة في أداء حقوق الفقراء.

كان أبو بكر رضي الله عنه يفضل توزيع المال على الفقراء بدل كنزه في بيت المال. في أحد فصول الشتاء وصلت من بعض القرى أَردية حريرية فاشتراها كلها ووزعها على أرامل المدينة، وعند وفاته لم يكن في بيت المال درهم إلا درهما واحد وجدوه بعد كنس المكان، وعندما سُئل المسئول عن بيت المال قال بأن ألوف الدنانير كانت تَرِد وكان أبو بكر رضي الله عنه يوزعها بين المحتاجين والأيتام والأرامل والعبيد.[42]

وتمتع عمر ﵁ بحماس مماثل في مساعدة المحتاجين. كان سعد بن خولي عبدا استشهد في أحد وترك خلفه ابنا ففرض له عمر ﵁ دخلا كأي من رجال الأنصار.[43]

قال أسلم ﵁ بأنه خرج مع عمر ﵁ إلى السوق فلحقت عمر ﵁ امرأة شابة فقالت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلَكَ زَوْجِي وَتَرَكَ صِبْيَةً صِغَارًا وَاللهِ مَا يُنْضِجُونَ كُرَاعًا وَلَا لَهُمْ زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ وَخَشِيتُ أَنْ تَأْكُلَهُمْ الضَّبُعُ وَأَنَا بِنْتُ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءَ الْغِفَارِيِّ وَقَدْ شَهِدَ أَبِي الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَوَقَفَ مَعَهَا عُمَرُ وَلَمْ يَمْضِ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِنَسَبٍ قَرِيبٍ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى بَعِيرٍ ظَهِيرٍ كَانَ مَرْبُوطًا فِي الدَّارِ فَحَمَلَ عَلَيْهِ غِرَارَتَيْنِ مَلَأَهُمَا طَعَامًا وَحَمَلَ بَيْنَهُمَا نَفَقَةً وَثِيَابًا ثُمَّ نَاوَلَهَا بِخِطَامِهِ ثُمَّ قَالَ اقْتَادِيهِ فَلَنْ يَفْنَى حَتَّى يَأْتِيَكُمْ اللهُ بِخَيْرٍ.[44]

وقبل أيام من وفاته أخبر عمر ﵁ أصحابه بأنه إن سلّمه الله ليدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعده أبدا.[45]

كان بقية صحب رسول الله ﷺ حريصين على مساعدة الأيتام والأرامل أيضا. رأى رسول الله ﷺ في رؤيا مكانة أصحابه في الجنة وقال لعبد الرحمن بن عوف ﵁: لقد بُطِّئ بك عني حتى خشيتُ أن تكون قد هلكتَ، ثم جئتَ وقد عرقتَ عرقا شديدا، فقلت لك: ما بطّأ بك عني؟ لقد خشيتُ أن تكون قد هلكتَ. فقلتَ: يا رسول الله ﷺ كثرةُ مالي، ما زلتُ موقوفًا محتسبًا أُسأَلُ عن مالي، مِن أين اكتسبتُه، وفيما أنفقته. فبكى عبد الرحمن ﵁ وقال: يا رسول الله ﷺ هذه مائة راحلة جاءتني الليلة من تجارة مصر، فأُشهدك أنها بين أرامل أهل المدينة وأيتامهم، لعل الله يخفف عني ذلك اليوم.[46]

لم يقتصر حسن معاملة رسول الله ﷺ للأيتام على وقت حياته بل كان حجر أساس في حفظ حقوقهم إلى يوم القيامة، وقد قال رسول الله ﷺ: "أَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ".[47]

وبهذا التصريح قد ألزم كل حكومة إسلامية أو مركز مالي إسلامي بأداء حقوق الأيتام وحفظ حقوقهم إلى الأبد.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير؛ الجزء 2، ص 425، طبعة بيروت.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب قول الله: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾. صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الطلاق، باب الكحل للحادة.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

[5] سنن أبي داوود؛ كتاب الوصايا، باب مُخَالَطَةِ الْيَتِيمِ فِي الطَّعَامِ.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب فضل من يعول يتيما. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 250، طبعة القاهرة.

[9] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 250، طبعة القاهرة.

[10] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 10، ص 436، طبعة بيروت.

[11] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته.

[12] المعجم الأوسط للطبراني؛ الجزء7 ص 163، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 16، ص 221، طبعة مصر.

[13] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 298، طبعة بيروت.

[14] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأدب، باب حق اليتيم.

[15] شعب الايمان؛ الجزء 7، ص 472، طبعة بيروت.

[16] سنن أبي داوود؛ كتاب الوصايا، باب مُخَالَطَةِ الْيَتِيمِ فِي الطَّعَامِ. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 3، ص 297، طبعة بيروت.

[17] الترغيب والترهيب من الحديث الشريف؛ الجزء 3، ص 237، طبعة بيروت.

[18] سنن أبي داوود؛ كتاب الأدب، باب فِي فَضْلِ مَنْ عَالَ يتيما.

[19] مسند أبي يعلى؛ الجزء 12، ص 7، طبعة بيروت. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف؛ الجزء 3، ص 236، طبعة بيروت.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى.

[21] سنن النسائي؛ كِتَابُ الْوَصَايَا، باب النَّهْيُ عَنِ الْوِلَايَةِ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ.

[22] سنن الترمذي؛ كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم.

[23] سنن أبي داوود؛ كتاب الوصايا، باب مَا جَاءَ مَتَى يَنْقَطِعُ الْيُتْمُ.

[24] سنن النسائي؛ كِتَابُ عِشْرَةِ النِّسَاءِ. كنز العمال؛ الجزء 3، ص 178، طبعة مصر.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر.

[26] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 295، طبعة بيروت.

[27] سنن الترمذي؛ كتاب الفرائض عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ميراث البنات.

[28] الاستيعاب؛ الجزء 1، ص 442، طبعة بيروت. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 6، ص 21، طبعة بيروت.

[29] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 98، طبعة القاهرة.

[30] صحيح البخاري؛ كتاب الاستقراض، باب إذا قاصَّ أو جازفَه في الدَّين تمرا بتمر أو غيره. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: 122). صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، بَابُ قِصَّةُ عُمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ.

[31] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 295، طبعة بيروت.

[32] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 370، طبعة القاهرة. كنز العمال؛ الجزء 13، ص 324، طبعة مصر.

[33] كنز العمال؛ الجزء 13، ص 324، طبعة مصر.

[34] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 204، طبعة القاهرة.

[35] الاستيعاب؛ الجزء 1، ص 525، طبعة بيروت.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

[37] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة، باب مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ سَبَّهُ أَوْ دَعَا عَلَيْهِ.

[38] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 158، طبعة بيروت.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب الأكل مما يليه.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير.

[41] سنن أبي داوود؛ كتاب البيوع، باب في التَّشْدِيدِ في الدَّيْنِ. مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 4، ص 198، طبعة بيروت.

[42] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 3، ص 213، طبعة بيروت.

[43] الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر؛ الجزء 3، ص 54، و الجزء 4، ص 107، طبعة بيروت.

[44] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان.

[46] تاريخ دمشق لابن عساكر؛ الجزء 35، ص 266، طبعة بيروت.

[47] صحيح البخاري؛ كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا.

حامل لواء التسامح الديني وحرية المعتقد

علّم مؤسس الإسلام أعلى قيم العدل والتسامح الديني وحرية المعتقد للعالم الذي كان ممتلئا قسوة وعنفا وتحيزا، وليس لتعليمه من مثيل في تاريخ الأديان في العالم، وللحكم على جمال تعليم الإسلام يمكننا مقارنته بتعاليم الأديان الأخرى؛ فقد عُلِّم اليهود والنصارى في الكتاب المقدس ما يلي:

مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا، وَطَرَدَ شُعُوبًا كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الْحِثِّيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ، وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ، وَضَرَبْتَهُمْ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لا تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا، وَلا تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ... وَلكِنْ هكَذَا تَفْعَلُونَ بِهِمْ: تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتُقَطِّعُونَ سَوَارِيَهُمْ، وَتُحْرِقُونَ تَمَاثِيلَهُمْ بِالنَّارِ. (التثنية 7: 1–5) وبالمقارنة مع التعاليم السابقة من الكتاب المقدس فقد جاء مؤسس الإسلام ﷺ بتعليم فريد في حرية المعتقد واحترام المعابد معلنا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 257)، وكذلك قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: 30)، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: 41).

وما يميز الإسلام أنه لم يعلن نظريا فقط عن تعاليم العدل والتسامح مع أتباع الأديان الأخرى ولكن مؤسس الإسلام ﷺ وأتباعه المخلصين قد عملوا بهذه التعاليم وأظهروا أسوة رائعة بفعلهم، ومع أنه يحق القِصاص عند الظلم إلا أن العفو هو المسلك المفضل، فيقول الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: 41).

ومنعًا للإجحاف عند الرد على اعتداء أتباع الأديان الأخرى فقد علم الإسلام ما يلي: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ (المائدة: 3) وفي موضع آخر قيل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (المائدة: 9).

لم يعط الإسلام هذا التعليم فحسب بل فصّل في المساواة في حقوق الكافرين أيضا؛ فإن هاجرت نساءٌ مسلمات إلى أرض إسلامية فلا يجب إرجاعهن إلى الكافرين ويجب أن يعطى

أولياؤهن السابقين من الكفار ما يطلبونه من المستحقات المتعلقة بهؤلاء النسوة، والإسلام يمنع من الزواج عنوة من الكافرات وعدم السماح لهن بالعودة إلى الكافرين، وقد أُعطي المسلمون الحق في المطالبة بالنفقات بالمثل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الممتحنة: 11).

لقد أقام الإسلام حق العيش بسلام ليس فقط مع الأعداء وإنما مع الكافرين أيضا، فأمر القرآن الكريم بما يلي: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: 6).

وقد علّم رسول الله ﷺ تعليما رائعا في التسامح وأنه لا بد من الإشادة بما لدى أتباع الأديان الأخرى من ميزات أو فضيلة، وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: 114).

وقال القرآن الكريم، مثنيا على أمانة المسيحين واليهود: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران: 76).

وذاكرا خشية الله الموجودة في طبيعة بعض المسيحيين، قال القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: 84).

وكذلك علّمنا مؤسس الإسلام ﷺ ألا نسيء إلى الشخصيات المعتبرة عند الأديان الأخرى عند احتداد المناظرات الدينية، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: 109).

وإن رسول الله ﷺ بكشفه عن حقيقة أن الأنبياء قد أرسلوا في كل الأمم وأن الأديان أُسست

على الحق؛ قد علّمنا أن نحترم مؤسسي الأديان كلها، ومع أن الناس انحرفوا لاحقا عن التعاليم الحقيقية لأنبيائهم إلا أنه لا يزال بعض الهَدي موجودا في الديانات كلها، قال القرآن الكريم ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل: 64).

إن رسول الله ﷺ قد علمنا أن أنبياء الأديان كافة كانوا مقدسين ومحترمين، ولذلك يجب إزالة العداوة التي تحول دون الهدى إزالة تامة، وأنه على وجود الفوارق الدينية يجب أن يسود جو من الحب والوئام.

يعلّمنا الإسلام أن نحترم الأمور الحساسة عند أتباع الديانات الأخرى وإن كانوا لا يتبعون الحق، فهم يتبعون ما يؤمنون به مقتنعين أنه الحق، ومن حقهم التمسك بمعتقداتهم.

حدث شجار بين مسلم ويهودي في المدينة عن أفضلية موسى أو رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى."[1]

مع أن رسول الله ﷺ كان خاتم الأنبياء وأفضل الرسل، ولكنه كان حامل لواء الأمن والسلام أيضا، فقد منع أن يُهاجَم أي قوم لمجرد الاختلاف الديني، وفي حال حدوث هجوم كان الإذن بالقتال محصورا بالدفاع. قال الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 191). وإن كان لا بدّ من القتال الدفاعي ضد المقاتلين فضّل السّلْم على الحرب إن أراد العدوّ ذلك، قال الله تعالى ﷻ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال:62).

إن رسول الله ﷺ قد علمنا أن نحترم العهود المبرمة مع أتباع الديانات الأخرى والأقوام الأخرى، وقال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: 59).

لم يعلمنا الإسلام العدل فحسب بل أمرنا بالإحسان: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 91).

ويعلمنا أن نبني العلاقات الاجتماعية على العدل وبنية القيام بعمل صالح مع الآخرين، ولا يعلمنا كما تعليم اليهود بتحريم أخذ الربا من اليهود فقط (التثنية؛ 23: 19و20). فالقرآن

الكريم يحرم أكل الربا مطلقا، وهذا هو الحكم الاجتماعي الرفيع، ويأمر القرآن الكريم بما يلي: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: 9).

جاءت والدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وهي مشركة، لزيارتها في المدينة، فسألت أسماء رضي الله عنها الرسول ﷺ إن كان بإمكانها أن تصلها. فقال ﷺ: نعم. قال ابن عيينة فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾.[2]

إن مسئوليات المسلمين في الحكومة الإسلامية تفوق مسئولية غير المسلمين، فعلى المسلمين الجهاد ولزام عليهم الالتحاق بالجيش إن نشبت الحرب ولا يكون ذلك لزاما على غير المسلمين من الرعية. على المسلمين أن يعطوا عُشر محاصيلهم للحكومة وليس ذلك لزاما على غير المسلمين. فمفروض على المسلمين أن يدفعوا الزكاة والعُشر على محاصيلهم للسلطات بينما غير المسلمين يدفعون مبلغا صغيرا كضريبة تعفيهم من الواجبات العسكرية. لا يُعلِّم الإسلام التمييز بين المسلمين وغير المسلمين من حيث الحريات، ومن مبادئة الحض على تحرير العبيد، وقد قدم رسول الله ﷺ الأسوة العملية لذلك في معركة حنين عندما حرر آلاف العبيد من غير المسلمين.[3]

معاملة مشركي مكة الحسنة

لقد أجبر مشركو مكة الرسول ﷺ على الهجرة ومع ذلك ما تركوه بسلام في المدينة إلا أنه عاملهم ﷺ باللطف. أصيبت مكة بعد هجرة رسول الله ﷺ بمجاعة شديدة حتى أكلوا الميتة والعظام، فجاء أبو سفيان رسول الله ﷺ فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله أن يرفع عنا القحط ويرسل الغيث، فلم يعلق رسول الله ﷺ إلا بقوله "إنك لجريء" ليجعله يدرك معاملته السيئة للمسلمين ثم طلبه الدعاء لقريش رغم عنادهم، ولكونه تجسيدا للرحمة فما رفض الدعاء لهم وما كان راغبا في دمارهم. ثم شهد الناس أنه رفع يديه داعيا وتوسل إلى الله تعالى ليزيل القحط ويرسل الغيث، قُبِل ذلك الدعاء بكل روعة فأسقوا الغيث الغزير وعاد الرخاء ولكنهم عادوا إلى صدهم الشرس وكفرهم.[4]

وكذلك جمع رسول الله ﷺ مبلغا من المال وبعثه إلى أهل مكة حين قَحطوا ليفرق بين المحتاجين

منهم.[5]

أُخذ ثمامة بن أثال، رئيس بني حنيفة، وهي قبيلة معادية، إلى رسول الله ﷺ الذي حرره تفضلا عليه. أسلم ثمامة لِما لقيه من حسن المعاملة ثم استأذن رسول الله ﷺ بالعمرة فأمره أن يعتمر، فلما قدم بطن مكة لبّى بقول المسلمين: لبيك اللهم لبيك، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا، أنت صبوت يا ثمامة. فقال ثمامة: والله لا يصل إليكم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله، ولما أرادت قريش ضرب عنقه ذكّر بعض زعماء مكة أنهم يحتاجون إلى حبوب اليمامة فلا يستحسن استعداؤهم، فخلّوا سبيله فخرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا حتى أضرَّ بهم الجوع، فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا. فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة رضي الله عنه أن يخلي بينهم وبين الحَمل، ففعل. فكانت تلك منة عظيمة ورحمة بالعدو من قبل رسول الله ﷺ.[6]

تأنيب على قتل أطفال الكافرين

لقد مثّل مشركو مكة بأجساد شهداء أحد وجدعوا أنوفهم وآذانهم، وأُخرجت كبد حمزة رضي الله عنه ولِيْكت، ومع كل ذلك ما خطر ببال رسول الله ﷺ أن يقتص لذلك وعاملهم بالحسنى. قال الحسن بن الأسود رضي الله عنه إنه في إحدى الغزوات وُجدت جثث أطفال بين القتلى، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ألا ما بال أقوام قتلوا المقاتلة حتى تناولوا الذرية؟"، فقال رجل: يا رسول الله أوليس أبناء المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا".[7]

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَرَارِيُّ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: هُمْ مِنْ آبَائِهِم، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بِلَا عَمَلٍ؟ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَرَارِيُّ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: مِنْ آبَائِهِمْ. قُلْتُ: بِلَا عَمَلٍ؟ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ.[8]

عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أعلنت قريش عن جائزة قدرها مئة بعير لمن يأسره ويعود به. فطارده سراقة طمعًا بالجائزة. كانت فرسه سريعة، ولما اقترب من رسول الله ﷺ ساخت يدا

فرسه في الرمل، فكفَّ عن عزمه وناداهم بالأمان، فآمَنَه رسول الله ﷺ وبشره بسواري كسرى فارس الذهبيين. ودخل سراقة الإسلام عند فتح مكة، وفي زمن خلافة عمر رضي الله عنه أُلبس سواري كسرى. كانت تلك معاملة حسنة لعدو ماكر إذ لم يعف عنه الرسول ﷺ فحسب، بل كافأه.[9]

الإحسان إلى زعماء العدو المهزومين

حارب عكرمة بن أبي جهل طيلة حياته رسول الله ﷺ كما فعل أبوه، وحتى عند فتح مكة عندما أعلن رسول الله ﷺ العفو العام، هاجم عكرمة مجموعة من المسلمين وأراق الدم في الحرم فاستحق عقوبة الأعدام على جرائم حربه، فبعد فتح مكة فرّ إلى اليمن فطلبت له زوجه الأمان من رسول الله ﷺ الذي عفا عنه. لحقته زوجه لتبلغه بذلك ولكنه لم يصدق أن شخصا مثله يمكن أن يُعفى عنه فأتت زوجه رسول الله ﷺ لتأكيد العفو عن زوجها، ولما عاد عكرمة كانت ردة فعل رسول الله ﷺ بطريقة رائعة فوثب إليه تكريما له، وعند سؤاله عن العفو عنه كما أخبرته زوجه قال ﷺ: صدقَت، إنك آمن.[10] ولما سأل عكرمة إن كان عفي عنه على كونه مشركا فأجابه رسول الله ﷺ بالإيجاب. عندها انشرح صدر عكرمة للإسلام وقال: يا محمد، أنت أصدقنا حديثًا، وأبرُّنا بِرًّا. كانت تلك معجزة إحسان رسول الله ﷺ التي أدخلت عكرمة الإسلام.[11]

وكان صفوان بن أمية زعيما آخر للمشركين، وكان أحد الذين هاجموا المسلمين عند فتح مكة، لقد قاتل طيلة حياته المسلمين. وقد هرب لجرائمه عند فتح مكة، فاستأمن له ابن عمه عمير بن وهب رضي الله عنه رسول الله ﷺ فأمنه وأعطى لعمير عمامته التي دخل بها مكة آية يعرف بها صفوان أمانه، فعاد صفوان إلى مكة، وبعد أن تأكد من صحة الأمان طلب من رسول الله ﷺ أن يمهله بالخيار شهرين فأمهله رسول الله ﷺ أربعة أشهر، وعند العودة من حنين ولتأليف قلب صفوان أعطاه رسول الله ﷺ شِعْبا ملآنا نَعَمًا وشاءً ، فقال صفوان عفويا: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي، فأسلم.[12]

بعد فتح مكة، جاء وفد من الطائف من بني ثقيف، فدبر رسول الله ﷺ إقامتهم في مسجده وأكرمهم. فاعترض بعضهم على وجود المشركين في المسجد لأنهم وصفوا بالنَجس في القرآن

الكريم. فأخبرهم رسول الله ﷺ بأن الآية تشير إلى عدم طهر القلوب وليس الأبدان.[13]

بعض أفراد هذا الوفد نزلوا عند أصدقائهم في المدينة، أما رسول الله ﷺ فقد بنى بنفسه قبة لبني مالك وكان يأتيهم بعد العشاء يحدثهم.[14]

وقد طلب المغيرة بن شعبة من رسول الله ﷺ أن يأذن له بإنزال هذا الوفد عنده ليكرمهم فقال رسول الله ﷺ: لا أمنعك أن تكرم قومك ولكن منزلهم حيث يسمعون القرآن. ولذلك أنزلهم في المسجد وبنى لهم خياما ليروا الناس إذا صلوا ويسمعوا القرآن الكريم.[15]

دائما ما كان رسول الله ﷺ يحسن إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المسلمين، فضافه مرة ضيف كافر فأشربه حِلابَ سبع شياه.[16]

قُدمت حُلَّة حريرية إلى رسول الله ﷺ، فأعطاها عمر رضي الله عنه الذي استفسر ما يفعل بها لأن لبس الحرير ممنوع على الرجال، فقال له رسول الله ﷺ أن يبيعها أو يعطيها لشخص آخر، فكساها عمر أخا له بمكة مشركا.[17]

وقد قال رسول الله ﷺ في زعيم نبيل من المشركين وهو المطعم بن عدي الذي مات قبل معركة بدر: "لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى أَطْلَقْتُهُمْ." يعني أُسارى بدر.[18]

معاملة يهود المدينة

عندما جاء رسول الله ﷺ المدينة، أُبرم اتفاق مع اليهود والمشركين والقبائل الأخرى في المدينة، وعُرف ذلك بميثاق المدينة. كان هذا الميثاق أفضل ضمان لحرية الدين والمعتقد، ومن المناسب ذكر بنود هذا الميثاق الذي ضمِن الحرية الدينية. كان أساس هذا الميثاق ضمان الحرية الدينية لليهود، فكان لهم حقوق كما كان عليهم واجبات. والبند الأساسي الثاني كان أن كافة المسلمين أنصارا ومهاجرين واليهود والنصارى، يشكلون أمة واحدة وفقا لهذا الميثاق، ومع أن كل واحد منهم سيتمتع بحرية المعتقد إلا أنهم من الناحية السياسية سيكونون جزءا من أمة واحدة. والبند الثالث يتعهد بأن يهود بني عوف يشكلون مع المسلمين أمة واحدة وأن كلا منهما سيتمتع بالحرية الدينية، والبند الرابع يشترط أنه في حال حصول هجوم على اليهود أو المسلمين فكل طرف سيساعد الآخر، ومع أنهم مسئولون عن نفقاتهم الخاصة إلا أنها ستصبح مشتركة في حال حصول حرب. وأن على الأطراف أن يتمنوا الخير لبعضهم ويمتنعوا عن أذية

بعضهم البعض.[19]

ومع أن اليهود استمروا بخرق الميثاق إلا أن رسول الله ﷺ التزم به وعاملهم بالحسنى كلما حضروا مجلسا، وعاملهم بلطف في الاجتماعات، فذات مرة عطس النبي ﷺ فقال له يهودي يرحمك الله فقال له النبي ﷺ هداك الله فأسلم.[20]

وبالمقابل كان اليهود يظهرون الحقد والحسد وعدم احترام نبي الإسلام ﷺ، وكانوا يختبرون صبره بأسئلة غريبة، وإن حضروا مجلسا كانوا يتلاعبون بقوله وأصبح ديدنهم الهزءُ منه، وعندما أرادوا لفت انتباهه كانوا يقولون "راعينا" بدل قولهم "راعِنا". وبدل السلام عليه عند مقابلته كانوا يقولون "السام عليكم" قاصدين–معاذ الله– اللعنة والدمار. وعن عائشة قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم، ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: "مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله". فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم. وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: "يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوْ الْفُحْشَ".[21]

وقد ذكر الله تعالى هذا في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(المجادلة: 9).[22]

وعند سؤال الصحابة عن كيفية رد سلام أهل الكتاب قال النبي ﷺ: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم".[23]

ومرة مر رسول الله ﷺ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود والمشركين عبدة الأوثان، فسلّم عليهم.[24]

عند فتح خيبر شكى اليهود إلى رسول الله ﷺ أن المسلمين قد أسرعوا إلى حظائرهم وثمارهم فأخذوها، فحذر رسول الله ﷺ المسلمين بأن الله قد حرّم دخول بيت أحد أو أخذ ثماره من غير إذن.[25]

لما فُتحت خيبر أهدت امرأة يهودية للنبي ﷺ شاة مشوية مسمومة، فأكل منها قطعة، ثم لفظها بعد أن أخبره الله تعالى بأنها مسمومة. فجمع اليهود وقال لهم: "إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ عنه؟" فقالوا نعم. قال: "هل جعلتم في هذه الشاة سما؟"، قالوا نعم. قال: "ما

حملكم على ذلك؟" قالوا أردنا أنك إن كنت كاذبا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك.[26]

لقد عفا رسول الله ﷺ عن المرأة اليهودية التي أرادت اغتياله. ورغم كل الاعتداءات التي ارتكبها اليهود إلا أنه ﷺ عاملهم بلطف.

وذات مرة مرت جنازة يهودي فقام لها رسول الله ﷺ تعظيما، فقيل له إنها جنازة يهودي، فقال النبي ﷺ: "أليست نفسًا؟".[27]

وبإظهار الاحترام لليهودي الميت فقد أقام رسول الله ﷺ كرامة الإنسان

وعن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال: سافرت مع النبي ﷺ غير مرة، فما رأيته مر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل: أمسلم هو أم كافر.[28]

لقد أمر النبي ﷺ يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش، فقُذفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر، ويدعى هذا المكان بقَليب بدر.[29]

وبذلك قد أقام حقوق الكافرين وأظهر الاحترام حتى لجثامينهم. لقد كان هؤلاء هم من مثّلوا بجثامين مقاتلي المسلمين ولكن رسول الله ﷺ ما انتقم لهذه الجرائم النكراء.

في معركة الأحزاب، تصدر نوفل بن عبد الله المخزومي وهو من المشركين وصاح: هل من مبارز؟ فخرج له الزبير بن العوام رضي الله عنه فغلبه، ثم أجهز عليه علي رضي الله عنه برمحه بعد سقوطه في الخندق، ولما كان المشركون قد مثّلوا بجثمان حمزة رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ وجدعوا أنفه وأذنيه، فقد كان من الطبيعي أن يخشوا أن يعامل جثمان سيدهم بالمثل، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ وعرضوا عليه عشرة آلاف درهم مقابل جثمانه، فقال رسول الله ﷺ: "هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى".[30]

وفي رواية أخرى أن نوفل أراد أن يقتحم الخندق فتورط فيه فرماه الناس بالحجارة فجعل يقول: قِتلةً أحسن من هذه يا معشر العرب! فنزل إليه علي فقتله، فغلب المسلمون على جسده، وأراد المشركون دفنه بشرف وعرضوا حتى عشرة آلاف درهم ثمن جثمانه، فقال رسول الله ﷺ: "لا حاجة لنا في جسده ولا بثمنه"، فخلّى بينهم وبينه فأخذوه إليهم دون مال مقابل.[31]

وبعد فتح خيبر، عُقد اتفاق مع اليهود بأن يعطوا الأرض ليزرعوها على أن يعطوا للمسلمين نصف المحصول.

ذهب عبد الله بن سهل رضي الله عنه إلى خيبر مع صديق له، فقُتل هناك؛ ورُفعت القضية إلى رسول الله ﷺ، فسأل أصحاب القتيل إن كان لديهم شهود أو أنهم سيحلفون. فتعذر على المدعين إحضار شهود، فقال رسول الله ﷺ: "فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم". فقال المسلمون: كيف نأخذ أيمان قوم كفار؟ وفي غياب الأدلة دفع رسول الله ﷺ دية المقتول مِن عنده ولم يعاقب اليهود.[32]

كان رسول الله ﷺ على علاقة جيدة دائما مع من هم من أديان أخرى؛ فقد وظف غلاما يهوديا لديه في الأمور المنزلية وعندما مرض ذلك الغلام عاده واطمأن على صحته.[33]

وكان يقبل الدعوة بغض النظر عن لون أو جنس أو مكانة صاحبها، فذات مرة قبل دعوة يهودي إلى خبز شعير وبعض الدهن.[34]

لقد استمرت تلك العلاقة مع أصحاب الديانات الأخرى والتعامل معهم حتى آخر أيام حياته ﷺ، وتوفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير.[35]

حسن معاملة المسيحيين

لقد وصف المسيحيون في القرآن الكريم بما يلي: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: 83)

جاء وفد من نصارى نجران للقاء رسول الله ﷺ، وحان موعد صلاتهم أثناء حوارهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ أن يصلوا في مسجده، فصلوا نحو المشرق وفق معتقدهم.[36]

لقد منح أهل نجران حرية دينية مطلقة في المعاهدة، ونصَّ الاتفاق على أن يعطوا المسلمين ألفي حلة سنويا كضريبة، وفي حال حدوث خطر من اليمن فسوف يقرضونهم ثلاثين فرسا وثلاثين جملا وثلاثين قطعة سلاح من سيف ورمح ودرع. وأن المسلمين سوف يحمون أماكن عبادة المسيحيين التي ستبقى ملكيتها بيدهم، ولن تُهدَم لهم كنيسة، ولن يُخرَج قس أو أسقف من مكانه، ولن يحدث تغيير في حقوقهم أو قوانينهم أو أملاكهم، ولن يُكرَهوا على ترك دينهم. وما دام الاتفاق صالحا فستكون بنود الاتفاق ملزِمة ولن يسمح بأي تسلط أو اعتداء عليهم.[37]

وقد بيّن البيهقي بعض البنود الأخرى لهذه الاتفاقية ومنها أن أساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم

وبِيعهم وأهل بِيعهم ورقيقهم وملتهم جوارُ الله ورسوله ﷺ، لا يُغيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغيَّر حق من حقوقهم، وبمقابل تلك الحقوق ما كان على أهل نجران إلا دفع مبلغ بسيط كضريبة سنوية.[38]

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن أساس الاتفاق لم يكن الجزية وإنما كانت الضريبة العامة التي تؤدّى للدولة، ووفقا للاتفاق كانوا ينعمون بالحرية الدينية المطلقة، ولم تذكر كلمة الجزية في هذا الاتفاق.

اختلف العلماء إذا كان ما فرض على أهل نجران جزية أم ضريبة عامة. وقد استخدم الإمام أبو يوسف (182هـ) كلمة الفِدية، وقد كتب بأن الجزية فرضت على أهل الذمة، وأهل الحيرة وعلى اليهود والنصارى في المناطق الأخرى باستثناء بني تغلب وأهل نجران الذين أُعفوا منها.[39]

لا يحتاج التوضيح أن الجزية فرضت على الشعوب التي بقيت متمسكة بدينها ولم تقبل الإسلام، فالجزية بحد ذاتها دليل ساطع على مبدأ الإسلام في حرية المعتقد، ووفقا للقواعد الإسلامية الأولى المتعلقة بالجزية فإن الرجال الميسورين كانوا يطالبون بثمانية وأربعين درهما سنويا وذوي الدخل المتوسط بأربعة وعشرين والعمال باثني عشر درهما.[40]

فقد أذن رسول الله ﷺ لسكان نجران الذي كان عددهم بضع مئة ألف نسمة أن يدفعوا ألفي قطعة من الألبسة وألفي أوقية من الفضة كضريبة عامة.[41] وهذا المبلغ يُعد ضئيلا إذا ما قورن بما كانوا سيدفعونه كجزية، فلو حُسبت الجزية على مئة ألف مقاتل من نجران بمقدار متوسط للفرد، فسوف يكون مجموع الجزية 2.4 مليون درهم. وكان أهل نجران سيطاَلبون فوق ذلك بمسئوليات أخرى لو فرضت عليهم الجزية. وإن الشروط المتفق عليها مع أهل نجران من إقراض الأسلحة في حال نشوب حرب مع اليمن أو استضافة الجيش الإسلامي تبين بوضوح أنهم روعوا بشروط خاصة بضريبة ضئيلة في ذلك الاتفاق. فموقف الإمام يوسف صحيح تماما بقوله أن الجزية ما فُرضت على أهل نجران بل طولبوا فقط بضريبة عامة أو الفدية.

إن حكم الجزية لم يكن قد صدر بعد عندما جاء أول وفد من نجران في السنة الثانية من الهجرة، ولذلك ما كان للاتفاق الذي وقعه الوفد أن تذكر فيه الجزية.

كتبت المؤرخة النصرانية "روث كرانستون" في كتابها أن هذه المعاهدة قائمة على العدل فقالت:

"هل قام أي جنس بشري أو دين، عندما غزا غيره بإعطاء القوميات التي أخضعها ضمانا أفضل مما نجد في كلمات النبي تلك؟... يصعب أن نجد في تعليم أي دين عبارات أكثر تسامحا وإخاء، وقبل ثلاثة عشر قرنا من ميثاق الأطلسي الذي نص على حرية المعتقد وخُلو العالم من الخوف، عقد محمدٌ ميثاقا مع قبائل اليهود والنصارى التي غلبها وأعطاهم حرية العبادة والحكم الذاتي، وفي العديد من الدول التي فتحها المسلمون عُومل غير المسلمين معاملة عادلة ومنصفة بحق."[42]

وعدا أهل نجران، كان في جزيرة العرب في ذلك الوقت، قبيلة مسيحية قوية أخرى هم بنو تغلب، وقد أُبرم معهم اتفاق بدفع ضريبة عامة وقد منحَ هذا الاتفاق بني تغلب الحرية الدينية المطلقة ووقع عليه وفدهم الذي جاء المدينة. وقد ورد فيه أن من حق هذه القبيلة أن تتمتع بالحرية الكاملة بالبقاء على معتقدها وأن حرية المعتقد هذه تنطبق على أولادهم أيضا وأن عليهم ألا يكرهوا أولادهم على المسيحية.[43]

أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن حزم إلى بني الحارث بن كعب في اليمن، ليفقههم في الدين ويعلمهم معالم الإسلام، وكتب إليهم عهدا بالأمان وشرح لهم أوامر الإسلام وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاما خالصا من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُرد عنها، وعلى كل حالم: ذكر أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف أو عوضه ثيابا، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله.[44]

ولما أعطى رسول الله ﷺ الأمان لأهل أَيْلة كتب إليهم: "سِلْمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلم أو أعط الجزية، فمهما رضيتْ رُسلي قد رضيت. فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله."[45]

وقد كتب رسول الله ﷺ كتاب أمان إلى ملوك حِمْيَر جاء فيه: "وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا، وَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ دِينَارٌ وَافٍ مِنْ قِيمَةِ الْمَعَافِرِ أَوْ عِوَضُهُ ثِيَابًا، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ."[46]

لقد مُنحت حرية المعتقد الكاملة في الحكم الإسلامي. كانت قبل هجرة المسلمين عادةٌ في المدينة أن المِقْلاةَ من النساء -أي التي لا يعيش لها ولد- تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده، فلما أُجليَت بنو النضير لخيانتهم كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، وفي رواية أخرى أن الأنصار قالوا إن هذه النذور كانت تقطع عندما كانوا يظنون أن اليهودية أفضل مما كانوا يدينون هم به، أمّا وقد جاء الإسلام فإنهم سيكرهون أولادهم على دخول الإسلام، وبهذه المناسبة أنزل الله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 257).[47]

حسن معاملته مع المنافقين

كان من بين المجموعات المختلفة التي كان على رسول الله ﷺ أن يكافح فيها بعد الهجرة، مجموعة المنافقين، وقد عمل بتوجيه من الله تعالى على إصلاحهم وكان يعاملهم باللطف على العموم.

كان عبد الله بن أُبيّ بن سلول رئيس المنافقين، وكان يحيك المؤامرات ضد المسلمين، ولا يُفوّت أي فرصة في الحط من مقام رسول الله ﷺ، وقد تجرأ على نشر الإشاعات عن عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك. ولكن رسول الله ﷺ عامله دائما باللطف والعفو. لما مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه الجنازة فوثب إليه عمر رضي الله عنه ليحاول أن يثنيه عن ذلك نظرا إلى اعتداءاته وعداوته، إلا أن رسول الله ﷺ استمر بعزمه على الصلاة عليه، وذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ما ورد في القرآن الكريم: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: 80)؛ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "أخِّر عني يا عمر، إني خيُرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها".[48]

فصلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبيّ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزل المنع من الصلاة على أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة: 84)

ولكن بسبب هذه اللفتة الكريمة من الرسول ﷺ وُضع حدٌّ للنفاق في المدينة.

الحرية الدينية والتعامل مع الارتداد

المرتد وفق الاصطلاح الإسلامي هو من ترك دين الإسلام بعد أن دخله أو بعد أن كان عليه. لقد ذكر الله تبارك وتعالى الارتداد في القرآن الكريم في مواضع عديدة ولكنا لا نجد في أيٍّ منها حكما بقتل أو معاقبة المرتد بأية عقوبة دنيوية، ونذكر فيما يلي بعضا من هذه الآيات:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 257)

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (الكهف: 30)

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 218)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: 55)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: 138)

إذن، هذه بعض الآيات وهناك غيرها التي ذُكر فيها من آمنوا ثم كفروا بعد ذلك سواء بإعلانهم أو بأفعالهم، فسُمّوا بالكافرين والمرتدين والذين حبطت أعمالهم، ولكن لم يؤمر بقتلهم أو بإنزال أي عقوبة بحقهم.

ولننظر الآن إلى التطبيق العملي لهذه الآيات القرآنية من قبل من أُنزل القرآن على قلبه وكان الأسوة المُثلى حتى قيل عنه ﷺ: "كان خُلُقه القرآن"، والحديث التالي مثال على كيفية تعامل رسول الله ﷺ مع الارتداد:

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ فَبَايَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَجَاءَ مِنْ الْغَدِ مَحْمُومًا فَقَالَ أَقِلْنِي فَأَبَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ "الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا".[49]

يستنتج من هذه الحادثة أنه ليس وفقا للشرع من عقوبة لمن ارتد لمجرد ارتداده. لو كانت هناك عقوبة للردة لما تجرأ ذلك الأعرابي على المجيء إلى رسول الله ﷺ ولاكتفى بالتسلل من المدينة

محاولا ألا يعرف أحد بردته. لم يحذره رسول الله ﷺ من عواقب الردة، ولم يسعَ الصحابة إلى قطع عنقه وإنما غادر المدينة جهارا نهارا، فكل ذلك يشير يقينا أنه لا عقوبة للردة لمجرد الارتداد في الشريعة الإسلامية. وعلى العكس نجد أن رسول الله ﷺ على إبائه رد بيعته إلا أنه أعرب عن ارتياحه نوعا ما بعد رحيل هذا الأعرابي وقال بأن المدينة تعمل على التنقية كالكير، وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان ضد إكراه أحد على البقاء مسلما أو منع الناس من الردة قسرا. من هذا كله نوقن قطعا أنه لم تكن في الإسلام عقوبة للردة ولم يقتل المسلمون المرتدين لمجرد ارتدادهم.

والدليل الآخر على أن الإسلام لم يحكم بأي عقوبة بحق المرتد هو الشروط التي وافق عليها رسول الله ﷺ بصلح الحديبية مع المشركين الذي جاء في شرطه الثاني أن من جاء من قريش النبي ﷺ بغير إذن وليه يرده عليهم، ومن جاء قريشا من المسلمين (أي مرتدا) لا ترده قريش. فما كان رسول الله ﷺ ليوافق على ذلك لو كان هناك حكم بقتل من يرتد عن الإسلام، فأنى كان له ﷺ أن يهادن في حد من حدود الله؟

أضف إلى ذلك أن هناك أمثلة عديدة في حياة رسول الله ﷺ لأناس ارتدوا إلا أنهم لم يعاقبوا قط لمجرد ردتهم ولم تنزل فيهم عقوبة إلا من تمرد وشارك في الفساد والقتل.

ونذكر أيضا حادثة أخرى تدليلا على عدم وجود عقوبة للمرتد لمجرد الارتداد، وهي حادثة عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، وكان ﷺ إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما، وإذا أملى عليه حكيما كتب غفورا رحيما، وكان يفعل مثل هذه الخيانات حتى قال: إن محمدا لا يعلم ما يقول. فلما ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتدّ وهرب إلى مكة. وقيل إنه لما كتب: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ [المؤمنون: الآية 13] إلى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ [المؤمنون: الآية 15] تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: الآية 15] قبل إملائه، فقال له رسول الله ﷺ: اكتبْ ذلك، هكذا أُنزلتْ. فقال عبد الله: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ. فارتد ولحق بمكة، فقال لقريش: إني كنت أصرف محمدا كيف شئتُ، كان يملي عليّ عزيز حكيم، فأقول: أو عليم حكيم، فيقول: نعم، كل صواب، وكل ما أقوله يقول:

اكتبْ، هكذا نزلتْ. فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبي ﷺ دمَه لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة، فقال له: يا أخي استأمنْ لي رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقي. فغيّبه عثمان رضي الله عنه حتى هدأ الناس واطمأنوا، فاستأمن له، ثم أتى به إلى النبي ﷺ، فأعرض عنه النبي ﷺ، فصار عثمان رضي الله عنه يقول: يا رسول الله أمّنته والنبي ﷺ يُعرض عنه، ثم قال: نعم، فبسط يده فبايعَه.[50]

وهكذا أسلم عبد الله بن أبي سرح ثانية.

كانت هناك أسباب عديدة أدت لأن يأمر رسول الله ﷺ بهدر دم عبد الله بن أبي سرح وقتله أينما ثُقِف، إذ كان قد أجج نار الفتنة وزرع الفرقة، وما كان ذلك لمجرد تركه الإسلام، ومع ذلك نجد أنه أُجيرَ وعُفي عنه ولم يقتل.

إذن، في ضوء القرآن الكريم والحوادث في زمن رسول الله ﷺ يثبت أنه ليس هناك حكم بالقتل بسبب الارتداد فحسب. ولكن إن لم يكن حكم الارتدادِ القتلُ فلماذا أمر أبو بكر رضي الله عنه بقتال المرتدين وقتلهم؟ وقد تثار هذه النقطة في النقاشات والمناظرات فأتناولها هنا بإيجاز.

فما حدث بالفعل أنه بعد وفاة رسول الله ﷺ ارتدت معظم الجزيرة العربية، فمنهم من ارتد عن الدين ونبذَ الملة وعدل إلى الكفر ومنهم من أنكر وجوب الزكاة ودفعها إلى الإمام، ولذلك قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه. استخدمت في كتب التاريخ كلمة مرتد لتشمل تلك الفئات من الناس كلها مما قاد إلى سوء فهم المؤرخين والباحثين اللاحقين، فانتشرت الفكرة الخاطئة أن عقوبة الارتداد هي القتل وأن ذلك كان سبب شن أبي بكر رضي الله عنه الحرب عليهم وقتلهم إلا أن يعودوا إلى حظيرة الإسلام. ولكن الواقع يشير إلى أنه لا دليل، لا من القرآن الكريم ولا من سنة رسول الله ﷺ أن عقوبة الارتداد القتل. كما أن التمحيص في تاريخ الإسلام يبين بجلاء أن من ارتدوا زمن أبي بكر رضي الله عنه لم يكونوا مجرد مرتدين وإنما كانت جريمتهم التمرد وسفك الدماء، إذ لم يكتفوا بالتآمر لمهاجمة المدينة وقتل المسلمين وإنما قتلوا دون رحمة العديد من المسلمين في مناطق مختلفة فمثّلوا بهم وأحرقوهم أحياء. فما شُن ضد هؤلاء المسلحين من حرب كان من باب الدفاع والردع ووفقا للآية الكريمة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى: 41). ونذكر تأييدا لما ذكرنا بعضا مما جاء في كتب التاريخ:

قال الشوكاني بعد ذكر تفاصيل متعلقة بالردة التي حصلت بعد وفاة رسول الله ﷺ وبالذين منعوا الزكاة منهم أن الإمام الخطابي كتب أن مانعي الزكاة كانوا بالواقع أهل البغي وإنما سموا مرتدين لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعوه من حقوق الدين وأُلحقوا بأهل الردة إذ كانت الردة أعظم الأمرين وأهمهما.[51]

وذكر الطبري في تاريخه أن قبيلتا عبس وذبيان كانتا أول من شن الهجوم على المدينة فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه قبل رجوع أسامة رضي الله عنه.[52]

وكتب ابن خلدون أن القبائل العربية المرتدة توجهت إلى المدينة لتقاتل أبا بكر رضي الله عنه والمسلمين.[53]

ويقول العلامة بدر الدين العيني في كتابه عمدة القاري: "وَإِنَّمَا قَاتل الصّديق، رَضِي الله تَعَالَى عَنهُ، مانعي الزَّكَاة لأَنهم امْتَنعُوا بِالسَّيْفِ ونصبوا الْحَرْب للْأمة".[54]

إذن؛ ثبت من القرآن الكريم ومن سنة رسول الله ﷺ أنه لا عقوبة للمرتد عن الإسلام لمجرد ارتداده إلا أن يكون حمل السلاح وجاء محاربا.

كتبت المستشرقة الإيطالية الأستاذة فاليري (Vaglieri)، عن التسامح في الإسلام:

"لقد أمر النبي محمد ﷺ بألا إكراه في الدين. لقد تبع على الدوام أوامر الله وعامل الأديان كلها وخاصة التوحيدية بالتسامح، لقد تمتع بالصبر بالتعامل مع الكافرين وقد حمل على عاتقه أمن المؤسسات المسيحية وعهِد إلى قائد الحملة إلى اليمن ألا يُضام أحد بسبب دينه. لقد استمر خلفاء النبي ﷺ بإعطاء تعليمات مماثلة إلى قائدي جيوشهم والتزم جندهم بهذه الأوامر التزاما كاملا، وقد تأسى هؤلاء القادة المنتصرين بأسوة النبي محمد ﷺ عندما وقعوا العهود من الجيوش المهزومة، ووفقا لهذه العهود تمتعت الأمم المغلوبة بالحرية الدينية المطلقة، وكان الشرط الوحيد أن من لا يدخل الإسلام فعليه أن يدفع مبلغا ضئيلا كضريبة. كانت تلك الضرائب ضئيلة جدا إذا ما قورنت بما فُرض على المسلمين تحت الحكم الإسلامي. وكانوا مقابل تلك الضرائب ينعمون بالأمان نفسه الذي كان المسلمون ينعمون به.

لقد أصبحت تلك الممارسات للنبي وخلفائه قانونا. يمكننا القول دون مبالغة بأن الإسلام لم يدعُ إلى حرية الأديان فحسب بل جعل من التسامح جزءا حيويا في الشريعة. بعد الدخول

بمعاهدة، ما تدَّخل المسلمون قط في حرية الدين وما أكرهوا أحدا على تغيير دينه." [55]

كتب محرر جريدة سات أوبديشان الهندية (عدد 7 تموز/ يوليو 1915) ما يلي:

"يقول الناس إن الإسلام انتشر بالسيف، ولكني أخالفهم في ذلك، ما من فكر ينشر بالقوة إلا ويسقط بسرعة، لو أن الإسلام انتشر بالقوة لما بقي له أثر في عالمنا الحاضر. كلا، لم يحدث الأمر على هذا النحو، إنا نرى الإسلام يتطور كل يوم، والسبب في ذلك أن مؤسس الإسلام تمتع بالقوة الروحانية وحب الإنسانية، وكانت ترشَحُ منه مشاعر الحب والرحمة وتدفعه التقوى". [56]

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب سورة الأعراف.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة حنين.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آلم غلبت الروم. مصنف عبد الرزاق الصنعاني؛ الجزء 5، ص 381، طبعة بيروت.

[5] المبسوط للسرخسي؛ الجزء 12، ص 198، طبعة بيروت.

[6] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 477، طبعة بيروت.

[7] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 24، طبعة القاهرة.

[8] سنن أبي داؤد؛ كتاب السنة، باب في ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[10] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب النكاح، باب نكاح المشرك اذا أسلمت زوجته.

[11] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 92-93، طبعة بيروت. كنز العمال؛ الجزء 13، عمار ﷺ، الحديث رقم 37420.

[12] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 135، طبعة بيروت.

[13] أحكام القرآن للجصاص؛ الجزء 4، ص 279، طبعة بيروت.

[14] سنن أبي داؤد؛ كتاب شهر رمضان، باب تَحْزِيبِ الْقُرْآنِ.

[15] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص 386، طبعة بيروت.

[16] سنن الترمذي؛ كتاب الأطعمة، باب ماجاء أن المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة.

[17] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 10، ص 299، طبعة بيروت.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا.

[19] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 501، طبعة بيروت.

[20] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 249، طبعة بيروت.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله.

[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 221، طبعة القاهرة.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام.

[24] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران.

[25] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأطعمة، باب النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ السِّبَاعِ.

[26] صحيح البخاري؛ أبواب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم.

[27] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي.

[28] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 526، طبعة بيروت.

[29] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل.

[30] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 3، ص 482، طبعة بيروت.

[31] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 2، طبعة بيروت. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 248، طبعة القاهرة. دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 3، ص 482، طبعة بيروت.

[32] صحيح البخاري؛ أبواب الجزية والموادعة، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بمال وغيره وإثم من لم يف بالعهد.

[33] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 407، طبعة القاهرة.

[34] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 407، طبعة بيروت.

[35] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب وفاة النبي ﷺ.

[36] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 357، طبعة بيروت.

[37] سنن أبي داؤد؛ كتاب الخراج، باب في أَخْذِ الْجِزْيَةِ. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 288، طبعة بيروت.

[38] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص 485، طبعة بيروت.

[39] كتاب الخراج؛ ص 72، طبعة بيروت.

[40] كتاب الخراج؛ ص 132، طبعة بيروت.

[41] كتاب الخراج؛ ص 209، طبعة بيروت.

[42] World Faith; Ruth Cranston, p.207,209, Britain.

[43] سنن أبي داؤد؛ كتاب الخراج، باب في أَخْذِ الْجِزْيَةِ. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 316، طبعة بيروت.

[44] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 594، طبعة بيروت

[45] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 277، طبعة بيروت.

[46] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 588، طبعة بيروت.

[47] سنن أبي داؤد؛ كتاب الجهاد، باب في الأَسِيرِ يُكْرَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ.

[48] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين.

[49] صحيح البخاري؛ أبواب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.

[50] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 130، باب تتمة ذكر مغازيه ﷺ، فتح مكة شرفها الله. طبعة بيروت.

[51] نيل الأوطار؛ محمد الشوكاني، كتاب الزكاة، ص 724، دار الكتاب العربي، طبعة بيروت 2004.

[52] تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 254، دار الفكر، طبعة 2002.

[53] تاريخ ابن خلدون؛ الجزء 2، ص 436، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 2016.

[54] عمدة القاري؛ الجزء 24، ص 122، دار الكتب العلمية، طبعة 2001.

[55] An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad .Ahmad Mazhar, p.14, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

[56] Editor of "Sat Updaishan", dated 7th July, 1915.

النبي ﷺ مثال فريد في العفو

حثّ رسول الله ﷺ على التخلّق بمكارم الأخلاق التي تتمثّل فيها صفات الله، فقال إن من صفات الله أنه عفو يحب العفو، ويقتضي من البشر أن يتخلّقوا بهذه الصفة وأن يهدفوا إلى الكمال البشري.

قبل الإسلام، أمرت التوراة بالدّية ومجازاة السيئة بمثلها، وأوصى الإسلام بالرفق والعفو وذكّر المسلمين بأن عفوهم غير محمود إذا كان من باب الضعف وقلة الحيلة، فالعفو المحمود هو ذاك الذي يتبعه إصلاح، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: 41).

فلا عفو في حدود الله ولهذا السبب قال النبي ﷺ: "أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ (مَنْ لَمْ يَظهَر مِنْه رِيبَة) عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ".[1]

لقد خص الله تعالى النبي ﷺ بصفة العفو إذ قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران: 160).

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: 200).

وفي موضع آخر، ذكر الصفح وهو أعلى درجة من العفو إذ لا يبقى في القلب أثر لأي غل أو حقد، فهو عفو كامل من قلب صادق. يقول الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: 14)؛ ويقول أيضا: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: 86).

علمنا النبي ﷺ أن نسيطر على الغضب وأن نعفو، فقال: "يكون الرجل سريع الغضب قريب الفيئة فهذه بهذه ويكون بطيء الغضب بطيء الفيئة فهذه بهذه فخيرهم بطيء الغضب سريع الفيئة وشرهم سريع الغضب بطيء الفيئة".[2]

مر النبي ﷺ ذات يوم برجال يتصارعون فيما بينهم فسأل عن الأمر. فقيل له إن فلان يصرع أقوى الأبطال، فقال النبي ﷺ: "ليس الشديد بالصُّرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال أن رجلا سأل النبي ﷺ النصح فقال له: "لا تغضب"، وكررها عدة

مرات.[4]

لم يكن النبي ﷺ مثالا في العفو عن أصدقائه فقط بل وعن أعدائه أيضا، فكان خير ممثل لصفة العفو الإلهية، وعندما سئل عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنهما– عن آيات صدق النبي ﷺ في التوراة قال: "ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر".[5]

وفي ذلك إشارة إلى النبوءة الموجودة في التوراة والتي تقول: "لا يَصِيحُ وَلا يَرْفَعُ وَلا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لا يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ"(إشعياء، 42: 2و3).

وكان النبي ﷺ يروي قصة تاجر فقال: "كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى مُعسرا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا. فتجاوز الله عنه".[6]

شهدت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ برأفته فقالت: "مَا نِيلَ مِنْهُ شيءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ".[7]

حظي هند ابن خديجة رضي الله عنها بتدريب النبي ﷺ. فقال: "كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ دَائِمَ الْفِكْرَةِ لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلُ السَّكْتِ، لا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلامَ وَيَخْتِمُهُ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى." [8]

جاء رجلٌ إلى النَّبي ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللهِ كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ: اعْفُوا عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً".[9]

وركب النبي ﷺ حمارا وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعدَ بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة. فلما غشيت المجلس عجاجةُ الدابة خمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبّروا علينا. فسلّم عليهم النبي ﷺ، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء لا أحسنَ مِن هذا، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجعْ إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصصْ عليه. قال ابن رواحة: اغْشَنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاستبّ المسلمون

والمشركون واليهود حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفّضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: أي سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب –يريد عبد الله بن أبيّ– قال كذا وكذا. قال اعف عنه يا رسول الله واصفحْ، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البَحْرة على أن يتوّجوه فيعصّبوه بالعِصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيتَ. فعفا عنه النبي ﷺ.[10]

وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ مر بالقرب من عبد الله بن أُبي وهو جالس في ظل. فقال عبد الله بن أُبي: قد غبّر علينا ابن أبي كبشة. فقال ابنه عبد الله رضي الله عنه للرسول ﷺ: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب لئن شئت لأتيتك برأسه، فقال النبي ﷺ: "لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته".[11]

لقد عفا النبي ﷺ عن هذا العدو اللدود من قلب صادق حتى أنه صلى عليه الجنازة رغم وقاحته وأذاه، وقد حاول عمر رضي الله عنه أن يثني النبي ﷺ عن الصلاة عليه ولكن رسول الله ﷺ تبسم وقال: "أخِّر عني يا عمر. إني خُيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له لزِدتُ عليها". فصلى عليه وحضر دفنه.[12]

وعفا النبي ﷺ أيضا عن غورث بن الحارث الذي تتبّعه بعد معركة ذات الرقاع بنية قتله، فوجد النبي ﷺ نائما فأخذ سيفه وكان معلقا بالشجرة يريد قتله، فاستيقظ النبي ﷺ فقال له من يمنعني من قتلك فقال النبي ﷺ الله! فأفشل الله خطته. ثم لم يعاقبه النبي ﷺ بل عفا عنه.[13]

العفو عن يهودية حاولت تسميمه

بعد غزوة خيبر، بعثت أخت القائد اليهودي مرحب شاة مشوية إلى النبي ﷺ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الذِّرَاعَ فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَكَلَ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ. وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَدَعَاهَا فَقَالَ لَهَا: أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ. قَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ مَنْ أَخْبَرَكَ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي هَذِهِ فِي يَدِي. لِلذِّرَاعِ. قَالَتْ نَعَمْ. قَالَ: فَمَا أَرَدْتِ إِلَى ذَلِكَ. قَالَتْ: قُلْتُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَضُرَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اسْتَرَحْنَا مِنْهُ. فَعَفَا عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُعَاقِبْهَا وَتُوُفِّيَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَاحْتَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى كَاهِلِهِ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَكَلَ مِنَ الشَّاةِ حَجَمَهُ أَبُو هِنْدٍ بِالْقَرْنِ وَالشَّفْرَةِ.[14]

ويوم فتح مكة كسب النبي ﷺ بعفوه العظيم قلوب أهل مكة. فكان انتصاره ضِعفين إذ فاز بمكة وبقلوب أهلها.

العفو عن عبد الله بن أبي سرح

كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد كتّاب الوحي، فارتدّ وهرب إلى مكة ولحق بقريش، وأشاع أن الوحي إنما هو كلام محمد. فلما كان يوم الفتح أهدر النبي ﷺ دمه، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه أخاه من الرضاعة، فشفع له فعفا عنه النبي ﷺ بشفاعته.

وبعد أن بايع عبد الله النبيَّ ﷺ صار يستحيي من مقابلته فقال النبي ﷺ لعثمان: أما بايعتُه وأمّنته؟ قال بلى، ولكن يذكُر جرمه القديم فيستحيي منك. قال ﷺ: الإسلام يجبّ ما قبله. وأخبره عثمان رضي الله عنه بذلك، ومع ذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي ﷺ يجيء معهم ولا يجيء إليه منفردا.[15]

العفو عن المرتدين

شمل عفو النبي ﷺ الجميع. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كَانَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ سَلُوا لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 87-90). فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ".[16]

ومن بين من أهدر دمهم هبار بن الأسود الذي نخس بعير زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ وضربها برمح فسقطت من على الجمل على صخرة، وكانت حاملا فألقت ما في بطنها وأهرقت الدماء، ولم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت، فقال النبي ﷺ: وإن لقيتم هبارا فأحرقوه، ثم قال: إنما يعذب بالنار رب النار، إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه فلم يوجد يوم الفتح ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاء هبار رافعا صوته

وقال: يا محمدا أنا جئت مقرا بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. واعتذر إليه وقال: السلام عليك يا نبي الله لقد هربت منك في البلاد فأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلك في صفحك عمن جهل عليك، وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي وعما كان مني، فإني مقر بسوء فعلي، معترف بذنبي، فقال النبي ﷺ: "يا هبار عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يجب ما كان قبله".[17]

العفو عن ابن أبي جهل

كان عكرمةُ ابنَ أبي جهل وزعيم المشركين من بين الذين أهدر دمهم، وقد أمضى حياته كلها يعادي الإسلام، وكان هو وغيره من المبغضين الآخرين، قد أجبروا المسلمين والنبي ﷺ على هجر مكة ولم يتركوهم بسلام حتى في المدينة، ففرضوا الحروب على المسلمين بتحريض الأعداء ضدهم. ومنعوهم من العمرة ونقضوا الصلح الذي عقدوه معهم في الحديبية. وأسوأ ما فعله عكرمة بعد العفو العام أنه رفض الاستسلام وهاجم مع بعض رجاله المسلمين من جهة خالد بن الوليد وسفكوا الدماء في الحرم، ومن يأسه من العفو بسبب جرائمه القائمة على الكره فر إلى اليمن. دخلت زوجته أم حكيم في الإسلام وتوسلت إلى النبي ﷺ أن يعفو عن زوجها، وقبل النبي ﷺ أن يعفو عن عدوه اللدود وكتب كتابا يضمن له الحماية. فذهبت زوجته تبحث عنه ولما وجدته قالت له: "يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك، فقد استأمنت لك"، فلم يصدق أن يُعفى عن شخص مثله لكنه عاد مع زوجته فأتى النبي ﷺ فتأكد من عفوه.[18]

الإحسان إلى عكرمة

لم يعفو النبي ﷺ عن عكرمة فحسب بل عامله بمحبة وإحسان، فرحب بعدوه اللدود ووقف احتراما لزعيم عدوه.[19] ولما اقترب منه قال عكرمة: يا محمد زوجتي أخبرتني أنك أمنتني، قال: صدقت، إنك آمن، فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله. وطأطأ رأسه من الحياء.

كان النبي ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل الجنة، ورأى فيها عنقود عنب فأعجبه وقال: لمن هذا؟ فقيل لأبي جهل فشَقَّ ذلك عليه ﷺ وقال: لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، فلما جاءه عكرمة بن جهل مسلما فرح به، وأوّلَ ذلك العنب لعكرمة.

وكان قبل إسلامه قد بارز رجلا من المسلمين فقتله، فضحك النبي ﷺ، فقال له بعض الأنصار: ما أضحكك يا رسول الله وقد فجعنا بصاحبنا؟ فقال: أضحكني أنهما في درجة واحدة في الجنة. ومن ثم استُشهد عكرمة في قتال الروم في اليرموك.[20]

فرح النبي ﷺ لإسلام عكرمة فقال له: يا عكرمة ما تسألني شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه. قال: استغفر لي كل عداوة عاديتكها، فقال: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به. فقد عفا النبي ﷺ عن عكرمة من قلب صادق ومنع أصحابه من الإساءة له بسبب أبيه فقال: "لا تسبّوا أباه فإن سبَّ الميّتِ يؤذي الحيّ". ما من مثيل لمعاملة النبي ﷺ الحسنة مع عدوه في تاريخ البشرية.

وقال عكرمة بعد إسلامه: يا رسول الله لا أدَعُ مالا أنفقتُ عليك إلا أنفقتُ في سبيل الله مثلَه.[21]

المعاملة الحسنة مع هند

كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من بين المجرمين الذين أهدر دمهم. قامت بكل ما استطاعت لحث قريش وتحريضهم ضد المسلمين في المعارك فكانت تغني لهم أناشيد تعدهم فيها بعناق النساء لهم إن انتصروا وفراقهم إن هزموا.[22]

وهي التي مثّلت بجسد حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ في غزوة أُحد، فأساءت للإنسانية بعملها الشنيع إذ قطعت أنوف وآذان القتلى وبقرت بطونهم ومضغت كبد حمزة لتشفي غليلها.

ويوم فتح مكة أتت متخفية مع النساء اللواتي أتين لمبايعة النبي ﷺ على الإسلام ولكن أخذت تعلق على شروط البيعة فعرف النبي ﷺ أن مثل هذه الجرأة لا تكون إلا من هند فقال: وإنك لهند بنت عتبة. قالت: نعم. فاعفُ عما سلف عفا الله عنك يا نبي الله.[23]

الثورة التي حوّلت الكراهية إلى حب

إن الشهامة التي أظهرها النبي ﷺ في عفوه عن هند كانت استثنائية فأثرت فيها وأحدثت ثورة في قلبها، فحطمت الأصنام التي كانت في بيتها وطهّرت إيمانها من الوثنية والشرك. ثم قامت فأرسلت جديان مشويان مع مولاة لها إلى النبي ﷺ فقالت له: إن مولاتي تعتذر إليك وتقول: إن غنمها اليوم لقليل الوالدة. لم ينس النبي ﷺ قط رد الجميل فقال: اللهم بارك لكم في غنمكم وأكثر والدتها. فكثر الله ذلك، تقول تلك المولاة: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى قبل.[24] فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.وامتلأ قلبها بحب النبي ﷺ حتى إنها قالت: يا رسولَ اللهِ واللهِ ما كان على ظهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أحبَّ إليَّ مِن أنْ يُذِلَّهم اللهُ مِن أهلِ خِبائِك، وما على ظهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أحبَّ إليَّ اليومَ أنْ يُعِزَّهم اللهُ مِن أهلِ خِبائِك.[25]

إذن كيف يفسِّر مَن يدّعون أن الإسلام انتشر بالسيف إسلام عكرمة وهند؛ أي سيف هذا الذي كسب قلبيهما؟ لا شك أن إحسان النبي ﷺ الذي لا مثيل له هو ما جعل القلوب تهوي إليه.

الإحسان إلى صفوان، عدو الإسلام

كان صفوان بن أميّة زعيما من زعماء مكة الذين قاتلوا المسلمين طول حياتهم، وشارك في الهجوم على المسلمين الذين مع خالد بن الوليد. لكن النبي ﷺ لم يعاقبه وقتها. ويوم فتح مكة خجل من عمله وفر إلى اليمن، ولم يتوقع أن يُعفى عنه. لكن ابن عمه عمير بن وهب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: "يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه، فأمنه فداك أبي وأمي". فقال: قد أمنته. فخرج عمير بن وهب في إثره فأدركه فقال: جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس، وقد أمنك. قال: لا والله حتى تأتيني منه بعلامة أعرفها. فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال: خذ عمامتي. وهي التي دخل فيها رسول الله ﷺ مكة، فخرج عمير في طلبه ثانية، فأعطاه العمامة معرفة، فرجع معه. فقال: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ هَذَا وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ جَاءَنِي بِرِدَائِكَ وَزَعَمَ أَنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى الْقُدُومِ عَلَيْكَ فَإِنْ رَضِيتُ أَمْرًا قَبِلْتُهُ وَإِلَّا سَيَّرْتَنِي

شَهْرَيْنِ. فقال النبي ﷺ: بَلْ لَكَ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.[26]

لكن النبي ﷺ، بغضون أيام فقط، كسب قلب صفوان بكرمه. فلما رجعوا من الطائف، مر النبي ﷺ بواد ترعى فيه ماشيته ومعه صفوان بن أمية فأخذ صفوان ينظر إلى الماشية فأدام النظر إليها ورسول الله يرمقه فقال: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم قال: هو لك وما فيه، فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. وأسلم مكانه.[27]

العفو عن وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه

كان وحشي بن حرب من المجرمين الذين أهدر دمهم، وقد وعده سيده جبير بن مطعم بن عدي أن يعتقه إن قتل حمزة عم الرسول ﷺ في معركة أحد ثأرا لعمه طعيمة بن عدي، ومن أجل ذلك هاجم وحشي حمزة رضي الله عنه حامل الراية بحربة من الخلف فقتله، ويوم فتح مكة فر وحشي إلى الطائف، وبعد سنوات، بدأت الوفود تصل من أنحاء البلاد، وخرج وفد من الطائف يريد الإسلام فاحتار وحشي بأمره أين يفر فقال رجل: والله لا يقتل محمد أحدًا يدخل في دينه، وروى وحشي فقال: فخرجت حتى قدمت المدينة على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في خفة وحذر، ومضيت نحوه حتى صرت فوق رأسه، وقلت أشهد أن لا إله إلا الله، فلما سمع الشهادتين رفع رأسه إلي، فلما عرفني ردَّ بصره عني، وقال: "أنت وحشي؟" قلت: نعم يا رسول الله فقال: "كيف قتلت حمزة؟" فحدثته خبره، فلما فرغت من حديثي أشاح بوجهه وقال: "ويحك، غيِّب عني وجهك فلا أراك". وكان ذلك تفاديا لتذكر قتله عم الرسول الحبيب الذي دعمه وحماه في فترة الاضطهاد وأسلم مع الأولين وسانده إلى النهاية.

ولما رأى وحشي فضل النبي ﷺ عليه راح يفكر كيف يرد الجميل ويخفف من جرمه، فخطط أن يقتل ألد أعداء الإسلام، وهذا ما فعله حبا بالنبي ﷺ وامتنانا لعفوه؛ ففي خلافة أبي بكر رضي الله عنه قتل وحشي مسيلمة الكذاب.[28]

العفو عن الحارث وزهير

كان الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية شريكي عكرمة وصفوان، لم يقبلا بالعفو العام

واستمرا في القتال، وبعد فتح مكة خافا من معاملة المسلمين لهما فلجئا إلى بنت عم النبي ﷺ أم هانئ رضي الله عنها فأجارتهما، وكلاهما أقرباء لها من جهة زوجها، تكلمت أولا مع أخيها عليّ رضي الله عنه بشأن العفو عنهما، فنظر إليهما فشهَرَ عليهما السيف، فتفلَّتَ عليهما، واعتنقَتْه وقالت: تصنع بي هذا من بين الناس لتبدأن بي قبلهما فقال: تجيرين المشركين! فخرج. فذهبت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما لقيتُ من ابن أمي عليّ ما كدت أفلت منه، أجَرتُ حموين لي من المشركين فانفلت عليهما ليقتلهما. فقال النبي ﷺ: ما كان ذلك له، قد أجرنا مَن أجَرتِ وآمنَّا مَن آمنْتِ. فرجعت إليهما فأخبرتهما فانصرفا إلى منازلهم، وهكذا عفي عن هذين العدوين اللدودين.[29]

كان الحارث بن هشام أحد زعماء قريش. عفا النبي ﷺ عنه وأعطاه مائة ناقة، وشارك بعد ذلك في معركة اليرموك وجرح فطلب ماء وكان بجواره جريحان آخران فطلب أن يشربا قبله، واستشهد في تلك المعركة.[30]

وعن الحارث بن هشام قال: "لما أجارتني أم هانئ، وأجاز رسول الله ﷺ جوارها فصار لا أحد يتعرض لي، وكنت أخشى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمر عليَّ وأنا جالس، فلم يتعرض لي، وكنت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ لما أذكر برؤيته إياي في كل موطن مع المشركين، فلقيته وهو داخل المسجد، فلقيني بالبِشر، فوقف حتى جئته فسلمتُ عليه وشهدت شهادة الحق، فقال: الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام".[31]

تملّك القلوب

بعد فتح مكة أعلن الذي بُعث رحمة للعالمين ﷺ العفو العام ووصل إلى الحرم، وكان البعض ما زالوا يخططون لقتله وظنوا أن قتلهم للنبي ﷺ سيحوّل انتصاره إلى هزيمة، فبينما كان النبي ﷺ يطوف بالكعبة إذ أخذ فضالة بن عمير يقترب منه يريد قتله، فأعلم الله رسوله بنية فضالة، فلما دنا منه قال له النبي ﷺ: أَفَضَالَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَضَالَةُ، يَا رَسُولَ اللَّه. قال: مَاذَا كُنْت تُحَدّثُ بِهِ نَفْسَك؟ قَالَ: لَا شَيْءَ كُنْت أَذْكُرُ اللّه. فَضَحِكَ النّبِيّ ﷺ ثم قال: اسْتَغْفِرْ اللّهَ، ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَسَكَنَ قَلْبُهُ. فَكَانَ فَضَالَةُ يَقُولُ: وَاللّهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتّى مَا مِنْ خَلْقِ اللّهِ شَيْءٌ أَحَبّ إلَيّ مِنْهُ.[32] وأسلم فضالة وقد امتلأ قلبه حبا لنبي الرحمة ﷺ. وهذا من

النصر الذي حققه أيضا النبي ﷺ يوم فتح مكة.

وعن جعدة ﷺ قال: "جاؤوا برجل إلى النبي ﷺ فقالوا: إن هذا أراد أن يقتلك، فقال له: لَمْ تُرَعْ، لَمْ تُرَعْ، لَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَمْ تُسلَّط عَليّ".[33]

وعن عُبيد بن عُمير ﷺ قال: "بلغني أن رسول الله ﷺ ما أُتي في غير حَدٍّ إلا عفا عنه".[34]

الفضل على العدو

في طريق العودة من حصار الطائف جاء الشاعر المعروف كعب بن زهير إلى النبي ﷺ وكان أبوه قد سمع من أهل الكتاب بمجيء نبي من الله ووصى أولاده أن يؤمنوا به. ودخل ابنه بُجَير في الإسلام بينما كان كعب يكتب شعرا مبتذلا ومؤذ عن الرسول ﷺ والتشبيب بالمسلمات. ولهذا قال النبي ﷺ: لئن وقع كعب في يديّ لأقطعن لسانه.

فكتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بفتح مكة وطلب منه أن يأتي النبي ﷺ طالبا عفوه، فكتب كعب قصيدة بعنوان "بانت سعاد" يمدح فيها النبي ﷺ، وذهب إلى المدينة ونزل عند أحد معارفه، وصلى الفجر في المسجد وراء النبي ﷺ فاقترب منه ولم يعرفه أحد ووضع يده في يد النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال: نعم، فقال: يا رسول الله أنا كعب بن زهير، فوثب رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا. فأنشد القصيدة المذكورة وأحد أبياتها:

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

أعجب النبي ﷺ بقصيدته وأهداه بردته تكريما وتأمينا له. هكذا كان النبي ﷺ يعفو ويصفح عن أعدائه.[35]

فباختصار، إن سعة عفو النبي ﷺ جعلت صفة الله العفو تتمثل فيه بشكل جميل، فكان أسمى من تجلت فيه هذه الصفة الإلهية.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن أبي داود؛ كتاب الحدود، باب في الْحَدِّ يُشْفَعُ فِيهِ.

[2] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 61، طبعة القاهرة.

[3] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب. فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 10، ص 519، طبعة بيروت.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب البيوع باب من أنظر معسرا.

[7] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب مُبَاعَدَتِهِ ﷺ لِلآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ أَسْهَلَهُ...

[8] الشمائل المحمدية للترمذي ؛ بَابُ كَيْفَ كَانَ كَلامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[9] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب في حَقِّ الْمَمْلُوكِ.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين.

[11] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 1، ص 301، طبعة بيروت.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

[14] سنن أبي داود؛ كتاب الديات، باب فِيمَنْ سَقَى رَجُلا سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ.

[15] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 130، طبعة بيروت.

[16] سنن النسائي؛ كتاب المحاربة، باب تَوْبَةُ الْمُرْتَدِّ.

[17] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 91-92، طبعة بيروت.

[18] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 92-93، طبعة بيروت.

[19] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب النكاح، باب المشرك اذا أسلمت زوجته.

[20] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 291، طبعة بيروت.

[21] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 782-781، طبعة بيروت.

[22] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 92، طبعة بيروت.

[23] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 300، طبعة بيروت.

[24] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 301، طبعة بيروت.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب المناقب، باب ذكر هند بنت ربيعة رضي الله عنها.

[26] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب النكاح، بَاب نِكَاحِ الْمُشْرِكِ إِذَا أَسْلَمَتْ زَوْجَتُهُ قَبْلَهُ.

[27] كنز العمال؛ الجزء 10، ص 505-506، طبعة مصر.

[28] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 94، طبعة بيروت.

[29] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 312، طبعة بيروت.

[30] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 223، طبعة بيروت.

[31] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 312، طبعة بيروت.

[32] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 417، طبعة بيروت.

[33] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 2، ص 284، طبعة بيروت.

[34] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 368، طبعة بيروت.

[35] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 235، طبعة بيروت.

حِلمُ رسول الله ﷺ

يعني الحِلم الحكمة والفهم، وهي خصلة التسامح وردة الفعل الهادئة واستخدام اللطف في الكلام أمام جهالة وخطأ الخصم، فهو نوع من العفو، وصفة الله الحليم هي الصفة التي يتعامل بها مع كل خلقه دون تمييز بينهم. قال رسول الله ﷺ: "ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم."[1]

كان رسول الله ﷺ انعكاسا رائعا لهذه الصفة الربانية التي ظهرت منه في وقتها ومكانها المناسبين لتكون خلقا يحمد عليه؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلا امْرَأَةً وَلا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ."[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله (أي لرحمته يكون ميالا للعفو في كل فرصة) وما من شيء أحب إلى الله من الحمد."[3]

وقد قال رسول الله ﷺ: "علموا ويسروا ولا تعسروا وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت وإذا غضبت فاسكت."[4]

كان اللطف واللين متأصلا في طبيعة رسول الله ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها أنه ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما. وعن أسامة بن شريك أنه شهد الأعراب يسألون رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله هل علينا جُناح أن لا نتداوى فقال ﷺ: "تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهَرَمَ." ثم سأل آخر أعلينا حرج من كذا وكذا؟ فقال رسول الله ﷺ: "عباد الله وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئا فذاك الذي حرجٌ وهلكَ. ثم سأل آخر: يا رسول الله ما خير ما أعطي العبد؟ فقال رسول الله ﷺ: "خلقٌ حسنٌ".[5]

رأى رسول الله ﷺ رجلين يستبّان وقد احمر وجه أحدهما وانتفخت أوداجه، فقال ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب عنه ما

يجد.[6]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال لنا: "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع."[7]

وكذلك قال النبي ﷺ: "التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة."[8]

وعن أنس رضي الله عنه قال: "مَا رَأَيْتُ رَجُلا الْتَقَمَ أُذُنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ (أي إذا اقتربَ مِن أذُنِ النبي ﷺ بكلامٍ يناجيه ويحدثه قرب ﷺ إليه رأسه) حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ، وَمَا رَأَيْتُ رَجُلا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ." [9]

لقد كان خلق حِلمه صفة مميزة لرسول الله ﷺ، وقد روى الإمام الحسين رضي الله عنه عن خاله هند بن أبي هالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ما أظهر غضبا إلا إذا تُعُدِّي الحق، عندها لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. وما غضب لنفسه وما انتصر لها.[10]

علامة نبوة

لقد ذُكرت صفة حلم رسول الله ﷺ المميزة في التوراة. وقد دخل اليهودي زيد بن سُعنّة الإسلام بعد اختبارها في رسول الله ﷺ، وقد بيّن هذا الحدث المهم عمليًّا للعالم المعنى الحقيقي للحلم. كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه من علماء اليهود الذين سعدوا بقبول الإسلام فقال: إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدى زيد بن سعنة قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ إلا شيئين لم أخبرهما منه؛ هل يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما. وليختبرَ زيدٌ ذلك أصبح يحضر مجالس رسول الله ﷺ، وذات يوم أقبل رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأتاه بدوي وذكر له أن قوما من قرية معينة كانوا قد أسلموا وأنه كان قد حدثهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا ولكنهم أصابهم القحط فخشي أن يخرجوا من الإسلام، وطلب من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم بشيء يعينهم به. فوجد اليهودي فرصة لتنفيذ مخططه وقال إنه سيشتري لهم تمرًا، فاشترى ما يعدل ثمانين مثقالا من ذهب، في تمر معلوم، إلى أجل كذا وكذا، وأمر رسول الله ﷺ أن تؤخذ لهؤلاء القوم الذين أصابهم الجوع، وقبل يومين أو ثلاثة أيام من أجَل ذلك الدين كان رسول الله ﷺ قد شيع جنازة فأخذ زيد بردائه وجذبه بشده فسقط عن كتفه ونظر إليه بوجه غليظ وقال: ألا تقضيني

يا محمد حقي فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا مُطلا في سداد الديون. وكان عمر ﵁ يرتجف غضبا ورمى زيدا ببصره وقال له: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل برسول الله ﷺ ما أرى؟ والله لولا أنني أحذر غضبه لضربت رأسك بسيفي، ورسول الله ﷺ ينظر إلى كل ذلك في سكون وتؤدة وتبسّم ثم قال لعمر ﵁: "يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا: أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر". وقال زيدٌ: عندما أعطاني عمر ﵁ حقي والزيادة سألته لماذا يجزيني على فظاظتي؟ فأجابني بأن ذلك جزاء ترويعي لك. ثم عرّف زيد بنفسه أنه الحبر اليهودي زيد بن سعنة فسأله عمر عن سبب فظاظته مع رسول الله ﷺ فأجاب زيد بكل صراحة أنه كان تعرَّف على كافة علامة النبوة إلا الحلم ما اختبرته فيه ولكنه ظهر منه الآن بكل جلاء، وأشهدك يا عمر بأني قبلت الإسلام وأن شطر مالي صدقة على أمة محمد. فنطق زيد بالشهادتين ودخل الإسلام ثم تبعته عائلته كلها، وشهد زيد بن سعنة معارك مع رسول الله ﷺ.[11]

أمثلة عن حلم رسول الله ﷺ

وهناك حادث مشابه متعلق بيهودي آخر؛ فعن علي بن أبي طالب ﵁ أن يهوديا كان يقال له جريجرة كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ ليس عندي مال حاليا. فقال جريجرة: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني. فقال ﷺ: إذًا أجلس معك، فجلس معه رسول الله ﷺ في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددون اليهودي، وعندما سألهم رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك؟! فقال رسول الله ﷺ: منعني ربي أن أظلم معاهدا ولا غيره. فلما طلع النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما والله ما فعلتُ الذي فعلتُ بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة. وقد أظهر هذا الاختبار الحقيقة.[12]

لم يكن رسول الله ﷺ يعفو عن المرء قسوة كلامه فحسب، بل كان يتفضل عليه؛ فعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ حبس رجلا من قومه في تهمة، فجاء رجل من قومه إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، عَلَامَ تحبس جيرتي؟ فصمت النبي ﷺ. وقال: إن أناسا يقولون إنك تنهى عن الشر وتستحلي به. فقال النبي ﷺ: «ما تقول؟» فجعلتُ أعرض

بينهما بالكلام مخافة أن يفهمها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحوا بعدها. فلم يزل النبي ﷺ حتى فهمها، فقال: «قد قالوا؟ أو قائلُها منهم؟ والله لو فعلتُ لكان عليَّ ما كان عليهم، خَلُّوا عن جيرانه».[13]

وعن عائشة رضي الله عنها أن يهودا أتوا النبي ﷺ فقالوا السام عليكم، أي اللعنة عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم. فقال رسول الله ﷺ: مهلا يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، فقالت عائشة رضي الله عنها: أوَلم تسمع ما قالوا؟ قال: أوَلم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ.[14]

ثم نصح رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تتحلى بالرفق والحلم وقال: يا عائشة لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه ولم يُنزع من شيء إلا شانه. وأضاف أيضا: إن الله يحب الرفق في الأمر كله.[15]

إن رسول الله ﷺ بصفته حاكم المدينة قد أظهر التسامح والحلم مقابل فظاظة اليهود. فعن ثوبان رضي الله عنه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يسقط منها، فقال لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله!؟ فقال اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي. ثم سأله اليهودي بعض الأسئلة ولما انصرف قال رسول الله ﷺ: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به.[16]

لقد شهد خُدّام رسول الله ﷺ على حلمه في الأمور اليومية، وكان يأمر أهله أن يعفوا عنهم كل يوم سبعين مرة.[17] فعن خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه خدم رسول الله ﷺ عشر سنين، فما زُجر ولا ضُرب، ولا قيل له أفٌ، ولا عوقب على تأخره بتنفيذ أمر، وحتى إن قام أحد أفراد عائلته بزجره، كان رسول الله ﷺ ينصح بالصفح لأن الأمور تحدث كما قُدِّر لها أن تحدث.[18]

كان الأعراب خشني الطبع، وكان رسول الله ﷺ دائما ما يُظهر اللين مقابل سلوكهم. ذات مرة تصرف أعرابي بفظاظة وهو يطلب العطاء من رسول الله ﷺ، فجبذه بردائه بشدة حتى أثَّر في عنقه ثم قال له بكل وقاحة: أعطني من مال الله الذي عندك! فلم يكتف رسول الله ﷺ بإظهار الصبر والهدوء بل تبسَّم وأمر كرما منه للأعرابي بعطاء.[19]

ابتاع رسول الله ﷺ من رجل من الأعراب جزورا بوسق (وهو مكيال يعدل ستون صاعا أو ما يقارب 123 كيلوغراما) من تمر الذُخرة أي العجوة، فرجع به رسول الله ﷺ إلى بيته والتمس له التمر فلم يجده، فخرج إليه وبكل صراحة وبساطة قال له: يا عبد الله، إنا قد ابتعنا منك جزورا بوسق من تمر الذخرة فالتمسناه فلم نجده، فقال الأعرابي: وا غدراه! فلامه الصحابة، ولكن رسول الله ﷺ قال لهم أن يدَعوه.[20]

ما ظهر من رسول الله ﷺ مطلقا الغضب أمام الادعاءات والاعتراضات غير المبررة من خصومه بل بدا منه الصبر. فلما كان يوم حنين أعطى رسول الله ﷺ مئة من الإبل لبعض أشراف قريش تأليفا لقلوبهم وتقريبا لهم للإسلام، فاعترض رجل بأن تلك القسمة لم يُراع فيها العدل (قد اعترض لعدم تلقيه مئة من الإبل أيضا)، فقال رسول الله ﷺ: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.[21] وهذا دليل على صبره وتحمله، ثم عفا عن هذا الأعرابي.

لقد تحلى رسول الله ﷺ بالصبر أمام إنكار وتزييف قومه وما تعجل بالدعاء عليهم قط؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن يُنحيَ الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أُهلكوا. فاختار رسول الله ﷺ أن يستأني بهم كي لا يهلكوا.[22]

لقد دعا الطفيل بن عمرو الدوسي قومه إلى الإسلام فأبوا، فجاء رسولَ الله ﷺ وطلب منه أن يدعو عليهم فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه وقال: اللهم اهد دوسا وائت بهم.[23]

باختصار فإن خُلق الحِلم الرفيع كان دليلا مدهشا على صدق النبي محمد ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى.

[2] صحيح مسلم ؛ كتاب الفضائل، باب مُبَاعَدَتِهِ ﷺ لِلآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ.

[3] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 43، طبعة بيروت.

[4] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 239و283، طبعة القاهرة.

[5] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

[7] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب مَا يُقَالُ عِنْدَ الْغَضَبِ.

[8] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 132، طبعة بيروت.

[9] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب في حُسْنِ الْعِشْرَةِ.

[10] الشمائل المحمدية للترمذي ؛ باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ.

[11] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 700، طبعة بيروت.

[12] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 678، طبعة بيروت.

[13] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 214، طبعة بيروت.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا.

[15] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 241، طبعة القاهرة. صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين.

[16] تفسير القرآن العظيم لابن كثير؛ الجزء 4، ص 519، طبعة بيروت.

[17] سنن الترمذي ؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في العفو عن الخادم.

[18] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة.

[20] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 268، طبعة القاهرة.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.

[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 258، طبعة القاهرة.

[23] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 243، طبعة القاهرة.

ثقة رسول الله ﷺ العظيمة بالله

معنى التوكل

التوكُّل يعني استئمان شيء عند أحد. والتوكُّل على الله يعني الخضوع لمشيئته وتقديره بحيث لا يعتمد المرء كليا على الوسائل المادية لتحقيق هدف ما، ولا يتركها كلية.

فبعد استخدام كافة الوسائل والقدرات التي منحها الله، إن بقي هناك ضعف في سعينا توكلنا على الله بأنه هو بنفسه سيحقق المرام.

يمكن تقسيم موضوع التوكل على الله إلى قسمين، الأول نظري والآخر عملي. الثقة بالله حتى عند غياب الأسباب المحسوسة أو عدم تكبُّر المرء وإن وجدت الأسباب وإيمانه بأن الله يغيرها؛ فهذا هو التوكل العقلي على الله. أما بشكله العملي، فهو الثقة المطلقة بالله تعالى حتى بوجود كافة الأسباب المطلوبة. فثقتنا يجب أن تكون بعون الله تعالى وليس بجهودنا وتدبيرنا. وذلك هو التوكل الحقيقي على الله الذي يظهر في وقت القوة لا في حالة الضعف. ويمكننا إدراك هذا النوع من التوكل على الله من خلال شخصية ومسلك رسول الله ﷺ.

عندما يضطر الناس لقبول نتائج إهمالهم وتقصيرهم يحسبون ذلك توكلا على الله بأنهم قبلوا الوضع المفروض، وهذا الفهم من التوكل على الله ليس صحيحا. ذات مرة قضى رسول الله ﷺ بين رجلين فقال المقضي عليه لَمّا أدْبَر حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول ﷺ ردوا عليَّ الرجل فقال ما قلت؟ قال: قلت حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل".[1] أي أن الله لا يحب التقصير والتهاون في الأمور وأن على المرء اتخاذ الاحتياط والحزم وعندها إن واجه الصعوبات قال حسبي الله ونعم الوكيل.

فالابتداء إلى الأمور دون اتخاذ الأسباب والتخطيط وبذل الجهد ليس توكلا على الله. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.[2]

فهذا هو التوكل الحقيقي على الله الذي علمه رسول الله ﷺ أتباعه. فذات مرة جاء أعرابي على ناقته وقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال له رسول الله ﷺ: اعقلها وتوكل.[3]

نبوءة عن توكل رسول الله ﷺ

والحقيقة أن الدرجة العليا من التوكل على الله التي تمتع بها النبي ﷺ قد أُنبئ عنها في الكتب السابقة؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ورد في التوراة: "أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكِّل".[4]

وهذه إشارة إلى النبوءة في سفر إشعياء:

"هو ذا عبدي الذي أعضُده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي. وضعتُ روحي عليه." (1/42)

"لا يكِلُّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض." (4/42)

"أنا الرب قد دعوتك بالبرِّ، فأُمسكُ بيدكَ وأحفظك." (6/42)

كان رسول الله ﷺ يتوكل على الله توكلا كاملا، وكان يدعو في كل لحظة وفي كل مناسبة وفق هذا التوكل. وكان يبدأ تهجده بالدعاء بأن توكله الكامل على الله وحده، وعند خروجه من منزله كان يدعو: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال ﷺ إن من يدعو بهذا الدعاء يُقال له حينئذ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ.[5]

عندما كان رسول الله ﷺ يأخذ مضجعه كان يدعو دعاء ينم عن التوكل على الله وينصح أصحابه أن يفعلوا مثله، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل يقول: "اللهم باسمك أموت وأحيا."[6]

وفي المعارك كان رسول الله ﷺ شديد التوكل على الله تعالى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا غزا قال: "اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل".[7]

وللوقاية من فتنة الدجال في المستقبل، نصح رسول الله ﷺ أتباعه بالتوكل على الله وقال بأن من تأثر به وقال أنت ربي فقد افتُتِن أما من كذّبه وقال: ربي الله عليه توكلت فلا يضره.[8]

وكان النبي ﷺ يتضرع لله تعالى معبرا عن توكله الكامل على الله فيقول: اللهم هذا الدعاء

وعليك الاستجابة، اللهم هذا الجهد وعليك التكلان.[9]

وكان ﷺ يقول: "الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ "ثَلاثًا" وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ.

بعض الناس يجتنبون المصابين بأمراض معدية، أما رسول الله ﷺ فكان توكله على الله في هذه الأمور عظيما. ذات مرة كان هناك مجذوم في الجمع وفي وقت الطعام أخذ رسول الله ﷺ بيده فوضعها معه في قصعته وقال: "كُلْ ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلا عَلَيْهِ".[10]

لقد ذكر النبي ﷺ بأن سبعون ألفا من أمته سيدخلون الجنة بغير حساب وقال: "هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".[11] ولا شك أن إمام هؤلاء الأناس هو رسول الله ﷺ.

لقد علّم رسول الله ﷺ أتباعه التوكل على الله، خاصة في الرزق فقال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا."[12] وقال أيضا: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ".[13]

كان هناك أخوان على عهد النبي ﷺ، فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يعمل، فشكى العامل عدم عمل أخيه إلى النبي ﷺ، فقال: "لعلك تُرزَق به".[14]

عندما كان رسول الله ﷺ يرى المؤمنين المخلصين يعذَّبون في سبيل الله كان ينصحهم بالتوكل على الله؛ فعندما عُذِّبت عائلة ياسر رضي الله عنه قال لهم رسول الله ﷺ: اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.[15] وعندما بلغ التعذيب حدا كبيرا طلب بعض الصحابة الإذن ليدافعوا عن أنفسهم وأن يجابهوا العدو، فنصحهم رسول الله ﷺ بالصبر وأن لا يبغوا الانتقام وأن يثبتوا ويتوكلوا على الله، فقال لهم: "لقد كان من قبلكم ليُمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله."[16]

أسوة في التوكل

كان رسول الله ﷺ يُبدي أسوة رائعة من الاعتماد على الله وحده في مواجهة المحن والاختبارات. وإحدى أقصى اختبارات حياته كانت السنوات الثلاثة التي قضاها محاصرا مع عائلته وصحبه في شِعب أبي طالب. ففي تلك الفترة حصلت مقاطعة تامة في التجارة وتبادل

البضائع وحتى الزيجات أوقفت. لقد مُنع المسلمون من كافة وسائل الحياة. كانت حياته ﷺ في خطر في كل لحظة ومع ذلك صبر واضعا كل ثقته بالله تعالى، فساعده الله من غيب قدرته وأكلت الأرَضة داخل الكعبة الميثاق الذي كُتبت فيه بنود المقاطعة. وعندما خرج النبي ﷺ من هذا الحصار متأسفا من مسلك أهل مكة اتجه إلى الطائف ليشهد العالم ثقته العظيمة بالله تعالى. فقد خاطب هذا الرسول ﷺ زعماء هذه المنطقة الغريبة بكل شجاعة ودون خوف. كان وحده ولكنه بلّغ رسالة ربه بجرأة. وما خشي على حياته أو فكر بالمخاطر إذ كان لديه شغف واحد وهو أداء التبليغ. كانت ثقته المطلقة بالله تعالى وفي عودته من رحلة الطائف تجلى مشهد غريب لثقته بالله تعالى؛ فأقام بنخلة أياما فقال له زيد بن حارثة كيف تدخل مكة وهم أخرجوك فقال: "يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه". فأرسل النبي ﷺ رسائل إلى رؤساء مكة طالبا الإجارة فرفضوا إلا رجلا شريفا هو المطعم بن عدي الذي أعلن أنه أدخل الرسول ﷺ في جواره فرجع النبي ﷺ إلى مكة.[17]

لا بد من التخطيط لبلوغ الهدف عندما نتوكل توكلا كاملا على الله. وقد أوحى الله تعالى ببعض الأمور التي يجب اتخاذها عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة. ففي ليلة هجرته أَتَى جِبْرِيلُ عليه السلام رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَقَالَ لَا تَبِتْ هَذِهِ اللّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِك الّذِي كُنْت تَبِيتُ عَلَيْهِ. فَلَمّا كَانَتْ عَتَمَةٌ مِنْ اللّيْلِ اجتمع المشركون عَلَى بَابِهِ يَرْصُدُونَهُ مَتَى يَنَامُ فَيَثِبُونَ عَلَيْهِ فَلَمّا رَأَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجّ بِبُرْدِي هَذَا الْحَضْرَمِيّ الْأَخْضَرِ، فَنَمْ فِيهِ فَإِنّهُ لَنْ يَخْلُصَ إلَيْك شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ.[18] وهذا ما حصل بالضبط.

الهجرة إلى المدينة

في كل خطوة من خطوات رحلة هجرته كان رسول الله ﷺ متوكلا بالكامل على الله الحميد. بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها واجه رسول الله ﷺ صعوبات في الحياة؛ فقد أتى الطائف بهدف تبليغ رسالة الإسلام إلا أن ذلك لم يُكلل بالنجاح، وأصبح بعدها يعيش وسط الأعداء في مكة. لقد هاجرت مجموعة من المسلمين إلى المدينة بناء على رؤيا لرسول الله ﷺ أُري فيها أرضا فيها نخيل، وقد هاجر أيضا مستشاره ومساعده الخاص عمر رضي الله عنه وكان أبو بكر رضي الله عنه، لما واجهه من معارضة من المشركين وصعوبات في أداء العبادة وتلاوة القرآن، مستعدا للهجرة

أيضا. إلا أن ابن الدُغنة سيد قبيلة القارة قد أجاره وأعاده إلى مكة. وكان رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من الله تعالى، والتأخر في هذا الأمر قد أعطى الفرصة للمسلمين المضطهدين للوصول إلى مأمن. وعندما أراد أبو بكر رضي الله عنه الهجرة مرة ثانية أمره رسول الله ﷺ بالانتظار كونه ينتظر الإذن من الله بنفسه للهجرة. وبعد الحصول على ذلك الإذن غادر مكة في ظروف خطرة جدا برفقة أبي بكر رضي الله عنه وكان متوكلا توكلا مطلقا على الله تعالى.[19]

لقد أظهرت رحلة هجرته ﷺ عظيم ثقته بالله تعالى؛ فعن أنس رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟".[20]

وقال عمر رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكررضي الله عنه ويوم خير من عمر وآل عمر. والليلة هي التي لجأ فيها مع رسول الله ﷺ إلى غار ثور وفيه جحور حيات وعقارب فخشي أبو بكر رضي الله عنه من أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ فسد جحرا بقدمه وعندما لُسع وانهمرت دموعه من الألم قال له رسول الله ﷺ: "يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا"، فأنزل الله سكينته وطمأنينته على أبي بكر رضي الله عنه.[21]

ويروي أبو بكر رضي الله عنه بنفسه قائلا: "لما أدركَنا سُراقة، قلت: يا رسول الله هذا الطلبُ قد لحقنا وما أخشى على نفسي ولكني أخشى عليك فقال: " لا تحزن إن الله معنا"؛ فساخت يدا فرس سراقة في الأرض ثم بدأ يطلب الأمان.[22] عندها، مظهرا روعة ثقته بالله تعالى، تنبأ النبي ﷺ بنبوءة عظيمة بحق سراقة فقال: "كيف بك يا سراقة إذا تسوّرتَ بسواريّ كسرى؟".

وكذلك تجلى توكله الكامل على الله تعالى عندما دخل المدينة. كان كل محب ومخلص من الأنصار يتمنى استضافة رسول الله ﷺ الذي قال بأن يتركوا ناقته وأنها مأمورة وسوف ينزل حيث تبرك. عندها بركت الناقة في مكان وقبل أن ينزل رسول الله ﷺ عنها قامت مجددا وسارت مسافة وأرسل النبي ﷺ لجامها دون توجيهها فعادت وأناخت في المكان نفسه فنزل رسول الله ﷺ عنها ودخل بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.[23]

غزوة بدر

وحتى بغياب كافة الأسباب الظاهرة لتحقيق الهدف، كان رسول الله ﷺ دائم التوكل على الله.

لقد كانت معركة بدر زمن الضعف الشديد، إذ واجه فيها ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا غير مسلحين جيشا مدججا من أبطال الحرب، فحتى في ذلك الظرف شديد الخطورة ما بدا على رسول الله ﷺ أي نوع من القنوط. وعندها جاء النبي ﷺ رجل معروف بشجاعته وقوته من المشركين وعرض أن يقاتل في صف المسلمين على أن يصيب من غنائم الحرب، فسأله رسول الله ﷺ إن كان يؤمن بالله ورسوله فقال لا، فرفض رسول الله ﷺ طلبه، فأعاد طلبه بعد ذلك ولكن رسول الله ﷺ ما أحب الاستعانة بمشرك لأن توكله كان على الله وحده. وعندما رجع هذا الرجل للمرة الثالثة معلنا إسلامه وطالبا الإذن بالالتحاق بالمعركة وافق النبي ﷺ على ذلك.[24]

وقد خرج الصحابيان حذيفةُ وأبوه "حُسَيْلٌ" رضي الله عنهما إلى بدر للقتال مع النبي ﷺ، ولكن في طريقهما أخذهما كفار قريش، وأخذوا منهما عهدًا بألا يقاتلا مع رسول الله ﷺ، فأتيا النبي ﷺ وأخبراه الخبر، فقال: "انصرِفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم."[25]

قام رسول الله ﷺ في معركة بدر بتنظيم صفوف ثلاثمئة وثلاثة عشر صحابي غير مسلح تسليحا مناسبا ثم شغل نفسه بالدعاء وكان ذلك مظهرا تاما لتوكله على الله.

التوكل في الغزوات

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن ذكر توكل رسول الله ﷺ على الله موجود في الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 174) وتشير هذه الآية إلى معركة حمراء الأُسد فعندما انصرف أبو سفيان سيد قريش يوم أُحد أراد الرجوع إلى المدينة ليستأصل بقية مسلمي المدينة، وعندما بلغ الخبر رسول الله ﷺ وصحبه ما جزع رسول الله ﷺ قط بل قرر مطاردة أبي سفيان وجيشه، فقدم الصحابة أنفسهم وقالوا بصوت واحد: حسبنا الله ونعم الوكيل.[26]

فعندما قرر أبو سفيان الرجوع لمهاجمة المدينة أرسل رسالة مع ركبٍ من عبد القيس للنبي ﷺ بأنهم أجمعوا السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلوا بقيتهم فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فأجاب وهو في حالة ضعف وصحبه جرحى جوابا عظيما فقال ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل. وكان أحد سادة بني خزاعة من المشركين قد رأى

الرسول ﷺ في حمراء الأسد وأخبر أبو سفيان بأن المسلمين مستعدون للموت ثأرا على ما أصابهم من هزيمة في أُحد، كما نصح سيد آخر من قريش وهو صفوان بن أمية، أبا سفيان بأن يرجع، فعاد إلى مكة.[27]

وباختصار فقد تجلّت هذه الصفة الرائعة من التوكل على الله تعالى في كافة مراحل حياة النبي ﷺ. ذات مرة كان رسول الله ﷺ يستريح تحت شجرة في عودته من إحدى الغزوات وكان أحد الأعداء يتربص به فاستل سيفه وقال: من يمنعك مني؟ ومع غياب وسائل الدفاع أجاب رسول الله ﷺ بكل ثقة بالله: "الله"، فسقط السيف من العدو المرعوب.[28]

دعوة قيصر وكسرى

وإن تبليغ رسول الله ﷺ الرسالة للقوتين العُظميين في زمنه لهو دليل على توكله على الله. فقد كانت أرض العرب تابعة وتدفع الضرائب لمملكتي فارس والروم، وكانت دعوتهما للإسلام بمثابة إعلان الحرب عليهما، وقد دعاهما رسول الله ﷺ بناء على أمر الله تعالى، وقد كانت ردة فعل كسرى فارس عنيفة على الرسالة فمزقها وأمر بجلب رسول الله ﷺ إليه. وقد صدق الحكماء الذين قالوا: "لا تخشيَنَّ مصيبة تأتي بعد ليل." لقد تضرع رسول الله ﷺ بحرارة إلى الله تعالى ووضع فيه كل ثقته، فقبلت تلك الدعوات بحيث بشر الله بنفسه باستجابتها؛ فقال رسول الله ﷺ لرسولَي كسرى اللذين جاءا لتوقيفه: اذهبا، فإن ربي قتل ربكما في هذه الليلة.[29] وكان ذلك ما حصل بالفعل.

وفي معركة حنين عندما فرّ أصحاب النبي ﷺ تقدّم وحده وانتصر. إن حياته ﷺ كلها تمثل صورة رائعة من التوكل على الله، وكان دائما ما يدعو: "اللهم توكلت عليك في أمري كله"[30]، ليكون الله تعالى على الدوام أول معين وآخر معين له.

يا سيد المتوكلين على الله، عليك السلام!

وحتى في أيامنا هذه فإن الأناس الربانيين يشهدون آيات عون الله تبارك وتعالى.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

1 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 24، طبعة القاهرة.

2 صحيح البخاري؛ كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

3 سنن الترمذي؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب 60.

4 صحيح البخاري؛ كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق.

5 صحيح البخاري؛ كتاب التهجد، باب التهجد بالليل. سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته.

6 صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى.

7 سنن أبي داؤد؛ كتاب الجهاد، باب مَا يُدْعَى عِنْدَ اللِّقَاءِ.

8 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 20، طبعة القاهرة.

9 سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 30 منه، الحديث رقم 3479.

10 سنن أبي داؤد؛ كتاب الطب، باب في الطِّيَرَة.

11 صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب الدَّلِيلِ عَلَى دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ

12 مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 30، طبعة القاهرة.

13 صحيح مسلم؛ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ.

14 سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله.

15 المعجم الكبير؛ الجزء 24، ص 303، طبعة بيروت.

16 المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 432، طبعة بيروت. صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

17 الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 212، طبعة بيروت.

18 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 482، طبعة بيروت.

19 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

20 صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

21 دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 339، طبعة بيروت.

22 السيرة الحلبية؛ الجزء 2، ص 227، طبعة بيروت.

23 سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 498، طبعة بيروت. دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 2، ص 358، طبعة بيروت.

24 صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب كَرَاهَةِ الِاسْتِعَانَةِ فِي الْغَزْوِ بِكَافِرٍ.

25 صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

26 صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

27 سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 103، طبعة بيروت.

28 صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

29 تاريخ الطبري؛ الجزء 2، ص 133، طبعة بيروت.

[30] فتح الباري لابن حجر؛ الجزء 11، ص 110، طبعة بيروت.

شجاعة رسول الله ﷺ الفريدة

إن أساس الشجاعة هو الإيمان المطلق بوحدانية الله تعالى والثقة المطلقة به والاعتماد الكلي عليه. وأنبياء الله الذين كلفوا بتبليغ رسالة الإيمان إلى العالم أجمع والتغلب على صعوبات العصر وإحداث الانقلاب في العالم؛ يهبهم الله بنفسه الشجاعة والبسالة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحزاب: 40)

أشجع الناس

كان رسول الله ﷺ مؤمنا خالصا بوحدانية الله تعالى وكان أشجع الناس، وقد قال مشيرا إلى ما وهبه الله من شجاعة: فُضلت على الناس بالسخاء والشجاعة. وروى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان الأشجع والأكثر بسالة بين الناس.[1]

وكان البراء يقسم بأنه إذا اشتدت المعركة كانوا يتقون برسول الله ﷺ وأن الشجاع منهم لَلذي يحاذي برسول الله ﷺ.[2]

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه.[3] كما ذكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان أشجع الناس قلبا وأبسلهم.[4]

وقال عمران بن حصين رضي الله عنه: ما لقى النبي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب.[5]

إن ما تمتع به من شجاعة وثبات في مواجهة الاضطهاد الشديد مدة ثلاثة عشر عاما في مكة، كان فريدا من نوعه. ومع أن حياته كانت بخطر دائم إلا أنه كان يخط طريقه بين أعدائه وصولا إلى الكعبة متعبدا جهارا وقارئا القرآن الكريم. لقد مكر أعداؤه لقتله ولكنهم خابوا في كل مناسبة. في يوم من الأيام، قال أبو جهل بأنه لو رأى محمدا يصلي عند الكعبة سيطأ على عنقه، فبلغ قوله النبي ﷺ فقال: "لو فعله لأخذته الملائكة".[6]

مصارعة بطل من قريش

كَانَ رُكَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدَ أَشَدّ قُرَيْشٍ، وكان من معارضي رسول الله ﷺ، فَخَلَا يَوْمًا بِرَسُولِ اللّهِ

ﷺ فِي بَعْضِ شِعَابِ مَكّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يا رُكَانَةُ أَلَا تَتّقِي اللّهَ وَتَقْبَلُ مَا أَدْعُوك إلَيْهِ؟ قَالَ إنّي لَوْ أَعْلَمُ أَنّ الّذِي تَقُولُ حَقّ لَاتّبَعْتُك، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَفَرَأَيْت إنْ صَرَعْتُك، أَتَعْلَمُ أَنّ مَا أَقُولُ حَقّ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَقُمْ حَتى أُصَارِعَك. فَقَامَ إلَيْهِ رُكَانَةُ يُصَارِعُهُ فَلَمّا بَطَشَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَضْجَعَهُ وَهُوَ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمّ قَالَ عُدْ يَا مُحَمّدُ فَعَادَ فَصَرَعَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ، وَاللّهِ إنّ هَذَا لَلْعَجَبُ أَتَصْرَعُنِي! كان ركانة متكبرا ومغرورا بقوته وتعجب من خسارته، فَقَالَ له رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ إنْ شِئْت أَنْ أُرِيَكَهُ إنْ اتّقَيْتَ اللّهَ وَاتّبَعْت أَمْرِي...وذهب رُكَانَةُ إلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ سَاحِرُوا بِصَاحِبِكُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ فَوَاللّهِ مَا رَأَيْت أَسْحَرَ مِنْهُ قَطّ. ثم أخبرهم بما حدث له ونتج عن ذلك إسلامه.[7]

نموذج شجاعته ﷺ في مكة والطائف

لقد عانى رسول الله ﷺ من الحصار في شعب أبي طالب وثبت، وكانت حياته حينها في خطر وكان أبو طالب يغير مكان نومه كل ليلة ليحفظه من أي هجوم.[8]

وفي سفره إلى الطائف كان لوحده إلا أنه بلّغ بكل شجاعة رسالة الإسلام إلى رؤسائها المتكبرين قساة القلوب. لقد رموه بالحجارة حتى تضرج بالدماء من رأسه إلى قدميه، وقد اضطر المستشرق المسيحي المعروف ويليام موير للاعتراف بالشجاعة التي أظهرها رسول الله ﷺ في ذلك الموقف العصيب فكتب قائلا: "رحلة محمد إلى الطائف تنم عن شجاعة فريدة."[9]

وكذلك كانت شجاعة رسول الله ﷺ فائقة أثناء هجرته؛ فعندما لجأ إلى غار ثور كان العدو يقف على مقربة منه إلا أن رسول الله ﷺ وبكل إيمان وثقة بالله قد طمأن صاحبه قائلا: لا تحزن، إن الله معنا. وأثناء ذلك السفر كان سراقة على أثرهما ووصل إليهما ومع ذلك ما بدا على رسول الله ﷺ أي قلق. سراقة هذا هو ذاته الذي بعد أن عثرت فرسه وساخت يداها في الرمال نادى بالأمان ورجع بعهد مكتوب بالأمن.

نموذج شجاعته ﷺ في المدينة

وما كان العدو ليدع رسول الله ﷺ يعيش بسلام حتى في المدينة فاستلّ المسلمون سيوفهم للدفاع. كان رسول الله ﷺ في تلك المعارك دائم الاستعداد للدفاع عن الإسلام وما أصابه

خوف قط على حياته شخصيا. كان ﷺ يقول: "لولا أن أشقَ على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل."[10]

في إحدى الليالي فزع أهل المدينة، وكانت الهجمات عليها تأتي من الغرب ومن الشمال، فخرجوا نحو الصوت يستقصون وإذا بهم يرون شخصا راكبا على فرس عُري وفي عنقه سيف. وقد فوجئ الناس برؤية هذا الشخص الشجاع الذي استبرأ الخبر لهم في جنح ظلام الليل. وعندما اقترب تبين أنه رسول الله ﷺ الذي فور سماعه الصوت ركب فرسا لأبي طلحة وانطلق ليعرف مصدره، حتى إنه ما أضاع دقيقة ليسرجه. وبعودته أخبر الناس أن لا خطر عليهم. ربما كان مصدر الصوت من قافلة عابرة. كان يطمْئن الناس ويقول: "لم تراعوا، لم تراعوا". ثم قال إنه قد وجد فرس أبي طلحة سريعة جدا.[11] وهذا الحدث يظهر شجاعة رسول الله ﷺ.

كان أبو سفيان عائدا إلى مكة بعد معركة أحد فلقيه المكيّون بالطريق وسألوه كم من المسلمين أسرتَ في الحرب وكم من الغنائم جلبت؟! فأراد أبو سفيان العودة ومهاجمة المدينة مرة أخرى، فعلم بذلك رسول الله ﷺ وقرر ملاحقة أبي سفيان.[12]

بينما كان المسلمون الجرحى يذكرون لرسول الله ﷺ ما لاقوه في المعركة من شدة ومصيبة، قرر ﷺ مهاجمة جيش العدو في هذا الموقف الحرج أيضا بعد أن سمع أن أبا سفيان يريد شن الغارة على المدينة ثانية. وكان قرارا صعبا واختبارا شديدا للصحابة الذين كانوا كلهم جرحى، وكانوا بحاجة إلى إلهاب مشاعرهم بشدة لمطاردة الكفار، فخاطبهم رسول الله ﷺ وقال: سوف يخرج معي لمطاردتهم كل أولئك الذين شهدوا القتال، وسوف نخرج بدون أي تأخير. ولتحميس مشاعر صحابته أكثرَ قال ﷺ: حتى وإن لم يخرج معي شخص واحد فسوف أخرج وحدي لمطاردتهم لا محالة.[13]

وبرؤية هذا الإصرار من النبي ﷺ تقدم الصحابة بكل حماس، وقد ضمت تلك المجموعة أبا بكر والزبير وعمر وعثمان وعليا وعمار بن ياسر وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وكانوا كلهم جرحى، ولكنهم استجابوا لرسولهم الحبيب ﷺ. وقد أثنى الله تعالى على هؤلاء المؤمنين الأتقياء الذين خشوا الله تعالى وقدموا أنفسهم من بعد ما أصابهم القرح مستجيبين لنداء الرسول ﷺ ووعدهم تبارك وتعالى بأجر عظيم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا

أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: 173).[14]

في غزوة ذات الرقاع، لحق برسول الله ﷺ أحد الأعداء ليقتله، وعندما نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة يستريح اخترط هذا العدو سيف رسول الله ﷺ وقال له: من يمنعك مني؟ فما أصاب رسول الله ﷺ أي خوف أو جزع وأجابه بكل ثقة وجلال: الله! فسقط السيف من يد العدو.[15]

ونرى تلك الشجاعة في الحديبية أيضا، ففي العام السادس للهجرة توجه رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة بسلام، وقد قام بتلك الرحلة بناء على رؤيا رآها، وقد أوقفهم أهل مكة في الحديبية حيث أُبرم اتفاق أن بإمكان المسلمين أداء العمرة في العام التالي. كانت تلك المرة الأولى التي يمنع منها أحد من الطواف بالكعبة وكان ذلك صدمة للمسلمين الذين تشوقوا لرؤيتها. ولو أرادوا لدخلوها عنوة، ولكن رسول الله ﷺ الذي كان تجسيدا للسلم، ما قبِل بذلك، بل التزم بشروط الصلح وأمر المسلمين أن ينحروا هديهم في الحديبية. كان صحابته المخلصين من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان ﭫ، بحالة صدمة وحزن وما قووا على تنفيذ أمره وذبح هديهم، فقد كانوا كالمصعوقين جامدين ولربما كان لديهم بعض الأمل بإلقاء ولو نظرة على الكعبة. ففي تلك الحالة من الصدمة قام ذلك الرجل الشجاع، رسول الله، الذي قاتل عن يمين وعن شمال صحبه وأمام صحبه وعن خلفهم، ونحر هديه بأمر من الله ثم تقدم صحبه وفعلوا مثله وبدأوا يحلقون رؤوسهم. إن هذا الموقف جعل من أرض الحديبية حرما. إن إظهار رسول الله ﷺ هذه العزيمة كان بمثابة العزاء لصحبه، وقد تجلت صفته العظيمة هذه في كل موقف حرج في حياته ولا شك أنه كان صفوة المؤمنين.[16]

أشجع الشجعان

وفي معركة حنين قام بنو هوازن بهجمة مرتدة أجبرت المسلمين على التقهقر، فما ثبت إلا بضعة رجال مع رسول الله ﷺ وقد بقي مع رسول الله ﷺ ابن عمه أبو سفيان بن الحارث ﭬ والعباس ﭬ الذي قال بأنه حينئذ كان يمسك بزمام بغلة رسول الله ﷺ الذي صار يَرْكُضها إلى جهة العدو وكان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث يمسك بركاب رسول الله ﷺ، وكانت السهام تمطر عليهم من كل جانب إلا أن رسول الله ﷺ كان يتقدم وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا

ابن عبد المطلب". وقال رسول الله ﷺ: يا عباس ناد أصحاب الشجرة (الذين عاهدوا على التضحية بأنفسهم في الحديبية) فأقبل المسلمون بكل شجاعة مع أن دوابهم كانت قد جفلت وما أطاعتهم فنزلوا عن ظهورها وهرعوا إلى ساحة القتال فقاتلوا بشدة وحينها قال رسول الله ﷺ حميَ الوطيس ثم أخذ حصيات فرمى بهن باتجاه العدو ثم قال: اِنْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَة. ولا شك أن العدو انهزم وقد شوهد رسول الله ﷺ يطاردهم على بغلته.[17]

لقد كان رسول الله ﷺ أشجع الشجعان وأبسل رسول، عبَدَ الله وحده وما خشي أحدا إلا إياه.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 482، طبعة بيروت.

[2] صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ.

[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 155، طبعة بيروت.

[4] كنز العمال؛ الجزء 7، ص 214، طبعة مصر.

[5] عيون الاثر؛ الجزء 2، ص 422، طبعة بيروت.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق.

[7] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 390، طبعة بيروت.

[8] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 2، ص 14، طبعة بيروت.

[9] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 222. New edition 1877, London.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق.

[12] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 11، ص 247، طبعة بيروت.

[13] عمدة القاري؛ الجزء 17، ص 162، طبعة بيروت.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب الذين استجابوا لله والرسول.

[15] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

[17] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ ص 324، طبعة بيروت. صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب قول الله تعالى ﴿يوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا..﴾.

تواضع رسول الله ﷺ المذهل

إن التواضع والانكسار ضد التكبر. عادة ما يقتضي التواضع والانكسار أن يحسب المرء المحترم نفسه أدنى من غيره، ولكن هذا المفهوم ضد الواقع ولا يمكن أن يُعد من الأخلاق العالية؛ إلا أن التواضع والانكسار من الصفات التي تدل على سمو الأخلاق.

والتواضع في الحقيقة نوع من التضحية. وهناك فارق بسيط بين التضحية والانكسار. فالشخص المتواضع ليس شخصا غير كفء ويعبر عن عدم ملاءمته، إنما المتواضع حقا هو الشخص الذي ينسى كفاءاته ويقدّر الصفات الجيدة في الآخرين. إن فائدة وجمال هذه الخصلة أنها تكون انعكاسا لطاعة الله الحقة، كما أنها تخلق سلاما وتجانسا بين البشر يبدد كل شِقاق. جلُّ النزاعات تنشأ من تشبث الأطراف بمواقفها، ولو تحلَّت الأطراف كلها بالمرونة في الخلافات لتبددت المشاكل، وفي هذا المجال فإن التواضع هو مفتاح السلام والانضباط في العالم، ولئن جُمعت إلى هذه الخصلة التضحيةُ لأزالت كل الخلافات في هذا العالم. إن الله لا يحب التكبُّر ويقول:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: 38)

وقال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كِبر".[1]

إذن فالطريق إلى السلام هو التواضع، والله يحب هذه الخصلة. إن المتواضع الأصيل هو الذي على امتلاكه القدرة على تحقيق هدف يكون مدركا لعظمة الله تعالى وواعيا لضعفه كشخص، ولكنه إن كُلف بمهمة فإنه يقوم بها على أكمل وجه. إن إمامنا ورسولنا ﷺ كان دائم الادراك لضعفه وعند تلقيه الوحي للمرة الأولى كان يكرر بأنه أمي ولكن عندما كُلف بالأمر أدّاه على أكمل وجه. قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ."[2]

وكذلك قال ﷺ: "من ترك اللباس وهو يقدر عليه تواضعا لله تبارك وتعالى دعاه الله تبارك وتعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيِّره في حلل الإيمان أيها شاء."[3]

لقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا رجلين أحدهما متكبر وعبدٌ لثروته وآخر متواضع وساعٍ حثيث في سبيل الله تعالى فقال: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ (مؤخرة الجيش) كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ."[4]

تواضع رسول الله ﷺ

وذكر عروة بن الزبير رضي الله عنه تواضع رسول الله ﷺ وأنه لما قدم المدينة مهاجرا ونزل قباء حيث تجمّع المسلمون ليرحبوا به قام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.[5]

أهل الدنيا ينسون ماضيهم عندما يحققون النجاح، أما رسول الله ﷺ فكان خلقه في هذا المجال عظيما فقد روي أنه قال ذات مرة: "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم". فقال أصحابه وأنت؟ فقال: "نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة."[6]

إن حادثة الوحي الأول تلقي الضوء على خُلق التواضع عند رسول الله ﷺ وتشير إلى امتلاء قلبه بهذه الخصلة؛ فعندما أُمِر بإصلاح البشرية قال له جبريل عليه السلام: "اقرأ"، عندها وأمام عظمة الله تعالى نسي رسول الله ﷺ قدراته وأجاب بكل تواضع: "ما أنا بقارئ". إن إقراره بضعفه قبل البعثة كان خصلته المميزة لتواضعه الذي كان مغروسا في طبيعته وطبعه. فبدل أن يتفاخر بمنصبه ومكانته أظهر التواضع وكان ذلك سبب ما أبداه الملَك الحامل للرسالة من حبٍ له فضم رسول الله ﷺ. لقد سأله الملك ثلاث مرات أن يقرأ وفي كل مرة تلقى الرد المتواضع ذاته فامتلأ قلب الملَك بالعطف وضم رسول الله ﷺ وبلّغ الرسالة التي كلفه الله تعالى بإيصالها إليه.

وقد أصيب رسول الله ﷺ باضطراب من هذا الحادث، فرجع قلقا إلى زوجه وأخبرها بأنه خشي على حياته. يا سيد الرسل، يا مجمع الكمالات البشرية، يا قائد وهادي بني نوع الانسان، فدى لك نفسي، إنك مع ذلك تتغافل عن كمالاتك وتظن بأنه أنى يكون لك أن تحمل هذه الأمانة من الإله الواحد الذي لا شريك له.

المثل الأعلى في تواضع النبي ﷺ

وفي الحقيقة فإن قوله بأنه كان خشي على حياته إنما يدل على أنه بلغ درجة عليا من الغَيرية. وقد خشي أن يكون ذلك الوحي اختبارا له فشارك خديجة رضي الله عنها هذا الخوف الذي اعتراه. وقد طمأنته به خديجة رضي الله عنها حيث كانت شاهدة على أخلاقه العليا ﷺ. وكان مفاد قولها أن الله لن يضيع رجلا بتلك الصفات فقالت: "إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتُكسب المعدوم وتُقري الضيف وتعين على نوائب الحق." وبذكر تلك الصفات أشارت خديجة رضي الله عنها أن هذا الوحي ليس اختبارا وإنما نعمة من الله تعالى.[7]

لقد ذكر العلامة القاضي عياض في كتابه الشهير كتاب الشفاء، صفات رسول الله ﷺ فقال: "كان أشد الناس تواضعا وأعدمهم كبرا". وقد اعترض بعض العلماء على هذه العبارة لأنه ما كان في طبع رسول الله ﷺ أي ذرة كبر. وهذا صحيح تماما ولكن عبارة القاضي عياض تُفهم أيضا بطريقة أخرى وهي أنه في كل مرة عبّر بها رسول الله ﷺ عن مقامه العالي فإنما كان ذلك بأمر الله تعالى، أما هو فما كان يحب أن يُعرب عن تقواه وكفاءاته، وكثيرا ما كان يستخدم ضمير الغائب بهدف حض الناس على فعل الخيرات. والحقيقة أن العظمة الحقيقية لله وحده. ومن يكونون محط هذه العظمة ظليا من الناس يؤمرون أحيانا من قبله تعالى أن يظهروا هذه المرتبة التي منحها الله لهم من باب الحجة على العالم. ولا يكون ذلك الفعل نقيض التواضع؛ فإظهار التواضع في الوقت المناسب يمثل القيمة الأخلاقية الأصيلة. ولذلك فإن سيدنا وهادينا وبأمر من الله تعالى قد أعلن عن مكانته العليا بين الأنبياء فقال: "أُعطيت خمسا لم يُعْطَهن أحد قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلتْ لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلّتْ لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة."[8]

وقال ﷺ أيضا: "وأنا خاتم النبيين."[9]

وما ظهر من النبي ﷺ أي نوع من الكبر أو الفخر عند تعبيره عن سمو مكانته وخاطب الإنسانية جمعاء مبينا أساس هذا الفخر المستحق فقال: " أنا سيد وُلد آدم يوم القيامة ولا فخر"[10] وأضاف أنه كان عليه أن يبين ذلك امتثالا لأمر الله تعالى. ذلك كان جوهر تواضعه

وانعدام ذاته.

جزاء التواضع هو زيادة القوة الروحانية

لقد كان قلب رسول الله ﷺ الطاهر نبع تعاليمه الكاملة، وبالعلم الرباني وتجربته الشخصية قد أعلن: ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.[11]

ويمكن الاطلاع إلى حد ما على مدى تواضع رسول الله ﷺ من خلال دعائه في حجة الوداع حيث تضرع قائلا: "اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجِل المشفق المقرُّ المعترف بذنبه، أسألك مسألةَ المسكين، وأبتهل إليك ابتهالَ المذنب الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير، مَن خضعت لك رقبتُه، وفاضت لك عبرتُه، وذلَّ لك جسمُه، ورَغِمَ لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا، وكن بي رؤوفا، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين."[12]

إن رفعة مكانة رسول الله ﷺ التي منحها الله إياه تعود إلى حد كبير إلى تواضعه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه والعباس رضي الله عنه أن إسرافيل (الملك الذي سينفخ بالصور يوم القيامة) خاطب رسول الله ﷺ وقال له: "إن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشّق الأرض عنه وأول شافع."[13]

ويعجز التفكير المنطقي عن فهم أن شخصا بهذا المقام يبلغ من التواضع درجة تجعله يخاطب أفراد أسرته قائلا: يا صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا.[14]

لقد نصح أصحابه بكل تواضع أن أعمالهم لن تدخلهم الجنة وعندما سأل أحدهم: ولا إياك يا رسول الله قال: ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة.[15]

عندما دُفن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت امرأة من الأنصار اسمها أم العلاء رضي الله عنها متأثرة: رحمك الله يا عثمان، أشهد أن الله قد أكرمك. فقال لها النبي ﷺ على الفور: "وما يدريك أن الله أكرمه؟". فقالت: يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي."[16]

نماذج من تواضع رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يقول إنه مثل أي رجل عادي يأكل ويشرب، وكانت حياته في المنزل شاهدة على هذه الحقيقة، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه ويحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويقم البيت ويعقل البعير ويعلف.[17]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان أحدٌ أحسنَ خلقا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: لبَّيك. فأَنزل الله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.[18]

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال بأن النبي ﷺ ما كان يأنف ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما.[19]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يردف خلفه ويضع طعامه على الأرض ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار.[20]

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاة ويأتي مراعاة الضيف.[21]

وعن حمزة بن عبد الله قال كانت في النبي ﷺ خصال ليست في الجبارين كان لا يدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه وكان يركب الحمار عِريا ليس عليه شيء. وقد أجاب دعوة يهودي دعاه إلى خبز شعير وبعض الدُهن الجامد.[22]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا نادى النبي ﷺ ثلاثا فكان يرد عليه في كل مرة: "لبيك لبيك".[23]

وعن عبد الله بن جبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمشي في أناس من أصحابه فأُظِل بثوب فلما رأى ظله رفع رأسه فإذا هو بملاءة قد سُتر بها، فأخذ الثوب فوضعه وقال: إنما أنا بشر مثلكم.[24]

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: خرجت مع النبي ﷺ إلى المسجد فانقطع شسعه فأخذت نعله لأصلحها فأخذها من يدي وقال: "إنها أثرة ولا أحب الأثرة".[25]

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه أنه في أحد الأيام ذهب إلى رسول الله ﷺ فوجده يسِم إبل الصدقة

بنفسه.[26]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ذهب ذات مرة مع رسول الله ﷺ إلى سوق الثياب فاشترى سراويل بأربعة دراهم ووفقا للعرف وقتها بدأ البائع يزن قطع الفضة فقال له رسول الله ﷺ أن يزن ويرجّح؛ أي عرض عليه أن يأخذ زيادة فعجب البائع من هذا القول غير المعتاد من مشتري ولما عرف أنه رسول الله ﷺ طرح الميزان ووثب على يد رسول الله ﷺ يقبلها فحذف رسول الله يده منه وقال: "إنما يفعل هذا الأعاجم بملوكهم ولست بملك إنما أنا رجل منكم." ثم أخذ رسول الله ﷺ السراويل، فذهب أبو هريرة رضي الله عنه ليحملها عنه فتلقى منه تعليما جميلا إذ قال ﷺ: "صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم."[27]

كان رسول الله ﷺ يحب أن يشارك في العمل الذي يقوم به أصحابه؛ فحمل بنفسه الحجارة عند بناء المسجد في المدينة، وفي معركة الخندق شارك في الحفر وحمل التراب.[28]

ذات مرة كان رسول الله ﷺ بسفر مع أصحابه فخيموا في مكان ونصح أن توزع المهام بين أصحابه، ووفقا لنصحه هذا وزعت مهام نصب الخيم والطهو وجلب الماء. سأل رسول الله ﷺ عن المهمة الموكلة إليه فأجابوه بأنهم يكفونه العمل وأنه بإمكانه أن يستريح فرفض ﷺ وقال: "قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه"، ثم قال: عليَّ جمع الحطب.[29]

البساطة في حياة رسول الله ﷺ

كان مأكل وملبس رسول الله ﷺ بسيطا وما كان في حياته أي أثر للبذخ، وما كان يتفاخر بركوبة كما يفعل القادة الدنيويون، وكانت ناقته المسماة بالعضباء سريعة لا تُسبَق وذات مرة سُبقت فاشتد ذلك على صحبه فطمأنهم رسول الله ﷺ بقوله: "إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه".[30]

كان رسول الله ﷺ حريصا بألا يكون ملبسه مصدر فخر، ونصحَ أصحابه بأن جرَّ الثوب اختيالا علامة كِبر وأن عليهم أن يجتنبوا ذلك.[31] وفي أيام الجمعة أو العيد أو عند استقباله الوفود كان يلبس ثيابا تناسب الحدث ومع ذلك ما اعترى ذلك أي نوع من التفاخر أو التعالي على الآخرين. وما كان ﷺ يشتري الثياب إلا عند حاجته إليها وبدلا عن ذلك كان يكسو

الفقراء وفي بعض الأحيان يعطي ثوبه الذي يلبسه إلى محروم.

ذات مرة رأى رسول الله ﷺ جارية في السوق تبكي قد أضاعت دراهم أعطاها إياها سيدها لتشتري بها دقيقا، فما اكتفى ﷺ بأن يعطيها ما فقدت من دراهم ولكنه مشى معها إلى بيت سيدها شفقة عليها، ومن سرور صاحب البيت بقدوم رسول الله ﷺ إليه حرر هذه الجارية.[32]

كان عدد المطايا في معركة بدر قليلا فتناوب عدد من الصحابة على رَكوبٍ واحد، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يمتطي ناقة بينما هم يمشون عنه فأبى ﷺ وقال: ما أنتم بأقوى على المشي مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكم.[33]

كان رسول الله ﷺ يعود المرضى من الناس وذهب يطمئن على صحة خادمه اليهودي، وما كان يتحرج من صحبة الفقراء والمعدومين من الناس. توفيت امرأة سوداء فقيرة كانت تكنس المسجد فصغّر الصحابة أمرها وما أخبروا رسول الله ﷺ عن وفاتها ودفنها وعندما سأل عنها أخبروه بموتها فقال بأنه كان عليهم أن يخبروه بذلك ثم ذهب إلى قبرها وصلى عليها.[34]

وكثيرا ما كان ﷺ يدعو: اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة.[35]

كان رسول الله ﷺ غير متكلف في مجلسه مع صحبه، ولغياب التفاخر والرسميات كان الغريب يعجز عن تمييزه في بعض الأحيان، ولذلك قام الصحابة ببناء منصة من طين وكان النبي ﷺ يجلس عليها أحيانا وأحيانا أخرى يجلس بجانبها بكل تواضع.

ذات مرة كان رسول الله ﷺ متكئا بين صحبه في المسجد، فجاء بدوي على جمل فأناخه ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ فأشاروا إليه، فخاطب رسول الله ﷺ باسم جده: يا ابن عبد المطلب! فقال ﷺ: "قد أجبتك". فتشجع الرجل من هذا الجواب وأضاف: إني سائلك فمشدّدٌ عليك في المسألة، فلا تغضب مني. تخيلوا التشديد الذي ظن السائل أنه قد يغيظ الآخرين إلا أن رسول الله ﷺ قال بكل هدوء ورزانة: "سلْ عما بدا لك". ثم ناشد البدوي بالله النبي ﷺ وسأله بعض الأسئلة، فأجابه ﷺ على كافة أسئلته بكل تواضع حتى اطمأن.[36]

كراهية الإطراء

كان رسول الله ﷺ يرفض أن يُطرى بسبب تواضعه الجم، وكان ينهى من يفرط في مدحه،

وعلّم ذلك أصحابه وأتباعه فقال: "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ".[37]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ. أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.[38]

وعن الحسين بن علي رضي الله عنه قال: أحِبّونا بحب الإسلام فإن رسول الله ﷺ قال: "لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني رسولا".[39]

وعن الربيع بنت معوذ قالت جاء النبي ﷺ في حفل زفافها، فأخذت بعض البنات الصغيرات يضربن بالدف ويندبن مَن قُتل من آبائهن يوم بدر، فقالت إحداهن: "وفينا نبيٌّ يعلَم ما في غدِ"، فقال: "دَعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين".[40]

لا شك أن الرسول ﷺ قد تنبأ بأنباء غيبية كثيرة عن الله تعالى، ولكنه ما أحبّ الإفراط والإطراء، ونهى البنت عن قول مثل هذا القول.

المقام البشري لرسول الله ﷺ

دائما ما كان رسول الله ﷺ يقدم نفسه على أنه بشر أكرمه الله بوحيه وجعله نبيا، وكان يبلغ ما يصله من علم من الله تعالى، وإن كان هناك أي ضعف فكان ينسبه إلى نفسه كونه بشرا كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الكهف: 111).

وعن رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ قَالَ قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ. قَالُوا كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا. فَتَرَكُوهُ فَنَقَصَتْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ".[41]

في بعض الأحيان كان رسول الله ﷺ ينسى عدد الركعات التي صلاها فصلى مرة اثنتين بدل أربع، وقال حينها: إنما أنا بشر أنسى كما تنسون.[42]

وكان النبي ﷺ يدعو بكل تواضع بهذا الدعاء: اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكاة وطهورا.[43] وقال: اللهم إني بشر فلا تعاقبني، أيما رجل من المؤمنين آذيته وشتمته فلا تعاقبني فيه.[44]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الباهلي ﷺ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا.[45]

وبالواقع فإن رسول الله ﷺ ما أحب الاحترام الذي يفرضه الطغاة من الحكام على أتباعهم ويعاقبون من لا يفعلون مثلهم. فقد أعطى الخيار لأصاحبه في ذلك الموضوع. وقد كان هو بنفسه يقوم لابنته فاطمة رضي الله عنها تعبيرا عن حبه لها.[46] عندما عُيّن سعد ﷺ حَكَمًا في غزوة بني قريظة أتى على حمار، فأمر رسول الله ﷺ من المسلمين بإظهار احترامهم لسيدهم. إذن ليس ممنوعًا الاحترام، ولكنه ﷺ مع كونه حاكما إلا أنه بدافع التواضع قد كره أن يعامَل بمراسم ملَكية.

عن أبي مسعود ﷺ قال أتى النبيَّ ﷺ رجل فكلّمه، فجعلت ترتعد فرائصه، فقال له: "هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِكٍ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد."[47]

والحقيقة أن النبي ﷺ ما كان بطبعه جبارا، وإنما كان متواضعا، قد جُعلت رحمةُ الله تعالى في قلبه اللين.

وعن مِسوَر بن مخرمة أن أباه (وكان أعمى) قال له: يا بُنيّ إنه بلغني أن النبي ﷺ قدِمت عليه أقبيةٌ فهو يقسمها، فاذهبْ بنا إليه. فذهبنا فوجدنا النبي ﷺ في منزله، فقال لي يا بُنيّ ادعُ لي النبيَّ ﷺ، فأعظمتُ ذلك فقلت: أدعو لك رسول الله ﷺ؟ فقال يا بني إنه ليس بجبّار. فدعوته، فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب، فقال: "يا مخرمة هذا خبأناه لك"، فأعطاه إياه.[48]

كان رسول الله ﷺ يتواضع للمعدوم والعاجز، ويعاملهم بالحب والوُدّ، وكانت الأمة من إماء أهل المدينة تلقى منه ﷺ العناية واللطف كأي شخص آخر، وكانت تأخذ بيده الكريمة إلى جانب لتتحدث إليه بأمور، وكان رسول الله ﷺ يطاوعها.[49]

وكان النبي ﷺ يستمع لحاجات الفقراء ويدعو لهم. مرةً جاءته امرأة سوداء تُصرع وطلبت منه الدعاء، فما صغّرها رسول الله ﷺ ودعا لها.[50]

وذات مرة أُتي النبي ﷺ برجل ضرير، فقال ادع الله أن يعافيني. فقال له رسول الله ﷺ: "إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرتَ فهو خير لك". وعندما فضّل الرجل الدعاء علّمه الرسول ﷺ

دعاء لذلك.[51]

وكان قلبه ﷺ يفيض شفقة عند رؤية شخص مُعدَم.

ذات مرة كان النبي ﷺ ذاهبا إلى الصلاة، فرأى في طريقه غلاما غير خبير يسلخ شاة، فعلّمه طريقة السلخ، ثم مضى للصلاة.[52]

وذات مرة رأى رسول الله ﷺ أن ابن خادمه يسيل أنفه، فانحنى ونظف له أنفه.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: كُلْ بسم الله ثقةً بالله وتوكُّلاً عليه.[53]

وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لِي وَقَالَ:"لا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ"، فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا.[54]

كانت تلك تعاليم التواضع العملية التي علمها رسول الله ﷺ أصحابه، وقد أثنى القرآن الكريم على أصحاب رسول الله ﷺ المخلصين بأن تواضعهم يتجلى عندما يخرون للأذقان على أعتاب الله تعالى راجين رضاه. فعندما يقتضي رضاه تعالى أن يكونوا أشداء يظهرون القوة والشدة وعندما يكون المطلوب اللين يظهر منهم الانكسار، فيكون تواضعهم في محله تماما.

تلك هي القيم التي علّمها رسول الله ﷺ صحبه؛ فبعد عام من صلح الحديبية عندما ذهب للعمرة كان مشركو مكة ينظرون إلى المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة، وكان هناك شائعة في مكة أن حمّى يثرب قد أوهنت المسلمين وأحنت ظهورهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يركضوا أثناء الطواف حيث يراهم المشركون وأن يمشوا حيث لا يروهم.[55]

إن علو المكانة في العالم يظهر من خلال القوة والقانون والثروة والمعرفة والمكانة الاجتماعية. لقد تمتع الرسول ﷺ بهذه البركات كلها إلا أنه ما بدا منه الكبر مطلقا، وكان دائما يعد الصلاح وخشية الله المعيار الحقيقي لعلو المرتبة. كلما أصبحت الثروة بين يديه أنفقها دون مقابل في سبيل الله وما اكتنزها وما شيد قصرا وما زين مجلسا لنفسه. وكان شعاره عند إنفاق ثروته: "الله المعطي وأنا القاسم".[56]

إن الله علام الغيوب قد أعطاه علما غزيرا فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: 114)

التواضع العلمي في حياة رسول الله ﷺ

مع كل هذا العلم والحكمة ما تكبّر رسول الله ﷺ، وكلما زاد علمه زاد تواضعه. وإن يهود المدينة الذين كانوا يعادونه في مجال المعرفة والذين كانوا محط التحدي ليلا ونهارا ليأتوا بآية مثل آيات القرآن؛ طرحوا عليه أصعب الأسئلة، ولكن رسول الله ﷺ عمل بتعليم القرآن القائل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: 37) ،وكان يقول: "فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم".[57]

ذات مرة كان النبي ﷺ يمشي في خِرب المدينة فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح. وقال بعضهم لا تسألوه كي لا يجيبنا بجواب نكرهه. وبالنهاية سأله أحدهم، فبقي ﷺ ساكتا، وقال عبد الله بن مسعود وكان حينها مع النبي ﷺ: فقلت إنه يوحى إليه. فلما انجلى عنه الوحي تلا عليهم النبي ﷺ الآية: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 86) ردًّا على سؤالهم.[58]

ويظهر أن النبي ﷺ ما كان متحرجا من البقاء صامتا حتى يزوده الله تعالى بالجواب.

تواضع رسول الله ﷺ عند الفتح العظيم

إن المُلك يجلب شعورا عظيما بالاعتزاز، ولكن خُلُق سيدنا محمد ﷺ كان عجيبا؛ فقد أظهر عظيم التواضع عندما حقق أعظم نصر في حياته وصار غالبا على أعتى أعدائه المكيين. كانت مكة موطنه العزيز الذي أُخرج منه عنوة وظلما، ولكن بعد ثمان سنوات دخلها بفضل الله فاتحا برفقة عشرة آلاف من صحابته. لو أراد لدخلها بكل أبهة ومجد محطما قلوب أعدائه، ولكن التواضع الجمّ الذي بدا من ذلك الإنسان الواثق بالله ثقة مطلقة عندما دخل مكة فريد من نوعه. لقد خرج أهل مكة لرؤية ذلك القائد المنتصر، ولكن ما شهدوه كان عجيبا؛ فما كان رسول الله ﷺ يمتطي حصانا أصيلا، بل كان على جمل بدون أي مظهر من مظاهر الأبهة والكبر أو التفاخر، لَمّا انْتَهَى إِلَى ذِي طُوًى وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِرًا بِشُقَّةِ بُرْدٍ حِبَرَةٍ حَمْرَاءَ، وَإِنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ لِيَضَعَ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا لِلّهِ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللّهُ بِهِ مِن الْفَتْحِ حَتّى إنّ عُثْنُونَهُ لَيَكَادُ يَمَسّ وَاسِطَةَ الرّحْلِ.[59] كان ﷺ يخفض رأسه تواضعا لله تعالى، وكان لسانه رطبًا بحمد

الله وتعظيمه. الواقع أن كل ذرة من كيانه كانت تسجد حمدًا لله تعالى. كان ذلك أعظم منتصر وأعظم حاكم وبالوقت نفسه الإنسان الأكثر تواضعا.

وكان ذلك في لحظة انتصاره، أما في الأيام العادية فكان من عادته ﷺ الشريفة أن يكبّر على كل شَرَفٍ من الأرض، والرسالة من ذلك أن العظمة الحقيقية لله تعالى، وأنه هو الأكبر.[60]

أمثلة متفرقة عن تواضع رسول ﷺ

كانت تلك أسوته في التواضع في عصر تكبُّر العرب وتباهيهم وخُيلائهم. في ذلك العصر من الجاهلية كان إظهار المكانة بين العرب يرتكز على التفاخر والكِبر، وكانوا يشنون الحروب لنيل الشهرة والمجد، ويتظاهرون بالكرم زهوا وتباهيا، ويتصدقون رياء، ولا يترددون في التضحية بحياتهم من أجل مكانتهم الزائفة. وكانت عزة النفس وشرف القبيلة أساس حروب دامت سنوات. ذلك هو العصر الذي قدَّم فيه رسول الله ﷺ أسوته في التواضع أمام المجتمع.

كان ﷺ سيد الأنبياء، ولكنه كثيرا ما كان يثني على الأنبياء الآخرين فقال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"؛[61] أي أن آية إحياء الموتى التي سألها إبراهيم ربه إن كان تطرق إليه الشك فيها فسيكون قد تطرق إليّ أيضا، ولكننا معشر الأنبياء لا نشك في ذلك البتة.

وذات مرة قال رجل للنبي ﷺ "يا خير البرية"، فقال: "ذاك إبراهيم عليه السلام."[62] وما كان ذلك إلا من تواضعه ﷺ إذ كان هو خاتم الأنبياء وخير الرسل.

وذات مرة ذكر النبي ﷺ لوطا عليه السلام فقال: "يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد".[63] وقد ذُكر ذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: 81)، وذلك لصبره على المصائب.

وذكر ﷺ يوسف عليه السلام فقال: "لو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي".[64] أي لخرجت من السجن برفقة مبعوث الملِك شكرًا لله تعالى بدل انتظار تبرئة ساحتي من التهمة، لكي أبلّغ الناس رسالة ربّي.

في زمن رسول الله ﷺ كان هناك بعض الأتباع للنبي يونس عليه السلام في مدينة نينوى، وأثناء رحلته إلى الطائف التقى النبي ﷺ بشخص من نينوى، فتأثر الرجل جدا بسماع ذكر نبيه يونس عليه السلام على لسان الرسول ﷺ.

وقد ورد في القرآن الكريم عن يونس عليه السلام: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (القلم: 50)، ولإزالة أي سوء فهم من هذه الآية فلم يكتف النبي ﷺ بالثناء على يونس وتبيان مكانته والدفاع عنه بل قال أيضا بما يدل على عظيم تواضعه ﷺ: "لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى."[65]

وقد أعطى النبي ﷺ تعليما مماثلا عندما حصل شجار بين مسلم ويهودي، وكان اليهودي هو المعتدي وقال اليهودي مقسما "والذي اصطفى موسى على العالمين"، فقال المسلم: "وعلى النبي محمد ﷺ أيضا؟" ثم لطم اليهوديَّ، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ الذي بدد هذا الموقف الخطير وحفظ السلم وأمر بكل تواضع: "لا تفضّلوني على موسى".[66]

وباختصار فإن سيدنا وحبيبنا محمدا ﷺ كان نبي السلام الذي ما تردد في التضحية بنفسه لإحلال السلام. لقد محى نفسه تواضعا حتى رفعه الله بذلك فوق السماء السابعة إلى سدرة المنتهى.

لا شك أن سر إحلال السلام في عالمنا المادي هذا يكمن في التواضع والسلامة من براثن التفاخر والتكبر، ويمكن تحقيق ذلك من خلال هذا الخُلق الرفيع. ويمكن للمرء التقدم روحانيا وماديا بالتأسي بأسوة الرسول الكريم ﷺ.

من أصبح ترابا حظي بوصال ذلك الحبيب

فيا أيها المجرِّب جرِّب هذه الوصفة أيضا•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• ترجمة بيت من الأوردية (الخزائن الروحانية؛ المجلد 21، البراهين الأحمدية، الجزء الخامس، ص 17).

المراجع والمصادر

[1] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 399، طبعة القاهرة.

[2] صحيح مسلم؛ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصِّفَاتِ التي يُعْرَفُ بِهَا في الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ.

[3] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 439، طبعة القاهرة.

[4] صحيح البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

[7] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب التيمم، باب: قوله: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا﴾، وكتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا.

[9] صحيح مسلم؛ كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ ذِكْرِ كَوْنِهِ ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ.

[10] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة بني إسرائيل.

[11] صحيح مسلم؛ البر والصلة والآداب، باب اسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ وَالتَّوَاضُعِ.

[12] كنز العمال؛ الجزء 2، ص 175، طبعة مصر.

[13] الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ الجزء 1، ص 130، طبعة بيروت.

[14] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء.

[15] صحيح مسلم؛ صفة القيامة والجنة والنار، باب لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه.

[17] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 256، طبعة القاهرة. الشفا لقاضي عياض؛ الجزء 1، ص 132، طبعة بيروت.

[18] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 304، طبعة بيروت.

[19] سنن الدارمي؛ الجزء 1، ص 48، طبعة بيروت.

[20] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 132، طبعة بيروت.

[21] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 129، طبعة بيروت.

[22] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 370، طبعة بيروت.

[23] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 586، طبعة بيروت.

[24] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 586، طبعة بيروت.

[25] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 588، طبعة بيروت.

[26] صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب جواز وسم الحيوان.

[27] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 5، ص 212، طبعة بيروت.

[28] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

[29] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 4، ص 265، طبعة بيروت.

[30] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب التواضع.

[31] صحيح مسلم؛ كتاب اللباس، باب تَحْرِيمِ جَرِّ الثَّوْبِ خُيَلاَءَ وَبَيَانِ حَدِّ مَا يَجُوزُ إِرْخَاؤُهُ إِلَيْه.

[32] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 572، طبعة بيروت.

[33] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 422، طبعة القاهرة.

[34] صحيح مسلم؛ كتاب الجنائز، باب الصَّلاَةِ عَلَى الْقَبْرِ.

[35] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم.

[36] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب ما جاء في العلم . وقوله تعالى ﴿وقل رب زدني علما﴾.

[37] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب قوله ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...﴾.

[38] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 153، طبعة القاهرة.

[39] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 587، طبعة بيروت.

[40] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة.

[41] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا دُونَ مَا ذَكَرَهُ ﷺ.

[42] سنن أبي داؤد؛ كتاب الصلاة، باب إِذَا صَلَّى خَمْسًا.

[43] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 52، طبعة القاهرة.

[44] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 258، طبعة القاهرة.

[45] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب فِي قِيَامِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ.

[46] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب مَا جَاءَ فِي الْقِيَامِ.

[47] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب القديد.

[48] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب المزرر بالذهب.

[49] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الكبر.

[50] الخصائص الكبرى؛ الجزء 2، ص 256، طبعة بيروت.

[51] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، الحديث رقم 3649.

[52] سنن ابن ماجة؛ كتاب الذبائح، باب السلخ.

[53] سنن الترمذي؛ كتاب الأطعمة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأكل مع المجذوم.

[54] سنن أبي داؤد؛ كتاب الوتر، باب الدُّعَاءِ.

[55] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب عمرة القضاء.

[56] صحيح البخاري؛ كتاب الخمس، باب قول الله تعالى ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾ (الأنفال: 41).

[57] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب قول الله تعالى ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

[58] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل (الإسراء)، ﴿ويسألونك عن الروح﴾.

[59] سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 405، طبعة بيروت.

[60] صحيح البخاري؛ كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع.

[61] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب قول الله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾، وباب ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾.

[62] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 178، طبعة القاهرة.

[63] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة يوسف.

[64] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب تفسير سورة يوسف.

[65] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

[66] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعدُ.

قناعة وبساطة رسول الله ﷺ

كان سلوك رسول الله ﷺ انعكاسا تاما لتعاليم القرآن الكريم، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: 87). وهذه شهادة الله العليم بحق رسول الله محمد ﷺ في نقاء وصدق مسلكه الأخلاقي الذي كان مبرأ من التصنع والتكلف. أما رسول الله ﷺ فقد قال عن نفسه بأنه رجل بسيط يأكل ويشرب ويتصرف كشخص عادي. وقد شهدت على ذلك زوجه عائشة رضي الله عنها وقالت إن النبي ﷺ كان يعيش كأي شخص عادي، فيقوم على خدمة أهله في البيت ويخدم نفسه.[1] وكان يسِم إبل الصدقة بنفسه.[2]

حب الرسول ﷺ للقناعة

إن سر بساطة حياته هو القناعة التي علّمها القرآن الكريم:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: 132)، وكانت فلسفته ﷺ: القناعة كنز لا يفنى.[3]

وكان رسول الله ﷺ يُعلِّم أتباعه المبدأ نفسه ويقول: انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله.[4]

وكان يقول: مَن أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوتُ يومه، فكأنما حيزتْ له الدنيا.[5]

كانت حياته ومأكله ومشربه وملبسه ومفرشه وغيرها بسيطة جدا. فكان يمد على الأرض فراشه الذي حشوه من ليف وينام.[6]

ذات مرة ثَنَتْ عائشة رضي الله عنها فراشه أربع ثنيات بدل الثنيتين الاعتياديتين فلما أصبح سأل عن فرشه فأخبر عن الثنيات الأربعة ليكون أكثر راحة له فقال ﷺ: رُدُّوهُ لِحَالَتِهِ الْأُولَى، فَإِنَّهُ مَنَعَتْنِي وَطَاءَتُهُ صَلاتِيَ اللَّيْلَةَ.[7]

الاعتدال

كان لباس رسول الله ﷺ بسيطا وإن تطلب الأمر فما كان يتحرج من ترقيعه. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ صلى بقميص جديد مزركش فألهته الزركشات فلما انصرف قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم (التاجر) وأتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي.[8]

لقد أوتي رسول الله ﷺ المُلك والنفوذ ولكن بساطة حياته ما تغيرت البتة، فما كان له بلاط ولا ملابس ملكية ولقي وجه ربه على تلك الحالة من البساطة. وقد أخرجت عائشة كساء وإزارا غليظين وأرتهما أبا بردة رضي الله عنه وقالت: قُبِض روح النبي ﷺ في هذين.[9]

وعن عمر رضي الله عنه أنه عندما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرا في الجزء العلوي من بيته ذهبتُ لرؤيته، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وأثر الحصير في جنبه، وهو متكئ على وسادة من أدَم حشوها ليف؛ فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئا يردّ البصر إلا أَهَبَةً (أي جلودا) ثلاثةً، فقلت ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالسا ثم قال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.[10]

وفي رواية أخرى دخل أبو بكر وعمر عليه فإذا النبي ﷺ نائم عليه، فلما رآهما استوى جالسا فنظر، فإذا أثر السرير في جنب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما يا رسول الله ما يؤذيك خشونة ما نرى من فراشك وسريرك؟ وهذا كسرى وقيصر على فراش الحرير والديباج؟ فقال ﷺ: لا تقولا هذا، فإن فراش كسرى وقيصر في النار وإن فراشي وسريري هذا عاقبته إلى الجنة.[11]

القناعة في المأكل

وقد بلغ كفافه وقناعته حدّ أن يقبل أن يجوع يوما وأن يشبع يوما وقال: فإذا جعت ضرعت إلى الله وذكرته وإذا شبعت شكرته وحمدته.[12]

وقالت عائشة رضي الله عنها أنه في الأيام الأولى للهجرة كان طعامه بسيطا جدا وأن ذلك الزمن تطلب القناعة بما لدينا، وكان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا. وعندما سُئلت: يا أم

المؤمنين وماذا كنتم تأكلون قالت: إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى بالحليب الذي كان الصحابة يرسلونه لرسول الله ﷺ بين فينة وأخرى.[13]

ويمكن الحكم على بساطة طعام رسول الله ﷺ من قوله: مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ.[14]

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ما شبعَ يوما من طعام، وأنه ما كان يطلب أو يشتهي الطعام في بيته، فإن قُدّم له أكل، ويقبل أي طعام يُقدَّم.[15]

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رفع رسولُ الله ﷺ قط عشاء لغداء ولا غداء لعشاء، ولا اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال، ولا رئي قط فارغا في بيته، إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة.[16]

وقالت رضي الله عنها أيضا: لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ.[17]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن فاطمة ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز شعير، فقال هذا أول طعام أكله أبوك من ثلاثة أيام.[18]

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجرٍ حجرٍ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين.[19]

وعن أبي هريرة قال أُتي رسول الله ﷺ يوما بطعام سُخْن فأكل، فلما فرغ قال: "الحمد لله! ما دخل بطني طعامٌ سُخنٌ منذ كذا وكذا.[20]

كان رسول الله ﷺ يأكل خبز الشعير، وذات مرة غربلت أم أيمن رضي الله عنها دقيقا وصنعت رغيفا للنبي ﷺ، فقال ما هذا؟ قالت إنهم في بلدها الحبشة يصنعون الخبز من الدقيق المغربل، فطلب منها رسول الله ﷺ أن تردّ القشر على الدقيق المنخول، ثم تعجنه وتصنع منه الخبز.[21]

وعن أم سعد رضي الله عنها أنها كانت تزور عائشة فدخل رسول الله ﷺ وسألها إن كان لديها طعام يأكله فقالت عندنا تمر وخل، فقال ﷺ: نِعم الإدام الخل. اللهم بارك في الخل فإنه كان إدام الأنبياء قبلي. ولم يفتقر بيت فيه خلّ.[22]

وعن عبد الله بن سلام قال: رأيت النبي ﷺ وضع تمرة على كِسرةٍ فقال: "هذه إدام هذه".[23]

وكان رسول الله ﷺ يحافظ على البساطة في الفرح والترح؛ فعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى ابنته فاطمة رضي الله عنها عند زواجها أشياء بسيطة أساسية جدا: خميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين.[24]

وعن عَبْد اللهِ بْنِ بُسْرٍ قَالَ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا الْغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ -يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا- فَالْتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَى رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا". ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا".[25]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لبس الصوف الخشن واحتذى النعل وأكل غليظ الشعير الذي ما كان يُسيغه إلا بجرعة ماء.[26]

تباسط الرسول ﷺ

ما كان رسول الله ﷺ متكلفا بين صحبه؛ فعن عبد الله بن حارث قال كنا ستة أو سبعة أشخاص مع رسول الله ﷺ عندما نادى بلال بالصلاة، فخرجنا، فمررنا برجل قِدره على النار، فسأله رسول الله ﷺ إنْ كان طعامه قد نضج، فأجاب بنعم، فتناول منه قطعة لحم وتابعَ طريقه إلى الصلاة.[27]

وكان رسول الله ﷺ يقبل دعوة الخدم والعبيد.[28]

وكان رَكوب رسول الله ﷺ عاديا، وما كان يتحرج من ركوب الحمار أو البغلة، وكان يربيها بنفسه فأحد حميره كان يدعى عُفَير، والآخر يعفور، وكان يستقلها في أسفاره. وما كان يشعر بحرج من أن يردف أو يكون رديفا لأحد، وكان مبرأ من التظاهر. وقد شاهد أهل المدينة مرارا رسول الله ﷺ ممتطيا حمارا أو بغلا، وقد أردف أحيانا أبا بكر وأحيانا أخرى عثمانا أو عليا رضي الله عنهم. وفي بعض الأحيان يكون الرديف زيد بن حارثة أو من الأطفال الحسن أو أسامة بن زيد رضي الله عنهم، وأحيانا كان الردفاء ممن هم أكبر منهم سنا مثل أنس بن مالك وأبو طلحة وأبو هريرة رضي الله عنهم، ومن الشباب، معاذ بن جبل أو جابر بن عبد الله رضي الله عنهم. وأحيانا كان ﷺ يردف إحدى زوجاته على ناقته.

ذات مرة ذهب رسول الله ﷺ لعيادة سعد بن عبادة رئيس الخزرج رضي الله عنه الذي قَرّب له حمارًا ليعود عليه إلى بيته وأرسل معه ابنه قيسا، فطلب رسول الله ﷺ من قيس أن يركب في المقدمة كونه حمارهم، فأبى احتراما لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ له دون تكلف: إما أن تركب وإما أن تنصرف.[29]

وكذلك كان سرج دابته بسيطا، ففي حجة الوداع ومع أنه قد حقق انتصارات عظيمة في خيبر ومكة وحنين وكان باستطاعته تأمين أفضل وسيلة نقل لنفسه إلا أن العالم شاهد مشهدا فريدا فقد كان رحله رثا وكان ﷺ يقول: "اللهم! حِجَّةٌ لا رياء فيها ولا سمعة".[30]

وأثناء الحج ما أراد معاملة خاصة تفضله على غيره وعندما سُئل إن كان يريد أن يُبنى له بناء في منى يظله قال ﷺ: "لا، مِنىً مُناخُ مَن سبق".[31]

عدم تكلف الرسول ﷺ

وكان رسول الله ﷺ يعامل أصدقاءه دون تكلف؛ فذات مرة دعاه أحد جيرانه الفُرس لطعام فسأل رسول الله ﷺ إن كانت زوجه عائشة رضي الله عنها مدعوة أيضا فقال له لا، فرفض الذهاب وبعد كرة أو كرتين من الرفض وافق الفارسي أن تأتي عائشة رضي الله عنها مع النبي ﷺ فذهبا إلى بيته بكل سرور.[32]

وما كان رسول الله ﷺ يتكلف في طلباته؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال بأن رسول الله ﷺ ذهب إلى بيت أحد الأنصار الذي كان يسقي بستانه، فطلب منه ﷺ أن يسقيه من ماء بات في قربة (أي ليكون باردا) وإلا شرب من الماء المتوفر أمامه. فأجابه الأنصاري بأن لديه ماءً باردًا، فانطلقوا إلى العريش فحلب له شاة في ماء بات في قربة (أي باردٍ) فشرب رسول الله ﷺ وصاحبه.[33]

وقد كان يتكلم حتى مع صحابته الشباب دونما تكلف؛ فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأله إن كان قد تزوج فقال نعم، فسأله إن كانت بكرا أم ثيبا فأجاب أنها ثيب، فقال ﷺ: "فهلا جارية تلاعبك"، فأخبره جابر بأنك تعلم أن أبي قد قتل يوم أحد وأنه ترك له تسع أخوات وأنه ما أحب أن تكون زوجته صغيرة السن وإنما فضل أن تكون امرأة تمشطهن وتقوم عليهن.[34]

وعن أسماء بنت يزيد قالت: أتى النبي ﷺ بطعام فعرض علينا فقلنا لا نشتهيه فقال: "لا تجمعن

جوعا وكذبا".[35]

وعندما سألت أسماء مستوضحة: يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيه يعد ذلك كذبا؟ قال: "إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكُذيبة كُذيبة".[36]

ما أحب رسول الله ﷺ التمسك بالرسميات في كل الأمور وكان صورة متجسدة للآية: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: 87) . كان مضيافا جدا ولكن دون تكلف فيجود بما هو موجود على ضيوفه. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أُهدي للنبي ﷺ عسل، فقسم بيننا لُعقة لُعقة، فأخذت لعقتي ثم قلت: يا رسول الله! أزداد أخرى؟ قال: نعم.[37]

ونزل بالنبي ﷺ ضيف، فالتمس له شيئا يطعمه فلم يجد له شيئا، ثم وجد لقمة فجزَّأها أجزاء، ثم أتاه بها فقال: "سَمِّ وَكُلْ". فأكل وفضلت فضلة، فقال الرجل للنبي ﷺ: إنك لرجل صالح.[38] وعلى ما يبدو فإن هذا الضيف كان يتضور جوعا فأكل وشكر من قلبه، وأحب بساطة وعدم تكلف رسول الله ﷺ لدرجة أنْ مدحه عفويا. وبالواقع فإن الغرباء أيضا امتدحوا بساطته وعدم تكلفه.

شهادة الأغيار

فقد كتبت الراهبة المسيحية السابقة، الأستاذة كارن أرمسترونغ (Karen Armstrong) عن عدم تكلف رسول الله ﷺ وبساطته قائلة:

"إن محمدا نفسه قد عاش دائما حياة بسيطة مقتصدة حتى عندما أصبح أقوى سيد في الجزيرة العربية، كان يكره البذخ وعادة ما كان بيته خاليا من طعام يؤكل وما كان لديه إلا ثوب واحد بوقت واحد وعندما كان أصحابه يحضونه على لبس ثياب ترف رسمية كان دائما يرفض مفضلا لبس الخشن كبقية الناس، وعندما كانت تأتيه الهدايا والغنائم كان يوزعها على الفقراء، وكان يقول للمسلمين، مثل عيسى، أن الفقير سيدخل ملكوت السموات قبل الغني."[39]

وكأسوة جميلة في القناعة، كان يدعو قائلا: "اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف علي كل غائبة لي بخير."[40]

وشهد ستانلي لين بول (Stanley Lane Poole) على بساطة حياة رسول الله ﷺ بقوله: "كان بسيطا للغاية في عاداته وتصرفاته ومع ذلك كان دقيقا في أفعاله الاعتيادية. كان مأكله

وملبسه ومفرشه عاديا جدا وبقي على هذا الحال حتى في أيام قوته وحكمه. لقد عاد المريض وتبع الجنائز وقبل دعوة عبد وخاط ثوبه وحلب شاته بنفسه. وكان ينتظر الآخرين، وسكن مع زوجاته في بيت صغير بحجرات متجاورة وكان يوقد النار ويمسح الأرض، وكان دائما يشارك الموجودين طعامه الشحيح أصلا، وكانت خارج بيته صُفّة حيث عاش العديد من الفقراء على كرمه بصورة أساسية."[41]

وكتب جون دافنبورت (John Davenport) عن بساطة رسول الله ﷺ فقال:

"كل حادث في حياة الرسول الكريم محمد ﷺ يؤكد أن حياته كانت خالية من أي نوع من استغلال الآخرين. ولا يخالف أي مؤرخ حقيقة أنه حتى بعد أن استقر دينه وحاز سلطة غير محدودة فإنه ما استأثر بأي شيء لنفسه أو سعى لارضاء غروره، فقد حافظ على أسلوب حياته البسيط الذي اعتاد عليه منذ الأيام الأولى."[42]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح البخاري؛ كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج.

[2] صحيح البخاري؛ كتاب الزكاة، باب وسم الإمام إبل الصدقة بيده.

[3] تفسير الدر المنثور؛ الجزء 2، ص 96، طبعة بيروت.

[4] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 254، طبعة القاهرة.

[5] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب 34.

[6] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[7] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب ما جاء في فراش رسول الله ﷺ.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب الأكسية والخمائص.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب المظالم، باب الغرفة والعُلّية المشرفة في السطوح وغيرها.

[11] صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء... الترغيب والترهيب لمنذري؛ الجزء 4، ص 99، طبعة بيروت.

[12] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه.

[13] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[14] سنن ابن ماجة؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل.

[15] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب خبز الشعير.

[16] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 343، طبعة بيروت.

[17] صحيح مسلم؛ كتاب الزهد والرقائق، باب لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

[18] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 213، طبعة القاهرة.

[19] سنن الترمذي؛ كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ.

[20] سنن ابن ماجة؛ كتاب الزهد، باب معيشة آل محمد ﷺ.

[21] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب الحُوَّارى.

[22] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب الائتدام بالخل.

[23] سنن أبي داود؛ الأيمان والنذور، باب الرَّجُلِ يَحْلِفُ أَنْ لاَ يَتَأَدَّمَ.

[24] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 106، طبعة القاهرة.

[25] سنن أبي داود؛ كتاب الأطعمة، باب مَا جَاءَ فِي الأَكْلِ مِنْ أَعْلَى الصَّحْفَةِ.

[26] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب خبز الشعير.

[27] سنن أبي داود؛ كتاب الطهارة، باب فِي تَرْكِ الْوُضُوءِ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ.

[28] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب إذا أتاه خادمة بطعام فليناوله منه.

[29] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب كَمْ مَرَّةٍ يُسَلِّمُ الرَّجُلُ فِي الاِسْتِئْذَانِ.

[30] سنن ابن ماجة؛ كتاب المناسك، باب الحج على الرحل.

[31] سنن ابن ماجة؛ كتاب المناسك، باب النزول بمنى.

[32] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 123، طبعة القاهرة.

[33] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأشربة، باب الشرب بالأكف والكرع.

[34] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: 122)

[35] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأطعمة، باب عرض الطعام.

[36] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 438، طبعة القاهرة.

[37] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطب، باب العسل.

[38] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 214، طبعة بيروت.

[39] Muhammad a Biography of the Prophet; Karen Armstrong, page.93, UK 1991.

[40] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 2، ص 388، طبعة بيروت.

[41] The Speeches and Table Talk of the Prophet Muhammad; Lane Poole, Stanley, London 1882, pp.28-30.

[42] An Apology for Mohammad and the Quran; John Davenport, Chap.3, pp.127-128, London 1882.

رسول الله ﷺ رحمة للحيوانات أيضًا

تشرف رسولنا الكريم ﷺ بلقب "رحمة للعالمين"، وكان بالتأكيد تجسدا للرحمة والعطف. فقد أرسل إلى قوم كانوا أسوأ من البهائم في مسلكهم فجعلهم على درجة من التقوى أشفقتهم حتى على الحيوانات. وكان ذلك التأثير المباشر لتعليمه وتربيته. لقد ولّد رسول الله ﷺ التحابَّ في قلوبهم وعلمهم أيضا حب الحيوانات.

الشفقة بالحيوانات

ذات مرة، روى ﷺ القصة التالية لأصحابه:

"بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَنِي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّيْهِ فَأَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِي فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ."[1]

وهناك رواية أخرى عن امرأة بغي رأت كلبا في يوم حار يُطيف ببئر من شدة العطش فنزلت البئر وملأت خفها وسقت الكلب فغفر الله لها لفعلها.[2]

وعن عمران بن حصين قال بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرتْ فلعنتْها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال لها أن تأخذ ما عليها وتطلقها لأنها ملعونة فلن تبقى معنا في سفرنا، فأُطلقت الناقة. وبهذه الطريقة الحكيمة والفعالة قد منع الناس حتى من تعنيف الحيوانات.[3]

كانت العرب تسِم ماشيتها بالحديد المحمّى. رأى رسول الله ﷺ الجمال والحمير موسومة على وجوهها فأبدى استياءه وعبر عن رغبته بأن تُجنب هذه الحيوانات من عذاب الوسم في وجوهها أو الأماكن اللّينة من لحمها، وقال بأن الناس لا تدرك ما قد تناله من عقاب على فعلهم هذا. ثم نصحهم بأنه إن كان ولا بد من وسم ماشيتهم فليسموا في عَجْبِ الذنَب كي يكون في أبعد مكان عن الوجه.[4]

لقد منع رسول الله ﷺ من لطم أحد في وجهه حفاظا على كرامته. وقد بلغ لطفه أن منع من

ضرب الحيوانات على وجهها وقال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ عِصِيًّا وَسِيَاطًا".[5]

ذات مرة، مرّ رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله تبارك وتعالى منه.[6]

وقد منع بلطفه أن يركب ثلاثة على دابة واحدة.[7] وعندما رأى جملا هزيلا قال اركبوا الدواب سالمة ودعوها سالمة.[8]

وعن عبد الله بن جعفر قال بأن رسول الله ﷺ أرفده ذات يوم خلفه ومر به في بستان أنصاري فإذا جمل قد أتاه وأطلق صوتا وذرفت عيناه فمسح رسول الله ﷺ وجهه فسكن، فقال من صاحب الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال هو لي يا رسول الله، فقال أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّككها الله، إنه شكا إلي أنك تجيعه وتُدْئِبه (أي تُتْعِبه).[9]

الشفقة بالطيور

وعن عبد الرحمن بن عبد الله قال: نزل رسول الله ﷺ منزلا فانطلق إنسان إلى غيضه فأخرج منها بيض حُمَّر فجاءت الحُمَّرَةُ ترف على رأس رسول الله ﷺ ورءوس أصحابه فقال أيكم فجع هذه فقال رجل من القوم أنا أصبت لها بيضا، قال رسول الله ﷺ اردده.[10]

وفي رواية أخرى ذُكر أنهم أخذوا للحمّرة فرخين وعندما رآها رسول الله ﷺ ترف على رأسه سأل: "من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها!".

وذات مرة رأى قرية نمل قد حُرِّقت فقال: من حرّق هذه؟ فقال صحابته نحن، فقال ﷺ: "إنه لا ينبغي أن يُعذِّب بالنار إلا رب النار".[11]

لقد منع رسول الله ﷺ من نصب الحيوانات واستهدافها بالرمي؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه مر ببعض فتية من قريش نصبوا دجاجة يترامونها فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها فقال ابن عمر من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا.[12]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحل والهدهد وطائر الصُّرَد.[13]

والحكمة من ذلك الامتناع عن قتل الحيوان دون هدف، فبعض الطيور تكون جميلة وليس من

المناسب قتلها.

تعليم الإحسان للحيوانات

لقد نهى رسول الله ﷺ من نصب الحيوانات ثم رميها وقد نهى أيضا أن يمثّل بالبهائم.[14]

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر برجل وهو يجر شاة بأذنها فقال: "دع أذنها وخذ بسالفتها".[15] ويبدو أن الألم الذي أحسته هذه الدابة قد أقلق رسول الله ﷺ.

وعن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل كتب الإحسان على كل شيء. (أي واجب عليكم الإحسان في كل شيء)، فإذا قتلتم فأحسِنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته.[16] لأن الشفرة غير الحادة تجعل من موت الدابة أبطأ وأكثر ألما.

وقال أبو لبابة البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهانا عن قتل الحيّات البيضاء الصغيرة غير المؤذية التي تسكن البيوت.[17]

وقد حذّر رسول الله ﷺ من عذاب الله أولئك الذين يعذبون الدواب فقال ذات مرة: عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ.[18]

كتبت كارن أرمسترونغ، الراهبة المسيحية سابقا، عن حب رسول ﷺ للحيوانات:

"كنا نميل على مر القرون في الغرب أن نصور محمدا على أنه شخصية فظة ومقاتل عنيف وسياسي بلا رحمة، إلا أنه كان رجلا شديد العطف والاحساس. لقد أحب الحيوانات وما كان له أن يؤذيها على الإطلاق. يقال بأن أحد معايير اختبار مجتمع هو سلوكه تجاه الحيوانات. كل الأديان تحض على حب واحترام الطبيعة، وكان محمد يحاول تعليم ذلك للمسلمين. كان العرب في الجاهلية يعاملون الدواب بقسوة مفرطة؛ فكانوا يقتطعون منها قطعا ليأكلوها وهي لا تزال حية ويضعون في أعناق الإبل حلقات مؤلمة. لقد منع محمد من أيّ وسمٍ مؤلم للدواب أو تنظيم الاقتتال بينها."[19]

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن أبي داؤد؛ كتاب الجهاد، باب مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ.

[2] صحيح مسلم؛ كتاب السلام، باب فَضْلِ سَاقي الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةِ وَإِطْعَامِهَا.

[3] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب النَّهْيِ عَنْ لَعْنِ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا.

[4] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 203-204، طبعة بيروت.

[5] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 199، طبعة بيروت.

[6] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 439، طبعة القاهرة.

[7] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 203، طبعة بيروت.

[8] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 203، طبعة بيروت.

[9] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 204، طبعة القاهرة.

[10] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 404، طبعة القاهرة.

[11] سنن أبي داؤد؛ كتاب الجهاد، باب فِي كَرَاهِيَةِ حَرْقِ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ.

[12] صحيح مسلم؛ كتاب الصيد والذبائح، باب النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ.

[13] سنن ابن ماجة؛ كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله.

[14] سنن ابن ماجة؛ كتاب الذبائح، باب النهي عن صبر البهائم وعن المثلة.

[15] سنن ابن ماجة؛ كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح.

[16] سنن ابن ماجة؛ كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال.

[18] صحيح مسلم؛ كتاب السلام، باب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهِرَّةِ.

[19] Muhammad a Biography of the Prophet; Karen Armstrong, page.231, UK 1991.

طُهر ونظافة رسولنا الكريم محمد ﷺ

لقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 223). وقد أعلن رسول الله ﷺ أن الطهور شطر الإيمان.[1]

وكما أن الإيمان الحقيقي يتطلب الطهارة الباطنية وخشية الله، كذلك فإنه يتطلب النظافة الجسدية. من الضرورة الوضوء قبل الصلاة وهي تقريبا نصف الغُسل، ولا تقبل صلاة بغير طُهور.[2] إن من بركات الوضوء غفران الذنوب. وكما أن قشرة الفاكهة تحفظ ما بداخلها كذلك النظافة الجسدية تحفظ الطهارة الباطنية.

إن الظروف الجسدية الخارجية تؤثر بعمق في الروح، إن الوضوء يعين على التركيز والمتعة في الصلاة، ولذلك يُنصح بتجديد الوضوء قبل الصلاة حتى وإن كان المرء على وضوء، وقد وصف بأنه مصدر ثواب وبأن قال النبي ﷺ الوضوء على الوضوء نور على نور.[3]

آداب الخلاء

لقد علّم رسول الله ﷺ أتباعه آداب قضاء الحاجة. ذات مرة سخر يهودي من سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال له: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخِراءة؟! فقلب سلمان رضي الله عنه سخريته عليه وقال بفخر: أَجَلْ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ.[4]

كان رسول الله ﷺ يفضل الماء للاستنجاء، وعلّم أتباعه أن يتجنبوا رُشاش بولهم عند التبوّل، وقد نهى عن ذلك بشدة، فذات مرة كان يمر قرب مقبرة وقال بأن أحدهم في قبر معين يُعذب لأنه ما كان يستتر عند التبول.[5]

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يغسل مقعدته بالماء ثلاثا ثم يغسل يده بعد أن يدلكها بالأرض.[6]

إن أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، وقد ورد مدحهم في الآية القرآنية: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: 108). وقد قدِم عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي

الطَّهُورِ خَيْرًا، أَفَلَا تُخْبِرُونِي؟ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إنا لا نستعمل الحجارة بعد قضاء الحاجة بل نستنجي بالماء دائما. فقال رسول الله ﷺ إن هذا هو سبب حب الله لكم.[7]

تعليم الوضوء والغسل

إن الماء هو الأفضل للطهارة، لقد وضع الإسلام أساسا متينا للنظافة بفرضه الوضوء قبل الصلوات الخمس يوميا والاستحمام في بعض الظروف، ولو اتُّبعت سنة رسول الله ﷺ في الوضوء بحذافيرها فإنه لن يكون مدعاة للثواب والبركات فحسب بل يمكن أن ينقذ الناس من كثير من الأمراض. كانت طريقته ﷺ في الوضوء أن يغسل أولا يديه ثلاث مرات، ثم يتمضمض ويستنثر، وكان يغسل ساعده الأيمن إلى المرفق ثلاثا ثم ساعده الأيسر ثلاثا. ثم يمسح برأسه بيديه المبللتين، ثم يغسل قدمه اليمنى ثلاثا ثم اليسرى ثلاثا.[8] وبذلك كان وضوؤه يعدل تقريبا نصف الغُسل، وكان ﷺ أثناء وضوئه يخلل لحيته بالماء وكان يخلل بين أصابعه وينظف أذنيه من الداخل والخارج.[9]

وكان رسول الله ﷺ إذا اغتسل بدأ بغسل مَذاكيره (فرجه) ثم يتوضأ ثم يصب الماء على رأسه ثلاث غرف وكان يتيمن فيصب الماء على شقه الأيمن أولا ثم الأيسر ثم يفرك جسده لينظفه جيدا.[10]

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه التيمن في كل شيء؛ في الانتعال أو تسريح شعره أو الوضوء أو الغسل أو قص شعره الخ...[11] وكان يستعمل يده اليسرى للاستنجاء.

النظافة والطيب

وقد أمر رسول الله ﷺ نساء بيته بنظافة أجسادهن وأن يتطهرن بعد الحيض وأن يغتسلن من الجنابة وكان هو بنفسه ملتزما بهذه القواعد. وكان يُعنى عناية خاصة بنظافته الشخصية فكان ينتف إبطه ويقص شاربه ويقلم أظفاره.[12]

وقد عبر رسول الله ﷺ عن قلقه من تراكم الأوساخ تحت الأظافر الطويلة.[13]

وكان ﷺ يعمل بما يعلّمه أتباعَه ويقدم لهم أسوته الحسنة. كان يحاول البقاء على وضوء، ويُعنى بغسله، ويغتسل بالأخص يوم الجمعة ويحض أتباعه على فعل مثل ذلك. وكان يتطيب وينصح أصحابه أنه ليس من البذخ أن يكون للمرء لباس آخر نظيف مخصص لصلاة الجمعة غير ثياب عمله التي قد لا تكون نظيفة كما يجب.[14]

قال رسول الله ﷺ بأن النظافة من الإيمان، وكان يتعطر بأطيب العطور. قال أنس رضي الله عنه ما شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من عطر رسول الله ﷺ.[15]

وذكر جابر بن سمُرة رضي الله عنه بأن رسول الله ﷺ مسح ذات مرة خدي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ.[16]

كان عرق رسول الله ﷺ معطرا، فذات مرة قالَ في بيت أنس بن مالك فعَرِقَ، فجاءت أم أنس واسمها أم سُليم وكانت من محارم رسول الله ﷺ بقارورة وجعلت تَسْلُتُ عرقه ﷺ فيها. فاستيقظ فسألها عن السبب فقالت: سوف أمزجه بعطري فيصبح من أطيب الطيب.[17]

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم يسلك طريقا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه.[18]

وكان ﷺ حريصا على تنظيف الأسنان فقال: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة.[19] وكان يستاك عدة مرات في اليوم. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك وكذلك عند خروجه منه.[20]

وكان ﷺ يقول: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب.[21] وفي مرضه الأخير دخل عبد الرحمن بن أبي بكر، أخو عائشة رضي الله عنها، على النبي ﷺ ومعه سواك يستن به فنظر رسول الله ﷺ إليه مطولا، وعندما أدركت عائشة رضي الله عنها رغبته ﷺ أخذت السواك من أخيها وقضمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاستنّ به.[22]

النظافة في المأكل والملبَس

نصح رسول الله ﷺ أتباعه بالمحافظة على الطعام نظيفا وأن يغسلوا أيديهم وأن يأكلوا بيمينهم.[23] وكان النصح بغسل الإناء سبع مرات إذا ولغ الكلب فيه.[24]

كانت طبيعة رسول الله ﷺ نقية فما كان يحب لحم الحيوانات التي تعيش في القذارة، وقد يكون ذلك سبب تقذيره أكل لحم الضب، كما أنه ما أحب دُهن الضب لرائحته الخاصة.[25]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أبصر نخامة في قبلة المسجد فحتها بيده ثم أقبل على الناس فتغيظ عليهم ثم قال إن الله تعالى تلقاء وجه أحدكم في صلاته فلا يتنخمن أحدكم قِبَلَ وجهه في صلاته.[26]

وقد وجه النبي ﷺ بالإضافة إلى نظافة الملبس إلى تشذيب شعر الرأس واللحية بالأخذ من طولها وعرضها وحف الشوارب أيضا.[27]

تهذيب اللحية وشعر الرأس

وفي يوم من الأيام كان رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنِ اخْرُجْ، كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلاحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ، ثُمَّ رَجَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ هذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ؟».[28]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "أتانا رسول الله ﷺ فَرَأَى رَجُلا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ. وَرَأَى رَجُلا آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ.[29]

وعن أبي قرصافة قال: لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي: يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجها ولا أنقى ثوبا ولا ألين كلاما ورأينا كأن النور يخرج من فيه.[30]

هكذا كان تمام نظافة ونقاء رسولنا الطاهر ﷺ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب فَضْلِ الْوُضُوءِ.

[2] سنن الترمذي؛ أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء لا تقبل صلاة بغير طهور.

[3] الترغيب والترهيب من الحديث الشريف؛ الجزء 1، ص 98، طبعة بيروت.

[4] سنن الترمذي؛ أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب الاستنجاء بالحجارة.

[5] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر.

[6] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالماء. وباب من دلك يده بالأرض بعد الاستنجاء.

[7] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 6، طبعة القاهرة.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم.

[9] سنن أبي داؤد؛ كتاب الطهارة، باب صِفَةِ وُضُوءِ النَّبِيِّ ﷺ. وباب تَخْلِيلِ اللِّحْيَةِ. وباب فِي الاِسْتِنْثَارِ. المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 1، ص 249، طبعة بيروت.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الغسل، باب الوضوء قبل الغسل، وباب الغسل مرة واحدة.

[11] صحيح البخاري؛ كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب اللباس، باب قص الشارب.

[13] المعجم الكبير للطبراني؛ باب الواو، وابصة بن معبد الأسدي، راشد بن أبي راشد عن وابصة.

[14] سنن أبي داؤد؛ كتاب الصلاة، باب اللُّبْسِ لِلْجُمُعَةِ.

[15] صحح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ.

[16] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب طِيبِ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّبَرُّكِ بِهِ.

[17] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب طِيبِ رائحة النبي ﷺ.

[18] سنن الدارمي؛ الجزء 1، ص 44، طبعة بيروت.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم .وصحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب السِّوَاكِ. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 110، طبعة القاهرة.

[21] صحيح البخاري؛ كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم.

[22] صحيح البخاري؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

[23] صحيح البخاري؛ كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين.

[24] صحيح مسلم؛ كتاب الطهارة، باب حُكْمِ وُلُوغِ الْكَلْبِ.

[25] سنن ابن ماجة؛ كتاب الصيد، باب الضب.

[26] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 141، طبعة القاهرة.

[27] سنن الترمذي؛ كتاب الحج، باب مَا جَاءَ فِي الْحَلْقِ وَالتَّقْصِيرِ. سنن الترمذي؛ كتاب الأدب، باب ما جاء في الأخذ من اللحية .وباب ما جاء في إعفاء اللحية.

[28] الموطأ للإمام مالك؛ كتاب الجامع، باب اصلاح الشعر.

[29] سنن أبي داؤد؛ كتاب اللباس، باب فِي غَسْلِ الثَّوْبِ وفِي الْخُلْقَانِ.

[30] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 497، طبعة بيروت.

حياء رسول الله ﷺ

معنى الحياء

إن كلمة الحياء تعني الامتناع عن الرذائل خشية الملامة. إن الله خال من أي منقصة، فإذا استخدمت هذه الكلمة بحقه فإن المقصود الخلو من أي صفة غير جديدة والتمتع بكافة الصفات الحميدة، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ (البقرة:27).

وورد في الحديث أن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين.[1]

قال عبد الله بن مسعود ﷺ، قال رسول الله ﷺ: استحيوا من الله حق الحياء قال قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله قال ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء.[2]

استوصى شخص رسول الله ﷺ فقال له: استحي من الله استحياء رجل ذا هيبة من أهلك.[3]

وقال ﷺ: لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء.[4]

حدّث حكيمٌ عن أبيه عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ عن العورة وحفظها فقال ﷺ: "احفظ عورتك إلا من زوجتك"، فقال جدي: الرجل يكون مع الرجل؟ قال إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل"، فقال جدي: والرجل يكون خاليا؟ فقال ﷺ: "فالله أحق أن يستحيا منه".[5]

وكان رسول الله ﷺ يقول: ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه.[6]

حياء النبي ﷺ

كان رسول الله ﷺ يتمتع بصفة الحياء بصورة فريدة منذ طفولته وقد حفظ الله بنفسه هذه الصفة في طبيعته. ذكر رسول الله ﷺ حادثا من طفولته فقال: "لَقَدْ رَأَيْتنِي فِي غِلْمَانِ قُرَيْشٍ نَنْقُلُ حِجَارَةً لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ بِهِ الْغِلْمَانُ كُلّنَا قَدْ تَعرّى، وَأَخَذَ إزَارَهُ فَجَعَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ فَإِنّي لَأُقْبِلُ مَعَهُمْ كَذَلِكَ وَأُدْبِرُ إذْ لَكَمَنِي لَاكِمٌ مَا أَرَاهُ لَكْمَةً وَجِيعَةً ثُمّ قَالَ شُدّ عَلَيْك إزَارَك؛ قَالَ فَأَخَذْتُهُ وَشَدَدْتُهُ عَلَيّ ثُمّ جعَلْت أَحْمِلُ الْحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي وَإِزَارِي عَلَيّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي".[7]

روى ابن عباس رضي الله عنه أن أبا طالب كان يعالج زمزم وكان النبي ﷺ ممن ينقل الحجارة وهو يومئذ غلام. فأخذ النبي ﷺ إزاره فتعرى واتقى به الحجر، فغشي عليه، فقيل لأبي طالب أدركْ ابنك فقد غشي عليه. فلما أفاق النبي ﷺ من غشيته سأله أبو طالب عن غشيته فقال: أتاني آت عليه ثياب بيض فقال لي استترْ. فقال ابن عباس رضي الله عنه: فكان ذلك أول ما رآه النبي ﷺ من النبوة أنْ قيل له استترْ، فما رؤيت عورته من يومئذ.[8]

إن أساس مكارم أخلاق رسول الله ﷺ هو صفات الله تعالى. وقد تجلت صفة الله الحيي بأجلى صورها في طبيعة رسول الله ﷺ، وقد وُصف في القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم. وقد فرض الله تعالى بنفسه آداب اللقاء بالرسول ﷺ. وقد حال حياء وتواضع الرسول ﷺ بينه وبين أن يعلِّم هذه الآداب لأصحابه، ولكنه علّم بأمر من الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب: 54).

لقد بين رسول الله ﷺ أن من يتمتعون بالحياء ينالون بركات كثيرة. فذات مرة بينما كان يعلم آداب الاجتماع، "إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه".[9]

وقد قال رسول الله ﷺ: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت"[10]

وكان أيضا يقول بأن الحياء لا يأتي إلا بالخير والبركات. وقد كان هو بنفسه أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئا عُرف ذلك في وجهه.[11]

روى بلال بن الحارث رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد الحاجة أبعد".[12] وكذلك "إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض".[13]

وعن ابن عباس قال: "كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات وما رأى عورته أحد قط."[14]

ومع أن علاقة الزوجين تكون حميمية إلا أن رواية عائشة رضي الله عنها تظهر مدى حياء رسول الله ﷺ فقالت بأنها ما رأت فرج رسول الله ﷺ قط.[15]

مر النبي ﷺ على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول إنك لتستحيي حتى كأنه يقول قد أضر بك فقال رسول الله ﷺ: "دعه فإن الحياء من الإيمان".[16]

حدود الحياء

ولكن رسول الله ﷺ ما كان يحب أن يحول الحياء دون تعلم الدين وأمور الشريعة، وقد أثنت عائشة رضي الله عنها على نساء المدينة لأن حياءهن لم يمنعهن من التفقه في الدين.[17]

ذات مرة سأل النبي ﷺ أصحابه: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي." فسمى الناس أشجارا مختلفة. قال عبد الله بن عمر بأنه وقع في نفسه أنها النخلة ولكنه لم يتكلم حياء، وعندما ذكر ذلك لعمر رضي الله عنه قال له: لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من الدنيا وما فيها.[18]

وهذا الحديث يجعل من الجلي أن الحياء في أمور الحق والمعرفة لا يكون مناسبا.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ حَيِيًّا لا يُسْأل عن شيء إلا أعطَى.[19]

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أنه إذا بلغ رسول الله ﷺ عن رجل شيئا ما كان يذكره باسمه قائلا ما بال فلان يقول كذا وكذا.[20]

ومن حياء رسول الله ﷺ أنه ما كان يحملق بأحد قط وإن أراد أن يذكر فعلا كرهه من أحد لمح إلى فعله تلميحا.[21]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ وَكَانَ النَّبِي ﷺ قَلَّمَا يُوَاجِهُ رَجُلا فِي وَجْهِهِ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: "لَوْ أَمَرْتُمْ هَذَا أَنْ يَغْسِلَ هَذَا عَنْهُ".[22]

وباختصار نقول بأن رسول الله ﷺ كان شديد الحياء وقد أضفى هذا الحياء جمالا خاصا على شخصه الكريم.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب 105.

[2] سنن الترمذي؛ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب 24.

[3] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 52، طبعة بيروت.

[4] سنن ابن ماجة؛ كتاب الزهد، باب الحياء.

[5] سنن الترمذي؛ كتاب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة.

[6] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الفحش والتفحش.

[7] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 183، طبعة بيروت.

[8] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 198، طبعة بيروت.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

[11] صحيح مسلم ؛كتاب الفضائل، باب كَثْرَةِ حَيَائِهِ ﷺ.

[12] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطهارة وسننها، باب التباعد للبراز في الفضاء.

[13] سنن الترمذي؛ أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الاستتار عند الحاجة.

[14] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 1، ص 603، طبعة بيروت.

[15] سنن ابن ماجة؛ كتاب الطهارة وسننها، باب النهي أن يرى عورة أخيه.

[16] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الحياء.

[17] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب الحياء في العلم.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم.

[19] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي؛ الجزء 1، ص 317، طبعة بيروت.

[20] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب في حُسْنِ الْعِشْرَةِ.

[21] عيون الأثر؛ الجزء 2، ص 423، طبعة بيروت.

[22] سنن أبي داؤد؛ كتاب الترجل، باب في الْخَلُوقِ لِلرِّجَالِ.

دعابة رسول الله ﷺ وعدم تكلفه

إن سعادة المرء الحقيقية تكمن في وصاله بالله وخضوعه لمشيئته، ومن يتمتع بهذه الصلة التامة بالله يمنح مرتبة النفس المطمئنة. وبالثبات على الإيمان والعمل، يسمع أمثال هؤلاء الناس صوت الملائكة المطمئن: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 31). ويصبح هذا العالم جنة بالنسبة لأمثال هؤلاء المؤمنين، وتتالى عليهم البشارات الربانية ويوقنون بها إيقانا كاملا. وإن سعادتهم ناتجة عن البركات ورحمة الله التي قضاها لهم.

كان رسول الله ﷺ يقول: "عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا".[1]

وهذا يدل على أن المؤمن الحق يكون مسرورا في كل ظرف وراضيا عن خالقه. وفي هذه الحالة فإن هذا الشعور الحقيقي بالسرور والطبيعة السعيدة ليسا دليلا على سلامته الذهنية والجسدية فحسب بل يصبحا علامة على إيمانه.

مَن غير رسول الله ﷺ يمكنه أن يكون على الدرجة العالية لنيل رضا الله تعالى؟ لقد كان دائم الابتسام وقد نصح صحبه بألا يحتقروا من المعروف شيئا ولو أن يلقى المرء أخاه بوجه طلق.[2]

لقد وصف الصحابة رسول الله ﷺ بأنه كان الأكثر ابتساما بين الناس وأحسنهم مزاجا. يقول عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت: نذير قوم أتاهم العذاب. فإذا ذهب عنه ذلك رأيتُ أطلقَ الناس وجهًا، وأكثرَهم ضحكا، وأحسنَهم بشرًا.[3]

وذكرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ظريفا ودائم الابتسامة والبهجة في البيت.[4]

لطف المزاح

كان مزاح رسول الله ﷺ لطيفا وكانت دعاباته نقية وحقة وكان يقول بأنه لا يقول إلا الحق حتى في دعاباته.[5]

ذكرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ظريفا جدا وكان يقول بأن الله تعالى لا يستاء من الشخص الظريف.[6]

ذكر الصحابة أن رسول الله ﷺ كان يجلس في مجالسنا وما حدث قط أن كنا جلوسا نستمتع فيتكلم بما يُحزن أو يملّل، فقد كان يجلس معنا يضحك ويداعبنا ويستمع لقصصنا الطريفة.[7]

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَالَسْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ، فَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ، وَيَتَذَاكَرُونَ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ سَاكِتٌ، فَرُبَّمَا يَتَبَسَّمُ مَعَهُمْ.[8]

ذكر زيد بن ثابت رضي الله عنه أنهم كانوا إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم أيضا...[9]

استفسر أحدهم من العباس رضي الله عنه عن طبيعة مزاح رسول الله ﷺ، فأعطى مثالا بأنه ﷺ ذات مرة غطى إحدى زوجاته برداء وطلب منها أن تحمد الله وتمجده ماشية كعروس تجر ثوبها.[10]

من أسلوب رسول الله ﷺ المميز في المداعبة أنه كان يقول أشياء اعتيادية بطريقة تجعل منها دعابة؛ فعلى سبيل المثال؛ لكل امرئ أذنان ولكنه ﷺ كان ينادي خادمه أنس رضي الله عنه بكل حب: "تعالَ يا ذا الأذنين!"، وكان ذلك يولد دعابة من الطراز الرفيع.[11]

وهذا اللطف في الدعابة جعل من خادمه أنس يصبح كله آذانا صاغية لتلبية نداء سيده. وبالمثل فقد نادى رسول الله ﷺ ذات مرة شخصا في يديه طول بذي اليدين.[12]

ذات مرة أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رجلا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ احْمِلْنِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ قَالَ وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ.[13]

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يداعب الأطفال دون تكلف.[14]

ذكر سفينة رضي الله عنه أننا كنا بصحبة رسول الله ﷺ في سفر، وكلما تعب أحدهم أعطاني سيفه أو درعه أو رمحه لأحمله فانتهى بي المطاف مثقلا بالأحمال، وكان رسول الله ﷺ يرى ذلك فقال إنك بحق سفينة تحمل أثقال الجميع.[15]

ذات مرة جاءت امرأة عجوز إلى رسول الله ﷺ فقال لها: "لا يدخل الجنة عجوز"، فبكت، فقال لها رسول الله ﷺ بأنها ستدخلها يومئذ وهي شابة أي لن يكون في الجنة كبار سن فأسرّها ذلك، وتلا رسول الله ﷺ الآيات من سورة الواقعة التي تقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾.[16]

كان رسول الله ﷺ لسرعة بداهته يحدث الدعابة من الحديث العادي. انطلق أبو رِمثة برفقة أبيه إلى رسول الله ﷺ الذي سأل أباه من باب التعارف إن كان هذا ابنه وكان التوكيد على "هذا". وببساطته فهم أباه وكأنه ﷺ يسأله إن كان هذا فعلا ابنه. فأجاب: "إي ورب الكعبة إنه ابني". فهم رسول الله ﷺ سوء فهمه ولكن من باب الدعابة سأله: "حقا"؟ فأصبح أبوه أكثر جدية وقال: "إني أقسم بشدة على أنه ابني". فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكا لحلف والد أبي رميثة عليه مع ثَبتِ شبه الولد في أبيه.

أَبو رِمْثَةَ قَالَ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِى نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لأَبِى « ابْنُكَ هَذَا ». قَالَ إِى وَرَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ « حَقًّا ». قَالَ أَشْهَدُ بِهِ. قَالَ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا مِنْ ثَبْتِ شَبَهِى فِى أَبِى وَمِنْ حَلْفِ أَبِى عَلَىَّ. ثُمَّ قَالَ «أَمَا إِنَّهُ لاَ يَجْنِى عَلَيْكَ وَلاَ تَجْنِى عَلَيْهِ».[17]

ممازحة الأطفال

كان رسول الله ﷺ يداعب الأطفال ويقربهم إليه. ذات مرة زار النبي ﷺ خادمه أنسًا في بيته وسأل عن سبب حزن أخيه الصغير، فأخبره بأن سبب حزنه أن طائره الزرزور قد مات. فكان رسول الله ﷺ كلما زار بيته داعبه مستخدما كنيته ويقول له: "يا أبا عمير ما فعل النُغير؟". كان رسول الله ﷺ يكلّم الأطفال بحب ويداعبهم.[18]

وقد ذكر محمود بن الربيع ﷺ حادثا في المحبة والدعابة من طفولته فقال: عَقَلْتُ مِن النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ، مِنْ دَلْوٍ.[19]

عن بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعليّ قميص أصفر، فقال رسول الله ﷺ "سنه سنه". قال عبد الله: وهي بالحبشية حَسنة. قالت: فذهبتُ ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، فقال رسول الله ﷺ: دَعْها.[20] أي اتركْها تلعب فإنها مجرد طفلة، فلا تلُمْها.

كان رسول الله ﷺ يشجع على حس الدعابة عند صحبه الذين علموا أن ذلك كان يسر النبي ﷺ وما كان لينزعج منهم.

روى عوف بن مالك ﷺ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ وَقَالَ: ادْخُلْ، ومدركا صغر القبة قلت مازحا: أَكُلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كُلُّكَ» فَدَخَلْتُ.[21]

ذات مرة، ذهب صهيب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وكان أمامه بعض الخبز والرطب. دعا رسول الله ﷺ صهيبا ليشاركه بعض الطعام، فأخذ صهيب يكثر من أكل التمر أكثر من الخبز. ولاحظ رسول الله ﷺ تورم عينه فقال له "تأكل تمرا وبك رمد؟" فأجابه صهيب بأني أمضغ على جانب عيني السليمة فتبسم رسول الله ﷺ من ظرافة وسرعة بديهة صحابيه.[22]

التنبيه بالمزاح

كان رسول الله ﷺ بلطف دعابته يلفت انتباه صحابته لأمور تربوية. قال خوّات بن جبير رضي الله عنه "نزلنا مع رسول الله ﷺ مَرّ الظَهران، قال: فخرجتُ من خبائي فإذا أنا بنسوة يتحدثن، فأعجبنني. فرجعت فاستخرجت عيبتي، فاستخرجت منها حلة فلبستُها، وجئت فجلست معهن. وخرج رسول الله ﷺ من قبّته فقال: أبا عبد الله، ما يجلسك معهن؟ فلما رأيت رسول الله ﷺ هبتُه، واختلطتُ، قلت: يا رسول الله، جملٌ لي شرد، فأنا أبتغي له قيدا. فمضى واتبعتُه، فألقى رداءه ودخل الأراك كأني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ فأقبل ظاهرا يسيل من لحيته على صدره أو قال يقطر من لحيته على صدره، فقال ﷺ: «أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك؟" ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: "السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟" فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبي ﷺ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد فأتيت المسجد فقمت أصلي، وخرج رسول ﷺ من بعض حجره فجأة، فصلى ركعتين خفيفتين، وطوّلت رجاء أن يذهب ويدَعني، فقال: طوّل أبا عبد الله ما شئت أن تطوّل فلست بقائم حتى تنصرف. فقلت في نفسي: والله لأعتذرنّ إلى رسول الله ولأبرئنّ صدره، فلما قال: "السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد ذلك الجمل؟" فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمتُ. فقال ﷺ: "رحمك الله ثلاثا، ثم لم يعد لشيء مما كان".[23]

هناك رواية عن لطف طبيعة رسول الله ﷺ تتعلق بجرير بن عبد الله البجلي الذي قدم المدينة في وفد قبيلة بجيلة في السنة العاشرة من الهجرة وأسلمَ. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخل جرير بن عبد الله رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وضنَّ كل رجل بمجلسه، فأخذ رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه، فتلقاه بنحره ووجهه فقبّله ووضعه على عينيه وقال:

أكرمك الله كما أكرمتني، ثم وضعه على ظهر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا أتاه كريمُ قوم فليكرمْه.[24]

وعن جرير رضي الله عنه قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسمَ في وجهي. ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري وقال: اللهم ثبّتْه واجعله هاديا مهديا.[25]

ومن الطبيعي أن تثير عادة رسول الله ﷺ بالابتسام لجرير التساؤل. وهناك رواية في الهيثمي تحل هذه المسألة. يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: "ذات يوم سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك". وقد جاء هذا الرجل وسلم على رسول الله ﷺ وبايع بعد الهجرة. وسأله رسول الله ﷺ عن اسمه فأجابه: جرير بن عبد الله البجلي. وعلى طلبه دعا له رسول الله ﷺ وضرب يده على رأسه وعلى وجهه ليباركه، ثم ضرب في صدره وبطنه ولأن جريرا كان غريبا فما أدرك معنى هذه الحركات وربما ظن أن رسول الله ﷺ سيضع يده في مئزره ليباركه، فانثنى على نفسه محرجا.[26]

ونختم هذا الفصل بحادث طريف لافت سلَّى الصحابة لعام كامل. عن أم سلمة رضي الله عنها أنه قبل عام من وفاة الرسول ﷺ خرج أبو بكر رضي الله عنه تاجرا إلى بُصرى، ومعه نعيمان رضي الله عنه وسويبط رضي الله عنه ، وكان سويبط على الزاد، فجاءه نعيمان فقال: أطعمني، قال: لا، حتى يأتي أبو بكر رضي الله عنه، وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزّاحا، فقال: لأغيظنك، فذهب إلى أناس جلبوا إبلا فقال: ابتاعوا مني غلاما عربيا فارها، وهو رعّاد ولسّان، ولعله يقول: أنا حر. فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لي، لا تفسدوا علي غلامي، فقالوا: بل نبتاعه منك بعشرة قلائص، فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم هذا، فجاء القوم فقالوا: قد اشتريناك فقال سويبط: هو كاذب، أنا رجل حر، فقالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل في عنقه وأخذوه، فذهبوا به، فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فذهب هو وأصحاب له، فرد القلائص وأخذوه، فلما أخبر النبي بالقصة ضحك، وظل يضحك وأصحابه كلما تذكر تلك الواقعة حولا كاملا.[27]

أوقات الترفيه

للترفيه دور مهم في النشاطات الحياتية ويترك أثرا عميقا في الطبيعية البشرية وبتنشيطها يساعد الناس على التركيز على العمل. وكانت هذه الفترات من الترفيه مفعمة بالحيوية في حياة رسول

الله ﷺ. كان من عادته أن يمشي أسبوعيا إلى مسجد قباء وفي بعض الأحيان ينعم بنزهة مع صحابته.

كان لأبي طلحة رضي الله عنه بستان يسمى بَيْرُحاء وكان مستقبلا المسجد النبوي وكان رسول الله ﷺ يزوره مع صحبه ويأكل من ثمره ويشرب من ماء فيه ويستمتع بقضاء الوقت فيه.[28]

كانت تدبر بمناسبات العيد وغيره أنواع مختلفة من الترفيه وكانت الجواري تغني أغاني مفرحة في البيوت. وتروي عائشة رضي الله عنها أنه في يوم رجع رسول الله ﷺ إلى البيت ورأى جاريتين تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم معركة بُعاث، اضطجع على سريره وأدار ظهره لهن. وعندما جاء أبو بكر رضي الله عنه قال: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا.[29]

روت عائشة رضي الله عنها أن الحبشة كانوا يلعبون في المسجد النبوي في يوم عيد فسألني رسول الله ﷺ إن كنت راغبة بمشاهدة العرض، فوقفت خلفه وشاهدت عرضهم إلى مدة.[30]

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ لِي تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ هَذِهِ بِتِلْكَ."[31]

عن عائشة رضي الله عنها أنها زَفَّتْ امْرَأَةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يا عَائِشَةُ مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمْ اللَّهْوُ.[32]

يُروى أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ أَتَعْرِفِينَ هَذِهِ قَالَتْ لَا يَا نَبِيَّ اللهِ فَقَالَ هَذِهِ قَيْنَةُ بَنِي فُلَانٍ تُحِبِّينَ أَنْ تُغَنِّيَكِ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ فَأَعْطَاهَا طَبَقًا فَغَنَّتْهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي مَنْخِرَيْهَا.[33]

وبذلك فقد مدح فن هذه المرأة وبالوقت نفسه أبدى عدم اهتمامه شخصيا بالطرب.

باختصار، فقد تمتع الرسول ﷺ بحس مرهف بالدعابة وبهذا المزاح النقي الأصيل أضفى على حياته وحياة أهل بيته وصحابته السعادة.

اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وبارك وسلّم إنَّك حميدٌ مجيدٌ

المراجع والمصادر

[1] صحيح مسلم؛ كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

[2] صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

[3] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 8، ص 679، طبعة بيروت.

[4] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية؛ الجزء 4، ص 253، طبعة بيروت.

[5] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح.

[6] الجامع الكبير للسيوطي؛ ص 142، طبعة بيروت.

[7] صحيح مسلم؛ كتاب الفضائل، باب 11.

[8] سنن الترمذي؛ كتاب الاستيذان والآداب عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في إنشاد الشعر.

[9] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 324، طبعة بيروت.

[10] كنز العمال؛ الجزء 4، ص 43، طبعة مصر.

[11] الشمائل المحمدية للترمذي ؛ باب في صفة مزاح رسول الله.

[12] صحيح البخاري؛ أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره.

[13] سنن أبي داؤد؛ كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح.

[14] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 331، طبعة بيروت.

[15] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 221، طبعة القاهرة.

[16] الشمائل المحمدية للترمذي؛ باب في صفة مزاح رسول الله.

[17] سنن أبي داؤد؛ كتاب الديات، باب لاَ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ بِجَرِيرَةِ أَخِيهِ أَوْ أَبِيهِ.

مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 226، طبعة القاهرة.

[18] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس.

[19] صحيح البخاري؛ كتاب العلم، بات متى يصح سماع الصغير.

[20] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به أو قبلها أو مازحها.

[21] سنن أبي داود؛ كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح.

[22] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 64، طبعة القاهرة.

[23] المعجم الكبير للطبراني؛ الجزء 4، ص 243، طبعة بيروت.

[24] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 4، ص 324، طبعة بيروت. دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 5، ص 440، طبعة بيروت.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب التبسم والضحك.

[26] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 9، ص 622، طبعة بيروت.

[27] سنن ابن ماجة؛ كتاب الأدب، باب المزاح.

[28] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، باب ﴿لن تنالوا البر حتى...﴾

[29] صحيح البخاري؛ كتاب العيدين باب سنة العيدين لأهل الإسلام.

[30] صحيح البخاري؛ كتاب الصلاة، باب أصحاب الحِراب في المسجد.

[31] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 6، ص 264، طبعة القاهرة.

[32] صحيح البخاري؛ كتاب النكاح، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

[33] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 449، طبعة القاهرة.

بصيرة النبي ﷺ وحكمته

بشير نذير آمرٌ مانعٌ معًا حكيم بحكمته الجليلة يُقتدى•

يواجه البشر في هذا العالم شتى المحن والاختبارات والمصاعب في كل خطوة يخطوها. فيستخدم الذين لا يتبعون دينا ما معرفتهم وخبرتهم وذكاءهم لاجتياز تلك المحن الصعبة، فينجحون حينا ويفشلون حينا آخر. أما سلوك الشخص المتديّن فمختلف لأنه يؤمن بعالِم الغيب، الله القدير، ويتوكل على نور الله الذي لا ينطفئ، فهو سبحانه الذي يهدينا ويحقق أمانينا إذ يستجيب دعاء المتضرعين ويرشدهم إلى مرضاته وحفظه. إذا كان الناس الدُّنيَويون يعُدّون الحكمة البشرية والذكاء الفطري والإدراك والخبرة مصدرا للبصيرة، فإن التقي يعطي أهمية أكبر للبصيرة الإلهية ولبركات الحكمة الروحانية. لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي قلبه وعقله إلى طريق النجاح؛ والحكمة بدون نور الوحي عمياء. هذا هو السبب في أن معدل نجاح الأتقياء أعلى بكثير من أولئك الذين يعتمدون على حكمتهم وخبرتهم الخاصة. ويشهد على هذه الحقيقة تاريخ وشخصية أتباع الأنبياء البالغ عددهم مائة وأربعة وعشرون ألفا. ويتربع على رأس القائمة نبينا الحبيب محمد ﷺ، فمع أنه لم يكن مُلِمّا بالقراءة والكتابة، إلا أنه أصبح معلِّم العالَم بأسره.

فيما يلي دراسة لحوادث مثيرة للاهتمام والدهشة في حياة أنجح الناس، والهدف من هذه الدراسة هو أن نستفيد من حكمة أشرف البشر. تعني الحكمة والبصيرة القدرة على تقييم الحدث قبل حدوثه، ويتحقق ذلك الفهم من خلال البصر أو السمع أو الحدس فيستطيع المرء اتخاذ الخطوات اللازمة وتجنب المخاطر. لقد دعا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أنبياءه الأحبة، سيدنا إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، بأولي الأبصار. هذه إشارة إلى أن

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 59.

الله راضٍ عن أولئك الذين يستخدمون بصرهم وبصيرتهم لدراسة خلقه وكلامه والعمل به. هذه الميزة هي نتيجة لطهارة النفس ونقاء السريرة.

لقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حديثه عن أفضل الحكماء إن "أفرس الناس ثلاثة": الأول هو أحد رجال حاشية ملك مصر الذي قال لزوجته عن يوسف عليه السلام: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (يوسف: 22)، والثانية هي ابنة شعيب عليه السلام التي قالت لأبيها عن موسى عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: 27)، وعندما سألها: "ما رأيت من أمانته؟" قالت: كنت أمشي أمامه لأريه الطريق إلى منزلنا، وإذ به يمشي أمامي حرصا على سلامتي وخصوصيتي. والثالث أبو بكر حين استخلفَ عمر.[1]

بصيرة نيّرة

لقد بين الله سبحانه وتعالى أنه كان للرسول الكريم ﷺ نصيب وافر من نوره حيث يقول في كتابه الكريم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: 36). يكشف هذا التشبيه القرآني عن موضوع غاية في الجمال؛ فبصيرة النبي الكريم الروحانية كانت تواقة للتوهج حتى قبل الوحي. وتمثلت جوانبها المختلفة في شخص "خاتم النبيين"، وعندما نزل نور الله عليه، أصبح ملتقى الأنوار.[2]

هذا النور هو نعمة اليقين بالإيمان بالله ويُنتج ثمارا حلوة. يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 258)

وفي مكان آخر يفسّر الكفر على أنه موت والإيمان على أنه حياة، يقول القرآن الكريم: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: 123).

ولذلك يُقصد ببصيرة الإيمان العين التي تنظر بنور الله. وتُمنح هذه القدرة وفقا لقوة إيمان المرء. وهكذا مُنح النبي الكريم ﷺ أعلى مستويات البصيرة، وهو الذي يسميه القرآن الكريم أول المسلمين: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: 109). وقد قال النبي الكريم موضحا: "اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله". ثم تلا الآية 76 من سورة الحِجر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.[3]

والحقيقة أن هذه الفراسة قد منحت لنبينا الحبيب ﷺ وللمؤمنين وفقا لمستواهم الروحي. يقول النبي الكريم ﷺ: "إن لله عبادا يعرفون الناس بالتَّوسُّم".[4]

إن اللجوء إلى الله والدعاء وطلب مساعدته يزيد من هذه البصيرة الروحانية. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: 9).

كان النبي الكريم ﷺ يبدأ يومه بهذا الدعاء الذي يدعو به قبل صلاة الفجر: "اللهم اجعل لي نورا في قبري، ونورا في قلبي، ونورا من بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظم لي نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا."[5]

تحليل الشخصية من شكل الجبين

يشهد القرآن الكريم على فراسة الرسول الكريم ﷺ إذ قال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ (البقرة: 274).

وقد قال ﷺ: "لَيسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾".[6]

ذات مرة كان الرسول الكريم ﷺ يلقي خطبة يوم الجمعة في المسجد النبوي الشريف عندما دخل رجل فقير. فقال النبي ﷺ: "تصدَّقوا فتصدَّقوا، فأَعطاهُ ثوبينِ ثمَّ قالَ: تصدَّقوا فطَرحَ الفقير أحدَ ثَوبيهِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ: ألم تروا إلى هذا، أنَّهُ دخلَ المسجدَ بِهَيئةٍ بذَّةٍ فرجَوتُ أن تفطِنوا لَهُ فتتَصدَّقوا عليهِ، فلَم تَفعلوا، فقلتُ: تصدَّقوا، فتَصدَّقتُم فأعطيتُهُ ثوبينِ، ثمَّ قلتُ: تصدَّقوا، فطرحَ أحدَ ثَوبيهِ، خُذْ ثوبَكَ! وانتَهرَهُ."[7]

وهناك حدث شهير يشهد بفراسة النبي الروحانية حدث مع أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال: "إنْ كنتُ لَأَعْتَمِدُ بكَبِدي على الأرضِ؛ مِنَ الجوعِ، وأَشُدُّ الحَجَرَ على بَطْني؛ مِنَ الجوعِ، ولقد قعَدْتُ يومًا على طريقِهِمُ الذي يخرُجونَ فيه، فمرَّ بي أبو بكرٍ، فسألْتُه عن آيةٍ مِن كتابِ اللهِ، ما أسألُه إلَّا ليُشْبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ، ثمَّ مرَّ بي عمرُ، فسألْتُه عن آيةٍ مِن كتابِ اللهِ، ما أسألُه إلَّا ليُشْبِعَني، فمرَّ ولم يفعَلْ، ثمَّ مرَّ أبو القاسِمِ ﷺ، فتبسَّمَ حينَ رآني، وقال: أبا هُريرةَ، قلتُ: لبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ، قال: الْحَقْ، ومضى؛ فاتَّبَعْتُهُ، ودخَلَ منزلَه، فاستأذَنْتُ؛ فأذِنَ لي، فوجَدَ قَدَحًا مِن لبنٍ، فقال: مِن أينَ هذا اللَّبَنُ لكم؟ قيل: أهداه لنا فلانٌ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أبا هُريرةَ، قلتُ: لبَّيْكَ. قال: الْحَقْ إلى أهلِ الصُّفَّةِ، فادْعُهم، وهُمْ أَضْيافُ أهلِ الإسلامِ، لا يَأْوونَ على أهلٍ ولا مالٍ، إذا أتَتْه الصَّدَقةُ بعَثَ بها إليهم، ولم يتناوَلْ منها شيئًا، وإذا أتَتْه هَديَّةٌ أرسَلَ إليهم، فأصابَ منها، وأَشْرَكَهم فيها، فساءَني ذلك، وقلتُ: ما هذا القَدَحُ بينَ أهلِ الصُّفَّةِ، وأنا رسولُه إليهم؛ فسيأمُرُني أنْ أُديرَه عليهم، فما عسى أنْ يُصيبَني منه؟ وقد كنتُ أرجو أنْ أُصيبَ منه ما يُغْنيني، ولم يكُنْ بُدٌّ مِن طاعةِ اللهِ، وطاعةِ رسولِهِ ﷺ؛ فأتيْتُهم فدعَوْتُهم، فلمَّا دخلوا عليه، فأخَذوا مجالِسَهم، قال: أبا هُريرةَ، خُذِ القَدَحَ فأَعْطِهم، فأخذتُ القَدَحَ، فجعلتُ أُناوِلُه الرَّجُلَ، فيشرَبُ حتَّى يَرْوَى، ثمَّ يرُدُّه، فأُناوِلُه الآخَرُ، حتَّى انتهيتُ به إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وقد رَوِيَ القَومُ كلُّهم، فأخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ القَدَحَ، فوضَعَه على يدِهِ، ثمَّ رفَعَ رأسَه، فتبسَّمَ، وقال: أبا هُريرةَ، اشرَبْ؛ فشرِبْتُ، ثمَّ قال: اشرَبْ؛ فلَمْ أزَلْ أشرَبُ ويقولُ: اشرَبْ، ثمَّ قلتُ: والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما أجِدُ له مَسْلَكًا؛ فأخَذَ القَدَحَ، فحمِدَ اللهَ، وسمَّى، ثمَّ شرِبَ". [8]

معرفة الرسول الكريم ﷺ بشخصية صحابته رضي الله عنهم

إن هذه الصفة التي يتحلى بها النبي ﷺ مذكورة في القرآن الكريم كما يلي: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (محمد: 31) أي المنافقين. وهناك عدد كبير من الأمثلة على ذلك في الأحاديث الشريفة. فقد روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أعْطَى رَهْطًا وسَعْدٌ جالِسٌ، فَتَرَكَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا هو أعْجَبُهُمْ إلَيَّ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ ما لكَ عن فُلَانٍ فَوَاللهِ إنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقالَ: أوْ مُسْلِمًا فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي ما أعْلَمُ منه، فَعُدْتُ لِمَقالَتِي، فَقُلتُ: ما لكَ عن فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقالَ: أوْ

مُسْلِمًا. ثُمَّ غَلَبَنِي ما أَعْلَمُ منه فَعُدْتُ لِمَقالَتِي، وعَادَ رَسولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قالَ: يا سَعْدُ إنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وغَيْرُهُ أحَبُّ إلَيَّ منه، خَشْيَةَ أنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ في النَّارِ".[9]

كان للرسول الكريم ﷺ نظرة ثاقبة في قدرات وإمكانيات صحابته البارزين. وبفراسته الروحانية عرف أن أبا بكر رضي الله عنه سيصبح خليفته. وفي إحدى المرات قال لعائشة رضي الله عنها إنه قرر إبلاغ أبي بكر رضي الله عنه وابنه بإرادته بشأن الخلافة، إذ كان يخشى أن يعترض بعض المعارضين أو يطمع طامع. ثم أن الله نفسه سيرفض أي شخص يعارضه وأن المؤمنين لن يقبلوا أحدا غيره.[10]

كان هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ عين أبا بكر إماما أثناء مرضه الأخير، في حين أصرت عائشة وحفصة رضي الله عنهما على أن يكون عمر من يؤم الناس في الصلاة. فقال الرسول ﷺ: "إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس". ثم قال: "عندما يكون أبو بكر بين الناس، فلا يصلح أن يؤم الصلاة غيره".[11]

إن ما قاله النبي الكريم ﷺ بناء على فراسته قد تحقق بالحرف، وقد شارك نواياه عن طريق التلميح قبل أن تتحقق فعليا. وفي إحدى المناسبات التي أشار فيها النبي الكريم إلى قدرات عمر رضي الله عنه الروحانية قال: " لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر".[12]

وقال النبي ﷺ: "ما من نبي إلا له نظير من أمتي، وأبو بكر نظير إبراهيم وعمر نظير موسى، وعثمان نظير هارون، وعلي بن أبي طالب نظيري. ومن سره أن ينظر إلى عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر الغفاري".[13]

استراتيجية التبليغ في بدايات الإسلام

إن حياة النبي ﷺ مليئة بالأمثلة على تجلي الله. فكانت أفكاره لامعة وكذلك أفعاله. وبعد إعلان نبوته، كانت أول خطة رئيسة اعتمدها النبي ﷺ هي نقل رسالة الإسلام سرا إلى حكماء وعظماء مكة المكرمة. خلال السنوات الثلاث الأولى تم تنفيذ هذه الخطة حتى أمره الله بالجهر بالدعوة. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: 95). ومن بين عائلات قريش الأربع عشرة، كان من المتوقع أن تكون عائلته، أي بنو هاشم، هي التي تستجيب لدعوته. فعندما أمره الله ﴿وأَنْذِرْ عشيرتك الأقْرَبين﴾ دعاهم النبي ﷺ بذكاء إلى وجبة طعام

فحضر أربعون منهم ولكن بعد الغداء خلق عمه أبو لهب اضطرابا وفرّقهم. لذلك لم يتمكنوا من سماع رسالته، فدعاهم مرة أخرى ونقل الرسالة قبل الطعام، وكان علي رضي الله عنه وحده من آزره. وفي وقت لاحق، كانت استراتيجيته لتبليغ الرسالة إلى قريش ذكية؛ حيث قال لهم: "إذا أخبرتكم أن هناك جيشا خلف هذا التل مستعدا لمهاجمتكم، فهل تصدقونني؟" قال الجميع إنهم سيصدقونه. ثم بلّغهم رسالة الإسلام وحذرهم من عقاب الله. بعد ذلك بدأت عاصفة من المعارضة، فصلى النبي ﷺ مع أصحابه سرا في بطن مكة لفترة طويلة حفظا على سلامتهم.[14]

في أول الأمر، كان بيت عبد الله بن الأرقم رضي الله عنه مركزا لنشر الإسلام سرا، وخلال الأيام الأولى قبِل الطفيل بن عمرو الدوسي وأبو ذر الغفاري الإسلام في السر.[15]

وعندما ازدادت المعارضة، نصح النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة التي قيل عنها: "إنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُظْلَمُ النَّاسُ بِبِلادِهِ"، فهاجر بعض الصحابة.[16]

واجهت العائلات الأضعف كخباب وياسر والإماء والعبيد اضطهادا شديدا، فنصحهم الرسول ﷺ بالدعاء والصبر، وبتشجيع منه اشترى أبو بكر رضي الله عنه بلالا رضي الله عنه وأطلق سراحه. وكان إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما ثمرة الصبر والدعاء والثبات. لقد واجه النبي ﷺ بحكمة حصار شِعْب أبي طالب الاجتماعي والاقتصادي لمدة ثلاث سنوات. ولحمايته، تم تغيير ترتيبات نومه في كل ليلة، وكان أصحاب الخير والأصدقاء يُحضرون الطعام في وسط الليل، وبعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما، زاد الاضطهاد. فذهب النبي الكريم إلى الطائف ليبلّغ قبيلة بني ثَقيف رسالة الإسلام فرفضوه ورسالته بقسوة. وللعودة إلى مكة المكرمة، احتاج إلى حماية بعض الزعماء المؤثرين فكتب إلى رؤساء مكة وطلب حمايتهم حتى يتمكن من مواصلة مهمته. قدَّم اثنان من الرؤساء أعذارا لكونهما ضعفاء لكن المُطعم بن عدي حقق له طلبه، فرافقه هذا القائد الشجاع مع أبنائه وأبناء أخيه إلى مكة المكرمة، واستفسر أبو جهل عما إذا كان قد وفر له الحماية فأكد له أنه فعل. فطاف الرسول ﷺ حول الكعبة وهو في حمايتهم، ولم ينس النبي ﷺ نبل ابن عدي والخدمة التي أسداها له حتى بعد وفاته.[17]

خطط النبي ﷺ للقيام بتبليغ رسالة الإسلام خلال موسم الحج والاجتماعات الشهيرة. فاقترب من القبائل بشكل فردي وطلب الإذن بدعوتهم إلى الإسلام، ونتيجة لهذا التخطيط الممتاز،

استطاع تبليغ قبائل الخزرج والأوس في يثرب وقبل اثنا عشر شخصا منهم الإسلام في بيعة العقبة الأولى. وأرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ممثلا له، فساعد ذلك على انتشار الإسلام، إذ أسلم في العام التالي اثنان وسبعون شخصا. وعُقدت الاجتماعات معهم سرا أثناء الليل. وحذَّر العباس رضي الله عنه أنصار المدينة المنورة من الجواسيس غير المؤمنين.[18]

وعَرضتْ يثرب على النبي ﷺ أن يهاجر إليها مسلمو مكة. فبدأت قوافل المسلمين تصل إلى المدينة المنورة. ورغم أن حياة الرسول ﷺ كانت في خطر شديد، إلا أنه لم يهاجر حتى غادر الجميع مكة باستثناء المرضى والضعفاء والعبيد والإماء والسجناء. طلب أبو بكر رضي الله عنه الإذن بالهجرة، لكن النبي ﷺ بتبصره نصحه بالانتظار وقال: "لعل الله يجد لك صاحبا". ثم بمجرد أن أذن له الله، ذهب إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه وأبلغه الخبر. فقام بترتيبات السفر من دليل وركوب ومؤن. وعندما حل الليل جعل عليا رضي الله عنه ينام في سريره وغادر بيته من المخرج الخلفي بدلاً من الباب الرئيسي، ونفذ من حصار الكافرين ووصل إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه، فبقي عنده إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر، فمضيا إلى غار ثور فدخلاه.[19]

وتمت رحلة الهجرة بدعاء النبي ﷺ وتخطيطه المحكم لمسارهم. كان في مطاردتهم عدد غير قليل من الناس ممن تأملوا الحصول على مكافأة مقابل القبض على النبي ﷺ وقدرها مائة جمل. كان النبي ﷺ من باب الحذر يختار أحيانا السفر على طول شاطئ البحر وفي أحيان أخرى كان يسلك طريقا مختلفا فيذهب يمينا أو يسارا. وبهذه الطريقة لم يُعرف المسار الذي تبعه إلا من شخص واحد تمكن من تتبعه.

الحكمة الكبيرة في ترك عمه العباس رضي الله عنه في مكة المكرمة

لقد نصح النبي ﷺ عمه العباس رضي الله عنه، الذي قبِل الإسلام في الأيام الأولى من الدعوة، بالإسرار بإسلامه والبقاء في مكة بعد رحيله ﷺ. والسبب هو مواصلة أداء واجب بني هاشم المبارك، ألا وهو توفير المياه للحجاج والمحافظة على السلام في قبيلته. وكان واجبه الآخر هو إبقاء الرسول ﷺ على علم بالوضع في مكة المكرمة من خلال إرسال تقرير مكتوب. أما الفائدة الثالثة من إقامته في مكة المكرمة فكانت لمساعدة المسلمين الضعفاء الذين ظلوا في مكة، وكلما طلب

عمه الإذن بالهجرة، أخبره النبي ﷺ أن مكوثه في مكة المكرمة جهاد. وفي وقت لاحق، في معركتي بدر وأُحد، استفاد المسلمون كثيرا من المعلومات التي قدمها لهم.[20]

حصل العديد من المشاكل بعد الهجرة، فابتكر النبي ﷺ بحكمته نظام المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين الذي نظّم أحوال المسلمين. وبالقرعة، خصص عشرة مهاجرين لأسرة أنصارية واحدة. كان هذا عملا حكيما جدا لأنه بذلك عامل الأنصارُ المهاجرين معاملة فاقت حتى معاملة الأشقاء بعضهم البعض.[21]

قام النبي ﷺ بالترتيبات لبناء مسجد للتدريب والتعليم والقراءة والكتابة وعلّم الناس كيفية أداء الصلاة. ثم حول انتباهه إلى تحسين الظروف في المدينة المنورة من خلال إبرامه اتفاقيات مختلفة مع يهود المدينة المنورة والقبائل المحيطة بها. فجعل من المدينة المنورة مكانا آمنا للمسلمين. وما ميثاق المدينة إلا نتاج حكمة النبي ﷺ.

معاهدة المدينة

ضمِنَت بنود المعاهدة المعاملة العادلة والعلاقات الجيدة والسلام وحرية الضمير بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، إذ وضعت أمثلة عملية لهذه المبادئ. في الفترة الأولى من الهجرة كان المسلمون أقلية بينما كانت غالبية سكان المدينة المنورة من اليهود وغير المؤمنين، وكان هناك منافقون أيضا. فاستحال في مثل هذه الظروف إقامة حكم إسلامي. لكن إبرام هذه المعاهدة الرائعة التي لم تكن تهدف إلى اكتساب السلطة ولكن إلى إحلال السلام في غضون ثلاثة أشهر كان انتصارا لحكمة النبي ﷺ وبصيرته.

لم تعانِ الأقلية المسلمة في مكة المكرمة فحسب، بل واجهت الأخطار أيضا في المدينة على يد غير المسلمين واليهود وغير المؤمنين. وبفضل تخطيطه البارع وحكمته الكبيرة وجد النبي ﷺ حلا لذلك، وهو معاهدة المدينة. وحتى قبل هذه المعاهدة، كان قد عيّن اثني عشر ممثلا من العائلات المسلمة التي اعتنقت الإسلام حديثا من قبيلتي الأوس والخزرج وآخى بينهم وبين المهاجرين. وقد ناقش الباحث الشهير الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي معاهدة المدينة في كتابه "أول دستور مكتوب في العالم". وأفضل جانب من جوانب المعاهدة هو الحقوق التي تمت حمايتها للمرة الأولى. لم تُنْهِ هذه المعاهدة المعارك المدمرة للحياة الاجتماعية بين القبائل

المتحاربة في المدينة المنورة فحسب، بل وجعلت اليهود وغير المؤمنين والقبائل الأخرى حلفاء يؤازرون بعضهم البعض ضد العدو. ولم تكن القبائل الرئيسة مثل بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة وحدها أطرافا في هذه المعاهدة، بل احتوت هذه الوثيقة التاريخية على أسماء جميع القبائل الفرعية أيضا. وكانت الشروط الرئيسة لمعاهدة المدينة كالتالي:

1- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.

2- هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

3- إن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.

4- إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعةَ ظُلمٍ أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.

5- لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

6- إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

7- ذمة الله واحدة، يُجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس. لا يحل لمؤمن أقرّ بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثا أو أن يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

9- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.

10- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته.

11- إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

12- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.

13- من خرج من المدينة فهو آمنٌ ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.

14- إن الله على أصدقِ ما في الصحيفة وأبرِّه، وإن الله جار لمن برّ واتقى.[22]

إن الوحدة كما يبين الشرط الأول كانت أهم نقطة، فالإسلام يقوم على الوحدة. فكان الهدف عمليا هو جعل المسلمين والجماعات الأخرى وحدة موحدة متساوية في الحقوق الاجتماعية. وبذلك اختفى كل اختلاف. وأساس الوحدة هذه ضروري لبناء مجتمع قوي وسلمي وتقي.

ينص الشرطان الثاني والثالث بوضوح على نظام إقامة السلام وقوانين الدية والدعم المتبادل. فقد تأسس بهذه المعاهدة مجتمع سلمي في المدينة المنورة.

وضَمِن الشرط الرابع والخامس والسادس العدالة والمساواة، وهما ركيزتان مهمتان للمجتمع الإسلامي.

وأحد الشروط هو أنه إذا أجار رجل أو امرأة أحدًا، فإن على الجميع احترام ذلك.

وتكفل الشروط الأخرى الأخوّة والمعاملة الطيبة مع الجيران غير المسلمين، والسعي لرفع الظلم والحفاظ على احترام بعضهم لبعض.

فباختصار، وبموجب هذه المعاهدة، ضُمنت حقوق الإنسان دون تمييز لعرق أو دين أو لون أو جنس، ودون تحيز لأي مواطن في هذه الدولة في الحفاظ على حياته أو ممتلكاته أو شرفه.

تكشف دراسة أعمق لميثاق المدينة عن المزيد من المبادئ. وإن شروطها تتعامل بوضوح مع جميع الشئون المحلية والخارجية. فإعلان السلام، وفض النزاعات، وإنشاء المحاكم، ودفع الدية ونفقات الحروب، وإقامة نظام اقتصادي، وحرية الدين، كل هذه المسائل مذكورة بوضوح. في الشئون الخارجية، كان الدفاع المشترك ضد العدو الخارجي مسئولية جميع قبائل المدينة المنورة. بدون جبهة موحدة لا يمكن أن تقوم دولة. إن معاهدة المدينة والاتفاقيات الأخرى مع القبائل المحيطة بالمدينة جعلت منها حصنا لا يقهر رغم اختلاف وتعدد القبائل والأديان والأعراق فيها. وتحقق ذلك بفضل الأقلية المسلمة دون أي اعتبار للقبيلة أو العرق أو اللون، ونتيجة لهذه المعاهدة، تمكن المسلمون الضعفاء من الدفاع عن دولتهم عندما غزتهم جيوش مكة.

ومن خلال العمل بحزم على تطبيق هذه المبادئ، تأسست أول دولة إسلامية على أسس متينة ثم انتشرت بسرعة إلى الشرق والغرب. وأصبحت رمزا لعظمة الإنسانية وللتقدم، فقدمت للعالم أمثلة رائعة في الحضارة والثقافة. وباختصار، فإن معاهدة المدينة أقامت السلام والعدالة والحرية الدينية. وقد أظهرت هذه الوثيقة الهامة حكمة النبي ﷺ العظيمة.

وتظهر الاتفاقات الحديثة المبرمة اليوم باهتة أمامها. أنشأ الملك جون الذي حكم الإمبراطورية البريطانية في عام 1215م، وثيقة تسمى "ماغنا كارتا" لحماية حقوق الإنسان الأساسية، ثم جاء في عام 1689 "قانون الحقوق"، وفي عام 1700 "قانون التسوية" الذي أعطى المزارعين والعمال حقوقا اقتصادية، وفي عام 1911 "قانون البرلمان"، كل تلك الوثائق جاءت بعد زمن طويل من معاهدة المدينة التي شملت منذ قرون جميع هذه الحقوق. عند مقارنة المؤتمر الدستوري، الذي أعدته الولايات المتحدة الأميركية- الحاملة للواء الحضارة الحديثة وميثاق الأمم المتحدة- بمعاهدة المدينة، نرى بوضوح عظمة معاهدة المدينة وتفَوُّقها من حيث الجودة. ويصبح هذا التفوق أكثر وضوحا عندما نأخذ بعين الاعتبار زمان وحضارة الجزيرة العربية في ذلك الوقت. فعلى سبيل المثال، ورد في إعلان ميثاق الأمم المتحدة المؤرخ في السادس والعشرين من حزيران/يونيو 1945 ما يلي: "إن تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحقوق الإنسان العالمية يتطلب شركة دولية من أجل تحقيق التنمية والتقدم في مجال حقوق الإنسان بغض النظر عن العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين".

هناك أيضا في هذا الميثاق ذكر للمساواة بين البشر، والسلام، وحرية المعتقد، والتنمية الصحية. وفي 10 كانون الأول/ديسمبر 1948 أُقِر هذا كميثاق عالمي للأمم المتحدة. ويدرك الجميع أنه ليس اتفاقا، بل هو مجرد إعلان غير ملزِم لجميع الدول. وبهذه الطريقة تكون معاهدة المدينة بمثابة منارة للأمم المتحدة. وعلى الحكومات الإسلامية أن تلتزم بمعاهدة المدينة وبميثاق الأمم المتحدة أيضا. الفرق الآخر بين الاثنين هو أن جميع الأطراف وخاصة المسلمين التزموا بمعاهدة المدينة بينما تجنبت بعض الدول التوقيع على ميثاق الأمم المتحدة. وفي معاهدة المدينة، يمكن للمرأة أن تجير شخصا ما، مثلها مثل الرجل. أما في أميركا فما مُنحت المرأة حق التصويت إلا بالتعديل التاسع والعشرين. ومن عام 1824م إلى عام 1900 حافظت المحكمة

العليا على حق الرجال القانوني في ضرب النساء. وبالمثل، قضت هذه المحكمة بأنه وفقا للتعديل الرابع عشر، لا ينطبق الحكم المتعلق بالمساواة في الحقوق على النساء ولا يمكن للمرأة أن تتمتع بحقوق متساوية مع الرجل.[23]

عندما ندرس شخصية النبي ﷺ في ضوء معاهدة المدينة، يتبين لنا بوضوح أنه كان دائما يحترم التزاماته ويفي بها رغم التقصير الدائم من قبل اليهود. وإنه أقر بأمور لصالح اليهود ومنحهم الحرية الدينية الكاملة. فكان لديهم مدرستهم الدينية، بيت المِدراس، وهو معهد لتدريب علماء الدين. واعتاد النبي ﷺ أن يذهب إليه ويناقش معهم المسائل الدينية. كانت الوفود اليهودية تأتي وتطرح الأسئلة في المسجد النبوي. وكان هذا الجو السلمي نتيجة لمعاهدة المدينة. وكان الأمر كذلك بشأن إقامة العدل والبت في المسائل القانونية. ذات يوم اشتكى يهودي إلى رسول الله ﷺ عبدَ الله بن أبي حدرد الأسلمي الذي كان من صحابة النبي ﷺ وكان مدينا لليهودي بأربعة دراهم، فأمر ﷺ صاحبه أن يعطي اليهودي حقه. فقال له عبد الله أنه لا يقدر على ذلك. كانت المحاكم اليوم ستعلن إفلاسه وتعذره من الدفع، لكن ما رآه الرسول ﷺ هو ضرورة ألا يشوب المسلمَ نقضٌ للعهد. فقال له أن يدفع ما عليه على الفور. فهرع عبد الله إلى السوق وخلع عمامته واتزر بها وباع بردته بأربعة دراهم وسدد دينه.[24]

ذات مرة، كان يهودي يبيع سلعا في السوق، فقال: "والذي اصطفى موسى على البشر" فغضب مسلم من قوله وقام فلطمه وقال: "تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟" فاشتكى اليهودي إلى الرسول ﷺ قائلا: "يا أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدا فما بال فلان لطم وجهي؟". فاستاء النبي ﷺ فقال للمسلم: "لا تفضلوا بين أنبياء الله". ومع أنه كان أفضل الأنبياء، إلا أنه ضحى بمنزلته من أجل السلام.[25]

كان الالتزام بشروط المعاهدة أمرا مهما، إلا أن النبي الكريم ﷺ كان يحترم حتى موتى اليهود فيقف عند مرور جنازاتهم. فأخبره الصحابة أنها جنازة يهودي. فأجاب النبي ﷺ: "أليست نفسا؟"[26]

من ناحية أخرى، خلق اليهود أسبابا عديدة لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين. لكنه كان دائما يعفو عنهم. ولكنهم بسبب تمردهم المستمر والتقصير في التزامهم بالمعاهدة وتخطيطهم للقتل نفاهم

من المدينة المنورة. لم يكن لدى أي يهودي على الإطلاق سبب لاتهام الرسول ﷺ بالإخلال بالعهود.

وقد كتب ر. أ. نيكلسون عن هذا الوصي على حقوق الإنسان والضامن للسلام ﷺ أن: "هذه الوثيقة الدستورية هي انعكاس لرؤيته السياسية. وقد أدى ذلك إلى إنشاء أمة نموذجية سعى جاهدا إلى تشكيلها. كانت قائمة على الدين ولكن تشكيلها تطلب رؤية عملية. ووفقا لهذه الوثيقة فإن أعظم مكانة كانت مكانة الله ومحمد، فعُرضت أمامهما جميع شئون الأمة التي شملت اليهود وغير المسلمين". [27]

الاتفاقيات المبرمة مع قبائل البادية

بعد تسوية الشئون الداخلية للمدينة المنورة بموجب معاهدة المدينة، حول النبي ﷺ انتباهه إلى القبائل التي تعيش خارج المدينة. فاتصل بادئ ذي بدء بالقبائل التي تعيش على الطريق الذي استخدمته قريش للسفر في قوافل تجارية إلى مصر وسورية. ونجح في ضمان الدفاع المشترك في حال حدوث غزو أجنبي. مما أمن حرية حركة كتائب المسلمين للتجول وتلمّس الأخبار. بينما لم يتمتع غير المسلمين بمثل هذه الوسائل، ومن أبرز القبائل المشاركة جُهَينة ومُزَينة وغِفار والتي كانت تعيش في الجنوب الغربي بالقرب من الساحل. فالمدينة المنورة كانت بالنسبة لهم مركزا تجاريا. ولهذا ما كان منهم إلا أن انضموا إلى الاتفاقيات. وكان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قد اعتنق الإسلام وبعد الهجرة أسلمت نصف قبيلته. [28]

وبعد وقت قصير من الوصول إلى المدينة المنورة، ترأس عقبة بن عامر وفدا إلى قبيلة جهينة الكبيرة فقبلت الإسلام. وعقد الرسول ﷺ اتفاقيات مكتوبة مع القبائل المتفرعة منها وهي بنو زرعة وبنو ربيعة. وبهذه المعاهدة كانت حياتهم وممتلكاتهم آمنة لأن المسلمين سيدافعون عنهم ضد أي عدوان. وبالمثل، انضمت بنو شَنْخ وبنو الجُرْمُز وبنو الحُرَقة إلى المعاهدة. [29]

وفي العام الخامس للهجرة جاء إلى المدينة المنورة وفد من أربعمائة شخص من قبيلة مُزَينة. كان المسلمون الجدد في تلك الفترة يرغبون بأن يستفيدوا من صُحبَة الرسول ﷺ ويتبرّكوا بالمدينة المنورة. وهذا ما جلب وفدا من قبيلة مزينة إلى المدينة المنورة. وبحكمة عظيمة، نصحهم النبي

ﷺ قائلا: "أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم". فعملوا بنصيحته وكانت النتيجة إنشاء قاعدة دفاعية قوية للمسلمين.[30]

وبالمثل أصبح بنو حنيفة حليفا بارزا للمسلمين بعد أن أسلم زعيمهم. ولإخضاع قبائل الشمال، أرسل الرسول ﷺ حملات إلى دومة الجندل ومؤتة، وممثلين إلى حاكم البصرة والملك غسان وأقام علاقات جيدة معهما. وأُبرمت اتفاقات منفصلة مع قبائل فزارة وآيلة وعَزرة التي انحازت إلى الشمال. وبالوساطة بين القبائل المتحاربة، جعلها الرسول ﷺ حليفا للمسلمين. وإذا لم يوافقوا على الوساطة، اتصل بأحد الأطراف لينشئ معهم صداقة. وبالمثل فإن وجود قبيلة خُزاعة في ضواحي مكة المكرمة عاد بالفائدة على المسلمين. وفي فترة قصيرة جعلت الاتفاقيات الودية المبرمة مع القبائل المجاورة من المدينة المنورة مكانا آمنا. ويرجع كل ذلك لحصافة النبي ﷺ.

فهم مزاج القبائل العربية والتواصل معهم بحصافة

في السنة التاسعة للهجرة بدأ مندوبو القبائل المحيطة بالمدينة المنورة بالوصول إليها. كان الرسول ﷺ يتحدث معهم بلهجتهم ويعاملهم بلطف ووفقا لثقافتهم وكان يقدم لهم الهدايا. ومعظمهم قبلوا الإسلام قبل أن يعودوا إلى مناطقهم. وقد تحدث الرسول ﷺ مع بني نهد ببلاغة أدهشت الصحابة. وإن معاملته لمختلف القبائل والأفراد وفقا لأساليب حياتهم الخاصة وبِطِيبة لهوَ دليل على حكمته ﷺ وبصيرته. لا شك أنه كان قد قام برحلات تجارية إلى اليمن وسورية قبل دعوته، فعززت هذه الرحلات ووسعت رؤيته. كان تفهمه العميق يرجع إلى معرفته بمزاج هذه القبائل وسماتها الخاصة. وذات مرة بينما كان يتحدث إلى زعيم عربي عن القبائل المختلفة قال: "خَيْرُ الرِّجَالِ رِجَالُ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَالْإِيمَانُ يَمَانٍ إِلَى لَخْمٍ وَجُذَامَ وَعَامِلَةَ، وَمَأْكُولُ حِمْيَرَ خَيْرٌ مِنْ آكِلِهَا، وَحَضْرَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ، وَقَبِيلَةٌ خَيْرٌ مِنْ قَبِيلَةٍ، وَقَبِيلَةٌ شَرٌّ مِنْ قَبِيلَةٍ، وَاللهِ مَا أُبَالِي أَنْ يَهْلِكَ الْحَارِثَانِ كِلَاهُمَا، لَعَنَ اللهُ الْمُلُوكَ الْأَرْبَعَةَ: جَمَدَاءَ، وَمِخْوَسَاءَ، وَمِشْرَحَاءَ، وَأَبْضَعَةَ، وَأُخْتَهُمُ الْعَمَرَّدَةَ. عُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ، غَيْرَ قَيْسٍ وَجَعْدَةَ وَعُصَيَّةَ... لَأَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَأَخْلَاطُهُمْ مِنْ جُهَيْنَةَ خَيْرٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَتَمِيمٍ وَغَطَفَانَ وَهَوَازِنَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. شَرُّ قَبِيلَتَيْنِ فِي الْعَرَبِ نَجْرَانُ وَبَنُو تَغْلِبَ، وَأَكْثَرُ الْقَبَائِلِ فِي الْجَنَّةِ مَذْحِجٌ وَمَأْكُولُ".[31]

عندما جاء وفد من قبيلة عبد القيس من اليمن قال النبي ﷺ عند رؤية قائدهم عبد الله بن عوف الأشجّ: "إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة". ثم قَالَ ﷺ لوفد عبد القيس «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الإِيمَانِ بِاللَّهِ –ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ فَقَالَ– شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُقَيَّرِ».

فقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا عِلْمُكَ بِالنَّقِيرِ؟ قَالَ «بَلَى، جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ الْقُطَيْعَاءِ –قَالَ سَعِيدٌ: أَوْ قَالَ مِنَ التَّمْرِ– ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ –أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ– لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ».[32]

هؤلاء أخبروا الرسول ﷺ أن مناخهم مختلف تماما، وإذا لم يتناولوا هذا الشراب، فإن بطونهم تنتفخ، فطلبوا منه أن يرخّص لهم شرب بعض منه. فأومأ بكفَّيه وقال لو رخصت لكم هذا القدر لأردتم أن تشربوا أكثر، وفرّج يديه وبسطها.[33]

وقال أيضا: "إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر ساقه بالسيف". فضحك الناس، فسأل النبي ﷺ عن سبب ضحكهم، فأخبروه أن هذا قد حدث بالضبط، فبينما كانوا يشربون النبيذ قام بعضهم إلى بعض بالسيوف، فأصيب شخص في ساقه فأصبح أعرج.[34]

ثم جعلهم الرسول ﷺ يحصون أنواع التمور المختلفة الموجودة في منطقتهم. وأخبرهم عن علاج لمناخهم القاسي وأن أفضل تمر يتناولونه هو البرني، فهو يذهب بالداء ولا داء معه. وعندما غادروا أعطاهم النبي ﷺ أغصانا من شجرة البيلو أو السواك لتنظيف أسنانهم. وقد أحبوها كثيرا فأخذوا يستخدمونها.[35]

وجاء وفد من بني تميم. ومع أن الرسول ﷺ لم يعجبه كبرياؤهم وغطرستهم إلا أنه اعتنى بهم لكونهم حلّوا ضيوفا عنده. وكان من بينهم زعيمهم قيس بن عاصم الذي كان مشهورا بلطفه، وقد عرف الرسول ﷺ أنه قائدهم.[36]

كان هؤلاء مولعين بالبلاغة فيتنافسون في الشعر والأمجاد. وبدون اعتبار للنبي ﷺ، بدأوا يتفاخرون بقبيلتهم ويسردون أمجادهم. فتركهم يفعلون ثم طلب من خطيبه أن يجيب. فأعجب قادتهم بخطابه وقبلوا الإسلام. وقدم لهم الرسول ﷺ الهدايا.[37]

وجاء وفد قبيلة طيء تحت قيادة زعيمهم "زيد الخيل" الذي كان شاعرا وخطيبا فصيحا. كانت هذه القبيلة مشهورة بخيولها الاستثنائية. ودعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلموا. وبعد هذا اللقاء، قال النبي ﷺ عن زيد رضي الله عنه: "ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل".[38]

وعندما جاء وفد بني ثقيف من الطائف سعد المسلمون جدا. والسبب في ذلك هو أن ملاك الجبال سأل النبي ﷺ بعد زيارته للطائف إن كان يرغب بدمار سكان تلك المدينة. وببصيرة ثاقبة طلب منه ألا يدمرها، لأنه كان يأمل أن يخرج من نسلهم موحدون ومؤمنون بالله.[39]

بعد فتح مكة المكرمة، تحصن أهل الطائف في قلعة، فرفع الرسول ﷺ الحصار وعاد. والآن تحقق أمله عندما جاء وفدهم لمقابلته. فأمر بإقامة خيمة لهم إلى جانب المسجد النبوي. كانت الحكمة من ذلك أن يستمعوا إلى القرآن الكريم ويروا المسلمين وهم يصلون. لكن اعترض بعض الصحابة لأن هؤلاء كانوا مشركين ونجسا فلا ينبغي السماح لهم بالبقاء في المسجد. فأجابهم النبي ﷺ قائلا: "ليس على الأرض من أنجاس الناس شيء إنما أنجاس الناس على أنفسهم"، وأن السماح لهم بالبقاء في المسجد هو وسيلة لإصلاحهم وتدريبهم.[40]

حكمة الرسول ﷺ في إجاباته

تظهر حكمة وذكاء الرسول ﷺ بوضوح في اجتماعاته، التي اعتاد على حضورها أشخاص من مختلف الطبائع ليسألوا عن مشاكلهم وحاجاتهم فيشير عليهم الرسول ﷺ بما يناسبهم. ذات مرة أتاه رجلٌ فقال: "يا رسول الله وُلد لي غلام أسود". إذ كان من غير المقبول بالنسبة له أن ينجب زوجان من البيض مثل هذا الطفل. فهدّأ الرسول ﷺ من روعه بحكمة استثنائية وبصيرة مذهلة وسأله: "هل لك من إبل؟" قال نعم. فما لونها، قال إنها حمراء. فسأله إن كان من بينها أي جمل أوْرَق. قال نعم. فسأله النبي كيف يأتي هذا الجمل البُنيّ من تلك الحمراء؟ قال الرجل: " لعله نزعةُ عرق"، أي أن هذا ربما آتٍ من أجيال سابقة. فقال له الرسول ﷺ: "فلعل ابنك هذا نزعة"، أي لعل ابنك قد ورث بشرة أحد أسلافك.[41]

وهكذا فإن النبي ﷺ قد ذكر قبل ألف وخمسمائة عام مبدأ التكاثر هذا وأقنع الرجل السائل.

ذات مرة سأل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ: "أي العمل أحب إلى الله؟" فقال: "الصلاة على وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله".[42]

وفي مناسبة أخرى قال الرسول ﷺ أن قصد العمل والمداومة عليه هو الأحب إلى الله.[43]

وردّ ﷺ على السؤال التالي بحكمة وبصيرة كبيرتين فأعطى إجابة أخذت بعين الاعتبار صفات وسمات الحضور. فعن ابن عمر أن شخصا سأل الرسول أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: "أنفعهم للناس، قيل: فأي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: سرور تدخله على مسلم".[44]

وطلب شخص آخر الإذن للذهاب إلى الجهاد. فسأله النبي ﷺ إن كان والداه على قيد الحياة. فأجاب نعم. فقال له: " ففيهما فجاهد"، أي أنه بخدمة أبويه يُكتب له أجر الجهاد في سبيل الله.[45]

وطلب شخص آخر كان سريع الغضب نصيحة من الرسول ﷺ فأمره بألا يغضب. فسأله مرة أخرى فنصحه مجددا بألا يغضب.[46]

كان أبو ذر رضي الله عنه يفضّل العزلة. وطلب النصح من الرسول ﷺ فنصحه أن يكون أكثر اجتماعية، فيعامل الناس بالحسنى ويُتبع السيئة بالحسنة وأن يكثر من ماء الحساء عندما يطبخ فيعطي منه المحتاجين من الجيران.[47]

أما فيما يخص صلوات النفل، فقد اعتاد الرسول ﷺ أن يؤديها في الجزء الأخير من الليل، فكان يصلي إحدى عشرة ركعة بما فيها الشفع والوِتر. وعندما سمع أن عمر رضي الله عنه كذلك يصلي الوتر في آخر الليل قال: "قَوِيَ هذا". وعندما سمع أن أبا بكر رضي الله عنه كان يصلي الوتر قبل الذهاب إلى النوم قال: "حَذِرَ هذا". ولقد أوصى الرسول ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه بصلاة الوتر قبل النوم.[48]

عندما نزلت أوائل آيات سورة الجمعة التي تذْكر جماعة ستأتي في آخر الزمان ("وآخَرين منهم") وبعثة رجل من أمّته ﷺ ليعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وأن أهل تلك الجماعة لم يلتقوا بالصحابة، سأله شخص: مَن هؤلاء؟ فلم يرد الرسول ﷺ. وبعد أن سأله ثلاث مرات وضع الرسول ﷺ يده على كتف سلمان الفارسي وقال: "لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رَجُلٌ أو رِجَالٌ مِنْ هَؤُلاءِ".[49]

هذه هي فراسة رسول ﷺ العظيمة إذ أجاب على ذلك السؤال الهام بطريقة لا حاجة بعدها للمزيد من التوضيح.

فأولاً، تحدث عن الفترة الزمنية التي سيرفع فيها الإيمان إلى الثريا، وهو الوقت المحدد للبعثة الثانية.

وثانيا، أخبرهم أنه لن يأتي هو شخصيا، بل رجل من أمة سلمان رضي الله عنه وسيكون خادما مطيعا للإسلام.

وثالثا، قال لهم إن خادم الإسلام هذا سيرسي الإيمان في العالم.

وفي مناسبة أخرى قال الرسول ﷺ إن أمته ستنقسم إلى ثلاث وسبعين مِلّة كما انقسمت بنو إسرائيل إلى اثنتين وسبعين ملة. وأن جميعها في النار باستثناء ملة واحدة. وعندما سُئل عن هذه الملة، أجاب: "ما أنا عليه وأصحابي".[50]

هذه هي ملة الآخرين التي شعر النبي ﷺ بنفَحها، وعندما نزل عليه الوحي ذكر صفاتهم الحسنة بمحبة جمة. يروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ زار يوما مقبرة البقيع وألقى السلام على أهلها. وبعد الدعاء للصحابة المتوفين، تذكّر جماعة آخر الزمان بمحبة وحماس وأخوة فقال: "وَدِدْتُ أنّا قد رأينا إخواننا" فسأله الصحابة: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟" قال: "أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد". فسألوه كيف يعرف من لم يأت بعد. فأجاب: لو رأيتم حصانا أبيض الأقدام والجبين، ألا تتعرفون عليه من بين الخيول السوداء؟ فقال الصحابة: نعم. فقال: "فإنهم يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِين من أثر الوضوء وأنا فَرَطُهم على الحوض" (أي وأنا سابقهم على حوض الكوثر).[51]

وباختصار ذكر عليه الصلاة والسلام صفات هذه الجماعة بمحبة كبيرة. وحدث أن سأله الصحابة إن كان هناك من هم خير منهم وهم الذين أسلموا وجاهدوا معه فقال: "نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني".[52]

اللهم اجعلنا ممن تتحقق فيهم بشرى سيدنا المصطفى ﷺ وأن نستقي من حكمته وبصيرته. آمين

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

المراجع والمصادر

[1] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 473، طبعة بيروت.

[2] البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية؛ الجزء 1، حاشيه ص195.

[3] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الحجر.

[4] مجمع الزوائد للهيثمي؛ الجزء 10، ص 473، طبعة بيروت.

[5] سنن الترمذي؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة.

[6] صحيح مسلم؛ كتاب الزكاة، باب الْمِسْكِينِ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ.

[7] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 25، طبعة القاهرة.

[8] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل.

[10] صحيح البخاري؛ كتاب الأحكام، باب الإستخلاف.

[11] سنن الترمذي؛ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

[12] صحيح البخاري؛ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[13] كنز العمال الجزء 11، ص 757، طبعة مصر.

[14] سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 275، طبعة بيروت. الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي ؛ الجزء 1، ص 137، طبعة بيروت.

[15] المستدرك على الصحيحين للحاكم؛ الجزء 3، ص 574، طبعة بيروت.

[16] الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي ؛ الجزء 1، ص 149، طبعة بيروت.

[17] تاريخ الطبري؛ الجزء 1، ص 555، طبعة بيروت.

[18] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 220 ، طبعة بيروت.

[19] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 229 و 227، طبعة بيروت. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 485، طبعة بيروت.

[20] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 4، ص 18، طبعة بيروت. المغازي للواقدي؛ الجزء 1، ص 204. سيرة ابن هشام؛ الجزء 2، ص 346، طبعة بيروت.

[21] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 6، طبعة القاهرة.

[22] فقه السيرة النبوية لمحمّد سَعيد رَمضان البوطي؛ ص 151، طبعة دمشق. سيرة ابن هشام؛ الجزء 1، ص 501-503، طبعة بيروت.

[23] In Conflict and Order; D.Stanley Eitzen.

[24] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 423، طبعة القاهرة.

[25] صحيح البخاري؛ كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

[26] صحيح البخاري؛ كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي.

[27] A literary History of the Arabs; Reynold A. Nicholson, p 173. New York 1907.

[28] صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

[29] الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 270 و 272، طبعة بيروت.

[30] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 445، طبعة القاهرة. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 291، طبعة بيروت.

[31] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 4، ص 387، طبعة القاهرة.

[32] صحيح مسلم؛ كتاب الايمان، باب الأَمْرِ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ. الطبقات الكبرى لابن سعد؛ الجزء 1، ص 314 و 315، طبعة بيروت.

[33] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 432، طبعة القاهرة.

[34] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 432، طبعة القاهرة.

[35] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 82، طبعة بيروت.

[36] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 71، طبعة بيروت.

[37] أُسْد الغابة؛ الجزء 1، ص 67، طبعة بيروت.

[38] السيرة الحلبية؛ الجزء 3، ص 86 و 87، طبعة بيروت.

[39] صحيح البخاري؛ كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى.

[40] أحكام القرآن للجصاص؛ الجزء 4، ص 279، طبعة بيروت.

[41] صحيح البخاري؛ كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد.

[42] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب البر والصلة.

[43] صحيح البخاري؛ كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

[44] كنز العمال؛ الجزء 6، ص 433 و 595، طبعة بيروت.

[45] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب لا يجاهد إلا بإذن الأبوين.

[46] صحيح البخاري؛ كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

[47] سنن الترمذي؛ كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرة الناس. صحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والأدب، باب الْوَصِيَّةِ بِالْجَارِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ.

[48] صحيح البخاري؛ كتاب الوتر، باب ساعات الوتر. كنز العمال؛ الجزء 8، ص 70، طبعة مصر.

[49] صحيح البخاري؛ كتاب التفسير، باب قوله ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾. صحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فَضْلِ فَارِسَ.

[50] سنن الترمذي؛ كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب افتراق هذه الأمة.

[51] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 300، طبعة القاهرة.

[52] مسند الدارمي؛ الجزء 2، ص300، طبعة بيروت.

النبي الأعظم والأنجح ﷺ

بلــــغ العُلــــى بكمالــــهِ كشــــف الــــدُجى بجمالــــهِ
حسُــــنتْ جميــــع خصــــالهِ صــــلّوا عليــــه وآلــــهِ

لقد ألف الشيخ سعدي هذه الرباعية المعروفة بعد النبي ﷺ بمدة من الزمن، ولكنه فاق في مدحه رسول الله ﷺ الكثير ممن سبقوه، وقد بيّن في هذه الأبيات أن النبي ﷺ بما ناله من كمال من الله تعالى قد بلغ أعلى درجات كمال القيم الإنسانية، وقد بدد نور جماله المادي والروحاني كافة أنواع الظلمات. إن مسلكه وعاداته ومواهبه اتسمت كلها بالفضل والطهر والتهذيب؛ صلوا عليه وعلى آله.

عظمة محمد ﷺ

لقد احتُفِيَ بعظمة محمد ﷺ في زمن كان آدم عليه السلام لا يزال قيد التخلق. لقد كان محمد ﷺ الغاية من خلق الكون، وتاج الأنبياء كلهم، وكلهم تغنوا بحمده.

قال المسيح الموعود عليه السلام:

ويحمدك اللّه الوحيــــد وجنــــدُهُ ويُثــني عليــك الصبحُ إذ هــو يَجشُــرُ
مــــدحتُ إمــــامَ الأنبيــــاء وإنــــهُ لأرفَــعُ مِــن مــدحي وأعلــى وأكــبرُ
دَعُــــوا كــــلَّ فخــــر للنــــبي محمّــــدٍ أمامَ جلالـةِ شــــأنه الشمسُ أحقَرُ•

لقد دعا إبراهيم عليه السلام من أجل ظهور هذا الإنسان المبارك، وقد بشّر موسى عليه السلام برسول مثله وقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران (التثنية؛ 33: 2). وقد أنبأ سليمان عليه السلام نبأً سارًّا عن حبيبه بأنه أبيض وأحمر، ممتاز في عشرة آلاف[1]، وقد ذكر أيضا اسمه وفق النسخة العبرانية؛ מַחֲמַדִּים (مَحَمَدِيم).[2] أي محمد ذو العظمة الذي هو محبوب

• حمامة البشرى؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص 206 - 207.

جدا، وسيكون محمودا. وقد ذكر إشعياء عليه السلام بشارة عن "أمير السلام الأبدي" (إشعياء؛ 6:9). وقد تنبأ النبي دانيال عليه السلام عن مملكة هذا النبي الربانية الأبدية (دانيال؛ 3:4). وقد بشر عيسى المسيح عليه السلام برسول يأتي من بعده وهو "الروح الحق" (يوحنا؛ 16:7-14)، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: 7).

باختصار، كان الكون كله منذ الأزل يبحث عن سبب خلقه هذا توقًا لإجلاله. وكان الليل والنهار يتناوبان في الكون انتظارًا لقدومه، وكانت الأمم تواقة لرؤية ظهوره. فظهر هذا الشخص الكريم المبارك في جزيرة العرب، وارتجت قصور قيصر وكسرى وأنشدت السماوات: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَه يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 57). وقد كان هو مقصِد القول: "لولاك لما خلقت الأفلاك".[3]

لقد كان هو التحقق المبارك لرؤيا السيدة آمنة بأنها ستلد ذلك النور للعالم وسينتشر في كافة الاتجاهات فيرى العالم مشهد ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر: 70). وبتوجيه رباني أسمته السيدة آمنة محمدا. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه قال: لما ولد النبي ﷺ عق عنه بكبش عبد المطلب وسماه محمدا، فقيل له: يا أبا الحارث! ما حملك على أن سميته محمدا ولم تسمه باسم آبائه؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء ويحمده الناس في الأرض.[4] لقد أمرت الملائكة أن تملأ السموات بالحمد من أجل هذا الشخص العظيم وأن تنشر ذكره في الأرض. وعباد الله يصلون عليه ويسلمون. وقال جل شأنه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: 5).

ومقصد كل ذلك أنه ذروة العظمة والشرف. والحقيقة أن عدد الصلوات على محمد ﷺ لا يعد ولا يحصى، وذكره وحمده لا نظير له.

المقام المحمود

لقد ذكر في القرآن الكريم بلوغه المقام المحمود، وهو مقام رفيع تغبطه عليه كافة الأجيال السابقة واللاحقة، وسيتجلى ذلك في يوم القيامة بكون النبي ﷺ مرتديًا ثوبا أخضر، محمدلاً، ثم يؤذن له بالشفاعة فيشفع لأمته.[5] هذه الدرجة الرفيعة ليست مقصورة على الحياة الآخرة؛ إذ لم يبلغ أحد، حتى في هذه الدنيا، درجة أعلى من التي بلغها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريل عليه السلام: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها، فلم أجد أحدا أفضل من محمد.[6]

وعن أبي نضرة بن سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر."[7]

لقد أطلق عليه قومه، متأثرين بصدقه وأمانته، لقب الصادق الأمين وقد شهدوا جميعا على ذلك عند الصفا، وما عرفوا عنه إلا الصدق.[8] لا شك أنه كان نبيل الصفات وكريم الأخلاق ولذلك وصفه القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم.

لقد ذكرنا شهادة زوجته خديجة رضي الله عنها وكذلك أعدائه في أخلاقه العالية، وكلهم يشهدون على سمو أخلاقه، وشهد عمه أبو طالب الذي عاش معه منذ طفولته حتى شبابه قائلًا:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأراملِ[9]

أي: لو استسقينا بصباحة وجه محمد لهطل المطر، إنه سند الأرامل وراعي اليتامى.

وقد شهد عدو رسول الله ﷺ أبو سفيان على سموّ أخلاقه ﷺ وصدقه وأمانته.[10]

وقال ابن عم رسول الله ﷺ جعفر الطيار لملك الحبشة بأن الله قد بعث فينا من جربنا صدقه وأمانته وإخلاصه.[11]

لقد كتب مشاهير العالم من أمم مختلفة سيرة رسول الله ﷺ بلغات مختلفة، وناقشوا فيها أحداث حياته ولا يزال الأمر جاريا، ويمكن الحكم على صدق رسول الله ﷺ من كتابات هؤلاء الكُتَّاب غير المتحيزين.

1. إدوارد جيبون (ت1794) Edward Gibbon:

جيبون هو أحد أعظم المؤرخين الذين أنجبهم العالم؛ وقد كتب: "تكمن في عبقرية النبي العربي، ومسلك أمته، وجوهر دينه أسباب أفول وسقوط إمبراطورية الشرق. وتشخص أبصارنا بدهشة أمام إحدى أبرز الثورات التي تركت بصمة جديدة دائمة في أمم العالم. كان حديد الذاكرة، لين الطبع واجتماعيا، وسامي الخيال وذا حُكم واضح وسريع وجازم. تمتع بالشجاعة قولا وفعلا... إن عقيدة محمد خالية من الشك والغموض، والقرآن الكريم شهادة عظيمة على

وحدانية الله. لقد نبذ نبي مكة عبادة الأصنام والإنسان والنجوم والكواكب انطلاقا من مبدأ عقلاني أن ما يصعد لا بد هابط وما يولد لا بد ميت وما هو قابل للفساد لا بد أن يبلى ويهلك... كان في أقوال محمد الكثير من دروس الحق، وفي أفعاله الكثير من الأمثلة على الفضيلة... لقد رسخ حرية الاعتقاد، ونبذ استخدام العنف في الدين. إن مندوب مكة كان مدهوشا من انتباه المؤمنين لكلمات ونظرات محمد، وحرصهم على التقاط تفله وشعرة سقطت منه على الأرض وفضلة وضوئه وكأنهم يشتركون إلى حدّ ما بأفضال النبوة. فقال هذا المندوب: "إني قد رأيت كسرى فارس وقيصر الروم ولكني ما رأت عيني ملكا في حاشيته كمحمد في صحبه".

إن الحماس والإخلاص له فعل أقوى وأصدق من برود ورسمية إذلال المحاكم... لقد كان سادة قريش خاضعين عند أقدامه. أي رحمة تتوقعونها من رجل كذبتموه؟ "إنا نثق في كرم قريبنا" "ما خابت ثقتكم؛ اذهبوا! إنكم آمنون، إنكم أحرار".... ولو أعطيت روايات زوجاته وصحبه، نزرا يسيرا من المصداقية فقد بقي في نظر عائلته وحتى آخر لحظة في حياته نبيا كريما ومؤمنا قويا...لقد فاقت عقلانيته أُبهة الملوك؛ فرسول الله يقوم بالخدمة المنزلية لعائلته، فيوقد النار ويكنس الأرض ويحلب الشياه ويخيط بيديه حذائه وثوبه الصوفي. نابذا المشقة الذاتية والجزاء الذي يفرضه على نفسه الناسك، حافظ دون جهد ولا رياء على اعتدال عربي ومحارب في غذائه. في بعض المناسبات الرسمية أطعم صحبه طعاما بسيطا وافرا، ولكن في حياته المنزلية كانت تمر أسابيع عديدة دون أن توقد في موقد الرسول نار... إن ما يثير عجبنا ليس انتشار دينه وإنما استمراريته؛ إذ إن أثره النقي والكامل الذي رسخه في مكة والمدينة محفوظ رغم مرور اثنا عشر قرنا فيمن اهتدى حديثا بالقرآن من الهنود والأفارقة والأتراك.

لو كان بإمكان رسولَيْ المسيحية بطرس وبولس العودة إلى الفاتيكان فلربما يتساءلان عن اسم الإله الذي يُعبد بهذه الطقوس الغريبة في هذا المعبد العظيم... ولكن قبة مسجد آيا صوفيا في تركيا على زيادة جمالها وحجمها إنما تمثل ذلك المعبد المتواضع الذي أقامه محمد بيديه في المدينة. لقد قاوم المسلمون بشكل موحد إغراءَ تخفيض موضوع إيمانهم وإخلاصهم إلى مستوى حواس الإنسان وخياله.

"أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" هي شعار الإسلام غير المتبدل...، والقرآن معترف به من المحيط الأطلسي إلى نهر الغانج، بأنه القانون الأساسي وليس فقط في مجال الدين وإنما أيضا في التشريع المدني والجنائي. والقوانين الناظمة لأفعال وأملاك البشر مصانة بقوانين محكمة ثابتة من مشيئة الله...، لقد افترض بكل تقوى كأساس في دينه، صحة وقدسية وحي أنبياء الأديان السابقة وصلاح ومعجزات مؤسسيها...، لقد نفخ في المؤمنين روح المحبة والصداقة وأوصى بالصلاح المجتمعي وكبح بتشريعه وتعليمه عطش الانتقام وقمْع الأرامل والأيتام."[12]

2. إمبراطور فرنسا، نابليون بونابارت (ت1821) Napoleon Bonaparte مقرا بعظمة النبي محمد ﷺ:

كتب بونابارت: "كانت شخصية محمد تتمتع بقوة جاذبة انجذبت إليها الشعوب. جعلت تعاليمه الناس مطيعين وكانوا مفتونين به. لقد نهضت مجموعة من الناس رفعت في غضون سنوات قليلة لواء الإسلام في العالم المعروف. لقد حرر أتباع الإسلام العالم من الآلهة الباطلة وأطاحوا بالأصنام. وما استطاع أتباع موسى وعيسى أن يحطموا رموز الكفر العديدة على مر خمسة عشر قرنا كما فعله أتباع الإسلام في غضون خمسة عشر سنة. الحقيقة أن شخصية محمد كانت بالغة العظمة."[13]

3. المؤرخ والكاتب الكبير توماس كارليل (ت1881) Thomas Carlyle

كتب كارليل عن الثورة التي أحدثها رسول الله ﷺ: "هل أسس رجل كاذب دينا؟... ما كانت لتقوم له قائمة مدة اثني عشر قرنا ضامّا إليه مئة وثمانين مليون شخصا؛ كان سيسقط على الفور...، ولا يمكننا بالحكمة تصور أن محمدا هذا كان أحمقا وزائفا ومخططا ضعيف الإدراك طموحا... ليوقظ العالم، فإن خالق العالم كان قد قدَّر ذلك...، فكان لابن الأرض الجرداء الواثق هذا ذي العينين السوداوين المشرقتين والروح الاجتماعية المنفتحة؛ أفكارا أخرى تفوق مجرد الطموح...، لقد قيل الكثير عن نشر محمد دينَه بالسيف... بالسيف! لكن من أين ستأتون بسيفكم! كل رأي جديد يكون في البداية محدودا في أقلية. تكون قائمة في ذهن رجل واحد، رجل واحد في العالم أجمع يؤمن بها؛ فيكون رجل واحد مقابل كافة الرجال. وأخذ

سيف ومحاولته نشرها به لن يجديه كثيرا...، وإن محمدا مهما قيل عنه لا يمكن أن يكون رجلا شهوانيا. وإنا نكون مخطئين جدا لو حسبنا هذا الرجل مجرد رجل شهواني مقصده المتعة فقط...، كلا فلا متعة من أي نوع...، فما من إمبراطور بتاجه كان مطاعا أكثر من هذا الرجل ذي العباءة المخاطة بيده. ومن خلال ثلاث وعشرين سنة من المحن الصعبة، وجدته في ذلك البطل بحق...، وللأمة العربية كانت ولادة من الظلمات إلى النور، لتحيا للمرة الأولى بواسطته الجزيرة العربية. شعب فقير من الرعاة، يجوب صحاريه دون أن يأبه له أحد منذ خلق العالم؛ قد أُرسل إليهم نبي بطل بكلمة آمنوا بها ليصبح غير الملحوظ محط أنظار العالم وليصبح الصغير كبيرا في العالم بعد قرن من الزمن...، بدا الرجل العظيم على الدوام كبرق من السماء انتظره بقية الناس كالوقود ليتقدوا أيضا."[14]

4. العالم والمؤرخ الكبير، جون ويليام دريبر (ت1882) John William Draper

كتب دريبر في كتابه: "تاريخ التطور الفكري في أوروبا" ما يلي: "بعد أربع سنوات من موت جوستانيان في عام 569م ولد في مكة في جزيرة العرب محمد، الرجل الذي من بين الرجال كلهم، قد ترك أثرا عظيما على بني البشر، والذي ينعته الأوروبيون بالدجال، لقد أخرج أمته من الوثنية وعبادة الأصنام وعبادة آلهة وضيعة، ودعا لوحدانية انتشرت انتشار الريح. الجدال العقيم بين أتباع آريوس والكاثوليك. تمتع محمد بالجمع بين الصفات التي أسهمت أكثر من مرة في تقرير مصير إمبراطوريات. كان محاربا واعظا وفصيحا على المنبر ومقداما في الميدان. وكانت عقيدته بسيطة: "لا إله إلا الله". وقد قدّر للشاميّ المخنث الضائع في ألغاز عقيدة المشيئة الواحدة[1] والطبيعة الواحدة[2]، وللأثناسيوسي[3] وللآريوسي[4] أن يتهاووا أمام أنفاسه متوقعين بسهولة ما كان يقصده من معتقده.

[1] هي عقيدة مسيحية تعالج العلاقة بين الألوهية والبشرية في يسوع المسيح. وترى أن للمسيح طبيعتان منفصلتان ومشيئة واحدة. (المترجم)

[2] هي عقيدة مسيحية بأن ليسوع طبيعة واحدة إلهية، وأن طبيعته البشرية امتزجت بهذه الطبيعة. (المترجم)

[3] مذهب مسيحي يساوي بين الأقانيم الثلاثة ويعدهم كيانات منفصلة قائمة بحد ذاتها كل واحد منها هو إله كامل. (المترجم)

[4] مذهب مسيحي ينسب لآريوس، يعتقد فيه بالتثليث وأن الآب هو الخالق، وأما المسيح وروح القدس فمخلوقين من عدم وهما إلهين دون الآب. (المترجم)

جازما بهذه الحقيقة الأبدية، لم يشارك في غيبيات عقيمة وإنما كرس نفسه لتحسين الحالة الاجتماعية لقومه بالقوننة محافظا على طهارة نفسه والاعتدال في مطعمه والصوم والصلاة. ومن بين الأعمال كلها كان يقدر التصدق والإحسان. وقد أقر بتحرر، تنكر له العالم لاحقا، بخلاص البشر بغض النظر عن معتقدهم ما تحلّوا بالاستقامة. وأضاف لإعلان لا إله إلا الله.. "محمد رسول الله". وعلى كل من يرغب في معرفة تطابق هذا الإعلان مع مجريات الأحداث فما عليه إلا أن يلقي نظرة على خارطة العالم اليوم؛ ليجد بصمات تفوق بصمة دجال. وقد يُبرَر لقب رسول الله بأن يكون القائد الديني للعديد من الإمبراطوريات والمرشد في الحياة اليومية لثلث الجنس البشري، وإنه لمن الخطأ القول بأن التطور العربي كان نتيجة السيف فقط. السيف قد يغير عرفا وطنيا ولكنه لا يستطيع أن يؤثر في ضمائر الناس، ومهما كان تأثيره قويا فقد تطلب الأمر ما هو أقوى لتنتشر المحمدية في الحياة اليومية لآسيا وأفريقيا قبل أن تصبح العربية لغة العديد من الأمم المختلفة."[15]

5. الكاتب لامارتين (ت1869) La Martine

كتب لامارتين في كتابه "تاريخ تركيا" ما يلي: "الفيلسوف، الخطيب، الرسول، المشرع، المقاتل، المبدع، مجدد العقائد العقلانية، مؤسس عشرين إمبراطورية أرضية وإمبراطورية روحية واحدة؛ إنه محمد. ويطرح سؤال نفسه وفقا لكل المعايير التي تقاس بها عظمة الإنسان: هل من رجل أعظم منه؟[16]

وكتب أيضا عن الثورة التي أحدثها رسول الله ﷺ:

"لو كان عِظَمُ المرام وقلة الوسائل والنتائج المدهشة، معاييرُ الحكمة والمعرفة؛ فمن يمكنه عند ذلك مقارنة محمد بأي شخص آخر؟ سواء أكان من العصر الراهن أم العصور القديمة. يذيع صيت الناس بتكوينهم جيوشا جرارة وسنهم القوانين وتأسيسهم الإمبراطوريات ولكن النقطة الجديرة بالاعتبار هي: ماذا حققوا؟ إن ثروتهم المادية قد سُلبت أمام أنظارهم. لقد كان الرجل الوحيد الذي نظم الجيوش وسن القوانين وأقام الحكومات وحكَم، وبطرفة ولّد الملايين من تلك الأرواح، ثلث سكان العالم، الذين غيروا آلية تفكير العالم التي أحدثت ثورة في المعتقدات والمقدسات والإيمانيات وطرائق العبادة. لقد غيروا جوهر عقائد أتباع الديانات الأخرى.

واعتمادا على كتاب واحد، كل كلمة فيه دستور، قد كونوا أتباعا من كل بلد وأمة. قد خلقوا مفهوم الأمة الإسلامية الخاص وحب إله غيبي وولدوا كراهة للآلهة الباطلة. كان محمد النبي الفريد الذي كان مطلعا على الغيبيات، العديم النظير في الفصاحة، ومعلن القوانين، والمشرع، والقائد، وفاتح آليات الفكر والقوننة، والحساس، ومنير العقائد، ومؤسس عالم الروحانية؛ وكل نوع عظمة أمامه لا معنى لها. وبتطبيق أي اختبار للعظمة البشرية؛ يمكننا التحدي: هل من أحد أعظم من محمد ويفوقه؟ ما من بشر حقق هذا العمل البطولي العظيم بتلك الإمكانيات الشحيحة. وهذه حقيقة تفوق سعة وقدرة البشر. ما حققه محمد بتخطيطه وعمله يعود له فقط وما كان لأحد عليه من منة في تحقيق أهدافه، وكان أنصاره فقط حفنة من بدو الصحراء، وإنه أحدث في النهاية ثورة عظيمة ما كان بمقدور أحد في العالم أن يحدثها. وانطلاقا من دعوته وحتى القرنين التاليين ظهر الإسلام بفكره وقوته وقواه في الجزيرة العربية، ثم حاملا لواء الله فتح فارس وخراسان وغرب الهند وسورية والحبشة ومصر وأجزاء معروفة من شمال أفريقيا وجزرا معروفة في البحر المتوسط وكذلك أجزاء من أسبانيا."[17]

6. الكاتب الكبير سميث ر. بوسورث (ت1908) Smith R. Bosworth

كتب بوسورث في كتابه "محمد والمحمدية": "إننا نعرف جزءا من جزء من حياة المسيح، ولكن من يستطيع أن يميط اللثام عن الثلاثين سنة التي مهدت للسنوات الثلاثة؟ ما نعرفه بالحقيقة أنه قد أحيا ثلث العالم وقد يحيي المزيد، وهو حياة مثالية بعيدة وقريبة معا ممكنة ومستحيلة، ولكن كم من أمور لا نعلمها! فما معرفتنا بأمه وحياته المنزلية وأصدقائه الأوائل وعلاقته بهم وتدرج مهمته الإلهية، أم أنها ربما كانت وحيا مفاجئا؟ فكم من سؤال يتبادر لذهن كل واحد منا لا جواب له! ولكن في المحمدية كل شيء في هذا المجال مختلف إذ لدينا بدل الضبابية والغموض سيرته. وإننا نعلم عن محمد كعلمنا عن "لوثر" و"ميلتون". ما هو أسطوري وخرافي أو يفوق الطبيعة، غالبا ما يكون غائبا في المراجع العربية الأصلية أو أنه سهل الفصل عما هو تاريخي. فلا أحد يمكنه أن يخدع نفسه أو الآخرين لأن كل شيء واضح وضوح الشمس. بالواقع فإن أبعاد الشخصية العميقة تكون بعيدة عن منالنا ويجب أن تبقى كذلك ولكننا نعلم كل شيء ظاهري عن سيرة محمد وشبابه ومظهره وعلاقاته وعاداته والفكرة الأولى وتطورها التدريجي، وإن

كانت متقطعة، ووحيه العظيم. أما عن سيرته باطنيا بعد أن جهر بدعوته فإن بين أيدينا كتاب متفرد تماما بأصالته."[18]

7. الدكتور غوستاف فايل (ت1889) Gustav Weil

كتب غوستاف فايل عن شخصية النبي محمد ﷺ الطاهرة: "كان محمد أسوة حسنة لقومه. كانت شخصيته طاهرة لا غبار عليها. وتميز مسكنه وملبسه ومطعمه ببساطة نادرة. كان متواضعا لدرجة عدم تلقيه علامات احترام خاصة من قبل صحبه وعدم قبوله أن يخدمه عبيده خدمة هو قادر على أدائها بنفسه. غالبا ما كان يُرى في السوق يتسوق، وغالبا ما كان يُرى يحيك ثيابه في غرفته أو يحلب شاةً في فناء بيته. كان بإمكان الجميع الوصول إليه في أي وقت. كان يزور المرضى وكان متعاطفا مع الجميع وما كان لخيره وكرمه من حدود وكذلك كان قلقه على مصلحة المجتمع. ومع أن الهدايا كانت تردِه من كل الجهات بأعداد لا تحصى إلا أنه ما ترك خلفه إلا النزر اليسير الذي عده أيضا ملكا للدولة."[19]

8. العالم الكبير بالإسلام، توماس و. آرنولد (ت1930) Thomas W. Arnold

كتب آرنولد: "غالبا ما جزم الكتاب الأوروبيون أن محمدا ظهر بشخصية جديدة تماما بعد هجرته إلى المدينة وتبدُّل ظروف حياته هناك؛ فما عاد الواعظ المنذر، رسول الله إلى البشر، ليقنعهم بصدق الدين الموحى إليه وإنما أصبح الآن متعنتا عديم الضمير يستخدم كافة الوسائل المتاحة بين يديه وحنكته في الحكم ليثبت نفسه ورأيه. ولكن من الخطأ الافتراض أن محمدا في المدينة قد تخلّى عن دوره كداعية ومبلغ للإسلام أو أنه لما أصبح لديه جيش عرمرم تحت إمرته قد كف عن دعوة الكافرين للإيمان."

"إذن، الإسلام يحمل منذ بدايته طابع دين تبشيري يهدف إلى كسب قلوب البشر وتحويلهم وإقناعهم بدخول أخوّة الإيمان. وكما كان في البداية فقد استمر على هذا المنوال حتى يومنا هذا."[20]

9. س.ب سكوت (ت1903) S.P. Scott

كتب سكوت في كتابه باللغة الإنجليزية "تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في أوروبا": "إن كان الهدف من الدين نشر الأخلاق والحد من الشر وزيادة سعادة الإنسان وتوسيع فكر الإنسان،

وإن كانت الأعمال الصالحة ستنفع في يوم الدين عندما يبعث الناس للحساب؛ فإنه مما لا يقدح بالوقار والمنطق القبول أن محمدا كان بالفعل رسول الله."

"إن الدليل الأكثر إقناعا بصدقه في دعواه وثقته بنفسه وعزمه الصميم هو مكانة وصفات أتباعه الأوائل والاحترام الذي لقيه تعليمه."[21]

10. الكاتب الشهير من آريا سماج؛ باركاش ديفجي Parkash Devgi:

" الحقيقة أنه فيما يتعلق بالبركات التي جلبها النبي محمد ﷺ للعالم، فإن على العالم كله وليس العرب فقط أن يكونوا شاكرين. كم من تعذيب تكبده هذا الشخص العظيم من أجل الجنس البشري وكم من عائق كان عليه اجتيازه في مهمته! ولم تكن هداية قوم متوحشين وأفظاظ إلى وحدانية الله وتطهيرهم من رذائلهم المزروعة في طبعهم مهمةً سهلة. يمكن لذوي العقول الضيقة والشعوب المنحازة أن تقول ما يحلو لها، ولكن ذوي العقول المنفتحة والشعوب المقسطة لا يمكنهم أن يجحدوا الخدمات القيمة التي قدمها محمد للجنس البشري. لقد أرسى راية التميز بطريقة جعلت اليوم مئة وأربعين مليون نسمة في العالم تعيش تحت ظلها وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل شرفه."[22]

11. في عام 1911 عرضت جريدة "الوطن" المسيحية على الملايين من المسيحيين العرب سؤالاً: مَن هو أعظم رجل؟ وفي الجواب كتب العالم المسيحي "داور ماجايش" مايلي:

"أعظم رجل هو ذلك الذي أسس في وقت قصير قدْره عشر سنوات، دينا جديدا، وفلسفة جديدة، وشرعا جديدا، وثقافة جديدة. لقد غير قوانين الحرب، وأنشأ أمة جديدة، وأسس إمبراطورية ذات ديمومة. ومع أنه أنجز هذه الأعمال كلها إلا أنه كان أميا، فمن هو؟ إنه محمد بن عبد الله القرشي نبي الجزيرة العربية والإسلام. لقد حقق هذا النبي بنفسه كافة متطلبات حركته العظيمة...، لقد وفّر بنفسه كافة وسائل التقدم لقومه وللإمبراطورية التي أنشأها."[23]

12. السير ويليام موير (ت1905) Sir William Muir

كتب موير في كتابه "حياة محمد": "إن حالة العالم عند بعثة محمد قد لُخّصت في القرآن بالقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: 42). لقد كان ذلك

نتاج هذه الشهادة المذكورة. وبالتالي من الواضح أن حالة العالم في زمن بعثة النبي الكريم محمد كانت تتطلب بشدة هداية ربانية شاملة تصاغ بكلمات الله وتجسَد برسول تكون حياته متعددة الجوانب ويكون أسوة للبشرية؛ وهذا ما كان عليه محمد. وهناك عامل آخر مدهش في صالحه وهو أنه لم يظهر أحد حتى من هو دونه مكانة وميزات لهداية البشرية في زمن الحاجة القصوى لذلك، والنتيجة التي لا يمكن نكرانها أنه كان بلا شك أداة الله المقدرة لإحياء البشرية."[24]

وكتب أيضا:

"سأضيف فقط أن بساطة وإخلاص أبي بكر وعمر أيضا، الخليفتين الأولين، دليل قوي على إيمانهم بصدق محمد، وإيمان هذين الرجلين له وزن لا يمكن نكرانه في تكوين تصوّرنا لشخصيته؛ لأن الفرص التي أتيحت لهما لاختبار قناعاتهما اتسمت بالقرب والديمومة. ويكفي أن أنوه إلى هذا الاعتبار لتقوية صورة شخصية محمد التي أسعى لتعزيزها في كل مكان...، إحدى الصفات المميزة كانت التمدن والتقدير الذي كان محمد يعامل به حتى أقل أتباعه شأنا، التواضع والطيبة والصبر والغيرية والكرم كانت غالبة على مسلكه وجذبت إليه تعاطف جميع من حوله...، وعلى ممارسته حكما مطلقا جدا، كان محمد عدلا ومعتدلا، وما كان يطلب إنصافا من أعدائه بمجرد قبولهم برحابة الصدر ادعاءه. وإن صراع أهل مكة المديد والمرير ضده كان ربما ليجعل نقمة فاتحها تتجسد بإضرام النار فيها وسفك الدماء. ولكن محمدا عفا عفوا عاما إلا عن بعض المجرمين، ونسي الماضي بكل ما حمل من سخرية ومجابهات واضطهاد، حتى إنه عامل ألد أعدائه بلباقة وتقدير كتقدير الأصدقاء."[25]

13. السيد برينغل كينيدي (ت1925) Pringle Kennedy في كتابه: "المجتمع العربي في زمن محمد":

"كان محمد، بعبارة واضحة، رجل الساعة. وعلى المرء، لفهم نجاحه المبهر، أن يدرس ظروف زمنه. لقد ولد بعد مجيء عيسى إلى العالم بقرابة خمسة قرون ونصف أو أكثر. في ذلك الزمن كانت أديان اليونان وروما القديمة والدول المئة وواحدة على طول المتوسط قد فقدت حيويتها. وأصبحت "القيصرة" دينا حيا. كانت عبادة الدولة المتجسدة بالقيصر الحاكم هي دين

الإمبراطورية الرومانية. صحيح أنه كان بإمكان الديانات الأخرى الوجود ولكن كان عليها أن تسمح لهذا الطقس الجديد أن يسير بجانبها ويظهر عليها. ولكن "القيصرة" فشلت في تحقيق الرضا. فراقت الديانات الشرقية والخرافات (المصرية والسورية والفارسية) للعديد في العالم الروماني ووجدت كثيرا من الأنصار. وكان الخطأ القاتل للعديد من هذه العقائد أنها كانت حقيرة من نواح عديدة...، وعندما غزت المسيحية القيصرة في بداية القرن الرابع تمت بدورها هي أيضا قيصرتها؛ فما عادت تلك العقيدة النقية التي عُلِّمت قبل ذلك بثلاثة قرون، فقد فقدت كثيرا من روحانيتها وأصبحت طقوسا ونقلت إلى التجسيد...

إن كيفية تغير ذلك كله في بضع سنين، وكيف أصبح جزء كبير من هذا العالم في عام 650م عالما مختلفا عما كان عليه؛ لهو واحد من أروع فصول تاريخ البشرية، إن هذا التغير الرائع إن عُزي لحياة رجل واحد فلرسول مكة... ومهما كان رأي المرء بهذا الرجل الاستثنائي فلا خلاف في عمق تأثير حياته على تاريخ العالم. وعند الذين يعدّون منا الإنسان كل شيء ودونه تأثير محيطه؛ فإنه المثل الأعلى لما يمكن أن يفعله رجل واحد."[26]

14. المفكر العظيم والقائد الأعلى وأول رئيس وزراء هندي، جواهر لال نهرو (ت1964) Jawahar Lal Nehru:

"من الغريب أن يستيقظ العرب فجأة وقد كانوا لعصور طويلة في سبات ومنقطعين عن كل ما يحدث في أماكن أخرى، وأن يظهروا نشاطا عظيما أقلق العالم وأحدث فيه اضطرابا. إن قصة العرب وانتشارهم السريع في أوروبا وأفريقيا وتطويرهم ثقافة عالية وحضارة لإحدى عجائب التاريخ. والإسلام كان القوة الجديدة أو الفكر الذي أيقظ العرب وشحذهم بالثقة بالنفس وبالطاقة. كان دينا أسسه نبي جديد هو محمد الذي ولد في مكة عام 570م... عاش حياة هادئة وأحبه ووثق به مواطنوه. وقد عُرف بالفعل بالصادق الأمين. الدين الذي دعا له قد جذب -ببساطته وصراحته وما حمله من ديموقراطية ومساواة- دول الجوار التي كانت رضخت لزمن طويل تحت ملوك مستبدين وكهان مسيطرين ومستبدين أيضا. لقد أعياهم النظام القديم وكانوا تواقين للتغيير، والإسلام قدم لهم هذا التغيير، وكان تغييرا مرحَّبا به لأنه حسنّهم بطرق كثيرة وأنهى استغلالا مزمنا."[27]

15. تارا تشاند (ت1973) Tara Chand؛ المؤرخ الكبير وأستاذ التاريخ في جامعة إله آباد في الهند.

"لا بد لغير المسلمين من معرفة محمد الأمين، صديق الفقراء والمضطهدين واليتامى، بصورة أفضل. محمد الذي ما اتخذ حياة اليسر والراحة والذي أصلح بيديه ثيابه ونعله، وبنى بهما بيت العبادة. الذي عاش على التمر والماء وكان يتقاسمه مع خادمه أثناء سفره، والذي عفى عن أعدائه، وأظهر لطفا للعبيد، وكان شجاعا جريئا على لطفه ودماثته. لا بد أن نعترف بأنه ما نَشر الإسلامَ بانتصارات حققها بالسيف وإنما بسحر شخصيته وإقناعه بعجيب فصاحته."

"كما لا بد من المعرفة أيضا أن الإسلام دين يجمع بطريقة عجيبة التواضع واحترام الذات. الإسلام يجلُّ الله تعالى ويعلِّم الإنسان ليدرك عدميته أمام الله، كما يحدد علاقة الإنسان بالإنسان بالتساوي التام مؤكدا على قيمة وكرامة كل فرد بغض النظر عن مولده ومكانته وغناه. والإسلام يشدد على قيم العدالة والحكمة والشجاعة والاعتدال. ويحترم أنبياء كافة الديانات ويبدي التسامح مع كافة العقائد التي تعلِّم عبادة الله."[28]

16. السيد برنارد شو (ت1950) Bernard Shaw

"لو كان على دينٍ أن يحكم إنجلترا بل أوروبا في المئة سنة القادمة فلا يمكن إلا أن يكون الإسلام."

"دائما ما أكننت تقديرا كبيرا لدين محمد بسبب حيويته الرائعة، ويبدو لي أنه الدين الوحيد القادر على التكيُّف مع مراحل الوجود المتغيرة، وتلبية حاجة كل عصر. أعتقد لو أن رجلا مثل محمد حكم العالم الحديث حكما مطلقا فإنه سينجح في حل مشاكله بطريقة تجلب له السلم والسعادة المنشودة."[29]

17. روبرت ل. جوليك ج ر (ت1987) Robert L. Gulick Jr

" لقد كان محمد بالفعل معلما وجَّه وأرشد الإنسانية إلى حرية وسعادة أكبر."[30]

18. زعيم ثوري عظيم: م. ن روي (ت1954) M.N. Roy

"كل نبي أثبت ادعاءه من خلال المعجزات. ومن هذا المنطلق يجب أن يُقرَّ بأن محمدا أعظم الأنبياء جميعهم من قبله أو بعده. وإن انتشار الإسلام هو معجزة المعجزات. لقد أعرض اليوم

العالم المثقف عن النظرية المبتذلة بأن بزوغ نجم الإسلام كان انتصارا للتعصب على الأقوام الشريفة المتسامحة. إن ظاهرة فلاح الإسلام مردها أولا إلى معناه الثوري وقدرته على إخراج الجموع من حالة اليأس التي خلقها تقهقر الحضارات القديمة، ليس فقط اليونانية والرومانية وإنما أيضا الفارسية والصينية والهندية."

"تعليم الإسلام الأساسي: لا إله إلا الله، هو بحد ذاته يدعو للتسامح؛ لأنه عندما يقبل العالم كله بما فيه من عيوب ونقائص والبشرية جمعاء بما فيها من حماقات وتفاهات، على أنه خلْق إله واحد؛ فإن المعتقِد بهذه العقيدة السامية قد يستنكر العيوب ويسخر مما يبدو له حماقات وفساد ولكن إيمانه بحد ذاته لا يسمح له بأن يعدّهم خلق أو عباد إله شر، وأن يعلن عليهم الحرب من هذا المنطلق. إذ إن الذين يعبدون على خلافه ليسوا بالنسبة له إلا مخطئين وأخوة ضالين ولكنهم يبقون أبناء الأب نفسه الذين يجب الإتيان بهم إلى الصراط المستقيم أو أن يُتسامح معهم ويُستعد لاصلاحهم."[31]

19. العالم الكبير: جيمس أ. ميشنير (ت1997) James A. Michener

"بولادته يتميا، كان دائما مهتما بالفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والعبيد والمضطهدين. وقد انتشل المرأة من قيود العادات الصحراوية ودعا إلى عدالة اجتماعية عامة... وفي وسط المخمورين بالكحول أعلن تحريم الخمر... ودعا إلى إعتاق الرقيق وأن على الآباء ألا يقتلوا بناتهن وأن المستضعفين يرثون الأرض وأن السلام خير من الحرب وأن الحق يعلو... لا دين قط في التاريخ انتشر بسرعة انتشار الإسلام... لقد اعتقد الغرب بكثرة أن غلبة الدين هذا قد حدثت بالسيف، ولكن لا أحد من العلماء المعاصرين يقبل هذه الفكرة، والقرآن يؤكد على حرية المعتقد... يصعب على العديد من الغربيين، الذين اعتادوا بناء على كتبهم التاريخية أن يظنوا أن المسلمين كانوا كفارا همجيين، أن يفهموا عمق تأثر حياتنا الفكرية بالعلماء المسلمين في مجالات العلم والطب والرياضيات والجغرافيا والفلسفة... لقد درستُ الإسلام لسنوات عديدة ولا أجد أي مبرر لعدم التعاون بين هذا الدين والمسيحية."[32]

20. العالِمة الغربية في أديان العالَم؛ روث كرانستون (ت1956) Ruth Cranston

"بعد تيتمه في طفولته ربى محمدا عمُه، وأظهر منذ صباه صفات جديرة بالاحترام؛ فكان لطيفا

وهادئا ومخلصا في أداء واجباته، محبوبا من أقاربه وجيرانه. لاحقا أُطلق عليه اسم الأمين من قبل قومه في مكة."

" لم يكن محمد يفرض تعاليمه عن الآخرة أو في أمور أخرى فرضا، والملحوظ أن القرآن يخلو من الفرض بل يخاطب ضمير الإنسان وعقلانيته ويؤكد علاقة الإنسان الطبيعية المباشرة بالله دون تدخل الوسائط."

"ما حرض محمد قط على الحرب أو إراقة الدماء، وكل حرب خاضها كانت دفاعية، وقد قاتل للنجاة، وقاتل بأسلحة وأسلوب زمانه."

"قبل ثلاثة عشر قرنا من اتفاقية الأطلسي التي نصت على الحرية الدينية والتحرر من الخوف؛ عقد محمد اتفاقيات مع القبائل اليهودية والمسيحية التي فتحها ومنحهم حرية العبادة والحكم الذاتي. وفي العديد من الدول التي فتحها المسلمون عوملت الشعوب غير المسلمة باستمرار بالعدل، وكانت القاعدة بعدم الإكراه على دخول الإسلام."

"لا غرابة في أن يحب الرسولَ قومُه وقد كان رحيما ومتواضعا ومتفكرا قليل الكلام، ومستمعا جيدا، ومزوحا أيضا، وقد عانى من صعوبات مثل الزعماء الدينيين كلهم كالشقاق والغيرة بين الصحابة، والمرض والشكاوي، والمشقة التي ترافق جهود الروّاد وإنشاء جماعة منظمة في بلد جديد، لقد نجاهم محمد جميعا ورفع قومه بشجاعته التي لا تقهر وتفانيه."[33]

21. كتب و. مونتغمري واط (ت2006) W. Montgomery Watt في كتابه: "محمد في المدينة"

"من أعظم إنجازات محمد أنه أقام صلحا حقيقيا مع سادة مكة، وهم الرجال الذين كانوا قبل ذلك بشهور أعداءه الألداء. كانت نظرة معاصري محمد له في المرحلتين المكية و المدنية أنه رجل جيد ومستقيم، وفي نظر التاريخ فإنه مصلح أخلاقي واجتماعي... وكلما تفكر المرء في سيرة محمد وبداية الإسلام ازداد تعجبه من عظم إنجازاته. لقد هيأت له الظروف فرصة لا يجود بها الدهر إلا لقلة قليلة من الناس ولكنه كان الشخص الأنسب بحسب مقتضى الظروف، ولولا مواهبه كنبي ورجل دولة وإداري وفوق كل ذلك ثقته بالله تعالى ويقينه الكامل بأن الله أرسله؛ لما كُتب فصل مهم في تاريخ البشرية."[34]

22. فيليب خوري حتي (ت1978) Philip K. Hitti؛ الأستاذ المتقاعد في الأدب السامي في جامعة برينستون في الولايات المتحدة الأميركية

"الجزيرة العربية التي لم يسبق لها قط أن انصاعت لإرادة رجل واحد، أصبحت الآن خاضعة ومسيطر عليها من قبل محمد، وأصبحت جزءا من نظامه الجديد. حل محل وثنيتها عقيدة أشرف وأعلى قيما أخلاقية... وحتى في ذروة أيام مجده عاش محمد، كما في أيام عسرته، حياة بسيطة في بيت من طين كالبيوت القديمة في هذه الأيام، التي نراها في الجزيرة العربية وسورية، المكونة من عدة غرف تفتح على فناء يكون المدخل الوحيد إليها. كثيرا ما رُؤي وهو يحيك ثيابه بنفسه وكان الناس يصلون إليه بسهولة؛ إذن بضربة واحدة استبدلت أقوى رابطة بين العرب وهي الرابطة القبلية برابطة جديدة هي رابطة الإيمان، فأنشئ في الجزيرة نوع من السلم الإسلامي. وفي هذا المجتمع الجديد لا مكان للكهنوت والهيئات الكهنوتية... وخلال حياة فانية قصيرة أقام محمد من حيث الجغرافيا من مادة خام غير واعدة، أمة لم تعرف الوحدة من قبل في بلد كان وثنيا، وأسس دينا فاق في مناطق واسعة المسيحية واليهودية ولا يزال يتمسك به عدد كبير من بني البشر، ووضع أساس إمبراطورية ما لبثت أن أصبحت حدودها مقاطعات ما عُرف فيما بعد بالعالم المتحضر. كان محمد نفسه أميا ومع ذلك فهو صاحب كتاب يعده ثُمن البشر مصدر كافة العلوم والحكمة والدين."[35]

23. المستشرقة الإيطالية، الدكتورة فاليري (ت1989) Vaglieri (أستاذة اللغة العربية في جامعة نابولي)

كتبت هذه المستشرقة في عام 1925 كتابا بعنوان "شرح دين الإسلام"، ترجمه إلى الإنجليزية الدكتور العالم المعروف آلدو كاسيلي **Aldo Caselli** وترجمه إلى الأردية الأستاذ شيخ محمد أحمد مظهر، المحامي في فيصل آباد. كتبت صاحبة هذا الكتاب معبرة عن عظمة مؤسس الإسلام:

"في برية بعيدة عن الحضارات والتحضر عاشت أمة فظة، فنبع من بين هؤلاء القوم نبع عذب وصاف اسمه الإسلام. جاء الإسلام وأزال إراقة الدماء. أزال غشاوة القلوب فكانت النتيجة

خلق تناغم بين الدين والأخلاق والأهداف. ونبض حب الأخوة وأصبحت عين الإسلام نهرا رائعا. وأحاطت أمواجه النقية القوية الممالك القوية التي كانت الحاضنة للحضارات القديمة والحديثة. كان ذلك الصخب الذي أيقظ قوما نياما لقرون. كان ذلك الروح التي وحدتهم.

لم تكن هناك ثورة كهذه في العالم. وإن سرعة تطور الفتوحات الإسلامية وسرعة تملك حفنة من الأتباع المخلصين لقلوب ملايين الناس، لا يزال عصيا على الفهم البشري. فما هذه القوة السرّية التي استطاع بها بعض أتباع هذا الدين المخلصين التغلب على تلك الأمم التي كانت تفوقهم حضارة وإمكانيات وخبرة وفنا في القتال! لقد ولّد القادة شغفا وشوقا مستمرا لبلوغ المرام لدرجةِ أنه لم يبلغ أي دين بعد مرور ألف عام بعد محمد هذا الشغف والحماس."

"بالواقع أدى هذا المصلح مهمته على أحسن وأكمل وجه. إنه المصلح الذي نهض بقوم من المضطهدين والمتوحشين والوثنيين وجعل منهم أمة متحدة تعبد إلها واحدا. لقد بعث فيهم أعلى القيم الأخلاقية."[36]

وتقول أيضا:

"لو نظرنا إلى نبوءات محمد أو إلى الفتوحات الإسلامية الأولى لتبين لنا بجلاء خطأ الاتهام بأن الإسلام قد فرض بالسيف وأنه لا يمكن عزو انتشاره السريع إلا لهذه الوسيلة. يقول القرآن: لا إكراه في الدين... الرد على تهمة العنف سهل؛ فمحمد كرئيس الدولة والمدافع عن حياة وحرية شعبه قد عاقب المجرمين بشدة محققا العدل... ومحمد كداعية إلى الله كان لطيفا ورحيما حتى مع أعدائه الشخصيين. فقد امتزج فيه العدل والرحمة وهما من أنبل الصفات التي يمكن للعقل البشري أن يتصورها... لقد أصر أعداء الإسلام على وصف محمد بالشخص الشهواني المنغمس في الملذات محاولين أن يجدوا في زيجاته أدلة على ضعف ينافي مهمته. ورفضوا أن يأخذوا بعين الاعتبار أنه في سنوات عمره التي تكون الحاجة الجنسية ملحة، ومع أنه عاش في مجتمع العرب الذي بالكاد كان الزواج فيه مقننا، وكان التعدد هو القاعدة والطلاق فيه يسير جدا؛ كان متزوجا من امرأة واحدة هي خديجة التي كانت أكبر منه بكثير وكان زوجا مخلصا ومحبا لها طيلة خمسة وعشرين عاما. وما تزوج وعدّد إلا بعد وفاتها وبعد أن كان قد بلغ الخمسين من العمر. كان وراء كل واحدة من زيجاته سبب اجتماعي أو سياسي، إذ كان يريد

من خلال زواجه أن يكرم نساء تقيات أو أن يقيم مصاهرات مع قبائل أخرى في سبيل نشر الإسلام. وباستثناء عائشة فإنه تزوج نساءً لم يكنّ أبكارا ولا شابات ولا جميلات. فهل هذه شهوانية؟"[37]

24. الكاتبة الدينية المرموقة: كارن أرمسترونغ (وُلدت عام 1944) Karen Armstrong

في عام 1991، بعد نشر كتاب سلمان رشدي الشائن (آيات شيطانية)، كتبت الأستاذة كارن أرمسترونغ التي كانت راهبة مسيحية سابقة وألفت عدة كتب عن الإسلام والمسيحية واليهودية؛ كتابا أسمته: "محمد"، عن حياة رسول الله ﷺ. وفي هذا الكتاب دافعت عن الإسلام ضد الهجمات الشريرة والاعتراضات التي طرحتها شعوب الغرب. وردّت في كتابها على اتهامات سلمان رشدي الباطلة تجاه مؤسس الإسلام فقالت:

"كان لا بد من توفير السيرة الحقيقية للنبي أيضا، لأنه كان واحدا من أروع البشر الذين عرفهم الوجود."

"ينظر إلى محمد أنه نقيض روح الدين وعدو الحضارة المحترمة. ولكن بدل ذلك ربما علينا أن ننظر إليه أنه رجل الروحانية الذي سعى لجلب السلام والتحضر لشعبه."[38]

وكتبت أيضا:

"لقد أصبح قائدا سياسيا جاذبا ولامعا، لم يغير الجزيرة العربية فحسب ولكنه غير تاريخ العالم... من الممكن أن نرى مبدأ الإسلام في المساواة كطريقة عملية لتشجيع الحب الأخوي الذي يجعل كافة الناس على سوية اجتماعية وسياسية واحدة... وبالفعل فإن محمدا قد أقام بنفسه معايير عليا للأخوة في مسلكه... وعبر القرون كنا ميالين في الغرب لاعتبار محمد شخصية شرسة، ومحاربا متوحشا وسياسيا صلبا، ولكنه كان رجلا عظيم الطيبة والحساسية... ويبدو أن التأييد الإلهي هو التفسير الوحيد لنجاح محمد المنقطع النظير... وبدل أن يكيِّفوا حياتهم الشخصية في ظل حاكميهم كما فعل المسيحيون الأوائل فإن محمدا وصحبه قد أخذوا على أنفسهم تحرير مجتمعهم الذي لولاه لما كان هناك تطور أخلاقي وروحي... لقد بلغت الإمبراطورية الإسلامية ذروة تمددها بعد قرابة مئة سنة على وفاة محمد، وقد طور المسلمون

علاقات طبيعية مع جوارهم دبلوماسيا واقتصاديا. لم يُكره اليهود والنصارى أو الزردشتيين على الإسلام... إننا في الغرب ما استطعنا قط التعامل كما يجب مع الإسلام إذ إن أفكارنا عنه اتسمت بالسطحية والنبذ، ويبدو أننا اليوم نناقض التزامنا المعلن بالتسامح والتعاطف بعدم مبالاتنا بألم واضطراب العالم الإسلامي. إن الإسلام لن يختفي أو يذبل، وكان من المفضل لو بقي صحيحا قويا. كل ما يمكن أن نأمله ألا يكون الوقت قد فات... لو كان على المسلمين اليوم أن يفهموا بعمق أكبر عاداتنا الغربية ومؤسساتنا، فإن علينا في الغرب أن نتجرد عن إجحافنا القديم، وربما تكون نقطة البداية؛ لذلك وصفنا محمدا بأنه كان رجلا معقدا سريع الانفعال قام أحيانا بأشياء يصعب علينا قبولها. بل هو الذي برع في خلق نظام محكم وأسس دينا وثقافة لم تقم على السيف –على عكس ما تقوله الخرافة الغربية– واسم الإسلام يعني السلام والتسليم."[39]

25. وقد أعلن قسطنطين فيرجيل جورجيو(ت1992) Constantin Virgil Gheorghiu (وزير خارجية رومانيا) في كتابه "محمد" أن الثورة التي أحدثها النبي محمد ﷺ هي أعظم الثورات في العالم؛ فكتب:

"إن الثورة التي أحدثها محمد في الجزيرة العربية كانت أعظم من الثورة الفرنسية. الثورة الفرنسية ما استطاعت أن تخلق المساواة في الشعب الفرنسي ولكن الثورة التي أحدثها نبي الإسلام قد أرست المساواة بين المسلمين وأزالت كافة الفوارق القبلية والمادية."[40]

26. الفيلسوف الهندي: ك. س. راما كريشنا(ت1886) K.S. Ramakrishna

"وفقا للمؤرخين المسلمين فقد ولد محمد في صحراء الجزيرة العربية في 20 أبريل/نيسان 571 بعد الميلاد. واسمه يعني من يكثر حمده، وإنه عندي أعظم عقل بين أبناء جزيرة العرب، وإنه لأعظم من كافة الشعراء والملوك الذين سبقوه في تلك الصحراء الموغلة ذات الرمال الحمراء. عندما ظهر كانت الجزيرة صحراء، كانت عدم. ومن هذا العدم صقلت عزيمة محمد العظيمة عالما جديدا، وحياة جديدة، وثقافة جديدة وحضارة جديدة ومملكة جديدة امتدت من المغرب إلى الهند، وأثرت في فكر وحياة قارات ثلاثة: آسيا وأفريقيا وأوربا... وإن نظرية "الإسلام

والسيف" على سبيل المثال لا تجد الآن صدىً في أي مكان ذي أهمية... وإن مبادئ الأخوة الشاملة وتعليم مساواة البشر التي طرحها تشكل إسهاما عظيما من محمد في رفعة البشرية اجتماعيا. كافة الديانات العظمى قد دعت إلى التعليم نفسه ولكن نبي الإسلام قد وضع هذه النظرية محل التطبيق الفعلي، وربما سيقدَّر ذلك حق قدره بعد قرون عندما يستيقظ الضمير الدولي ويزول التمييز العرقي وتظهر أخوّة بشرية أكبر... كان لدى العرب عادة متجذرة بأن من يبطش طعنا بالقنا ويبرع في استعمال السيف يكون الوارث. ولكن الإسلام جاء مدافعا عن الجنس الضعيف وجعل النساء يرثن آباءهن، ومنح المرأة قبل قرون حق التملك الذي ما تبنته بريطانيا، التي تعد مهد الديمقراطية، إلا بعد اثني عشر قرنا، وذلك في عام 1881، وقد سمي ذلك القانون: "قانون المرأة المتزوجة"... وتبين الوثائق التاريخية أن كافة معاصري محمد من أصدقاء أو خصوم أقروا بأصالة صفات رسول الإسلام ونبل أخلاقه وإخلاصه المطلق وجدارته بالثقة في كافة مجالات الحياة وفي كل دائرة من دوائر النشاط البشري... لقد تغيرت الظروف لكن رسول الله لم يتغير؛ إنه الرجل نفسه في حالة النصر والهزيمة والقوة والضعف والعسر واليسر، وأظهر الشخصية نفسها. ووفقا لسنة الله ونواميسه فإن رسل الله لا يتغيرون.

وكما يقال فإن الرجل الصادق هو أنبل أعمال الله؛ وإن محمدا كان يفوق الصدق. لقد كان إنسانا حتى النخاع، ومواساة البشر وحبهم كانت ترنيمات روحه. وكان هدف بعثته خدمة الإنسان ورفعته وتطهيره وتعليمه، باختصار: أن يجعله بشرا. وكان ذلك كل حياته وغايتها. لقد كان خيرُ البشرية وحده الدافع والمرشد في أفكاره وأقواله وأفعاله."[41]

27. العالم الغربي: جورج بيشور (ت2021) George Beshore

"إن العلماء القدامى من مصريين وإغريق قد أحدثوا تطورات ملحوظة في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة والكيمياء. وإن اكتشافاتهم كانت لتضيع للأبد لو لم يولد طفل اسمه محمد في الجزيرة العربية قرابة عام 570م."[42]

28. العالم والكاتب الكبير مايكل هارت (ولد عام 1932) Michael Hart

لقد اشتهر في الزمن الحاضر كتاب " المئة" (المئة الأوائل) للسيد مايكل هارت، الذي أول مقال فيه بعنوان: محمد؛ الرجل الأكثر تأثيرا في العالم. وفي هذا المقال أعلن هذا العالِم أن رسول الله

محمد ﷺ هو الشخصية الأكثر تأثيرا من بين بلايين الرجال الذين ولدوا في هذا العالم. وقد خلع على رسول الله ﷺ لقب "الشخصية الأفضل" من بين عظماء العالم، والشخصية التي تركت أكبر تأثير في تاريخ البشرية؛ تأثيرا صبغ حياة الناس بصبغة فريدة وقولب العالم قولبةً خاصة. فكتب:

"إن اختياري محمدا على رأس قائمة الأشخاص الأكثر تأثيرا في العالم قد يفاجئ بعض القراء وقد يتساءل عن ذلك آخرون، ولكنه كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا عظيما على الصعيد الديني وأصبح قائدا سياسا مؤثرا جدا. واليوم بعد مرور ثلاثة عشر قرنا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويا ومنتشرا. إن غالبية شخصيات هذا الكتاب أتيحت لها الفرصة أن تولد وتترعرع في أوساط حضارية عالية الثقافة أو في أمم رائدة سياسيا. لكن محمدا ولد في عام 570م في مدينة مكة في جنوب الجزيرة العربية التي كانت منطقة متخلفة في العالم بعيدة عن مراكز التجارة والفن والعلم. وأصبح يتيما في عمر السادسة وتربى في أوساط متواضعة. تذكر لنا الأدبيات الإسلامية أنه كان أميا... معظم العرب في ذلك الوقت كانوا مشركين يؤمنون بآلهة متعددة... عُرفت القبائل العربية في الجزيرة العربية بحرابتها ولكن أعدادهم كانت قليلة وشابهم التشتت والحروب الداخلية، وما كانوا ليقارَنوا بجيوش الممالك الجرارة التي كانت في المناطق الزراعية في الشمال. ولكن محمدا وحدّهم للمرة الأولى في التاريخ وبث فيهم الإيمان القوي بالله الواحد الحق، لتنطلق هذه الجيوش العربية الصغيرة في سلسلة من أدهش الفتوحات في تاريخ البشرية... ما كان العرب ليعدلوا أعداءهم من حيث العدد... ولكن... في صراعات متفرقة على مدار قرن استطاعت قبائل البداوة هذه، بتأثير كلام الرسول، أن تقيم إمبراطورية امتدت من حدود الهند إلى المحيط الأطلسي، وكانت أكبر إمبراطورية شهدها العالم... فأنى بعد ذلك للمرء أن يقيَّم تأثير محمد على تاريخ البشرية؟ كما الأديان الأخرى فإن الإسلام له تأثير كبير على حياة أتباعه؛ ولذلك فإن مؤسسي الأديان الكبرى في العالم يبرزون في هذا الكتاب. ولما كان عدد المسيحيين يقارب ضعفيْ المسلمين في العالم فقد يبدو للوهلة الأولى غريبا أن يكون محمدا أعلى تصنيفا من عيسى، ولكن هناك سببان رئيسان لهذا القرار. الأول، أن محمدا قد لعب دورا أكبر بكثير في تطور الإسلام مما لعبه عيسى في تطور المسيحية... وبالإضافة إلى

ذلك فإن محمدا -على عكس عيسى- كان قائدا دنيويا ودينيا أيضا. وبالحقيقة لكونه القوة المحركة للفتوحات العربية فإنه يحتل بجدارة مركز القائد السياسي الأكثر تأثيرا على مر الأزمان... وفي العديد من الأحداث التاريخية قد يقول المرء بأنها كانت واقعة لا محالة وأنها كانت ستحدث ولو بغياب القيادة السياسية الخاصة التي قادتها... ولكن ذلك لا ينطبق على الفتوحات العربية. لم يحدث مثيل ذلك قبل محمد، وما من سبب يدفع للظن بأن الفتوحات كانت لتتم من دونه."[43]

29. صاحب المقالة في الموسوعة البريطانية:

كتب: "إن محمدا أنجح الأنبياء والشخصيات الدينية."

30. كتب مؤسس الجماعة الأحمدية سيدنا ميرزا غلام أحمد القادياني المسيح الموعود عليه السلام في مدح النبي محمد ﷺ:

"إن ذلك النور الأجلى الذي وُهب للإنسان، أعني للإنسان الكامل، لم يكن في الملائكة، ولا في النجوم، ولا في القمر، ولا في الشمس، ولم يكن في بحار الأرض ولا أنهارِها، ولا في اللَّعْلِ، ولا في الياقوت، ولا في الزمرّد، ولا في الماس، ولا في اللؤلؤ؛ باختصار، لم يكن ذلك النور في أي شيء من الأرض أو السماء، وإنما كان في إنسان، أي ذلك الإنسان الكامل الذي كان سيدنا ومولانا، سيد الأنبياء، سيد الأحياء محمد المصطفى ﷺ."[44]

"إنني دائما أنظر بعين الإعجاب إلى هذا النبي العربي الذي اسمه محمد (عليه ألف ألف صلاة وسلام). ما أرفعَ شأنَه! لا يمكن إدراك سمو مقامه العالي، وليس بوسع إنسان تقدير تأثيره القدسي. الأسف، أن الدنيا لم تقدر مكانته حق قدرها. إنه هو البطل الوحيد الذي أعاد التوحيد إلى الدنيا بعد أن غاب عنها. لقد أحبَّ الله حبًّا جمًّا، وذابت نفسه إلى أقصى الحدود شفقةً على خلق الله، لذلك فإن الله العالِم بسريرته فضّله على الأنبياء كلهم، وعلى الأولين والآخرين جميعا، وحقق له في حياته كل ما أراد. هو المنبع لكل فيض. ومن ادعى بأية فضيلة من غير الاعتراف بأنه قد نالها بواسطة النبي ﷺ، فليس هو بإنسان، وإنما هو ذرية الشيطان؛ لأنه ﷺ قد أُعطي مفتاحًا لكل خير وكنزا لكل معرفة. إن الذي لا ينال عن طريقه فهو محروم أزلي."[45]

" الحادث العجيب الذي جرى في برية العرب؛ حيث بعث مئات الألوف من الموتى في أيام معدودات، وتحلّى بالصبغة الإلهية أولئك الذين فسدت أخلاقهم على مرّ الأجيال، وأصبح العُمي يبصرون، والبكم بالمعارف الإلهية ينطقون، وحدث في العالم دفعة واحدة انقلاب لم تره عين، ولم تسمع به أذن قط، أتعرفون كيف حدث ذلك؟ إن هو إلا نتيجة تلك الدعوات التي دعا بها في جوف ليال حالكة عبدٌ متفانٍ في الله، هي التي أحدثت ضجة في الدنيا، وأظهرت العجائب التي يبدو صدورها مستحيلا على يد ذلك الأمي ضعيف الحيلة. اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله بعدد همه وغمه وحزنه لهذه الأمة، وأنزل عليه أنوار رحمتك إلى الأبد".[46]

"عندما ننظر بعين الإنصاف نجد نبيا عظيما واحدا حائزا الدرجة العليا في سلسلة النبوة كلها ونبيا حيا واحدا وأحبَّ الأنبياء إلى الله تعالى، بطلا واحدا، أي سيد الأنبياء وفخر الرسل وتاج المرسلين الذي اسمه محمد المصطفى وأحمد المجتبى ﷺ، الذي لو سار أحد في ظله لعشرة أيام لنال نورا ما كان ليُنال إلى ألف سنة."[47]

"وعندي أنه لو لم يبعث نبينا ﷺ في ذلك العصر، وسعى الأنبياء السابقون كلهم جميعا لأن ينجزوا مجتمعين ما أنجزه ﷺ وحده من أعمال وما قام به من إصلاح، لفشلوا فى ذلك البتة، إذ لم يكن عندهم ذلك القلب والقوة اللذان قد وُهبهما نبينا ﷺ.... فقد أنجز نبينا الكريم ﷺ ما لم يقدر الآخرون على إنجازه جماعات ووُحْداناً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء."[48]

"إن الإنسان الذي أبدى بذاته وصفاته وأفعاله وأعماله وبقواه الروحانية المقدسة والمتدفقة كالنهر نموذجَ الكمال التام علما وعملا وصدقا وثباتا وسُميَّ إنسانا كاملا هو ليس والله المسيح ابن مريم... لا شك أنه كان نبيا صادقا وكان من المقرّبين لدى الله سبحانه وتعالى، بل الذي كان أكمل إنسان وأكمل نبيّ، وجاء ببركات كاملة، فظهرت القيامة الأولى في الدنيا بسبب البعث والحشر الروحانيين، وببعثته عاد العالم الميّت بأسره إلى الحياة، فهو النبي المبارك سيدنا خاتم الأنبياء، إمام الأصفياء، ختمُ المرسلين فخرُ النبيين جناب محمد المصطفى ﷺ. فيا ربنا الحبيب أنزلْ على هذا النبي الحبيب رحمة وبركة لم تنزلهما على أحد منذ بدء الخليقة."[49]

قال المسيح الموعود عليه السلام:

وإن إمـــامي ســـيد الرســل أحمـــدُ	رضـــيناه متبوعـــا وربّي ينظُـــرُ
ولا شـــك أن محمـــدا شمـــس الهـــدى	إليـــه رغِبْنـــا مـــؤمنين فنشـــكُرُ

لــــه درجـــات فـــوق كـــل مـــدارجٍ   لــــه لمعـــاتٌ لا يليهـــا تصـــوُّرُ•

وقال أيضا:

لــــه رتبــــةٌ في الأنبيـــاء رفيعـــةٌ   فطـــوبى لقـــومٍ طـــاوعوه وخَـــيَّروا

وعســـكرُه في كـــلّ حـــرب مبـــارزٌ   إذا مـــا التقـــي الجمعـــان فـــانظُرْ وننظُـــرُ•

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

• حمامة البشرى؛ ميرزا غلام أحمد الَّلِيِّ، ص 206.

• كَرامَات الصَّادقين؛ ميرزا غلام أحمد الَّلِيِّ، ص 51.

المراجع والمصادر

[1] الكتاب المقدس العربية؛ نشيد الأنشاد؛ 5: 10، طبعة دار الكتاب المقدس مصر. The Holy Bible; p 597, Holman Bible Publisher Nashville, Tennessee.

[2] الكتاب المقدس العربية؛ نشيد الأنشاد؛ 5: 16، طبعة دار الكتاب المقدس مصر. Biblia Hebraica Stuttgartensia; p1332, published by Deutsche Bibelgesellshaft.

[3] تفسير حقي (روح البيان)؛ الجزء 3، ص 89، طبعة القاهرة. شرح الشفا لنور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ)؛ الجزء 1، ص 13، طبعة بيروت.

[4] كنز العمال؛ الجزء 12، ص 44، طبعة مصر.

[5] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 3، ص 456، طبعة القاهرة. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 2، ص 398، طبعة القاهرة. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 398، طبعة القاهرة.

[6] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 1، ص 176، طبعة بيروت.

[7] سنن الترمذي؛ كتاب تفسير القرآن، باب 18 ومن سورة بني إسرائيل. مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 5، ص 137، طبعة القاهرة.

[8] صحيح مسلم؛ كتاب الايمان، باب فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

[9] صحيح البخاري؛ كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

[10] دلائل النبوة للبيهقي؛ الجزء 4، ص 500، طبعة بيروت.

[11] مسند أحمد بن حنبل؛ الجزء 1، ص 201، طبعة القاهرة.

[12] The History of the Decline and Fall of the Roman Empire; Edward Gibbon, pp.207, Dent & Sons Ltd, 1931.

[13] Napoleon and Islam; Christian Cherfils, p.112, Utusan Publications & Distributors Sdn.Bhd., 1999.

[14] Heroes and Hero Worship; Carlyle Thomas. Second Chapter (The Hero as a Prophet). Pp40, Oxford 1965. University Press,

[15] History of the Intellectual Development of Europe; Draper John, Volume I, Chapter XI, pp. 329-32. Harper & Brothers, 1875.

[16] Histoire de la Turquie; Lamartine, vol 2, pp:276. Paris 1855.

[17] Histoire de la Turquie; Lamartine, vol 2, pp:276-277. Paris 1855.

[18] Mohammad and Mohammedanism; Smith, R. Bosworth, pp.14-15. London, 1889 (Secon Ed).

[19] The Outline of History; H.G, Wells, pp.493. Garden City books, 1956.

[20] The Spread of Islam in the World; Thomas Walker Arnold, pp. 34 & 44, Goodword Books, New Delhi, India, 2003.

[21] History of the Moorish Empire in Europe; S.P. Scott, Vol.1, p.93,126, J.B Lippincott Company, Philadelphian & London, 1904.

[22] سوانح حياة حضرة محمد ﷺ صاحب مؤسس اسلام، لشردهى باركاش ديفجي (بالأردية)؛ ص 3 و 4، طبعة كاشى رام پريس لاهور 1923.

[23] سيرة النبي ﷺ للعلامة سيد سليمان الندوي(بالأردية)؛ الجزء، ص400، طبعة اعظم غره، الهند 1951۔

[24] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 509.513. New edition 1877, London.

[25] Life of Mahomet; Sir William Muir, Vol.1, page 509.513. New edition 1877, London.

[26] Arabian Society at the time of Muhammad; Pringle Kennedy, page 8-10,18-21. Calcutta and Simla, Thacker, Spink & Co. 1926.

[27] Glimpses of World History; Jawaharlal Nehru, p. 142-145. The John Day Company, 1942.

[28] Mohammad and Teachings of Quran; Tara Chand, p. VIII-IX. Shaikh Muhammad Ashraf, Lahore, 1945.

[29] Muhammad and Teachings of Quran; John Davenport, p.127, Sh. Muhammad Ashraf, 1964.

[30] Muhammad the Educator; Gulick Jr., Robert L, p. 2, 47, 103-04, 104. Institute of Islamic Culture, Lahore, Pakistan, 1975.

[31] The Historical Role of Islam; Roy, p. 4-6,34. M N, Renaissance Publishers Private Ltd., Calcutta, India, 1958.

[32] Islam the Misunderstood Religion; Michener, James A, Readers Digest. May 1955, p 77-86.

[33] World Faith; Cranston, Ruth, p. 139-139, 149, 157 & 163. Harper & Brothers, New York, U.S.A. 1949.

[34] Muhammad: Prophet and Statesman; Watt, W. Montgomery, p. 210-237. Oxford University Press, 1974.

[35] Muhammad the Prophet of Allah; Hitti, Philip K, p. 119-122, History of the Arabs, Chapter VIII. London: Macmillan & Co., 1960.

[36] An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar, p.24,68, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

[37] An interpretation of Islam; Laura Veccia Vaglieri, translated in Urdu by Sheikh Muhammad Ahmad Mazhar, p.24,68, The American Fazl Mosque, Washington, 1958.

.

[38] A Biography of the Prophet; Armstrong, Karen, p. 164,266, Victor Gollancz, 1996.

[39] A Biography of the Prophet; Armstrong, Karen, p. 11,12,44, Victor Gollancz, 1996.

[40] **پیغمبر اسلام ایک عیسائی محقق کی نظر میں** (بالأردية)(رسول الإسلام ﷺ عند غير المسلمين) ص156، مطبعة كلكتة.

[41] The Prophet Mohammad;Prof.K.S. Ramakrishna Rao, Re-printed from "Islam and Modern age", Hydrabad, March 1978, p. 1-14.

[42] Science in Early Islamic Cultures; Beshore, George, p. 8, Grolier Publishing, 1998.

[43] A Ranking of the Most Influential Persons In History: The 100; Harts Michael H, p. 3-10, Carol Publishing Group, 1978.

[44] مرآة كمالات الإسلام؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص103.

[45] حقيقة الوحي؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص103.

[46] بركات الدعاء؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص13-14.

[47] السراج المنير؛ ميرزا غلام أحمد عليه السلام، ص88.

[48] الملفوظات؛ ميرزا غلام أحمد الـ، المجلد الثاني، ص 59-60، طبعة 2023م.

[49] إتمام الحجة؛ ميرزا غلام أحمد ، ص94-95.